AYMAN AL OTOOM

رواية

الطبعة 6

ايمن العتوم

طريق جهنم

عصير الكتب

مِن جهنّمَ جِئت ، وإلى جهنّم أعود . .

[العقيد]

لم أكنْ بطلاً وحـــــدي . . . ولم أعِشْ هذه المِحنة بمفردي ، كان هنالك الآلاف ممّن واجهوا هذه الآلام مثلما واجَهتُها ، وعانَوا ربّما أكثرَ مِمّا عانَيت ، وما سَجّلتُ هنا إلاّ ما سمعتُ ورأيتُ ، ولا أحدَ يدّعي امتلاك الحقيقة المُطلَقة . ولذا ، فهذه دعوةٌ للآخرين الّذين شاركونا المنافي أنْ يصنعوا ما صنعتُ ؛ فإنّما اليمُّ من القطرة ، والجِبال من الحصى .

أمّا الّذين رفرفتْ أرواحُهم خارج أسوار السّجون ، وحلّقتْ بعيدًا في السّماء قبل أنْ تقول لأهل الدّنيا ما كانتْ تودّ أن تقوله ، فلربّما يومًا ما ، يوم الفزع الأكبر سيقولون لله كل شيء ، وسيقفون أمام الجَمْع ليكونوا شهودًا على ما مَرّ بنا مِمّا لا يُمكن تخيّله ، أو الحَدْسُ به .

علي العكرمي

(١)
العقيد

أصلح بدلته العسكريّة أمام المرآة ، هزّ كتفيه ، رأى النّياشين تملؤهما كما تملأ النّجومُ صفحة السّماء ، اللّون الكاكيّ للبدلة أعطاه ثقة الأيّام الخوالي حينَ كان في العشرين من عمره . نظرَ عميقًا في عينَيه ، هتف : «لقد تغيّرتَ كثيرًا» . ضرب بكفّه اليُمنى على صدره جهة اليسار ، وتابع : «أمّا أنتَ فما زلتَ كما عَهِدْتُكَ ؛ لن تتغيّر أبدًا . الدُّنيا جَمْرٌ وتمر ، وأنا اخترتُ الجمر طواعية» . تلمّسَ الشّعرات النّابتات على ذقنه في الأسفل ، ارتفع بصرُه إلى الأعلى قليلاً ، إلى فمه الّذي يُشبه فم السمكة مبعوجًا كما لو أنّ شللاً ما قد أصابه ، ثُمّ إلى شعراتِ شاربِه الّتي تتناثر فوقَ شفتَيه كحبّاتِ السّمسم السّوداء . شكّ في قدرته على الاستمرار في النّظر في عينَيه ، جال ببصره يسار المرآة ، رأى (منصور) ، و(المعتصم) ، و(يونس) يجلسون كتماثيل شمع بانتظار أوامره . تنهّد طويلاً . خفض بصره ، ذهبَ بخياله بعيدًا . رأى كلّ شيءٍ . النّهايات تبدو قاصمة ، «هكذا قَدَرُ العُظماء» فكّر ، ثُمّ تابع : «المصائب الكبيرة تختار أكفاءَها» . ابتسمَ ابتسامةً خفيفةً ، رفع رأسه من جديدٍ . نظر إلى الثّلاثة الواجمين خلفه ، ظلّتْ هياكلهم على هيئتها دون أنْ تُحرّك ساكِنًا . غاظتْه هذه البلادة الّتي ترتسم على وجوههم . سأل نفسه : «هل أنا من طينة هؤلاء؟» . جاءه الجواب من أعماقه سريعًا : «بالطّبع لا» . أدركَ أنّه مُختلفٌ ، واستثنائيّ ، ويُحلّق

في فضاءٍ أنّى لبشريّ أنْ يُدركه ، فكّر : «أمِنْ أجلِ أنّه لا شبيهَ لي يرونني معتوهًا» . «بلى» أجاب صوتُه الدّاخليّ . ثُمّ سمعه يقول : «الّذين لا يفهمونَ عبقريّتك يُسرِعون إلى نعتِكَ بالجنون» ، هَمَس هذه المرّة وهو يشدّ على أسنانه : «أنا سيّد الصّحراء ، ولن تهزمني الأفاعي الصّغيرة . لقد اعتدتُ على سَحقِها منذ طُفولتي» . اهتزّتْ ترقُوته فلاحظَ أنّه قد هَرِمَ كثيرًا في السنوات الخمس الأخيرة ، «مثل أبي الهول» قال . «لكنْ لا أحدَ يستطيع أنْ يجدع أنفي . لا عاديات الزّمان ، ولا تصاريف القدر ، ولا الله . أنا مَنْ خلقَ ليبيا وأنا سوفَ أُفنيها» . ارتجفَ الهواء الّذي حوله . لكنّه أشار بكلتا يدَيه كما لو كان يُهدِّئه : «خالِدان نحن ، والموتُ للجبناء» . عاودَتْه ذكريات الصّحراء ، عاوده المشي حافِيًا على الرّمال اللاهبة ، وصوتُ خاله ، ورُغاء الإبل ، وعزيف الرّيح ، وصدره العاري ، وثيابه الرّثّة ، وشَعره الأشعث ، وعطشه الدّائم ، ولسانُه المدلوق من فمه يستجدي الهواء قطرةَ ماءٍ عزيزة . «الآلهة تَخرج من الصّحراء» طمأنَ نفسه . «لكنّها في طريقها في التّخلّص من بشريّتها الخاذلة عليها أنْ تتعذّب كثيرًا . مَنْ يُدركُ كم صنمٍ حطّمتُ وأنا أشبّ عن الطّوق ، كم جبّارٍ قصمتُ وأنا أناضل من أجلِ وَحدة بلادي . وكم مؤامرةٍ أجهضتُ وأنا أحافظُ على العرش الّذي عليه استويت!!» . قطعَ عليه سيلَ ذكرياته صوتُ ابنه قادمًا من خلفه : «مولاي ؛ علينا أنْ نسير إلى سِرت هذه اللّيلة» . هتفَ دون أنْ يُدير رأسه ولا حتّى يميل بكتفه : «دَع يونس يتكلّم ، إنّه ثعلب الصّحراء ، أنتَ لستَ أكثرَ من ضَبّ» . قال يونس : «معتصم على حقّ» . تجاهَلَهما كما لو أنّهما غيرُ موجودَين . غاصَ في الصّحراء هذه المرّة أكثر ، تذكّر النّار الّتي أشعلها ذات ليلٍ صقيعيّ ، كان وهجها يُلقِي

بظِلاله على وجهه الأمرد وهو عاقدٌ ساقَيه بإحدى يدَيه ، ويعبثُ بالنّار بيده الأخرى . رفع رأسه ونظر في البعيد ، في الأفق ، في السّماء الّتي لا نهايةَ لها ، في الأحلام الّتي تتشكلّ للتّوّ . كان طِفلاً لم يبلغ الثّامنة ، وولدًا يروق له أنْ يُصغي إلى أغاني رعاة الإبل بعدَ يوم رَعَوِيٍّ طويلٍ وشاقّ ، ومنسيًا لا يعرفُ أباه ، ومنبوذًا لا أحدَ يحنو عليه غير خاله ، ومُهمَلاً كأنّه غير موجود ، ووحيدًا لا صديقَ له إلاّ أحلامه الّتي لا تكفّ عن التّحليق في فضاءات عقله . رأى النّجوم تبتسم له ، وكواكب لم تظهر من قبلُ لأحدٍ تتراقصُ أمام ناظِرَيه ، ركّز نظره في نجمةٍ بارزةٍ ، لم يكن يعرف اسمها ، تخيّل نفسَه يحطّ فوقَها ، وينظر إلى البشرِ من هناك ، بدتْ له الأرضُ صغيرةً وتافهة ، تخيّل قُطعانًا من البشر تذرعها بسرعة كما لو كانتْ أسرابًا من النّمل المذعور ، مدّ قدمَه فسحقَها ، هتف : «مَنْ لا يستحقّ العيش فعليه أنْ يُسحَق» .

المرآة تُغطّي الحائط الّذي يقف أمامه كامِلاً ، في الخلف يبدو الأثاث متناثرًا في أرجاء الغرفة الواسعة . الثّلاثة ما زالوا يُحملِقون في قائدهم . في الخارج العزيزيّة تحوّلت إلى غرف عمليّات ، لا أحدَ يهدأ . التّعليمات العسكريّة تصكّ الآذان ، الأوامر باستِخدام الدّبّابات والطّائرات تتطاير بعصبيّة من أفواه القادة العسكريّين . انتقل هذا الاضطراب إلى هؤلاء الثّلاثة القابعين ينتظرون ، كانتْ وجوههم شمعيّة لا تكادُ تُظهِر شيئًا ، لكنْ في أعماق كلّ واحدٍ منهم كانت هناك نيران تشبّ ، وبراكين تتفجّر . نظر في المرآة من جديد : «لن يهزمني أحدٌ ، الآلهة لا تُهزَم . لئن أشرف التّيجاني في تاريخه على طرابلس ورأى بياضَها مع شعاع الشّمس يكاد يُعمي الأبصار فعرفَ لِمَ سُمّيت بالمدينة البيضاء ، إنّ سيفي الّذي سينزل على رِقاب الخونة ،

سيُسيل الدّم في أرجائها حتّى يُلطّخ جدران بيوتها ، وأسوارَ مدارسها ، ومآذن مساجدها ، فلا يُسمّونها حينئذٍ إلاّ المدينة الحمراء . . . مَنْ يجرؤ أنْ يقف في وجه الموج العالي؟! مَنْ يستطيع أنْ يتحدّى القدر الماحق؟! أنا الموجُ والموتُ ، أبتلع في طريقي كلّ أحد . أيّتها القُطعان السّائمة ويلٌ لك إنْ تجرأتِ على السّيّد الأبديّ ، لئن واجهتِني بهتاف ليس أكثر من ثغاءٍ لنعاجٍ مريضة ، إنّني سأواجهك بقطيع من الذّئاب عُواؤُها تنخلع له الأفئدة ، ونظراتها الجائعة إلى التِهام ضحاياها تنفطر لها القلوب» .

سكتتْ كلاب الذّكريات قليلاً . نظر في الزّاوية اليُسرى من جديد ، رأى الهياكل الثّلاثة ما زالتْ تقبع في المكان . شعر برغبة جامحة في أنْ يعضّ كلّ واحدٍ منهم في عنقه . لكنّه سمعَ هتافًا قادمًا من بعيد ، من سنواتٍ سحيقة ، من قبل أنْ يُصبح هو السّيّد الأعلى ، كان النّاس يهتفون في الشّوارع : «حكم إبليس ولا حُكم إدريس» . ابتسم ابتسامةً واسعةً ، لم يبتسمْ مثلَها من قبلُ ، حتّى لقد كاد يسمع صوتَ ضَحِكته بنفسه . اهتزّ كتفاه على وَقْع الهُتاف ، لقد كان الشّعب آنئذٍ يسبق الشّعبَ اليومَ بمراحل . سأل يونس : «هل كلّ شيءٍ جاهز؟» . هزّ رأسه بالإيجاب . صرخ به : «قفْ عندما تكلّم قائدك» . وثبَ من مكانه كأنّ عقربًا لدغتْه ، أدّى التّحيّة العسكريّة ، وهتف : «كلّ شيء جاهز يا سيّدي» . صرخ به العقيد بصورةٍ أعظم من سابِقتها : «أَقْعِ أيّها الكلب . لم أعدْ أثقُ في أحد» . تلقّى أقدمُ صديقٍ له أيّام الكلّيّة الحربيّة الإهانة بصمت . إنّه أكبر منه ، وهو أكثر من يعرف العقيد ، «إنّ الوضع لا يُحتَمل ، أبو ليبيا كلّها يُواجَه بعقوقٍ من أبنائه ، ولذلك يبدو عصبيًا» . اعتذر عنه في نفسه . لكنّ صوت العقيد بعد تلك الشّتيمة تحوّل إلى هرير ، وخفض رأسه كما لو كان يريد أنْ

يعتذر ليونس ، أو يقول له إنّ الكلمات الّتي قلتُها لك لم أكنْ أعنيها . لكنّ ألمَ نزْع السّهم أشدّ من ألم نفاذه ، لذلك سكت . جالَ ببصره في المرآة ، كلّ شيءٍ يُذكّره بأبوّته للوطن ، لقد ضحّى كما لم يُضحّ أيٌّ من هؤلاء الّذين يُسمّون أنفسهم زعماء العرب . لقد واجه مئة وسبعين طائرة أمريكيّة على باب العزيزيّة وحده ، ونجا من الموت بأعجوبة ، ذلك أنّ الخالدين لا يموتون ، لقد قصفتْه أمريكا أمام سمع العالَم وبصره ولم يجرؤ أيّ حاكم عربيّ أنْ يقف إلى جانبه ولو بكلمةٍ واحدةٍ . هو يعرف أنّهم جوقة من الجبناء ، من المهزومين ، من المُتبجّحين الفارغين ، من الّذين يُمارسون دور الذّيل الأعوج الّذي يهشّ على مؤخّرة الكلب كي تبرد ، مجموعة من الأصنام يطوف حولها عابِدوها دون وعي . ووحده الّذي ترك الزّعامة لشعبه ، وجعل كعبتهم الّتي يطوفون حولَها هي حُبّ الوطن ، والرّمز ، والأسطورة ، والخلود . وحده الّذي قال للغرب الكافر ، وأمريكا الصّليبيّة : لا ، في حين أنّهم جميعًا قالوا لها : نعم ، وأهلاً وسهلاً ومرحبًا ، ليس ذلك فحسب ، بل جَثَوا على رُكبِهم ورفعوا مُؤخّراتهم من أجل أنْ تمتطيهم ، وتُنتجَ ولدًا سِفاحًا هو الذّلّ والخنوع والانكسار . لا يزال يتذكّر أنّ (بشّار) ضحك ، و(عبّاس) ضحك ، وعبد الله ضحك ، وزين العابدين ضحك ، وبقيّة الحمقى ضحكوا ، حينَ قال لهم بعد موت صدّام : «الدّور عليكم» . أليستْ هذه نبوءة ، ألا ترفعه هذه إلى مرتبة الأنبياء ، أو أؤلئك الّذين انكشفتْ لهم الحجب ، وانهتكتْ أمامهم أستار الغيب . وماذا حدث؟ حدث ما قاله بالحرف . متى سيكفّ هؤلاء عن عمالتهم لأمريكا الصّليبيّة الحاقدة . شعر بالعطش . «أريدُ أنْ أشرب» لكنْ أيّ ماءٍ يُرويه ، وقد صار كلّ ماء بلاده مالِحًا!! أيّ ماءٍ يُرويه وقد تنكّر له الشّعب الّذي ضَحّى بحياته

من أجله!! أيّ ماء يرويه وقد أفنى عمره ليصنع من كلّ فرد من أفراد شعبه عظيمًا ، لكنّهم أبَوا إلاّ أنْ يظلّوا قبليّين همجيّين يقتل بعضُهم بعضًا ، ولا يُتقنون شيئًا سِوى حياكة المؤامرات ضِدّي . ولا يشغل بالهم سِوى إسقاطي ، المجانين لا يُدركون أنّ العالي لا يسقط . الأبديّ لا ينتهي . النّور لا ينفد . العظمة لا تتبدّد . الأوّل لا قبله ، والآخر لا بعده ، والظّاهر لا يخفى . والشّاهدُ لا يغيب . أنا لستُ زعيمًا أيّها الحمقى ، لستُ ملكا ولا رئيسًا ، ولا أميرًا ، ولا شيخًا ، ولا سُلطانًا ، ولا أيًا من هذه الألقاب التّافهة ، أنا قائد ثورة ، والثّورة لا تموت ، أنا طائر العنقاء ، والعنقاء تنهضُ من رمادها حيّة . أنا النّجوم الهادية ، والنّجوم جاءتْ قبل البشر ، وشهدت حياةَ البشر كلّها ، وستبقى بعد أنْ يفنى البشر جميعًا . ما نطقتُ إلاّ عن وحيٍ ، ولا أمرتُ إلاّ عن حكمة ، ولا قضيتُ إلاّ عن عدل ، ولا رمَيتُ إلاّ عن صواب ، ولا خطوتُ إلاّ إلى مَجْد ، فأنّى لي أنْ أفنى؟! مَنْ ظنّ أنّ بقائي مرتبطٌ بجسدي ضَلّ . ومنْ ظنّ أنّ جسدي لي تاه ؛ إنّما الجسدُ قشرة ، أنا روحٌ من الله لا يُنكرها إلاّ جاحد . ستُدركون إن انحلّت القشرة عن الرّوح معنى ما أقول ، أعرفُ أنّكم لن تفهموا ما أعني ، لأنّ ذلك أكبر من أن يعيه عقل ، لكنّكم ستعيشون ما أقول ، ربّما ليسَ أنتم فحسب ، بل أبناؤكم ، وأبناءُ أبنائكم ، وأبنائهم إلى يوم الدّين . أيّها المُعذّبون أنا خلاصكم ، أيّها الثائرون أنا منارتكم ، أيّهَا المنبوذون أنا بيتُكم ، أيّها التّائهون أنا دليلكم ، ها أنذا أقف على رحبٍ من الأرض في البلد الّذي أطلعتْ مُعجزتي أمدّ لكم ذِراعَيّ كما مدّهما المسيح لقاتليه : أنْ هلمّوا فابكوا سوء فَعلتكم على صَدْري ، وامسحوا سودَ خطاياكم بثوبي ، وناموا في أحضان إلهكم قليلاً لكي تنعموا بالدّفء ، واعترفوا

بضلالكم تحت قدمَي العاليتَين العاريتَين لكي تعودوا أنقياء مِمّا اقترفتم . خفتَ صوتُه الدّاخليّ لصالح نظرةٍ إلى أفق آخر .

أطراف المرآة مُذهّبة ، زركشاتٌ بديعة الصّنع تحتلّ الزّوايا . وتماثيل صغيرة تستقرّ متباعدةً قليلاً على الحوافّ الأربع بشكلٍ أنيق ، تماثيل أُسودٍ ونمورٍ وذئابٍ وزرافاتٍ وغزلان ، وثيران ، وفِيَلة ، يبدو أنّها نُحتت قبل عشرة آلاف سنة منذ فجر التّاريخ . في منتصف الحرف الأعلى كان هناك تمثالٌ يعرفه أهل الخِبرة ، إنّه تمثال (خوفو) ، منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ، تزوّج خوفو عروسًا ليبيّة لكي يأمن هجمات أهلها عليه ، ولكي يُصالح التّراب اللّيبيّ الّذي تَلِدُ كلُّ ذرّةٍ فيه مُقاتلاً . «حتّى ذلك الّذي قال أنا ربّكم الأعلى بعثَ إلى الطّينة الّتي خُلِقتُ منها يطلب الأمان» حدّث نفسه ، ثُمّ تابع : «أيُعقَل أنْ أستسلم لمجموعة من الغوغاء!!» . أحسّ – بعد هذه العبارة – بمجموعةٍ من الفِئران تتسلّق قدمَيه ، نظر إليها من عليائه باشمئزاز ، وأحسّ أنّه يسحقها واحدًا بعدَ الآخَر . قال له معتصم : «أنا سأسبقكم مولاي» . لم يردّ ، ظلّ مُعطِيًا لهم ظهره أمام المرآة ، صمت . صمتتْ حتّى خيالاته ، مدّ يده إلى الكأس البلّوريّة الّتي أُحضِرت إليه للتّوّ ، كرع ما فيها دفعةً واحدة . فكّر : «حتى الآلهة يُصيبها العطش» .

(٢)
سِفْرُ الجُرح

لم أكنْ أحلمُ بأكثرَ من حياة طبيعيّة ، كأيّ شاب في بلاد الله ؛ بلاد الله الواسعة أو الضّائعة . أتخرّج في الجامعة بالتّخصّص الّذي أريد ، وأحبّ مثل أيّ عاشق له قلبٌ طريّ ، ويختارني القدر للعيش مع زوجة يجد فيها المرء نفسه التّائهة ، وأُكوّن أسرةً في بيت يحنو على ساكنيه . غير أنّ كلّ شيء يجري غالبًا على غير ما تريد . كأنّ طريقًا تسلكه إلى غايتك ما إنْ تَسِرْ فيه بضع خطوات حتّى ينفتح فجأةً ليوقعك في حفرة الخيبة . الخيبة الّتي تندقّ لها عنقك ، وتنكسر أمامها كفخّارة جوفاء . لم يكنْ من أحد يعلم ما تُخبّئه الأيّام ، ولم أكنْ لأفكّرَ في ذلك ، ولذلك عشتُ خليّ البال . لكنّ الحبّ كان يلعب بروحي ، أتعرفون كيفَ يلعب الحُبّ بالرّوح؟! كان القلب يتشرّب العشق ، توقٌ ما إلى حبيبة غامضة تسقط كهديّة من السّماء لعاشق حالم مثلي ظلّ يُلاحقني . لكنّ الهدايا لا تأتي من السّماء ، والسّماء لم تمطر في ذلك العام ، بل لم تمطر طَوال ثلاثين عامًا لاحقة ، حتّى شاب الفؤاد قبل أنْ يشيب الرأس ، واشتعلت الرّوح حزنًا ، وغزت الجسدَ ألفُ طعنة من ألفِ أسًى . ورُمينا نحن الحالمين كجِيَف في قعرِ مُظلمة لثلاثة عقود لم نر فيها النّور إلاّ بالمقدار الّذي يُحافظ على نور أعيننا من أنْ ينطفئ ، وإنْ كان كلّ شيء فينا طَوال هذه العقود الثلاثة قد انطفأ حقًا ، واستحال إلى رماد ملأ الأفواه ، ودُفِنّا فيه كأنّنا لم نكنْ بشرًا يذرعون

الخُطا في الطّرقات، ويقطفون الورود من الأحواض، ويتصايحون مَرِحين في الزّواريب، ويلعبون في الحارات بكُبّة الصّوف الّتي حولّتْها أمُّ أحدنا إلى كرةٍ لكي نملأ بها أوقات فراغنا، كأنّنا لم نكنْ فتيانًا يزورهم الهُيام ويكتبون على الحيطان عبارات الغزل ببنت الجيران، ولا يخطّون في دفاترهم بعضَ خربشاتهم، لقد فقدْنا دون أنْ يكون لنا أدنى يد في ذلك كلَّ رغبةٍ في الرّحيق، وكلّ أملٍ في أنْ يكون لنا عالَمنا الطّبيعيّ كأيّ حالمين آخرين!!

أيّها العابرون على جسد ذكرياتي، أيّها الآتون إليّ لكي أقرأ لكم سِفْر الجُرح، وآيات الحُزن، أيّها الشّارِبون من دمِ وجعي، لقد آن أنْ أقول، إنّ الصّمتَ يعني الجُبنَ والكُفرَ بالنّسبة ليَ، وعليه فسأفيض بكلّ أوجاعي كما يفيض البحر بمائه، وسأتفجّر كما يتفجّر البركان بحممه، وسأتداعى من علياء حياتي المُهشّمة كما تتداعى الصّخور من قِمم الجبال. أنا الإنسانُ المذبوح، السّاعي إلى المعرفة، التّائق إلى الحِكمة، الّذي سافرَ إلى أكثرَ من بلد ليتعلّم قبل أنْ يُسجنَ إلى الأبد، ليقرأ على أهل الإدراك، وليجدَ فكرةً صالحةً يملأ بها رأسه في آخر المطاف. كانتْ بانتظاري حياةٌ لم أكنْ يومًا أتخيّل أنّني سأعيشها. وطريقٌ لم أكنْ أتخيّل أنّني سأسيرُها. نحن بوصلة الأقدار، تهبّ رياحها على أشرعة أعمارنا المُبحرة في أمواج الحياة المُتلاطمة فتلعب بنا كيفما تشاء. وفي النّهاية لا مهربَ من البوح. الكتمان يُعذّب، والبَوح يُريح. ولأنْ أبوحَ بقلبٍ مثقوبٍ خيرٌ من أنْ أظلّ صامتًا وكلّ يوم تتسرّب قطراتٌ من دمي خارجه، أخافُ أنْ أفقد كلّ دمائي قبل أنْ أقول كلّ ما أريد، لكنّني أدرك أنّ كلّ شيءٍ عنده بمقدار، ولا شيء يستحقّ الحزن، وكلّ طاغيةٍ إلى نهاية. نار الحقّ تحرقُ شجرَ الباطل.

والماء يُحيي ما مات منّي ، واليقين يُطفِئ نارَ القلب . وسأروي لكم .

في إبريل من عام ١٩٧٣ انتظرتُ دوري كالآخرين . لا شيء يمكن أنْ يُفلتَ من عقاب العقيد حينَ أعلنَ ثورته الثقافيّة الخاصّة به ، وألغى كلّ القوانين ، وبدا مُصمِّمًا على تطهير البلاد من المرضى والمُنحرفين على حدّ تعبيره . وهتفَ أمام الجماهير المحتشدة : «أيّها الشّعب العظيم مَزّقْ كلّ الكتب المستوردة . . أيّها الشّعب العظيم حَطّمْ كلّ المكتبات ودور الكُتُب الّتي لا ينبعثُ منها النّور الحقيقيّ الّذي يَهدي . . أيّها الشّعبُ العظيم أحرقْ ودمِّرْ كلّ المناهج الّتي لا تُعبّر عن الحقيقة ، المناهج الّتي تحشو أدمغتَنا حَشوًا بموادّ فارغة ، حَطّموا وأحرِقوا كلّ شيء» . لقد حَطّموا وأحرقوا كلّ شيءٍ بالفِعل!!

كان خطاب (زوارة) على حدود تونس في ذلك العام المقصلة الّتي آذنت بتطاير رقاب المثقّفين من كلّ المشارب . إنّه الخطاب الأشدّ بُغضًا في العيد الأشدّ حُبًّا إلى قلوب النّاس ، عيد المولد النّبويّ . دخل جماعةُ النّظام - من بَعده - إلى المكتبات ، ركلوا الكتب ، مزّقوا صفحات التّاريخ ، وداسُوا على مُقدّمة ابن خلدون ، ونَفْح الطِّيب ، وتاريخ الطّبريّ ، وتفسير القرطبيّ . . . وأكلوا هريسةً وشطّة على صُحُفِ المجد ، وبالوا على أشعار عمر بن أبي ربيعة ، وبَصَقوا على مقامات بديع الزّمان . . . ثُمّ سحبوا أصحاب هذه المكتبات ، وزجّوا بهم في القيعان . ذلك العام المشؤوم ، عام الثّورة الثّقافيّة البائسة ، كان بإمكانكَ أنْ ترى آلاف الكُتُب تتكوّم في السّاحات العامّة ، وحولها مجموعة من القرود البشريّة يرقصون ، وأحدهم يقفز كسحليّة ، وآخر يسكب البنزين على الكومة الّتي تضمّ خيرة الإنتاج الإنسانيّ العظيم ، وثالث يرمي بجذوةٍ ملتهبة ، فتشتعل النّيران في الكومة ، وتبدأ تنهش بخاصرة الكتب ، ثُمّ

تتغلغل إلى قلبها ، إلى أنْ تذوي بين يديها وهي تتلوّى تحت اللّهيب المُستعِر ، لم يكنْ من مشهدٍ يوازي هذه المُصيبة إلاّ مشهد حرق محاكم التّفتيش لكتب المسلمين في الأندلس ، وإلاّ إلقاء جيش التّتار الهمجيّ لملايين الكتب من مكتبة بغداد في نهر دجلة!! لقد أراد القائد أنْ يتحوّل إلى ماوتسي تونغ آخر ، لكنّه بدل أنْ تزدهر الكتب بين يدَيه راحتْ تموت ، وتنمحي ، وتتراجع في جُبّ الغياب دون عودة . لم يسلمْ أيّ صنف من الكتب من هذه الثّورة الثقافيّة الهمجيّة ، إنّها الفوضى الخَلاّقة الّتي سَعَى إلى إشاعتها بين النّاس ، لا كتب السّياسة ، ولا التّاريخ ، ولا الاقتصاد ، ولا القانون ، ولا الفِكر ، ولا حتّى كتب الحبّ أو الشّعر أو الغزَل . لقد أتت المحرقة الثّقافيّة على كلّ شيءٍ .

لقد أتاحت الثّورة الثّقافية لأي أحد يمرّ من جانب الإذاعة ، أنْ يدخل ويقرأ النّشرة الإخباريّة ، وكانت تظهر التّخابيص والعجائب والمخازي في القراءة والتأتأة والأغلاط ، يدخل أمّيون وجَهَلة وبائعو بسطرمة ، وكانت النّشرة تمكث أربعَ ساعاتٍ . لقد دمّر كلّ شيءٍ . إذا كان شيء في الإذاعة لا يُعجبه يأتي إلى الإذاعة بنفسه ، ويُلغي البرامج كلّها ، ويعرض بُسطاره على الشّاشة ، ويبقى معروضًا طيلة اللّيل ، حتّى يملّ .

وحسب عبقريّة القائد فإنّ التّاجر في عُرفه سارق ، باعتبار أنّ التّاجر لصّ يسرق قوت النّاس . وفي الجمعيّة التّشاركيّة لا يحقّ للمواطن أنْ يشتري ما يريد من الأغذية ، بل عليه أن يذهب ليصطفّ على الدّور في تلك الجمعيّة ، وحين يصل الدّور إليه ، يُعطونه حقيبةً جاهزة تحتوي سلعًا عشوائيّة ، وأنتَ وحظّك ؛ فقد تجد ملابس نسائيّة تقع في يد الرّجل . وعليكَ أنْ ترى المشهد المُضحك المُبكي حيثُ

يتبادل النّاس على مبعدة من الجمعيّة السّلع الّتي تهمّ كلّ واحدٍ منهم في شكلٍ أقربَ إلى المُقايَضة .

ولم يتوقف إلهام القائد عند هذا الحدّ ، إذ إنّ كلماته الّتي يراها الغوغائيّون مقدّسة : «اذهبوا وازحفوا إلى أيّ مديرٍ واحتلّوا مكانه» جعلتْهم مهووسين بالتّنفيذ ، ولهذا ثار عامل النّظافة في المستشفى على الطّبيب ، وضربَ طالبٌ شاذٌّ جنسيًا أستاذًا جامعيًا ، وجَرّ شيخًا من لحيته فتًى لم يحفظ سورة الفاتحة بعد ، وشُدّ أحد مُديري المُؤسّسات الزّراعيّة إلى جذع شجرةٍ وهو مُقيّد اليدَين والرّجلَين حافي القدَمَين تحت أشعّة الشّمس اللاّهبة وحوله عددٌ من الصِّبْية ينقفونه بالحصى ، ويقذفونه بالأوساخ مُبتهِجين!! وأُلغيت القوانين ، وصار كلّ شيءٍ يسبح في كلّ اتّجاه ، وهاجر الأطبّاء والمهندِسون إلى الخارج ، وآثر بعضُ العلماء الهروب من الجحيم ، ولاذ بالصّمتِ كثيرٌ من المُفكّرين ، وبدا أنّ البلد تتّجه إلى أنْ تكون فارغةً إلاّ من الكلاب المسعورة ، والأشباح المرعبة ، واللّجان الثّوريّة الّتي تحكم وتتحكّم في كلّ شيءٍ .

كنتُ أركل الحصى في الطّريق حين كنتُ عائدًا من عملي في ذلك اليوم المشهود ، عددٌ كبيرٌ من جهاز الأمن العسكريّ كان ينتظرني أمام البيت ، سارَعوا إلى الإحاطة بي حالَما رأوني ، كانتْ أمّي تنظر من خلال النّوافذ وقلبها يضطرمُ خوفًا عليّ ، فتحت الباب وصاحتْ : «ماذا تريدون؟!» . دفعوها إلى الدّاخل ، وسألني أحدهم وهو يُقيّد يدَيّ من الخلف : «أرشِدْنا إلى غرفتك يا عليّ» . تقدّمتُهم . لا أدري لماذا لم أكنْ أشعرُ بالخوف حينَها!! ربّما الصّدمةُ هي السّبب ؛ كنتُ أحتاجُ وقتًا لكي أبتلع ذهولي ، وبالتّالي فقدتُ الإحساس؟! الحلم ربّما هو السبب الأقرب إلى حالتي ؛ كنتُ أحسّ أنّني أحلم ، ولذلك تابعتُ الحلم

كأنّني أنتظر نهايةً سريعةً له، لأصحو من بعدها وأعود إلى حياتي الطّبيعيّة، لكنّ أوّل شيءٍ جعل الحلم ينكمش مثلَ بالونٍ لَفحَه شُواظٌ من نارٍ هو حَزُّ القَيْد على رُسغَيّ، وألم التواء ذراعَيّ حينَ لُفّا خلفَ ظهري بقسوة وبسرعة. صرخ أحدهم يبدو أنّه كان رئيس الفرقة: «خُذنا إلى مكتبتك يا زِنديق». هبطت كلمة (زنديق) على رأسي كمطرقة، تلفتُّ حولي أملاً في أنْ تكون الكلمة مُوجّهة لسواي، ولكنّني لم أجدْ إلاّ وجوهًا مُتجهّمة تُحدّق في الفريسة الّتي تمكّنتْ من القبض عليها بهذه السّهولة. تذكّرتُ الّذين قُتلوا بتهمة الزّندقة في التّاريخ الإسلامي فوجدتُهم بالعشرات، يقفون في طابورٍ طويل، طويلٍ جدًا، ويحملون بأيديهم أفكارهم، وينظر أحدهم بعنقٍ مائلة من خلف ظهر صاحبه كأنّما استبطأ دوره فأراد استعجالهم وهو يغذّ الخُطا إلى حتفه، جميعهم كانوا ينتظرون دورهم في القَتل مُطمئنّين كأنّما أُخبِروا به من زمنٍ بعيد. رأيتُ بشّارَ بن برد، والحَلاّج، والسّهروردي، وابن المُقفّع، وآخرين... كانت تهمة الزّندقة جاهزةً عند الدّولة من أجل التّخلّص من المعارضين بسهولة، فما أسهل أنْ تُزندقَ الآخرين، وترمي عليهم سِربال الكُفر! قطَعَ عليّ تخيّلاتي صوتُ رئيس الفرقة يهتف من جديد: «المكتبة يا زنديق». وشعرتُ بهراوةٍ تدفعني من ظهري، فسرتُ. بعثروا كلّ شيءٍ في طريقهم. قلبوا الأسرّة، والأرائك، وحطّموا الصّور المُعلّقة على الجدران، ورموا بأغراض المطبخ على الأرض، ومزّقوا بحراب بنادقهم الأغطية والفُرش، وركلوا كلّ ما اعترضهم، وكانتْ أمّي تشدّ على أسنانها وهي تنظر بقلب الوالهة إلى ابنها الّذي يُساق إلى المقبرة أمامها. ووصلوا أخيرًا إلى وكر الزّندقة، المكتبة، وبسرعة البرق كانوا قد أنزلوا كلّ ما فيها ووضعوه في كراتين

مُعَدّة . وخرجوا بها . هجمتْ عليّ أمّي تريد أنْ تستنقذني منهم ، لكنّهم دفعوها بغِلظة ، سقطتْ على الأرض ورأيتُها تضع يدها على قلبِها ، إنّها تُعاني مشاكل مُزمنة في القلب ، أردتُ أنْ أُطلِقَ صرخةً عميقةً مكتومةً في أعماقي لكنّني تراجعت . وفي لحظات كانوا يرمونني في قفص السّيّارة ، صرختُ من هناك لتسمعني أمّي : «ثلاث دقائق وأعود . لن يطول الأمر إنْ شاء الله» .

سار الموكب الّذي جاء لاعتقالي يذرع الطّريق إلى المركز الأمني . كان مقرّ شرطة ، ولم يكنْ سِجنًا . استقبلني بَهوٌ واسعٌ تنتشر على جدرانه الأربعة صورة القائد في أكثر من لباس . تقدّمْنا باتّجاه مكتب يحتلّ صدر البَهو . لم نكدْ ندخل حتّى صفعني رجلٌ كانَ يجلسُ على مكتبٍ أنيق في وسطِ قذارة لا تُخطِئها العَين ، ترنّحتُ تحت وَقْع الصّفعة ، أسندني العسكريّ الّذي يدفعني من الخلف . نفضتُ رأسي لأستعيد الرّؤية الّتي غامتْ . انتظرتُ نصف دقيقة لأستوعب المشهد . توقّعتُ صفعةً أخرى لكنّ الرّجل الّذي يجلس إلى المكتبِ الأنيق ، أشار إليّ : «زِنديق!!» . لا أدري كيفَ فهموا من إشارته أنّه يطلب منهم أنْ يفكّوا القيد عن رُسغَيّ أو هكذا فهمتُ أنا . شعرتُ بالرّاحة ويدايَ طليقتان ، نفضتُهما لكي يستعيد الدّمُ المحبوس مجراه في العروق ، شعرتُ براحةٍ أكبر ، لقد تدفّق الدّم حَقًّا بسرعةٍ كأنّ ماء محبوسًا اندلق فجأةً من أنبوبٍ مُغلَق . حاولتُ أنْ أستعيد صورةَ الرّجل الّذي صفعني لكنّني لم أتمكّن إلاّ من سماع جملةٍ من خمس كلماتٍ أو ستٍّ - نَطَقَها بسرعةٍ وغضبٍ - لم أفهم منها شيئًا ، غير أنّ الشّرطي الّذي دفعني خارجًا تولّى تنفيذ الأمر . دخلْنا ممرًّا طويلاً ومُعتمًا . لم أرَ سوى الجُدران الصّمّاء ، ورائحة لا يُمكن أنْ أفسّرها ، خليطٌ من رائحة تراب

المقابر، وعَفَن المستنقعات الطّحلبيّة، لقد كانت الجدارن طينيّة ورَطْبة، التفّ بنا السّرداب، قبل أنْ ننزل درجاتٍ لم ألتفتْ إلى عَدّها، وبعدها رأيتُ عسكريًا يقف أمامَ باب زنزانةٍ واسعة، نَظَر إليّ يتفحّصني، لكنّه لم يُدِم النّظر، وبحركةٍ آليّة أزال المِزلاج، ودُفِعتُ بقوّة من الحارس الّذي كان يشدّ على كتفَيّ وظهري بقسوة فسقطتُ في الوسط. أجلتُ بصري في المجموعة الّتي حللتُ ضيفًا عليها للتّوّ، توقّعتُ أنْ أتعرّف على أحدٍ ولكنّني لم أقرأ في الوجوه وجهًا واحِدًا رأيتُه من قبل، ولا حتّى في طريقٍ عابرة في لحظةٍ خاطفة، غير أنّ حالَهم أغنى عن سُؤالهم، كانوا مجموعةً من المجرمين المَخمورين. عبقتْ رائحة الخَمْر مع الرّطوبة في الزّنزانة، أدرتُ بصري في الأرجاء أستطلع الأمر فرأيتُ عددًا من السُّكارَى يُغنّون وآخرون يتمايَلون ويشتمون، ويردّ بعضُهم على غناء بعض بشتائم ذات إيقاعٍ موسيقيّ غرائبيّ. ومثلَ خِرْقةٍ بالية لم أُثِر اهتمام أيّ واحدٍ من السّادة سُكّان هذه الزّنزانة العتيدة. نهضتُ، سرقتُ بعضَ الخُطا باتّجاه الجِدار الأقلّ ازدحامًا. تابعتْني بعضُ النّظرات الزّائغة، هتفَ أحدهم: «منو؟». لكنّني احترتُ. لم أكنْ متأكّدًا من أنّ السّؤال لي أوّلاً، وثانيًا إنْ كان لي فإنّني لا أدري ما هي الإجابة المُناسِبة، إنّه أصعبُ سؤالٍ وجوديّ تعرّضتُ له في حياتي: «منو؟». ولأنّني لا أملك أيّ إجابةٍ من أيّ نوع تظاهرتُ بأنّني لم أسمع شيئًا وواصلتُ خُطواتي باتّجاه البقعة الخالية في الجدار المُزدحم، وصلتُ إليه وأنا أتوجّس من حدوثِ شيءٍ ما، واصلتُ تحديقي بالوجوه الذّابلة من حولي لأكتشف إنْ كانتْ تُكِنّ لي شعورًا عُدوانيا أم لا، ولكنّني رأيتُ أجسادًا حاضرة، وأذهانًا غائبة، كان السُّكارَى يحلّقون في عالَمٍ آخر غير عالمي، طمْأنني هذا الشّيء قليلاً،

لم أكدْ أحاول إراحة جسدي المتعب على الجدار حتّى باغتَتْني لكمةٌ قويّة على وجهي كادتْ تذهبُ بعينَي، فصرختُ من الألم وتفاديتُ بالصّراخ الوقوع في غيبوبة، لم أفق من الذّهول بعدُ حينَ رأيتُ أحدهم يحاول أنْ يُسدّد لي لكمةً أخرى، فتفاديتُها بالهرب، لكنّ سؤاله الوجوديّ الّذي أعاده للمرّة الثّالثة وكاملاً هذه المرّة فسّر كلّ شيء: «منو اللّي بعثك جاسوس علينا؟». وفي محاولةٍ لفهم كيفَ يمكن أنْ يعمل المرء جاسوسًا بين مجموعة من المخمورين، حاولتُ أنْ أهدّئه وأشرح له حالتي. قلتُ له: «أنا سجين ضمير». لكنّه لم يفهم على ما يبدو. فأعدتُ العبارة بطريقةٍ أخرى: «أنا سجينٌ سياسيّ». ردّ وهو يُنغضُ رأسه: «حشيش يعني؟!». كان قد هدَأ، لم تكنْ ثورته إلاّ عَرَضًا يُصيبه بين فترةٍ وأخرى، ويُفرّغه في كلّ مَنْ يجده أمامه. ويبدو أنّ حظي العاثر هو الّذي أوقعني معه.

لم آكلْ مع السُّكارَى شيئًا في اليوم الأوّل، مع أنّني رأيتُهم يبتهجون لدخول الطّعام إلى الزّنزانة كما يبتهج الأطفال باللّعب. يضحكون، ويأكلون بشراهة، ويدلقون الماء وبقايا الطّعام في وجوه بعضهم بعضًا وهم يُثرثرون. بعد منتصفِ اللّيل دخل الشّرطيّ المُكلّف بحراستنا إلى الزّنزانة. رمقه أحدهم فعرف أنّه جاءهم بالبِضاعة، نقده الثّمن وأخذ الزّجاجات. خبّأها. سمعتُ أحدهم يقول: «دَعْنا نحتفلْ». فأجابه: «أكثرنا نائم. لن نحتفل دون البقيّة». رجاه أنْ يُعطيه زُجاجةً صغيرة، فشتمه. رجاه رغم الشّتيمة أنْ يُعطيه رَشفة، فلوّح بقبضته في الهواء فسكت. في مساء اليوم الثّاني أقاموا حفلةً مشهودة. وزّعوا كلّ شيءٍ غنموه بالتّساوي. وشربوا حتّى أطارَهم السُّكر إلى سماواتهم العليّة. اعتزلْتُهم في الزّاوية. عرفوا أنّني مثقّف

فاحترموا عُزلتي ، حاول أحدهم منذ الصّباح أنْ يدمجني مع المجموعة قائلاً : «نحن إخوة ، ربّما لن نجتمع مرّة أخرى في ظروف أحسن من هذه ، والإخوة شُركاء» . اكتفيتُ بالصّمت . وكنتُ ما أزالُ خائفًا من أنْ يحدثَ لي شيء كما حدث لي أمس . أكلتُ نصف رغيف جافٍّ وأتبعتُه بنجعاتٍ من الماء لأزدرد اللّقم الّتي تيبّستْ في حلقي وتيبّس حلقي معها . في العاشرة مساءً انفتح باب الزّنزانة على وجهَين جديدَين ، سرعان ما تعرّفتُ عليهما ، لقد دَفَعتْ بنا الثّورة الثّقافيّة إيّاها إلى هذه الزّنزانة ، محمّد ، الكاتب الّذي كنتُ أقرأ بعضَ مقالاته في جريدة الفجر ، وعبد الرّحمن الّذي سيكون مثلَ طائرٍ مُهاجِر ، يحطّ على فَرْعِ غُصننا البائس ، ويرتحل سريعًا إلى السّماء ، فقد قتلوه!! لا أزال أذكر احتضانه لي أوّل ما رآني : «أخ عليّ ، تفرّقنا الحُرّيّة وتجمعنا السّجون!» . لم أكنْ قد تآلفتُ بعد مع فِكرة الاعتِقال ، أردفتُ : «نجتمع في مناسبةٍ أفضل من هذه» . اتّسعتْ ابتسامته ، ولمعتْ عيناه ، وقال : «إنْ شاء الله هناك» . وأشار بإصبعه إلى الأعلى ، نظرتُ كأبله فلم أر إلاّ سقف الزّنزانة المقرورة مكشوطًا وتنتْشر العفونة في أرجائه . لاحظَ سذاجتي فقال : «في السّماء إنْ شاء الله» . كان يعرفُ مصيره ، لا أدري مَنْ أخبره ، على الأقلّ لم أُخبِرْه أنا به ، كان يرسم هذا المصير ، بل كان يراه ، مثل طريقٍ من غَمام ممتدٍّ أمامه ، يأخذ بالصّعود إلى أعلى ، لقد أعدموه دون أنْ ندري لماذا ، ولكنّنا كُنّا ندرك شيئًا واحِدًا ، أنّه حيّ وأنّنا بقينا بعده موتى لثلاثة عقود!

اكتفى السُّكارَى بمتابعتنا من بعيد ، وإنْ حاولوا أنْ يكسروا العزلة المُؤقّتة الّتي فرضْناها نحن الثّلاثة على أنفسنا . للأمانة كانوا أشجعَ مِنّا ، وأكثرَ حُبًا للحياة . سألتُ عبد الرّحمن في تلك اللّيلة : «هل ترانا

سنعـيش حـتّى نرى أبناءَنا؟» . ردّ على سـؤالي بسـؤال : «هل أنتَ متزوّج؟» . أجبتُه : «لا . أنا في الثّانية والعشرين من عمري ، لكنّني أحلم» . قال بصوتٍ من الصّعب أنْ أصفه ، لكنّني أستعيده كما لو قاله اليوم ، بكلّ براءته وشجنه : «ليستْ هناك من ضمانةٍ أبدًا أنْ نعيشَ يومًا آخر ، ابتسمْ يا صديقي ، العبوس لن يُسهّل الأمور ، والموت ليس أكثر من عبورٍ إلى الضّفّة الأخرى» . أخافتْني فِكرة الموت ، رَجوْتُه ألاَّ يتحدّث عنه ، أنْ يقول أيّ شيءٍ آخَر ، لكنّه أردف : «كُلُّنا على سفر . وهذا الّذي نحن فيه لنْ يدوم» . سألْتُه مرّة ثانية وأنا أقطُر رجاءً : «هل الفَرَجُ قريبٌ؟!» . لاحظَ شيئًا من جزعي مغموسًا في السّؤال الرّاجف ، شَدّ على يدي ، وقال : «أكثر مِمّا تتخيّل» .

(٣)
العَقيد

خلا المشهد من المعتصم. ظلّ منصور ويونس جالسَين بانتظار انتهاء التّرتيبات. أحكمَ القائد وَضْع القُبّعة العسكريّة على رأسه، ثُمَّ ركزَ نظّارتَيه السوداوَين فوق عينَيه فبدا كلّ شيءٍ أمامه قاتمًا. استعاد صورةَ الحشود الّتي ملأتْ شوارع بنغازي وهي تهتف بسقوطه، بصق. أراد أنْ يسألهم: «مَنْ أنتم؟!» لكنّه تراجع حينَ علم أنّه يتخيّلهم. لكنّ صوته الدّاخلي عاد ليسمعه في حجرات قلبه: «أنا معي الملايين، كيفَ تجرؤ شرذمةٌ قليلون على أنْ تتحدّاني، مُغيّبون، خطفهم الوَهم، لا بُدّ أنّهم يأخذون حبوب هَلوسة». أخذَ نفَسًا عميقًا يبدو أنّ استعادة الحشود وأصواتها الثّائرة قد حبسَه في داخله، زفرَ زفرةً حَرّى: «البوارج، الطّائرات، الدّبّابات... هؤلاء الزّنادقة لن يصمدوا أمام رشقةٍ واحدة من دبابةٍ قديمة». لوّح بقبضته في الهواء، لكنّه سرعان ما أنزلها حينَ تذكّر أنّه يتقاسم الغرفة مع منصور ويونس، لا يُريدُ لأحد أنْ يراه غاضبًا أو مهزوزًا أو ضعيفًا. منذ أن استلم هذه المزرعة قبل ما يزيد عن أربعين عامًا لم يهتزّ أمام أباطرة الأرض كلّهم ولا أمام قياصرتها ولو مرّةً واحدة، ولم يرعشْ له جَفْن، بل لم تتلعثم له شفة، ولم تطرف له عين. ليس من حقّ الإله القدير أنْ يشكو، الشّكوى حيلة البشر، الضّعف من طبيعتهم، وهو ليس من صنف هؤلاء البشر الفانين، هو من الّذين يبدؤون طريقهم إلى الخلود ولا يتوقّفون ولا ينتهون.

لعنَ الجزيرة ، لَعنَ العربيّة ، لعنَ الإخوة الأعداء ، لعن قَطَر ، لعن الخليجَ كلّه ، لو أنّ السّنوسيّ تمكّن من اغتيـال ذلك الّذي ردّ عليه في القمّة لما كـانت الأمور ستؤول إلى ما آلتْ إليه : «هل هذه هي نهاية وقـوفي إلى جـانبكم يا . . .» . أراد أنْ يشـتم شـتيـمـةً بذيئـة ، لكنّه استخسرها ، فبلع نصفَها ، وبصقَ نِصفَها الآخَر .

خفتَ الضّوء في الحجرة ، أعتمَ الجزء الّذي يجلس فيه التّمثالان ، ظلّ نورٌ هادِئٌ يُلقي بعضَ الظّلال في الجانب الأيمن ، شـدّ جِذعه إلى الأعلى قليلاً ، نظر إلى نفسه المُتضخّمة أمام المرآة فبدا أسطورةً قادمةً من أزمنة متطاولةٍ ، هيكلاً عـصيّـا على الموت ، وصـوتًا ليسَ لصداه نهاية ، استعرضَ التّاريخَ كلّه ، تاريخ الآلهة بشكلٍ أخصّ ، وتساءل : هل مرّةً قَلِق الجبل الأشمّ بشأن الرّيح؟ كلاّ . أنا الجبلُ الأشمّ . هل مرّة اهتزّ اللّيثُ الهِزَبْر لمرأى مجموعة من الفِئران المذعورة؟ كلا . أنا اللّيث الهِزَبْر . هل مرّةً خـافَ الفارِسُ المِغوار من أنْ يخوضَ في الطّين؟ كلا . أنا الفارسُ المِغوار . وإذًا؟! حَكّ ذقنه ذات الشّعرات النّافرات ، وإذًا فكلّ ما أريد أنْ أفهمه : كيفَ أمكنَ كلّ هؤلاء النّاس ، كلّ هذه المدن ، كلّ هؤلاء الأمم ، وكلّ هؤلاء الغوغاء أنْ يخرجوا ضِدّي؟!!» . خبطَ الأرضَ بقدمه ، فتحفّز منصور ويونس ، وقفا وخَبَطا الأرضَ مثله ، وأدّيا التّحيّة العسكريّة ، وهتفا بالاستِعداد . أدركَ تسرّعه في تلك الخَبْطَة فعاد إلى هدوئِه الظّاهريّ ، لكنّ صورة الحشود الثّائرة لم تُفارِق مخيّلته ، رأى بعضهم يبصُقُ على صورته ، بعضهم يقذفها في بنغازي بالأحذية . . . لم يحتـمـل الإهانة الصّوريّة ، هتفَ صوتُه الدّاخليّ من جديد : «أيّها الملاعين ، عليكم أنْ تستحضروا التّاريخ لِتَعُوا ، عليكم أنْ تتذكّروا جيّدًا إنْ كانتْ لكم ذاكرة ؛ لقد استلمتُ ليبيا وفيها ثلاثة ملايين ، والآن

فيها ستّة ملايين ، ومُستعدٌّ أنْ أعيدها كما استلمْتُها ، سأقتل الملايين الثّلاثة الّتي أنجبْتُها ، سأقتلُ هؤلاء الأبناء العاقّين لكي يعيشَ مَنْ تبقّى مِمّن أحبّني وعاش من أجلي» . صوتُ سقوط قذيفة خارجَ العزيزيّة جعل الجُدران تهتزّ ، اهتّزت المرآة معه ، لكّن العقيد ظلّ ثابتًا على هيئته كأنّه لم يسمع شيئًا ، هُرِع منصور إلى الخارج ، تلقّاه أحد القادة العسكريّين الميدانيّين على الباب ، طمْأنه على الفَور : «لا شيء قذيفة صاروخيّة سقطتْ بالقُربِ من هُنا ، انفجارُها محدود ، لا شيء يدعو إلى القلق ، الأمور كلّها تحت السّيطرة» . قرأ منصور الأمر على غير ما سَمع ، قوّات التّحالف العربيّ الخائن والصّليبيّ الحاقد ستُهدّم العزيزيّة بأكملها على رؤوس أصحابها . عاد مرتجفًا إلى العقيد ، وقف خلفه على بُعدِ مسافة كافية ، اصطنع الهدوء ، استأذن السّيّد الأبديّ ، أشار له برأسه كي يتكلّم ، قال : «علينا أنْ نُغادر المكان بأسرع ما يُمكن» . ردّ العقيد بهدوء : «تستطيع أنْ تخرس ، قيادتك للحرس الشّعبيّ لا تؤهّلك إلى البتّ في مثل هذه الأمور ، دع يونس يتكلّم» . جاءه صوتُ يونس من هناك البعيدة : «منصور على حقّ يا سيّدي» . ردّ العقيد : «ليسَ على حقّ ، لا أحدَ على حَقٍّ سِواي . لن أخرج من هنا قبل أنْ أقتنع بذلك» . وراح يُحدّق في المرآة من جديد . تراءتْ له أشباحًا في المرآة أرواحُ الدّغيس وأبو زقيّة وشرف الدّين ، تمنّى لو أنّه يستلّ المُسدّس الّذي يركزه على جانبه ويُطلِق النّار عليهم من جديد ، لكنّه يُدرك أنّ هذه الّتي تتراءى في المرآة ليستْ إلاّ خيالاتهم . «المجنون قال إنّه لن يُشاركَ في حُكم العسكر . مَنْ قال إنّني أحكم البلاد بقبضة العسكر ، أنا الشّعب والشّعب أنا ، أنا سيّدكم أيّتها الحُثالة ، لا أحد يُمكن أنْ يعصيَ أوامري ، كيفَ يتمرّد المخلوق على الخالق ، كيف

يتنمّر المصنوع على الصّانع؟! الآخَر شرف الدّين جاء ليعتذر، ليقول إنّه يلعقُ حذائي، ولكنّه لا يعرفُ أنّني لا أمنح هذا الشّرف العظيم لِمَنْ رفضَ في البداية أوامري. المسكين كان اعتذاره متأخّرًا جِدًا» رأى الأشباح تتراقصُ في المرآة، تتقدّم من عمق الغرفة الواسعة نصف المُعتمة باتّجاهه، لكنّه ظلّ جامدًا مكانه، اقتربتْ أكثر، كان لها محاجر فارغة، أسرعتْ في خُطاها، أدرك أنّها ستلتفّ على عنقه إذا لم ينحنِ، أراد الانحناء لكنّ جذعه لم يُطاوِعْه، لم ينحنِ في حياته من قبلُ لأيّ كائنٍ بشريّ، أتراه يفعل ذلك لمجموعة من الأشباح والأدخنة، هتف ليُشجّع نفسه: «الآلهة لا تنحني». تذكّر انحناءة (برلسكوني) له وتقبيله يده، فتشجّع أكثر، وضع يده على المُسدّس المطليّ بالذّهب، لكنّه سرعان ما تراجع، وهتف: «هذا ليس حقيقيًا، لا بُدّ أنّني مُرهَق». لكنّه كفر بالإرهاق سريعًا، وحدّق في المرآة بحزمٍ كأنّه يستعدّ للعِراك مع أشباحه، لكنّه لم يُشاهِد في المرآة شيئًا، كانت الأشباح قد اختفتْ، لاحظَ احمرارًا واضِحًا في عينَيه الضّيّقتَين، وارتِجافًا في جفنَيه يهتّزان كما لو كانا حَلْقَ ضِفدع لم تكفّ عن النّقيق. هتف: «يتعدّد البُؤس بتعدُّد السّادة؛ كلّ هذا البؤس الّذي يعيشه العالَم سببه كثرةُ السّادة، لو كنتُ سيّد هذا العالَم الأوحد لعرفتُ كيفَ أهبه بركات من السّماء والأرض، لكنْ وا أسفاه!! كلّ مَنْ جلس على الكرسيّ ظنّ نفسه سيّدًا، الحمقى لا يُدركون أنّ القِرَدة بإمكانها أيضًا أنْ تجلس على الكراسيّ... لو كنتُ في هذا العالَم المُضطرب - بسبب كثرةِ السّادة القِرَدة - أنفردُ بكلّ شيءٍ لحوّلتُ كلّ بؤسٍ فيه إلى نعيم، وكلّ بلقع فيه إلى جنانٍ وارفة، لكنّ الأشقياء يُحبّون أنْ يتحوّلوا إلى عبيد، الّذين تقوّستْ ظهورهم لطول ما انحنَوا لن

يستقيم لهم ظلّ أبدًا ؛ فلتأكلْهم ألسنة النّيران إذًا ، ولْيبتلعْهم الموج الطّاغي إذًا ، ولْتلتهمْهم الذّئاب الجائعة إذًا . مَنْ أطاعني فاز ، ومن عصاني خسر وندم ، وستندمون أيّها اللّيبيّون ، أيّها الشّعبُ الّذي ابتدأ تاريخه بي ، وازدهرتْ حضارته معي ، لقد كنتم قبلي نَسْيًا منسيًا ، ستندمون ولاتَ حينَ مندم ، ستعضّون على أصابعكم وأنتم تتذكّرون أنّكم ذبحتم وطنكم ، وتنكّرتم لموجِدكم ، وسمحتم للأغيار أنْ يُغيروا على جنّتكم ، وأَبَحْتُم ثَدْي هذه الأمّ الرّؤوم لكلّ عُتُلٍّ زنيم» . شهق . أدركَ كم هو على حَقّ . تمنّى أنْ يعيشَ أكثر ليرى أكثر ، تمنّى ألاّ تصعد روحُه إلى السّماء سريعًا لكي يسمعهم وهم يُنادون به من جديد بعدَ أنْ غاصَ جسده في الثّرى ، بعد أن ابتلعتْه الصّحراء ، الصّحراء الّتي خرج منها رسولاً إليهم ، فأرادوا ذَبْحه ، ولكنّه صبر وغفر وسامح ، وليسَ زعيمُ القوم مَنْ يحمل الحِقدَ ، الصّحراء الّتي جاءهم منها لكي يجعلهم سادةَ الأرض ، وملوك الدُّنيا ، فأبَوا إلاّ أنْ يظلّوا عبيدًا ، أرادهم أنْ يكونوا أرفعَ النّاس وأغناهم ، فأبوا إلاّ أن يكونوا فقراء ، تتناهب خيراتِهم دُول البَطَر والفُجور ، أبوا إلاّ أنْ يمدّوا أعناقهم بِذُلٍّ إلى مُدية الجَزّار ، وما أكثر الذّابحين!! شهقَ من جديدٍ ، سمع صوتَ يونس ، كانَ يونس يستأذنه في أنْ يتولّى مهامّه العسكريّة ، قال له بحنوّ أبويّ عميق : «انتظر يا يونس ، انتظرْ أيّها الحبيب ، لم ألتقِ كلّ أشباحي بعدُ ، عليّ أنْ أُنهي الأمر معهم . انتظر قليلاً . لتذهبْ طائرات ساركوزي الصّليبيّ الحاقد إلى الجحيم ، ما زال هناك بعض الوقت لكي أستمع إليك . اجلسْ أيّها الرّفيق ، أعرفُ وفاءَك العميم ، من أربعين عامًا لم تتغيّر ، في حين أنّ الكثيرين تغيّروا ، من أربعين عامًا وأنا أرى في عينَيك التماع المُحبّين الصّادقين ، والمُريدين الأنقياء . غيابُكَ عنّي

قليلاً كان تطهيرًا للرّوح ، الرّوح يُصيبها الخَبَثُ أحيانًا ، تحتاج من وقت لآخَر أنْ تتطهّر ، لكنّ نداءَنا الأوّل في الثّورة الأولى العظيمة استيقظَ حينَ أثرتُه فيك ، فأتيتَ ، أعرفُ أنّك مستعدٌّ للتّضحيةِ بروحكَ من أجلي ، أعرفُ ذلك جيّدًا ، وأدركُ أنّكَ تعدّ موتكَ في سبيلي شهادةً ، ألا فسلامٌ على روحكَ الخالدة أيّها الرّفيق الخالد» .

(٤)
بُورتا بِينيتُو

صرّ باب الزّنزانة في صبيحة اليوم الثّالث ، نادَى العسكريّ علينا نحن الثّلاثة ، هُرعِنا إلى الخروج ، قامَ أحدُ السّكارى ؛ ذلك الّذي لكمني في اليوم الأوّل ، قبّلني ، وبَكى وهو يُودّعني . رَمَى جسدَه الثّقيل على صدري كي يعانقني ، دَفَعْتُه عنّي برِفق ، لم أكنْ لأفهم مشاعره مثل عبد الرّحمن ، الّذي ربّت عل ظهره وأخذ بيده كطفلٍ صغير ، ودعا له . وخرجْنا .

قادتْنا الزّنزانة المُتحرّكة إلى سجن (بورتا بينيتو) أو (الحِصان الأبيض) ، (بورتا) تعني الباب ، و(بينيتو) تعني موسوليني . قديمٌ هذا السّجن ، كان على زمن الطّليان ، وكان قد شُيّد لاعتقال المُجاهدين ضِدّ الاستعمار الإيطاليّ ، ثُمّ لُطّخ فيما بَعدُ باللّون الأسود ليظلّ شاهدًا على الحكم الفاشيّ الدّيكتاتوريّ الّذي حكم به (موسوليني) البلاد ، وسُمّي آنئذ (الحصان الأسود) . كان الحِصان الّذي يعتلي وسط نافورةٍ تتوسّط ساحة المدخل يرحّب بنا أوّل وصولنا . السّجن يتكوّن من قِسمَين ؛ القسم المدنيّ في الجهة اليُسرَى منه ، والقِسم العسكريّ في الجهة اليُمنى ، كانتْ سمعة القِسم العسكريّ قد سبقتْه ، القصص الّتي تسرّبتْ من هناك يشيب لها رأسُ الوليد ، قصصٌ فظيعة ، الرّعب والهَول والتّعذيب والبشاعة ، وكلّ ما يُمكن أنْ ينخلع له الفُؤاد . وقفنْا في السّاحة ، كان قد انضمّ إلينا سُجناء آخَرون ، علمتُ فيما بعدُ أنّ

بعضهم ينتمي إلى حزب البعث ، وآخرين إلى الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين ، أطياف اليسار كانتْ حاضرة ، الشّيوعيّون والتروتسكيّون ، وأطياف اليمين كذلك ، الإخوان المسلمون ، وجماعة عصام العَطّار ، وحزب التّحرير ، والإباضيّون ، وغيرهم . كانتْ طيوفًا متعدّدة الألوان ، فرّقتْنا الأفكار والرُّؤى وجمعتْنا المحنة ، وتذكّرتُ شوقي حينَ قال :

فـإنْ يكُ الجنْسُ يا ابْنَ الطّلح فـرّقَنَا
إنّ المَصـائبَ يَجْـمَـعْنَ المُصـابينا

وكُنّا جميعًا مُصابين ، إضافةً إلى الوطن الّذي كان ينزفُ أكثرَ منّا جرّاء طعنة العقيد الباسلة . في السّاحة رأيتُ (بهلول) صاحب مكتبة النّور ، قفزتُ فرحًا حينما ظهر وجهه النّحيل بين مجموعة من الوجوه المترقّبة الّتي تطفو على سطحها آلاف الأسئلة ، لكنّ قفزتي المعنويّة سرعان ما خمدتْ حينَ تسارعَ إلى ذهني أنّه أيضًا أحد ضحايا الثّورة الثّقافيّة ، وأنّ الكتب الممنوعة الّتي كُنّا نتداولها وكانتْ مكتبته توفّرها لنا من المُمكن أنْ تكون قد ضُبِطَتْ في القضية فنذهب في شربة ماء . حاولتُ أنْ أستغفل بعضَ الحرس وأتخطّى المساجين لأصل إليه ، ونجحتُ ، حينَ صرتُ بجانبه ، لكزْتُه بكتفي ، انتبَه ، أرادَ أنْ يحضنني ، فمنعنا القيد الّذي في أيدينا ، وقالتْ له عيناي : «لا بأس ، في مرّةٍ لاحقة» . راحَ يسألني كيفَ ألقَوا القبضَ عليّ ، ومتى ، وفي أيّ قسْم من أقسام الشّرطة اعتُقلت؟ قاطعتُ أسئلته لأسأله السّؤال الحاسم : «هل نظّفْتَ المكتبة والمخازَن قبل أنْ يعتقلوك . أنتَ تعرفُ تلك الكتب قد تقودنا إلى الهاوية؟» . رمقني بطرف عينَيه ، وحنى جذعه إليّ قليلاً ، وهمسَ في أذني وهو يهزّ رأسه : «لا تخفْ أخي عليّ ، نظّفتُها . . . نَظّفْتُها» . أعدتُ سؤالاً آخَر لأطمئنّ : «أأخرجتَ كل

الكتب؟» . ردّ : «قلتُ لكَ كل الكتب ، لا يُمكن أنْ يكونوا قد وجدوا كتابًا واحدًا . لكنْ إنْ تعرّضْتَ للسّؤال فأرجو . . .» وصمتَ كأنّه يخجل من أنْ يُكمِل ، شجّعْتُهُ بعينَيّ ، فأكمل : «أرجو أنْ تُنكِرَ أنّ لك أيّ علاقة بي من قريبٍ أو بعيد» . هززتُ رأسي بالموافقة ، وافترقْنا كأنّنا أغراب .

بعدَ يومَين من ذلك الوقوف التّاريخيّ في السّاحة الّتي تمتدّ أمام إدارة (الحَصان الأسود) ، ناداه الآمِر ، قال له : «بهلول ، لِماذا تبيع مثل هذه الكتب؟ لكي تُدمّروا البلد؟ هاه» . وعرض عليه كلّ الكتب الممنوعة الّتي قال لي إنّه أخفاها . المسكين صُعِق . لم يكنْ متأكّدًا إنْ كان قبل خطاب (زوارة) مُراقَبًا ، وأنّ أناسًا عابرين من عَسَس النّظام قد اشتروا هذه الكتب منه وخبّؤوها لهذه اللحظة ، أو أنّهم وجدوها بالفعل في مكتبته وكان قد نسي أنْ يُخفيَها قبل المُداهمة . . . أخرجوا له صُندوقَين كامِلَين من هذه الممنوعات وبَسَطُوها أمامه دليلاً قويًا على الإدانة ، انعقد لِسانه ، وراحَ يُتأتِئ ، ولم تُفلح كلّ محاولاته في النّطق أنْ يُدافعَ عن نفسه ، فركنَ إلى الصّمت . حُمِلَ على محفّة تُشبه محفّة الموتى ، وسُلِخَ جلدُه عن جسده ، وبقي أكثر من خمس سنين لم يتعافَ ، وحملَ علامةَ التّعذيب تشوّهاتٍ بليغةً لم ينجح الزّمن في أنْ يُخفيها أبدًا!

كُنّا لا نزال واقِفين في السّاحة ، حين بدؤوا بتصنيفنا إلى قِسْمَين ، قسم سيُساق إلى اليسار حيثُ القسم المدنيّ ، والآخر إلى اليمين حيثُ العسكريّ ، ورحتُ أتضرّع إلى الله أن أكونَ يساريًا في ذلك اليوم لكي لا أشهدَ ما لا طاقةَ لي بتحمّله ، وأظنّ أنّنا جميعًا كُنّا نتوسل إلى الله بالدّعاء أنْ يجعلنا من ساكني القسم المدنيّ ، وسِيقَ

كلّ واحدٍ منّا كما تُساق الخِراف إلى المذبحة، ودُفِعنا إلى أقدارنا كأنّنا قُطعان سائمة، وعند النّقطة الّتي سنفترق فيها خفق قلبي، أَمِن المعقول أنْ يكون السّجن العسكريّ مأواي منذ اليوم، وأمّلتُ ألاّ يحدث ذلك أبدًا، ولكنّ العسكريّ الّذي كان يقسّم النّاس بعصاه إلى الجنّة أو جهنّم، دفعَ بي عند تلك اللّحظة إلى جهنّم. ودخلْنا المحرقة الّتي ستكون مأواي أكثر من نصف عمري.

بدون أيّة اعتبارات، ولا تصنيفات، ولا هويّات، أدخلونا إلى الزّنازين، عبد الرّحمن لم يكنْ معي ولا أدري ماذا حدث معه حتّى يوم إعدامه، وكذلك لا أدري ماذا فعلوا بمحمّد. كلّ زنزانة ألقَوا فيها حوالَي عشرين سجينًا، من العشرين الّذين جمعتْنا زنزانةٌ واحدةٌ رأيتُ وجه ليبيا الحقيقيّ، خيرةُ الشّباب والمثقّفين والعلماء والمُفكّرين والأدباء، كان يبدو أنّ العقيد أراد لكلّ مَنْ لا يعبده أنْ يحجبه. في الزّنزانة سرعان ما تعرّفتُ إلى الرّوائيّ يوسف، الكتب أحسنُ بطاقة تعريف لأصحابها. والأصدق أيضًا. ربّما نحن صورةُ ما نكتب. قلتُ له: «إنّني عرفتُكَ من عباراتك الّتي حفظتُ بعضها»، فَسُرّ كثيرًا، وقال بحبور: «حقًّا؟». أردفتُ مناكِفًا: «أرجو ألاّ يهتزّ هذا التّعريف مع طول الإقامة هنا». ضحك وهو يقول: «أبْشِر، لن يدخل السّجن أحدٌ ويخرج منه كما هو، في السّجن تحدثُ تحوّلاتٌ كثيرة، فكما لو وقفْتَ على الجسر فإنّ ماء النّهر الّذي يجري تحت هذا الجسر في لحظة ما لن يكون هو الماءَ ذاته الّذي يجري في اللّحظة التّالية، وكذلك ستجدُني؛ أنا أتغيّر مثل الماء، أتأثّر مثله بشكل المَجرى، وعدد الصّخور الّتي تعترضه، وبالأشجار الّتي تقف على ضفّتَيه، وحتّى بأصوات العصافير الّتي ترتوي منه». أخافني الكلام حقيقةً، لكنّني احتضنْتُه، وأكملتُ التّعرّف إلى الباقين.

في اللّيل، تذكّرتُ أمّي، تذكّرتُ تضحياتها، كلّ الأمّهات لا مثيلَ لهنّ في التّضحية، لكنّ تضحيةَ أمّي كانتْ من نوع مُختلف ؛ فأنا أنتمي لعائلة تناهَشَتْها المنافي، وأكلتْ أكبادها عذاباتُ الشّتات. بعدما استقرّ الإيطاليّون في ليبيا وأُعدم شيخ الشّهداء عمر المختار، صارت الأوضاع الأمنيّة بالنّسبة لعائلتي غير مُطمئِنة، هاجر أبي إلى تونس في سنة ١٩٣١م بسبب الفاقة الموجودة في ليبيا. بعضُ اللّيبيّين اتّجه شرقًا إلى مصر، وبعضهم ذهب إلى تشاد والنّيجر، وأبي قرّر الذّهاب إلى تونس باعتبار تونس قريبة جداً من ليبيا. تونس كانتْ فيها نهضة اقتصادية يومئذٍ وفيها مشاريع. أبي استقرّ في الضّاحية الجنوبيّة لتونس على بعد ٩ كلم منها في (رادِس)، وعمل بالزراعة وكان مستور الحال. كان متزوّجًا من امرأةٍ فاضلة قبل زواجه من والدتي. كان هناك مقهى في (رادس) اسمه مقهى (أحمد فافا) يرتاده المهاجرون ومن بينهم المهاجرون الجُدُد، القادِمون من ليبيا إلى هنا باحثين عن حُلُمِ العمل والاستِقرار، والهاربين من وحشيّة الاستِعمار الإيطاليّ، والاستِعمار وحشٌ أينما حَلّ، كان أبي وهو عائد من عمله يمرّ بالمقهى ويستقبل الأقارب والمعارف من منطقة (الرّحيبات) من الّذين تقطعت بهم السبل في بحثهم عن مورد رزق يَقيهم شظفَ العيش. كان يأخذ كثيرًا منهم إلى البيت ويُكرمهم ويُؤوِيهم، ولا يتركهم إلا وقد ضمن لهم فرصة عمل شريفة. هذا الصنيع الجميل من طرف والدي ادّخره الله لي بعد ذلك بسنوات طويلة. توفّيتْ زوجته الأولى فتزوّج والدتي في عام ١٩٥٠م وكان بينهما فارقٌ في السّنّ، وعندما وُلِدت في عام ١٩٥١م كان والدي يُحتضَر، وعندما أحضرتْني إليه القابلة وهو على فِراش الموت بكى، رأى القدر يبعثُ بالوليد

الرّضيع إلى الحياة ، ويبعثُ بالشّيخ الهَرِم إلى الموت ، واختلطَ صوتُ ضحكي ببكاءِ أبي ، ورحتُ بيدَي اللّتَين تتحرّكان على غير هُدى أرسم لوحةً غرائبيّة يتّحد فيها الموتُ بالحياة في صورةٍ واحدة مثّلتُها أنا وهو . دفعَ أبي بي إلى أمّي ، وهمس : «لماذا وُلِدَ هذا الصبيّ الآن؟! أمّه في مقتبل العمر وستتزوّج بعد وفاتي ، وسيتعرّض ابني هذا لِضَرب الزّوج» . وانهمرتْ دموعه خوفًا على ما لم يقعْ بعدُ ، ولم يكنْ أبي ولا أمّي ولا أحدٌ من النّاس يدري أنّ ضَرْب الزّوج فيما لو حدث أو إهماله لي أو انكِسار خاطري سيكون شيئًا لا يُذكَر أمام ما سيحلّ بي! فهل كانت دموع أبي تُخفي خلفَها تلك الحقيقة . رقّتْ أمّي لحال هذا الشّيخ الّذي أعطتْه الدُّنيا في ليبيا وفي تونس ظهرَها ، والّذي يمدّ له الموت في هذه اللّحظات يده ليصطحبه إلى عالَمه الفسيح والغامض . رقّتْ كثيرًا وبكتْ لِبُكائِه ، شَدّتْ على يده الباردة المُرتجفة ووعدتْه بألاّ تتزوّج بعده . بعد مولدي بثلاثة أيّام انتقل إلى الرّفيق الأعلى رحمه الله . فبكتْ أمّي كلَينا ، أبي الّذي رحل بعد أنْ غمرها على فقره حنانًا وحُبّا ، وأنا الّذي سينشأ يتيمًا في عائلة قليلة ذات اليد ، ضعيفة ذات الشّوكة . وظلّ سؤال أبي : «لماذا وُلِدَ هذا الطّفل الآن؟» النّاقوس الّذي يدقّ في كلّ مساءً ليُذكّر أمّي بالوَعد الّذي قطَعَتْه لأبي . وكان ما كان . عملتْ في كلّ عملٍ صغيرٍ هنا وهناك لكي تقيني شظفَ العيش ، وما كان من مُعيل إلاّ ما تكسبه من دُرَيهمات لا تكاد تسدّ الرّمق أو تُقيم الأوَد ، وكانت لي الأمّ والأب والأخَ والعائلة وكُلّ شيْءٍ . لم أدرِ كم مرّةً بكتْ وأنا أضحك ، ولا كم مرّةً سهرتْ وأنا أغطّ في نومٍ عميق ، ولا كم مرّة تكشّفتْ في البرد وأنا أنعم بدفءٍ عميم ، ولا كم مرّة مسحتْ دموعي وأنا أبكي بسببٍ أو بدون سببٍ ، ولا كم مرّة

جاعتْ لكي أشبع ، ولا كم مرةً عطشتْ لكي أروى ، أخذتْ من جسدها النّحيل والّذي كان يهرم سريعًا بسبب كلّ هذه المسؤوليّات وأعطَتْني ، تقع اللّقمة في فمي قبل أنْ تقع في فمها ولو كان قد مرّ عليها يومان أو ثلاثة لم تأكل فيها . وقلبُها ، أعطاني كلّ شيءٍ ، حتّى نقصَ منها وزادَ فِيّ ، كأنّ الدّمَ الّذي كان يجري فيه جرى في عروقي ، كانتْ مستعدّةً لأنْ تُقدّم كلّ شيءٍ في سبيل أن أكبرَ صحيح الجسم والعقل ، وأحظى بتعليم يجعلني أتميّز على رفقاء الدّراسة . باختصار كانت أمّي حبل الحياة الّذي لا يوجد خارجه إلاّ الموت ، وكانت الوطن الّذي لا يُوجَد خارجه إلاّ المنفى .

ومثل أيّ فتاةٍ في عمرها ، سيأتيها الخُطّاب ، وسيتودّدون إليها ، وسيطمَعون في جمالِها وحاجةِ أهلها ، ولكنّ الوَعد لا يُمكن أنْ يُنكَث ، والعَهد لا يُمكن أنْ ينُقض ، والولد تنغرس محبّته في القلب كلّ يوم بل كلّ ساعة ، مثل نبتةٍ ريحانٍ تزيدُ القلب حُنُوًّا وعِطرًا ، وهو ما زال غَضًّا طريّ العود ، وأيّ احتمالٍ آخَر غير أنْ تضمّ قلبَها على صغيرها يُعَدّ خيانةً بالنّسبة لها . لا يُمكن أنْ يُترَك لتجريبِ حياةٍ غير معلومةٍ مع زوج غير معلوم .

لكنّ مُدمِنَ القَرْع للأبواب سيلجُ في النّهاية ، ضغطتْ عليها والدتُها لكي تتزوّج ، فتعَلّلتْ بألفِ علّة ، لكنّها جميعًا لم تكنْ مقبولةً عندَ أمّها ، وقدّمتْ لها جَدّتي ألفَ سببٍ لكي تُقنعها بالقَبول بالزّواج ، ودخلتْ من أضعفِ نقاطِ قُوّتها ؛ قالتْ لها جَدّتي : «من أجل ألاّ يجوع عليّ ولا يعرَى» . نظرتْ يومَها إليّ وأنا نحيلُ الساقَين ، ضامر البطن ، فضعُفتْ ، وبين التّردّد والقَبول ، رجحت الكفّة الأخرى ، نكّستْ رأسَها في الأرض أمام جَدّتي ، وسكتتْ ، ولم تُبدِ رفضًا ، فعلمتْ

جدّتي أنّها قد لانتْ أخيرًا . وسرتْ في البيتِ همهماتٌ خافتة ، كحفيفِ أوراقِ شجرٍ لعبتْ بها ريحُ الخريف . وفرحتْ جَدّتي بالجدار الّذي سيُسنِدُ أمّي ، وراحت تُعدّ ليوم الفرح العُدّة . كان ذلك يوم الاثنين حينَ بعثَ الزّوج الجديد بالكسوة إلى أمّي ، ومعها الهدايا وأغراض العُرس ، شعرتُ بجلبةٍ وحركةٍ غيرِ طبيعيّةٍ في البيت وكان عمري أربع سنوات ، فسألتُ إحدى النّساء عن الأمر ، فقالتْ لي : «أمّكَ ستتزوّج» ، فبكيتُ . وتواصَلَ بُكائي حتّى جاءتْني أمّي ، وضمّتْني إلى صدرها طويلاً . فقلتُ لها وأنا أبكي : «تريدين أنْ تتزوّجي وتتركيني؟!» . فانفجرتْ عيناها بالدّموع : «مَنْ قال لكَ ذلك يا حبيبي؟» . فقلتُ : «خالتي» . فقالت : «كَذِب ، لن يحدثَ هذا أبدًا» . وهُرِعت أمّي إلى جَدّتي : «إنّ هذا الزّواج لا يُمكن أنْ يتمّ» . «ولكنّ العريس أحضر الكُسوة والأمر صار محتومًا» . «رُدُّوها عليه ، لا يُمكنني أنْ أحتمل الهلع الّذي في عينَي ابني» . «إنّه صغير ولا يفهم شيئًا» . «لن أتركه لأحدٍ سواي» . «يا ابنتي اعقلي» . «الجنون في أنْ أتزوّج» . «زوجٌ يسندك يا ابنتي ، زوجٌ يبقى ؛ أنا لن أدومَ لكِ . وقريبًا سأرحل ، وستُعانين كثيرًا» . «لنْ أغفر لنفسي لو رضيت ، إنّكِ لم تَرَي دموعه» . ورفضتْ رفضًا قاطعًا . ونزلتْ جدّتي على رغبتها ، وأُلغي موضوع الزّواج . كنتُ ابنَها الوحيد ، وأميرَها ، وقرّة عينها ، وحبيبَها المُدلَّل ، تحصّلتُ على التّعليم بسببها ، وكانتْ تنافس أولاد التّونسيّين لكي توفّر لي جوًا تعليميًا مُناسِبًا . وظلّت النّخلة الّتي حمتْني من الهجير ، وآمنتْني من الخوف ، وصنعت الإنسان في داخلي .

(٥)
مئة دلاّعة

صحونا على قَرع أبوابِ الشَّيلاّت (الزّنازين) وصِياح السّجانين. صوتُ خَبطةِ الحديد طعنةٌ في القلب، والمِزلاج الّذي يحدثُ صريرًا وهو يتحرّك رمحٌ نافذ؛ وهياج السّجّانين كريهٌ إلى الحدّ الّذي يُسبّب الخوف والهلع والغثيان معًا، العذاب دائمًا ما ينتظر هذه الهيجة، لكنّنا فُوجئِنا بأنّ الحرس يطلبون منّا أنْ نتجمّع في السّاحة (الآريا) من أجل التِقاط صورة جماعيّة. لماذا هذه الصّورة؟ هل يريد العقيد أنْ يتفحّص وجوهنا، ويعرفنا واحِدًا واحِدًا. خرجْنا بالفعل تحت الصّياح إلى الآريا الكبيرة الّتي تخصّ السّجن كلّه، كُنّا بالعشرات، لا أدري إنْ كانوا يُخرجوننا عنبرًا عنبرًا، أم أنهم أخرجوا الجميع، في الحقيقة هؤلاء المتجمّعون هنا لا يزيدون عن سبعين، في حين علمتُ أنّ السّجن يضمّ أكثر من ثلاثمئة سجين. لا بُدّ أنّهم يصوّرون صَيْد الثّورة الثّقافيّة المزعومة، ونحن كنّا الطّرائد الّتي استَولوا عليها، «يا لَه من صَيْد ثمينٍ» هتفتُ. أمهلونا دقائق لنستعدّ للصّورة. كانَ أحدهم يحمل كاميرا تلفزيونيّة حديثة، تساءلتُ ماذا تفعل كاميرا تلفزيونيّة حديثة في سِجن، لو كان الأمر من أجل ملفّات السّجن أو السّجناء فبإمكانهم أنْ يأخذوا الصّورة بالكاميرا العاديّة، لا بُدّ إذًا من أنّ في الأمر شيئًا. ذهبَ ذهني بعيدًا، وتخيّلتُ صورتنا بكاميرا الفيديو هذه تُصاحبها أغاني الثّورة وأهازيج أبناء العقيد وهم يهتفون بالقضاء على المارقين

ومباركة قائد الثّورة المجيد ، وشعرتُ أنّنا سنظهر مثل فِئران في لقطات تلفزيونيّة تُطالب الجماهير بسَحْقنا ومَحْونا من الوجود . وتخيّلتُ المشهد كأنّه حدث ، فصرختُ في وجه المُصوّر : «لن نتصوّر هنا . إنّكم ستستخدمون الأمر ضِدّنا» . وعلا صوتي ، فَعَلت الأصواتُ من ورائي ، وهاج السّجناء لهياجي ، وشعرنا بقوّة كبيرة تتدفّق في دمائنا ، وأُلغي التّصوير فِعلاً . أمّا هل كان التّصوير حَقًّا سيُستَخدَم ضِدّنا؟ فلستُ أدري . وإذا لم أكنْ متيقّنًا من أنّه سيُستَخدم ضِدّنا فلماذا أَلَّبْتُ السّجناء على إلغائه؟ فلا أدري أيضًا . كان واضِحًا أنّنا في تلك المرحلة من الشّباب كُنّا نُقدِم على فِعل أشياء تدفعنا إليها تصوّراتنا وحَدْسُنا لا عِلمُنا ويقيننا ، ونظلّ بعدها حائرين فيما إذا فعلْنا الصّوابَ أم جانبْناه .

أعادونا إلى الزّنازين وهم يتوعّدون ، مرّ الوقتُ ثقيلاً ، قبلَ أنْ تأتي مجموعةٌ كبيرةٌ من السّجّانين يحملون هراواتٍ غريبة ، يقترب طول الواحدة من المِترَين ، دخل كلّ أربعةٍ أو خمسةٍ إلى كلّ (شيلّة) ، وأمرونا أنْ ننزلَ للفلقة . هكذا ببساطة قالوا لنا : «انزلوا للفلقة» . حاول بعضُنا أنْ يعترض ، لكنّ بعضَ السّجانين الّذين كانوا مُسلّحين ، ومدعومين بالكلاب أجهضوا هذه المحاولات سريعًا . سألني أحدهم يبدو أنّه الآمر : «أنتَ عليّ العكرمي؟» . أجبتُه : «نعم» . هزّ رأسَه وأشار إلى زبانيته . وبسرعة ألقوني ؛ ظهري على الأرض ، وطلبوا منّي أنْ أمدّ ذراعَيّ ، وقف عسكريّان عليهما ، كلّ واحد على ذراع ، ببسطاره الأسود ذي الفرزات النّاتئة ، وضغطَا على الذّراعين اللّيّنتَين حتّى كادا يُهشّمانهما ، وصرخ الآمر بي : «ارفعْ رِجلَيك يا زِنديق» . وانهالوا بهراواتهم الغليظة على رِجْلَيّ ، أطارت الضّربة الأولى صوابي ، فكتمتُ نَفَسي لكي لا أصرخ ، لكنّ الضّربة الثّانية حلّتْ نَفَسي ، فأخرجتُه

كما تخرج النّار من فوهة الفرن الملتهب. ثُمّ جاءت الضّربة الثّالثة، كأنّها غاصت في اللّحم حتّى نخرت العَظم، فصرختُ، ثُمّ الرّابعة فَعَلا صُراخي، ثُمّ تتابعت الهراوات، حتّى فقدتُ الإحساس بالألم، وصُراخي ذاب في المشهد فلم أعدْ أسمعه، شعرتُ أنّ كلّ شيءٍ قد سَكَنَ تمامًا، فقط أصواتٌ متداخلة خافتة تأتي من بعيد كأنّني في حلم. ورأيتُ وجه أمّي في تلك اللّحظة، كانتْ مُبتسمة، رأيتُها تأخذ باطن قدَمَيّ بِكَفَّيها وتُقبّلهما ثُمّ تمسح بهما وجهها الملائكيّ، ورأيتُ دمعةً بلّوريّة تطفر من عينِها، قالتْ: «لا تبتئسْ يا بُنيّ أنا معك». ولم أعدْ أُحِسّ بعدها بشيء، ولا أرى شيئًا، كنتُ قد فقدتُ الوعي.

حينَ صحوتُ كان السّجن كلّه قد أكل فلقةً عن بَكرة أبيه. لم يتركوا صغيرًا ولا كبيرًا إلاّ وناله من الهراوات على الرّجلَين ما نال غيره وزيادة. قال لي الرّوائيّ يوسف: «يبدو أنّه ترويض». سألتُه بصوت خفيض: «هل سمعتَ صرخاتي». أحسّ بأنّني خجلتُ من نفسي، نظرَ إليّ وهو يقول: «ليستْ أعلى من صرخاتي. لا عليكَ يا صديقي. إنّها الصّرخات الأولى والأخيرة، غدًا سيُصبح هذا المشهدُ مألوفًا. وفي النّهاية نحن من لحم ودم، لو فقدْنا الإحساس لفقدْنا الإنسانيّة».

حرّكتُ أصابعَ رجلَيَّ لأقيسَ حجم الألم، كان فظيعًا. ورأيتُ بعضَ الخشب قد دخل في لحم باطن الرّجل، نتفٌ من الهراوة الّتي كانتْ تهوي على قدمَي قد غاصَتْ أجزاءٌ منها مثل الإبر في أنحاء عديدة من قدَميّ، جلستُ أخرجُ هذه الإبر واحدة واحدةً، لكنّ الأمر كان عسيرًا، فأنْ تنحني بجِذعك حتّى ترى باطن قدمك وتقوم بإخراج تلك الإبر الخشبيّة أمرٌ ليس سهلاً. اقترحَ الرّوائيّ علينا أنْ ينزعَ كُلّ واحدٍ شوكَ الآخَر، وبالفعل استجبْنا لاقتِراحه. تربّع يوسف وأخذ

رجلَيّ بينَ يَدَيه ، وراحَ ينقّب بهدوء ومهارةٍ ويُخرِج الأشواك ، وفعلتُ له الشّيْء ذاته ، كان يُمكن أنْ ترانا نُسنِد أكفّنا على باطن الأرض ، ونمدّ أرجلنا بين أيادي زُمـلائنا ونحن نطلبُ منهم أنْ يُريحـونا من بعضِ الألم . بقينا ساعاتٍ نفعل ذلك حينَ فتحَ أحد السّجانين الباب ، وجاء بالغَداء ، وقف يوسف ليتناول الطّعام منه ، وهو يقول : «أنا أريدُ أنْ أُقدِّم شكوى . نحن بشرٌ ولنا حقوق ، ويجب أنْ تُحتَرم» . لم يفهم السّجان أوّل الأمر ، لكنّ يوسف أردف : «شكوى إلى آمر السّجن ، لأحتجّ على سوء المعاملة» . فهم السّجّان أخيرًا ، قال له : «اتبعني» . في غرفة الآمِر ، تلقّاه خمسةٌ من أشدّاء الحرس ، تناوبوا بالضّرب عليه حتّى أقعدهم الإرهاق ، لكمةٌ تتبعُ لكمة ، ولطمةٌ تتلو لطمة ، ورفسةٌ من خلفها رفسة ، وشتيمةٌ في إثر شتيمة : «تريد أنْ تتقدّم بشكوى أيّها الكلب . لم نعرفْ لمن تريدُ أنْ تُقدّمها ، لو كُنّا نعرف لكتبْناها عنك ، القائد يسمع الجميع ، وهو أبُ اللّيبيّين كلّهم» . ثُمّ ربطوا يدَيه خلفَ ظهرِه ، وأركبوه سيخ الفرّوجة ، وهَوَوا على رِجلَيه حتّى تورّمتا ، ثُمّ أسقطوه . ركله أحدهم برِجله ، ورفسَ آخر على بطنه ببسطارَيه ، وصاح ثالثٌ : «أعدْ هذا الحيوان إلى حُجرته» . لم يقوَ يوسف على الوقوف ، حاول مرّة بعدَ مرّة لكنّه كان أعجز من أنْ يقف لثوانٍ ، جرّوه جراً عبر الممرات ، وبالفعل ألقَوه إلينا من باب الزّنزانة كأنّه حيوان . بكيتُ يومَها لأجله ، سألتُه : «ماذا جرى؟» . لكنّه لم يُجِب . دخل في صمتٍ مُطبِق ، لم يقلْ كلمةً واحدةً ، ولم يتحدّث عمّا حصل معه ولو بعبارةٍ واحدة ، آثر السّكوتَ والانزِواء والهروب إلى داخله ، وانعقدَ لسانُه على الحقيقة ، واحتاج ثمانية أشهر كاملةً لكي يستعيدَ قُدرته على النُّطق من هول ما رأى .

صبيحة يوم السّبت ٢١ إبريل من عام ١٩٧٣ كان موعدنا مع الحَلاّق . أمرونا بالخروج إلى الآريا الكبيرة . أوقفونا في صفٍّ طويل ، وأجبرونا على أنْ نضع أيدينا خلفَ ظهورنا ، ونرفعَ رؤوسنا كما لو كانوا سيُطلِقون الرّصاص علينا مرّة واحدة . كُنّا نزيدُ على المئة في تلك السّاحة ، جاء ثلاثة حَلاّقين لا أدري إنْ كانوا من المساجين أو مجلوبين من خارج السّجن ، لكنّهم كانوا يعرفون الأوامر بشكلٍ واضح ، أخذ كلّ واحدٍ يسكب الصّابون على الرأس ، والماء ، ويدعك الفروة حتّى تُرغّي بشكلٍ جيّد ، طاف الثلاثة علينا جميعًا ، وفي أقلّ من نصفِ ساعة كان المنظر سُورياليًا ، مئة من السّجناء تحولت قُمَع رؤوسهم إلى اللّون الأبيض ، كأنّما نزل الغمام على رؤوسنا فأحاطَ بها ، أو أنّ أجسادنا ارتقتْ إلى الأعالي فأدخل كُلّ واحدٍ منّا رأسه في غَمامة . كان الصّابون يندلق على الوجه والحاجَبَين فيُحيلهما إلى اللّون الأبيض ، وقد ينزل الصّابون على العيون فيُغبّش الرّؤية ، أو يدخل فيها فيؤذينا إيذاءً شديدًا ، وكان شيءٌ من هذا الصّابون يسيل فيصل إلى الأنف أو الفم ، ومع التّنفسّ الطّبيعيّ ، يدفع هواء الزّفير الصّابون فتتشكّل فُقاعات صغيرة عند فتحتَي الأنف ، وعند انفراجة الشّفتَين ، تطير الفُقاعة أحيانًا لمسافة قصيرة ولكنّها سُرعان ما تنفثئ . ومع ذلك لم يكنْ بوسع الواحد أنْ يحرّك يدَيه من خلف ظهره لئلاً تأتيه هراوة غليظة ، أو حتّى رصاصةٌ طائشة . ثُمّ بدأت لحظة الجَزّ ، تساقطتْ الشّعور عن الرّؤوس ، بدأت الصّلعة تظهر ، كانت الشّفرة الواحدة تطوفُ على عشرين رأسًا لا تسأل عن صغيرٍ ولا كبيرٍ ، ولا عن صحيح ولا مريض ، وكانتْ تتبعُها بعض الصّفعات الّتي تأتيك عن غفلةٍ من كفٍّ غليظة لأحد الحرس ، كنتُ أسمع دويّ بعض هذه الصّفعات فأخشى أنْ تأتيني فأخبّئ رأسي بين

كتفَيّ في محاولة لتفادي صفعة مُتخيّلة ، ورأيتُ كذلك رؤوسًا تهبط تحت أثر الضّربة ، ورأيتُ دماءً تسيلُ من الجروح النّاتجة عن بعض البثور الموجودة في الرّؤوس ، أو عن تعميق خطّ الشّفرة حينَ ينزل أكثر في الفروة فيسيلُ الدّم في خطوطٍ متعرّجة ، كلّ ذلك ولا أحد يملك أنْ يمسح الدّم أو الصّابون أو يُوقف الصّفع . . . وأصبحتْ رؤوسنا كلّها جرداء بعدَ ذلك ، وشعرنا بالبرد وبالرّاحة حين اندلقتْ دلاء المياه على رؤوسنا وأُمرنا أنْ نفركها لكي نزيل آثار الدّم والصّابون ، وانتعشْنا بتلك الرّشقات الّتي بَرّدت حرّ الرؤوس وانسكبتْ إلى الأجساد ، وأصبحتْ في غضون نصف ساعة مئة دلاّعة (بطّيخة) جاهزة للاحتمالات القادمة . وكانت الاحتمالات القادمة أصعب . نُحّيَ جانبًا المساجين الّذين ليس لهم لِحى ، وبقي المُلتحون ، ولم يكن الأمر مرتبطًا بالالتزام بالدّين أو بسواه ، كان الأمر حرّيّة شخصيّة ؛ فكان يمكن أنْ تجد تروتسكيًا أو شيوعيًا بذقن ، وقياديًا كبيرًا في حزب التّحرير أو في الإخوان المسلمين بدونها . وارتسمتْ من جديد لوحةٌ بألوان مختلفة من الأفكار ، وبرؤى متباينة ، لكنّ الرّابط بينها كان تلك اللّحى الكثّة . نجا من العذاب والإهانة واللّوحة الفريدة الجديدة من كان حليقًا . وأعملت الشّفرات إياها في الوجوه وكانتْ قد أصلدتْ ولم تعدْ صالحةً لأنْ تحلقَ شعرةً واحدةً ، إضافةً إلى تلوّثها لمرورها بعشرات الرّؤوس أو اللّحى السّابقة . وكان عذابًا وشرًا مُستطيرًا ، واتّسع ألم الجروح ، ونزيف الدّم ، واختلط الأبيض مع الأحمر مع الوجع . ومَنْ رفع صوته من الألم ، عُوجِل وعُولج بصفعة ، أو سأله الحارس المُتربّص فوقه : «هل تريد الذّهاب إلى الفلقة أم الفرّوجة أم نُكمل؟» . والخيار الّذي ليس معه احتمالٌ آخر بالنّسبة للسّجين بالطّبع هو أنْ يُكمل . وصبرْنا حتّى مرّ ما كان .

صُنِّفْنا بعدَ ذلك تصنيفًا جديدًا . ليسَ بناءً على التّوجّهات السياسيّة أو المشارب الفِكريّة ، ولكنّه تصنيفٌ عشوائيٌّ ، يقضي بإدخال كلّ عشرة أو خمسة عشر سجينًا كيفما اتّفق إلى هذه الشّيلَة أو تلك . كان القسم العسكريّ الّذي نزلْنا فيه يتكوّن من ستّة عنابر ، وكلّ عنبر يتكوّن من عشر شيلاّت على الأقلّ . وهناك قسم خاصّ بالمحكومين بالإعدام كان يُسمّى (المَحقَرة) ، ولنا معه قصّة خاصّة فيما سيأتي .

بدأنا نستقرّ في عالَمنا الجديد . خياراتنا شبه معدومة ولذلك كُنّا نرضى بأيِّ شيءٍ وبكلّ شيء . أحيانًا انعدام الخيارات هو الخَيار الأفضل ، يُريح ، يوسّع قدرة السّجين على تقبّل الأمر ، ويجعله يندمج في أمرٍ كان يرى الاندِماج فيه من قبلُ مستحيلاً .

(٦)
العَقيد

- «ألستَ جائعًا يا سيّدي؟» . قال له منصور .

- «لا رغبةَ لي في الطّعام ، مصير ليبيا يؤرّقني ، لمن أترك هؤلاء الأيتام بعدي؟» . قال ذلك وقد زمّ شفتَيه ليمنع عَبْرةً نَدّتْ من طرفَ عينه اليُسرى الضّيّقة لكنّها سُرعان ما تجمّدتْ .

كان لا يزال يُحدّق في المرآة ، حينَ ألقى منصور سؤاله الأخير ، وسَكَنَ في مكانه ينتظر ما تُسفر عنه رغبات مولاه . فكّر وهو في موضعه ينظر في الصّورة المطبوعة في المرآة : «كلُّ ما له ثمنٌ قابلٌ للشّراء ، وكلّ مَعروضٍ مَبذولٌ» . لقد اشترى كرامة رؤساء كثيرين من قبل ، واشترى حتّى زوجاتهم ، واشترى اعتراف أفريقيا به ملكًا أوحدَ ، أفلا يُمكن أنْ يشتري مجموعةً من الرّعاع ، من أولئك المُغرّر بهم ، من الّذين وُلِدوا في زمن الكذب بعظمته ، لو كانوا من الجيل الّذي سبقهم لاستبصروا ولعرفوا حدودهم ، لكنّ هذا الجيل الضّائع المُخنّث الّذي يتعاطَى حبوب الهلوسة لم يعرف كيف يشتريه ، مَن الّذي ألقى في رُوع هؤلاء الشّباب أنْ يخرجوا ، أنْ يملؤوا السّاحات والميادين ، لا بُدَّ أنّهم لم ينالوا قِسطًا حقيقيًا من التّربية ، لا بُدّ أنّهم يتعاطَون نوعًا رخيصًا من الحشيش حتّى يُقدِموا على فَعَلاتهم هذه!! إنّهم ليسوا هم ، لا بُدّ أنّ وراءهم فرنسا وأمريكا ، الكلب الفرنسيّ الأجرب ساركوزي بعد أنْ منحتُه الفوز برئاسة فرنسا ينقلب عليّ ، ولكنّ الكلب يبقى

كلبًا ، هل رأيتم أحدًا يقول السّيّد الكلب ، أو الزّعيم الكلب ، أو القائد الكلب ، إنّه لا يستطيع أنْ يفعل شيئًا سوى أنْ يرفع صوتَه أكثر بالعُواء ، أو يهزّ ذيله متمسّحًا بحذاء سيّده . لكنْ فاتَ وقتُ اللّوم . الآلهة الّتي تعرف كلّ شيءٍ تحتاج إلى أنْ تعيش عصرَها كذلك ، وإنْ كان وجودها سابقًا للوجود نفسه ، مطلوبٌ منها أنْ تتواءم مع الزّمن الّذي تحياه ، لا ضيرَ على روحي المُوغلة في الطّهر والنّقاء والتّاريخ ، عليّ أنْ أنظر إلى أبنائي الّذين رفعوا قبضتهم في وجهي على النّحو الّذي يُعيد كلّ شيءٍ إلى نِصابه . إذا كان لطائراتهم زعيق ، فلطائراتي صريف ، وإنْ كان لصواريخهم هرير ، فلصواريخي هزيم . وسأعرف كيف أتعامل مع الأمر . أين عبد الله السّنوسيّ؟ أين موسى كوسا؟ أين أبنائي سيف ومعتصم؟ أينَ الآخرون ؛ لقد قرّرتُ أنْ أمنحكم شرفَ أنْ تذبّوا هذا الذّباب الّذي بدأ طنينه يُزعجني ، وأنْ تقوموا بِهَشّه قبل أنْ يتكاثر على صفحة وجهي .

أدار عينَيه على جسده المَمشوق ، ببِزّته العسكريّة اللامعة ، أزال النّظارة السّوداء عن عينَيه ، واقتربَ بوجهه أكثر من المرآة ، ها هو ، صلبٌ وقويّ ، وكِبرياؤه لا حَدّ لها ، وغير قابلٍ للهزيمة أو التّراجع أو النّكوص ، إنّه عنيدٌ كأنّه ذلك الفتى اليافع في أوّل أيّامه في الكلّيّة الحربيّة .

«أنا قاهر الملوك ومُذلّ الجبابرة» ، هتفَ صوته الدّاخليّ بهذه العبارة حينَ تذكّر الاحتفال بالفاتح من سبتمبر عام ١٩٨٩ ، كان الحسن الثّاني قد قَدِم على متن باخرةٍ ليُشارك في احتفالنا المَهيب بهذه الذّكرى الخالِدة ، كنتُ أتابع مسيرة الباخرة دقيقةً بدقيقة ، وحين رستْ في ميناء طرابلس ، أنفتُ أنْ أكون في استقباله ، أردتُ أنْ أُذلّه ، وأنْ أعلّمه

درسًا في التعامل معي ، فتركتُه ينتظر ساعتَين في المرفأ مثلَ عابرٍ انقطعتْ به السّبيل ، وهو يقلّب كفًا على كَفٍّ من الإهانة الّتي لصقتْ به ، وحينَ وصلتُ بعد هاتَين السّاعتَين ، صعد معي إلى الباخرة حشدٌ كبيرٌ من رجالي ، وأحاطوا به من كلّ جانب ، فضاع بين زِحامهم ، وبدا واحِدًا منهم ، شرطيًا أو جُنديًا من جنودي لا يُميّزه عنهم شيءٌ ، ثُمّ أمرتُ أحدهم أنْ يوجّه له لكمةً في هذا الزّحام إلى بَطْنه ، لقد كانتْ لكمةً مؤلمةً بالتّأكيد فأنا بنفسي سمعتُ تأوّه هذا الحسن ، وتأكّدتُ بنفسي من طريقة تأديبه . صورته وهو ينحني فَزِعًا ، وتراكض رِجاله كالفِئران لحمايته ، وابتسامة المُنتصر الّتي في داخلي لم تُفارق مخيّلتي إلى اليوم .

رفعَ رأسه إلى أعلى كأنّه يريد أنْ يتأكّد من أنّ ترقوته لا تهتزّ ، تذكّر الثّورة الفرنسيّة ، تذكّر ذلك الكاتب الّذي أيقنَ بعبقريّته ، عبقريّته في القِيادة والرّيادة والفكر والاستشراف ؛ فكتب كتابًا سمّاه : (القذّافي والثّورة الفرنسيّة) . لكنّه ودّ لو أنّه يظهر له في المرآةِ ليقطع له شِريان يده ، إنّه مع استفاضته في المقارنة بين الثّورتَين ، وتشابه بعض التّواريخ بينهما ، وتعظيمه لثورتي إلى الحدّ الّذي أرضى غرور الحقيقة ، إلاّ أنّ هذا البائس نَسِيَ شيئًا مهمًا في هذه المقارنة ؛ نسي أنّ الثّورة الفرنسيّة قامتْ على الدّماء والأشلاء ، وأمّا ثورتي فكانتْ أعظم لأنّها لم تُرِقْ قطرةَ دم واحدة ، الثّورة الفرنسيّة احتاجت عشرات السّنين لتنجح وتبدأ بإيتاء ثمارها ، وثورتي نجحتْ في أيّام وبدأتْ بالبناء على الفور ، لقد خلقتُ ليبيا جديدة ، وطنًا ليس كأيّ وطن ، وهيّأتُ له أمّة ليستْ كأيّ أمّة . لقد كانت الثّورة الفرنسيّة حمراء وكانتْ ثورتي بيضاء . لقد كانت ثورةَ هَدمٍ أعادت النّظام القديم ولم تتخلّص منه إلاّ

بعد إزهاق أرواح الكثيرن ، وثورتي كانتْ ثورةَ بناء قلبتْ صفحة الماضي في لحظات ، وكتبتْ اسمًا وارِفًا لليبيا في كتاب التّاريخ والمجد . الأغبياء اليوم يريدون تحطيم هذه الثّورة ، يريدون الاستِقواء عليها ، يريدون التّفريطَ بها ، لو أنّني أرقتُ الدّماء يومَ قمتُ بها لكان هؤلاء أحرصَ النّاس على الحفاظ عليها . الثّورة الّتي تجيء على طبق من ذهب خالصةً صافيةً لا يعرف قيمتها النّائمون في الأسرّة والمُستَلْقون تحت الظّلال ، لو أنّني جعلتُهم يدفعون ثمن هذه الثّورة من دمائهم لكانوا اليوم أكثر معرفةً بقيمتها وحَقّها عليهم والمُحافظة بأرواحهم عليها ، والوقوف في وجه كلّ مَنْ يسعى إلى تدميرها .

إنّني أَحَنّ من الأمّ الرّؤوم على أبنائها ، وإنّني أشدّ حياءً من العذراء في خِدرها ، وإنّني أرقّ من الماء إذا جرى عذبًا صافيًا ، وإنّني أسيفٌ تُبكيني دمعةٌ في عينِ طفلةٍ يتيمة . . . لكنّني لستُ ضعيفًا كما تظنّون ، فأنا في المقابل أَحدّ من السّيف إذا رأيتُ ضرورةً أنْ أضع السّيف في موضعه ، وإنّني أنفذ من الرّمح إذا رأيتُ أنّ الأمر يستدعي أنْ أنفذه .

هؤلاء الغوغاء الّذين تضجّ بهم الشّوارع وبهتافاتهم الباردة ليسوا ليبيّين ، إنّهم مجموعةٌ من الكُسالَى دفعتْ لهم جهاتٌ خارجيّة من أجل أنْ يخرجوا ، لقد أخرجهم المال ، وجمعهم كُرههم لأنفسهم ، لو كانوا يُحبّون أنفسهم لأحبّوا وطنهم ، ولأحبّوا قائدهم . ولكنْ ما عساهم أنْ يفعلوا؟! لا شيءَ . إنّني مُستعدٌّ إلى نفيهم إلى الصّحراء ليعيشوا بين الذّئاب والأفاعي والعقارب لأنّهم لا يستحقّون النّعمة الّتي جلبْتُها لهم ، وسأدعو التونسيّين والمصريّين والأفارقة ليعملوا مكانهم ، إنّهم لا يُدرِكون أنّه من السّهل على القائد العظيم أنْ يستبدل

شعبًا بشعب ، فلتخلُ ليبيا من الجاحدين ، ولتمتلِئ بالشّاكرين أيًا كانوا . لو كانتْ لهم ذاكرةٌ لعلموا أنّني فعلتُ هذا في عام ١٩٩٣ حينَ بعثتُ بآلاف الفلسطينيّين ، بعثتُ بالشّعب الفلسطينيّ بأكمله الّذي يرتع في نعيم ليبيا إلى الحدود ، لكي يأتي عرفات الّذي عقد الصّلح مع اليهود ، وصارتْ له دولة ويأخذهم ، أمن الصعب عليّ أنْ ألعبَ بالشّعوب؟! ألا يحقّ للخالق أنْ يُعيد توزيعَ خَلْقه . . . سكت صوتُه الدّاخليّ من اللّهاث وهو يستعيد كلّ هذا ، صاح متخيّلاً أنّ صوتَه الدّاخليّ هذا كان مسموعًا : «أليسَ ذلك من حقّي يا يونس؟ أليسَ ذلك من حَقّي يا رفيق؟» . أتاه صوتُ يونس من خلفه وهو لا يدري عَمّ يتحدّث : «من حقّك أيّها القائد ، من حَقّكَ بلا شَكّ» .

مُخطِئٌ مَنْ يعتقد أنّني خرجتُ من عباءة (عبد النّاصر) . هراء . الآلهة لا يخرجون من أجساد البشر . عبد النّاصر كلبٌ آخَر . إنّه زعيم السّمك الجائع . إنّه لا يُتقن غير التّهريج ، لكنّني لا أنكر أنّني استفدتُ من طرائقه في التّخلّص من بعضِ الضّالّين في ليبيا الجديدة ، كما تخلّص هو منهم في مصر . لقد قتلَ وعذّبَ وشنق وقبرَ في مقابر جماعيّة وأعدمَ الآلاف بطريقة دراماتيكيّة لم يُحاسبْه عليها أحدٌ ، بل ظَلّ مع ذلك في نظر كثيرٍ من البُلَهاء بطلاً . لقد تعلّمتُ كلمةً أثيرةً قالَها لِسانُ حاله : «اتركْهم في السّجن حتّى ينسَوا أسماءَهم» . لكنّني زدتُ على ذلك ، فتركتُهم في السّجن حتّى نَسوا إنسانيّتهم . وهل أُلامُ على ذلك؟ كلا ؛ ماذا كان يُمكن أنْ يفعل الطّبيب مع الجرح النّازف؛ كان عليه أنْ يكويه بالنّار ، وأنا كنتُ الطّبيبَ يومَها ؛ كويتُهم بالنّار حتّى أوقف نزيف ليبيا الّذي سال بسببهم .

سمع هذه المرّة جلبةً قويّة ، وقفَ منصور ويونس في هيئة

استعداد ، أمّا هو فظلّ على هيئته دون أنْ يُعير الأمر أيّ اهتمام . سُمِعتْ خُطُوات عسكريّةٌ سريعةٌ تقتربُ من المكان . تأهّب يونس ، وتقدّم منصور . دخل أحد قادة الحرس الشّعبيّ ، حدّث منصورًا بصوت خفيض : «إنّ أمواجًا من البشر تقتربُ من باب العزيزيّة محميّةً بتحليق طائرات حلف النّاتو» . «الخَوَنة» ردّ منصور ، ثُمّ أردف : «يتحرّكون بِغطاء من أعداء ليبيا للقَضاء على ليبيا ، أمام أيّ محكمة سيقف هؤلاء الغادِرون حينَ تنجلي الحقائق؟!» . أعطاه بعضَ التّعليمات فخرج . «سمعتُ كلّ شيءٍ» قال القائد . تلعثم منصور . أردفَ العقيد : «كم يُساوون؟ قذيفتَي مدفعٍ أم أقلّ؟ الأمر لا يحتاج إلى تفكيرٍ كثير! افْعَلْها دون إبطاء» . «نعم يا سيّدي» .

اقتربت الأصواتُ أكثر . بدت الجلبة تهزّ الجدران . إنّهم يهتفون : «جيناك يا معمّر» . سَخِر من الهُتاف ، ظلّ رابطَ الجأش . «أنا لستُ إنسانًا مثلكم لأخاف من عُوائكم!!» . لكنّ شيئًا ما في الأعلى انفجر ، كان صوتُ انفجاره قويًا إلى الحَدّ الّذي ظنّ فيه منصور ويونس أنّه انفجارٌ في الطّبقة الثّانية أو الثّالثة من السّراديب الّتي تعلو الغرفة . ارتجّت المرآة ، اهتزّ عددٌ من الثّيران والأسود على الحوافّ ، واهتزّ كذلك (خوفو) في وسط الحرف الأعلى ، وغالبَ السّقوط قبل أنْ يغلبه ، فيقع متدحرجًا بين قدمَي القائد . لم يلتفتْ إليه ، تحسّسه ببسطاره العسكريّ ، وحينَ أدرك أنّه صار تحت رحمة هذا البُسطار سحقهَ دون هوادة : «مَنْ يرتعش لا يستحقّ العيش» .

العزيزيّة في الحقيقة ليستْ قصرًا ولا مُجمّعًا سكنيًا ، ولا حديقةً ، ولا أيًا من ذلك ؛ إنّها مجموعة من السّراديب المتراكب بعضُها فوقَ بعض ، مكوّنة من غرفٍ مُظلِمة ، وأقبية مخفيّة ، يتّخذ فيها أولياء الإله

عملهم في تسيير أمور البلاد ، ويتّخذ فيها القائد في خيمة محميّة بأشدّ أنواع الحراسة مأوى لمبيته ، وما بين هذه السّراديب والأقبية تعيش محظيّات القائد ومحظيّوه ، وحرسه ومُريدوه ، وساحراته وساحروه . وتتحوّل العزيزيّة في زمن المتعة إلى ماخور يُمارس فيه البغاء والفُجور ، وملهى تنداح في أقنيته الخمور والبخور .

علا صوتُ الجماهير ، بدا أنّه يخترق كلّ هذه الطّبقات السّميكة ليصل إلى أذنَيه : «جيناك يا معمّر» . تَصاعدَ غضبٌ شديدٌ من أعماق العقيد ، زفرَ ، راحَ صدرهُ يعلو ويهبط ، زفر بشكلٍ أسرع ، ثُمّ أطلقَ صرخته . هذه المرّة سَمِعَه كلّ أحد : «أنا مبعوث العناية الإلهيّة ، أنا المُنقِذ ، أنا المُخلّص ، ملعونةٌ هي القُرى الّتي خرجتْ ضِدّي ، بائسةٌ هي الأرحام الّتي تحمل أجنّةً لا تُقدّر فَرادتي ، رجيمةٌ هي الأفواه الّتي لا تُسبّح بحَمْدي ، منبوذةٌ هي الأرواح الّتي لا تُقدّس نعمتي... أنا الّذي اختارني القدير لكي أكون ظِلّه على الأرض ، هل تسمعونني؟ أنتم . . . ها أنذا أحذّركم . . . إنّ جنّتي لن يدخلها إلاّ من ماتَ في سبيلي . . . وإنّ قوّتي لن يُفنيها إلاّ مَنْ بَثّها في عروقي . . . وإنّ دمائي تلعن الخونة والمارقين والعُصاة . . هل تسمعونني؟ أنا السّيّد الأبديّ ولن يهزمني أحدٌ . هل تسمعونني . . أنتم . . . أنتم . . . هل تسمعونني؟!» .

كاد ينهار لولا أنّه تمالكَ نفسه ، وهُرِعَ إليه يونس ليُهدّئ من هياجه ، ويُطمْئنه : «إنّ ما حدث كان أمرًا بسيطًا . لن يتخلّى عنك إلاّ من جهلك . نحن كلّنا فداؤك . وعمّا قريبٍ ستنقشع هذه الغمّة يا مولاي» . انحنى قليلاً ، لكنّه حاول أنْ يستعيد استقامةَ ظهره ، قال له وهو يتصبّب عرقًا : «قُلْ لي يا يونس؟ لماذا يخرجون ضِدّي ؛ هل كنتُ ظالِمًا لشعبي؟!!» .

(٧)
ضُبّاط المحاولة الانقِلابيّة الأولى

كُنّا قد أوينا إلى أوطاننا الجديدة عصر اليوم الخامس . بيجاما السّجن أعطوها لنا بعد الفلقة ، وعددًا من الشّباشب الّتي لا تعرفُ الفردة اليُمنى فيها من اليُسرى ، وبدونا فرحين باللّباس الجديد ، والهيئة الطّريفة ، وكانت البيجاما من النّعومة بحيثُ أنّنا رُحنا نطوف بأيدينا عليها نتلمّسها ، ونُطيل وَضْعها في الجيوب الجانبيّة . وبدونا مثل الأطفال الّذين يفرحون بلباسٍ أو لعبة .

آوى سِجنُنا كلّ المحاولات الانقلابيّة ضدّ معمّر . مرّتْ عبر سنوات إقامتي هنا كثيرٌ من هذه القضايا ، كانتْ أولى هذه المحاولات هي القضيّة الّتي ضمّتْ مجموعةً من ضُبّاط الصّف يقودهم عبد الرّحمن الوندي .

كان لمعمّر عينان لا تنامان ، وقلبٌ لا يعرفُ الرّاحة . كان يكره الجميع ويُحبّ نفسه ، قضى سنوات تولّيه كرسيّ الحُكم وهو يشمّ الخَطَر شمًّا ، ويشكُّ في كلّ مَنْ حوله حتّى إنّه ليكادُ يشكّ في نفسه ، وعاش وهو يتحسّس جوانبه من أنْ يكون قد انقلبَ عليه أقربُ النّاس إليه ، وقد كان حَدْسُه صادقًا ، فإنّه تفاجأ في البدايات بعددٍ من الّذين مدّ لهم يده فمدّوا له مُسدّساتهم ، فأقسم ألاّ يطرفَ له جفنٌ حتّى يقضي على كلّ مَنْ يُفكّر في أنْ يرفع رأسه في حضرة سيّده . شبّتْ نيرانٌ كثيرةٌ بالكرسيّ الجالس عليه ، لكنّه كانتْ لديه النّباهة الكافية

والذّكاء الغريزيّ في أنْ يُسارع إلى إطفاء تلك النّيران قبل أنْ يشتدّ أوارها فيأتي الحريق على رِجْل من أرجل هذا الكرسي ، فتنكسر، فيختلّ توازنه فيسقط . كان يَقِظًا . ولديه قرون استشعار تسبق كلّ مَنْ حاول أنْ يطعنه في الظّهر بمراحل . ولم يكنْ ليعتمد كثيرًا على الرّجال من حوله ، فقد شكّلتْ يقظتُه الدّائبة أصلبَ حُرّاسه . وكان ذئبًا لا تُصيبه سنة ، وثعلبًا لا تُخطئه حيلة ، وأفعى لا ينقصها سُمّ ، وضبعًا لا يعرف إلاّ الغَدر ، وحرباء لا يُتقن غير التّلوّن!

جاؤوا بالضّابط الأوّل ، دفعوا به إلى حائط الزّنزانة ، وبشكل مُتصالب قيّدوا يَدَيه ورِجلَيه ، ثُمّ تقدّمَ منه سَجّان ضَخم الجُثّة ، فأمسكَ بتلابيب قميصه فنزعه عنه بضربةٍ واحدة ، ثُمّ عمد إلى بنطاله العسكريّ فأعمل فيه كلتا قبضتَي يدَيه حتّى مزّقه ، فصار الضّابط عاريًا ، كان في الخلف ثلاثةٌ ينتظرون دورَهم ، الّذي في الوسط من هؤلاء الثّلاثة كان يضع نظّارةً على عينَيه ، وبدا في الثّلاثينيّات من عمره ، تبدو على وجهه أمارات الهدوء التّام والرزّانه ، وكان يُتابع المشهد بتركيز ، وهو يضع يدَيه في جيبتَي مريوله الأبيض . الآخران كانا يقفان عن يمينه وعن يساره على هيئة استعداد ، حين صار الضّابط عاريًا تمامًا مربوط اليدَين والقدَمَين تنحّى السّجان العملاق جانبًا ، وبدا أنّ ذا المريول الأبيض قد حان دورُه ، تقدّم بثباتٍ باتّجاه السّجين ، وتقدّم معه الآخران وإنْ ظلاّ محافظين على خُطوةٍ قصيرةٍ تفصلهما عنه ، التفتَ ذو المريول الأبيض عن يساره ، فمدّ له الرّجل بقُفازَين ، ارتداهما على مَهَلٍ ، وأحكم شَدّهما على كفّيه ، ورفعهما في وجهه ليتأكّد من أنّه لبسهما بشكلٍ صحيح . ثمّ التفتَ عن يمينه ومدّ يده دون أنْ يقول كلمةً واحدة ، فناوَله الواقف عن يمينه مِشرطًا جراحيًا ،

وتراجع الاثنان خُطوةً إلى الوراء، فيما ذو المريول الأبيض تقدّم حتّى صار في مواجهة الضّابط السّجين، نظر في عينَين بتركيز، مدّ إصبعَي يدَيه، وأحكم وضعهما على اعلى عينَي السّجين وأسفلهما وفتحهما، ونظر فيهما بعمق، كانتا عينَي مذعور، يكادُ البؤبؤان ينفران من المحجرَين، لو كان للرّعب هيئةٌ فلن تكون أوضح من تلك الّتي ارتسمتْ على عينَي السّجين. راحتْ أنفاسه تتصاعد وتهبط، وصدره يرتجّ كصخرةٍ تتقلقل في منحدر، تركه ذو المريول لحظاتٍ قبل أنْ يشير إلى أحد مُساعِدَيه فيأتيهم بكرسيٍّ من الزاوية القريبة من باب الزّنزانة، جلس عليه، واقتربَ من الرُّكبة اليُمنى للسّجين الّذي راح يحني رقبته بما يستطيع وينظر بعينَين مفتوحَتين على اتّساعهما تنضحان هلعًا ليعرفَ ماذا يُمكن أنْ يفعل هذا الرّجل الغريب ذو المريول الأبيض، لم يُمهله ذو المريول كثيرًا كي يعرف، فقد أعمل مِشرطه الجراحيّ في رُكبته، دفعَ المشرط في زاويةٍ مُعيّنة أعلى الرُّكبة، وضغطَ عليه قليلاً حتّى لا يغوصَ كثيرًا فيفقد السّجين الإحساس بالألّم، وراح يلفّ المِشرط من تلك النّقطة في حركةٍ دائريّة وهو يشقّ الجلد عن اللّحم، ملأ صُراخ السّجين المكان، ارتطم بجدران الزّنزانة الأربعة، وتخابطَ في فضائها وتداخل قبل أنْ ترتجّ له أبدان كلّ مَن سمعه، إلاّ أنّ أحدًا في الزنزانة لم يشعرْ بشيءٍ، لقد اعتبروا ذلك جزءاً من سَيْر العمليّة، كان السّجين يصرخ: «آآآآه... آآآآآآآآه» وذو المريول الأبيض يُتابع عمله بدقّة، وإن استعان بسّجانَين من أجل أنْ يُثّبتا السّجين بالضّغط على فَخذه ليُكمِلَ مهمّته دون إزعاج.

سلَخ ذو المريول الأبيض الجلد عن اللّحم في دائرة مرسومة بعناية قُطرها عشرة سنتيمترات، ثُمّ استخدم آلةً جراحيّةً أخرى ليفصل

اللّحم عن العَظم ، كان صراخ السّجين المُفزع قد أطال عمر صَحوته ، فشاهد ما يحدث له بشكلٍ مُباشرٍ ، يكزّ على أسنانه ، وتبين عروق عنقه من الاحتِقان ، ويشهق ويزفر بسرعةٍ كبيرة ، ويتصبّب وجهه عرقًا يسيل بسرعةٍ وعشوائية ، وقد تتناثر قطراتٌ من هذا العرق إذا ما نفض الضّابط رأسه في محاولةٍ للهروب من الألم ، ظلّ السّجين يحاول أنْ يُفلتَ من القيد المُثبّت على الجدار بإحكام لكنْ دون جدوى . . . بعد مرحلة اللّحم فقد الوَعي ، وأكمل ذو المريولِ الأبيض عمله ، حتّى بانَ العَظم ، كان العَظم من تحت اللّحم أزرقَ فاتحًا ، كشطَ ما تبقّى عليه من لَحم ليظلّ العظم لامِعًا مع قليلٍ من تجَلّط الدّم على الحوافّ ، ثُمّ انتقل إلى الرّكبة الأخرى ففعل ما فعل بأختها . ارتخى جسد السّجين مُبكّرًا من عمر العمليّة الجراحيّة السورياليّة ، كان فُقدانه الوعي رحمةً مُؤقّتة ، سيُصاب بالجنون حينَ يستيقظ بعد ثلاثة أيّام من الغيبوبة ويرى ما حلّ برُكبتَيه ؛ لن يستطيع المشي ، سيظلّ مرميًا في زنزانة انفراديّة ، ينظر إلى ما حوله بعيونٍ زائغةٍ تنطق بكلّ وجع في الدُّنيا ، وحينَ تُؤلمه رُكبتاه لن يجد للصّراخ معنًى ، وحينَ يريدُ أنْ يقضي حاجته سيزحف مرّة أو مرّتين إلى دورة المياه ، لكنّه سيضطرّ أنْ يفعلها على نفسه من بعد ، وسيُترَك عاريًا للبرد والصّقيع ، وبعد يومَين آخرين ، ستتجمّع البكتيريا على موضع اللّحم المكشوط ، والعظم المكشوف ، وسيلتهب موضع الحَزّ ، وستبدأ العفونة تأكله ، فما من مضادّ حيويّ ولا تعقيم يُمكن أنْ يُبرِئ جرحًا كهذا ، وسينتشر العفن في ساقه ، وسيتمنّى الموت في اليوم الرّابع ، وسيكون الله به رحيمًا فيستجيب لأمنيته العزيزة ، وسيقضي عاريًا وحيدًا ، ثُمّ سيُلفّ في بطّانيّة وتُبعث جثّته إلى موضعٍ خلف السّجن ، سيكون المقبرة ،

وسيكون أوّل مَنْ يدخلها ، ومِنْ بعدُ ستؤنس وَحشته كثيرٌ من الجثث الّتي ستُلقى في الحفرة ذاتها!!

ثُمّ أحضروا في اليوم الثّاني عددًا من الضُبّاط ، هذه المرّة كانت غرفُ التّعذيب أوسع ، وكان التّعذيب يتمّ بشكلٍ جماعيّ ، عُهِدَ بفتْح الرُكَب إلى سَجّانين بدائيّين ، ولم تكنْ لهم مهارةُ الجَزّار الأوّل ، وكان هذا من حُسن حظّ المُعذّبين ، فإنّه وإنْ كان عذابًا لا يُطاق إلاّ أنّه لم يكنْ ليُؤدّي إلى الموت ، لقد عثر الحظّ بالضّابط الأوّل ، وقد أقدمَ الجرّاح الأوّل على القِيام بالعمليّة أمامهم ليعلّمهم ، فهو ليس موجودًا عند كلّ سجينٍ ليقومَ بمهمّةٍ جليلةٍ كهذه ، وبالفِعل انتقلتْ عدوى فتح الرُكب إلى بعضِ الّذين يتلذّذون بمنظر الدّماء السّائلة والجلود المنفتقة ، والجروح المفتوحة ، والعِظام المكشوفة .

جاء السّجان (نوري) وبيده المشرط نفسه ، كان متحمّسًا بشكلٍ طفوليّ ، وعيناه تقطران شغفًا ، أعمل مِشرطه في ركبة الضّابط الثّاني ، انفتق الجرح ، سال الدّم ، ضَحك نوري ، شهق للخيوط الحمراء تملأ الجزء العاري من الجسد ، غاصَ بهمجيّة في الموضع ، راح يحرّك يده وهو يُقهقه ، اختلطتْ أصوات قهقهاته مع صرخات السّجين ، لهث السّجان ، شدّ السّجين على أسنانه . رشح وجهُ السّجّان عرقًا وهو يشدّ بالِمشرط على الرّكبة ، تعرّق وجه السّجين وهو يكزّ على أسنانه من الوجع ، تشابه العَرقان واختلف الباعث . بكى السّجين من وَقْع الألم ، بكى السّجان من وقع التّعب ، كلاهما يبكي ، كلاهما في عناء ، كلاهما يستحقّ الشّفقة . أقعى السجّان على قَفاه وهو يلهث ورمى المِشرط من يده ، ألقى السّجين رأسه على صدره وهو يلهث واستسلم للقدر ، كلاهما يحتاج إلى مُساعدةٍ من نوعٍ ما . عاد السّجين إلى

زنزانته واحتاج إلى ستّة أشهر لكي يُشفى من الجرح ، عاد السّجان إلى ثكنته واحتاج إلى ستّة أشهر لكي يُصبح محترفًا!!

الضّابط الثّالث والرّابع والخامس ، لم يعدْ مهمًا عدد الضُّبّاط ، إنّهم يُجرّبون مع كلّ ضابطٍ وسيلةً جديدةً للتّعذيب ، ويُعيدون بعدَ شهرٍ أو اثنَين تقويم هذه الوسائل ليتوصّلوا إلى الوسيلة الأنفع والأجدى في استخراج المعلومات ، وفي رَدْع الباقين .

جاؤوا به عارِيًا تمامًا . قيّدوه من يدَيه ورجليه كالسّابقين ، ثُمّ أحضروا عشرة أسياخ من الحديد ، وأوقدوا نارًا تنبعثُ من غازٍ أرضيّ ذي مساند ، ثُمّ وضعوا الأسياخ عليها ، ورفعوا النّار حتّى إنّ حرارتها لتُحَسّ على بُعد أمتار ، وإنّ وهجها ليكادُ يُسقِط لحم الوجه لمن دنا منها ، أحمت النّارُ الأسياخ فاحمرّت ، والسّجين ينظر وهو يُفكّر في الطّريقة الّتي سيُعذّب بها ، ويجمح به خياله فيجزع ، فتصطكّ أسنانه ، ويرتجّ بدنُه ، ثُمّ تندّ منه صيحةُ رجاءٍ خافتة أنْ يرحموه ، ثمّ يسيل الزّبد على حوافّ فمه ، يصدرُ منه صوتٌ هو مزيجٌ من البكاء المكبوت والأنين ، وهم في غفلةٍ عنه ، مشغولون باحمرار الأسياخ . لكنّ الاحمِرار لا يكفي ، قال رئيسهم ، دَعُوها حتّى تبيضّ ، وزِيدوا اللّهب تحتها ، وتُترَك ساعتَين أُخريَين ، حتّى يبيضّ الاحمِرار ، وتُصبح درجة حرارتها بالمئات ، والسّجين لا يكاد يُصدّق ما يرى ، ويتمنّى لو كان حلمًا ، وترتفع كلماته الصّامتة إلى الله أنْ يُنجّيه أو يُخفّف عنه شيئًا من هذا العذاب الّذي لم يَدْرِ حتّى الآن على أيّ طريقةٍ سيتلقّاه ، لقد فكّروا في أنْ ينثروا هذه الأسياخ المُحمّاة على الأرض ويُجبروه أنْ يمشيَ فوقَها ، أو أنْ يحرقوا بها أجزاء من جسده ، لكنّه لم يتوقّع أنْ يفعلوا به ما فعلوا . حين ابيضّت هذه الأسياخ ، أشار رئيسهم إلى

اثنين ، ففكّوا قيده ، فدخل الأمل إلى قلب السّجين بأنّه سيكون بمقداره أنْ يتفادَى جزءاً من العذاب بيدَيه ورجلَيه الطّليقتَين ، لكنّهم سرعان ما قلبوا وجهه فصار إلى الحائط ، وصار ظهره إلى الزّبانية ، ثُمّ قاموا بتقييد أطرافه الأربعة بإحكام ، وبدؤوا حفلتهم الرّهيبة .

جاء السّجان الأوّل فأمسك السّيخ المُحمّى وتوجّه إلى دُبر السّجين فأدخله في دُبره كاملاً ، انفجرت الصّرخة أوّل دخول السّيخ ، لكنّ صوتَ نشيشها مع اللّحم سُمعَ أيضًا حتّى ظنّ الرّئيس أنّه أوضح من الصّرخة ، أيّ لغةٍ يُمكن أنْ تُعبّر عن الوجع والمهانة والخزي الّذي يحصل . أمرهم الرّئيس أنْ يتناوبوا على أداء المهمّة ، فأدخلوا الأسياخ العشرة كاملةً في دبره دون أنْ يطرفَ لهم جَفن!! وخرجوا . بقي البائس وحيدًا لليوم الثّاني ، جاء ذو المريول الأبيض وكشفَ عليه ، قال لهم : إنّه ميّتٌ منذ البارحة ، حملوه وألقوه في مقبرة السّجن ، لقد صار للشّهيد الأوّل مَنْ يؤنِسه ، ضَحِكا معًا ، وصَعدا من هناك إلى السّماء السّابعة ، وجلسا تحت ظلّ العرش ، أرادا أنْ يقولا لبقيّة الضّباط إنّ الأمر ليسَ سهلاً ولكنّه يستحقّ ، لكنّ صوتَهم كان قد فارقهم مع أرواحهم!!

قال أحدهم : «الموتُ في حدّ ذاته ليسَ صعبًا ، الصّعبُ مواجهته بثبات ، أنْ تتقبّله ، أنْ تعرف أنّه يسلكُ بك إلى الطّريق الّتي بدأتَها قبله ، الطّريق الّتي كنتَ مُقتنِعًا بها يومئذٍ . الصّعب أنْ تشكّ ، ألاّ تكون متأكّدًا إلى أيّ الطّرق سيقودك موتُك . المؤمنون راحتهم في عودة أرواحهم إلى بارئِها ، المؤمنون يمتلكون اليقين ، واليقين لا شيء يقف أمامه» .

الفوج الأخير من المجموعة الأولى الّتي قالتْ للعقيد : (لا) ،

والّذي لم يحتمل أنْ يسمعها من أيّ أحدٍ ، هو لم يقلْ لنفسه هذه الكلمة حتّى يأتي بعض الرّعاع فيُشهروها في وجهه . الفوج الأخير ظلّ حَيًّا ، لكنّ بعضه فقدَ أعزّ ما يملك ، كانوا قد عُلّقوا من سقوف الزّنازين ، أذرعهم مشدودة في تلك السّقوف وأرجلهم في الهواء ، ترتفع مترًا أو أكثر عن الأرض ، وكانوا يختارون من يريدون المبالغة في إهانته ، فيأتي إليه ذو المريول الأبيض ، يعطيه حُقنة تُفقده القدرة على الحركة لكنها تحافِظ على إحساسه أو أكثره وتُبقيه مفتوح العينَين ليرى ما يحدث ، ثُمّ يُعرّى ، ويأتيه هذا الرّجل العبقريّ ، بمشرطٍ دقيق ، إلى خصيتَي السّجين ، ويُعمِل فيهما مبضعه ، ثُمّ بعد أنْ يُنهي ينتقل إلى الآخَر ، ثُمّ يُتركون معلّقين أيّامًا ، لينحبس الدّم في عروق أيديهم ، وتتيبّس ، ثُمّ تُفكّ قيودهم ويُترَكون ليسقطوا ، ويُحملون إلى مهاجعهم ، وقد فقد بعضُهم رجولته!!

هل كان العقيد رجلاً ليواجهنا بهذه الطّريقة؟! هل كان ينتقم لرجولته المفقودة هو الآخَر ، أمْ أنّ هَوَسه الجنسيّ ، وخياله المريض أوحى له أنْ يفعل بنا كلّ ذلك!!

(٨)
المَحقَرة

سجنٌ داخل السّجن، ظلمةٌ في أعماق ظُلمة، إنّه القسم الأكثر رُعبًا وغموضًا؛ (المحقرة)، أُعِدّ للمحكومين بالإعدام، ولم يُلقَ في غياهبه سِواهم، يقع خارج الزّنازين، أبوابه مَلحومة بلحام لا يُمكن أنْ يفكّه أو يقطعه شيءٌ. إذا أُدخل إليه السّجين لا يُمكن أنْ يخرج منه إلاّ إذا أراد الله، وأبوابه لا تُفتح إلاّ مرّة واحدة حينَ يُزَجّ بالسّجين إليه. السّجين فيه خارج إطار الزّمن، فلا يعرف الوقت بأيّ طريقة، لا يعرف شروق الشّمس ولا غروبها، ولا اللّيل ولا النّهار، ولا صلاة الظّهر ولا المغرب أو غيرهما، ولا إنْ كان اليوم هو الجمعة أو الثلاثاء أو غيرهما، ولا إنْ كان الوقتُ صباحًا أو مساءً، ليسَ مُجهّزًا لأيّ كائنٍ حَيّ حتّى يُمكنه البقاء فيه، والبقاء فيه مُعجِزة، نُزلاؤه في الشّتاء ينخر البرد عِظامهم، وفي الصّيف تغلي بالحرارة رُؤوسهم، منفيّون داخل منفى، معزولون عن كلّ شيءٍ، يتحرّكون في لا زمن، وزنازينهم مُظلمة كظُلمة القبور أو أشدّ، وهي انفراديّة فلا يجتمع أحدٌ بالثّاني ألبتّة، وجميع نُزلائها من الّذين كانوا ينتظرون في أيّ لحظة أنْ يُساقوا إلى منصّة الإعدام فيلتفّ حبلُ المِشنقة حول أعناقهم. لا رجاء في عفو، ولا أمل في إفراج، ولا تطلّعَ إلى حياةٍ، ولا انتظارَ لغدٍ أفضل، ولا يسمعون أحدًا، ولا يكلّمون أحدًا، ولا يعرفون أحدًا، وهم يجهلون إنْ كان هناك غيرهم في زنازين أخرى ملاصقة لهم أو بعيدة عنهم،

تتعفّن أجسادهم للرّطوبة ، وتذوي أرواحهم للظّلمة ، وتعشى عيونهم لطول عهدها بالشّمس ، وتخفتُ أصواتهم لفقدانهم الجليس والأنيس. وقد يبقى الواحد ينتظر تنفيذ الحكم به أعوامًا عديدة ، ولقد طال العهد بأحدهم فبقي ثمانية عشر عامًا ينتظر هذا الحُكم ، ولم يخرج من زنزانته الانفراديّة يومًا واحِدًا . وسأقصّ لكم حكايته إنْ صبرتُم عليّ قليلاً ، ففيها من العِبَر ما يُهوّن أمر الدُّنيا كلّها .

كان السّجانون يقدّمون الطّعام لنزلاء المَحقَرة من فتحة في الباب، تتّسع للطّبق الصّغير أو الصّحن البلاستيكيّ البسيط ، ولا ينظرون في وجوههم مباشرة خوفَ الرّعب ، لأنّهم يتوقّعون أنْ يجدوا مومياء في الدّاخل ، أو بشرًا تحوّلَ إلى مِسخ ، أو إلى هيكل عظميّ ، ولم يكن السّجانون يعرفون أسماء المساجين ، وكذلك لم نكنْ نعرف نحن أسماءَهم حتّى لا تنشأ بيننا علاقةٌ فتتسمّم أفكارهم على حَدّ تعبيرهم بأفكارنا الشّيطانية ، ويصبحون زناديق أو عملاءَ مثلنا!! وكان كلّ مَنْ في المحقرة لا اسم ولا رقم ولا هُويّة له ، ولم يكنْ يخضع حتّى للعَدّ فهو في حُكم الميّت أو حُكم المفقود أو حكم اللاّموجود أو حُكم اللاشيء. وكان المبيت والأكل وقضاء الحاجة وكلّ شيءٍ يتمّ في الزّنزانة نفسها، الّتي لا يزيد طولها عن مترين في متر واحد ، وفيما بعدُ سنكتشف أنّ هناك في المَحقَرة وفي غيرها زنازين أشدّ ضيقًا من هذه!!

كان قسمًا قذِرًا ، لم يمسّ الماء أرضَه منذُ أنْ أنشِئ ، تتناثر على جدرانه وبلاطه بُقَع الدّم ، وتفوح منه رائحة المجاري ، ويملك السّجين فيه إذا كان ذا حظٍّ عظيم بطّانيّة واحدة ، ممزّقة ، منخورة الأوساط، مترهّلة الحوافّ ، تعبق برائحة الدّم لضحايا سابقين ، وعليه أنْ يتّخذ منها غِطاءٍ وفِراشًا ومِخدّة .

كانت المَحقَرة تتكوّن من صَفّين من الزّنازين ، ولا أدري إنْ كانتْ في كلّ صفٍّ ستّ ، يفصل بينها ممرّ ضيّق جِدًا ، ربّما يضيق على السّجّان إذا كان سمينًا ، فعُرضه لا يتجاوز المتر الواحد ، مِمّا يُمكن أنْ يجعل السّجّان يعلق فيها إذا استدار وكان عريضَ القَفا . وفي أيّام المساء كان يُمكن أنْ تهبط تلك الرّحمة على قلبِ واحدٍ من السّجانين تذكّرَ حنينَه إلى ابنه الّذي لم يره منذ فترةٍ فرقّق ذلك قلبَه ، فسمح لنزيلٍ عشوائيٍّ من نزلاء المَحقرة أنْ يتمشّى في هذه الممرّ الضّيق المُعتمِ ، وكان مجرّد السّماح بذلك يُشعر السّجين بسعادةٍ غريبةٍ ثرثارة الشّعور ، ليسَ لها من تفسير ، إلاّ الحريّة في ذَرْعِ بضع خطواتٍ زائدة باتّجاه المجهول .

لكنْ لماذا سُمّي بـ (المحقرة)؟ نحنُ سمّيناه بهذا ، وإنْ كانتْ صفات المكان من القذارة والعفونة والرّائحة الكريهة تُهيّئه بشكلٍ تلقائيّ لحَمْل هذا الاسم ، إلاّ أنّه إضافةً لذلك هناك سببٌ آخَر ؛ ففي أوّل وصولنا إلى هنا ، دخل علينا رئيس العُرفاء ، وأسند ظَهره إلى الجدار ، وركز إحدى رِجلَيه عليه ، وهو يُلوّح بهراوةٍ في وجهنا ، وراح يخطب : «يا محقّرين . . توا الّي معاه ذهب وإلا دولارات وإلا لُولي . . يطلعه» . وتبادلْنا النّظرات ونحن لا نشكّ في أنّه مجنون ، وحاولْنا كَتْم ضحكات كادتْ تنفجر ، ورُحنا نُقنعه بأنّنا لا نملك حتّى قروشًا لكي نملك الذّهبَ واللُّؤلؤ والدّولارات ، وكان كثيرٌ منّا من الطّبقة العاملة الّتي آمنتْ بالتّروتسكيّة ، ووُزِّعَ مَنْ كان محكومًا بالإعدام إلى ذلك القِسم الرّهيب ، ومن يومها صار اسمُه المحقرة . وسيدخل الاسم في مُصطلحات السّجن الخالدة ما دامتْ هناك أنظمة قمعيّة في بلاد العالَم ، سيحتلّ هذا الاسم موضعًا متميّزا في قاموس الاستِبداد ، مثله

مثل مُصطلحات أخرى كثيرة أنتجَتْها آلة القَمْع في السّجون العربيّة بشكلٍ خاصّ.

ونحن؟ استقرّ بنا المُقام في سجن الحِصان الأسود، وبدأنا بعد حفلاتٍ من التّعذيب والإهانة، نتكيّف على عالَمنا الجديد. وما من شيءٍ مستحيل أمام الإنسان، وما مِنْ معجزةٍ كانتْ أكبرَ منّا، كان كلّ واحدٍ منّا مُعجِزة، ليس شرطًا أنْ نكون أبطالاً، فنحن لا ندّعي ذلك لأنفسنا، ولكنّنا كُنّا قادرين على أنْ نشرب الماء المالح الآسن ونشعر بالرّيّ، ونأكل الطّعام المُتعفّن ونشعر بالشّبَع، ونمشي على الجمر ونقول إنّا مشينا على الورد، ويُصيبنا صُداعٌ تطير له عقولُنا ونقول إنّنا نمنا ليلَنا الطّويل، وحلمنا أحلامًا ورديّة. لم نكنْ نملك خيارًا في أنْ نرفض، الخيار المُقابل لرفض الواقع هو الموت أو الجنون أو الكآبة، وبالنّسبة لي لم أكنْ بعدُ مستعداً لأيٍّ من هذه الثّلاثة، وعليه فقد بدأتُ أنا ورفقاء المحنة نُرتّب أمورنا على هذا النّحو. نرضى من أجل أنْ نحيا، سيسلبون مِنّا كلّ شيءٍ، لكنّنا سنمنح أنفسَنا الأمل، سيعلّقوننا على الجدران ويصلبوننا على الأبواب وسنستمتع بالمنظر من الأعلى!!

في ليبيا شُعراء وروائيّون ومسرحيّون وفنّانون كُثر، ولكنّ القذّافي طمسَهم وأخملَ ذِكرَهم، واغتالهم بالمفهومَين المعنوي والمادّي، كان لا يُريد شاعِرًا سواه إلاّ إذا كان ميّتًا، ولا يريد روائيًا غيره إلاّ إذا كان مقبورًا، ولا مُفكّرًا عداه إلاّ إذا كان تحت أطباق الثّرى، وليس غريبًا أنْ يَنظِم بعضَ الهلوسات ويُسمّيها شعِرًا، أو يكتب بعض الهُراء ويُسمّيه روايةً، أو يخطّ بعض التّفاهات ويُسمّيها فكرًا. المهمّ لو حدّثتُكم عن الشّعراء الّذين عاصرتُهم في السّجن لأتيتُكم بما لم يأتِ به الجُمَحيّ في طبقاته، ولا الأصمعيّ في أصمعيّاته، كُنّا بالشّعر نداوي بعض

الجروح ، وبالتّمثيل ننسى نِصفَ ما نرى ، وبالقَصّ نرتق كلّ ما انفتق .

كان معنا الروائي الكبير عبد الله ، وله رواية اسمها (الطّاحونة) ، ولعلّ السّجن أعطى لروايته هذه بُعدًا واقعيًا ثقيلاً ، فما من طاحونةٍ هرستْ أعمارنا بين حجريها مثله . وكان يطلق اسم الدكتور على السّجّان (نُوري) ، كان هذا متخصّصًا بالتّعذيب ، يركل كأنّه يأكل ، ويرفس كأنّه يمشي ، ويخنقُ بيديه عنق السّجين كأنه يُداعبه . فجاء إلى محام كان معنا وهو الأستاذ (عبد الرحمن) وقال له : «دوركَ أيّها المحامي الكُبير ؛ انزل للفلقة» ، فقال له : «أنا مصاب بالقُرحة» ، فردّ السجّان مغتاظًا : «شو دخل القُرحة بالفلقة؟! أنا سأضربُك على قدمَيكَ لا على بطنك» . وطال الجدال بينهما ، وخِفنا أنْ يفتك به ، أو أنْ يستدعي فرقة الزّبانية المتأهّبين في الإدارة فتحلّ علينا اللعنة ، وكان الرّوائيّ عبد الله يُتابع الحِوار ، فقال للنّوري : «اضربْني عنه» . نزل فرفع رجليه ، وأخذ نصيبه من الفلقة ، وعادَ إلى بَرْشِه . وبعد أسبوع جاء أحد الشّعراء المشهورين من الّذين رضي عنهم النّظام ، وكان ذا حُظوةٍ لدى العقيد وهو صديق (عبد الله) ، كان مُرسَلاً من النّظام إلى السّجن ليقابله ، ويعرض عليه الوزارة في مجلس الأمّة الاتّحاديّ ، فردّ عليه (عبد الله) : أعطني مهلة للتفكير ، فرجع إلينا وراح يستشير جماعته (اليساريين) فقال للشباب : شنو رأيكم؟ هل أوافق؟ فردّوا عليه : واااافق!! امشي يا راجل خير لكَ من الفلقة .

كان السّجن إذا خرج من فصل الشّتاء وأقبل علينا الرّبيع ، تتجمّع المياه في بعض أجزائه المُقوّرة ، فإذا ما تسلّل دِفء الشّمس في تلك السّنة مُبكرًا ، كثرت الضّفادع . وكان نقيقها في اللّيل يمنعنا من أنْ ننام أحيانًا ، وكان الأمن الدّاخليّ يدسّ في كلّ زنزانةٍ سجينًا متعاونًا مع

الإدارة لينقل أخبارنا إليها ، وكان يحدث أنْ يرافقنا هذا السّجين الجاسوس المُعيّن سنوات طويلةً في الحبس ، ولا أدري كيفَ يحتمل ذلك ، وكُنّا نُسمّي الواحد منهم بـ (الضّفدع) ، فيهمس أحدنا للآخر: انتبه الضّفدع يراقبك . . . انتظر حتّى يمرّ الضّفدع . . . اسكتْ الضّفدع يكتب . . .

بعد الفلقة كتبَ عبد الله أنشودةً صرنا نصدح بها كلّما تذكّرنا الأمر :

تِسعَة في دارْ
بأمرِ الأحرارْ
الفَلَقة تِلعَبْ لِيلِ نْهارْ

كان أحدُنا ذا صوت شجيٍّ ، وكان إذا تلا القرآن بكى وأبكى ، وكان (عبد الله) مُعجبًا بالإيقاع الموسيقيّ في سورة (الرحمن) ، وكثيرًا ما كان يجلسُ كطفلٍ وادع ويطلبُ من صاحبنا أنْ يرتّل على مسامعه هذه السّورة . فتأخذ بألبابه ، وينتشي للتّناغم المُذهِل . وكُنّا إذا قُمنا إلى الصّلاة ، يظلّ عبد الله الوزيرُ المرشّح مُتمدّدًا على ظهره ساهمًا ينظر في سقف الزّنزانة ولا يُصلّي معنا ، فقلتُ له : «ما رأيك أستاذ عبد الله أنْ تصلّي معنا؟» فردّ عليّ دون أنْ يلتفتَ إليّ : «يا ابني وما أدراك أنّني لستُ في صلاة الآن!! الصّلاة الّتي أعرفها غير الصّلاة الّتي تعرفها أنت ، إذا كنتَ تحصر الصّلاة في الحركات فيبدو أنّكَ ما زلتَ بحاجة إلى فَهم أعمق» . فأضحك ، فيقول لي : «اضحك . لكنْ ما يُدريك لعلّ اللهَ يقبل منّي قبل أنْ يقبلَ منك» . مكث معنا بعدها أسبوعًا ، ثُمّ خرج بالفعل ، وصار وزير أمّة اتحاديًا .

(٩)
لا وطنَ كالأمّ

بعدَ شهرَين من الولوج إلى عالَمنا الفريد، تُقنا إلى أنْ نرى أحبابَنا. وهل الأحبابُ إلاّ وردةٌ في القلب؟! كانتْ سُجُون ليبيا في عَقْد السّبعينيّات خارج التّاريخ، ما من أحد يدري ما يحدثُ داخلَها، وما من أحد بين أسوارها من المُعذّبين يعرفُ ما يحدثُ خارَجها. أدخلنا القذّافي داخل عُلب كبريت إسمنتيّة، وأغلق علينا الأبواب، وجعلَنا نَسْيًا منسيًا، غير أنّني أشكّ في أنّه تمكّن بالفعل من أنْ ينسانا، ظلّ صوتُه الدّاخليّ يُوقظه على أسمائنا وقضايانا، كان يعرفُنا في تلك الأيّام واحدًا واحدًا، وأنا متيقّن من أنّ هذا الصّوت الدّاخليّ كان يمنعه النّوم، ويقلّبه على سريره ذات اليمين وذات الشّمال، وكان يعلو ويهبط مع كلّ لحظةِ استماع إليه في اللّيل العميق، وأنا متأكّدٌ من أنّه كان حينَ يعلو لا يجد وسيلةً إلى إخماده إلاّ بأنْ يقتل صاحبَه، فما إنْ يستيقظ في الصّباح حتّى يوقّع على جُملة من الإعدامات دون محاكمات ودون دفاع ودون استئناف، كانتْ أحكامه نافذة لأنّه يعتبرها أحكام الله، وفوريّة لأنّ لها قُدسيّة أحكام الإله القدير. وحينَ ذهبْنا إلى حَتْفنا، ومضينا في طريق اللاّعودة ظلّ صوتُنا الّذي أراد العقيدُ أنْ يُسكته حيًا، وظلّتْ كلماتُنا تُطارده حتّى أصابتْه بالجنون، فلم يجد مهربًا إلاّ بأنْ يوسّع دائرة القَتْل، حتّى طالتْ أقربَ النّاسِ إليه. وكان يقتلُ بالشّكّ، ولم يكنِ حتّى الشكّ حقيقيًا، كان الشّكّ

مشكوكًا فيه كذلك ، كان يقتلُ مَنْ فكّر بأنّه يُمكن أنْ تجرّه رجلاه إلى دائرة الشّكّ ، ولو بعد عقود طويلة!! ثمّة زاويةٌ مُظلمة أو زوايا في رأس هذا الرّجل عَصيّة على التّكهُن . ثمّة شيطانٌ يسكن تلك الرّوح ، ثمّة نَهَمٌ إلى رؤية الدّم يُسكِرُ عينَيه لا شفاء منه!

ليس هذا تحليلاً لنفسيّة الرّجل ، فأنا على يقين أيضًا من أنّ نفسيّته كانتْ خارج التّوصيف والتّصنيف والتّشخيص ، وأنّه لم تكنْ من نظريّة نفسيّة من فرويد إلى يونغ صالحة لأنْ تفهم الرّجل ، ولو أنّكَ أسقطْتَ عليه كلّ الفرضيّات والتّحليلات لما استطعتَ أنْ تصل إلى عُشر ما كان عليه قائدُنا الفريد من الحقيقة!! هل كان معتوهًا؟ كلاّ . هل كان ساذجًا؟ كلاّ . هل كان طبيعيًا؟ كلاّ . هل كان إنسانًا؟ كلاّ . كان أشياء أخرى كثيرة لا يُمكن الحَدْسُ بها ، ولا الجزمُ بصوابها ؛ هل كان شيطانًا؟ ربّما . هل كان إبليس نفسه في هيئة بشريّة؟ ربّما . هل كان أحد ظهورات المسيخ؟ ربّما . هل هو كاليجولا أمْ نيرون أمْ هتلر أمْ موسوليني أم . . . أمْ كلّ هؤلاء مجتمعين؟! لا أحدَ يدري . . . لا أحدَ يدري . سأصدقكم القول ؛ لقد كان بعضُنا يذهب إلى ذلك منْ هَول ما عانى . المؤكّد أنّه لم يكنْ مثلَ البشر الّذين نعرفهم والّذين جلسوا على كراسيّ الحُكم . ربّما التّفكير عميقًا في تصرّفاته ستمنحكم شيئًا من الإجابة على بعضِ هذه الأسئلة!! ربّما!!

طالبْنا بالزّيارة كحقٍّ من حقوقنا ، كُنّا نعرفُ أنّنا نُداري بؤسنا بمطالبة لا معنى لها في سجوننا هذه . لكنّنا نحاول أمام سهام الموت المنهمرة علينا في كلّ حينٍ أنْ نتفاداها ، قليلون نجحوا ، كثيرون سقطوا . كان السّجّانون يقولون لنا : «لم تصل الأوامر بعد» . بقينا أشهرًا أخرى ننتظر أنْ يُسمَح بها . في اليوم الّذي علم الأهالي أنّ بإمكانهم أنْ

يَرَونا ، توافدُوا سِراعًا من كلّ مكان ، يركضون في المدى الممنوح ، يأخذون معهم كلّ ما يُمكنه أنْ يرسم البسمة على وجوه أبنائهم أو آبائهم أو أزواجهم . . . يُفكّرون فيما آلَ إليه حالُنا ، يهجسون ، يحدسون ، يرسمون لنا أشكالاً في خيالهم ، ويشتطّون فيه أحيانًا ، وسيُدركون - حينَ يروننا - أنّ خيالَهم كان قاصِرًا ، يحملون الطّعام والألبسة والكتب وأغراض أخرى . تجمّعوا تحت جدار السّجن العالي ، كان عاليًا جدًا ، يكادون لا يظهرون تحته ، ويكاد يسحقهم ، متغوّلاً كأنّه لا يريد لهم أنْ يدخلوا . وجامدًا كأنّه مشحونٌ بالكراهية ضِدّهم .

كانتْ أمّي تنظر بعينَين ملؤهما الرّجاء إلى الضّابط الّذي يُطلّ بوجهه من خلفِ طاقةٍ في الباب العالي الأسود المُوحي بالموت ، عيناه فقط تتحرّكان ، تجوسان خلال الأُسر المتجمهرة ، تقفزان يمِنًا وشِمالاً مثل فأر ، وشارِباه الغليظان يتهدّلان على شفتَيه فتختفي العُليا منهما ، وذبابةٌ كبيرةٌ تتركّز في وسط ذقنه السُّفلى . وهو يصيح بين الحين والآخر بالناس ويشتم بدون سبب .

بعدَ انتظارِ لساعاتٍ طويلة تحتَ أشعّة الشّمس ، خرج ولدٌ صفيق من الحرس ، صاح بصوتٍ رفيع : «اتركوا أغراضكم هنا سنُوصلها لذويكم ، أمّا الزّيارة فهي غير مسموحة» . أُسقِط في أيدي الزّائرين ، سرتْ همهماتُ غضبٍ واحتجاج خافتة ، تجرّأ صوتٌ ما من بين الزّائرين : «ولكنّنا قطعْنا مئات الأميال لكي نصل إلى هنا ، بعضُنا خرج قبل الفجر» . انفتح الباب فجأةً بإشارةٍ واحدةٍ من هذا الصّفيق ، ضُرِبَ ، وحُمِلَ سريعًا إلى زنزانةٍ متحركةٍ كانتْ تقف أمام الباب ، وأُخمِدَ صوتُه سريعًا . لا أحد يدري ما حدثَ معه بعد ذلك ، لا أحد يتوقّع ماذا يُمكن أنْ يحدث له . سادَ المكانَ صمتٌ رهيب . توجّست

القلوب ، سارَعَ عددٌ كبيرٌ بتسليم أغراضهم دون أنْ يُحدِثوا جلبة . تجرّأ ثانٍ بسؤال بريء : «متى ستكون الزّيارة إذًا؟» ، كان حَظّه وافرًا ، لم يضربوه ، لم يعتقلوه ، ولم يصفعوه ، فقط تلقّى شتيمةً من العيار الثّقيل ، وقال ذو الصّوت الرّفيع : «بعد شهر . . . بعد سنة . . . بعد عشر سنين . . . الله أعلم . . . الآن لا يُوجَد زيارة» . تركَ الزّائرون كلّ ما جاؤوا به من أدوات ، وعادوا جميعًا منكسري الخاطر ، صحيحٌ أنّنا لم نرهم في تلك اليوم الّذي أعلن فيه أنّ الزّيارة مسموحة ، لكنّ الأدهى أنّنا لم يصلْ إلينا شيءٌ مِمّا جاؤونا به!!

جرّتْ أمّي رِجليها جرًا ، عادَتْ إلى منزلنا مهمومةً . كان بردُ السّنين الغابرات ، السّنين الذّابحات الّتي عَملتْ فيها كي لا أجوع قد بدأ يُؤثّر في جسدها . جسدها الضّعيف ، الّذي لم يعدْ يحتمل المزيد . أشاركتُ يا أمّي أنا في عذابكِ؟ هل كنتُ عاقًا بالفعل لكي أكون أنا أحدَ أسباب مرضك ، وهُزال جسدك ، واختفاء بسمتك ، وانطفاء ألق عينيك؟ هل يُمكن لهذا الولد العاقّ أنْ يطلبَ منك أنْ تُسامحيه؟!

نحن لا نختار يا أمّاه مآلاتنا ، لا أحدَ يُحبّ أنْ تُصادَر حُرّيّته لحظة ، لا تُصدّقي مَنْ قال إنّنا اخترْنا بسببٍ من أفكارنا أنْ نكون خلفَ هذه الجُدران ، أفكارُنا لم تكنْ إلاّ وسيلةً من أجل أنْ ينفذ قَدَرُ الله فينا هنا . . . كانتْ أمّي العِطر الّذي أنعشَ القلبَ في دُخان الأزمنة ، وعريشة الياسمين الّتي منحتْني البَياض في سواد الأمكنة ، كانتْ أوبتي في اغترابي ، وبسمتي في حُزنٍ لم ينقطع ، وصمودي في انهيارٍ لم يتوقّف ، وصدقَ مَنْ قال : لا وطنَ كالأمّ!

(١٠)
مَنفيّون في المَنفى... مَنفيّون في الوَطَن

السّجن منفى ، السّجن موت ، السّجن انكسار . لا تقلْ لي السّجن صمود ، ولا تقلْ لي السّجن للرّجال . فالحرّيّة للرّجال ، والنّزال للرّجال . أمّا أنْ يكون السّجن لنا ، فكلاّ وألفُ كلاّ . لكنّه في النّهاية أحد الدّروب الّتي أخذتْنا إليها أقدامُنا في مدارج الحياة المتشعّبة . وما من أحدٍ كان قادرًا على أنْ يعرف إلى أين تقوده تلك الدّروب!

درستُ الابتدائيّة في تونس ، والإعداديّة كذلك فيها . وفي الأوّل الثانويّ قرّرتُ أنْ أعود إلى ليبيا موطني الأصليّ . وطني أحقُّ بي . وطني الأجمل . وطني الّذي في كلّ شبرٍ منه حكاية ، قد تكون مغموسةً بالدّم نعم ، لكنّها أورثتْ مجدًا وعِزًّا ونِضالاً وجهادًا وأنَفَة . وكان أخي لأمّي سببًا في ذلك . اعترضتْ أمّي على ذهابي إلى ليبيا ، قالتْ لي : أكملْ دراستَكَ ثُمّ عُدْ . أمّي من منطقة اسمها الرّحيبات ، إحدى المدن الليبية الواقعة بالجبل الغربيّ ، لعلّ حَدْس أمّي كان يقول لها : «لا تَدَعيه يعود إلى الوطن الذّابح ، فالأوطان الّتي يتسلّمها الطّغاة قاتلة ، تتشكّل على هيئتهم ، ويتلبّسونها حتّى تُصبح هي هم» .

كان التّعليم في تونس متينًا . في الثاني الإعداديّ كُنّا نأخذ البحور السّتّة عشر في العَروض ، كان الأستاذ يكتب البيت على السّبّورة ، ولا يكاد يلتفت إلينا حتّى يجد البيت مشطورًا . ويجدَ البيت الآخر مُقطّعًا بتفاعيله وأنغامه وبحوره . وتعلّمنا الفرنسيّة بطريقة قويّة .

وكذلك اللّغة الإنكليزيّة . أمّا قواعد اللّغة العربيّة فقد كُنّا نأخذ ألفيّة ابن مالك ونحن ما نزال في الصّفّ الرّابع .

عُدتُ إلى ليبيا في عام ١٩٦٦ ، وكان عمري ١٥ عامًا . التحقتُ بحزب التّحرير عن طريق أحد أقاربي ، الذّي كان قد تحوّل من بعدُ إلى حزب التّحرير . كان نداءً ما في أعماقي – مثلما هو في أعماق كلّ تائق من الشّباب يومئذ – يدعوني إلى أنْ أعتنق فِكرًا قائمًا على الإيمان والعدل والحرّيّة ، فاتّجهتُ إلى الدّين بكلّيتي ، وبدأتُ أنفتح على الثّقافة والكتاب بنهم شديد ، والزمتُ نفسي بمنهج في القراءة صارم من أجل أنْ أعرفَ وأعي وأدرك وأُنجِز وأحقّق ما أصبو إليه ، واطّلعتُ على أدبيّات الإخوان والتّبليغ والتّحرير ، ولم أحصرْ نفسي في الفكر اليمينيّ ، فقرأتُ في الأفكار الأخرى ، وأدخلتْني القراءة حياةً غير الحياة ، فَعَلتْ همّتي ، وسمتْ نفسي ، وتُقتُ إلى معالي الأمور ، وترفّعتُ عن السّفاسف الّتي كان بعضُ أبناء جيلي من الطّلبة يهتمّون بها . في السّنوات ١٩٧٠ – ١٩٧٢م ذهبتُ مرّات عدّةً إلى الشّام وبيروت ، في تلكل الرّحلات تعرّفتُ إلى كثيرٍ من القادة الّذين أثروا تجربتي الفكريّة واستمعتُ إلى مشروعاتهم الّتي يؤمنون بها ، والرّؤى الّتي يتطلّعون إليها . كان عَقْدُ السّتّينيّات وبداية السّبعينيّات ما يزال مورًا بكلّ شيء ، وكانتْ أبوابُه مشرعةً لكلّ الأفكار ، مَنْ وقفَ على النّبع شرب ، ومَنْ شَرِب من العَذْب ارتوى . . .

عملتُ في عام ١٩٦٩ مُترجِمًا في السّفارة الصّينيّة في طرابلس ، أترجمُ من الفرنسيّة إلى العربيّة ، ثُمّ انتقلتُ إلى السّفارة التّركيّة ، فعملتُ فيها في القسم التّجاريّ ما يقربُ من عام ونصف في ليبيا . في عام ١٩٧٢ تأسّس المصرف العربيّ اللّيبيّ وهو أحد أشهر وأهم

المصارف العربيّة ، اشتغلتُ فيه شهرين ، ولم أكمل ، لأنّه مصرفٌ ربويّ . فتحولتُ فيه إلى الشّؤون الإداريّة ، حتّى وجدتُ فرصةً مناسبةً في إحدى الشّركات الإيطاليّة ، وكنتُ مسؤول قسم التّوظيف فيها إلى أن اعتُقلت .

كنتُ لا أزال فتًى يافعًا ، في الثّانية والعشرين من عمري حين زُجَّ بي إلى هنا ، كنتُ قد حصّلتُ وظيفةً جيّدة ، وبدأتْ حالة الفقر الطّاغي الّذي عشناه طوال العقدين السّابقين تنتهي ، وصار لي مُرتّبٌ يقينا شظفَ العيش ، بل ويجعل حياتنا حُلوةً جميلةً ، وكنتُ قد بدوتُ مُصمّمًا أنْ أعوّض أمّي كلّ ما فاتها من حرمان وفقد ، وأردّ لها شيئًا من الجميل الّذي غمرني ، وأكملني ، كنتُ أريدُ أنْ أقول لها شُكرًا بطريقتي الخاصّة ، وإنْ كنتُ أعلم ألاّ شُكرَ يُمكن أنْ يفي الأمّ حقّها ، ولا بِرّ يُمكن أنْ يوازي شقاءها ، ولا عطاءَ يُمكن أنْ يُعوّض شيئًا من حرمانها .

لكنّ القدر سبق . فما إنْ بدأتْ حياتُنا المعيشيّة تستقرّ ، وارتاحتْ أمّي من عناء العمل المُهلك ، وصار لنا بيتٌ ، وبدأتُ أفكّر بالزّواج ، حتّى انتُزِعتُ من حياتي هذه لأذهبَ إلى عالَم آخر لم يكنْ في الحُسبان ، قذفني خلفَ أسوار الغياب ، وقلبَ حياتنا رأسًا على عقب .

وها نحنُ . نحيا كذلك ، الحياةُ ليستْ لونًا واحدًا . تتعدّد . تتبدّد . والحياة في السّجن كذلك حياة ، ولكنّها ليستْ كأيّ حياة ، فإذا نقصتْنا أكملْنا ما نقصَ منها بالأمل . الأمل كان علاجًا ، كان يملأ الفراغ ، يلوّن اللامعنى ، ويُنبت المُستحيل . وإذا لم نكن نملك الأمل ، كُنّا نبحثُ عنه في الزّنازين ، في الزّوايا ، في شُبّاك الزّيارة ، في الرّضى ، في بسمة أحدنا . . . لم يكن الأمل مفقودًا بالكلّيّة ، ربّما كان محاصرًا ، ومنفيًا ، وغائبًا ، لكنّنا لم نكنْ نعدم وسيلةً للبحث عنه ،

وكنّا موقنين أنّنا لا بُدّ من أنْ نجده في النّهاية وإنْ طال الأمد .

لم يكن في الزّنازين شيءٌ يُسهّل النوم ، لا الضّوء الّذي كان يبقى مشتعلاً ليلَ نهار ، وكانت المصابيح تجذب الهَوامّ من كلّ مكان ، ولا الأرض الّتي كان أكثرُنا ينام على بلاطِها العاري والمحفور ، ولا صوتُ السّمّاعات الكبيرة الّتي كانتْ تُعلّق في الممرّات وتُفتَح على أعلى صوتٍ وهي تبثّ خُطَب القائد المُلهِم والمُلهَم ، أو الأغاني والأهازيج الّتي تُمجّده ، كانت الإذاعة تتفجّر بهذا الصّوت حتّى لترتجّ له جُدران الزّنازين إلى منتصف اللّيل ، فإذا ذهب اللّيل بمنتصفه ولم تعد هناك من برامج تُبثّ ، تبقى الإذاعة مفتوحة على أزيزٍ كأزيز الرّصاص كي لا نَحظى بأيّ لحظةٍ من الهدوء . وكان نقيق الضّفادع يبدو أليفًا لوفًا جميلاً موسيقيًا مع زمجرة الإذاعة اللّعينة . كان الصّوت يدخل عبر حجرات الأذن ، فيتغلغل فيها إلى أنْ يخترقها ، ويُتابع تغلغله في الجسد المُنهَك ، وهو يتعاظم في مسيرته ، حتّى نحسّ أنّه يدخل إلى الرّئة فيملأها بالضّجيج فتنتفخ ، وتظلّ هذه الأمواج تتدفّق إلى الرّئة ، والرّئة تتضخّم حتّى إذا لم يعدْ فيها مساحةٌ لمزيدٍ من التضخّم والانتفاخ تفجّرتْ كما يتفجّر بالون الهواء .

لكنّ التّعب أقوى من الصّوت ، والإرهاق بعد جوع طويل ، أو بعد حفلة تعذيب أمرّ من الأزيز ، وهو سيّد الموقف ، لكأنّ التّعب كان دواء لهذا الدّاء ، لكأنّه البلسم الشّافي ، كان إذا أخذ موضعه منّا ، سقطنا في بئر النّوم غير شاعرين بما يحدث من حوْلنا ، فإذا نمنا وهَمَدْنا ، فلا يضيرُنا حينئذ أيّ صوت ولا أيّ ضجيج ، وكان بعضُنا يستغرق في النّوم حتّى كأنّه لم ينم منذ دَهْر ، فإذا استسلم له لم يستيقظ ولو أنّ جهنّم شبّتْ من حوله .

لم يكنْ لدينا غير حَمّام واحد. لم يكنْ صالحًا في البدايات للاغتسال، بالكاد كُنّا نصل إليْه من أجل أنْ نقضي حوائجنا، وكان قضاءَ الحاجة عذابًا هو الآخر حتّى إنّنا كُنّا نحسبُ له ألفُ حساب. كان يُسمح لنا أنْ نخرج مرتَيْن لقضاء الحاجة واحدةً في الصّباح وأخرى في المساء، سواءٌ أكان الوقتُ الّذي تُحدّده الإدارة هو وقتَ حاجتكِ أم لا! فيما بعدُ حينما صارت تأتينا الحاجة في غير الوقت المسموح به من الإدارة، تعلّمْنا أنْ نضبطَ حركةَ أمعائنا وتقلّصاتها على الوقت الّذي تحدّده الإدارة، وكُنّا ننام، فإذا حلّ صباح اليوم الثّاني، وكان الوقتُ المسموح لنا الذّهاب فيه إلى الحمّام هو التّاسعة، فإنّنا نبدأ من الثّامنة نشدّ بأيدينا على بطوننا، ونشرعُ في تحريك أمعائنا ودفْع محتوياتها بحذرٍ حتّى نسوقَ ما فيها إلى الباب ونوقفها هناك بانتظارَ دورنا، لكنّنا حتّى إذا جاءَ الوقتَ هرْولنا إلى الحمّام الّذي يقع في العنبر نفسه لكنْ خارج الزّنازين، إذ يُسمَح للسّجين الواحد بخمس دقائق كحدّ أقصى، وأعترف أنّها لم تكنْ كافية في البداية، وأنّنا واجهنا صعوبات كثيرة؛ كان يُمكن أنْ تكون مُصابًا بالإمساك أو بالإسهال، وكان من المألوف أنْ تجد أرضَ الحَمّام ملطّخة بالدّماء نتيجة نزيف أحدنا، وكان يُمكن أنْ يُصيبك الرّعب إذا صرخ بك السّجّان الواقف بالباب يستعجلك أنْ تُنهي، أمّا الممرّ الّذي عليكَ أنْ تسلكه حتّى تصل إلى الحمّام فعليكَ أنْ تتلقّى فيها عددًا من الصّفعات بتناسب مع حظّكَ في ذلك اليوم، أو مع عدد السّجّانين، أو مع مزاجهم. لم يكنْ أحدٌ يرحمُ صراخنا، ولا يسمع استغاثتنا، ما من صرخة جاوزتْ جُدران الزّنازين فضلاً عن أنْ تتجاوز جُدران السّجن الشّاهقة، ظلّتْ هذه الصّرخات مكتومة، ويتراكم بعضُها فوق بعض،

وتتكثف في قمقم الحبس لا تجد مخرجًا إلاّ أنْ يشاء الله .

الصّفعات لا تنتهي ؛ في الذّهاب وفي الإياب . حركات أمعائنا لم تكنْ تحتَ سيطرتنا في البداية فوقعنا في كثيرٍ من المصائب ، وإنْ تجاوزنا هذا فيما بعد ، لكنّ النّظافة التّي كانتْ حُلمًا مُستحيلاً في كلّ ما يمتّ إلى السّجن بصلة ، سوف تتحوّل إلى وحشٍ من الأمراض يفتك بنا دون أدنى رحمة .

في اللّيل ، حينَ نكونَ موتى من الحُزن والتّعب والتّعذيب ، تسمع قرقعة مِزلاج الزّنزانة ، الصّوت الأبشع والأحبّ معًا ، لكنّه كان يحمل في كلّ مرّةٍ أملاً بأنْ تكون المرّة الأخيرة ، لكنّه احتاج إلى عشرات السّنين لكي يتحقّق . تسمع قرقعة المِزلاج ، يدخل عليك الحارس الأمنيّ ، يهوي عليك بالعصا لتقوم ، تفزّ الزّنزانة كلّها على الصّراخ والضّرب ، يهتف بنا : «إلى السّاحة» . نخرج مذعورين ، ينجح بعضُنا في أنْ يرتدي شبشبه قبل أنْ يخرج ، ويفشل كثيرون ، يخرجون حُفاةً يتلفتّون كالغِزلان الهاربة أملاً في فَهم ما يجري ، نركض تحت وَقع الكابلات ، ينهشُ الحديد المعدني من لحمنا ، تأكل الأسلاكُ من أكتافنا ، ونجري . . . نجري . . . حتّى نخرج إلى السّاحة . ألفُ سؤال يتردّد في أعماق كلّ واحدٍ منّا : «ما الأمر؟» . ولكنْ لا أحدَ يجرؤ أنْ يسأل ، تخرج معنا زنازين أخرى ، لا أدري عددها ، ثلاثًا أو أربعًا ، السّياط تهوي ، الصّرخات تتعالى ، واحدٌ أصابتْه نقمة ، الجرأة الّتي تكون في غير موضعها ، لكنّ الألم أنطقه ، كان الألم أكبر من أنْ يحتمله ، فجّر غضبه ، قال لسجّان كان يهوي عليه (بالكاو) : «اضرب كويّسْ يا حمار» . فتفاجأ السّجان . سمع الآخرون الكلمة ، لكنّهم كذّبوا آذانهم . حتّى السّجّان لم يُصدّق ، لكنّ صاحبنا أراد أنْ يقول إنّ

ما سمعته صحيحٌ وحقيقيٌ أكثر من وجودنا في هذه اللّيلة القاتلة في هذا المكان البائس ، فهتف من جديد ، وهو يرفع صدره إلى أعلى : «اضربْ كويّس يا حماااار» . جرّه أربعةٌ إلى نخلة كانتْ في السّاحة ، صلبوه على جِذعها ، وأمرونا أنْ نخلع الأحذية من أرجلنا ونرميه بها . . ثُمّ انهالوا عليه بالسّياط . صمد . لم يصرخ . لكنّني لا أدري إنْ ظلّ حيًا . كان تدريبًا على الرّكض ، الملل كان قد تمكّن من أمر السّجن ، فأراد أنْ يتسلّى وقد حققنا له ذلك!!

(١١)
شَهرُ المَوتِ

كان التّعذيب منهجًا . أسلوبَ حياة . جدولاً زمنيًا يجب أنْ يُطبّق علينا . ليس له علاقة بالأسباب المُوجِبة ، بل له علاقةٌ بالوقت ، وقواعد صارمةٌ جدًا . يُستأنف العذاب كلّ يومَين إلاّ إذا دعتْ حاجةٌ أخرى إليه . وكثيرًا ما كانوا يرَون أنّه تدعو إليه حاجةٌ بل حاجات ؛ ولذلك لم يكنْ يمرّ يومٌ دون تعذيب . والتّعذيب مراحل ومستويات ، ويخضع للتّصنيف الدّقيق ؛ الفَلَقة مثلاً كانت للاستِقبال ، كلّ نزيل جديد يُستَقبَل بها ، مهما كان عمره أو صِحّته أو تُهمته ؛ إنّها كلمة التّرحيب الأولى ، ومعناها في لغة السّجن : «أهلاً وسهلاً بكَ إلى عالَمنا» . الصّفع مثلاً كانتْ للتّسلية ، ولذلك لم ينجُ منها في الخروج إلى الحَمّام أحد . قلْع الأظافر للإجابة عن سؤال عالق ، كُرّرَ مرّتين دون إجابة . الفرّوجة لكلّ مَنْ يتحدّى سَجّانًا أو يتلكّأ في تنفيذ أوامره ، وأحيانًا لاعتِراف بسيطٍ الشّبح للاعترافات الأكبر ، التّعليق في الجُدران أو الأسقف للعمليّات الجراحيّة ، مثل الإخصاء وفتْح الرُّكب . الصّلب للانتقام . الضّرب بالكابل لاختبار صمود السّجين أو سَجّان يريد أنْ يستعرضَ مهارته أمام زميلٍ آخر ، أو يريدُ أنْ يشجّعه على أنْ تُصبح عادةً . الصّعْقُ بالكهرباء غالبًا ما يتعرّض له المُتّهمون بالمحاولات الانقلابيّة .

لكنّ شيئًا آخر غير العذاب الجسدي كان يقتلنا ، كان يُمكن للجسد أنْ يتعافى بعد يومٍ أو يومَين ، شَهْرٍ أو شَهرَين ، لكنّ هذا النّوع

من الألم كان يستمرّ طويلاً . الجسد كان يُمكن أنْ يسقط في جُبّ الإغماء فيُصبح تعذيبه كتعذيب المُخدَّر لا يُحَسّ به . لكنّ هذا النّوع من الأذى النّفسي لم يكنْ ينفع معه شيء ، ولم تكنْ تُجدي معه حيلة ؛ كان ذلك في أشهرنا الأولى ، كُنّا حين نأوي إلى أبراشنا وفُرُشِنا ، ونستلقي بعد يوم صعب مُتكوّرين على أنفسنا نحاول أنْ ننعزلَ عن العالَم وننعم ببعضِ الهدوء والسّكينة ، كُنّا نسمع هُتافات لجماهير من النّاس يطوفون من حول السّجن ، كانوا يتعمّدون أنْ يقتربوا من النّوافذ الواطِئة والمفتوحة ويرفعوا صوتَهم كي نسمعهم وهم يهتفون ضدّنا ، وينعتوننا بأنّنا خَوَنة ، وأنّنا عملاء لأمريكا ، وأنّنا أعداء الشّعب ، وكانوا يهتفون باسم القائد مُطالبين إيّاه بإعدامنا وإراحة الشّعب منّا . كان هذا أكثر ما يطعننا ، أنْ ينجح النّظام في شيطنتنا ، أنْ يجعلنا في مواجهة أحبابنا وإخوتنا ومواطنينا ، أنْ يتمكّن من ضربِ بعضِنا ببعض ، أنْ يجعلهم يوقنون بأنّنا أعداؤهم ، وبأنّنا ضِدّ أوطاننا ، وبأنّنا نريد أنْ نهدمها وندمّرها ، وما أدخلنا إلى هنا إلاّ حُبّ أوطاننا ، وما ساقنا إلى الزّنازين إلاّ أوطانُنا ، وما قادَنا إلى هنا إلاّ صِدقُنا واستعدادُنا أنْ نفدي تلك الأوطان بالأرواح . كانت هتافات النّاس الغاضبة في الشّارع ضِدّنا تفتح في قلوبنا جروحًا غائرة لم يكن الشّفاء منها سهلاً أبدًا .

كُنّا صيدًا سهلاً وثمينًا بالنّسبة للنّظام ، وتمكّن هذا النّظام من أنْ يصنع وحشًا مفترسًا هو (إبريل) أو بشكلٍ أدقّ (السّابع من إبريل) ، كُنّا نؤخذ من بيوتنا ، من أعمالنا ، من مزارعنا ، ونُساق إلى السّجون ، ويتمّ الاحتفاظ بنا حتّى يحلّ إبريل من كلّ عام ، وهو شهر الموت ، الشّهر الّذي كان يستمتع العقيد في أنْ يرى فيه الدّماء تسيل منّا ، كُنّا

نُنحر في هذا الشهر بالفعل، ونعلّق على المشانق، ونُسحَل في الشّوارع، ونُمزّق أوصالُنا على مرأى الشّعب اللّيبي المُغيّب وسمعه. لم نكنْ أكثر من خِراف تُعدّ للذّبح، لم يمرّ إبريل واحدٌ من دون دماء، كان العقيد (دراكولا) لا يُمكنه أنْ يعيش إلى إبريل آخر من عام قادم إلاّ إذا ارتوى بما يكفي من دِماء ضحاياه. كمْ من عالم قُتِلَ في هذا الشّهر، وكم من طبيبٍ أو مهندسٍ أو محامٍ أو فتًى في ريعان شبابه، كُنّا وليمة السّيّد المُلهَم، لم يكنْ يستطيع أنّ يُفكّر في شيء من أجل جماهيريّته العُظمَى إلاّ إذا تناولَ حِصّته الوافية من ضحاياه. حتّى إذا جاءه في إبريل من عام ما ضيفٌ أو مللكٌ أو رئيس، أجّلنا إلى يوم مغادرته، فإذا غادر الضّيف، جعل حِصّته من الضّحايا مُضاعفةً، وشَهِدَ بعضَها بنفسه، وترنّم على صرخات مذبوحيها حتّى تهدأ نفسُه، وتسكُن روحه المضطربة!!

كُنّا أدوات للتّسلية، لأكبر ضابطٍ في السّجن إلى أصغر عريف، كُنّا حيوانات في عُرفهم على الحقيقة، استبدلوا الحيوانات بأسمائنا الّتي تُشبع اضطرابهم، كان الواحد يقول لنا: «تعالَ يا تَيس... ادخل شيلَتك يا حمار... خُذ الصّحن يا ثور، مُدّ إيدك يا بقرة...». عشر سنوات لم يعرفوا اسمَ واحدٍ منّا، كنّا زريبةً عفنةً من الحيوانات في نظرهم، تثير الاشمئزاز والقرف.

أسهلُ شيءٍ على السّجّانين كان قتلَنا، كان يمكن - ولا أدري كيفَ استطاعوا ذلك بالفِعل - للواحد منهم أنْ يقتلَ أسهلَ ممّا يأكل، ويُعذّب أسهلَ مِمّا يشرب، وينهال بالكابلات على أجسادنا العارية أسهل مِمّا يتكلّم. كُنّا صِنفَين عجيبَين، صنف الحيوانات الّتي وضعونا فيها، وصِنف الحيوانات الّتي كانوها. أمرٌ فوقَ الخيال وفوق

الاحتمال . لا أدري إنْ كُنّا - نحن وهم - في زمن ما من أزمنة السّجن الطّويلة قد فذقنا إنسانيّتنا على وجه الحقيقة لا المَجاز!!

في كلّ سابع من إبريل من كلّ عام نستعدّ للموت ، نحرصُ على أنْ تكون آخر كلماتنا ما سوفَ نلقى بها ربّنا إنْ فارقتِ الرّوحُ الجسد . نُحسنُ إلى أنفسنا بالعبادة وإلى النّاسِ بالخِدمة ما استطعنا ، نكفّ إلاّ عن الذّكر ، ويطلبُ كلّ واحد منّا أنْ يُسامحه رفيقُه . ونبكي أحيانًا ؛ على أنفسنا أو على الآخرين؟ لا أدري . شوقًا أم جزعًا أم رهبةً؟ لا أدري . كلّ شيء كان ممكنًا . لم تكنْ هناك ضمانةٌ واحدةٌ في هذا الشّهر تكفل لنا أنْ ننجو . كانت النّجاة حلمًا ، وكُنّا مؤمنين بأنّه غالبًا لن يتحقّق . كانتْ ثيابُنا أكفانَنا ، وكانتْ كلماتنا وصايانا ، وكثيرون غادرونا دون كلمةِ وداع واحدة .

كان السّابع من أبريل كذلك مُعسكرًا للتّعذيب ، يسوق أزلام النّظام إليه كُلّ مَنْ كان خائنًا للشّعب ، يتعرّض لتعذيب لا تُطيقه الجبال كي يعترف ، وتُصوّر اعترافاته تحت الإكراه ، ويُتلَى عليه حُكم الإعدام ، ويُعدَم على الفور هناك . أمّا إذا كان الصّيد من الوزن الثّقيل ، فتُسجّل اعترافاته ، ويؤخذ إلى السّاحات العامّة ، وتُدعَى الجماهير الغفيرة لمشاهدة القضاء على أحدِ الخَوَنة الجُدُد .

لا أدري كيفَ صدّقت الجماهير أنّ الّذين رفعوا اسمَ ليبيا في الطّبّ والهندسة والعلوم كلّها ، وعلّموا أبناءَها ، وكانوا مِثالاً للتّضحية والعَطاء يُمكن أنْ يكونوا أعداءً للشّعب والوطن ، كان هذا الشّعب المُغيّب ، يطوف في شوارع طرابلس أو بنغازي أو غيرهما عشيّة السّابع من إبريل ، وهو يهتف بحناجر صدّاحة ، متوعّدًا عدوًا مجهولاً هو غير متأكّد من حقيقة عداوته :

اِطْلعْ يا خُفّاش اللّيلْ . . . جاكَ السّابعْ مِن إبريلْ

نعم ؛ كُنّا في تلك الأيّام خفافيش الظّلام الّتي سرقتْ خيرات البلاد ، ونهبتْ ثرواتها ، وأنّ للشّعب أنْ يُحاكمها .

جاءنا الرّجل اللّغز : (خليفة حنيش) ذات سابع من ابريلٍ ذاتَ عام ، وقال : «نحن لا نقتل لأنّ أحدًا عمل شيئًا أو لَم يعمل ، نحن عندما نريد أنْ نُذلّ قبيلةً من القبائل ، أو بلدةً من البلدات ، نأخذ المُجرمين منها ونقتلهم» . كانتْ هذه سياسة النّظام ؛ أخذوا (فرحات) ؛ أحد الطّيور الّتي ستُهاجِر مُبكّرًا . ساقوه من (طرابلس) إلى (زوارة) لتأديب أهل زوارة به ، حجزوه في مركز الشّرطة تحت حراسة مُشدّدة ، إلى وقت الظّهر ، ثُمّ أغلقوا مداخل المدينة ومخارجَها . ثُمّ سِيقَ إلى أحد المُؤتمرات الشّعبيّة المُوكّلة بالذّبح ، وعُزِلَ أهله عنه ، ونُفُوا خارجَ المدينة أثناء التّنفيذ ، وكانت المشنقة مُجهّزةً لاستقباله ، صعد بثبات على الكرسيّ ، ولفّوا حول عنقه الحبل . أحضروا ابن عمّته إلى السّاحة ، وأجبروه أنْ يُعدِمه بنفسه ، رجف ابن العَمّة ، ارتعشَ جسدُه بالكامل ، وضعوا فوهة البندقيّة في أذنه ، وصرخ الضّابط : «إمّا أن تُعدِمَه أو نُعدمك . . . أنتَ أو هو؟!» . رَفع رجله تحت تأثير السّلاح ، ثنى رُكبته ، ركَزَ قدَمه على حافّة الكرسيّ . خَيارٌ صَعبٌ . وقفَ بين حياتَين ، حياته الّتي يُمكن استبقاؤها ، وحياة ابن عمّته المحكوم سلفًا بإنهائها ، انتصر صوتُ حياة مُحتَملة على فحيح موت محتوم ، هَمّ بدفع الكرسيّ ليُنقذ نفسه ، رعشتْ رُكبته ، انحلّت ، ارتخت ، لم تعد قادرةً على دَفع كرتونة ، رأى الضّابط ارتعاشة ساقه ، فصرخ به من جديد : «هيّا أيّها الجبان ، اصطفَ مرّةً واحدةً إلى جانب الشعب والحقّ . . . ادفع الكرسيّ أيّها الجبان» . شدّ على رُكبته ، أغمض

عينَيه ، همس في أعماقه : «سامحني يا فرحات» رآه يبتسم : «افعلْها . . . لقد سامحتُك» . فعلهَا ؛ دفع الكرسيَّ من تحت رجلَيه ، تأرجح الجسد قليلاً في الهواء قبل أنْ يسقط ، لقد انفكَّ الحبل . كانتْ هتافات بعض الحاضرين الغاضبة من المشهد قد بدأتْ تعلو ، أعادوا لفَّ الحبل حول عنقه من جديد ، تأرجح لوقتٍ أطول هذه المرّة ، لكنّه سرعان ما سقط ، هنا بدأ النّاس يقذفون أعضاء المؤتمر بالأحذية ويرمون كاميرات التّصوير التّلفزيونيّ الّتي كانت تنقل المذبحة مباشرةً بالحجارة ، وتجمّعوا يريدون استعادة ابنهم ، لكنّ أعضاء المؤتمر بدؤوا بإطلاق النّيران ، وأجبروا النّاس على التّراجع ، وأعادو لفّ الحبل حول عنقه ، ليتأرجح جسده هذه المرّة طويلاً ، قبل أنْ يقول للّذين أعدموه : لقد تأخّرتُم كثيرًا ، كان يجب أنْ أحلّق منذ زمنٍ ، ولكنّني أشكركم في النّهاية ، ها أنذا أصل إلى الغاية الّتي أريد .

(١٢)
العَقيد

لم يكنْ شعبي غير مجموعةٍ من البَدْو الرُّحّل ، الّذين يُغطّيهم الغُبار من رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم ، ويملأ التُّراب السّافي زوايا أفواههم المفتوحة ، كانوا عُراةً فكسوتُهم ، وجائعين فأطعمتُهم ، وضالّين فهديتُهم ، ومحرومين فوهبتُهم ، ومنحتُهم مجدًا لم تحلمْ به أمّةٌ من الأمم؟! فهل جزاء الإحسان بعدَ هذا إلاّ الإحسان؟!

«هل هؤلاء الغوغائيّون ثُوّار؟! اقتربْ مَنّي يا يونس قُلْ لي ، هل هؤلاء ثُوّار . هل هؤلاء مثلُنا يومَ أنْ ثُرنا على الملكيّة العفنة؟!» . «كلاّ يا سيّدي . ليسوا مثلَنا أبدًا» جاءه صوتُ يونس من خلفه مبحوحًا كأنّه مَعجونٌ بالحُزن . «إنّ الثّوار يا يونس فلاسفة ، قادة ، مُلهَمون ، ما هؤلاء إلاّ مجموعةٌ من اللّصوص ، غدًا سيسرقون ليبيا ، سيدمّرونها وهم يظنّون أنّهم يحرّرونها ، العبيد لا يُمكن أنْ ترتفع لهم قامة ، ولا تصلح لهم حياة . ولكنْ ما الحلّ معهم يا يونس؟» . قام يونس من الأريكة الّتي ظلّ جالسًا عليها طَوال الوقت : «لو يسمح لي سيّدي أنْ يؤجّل الحلّ معهم الآن ، نحن نحتاج أنْ نغادر المكان ، العزيزيّة لم تعد آمنة» . «العزيزيّة عزيزةٌ على قلبي يا يونس ، كلّ شيء بينتُه من هنا ، كلّ آمالي عقدتُ رايتها من هنا ، ومن هنا تحدّيت قُوى الشّر والظّلام» . «لكنّ صواريخهم يا سيّدي تستهدف المكان» . دوّى انفجار في

الخارج ، إنّه الانفجار الرّابع أو الخامس الّذي يحدث في أقلّ من عشر دقائق . «هذه مفرقعات يا يونس ، لا تخف ، كم تُشبه تلك الّتي كان شعبي في الفاتح من سبتمبر يُقيمها من أجلي . شعبي ما زال يُحبّني ، وما زال مستعداً أنْ يموتَ فداءً لي . لكنّك لم تُجبْني عن سؤالي يا يونس» . «نسيت يا سيّدي» . غَضِب : «دائمًا تنسى يا يونس ، دماغك زبالة ، لكنْ أذكّرك ، ما الحلّ مع هؤلاء الغوغائيّين؟» . لم يُجبْ يونس ، تقوقع على نفسه ، وغاص في بدلته العسكريّة كذئبٍ عجوز ، وخفض رأسه كأنّه يريد أنْ يغوص في داخله . «أنا أقول لكَ يا يونس ، كأنّ ذاكرتك اهترأتْ أيّها العَجوز ، كأنّك نسيتَ كلّ ما فعلتُه من أجل شعبي . .» كان صوتُه يتصاعد بغضب ، زمجر ، وهو يقول : «سأسحقهم يا يونس ، الملايين معي ، سأدوسُ على أكبر زعيم فيهم ، سأظلّ فخر ليبيا كما عَهِدْتني . . . سيتوالى السّحق حتّى يُصبح هو الشّريعة ، نحن لا نخشى من قَتْلِهم ؛ لأنهم أعداء الشّعب ، وكلّ الإجراءات ضِدّهم مهما كانتْ عنيفة حتّى الموت ، لا يمكن أنْ نخجل منها» . صمتَ قليلاً . لهث . تابعَ وهو يلهث : «تذكروا يا خفافيش ، شفتوا الإعدامات في رمضان؟ زيّ السّلام عليكم ، لا يُهمّني رمضان ولا حَرام ، هذي كانتْ عبادة ، لّما نفطوا الأشكال هذومه . . كلب ضالّ . . حطّوا في المشنقة . . والله زيّ ما يفطوا القطاطيس . . .» . لهثَ أكثر ، اقتربَ منه يونس : «لا عليكَ يا سيّدي ، ستسحقهم ، وستستعيد زمام الأمور» . التقطَ أنفاسه ، طمأنه كلام يونس ، ارتاحَ قليلاً . تابعَ بشيءٍ من الثّقة : «أنا الثّائر الحقيقيّ ، أنا الثّائر الأمميّ ، إذا كانت الثّورة تخاف من الدّم أو تخاف العُنف لا تكون ثورة . . . أين مدافعك يا يونس ، أينَ دبّاباتك يا وزير دفاعي الحبيب ، أينَ طائراتك ،

أين صواريخك . . . الصّراع مستمرٌ منذ أوّل يوم نجحنا فيه معًا ، الصّراع كان وما يزال في وجه الرّجعيّة ولو أدّى إلى مجازر ، أتذكر يا يونس ؛ لم نُبالِ حتّى الذّبح في سبيل أنْ نحقّق أهدافَنا ، أنا بدأتُ المعركة منذ أربعين عامًا ، وأعرفُ أنّها لن تتوقّف ، ولن أتراجَع حتّى ينزف الدّم ويجري في الشّوارع مع أعداء الثّورة» . ركل بقايا تمثال خوفو الصّغير بحذائه ، ارتطم بالجدار ، كانت عيناه ما زالتا تُحدّقان فيه ، لكنّه بدا قزمًا أمامه ، تابع ، وهو يُحدّق في عينَيه : «أنا عميد الحُكّام العرب ، ملك ملوك أفريقيا ، إمام المسلمين ، صاحب النّظريّة العالَمية الثّالثة ، فيلسوف الأمّة ، فارسها المجيد ، ورسول صحرائها العتيد ، مكانتي العالَميّة لا تسمح لي بأنْ أنهزمَ أو أتراجع أمام مجموعة من الجرذان الّتي خرجتْ من الأقنية والمُستنقَعات» .

الهتافات مستمرّة في الخارج ، صوتُها يصل إلى هنا رغم كلّ الطّبقات والأقبية ، نادَى على منصور : «هل تسمع ما أسمع؟» . ردّ منصور : «سنتولّى أمرهم يا سيّدي ، القنّاصة يعتلون أسطح البنايات ، هؤلاء الّذين يسمّون أنفسهم ثُوّارًا جُبناء ، عند أوّل رصاصة يفرّون» . «استمع إلى هتافهم يا منصور ، ألا يُشبه هتاف الجماهير في ملعب كرة القدم عام ١٩٨٨؟» . «بلى يا سيّدي» . «فتعامَلْ معهم بالطّريقة نفسها . ازرع على الجانبين عناصر الأمن المُسلّحين ، دَعهم يركعون على رِجلْ واحدة ، يُصوّبون باتّجاه كلّ مَنْ يتحرّك ، القَتْلُ أنفى للقتل يا منصور ، إنّ الشّعب الّذي يثور على نفسه يستحقّ القتل» .

«عليكَ أنْ تأكل شيئًا . . . الطّريق طويلة ، وأنتَ منذ يومَين لم تذق الطّعام» قال له يونس . تجاهَله تمامًا ، ردّ عليه بسؤال : «ألم أزرع شواطِئ السّاحل اللّيبيّ بالألغام لأحصّنها من الأعداء ، ها هم الأعداء

جاؤوا ، وها أنتَ تسمع صوتهم ، إنّهم مبعوثون من إسرائيل ، إنّهم لن يتركوا ليبيا وحدها ، ألم أقلْ إنّ قطار الموت سيأتيكم ، ها قد أتى ، فلنجعلْ قِطار الموت يسحقهم يا يونس ، فَجّرْ في كلّ هؤلاء الأعداء هذه الألغام ، أليستْ خرائطها معك؟! افعلْ ما أقوله لكَ على الفور» .

(١٣)
الزّبير وعبد الله والحاجّ صالح وآخرون

وجهه أسمر، وَقور، وجبهته عريضة، وعيناه لوزيّتان، وبسمته دائمًا على وشك الانفراج، كلّ مَن رآه شعر بغمامة من الطّمأنينة تلفّه. قليل الكلام، ربّما الانفرادي كان سببًا في ذلك، وإذا سُئِلَ أجاب باقتضاب. يتجنّب الدّخول في جدال أو نقاش ما لم تكنْ هناك ضرورة، كان طُوالاً، مَمشوق القامة، مشدود الجِذع، عسكريٌّ من طراز فريد، اتّخذه رئيس العراق عبد الكريم قاسم في سلك الجيش العراقيّ كأحد أبرز ضبّاطه، لم تحتمله الملكيّة اللّيبيّة فطافَ في البلدان حتّى عادَ إلى وطنه الأمّ في عام ١٩٦٥م، لتكون له تهمة المُشاركة في انقلاب (الأبيار) بالمرصاد، فألقي القبضُ عليه، وأودع السّجن منذ ذلك التّاريخ ولم يخرجْ منه إلا في عام ٢٠٠١م، ليكون بذلك أقدم سجين ليبيّ يقضي في سجون بلاده ٣١ عامًا. ظلّ في (المحقرة) ثمانية عشر عامًا. وقضى ما يقرب من عشر سنوات في زنزانة انفراديّة ليس أمامه إلاّ الجدار، وما من فضاء يُمكن التّجوّل فيه في زنزانته، الجدران من الجهات السّتّ تضغط عليه كما لو كانت قبرًا. لم يخرج من (المحقرة) إلاّ حينَ نُقلنا من الحصان الأسود في عام ١٩٨٤م ليدخل إلى زنزانة الإعدام الجماعيّة في سجن (أبي سليم) إلى عام ١٩٨٨م، بعد ذلك التّاريخ استطعْنا أنْ نلتقيه، وأنْ نلتقي بتاريخ ليبيا مطبوعًا على جبهته، وبشواطئها وصحاريها وجبالها مغروسةً في قلبه. الحديث عنه

يطول، فماذا يُمكن أنْ تقول عن البحر، ماذا يُمكن أنْ تُحدّث عن التّاريخ، من أينَ تبدأ، وماذا تنتقي، وعلى أيّ ضفّة ترسو؟!

(المحقرة) هي التّعريف الموازي للموت، انعدام الحياة، انخطاف النَّفَس، شللٌ في عضلة القلب، توقّف الزّمن، والبداية لنهايات كثيرة. في شتاء إحدى السّنوات المنفلتة من العَدّ، هطل المطر غزيرًا، استمرّ ساعاتٍ طويلة، صوتُ المطر الحزين في البداية كان موسيقى من الفرح بالنّسبة لنا، شيءٌ من اللّون في لوحةٍ قاتمة، وحركةٌ مُغايرة تكسر الرّتابة القاتلة. لكنّه مع البرد يُمسي هو الآخر قاتلاً أو متواطئًا مع القَتَلة، هُطُوله المستمرّ على سقفِ زنازين المحقرة غير المعزولة، والمهترئة بسبب قِدَمها، والمليئة بالشّقوق، جعله يتسلّل من الجدران العالية مثلَ أفاعٍ صغيرة، سال على الجدران في البداية، فاحتملْناه، ثُمّ راح يهبطُ على أرضيّة الزّنزانة، لم يكنْ في الزنزانة سرير، ولا غطاء باستثناء بطّانيّة واحدة، ولم يكنْ الزّبير يلبسُ إلاّ ما مَنّ عليه به السّجن، ولم يكن السّجن إلاّ قاتلاً آخر يُضاف إلى قائمة القَتَلَة. تكوّر الزّبير في زاوية ضامًا يدَيه حول رُكبتَيه، محاوِلاً استجلابَ شيءٍ من الدّفء في هذا البرد القارس، لكنّ الجدار الّذي ألصقَ به ظهره لحقتْه هو الآخر أفاعي الماء، فهبطتْ كالصّقيع عليه، تبلّل جسدُه، ثُمّ تبلّلت البطّانيّة، وامتلأتْ أرضيّة الزّنزانة بالماء المُثلّج. طرقَ على الباب، نادَى على الحرس، صرخ، استغاث. لكنّ صوته ضاع، لم يكنْ صوتُه مسموعًا في أيّ ليلةٍ من اللّيالي السّابقة، أفسيكون مسموعًا في هذه اللّيلة الباردة؟! الحرس انسحبوا مثل كلابٍ هَرِمة إلى الإدارة ينعمون بالدّفءِ في حُجراتهم، يتكوّرون فوقَ أسرّتهم، يُشاهِدون مُسلسلاً أو فيلمًا، يشربون الشّاي ويُدخّنون، ويُواصِلون الثرثرة وعَرْضِ بطولاتهم في تعذيبِنا.

فكّر بأنّه يُمكن انْ يُفكّر بأنّ هذا حلم ، أنّ هذا البــرد ليس حقيقيًا ، انّ هذا الماء لا يغطّي الأرض ، انّ كلّ ما يراه لا يراه ، أنّ كلّ ما يُحسّ به مُخادعٌ ، حاول أنْ يفعل ذلك كنوع من الاحتيال على الحقيقة ، كنوع من العيش في وهم يُمكن أنْ يمارسه الإنسان على ذهن حتّى يُؤمن به ويتجاوز مرحلة الأذى ، لكنّ الإحساس لم يخدعه ، ولسعات البرد لم ترحمه ، لم يستطعْ أنْ يخدع الحقيقة ، كانت الحقيقة أوضح من أيّ نوع من الخِداع .

كُنّا في الزّنزانة ما يقرب من خمسة عشر سجينًا ، لم نكنْ لونًا واحدًا ، ولم نكنْ جميعًا مُتبيّنين ، وكان الأستاذ (عبد الله المسلاّتي) هو أميرنا . رجلٌ أخذَ من نفسه من أجل أنْ يُعطينا ، وعلّمنا يومَ أنْ كُنّا صغارًا ، وأرشدنا يوم أنْ كانت البوصلة تبحثُ عن مرشد .

(عبد الله المسلاّتي) في الثّلاثينيّات من عمره يومئذ ؛ أبيض البشرة ، تعلو وجهه حُمرةٌ شديدةٌ إذا خاضَ غِمارَ نقاشٍ حادٍّ أو انتابه غَضَب ، وفي الخَلوات كانت الحمرة كثيرًا ما تَشوب بياض وجهه السّمح . كان يستميتُ في الدّفاع عمّا يُؤمن به وإنْ كان لا يُحاسب الآخرين على ما يؤمنون به . حَيِيّ مع غَضبه ، لا يكادُ يسألكَ عن شيءٍ ، لم يطلب وهو أميرنا وأكبرنا سِنًا وقدْرًا من واحدٍ منّا شيئًا طوال فترة السّجن التي عشناها معًا ، كان يخدمُ نفسه بنفسه . شجاعته من نوع نادر ، كان يؤمن بعكس ما يُؤمن به المتنبّي ؛ فكان يرى الشّجاعة تسبق الرّأي ، وكان كريمَ النّفس ، كريم اليد ، كريم الخُلق . لم يكنْ يقبل بأنصاف الحلول في القضايا المبدئيّة ، في المحكمة حينَ تواجهْنا مع القُضاة ، طلبَ منّا أنْ نقدّم الموقف على الاستطاعة ، لا تقل : «لا أستطيع ؛ فالموقف يجعلك تستطيع» ، ورفع من شأن المبدأ ، وأنكرَ المصلحة ، ولم يقدّم على مصلحةِ ما يؤمن به شيئًا ،

ولعلّ ذلك هو ما أغضبَ النّظام منه ومنّا فنسينا في السّجون كأنّنا لسنا بشرًا ، ولا تدبّ في أجسادنا أرواح . أستاذنا (عبد الله المسلاّني) هذا صنفٌ فريدٌ من النّاس ، رجلٌ بمعنى الكلمة ، كان يقول : «الرّجال مواقف . فقُم حينَ تتخطّفكَ المحن بما تقتضيه الرّجولة منك» . طَوال عشر سنوات ، هي الفترة الّتي قضاها معنا لم يتساهل في دينه وفيما يُؤمن به قيدَ أنملة ، ولم نكنْ ونحن تلاميذه نقدر على أنْ نجاريه ، فنطلب منه أنْ يترفّق بنا ، فإنّ الدّرب الّتي يمشيها هو نمشيها نحن معه كذلك . فيقول : «المركب الّذي يقوده رُبّان خائف لن يصل إلى وِجهته» . ولم نكنْ ندري ما وجهته ، ولا إلى أينَ يقودُنا ، حتّى حدث له في نهاية السّنوات العشر الّتي عاشها معنا ما فسّر لنا كثيرًا من صلابته وصلادته ، وربّما تعنّته أحيانًا . لكنّ هذا الرّجل العتيد كان طيّب القلب على الضّفّة الأخرى . كانَ كثيرَ البكاء في الخَلَوات ، إذا ذكر اللهَ فاضتْ عيناه ، رقيقًا في تعامله الأبويّ معنا ، تعلو وجهه المُشرق ابتسامةٌ دائمة ، كأنّ شفتَيه لا تملكان أنْ تنقبضا ، فهما مُفترّتان في كلّ الظّروف ، أبيضِها وأسودِها ، وهذا ما جعلنا نحتمي به كأنّه تُرسُنا ودِرعنا ، وجعلنا نلوذ بكنفه إذا ادلهمّتْ الخطوب . كان معتدل القوام ، لا بالقصير ولا بالطّويل ، خفيف شَعر الرّأس ، عميق الفكر ، ذا وعي سياسيّ متميّز ، كان يسبق النّظام في التّنبؤ بما يُمكن أنْ يقوم به عشر خَطوات . وكان كثيرًا ما يُردّد أبيات سَميّه (عبد الله بن رواحة) :

يا نَفْسُ إلاّ تُقتَلي تَموتي
هذا حِمامُ الموتِ قد صَلِيْتِ
وما تَمَنَّيْتِ فقدْ أعطيْتِ
إنْ تفعلي فِعْلَهُما هُديتِ

وكنا إذا خرجنا إلى (الآريا) يصدح بالبيت الأوّل بأعلى صوته، ويتعمّد أنْ يسمع حرّاس السّجن وزبانيته، وكنّا نلحظُ أنّه لا يفتأ يردّدها، فنسأله أنْ يُردّد غيرَها، فيقول هي أحلى على لساني من سِواها. وكنتُ أخافُ من ذلك، إذ لم يَخلُ منها تقريبًا يومٌ، أو خروجٌ إلى (الآريا)!!

ولم نكنْ وحدَنا في السّجن، كان معنا من نختلف معه في الرّأي، فكان يجمع ولا يُفرّق، وله وزنُه بين المساجين وعند الإدارة، إذ كُنّا بالعشرات نأتمر بأمره، وكان يحظى باحترام مُخالفيه في الفِكر. ومع أنّه كان يصل إلى أنْ يكونَ حادّ المِزاج مع الآخر، لكنّه كان يعود. ويصل ما انقطع، ويردّد العبارة الشّهيرة: «اختِلافنا في الرأي لا يُفسِدُ للودّ قضيّة». وكان السّجن يمور في منتصف السّبعينيّات بكلّ الأفكار، وكثيرًا ما كان يحدثُ صِدامٌ بين تيّارٍ وآخَر، فكان يقفُ على مسافة واحدة من الجميع، ويجتهد - بالحُسنى - ألاّ يُغضِبَ أحدًا. حدثَ مرّةً خلافٌ في السّجن بين اليساريّين واللّيبراليّين، وحاول كلُّ جانب استمالَتنا للاصطِفاف إليه، فاجتمع الأستاذ عبد الله المسلاني بنا وحدّد لنا ملامح موقفنا: «يجب أنْ نبقى على الحِياد، وأنْ نسعى جاهِدين للمُصالحة بينَ الطّرفَين؛ لأنّ الرّابح في أيّ معركةٍ في السّجن سيكون خاسِرًا». ووهبَه حُبُّه للجميع حُبَّ الجميع له.

في السّجن ما يُبكي. في السّجن ما يُضحك. والأيّام بينهما دُول. وهل الحياة إلاّ هذان - الضّحك والبُكاء - مُتداولَين؟! يحدثُ أنْ تضحك من دون سبب، في الحقيقة هناك ألفُ سبب. يحدثُ أنْ تبكي من دون سبب، في الحقيقة هناك ألفُ سبب! المُؤشّر الدّاخلي لهما في مشاعر السّجين يعمل بدقّة متناهية؛ إذا طغتْ أمواجُ الحزن

وكادتْ تُغرقُ صاحبها أتى موقفٌ مُضحِك ليشكّل طَوقَ نجاة لهذا السّجين . كُنّا نصطنع المواقف المُضحكة أو الطّريفة من أجل أنْ ننحتَ نافذةً ولو صغيرةً في جبال الحُزن الجاثمة على صدورنا ، كانتْ هذه النّافذة الصّغيرة كافيةً لكي نتنفّس ، ولسنا نريد أكثر من ذلك . ماذا يحتاجُ الغريق؟

في السّجن بعضُ الجواسيس ، في كلّ سجنٍ يحدث ذلك . تُسخّر الدّولة أحدهم بدلاً من الكاميرا ، يرى ويراقب ويسمع ويكتب كلّ شيء ، في زنزانتنا كان معنا جاسوس مصريّ كُنّا نُناديه باسم قبيلته : (أبو العيون) ، ويبدو أنّ هذا اللّقب كان لائقًا به ، فقد كانتْ له عيونٌ كثيرةٌ تراقبُ كلّ شيءٍ وتُحصي علينا كلّ ما نفعل . اشترتْه الدّولة بوعودٍ لم يتحقّق له منها شيءٌ كثير ، وأعطتْه ما كان تافهًا وإنْ كان في نَظَره عظيمًا ؛ ربّما زيارة خاطِفة ، الإفراج عن بعضِ أدواته الّتي تصل إليه من ذويه ، وأحيانًا يأخذ حصّة أكبر من الطّعام . وكثيرًا ما كان يجد ما يأكل في الهزيع الأخير من اللّيل مِمّا ادّخره في ظهيرة اليوم من رغيفِ خُبزٍ فرنسيّ أو علبةِ طحينةٍ أو حلاوة ، أو ما شابَه ، وكان هذا في أيّام الجوع يُعدّ امتيازًا لا يحصلُ عليه أحدٌ بسهولة . كُنّا في السّجن يومَ الجمعة أحيانًا نخطب الخُطبة ونصلّي ، وكان يكتب ما نقول في الخُطبة . وموعده للقاء الإدارة كي يُقايضها يوم السّبت . مشى إلى الإدارة وبلّغهم ما قال خطيبنا في ذلك اليوم ، فرجع من عندهم ومعه جائزة كبيرة ، وهي مُسجّلة ، وكُنّا نحن لا نملك أيّ شيءٍ يصلنا بالزّنزانة الّتي تُقابلنا فضلاً عن أنْ يصلنا بالخارج . دخل وابتسامته تشقّ صُدغَيه لاتّساعها ، وهو يحضن المُسجّلة بينَ ذراعَيه ، كأنّه يخشى عليها أنْ تفرّ .

نظر إليه أميرُنا (عبد الله) وهو يدخل ومعه المسجّلة ، فقال له : «إيه يا أبو العيون معك مُسجّلة ، الّذي خطب الجمعة أمس الأستاذ مُهذّب فرجعتَ بمسجّلة ، فماذا لو خطبتُ أنا رئيس الحزب فبِمَ سترجع؟» . فردّ عليه أبو العيون وهو يضحك : «إفراج يا سيدي . . . إفراج» .

انتحى به مرّة عبد السّلام زميلُنا في الشّيلة ، شدّه من يده ، لأنه على ما يفعل ، قال له بصوتٍ خفيضٍ لكنّه حادّ : «يخربْ بيتك يا أبو العيون . . . باش تكتب فينا ورِجلينا في الفلقة سوا!! يا أخي اشعر معنا شوي» . فيردّ عليه أبو العيون بكلّ ثقةٍ وهو يهزّ برأسه نافيًا أنْ يكون ذلك قد حدث ، رافعًا صوته مُسمِعًا الجميع كي لا يقوم آخرُ باتّهامه التّهمة إيّاها مرّةً أخرى : «معاذ الله يا عبد السّلام ، معاذ الله يا أخي ويا رفيقي في المحنة ؛ إنّ الله ليسأل عن صُحبة ساعة . عيب أفعلها . . . بينا عيش وملح يا عبد السلام . . عيب» . ويمطّ عنقه ، ناظرًا إلى عبد السّلام بطرفِ عينَيه بوقاحة .

مرّ شهرٌ أو شهران على تلك الحادثة . كان عبد السّلام يُعدّ له فخًا . نحن نسينا الأمر تمامًا ، أو قل اعتدْنا عليه ، ولم نُلقِ له بالاً ؛ فما عساهم يفعلون لو خطبْنا في اليوم عشر مرّات؟ يسجنوننا مثلاً؟ ها نحن في السّجن . يعذّبوننا؟ إنّهم لم يتركوا وسيلةً من العذاب إلاّ صبّوها فوق رؤوسنا صبًا . المهمّ خرج السّجناء إلى الآريا في أحد الأيّام ، بقي عبد السّلام في الشّيلة وحده وتظاهر بأنّه تعب ، ففتّش أغراض أبي العيون ، فوجده قد كتبَ تقريرًا عن زملائه ، وعن كلّ كلمة قُلناها بيننا . وكان تقريرًا طويلاً . ومُعَدًا بإتقان ، حتّى إنّ الخطّ بدا أنّ صاحبه يتفنّن في رَسم حروفه ، لم يظهر أنّ الّذي كتبه كان على عجلة من

أمره ، على العكس ، كان يبدو أنّه كتبه بتمهّلٍ وهدوء .

في السّهرة واجهه عبدُ السّلام من جديد : «ايه يا أبا العيون صارِحني بالحقيقة . . . حبل الكذب قصير» . فردّ أبو العيون غاضبًا وهو يلوّح بيديه أعلى من رأسه : «معاذ الله . . . معاذ الله يا صديقي . . . والله حرام عليك الاتّهام . . . أنا أخون إخوة الدّرب ، ورفقاء النّضال . . . الظُّلم ظُلُمات؟!» . فانفجر عبد السّلام لحظتها وقال له : «يا كلب . . . وهذا ماذا يكون . . . نشرة أخبار؟!» . وأخرج له التّقرير ، فاضطرب أبو العيون ، وطنّ بِفِيه ، ونظر حوله وهو يخفض رأسه ، ولم يجد بُدًّا من الاعتراف ، فقال : «سامحني يا عبد السّلام ، والله إيدي بتاكلْني إذا ما كتبت» . فردّ عبد السّلام : «نحن وثقنا فيك ، نُشاركك في كلّ شيءٍ ، نعطيك الدّخان ، ونقسم الطّعام لكَ كما نقسمه لأنفسنا ، وتفعل هذا؟!!»

كان معنا سجينٌ آخَر ، عراقيّ ، صار فيما بعدُ - بعد أنْ خرج حيًّا من هذه المقبرة - وزيرًا لخارجيّة العراق . وكان من أعيان البعث . وكانتْ تمرّ علينا شهور دون أنْ نرى اللّحم ، ولا أنْ نذوق المَرَق ، لا شيء غير الخُبز وقليلٍ من الزّبدة أو المربّى والجُبن المالح القاسي ، وأحيانًا قبضة من الرّزّ غير المطبوخ جيّدًا يستقرّ في الصّحن ككومةٍ من عجين . وزير الخارجيّة المستقبليّ هذا تاق إلى أنْ يأكل لحمًا . استطاع برشوة بعض السّجّانين وبعض علاقاته الخارجيّة أنْ يحصلَ على دجاجة مُحمّرة . تقطر جوذاباتُها كما قال بديع الزّمان ، ولكنّها دجاجةٌ واحدةٌ ولا تكفي أنْ يأكلها نُزلاء الشّيلة كلّهم ولا حتّى نصفُهم أو أربعةٌ منهم . فأخفاها تحتَ سريره حتّى لا يُشاركنا بها ، وكان الجوّ حارًا ، لعلّه تموز أو آب ، والسّجن مُغلق ، والزّنزانة أشدّ إغلاقًا ، وأنفاسُنا نحن

المتعرّقين هي أنفاس ما يقربُ من عشرين سجينًا في حُجرة ضيِّقة شديدة الحرارة . فكان يقتطعُ منها في كلّ يوم قطعةً صغيرة ، ويتلذذ بأكلها ، وهو يُخبِّئ ما يتبقّى منها في كلّ مرة تحت سريره ، حتّى إذا ما انتهى اليوم الرّابع راح يصيح ، وينوحُ ويجوح ، ويصرخ ويستغيثُ ، وهو يشدّ على بطنه ويتلوّى من الألم . . . رُحنا نخبط على باب الزّنزانة ونهتفُ بالحُرّاس أنْ يأتوا ، بعد ساعات طويلة منّوا علينا بفتح الباب . نقلوه إلى الإدارة ، ثُمّ إلى المستشفَى ؛ شُخّصه الطّبيب ، قال له : إنّك مُصابٌ بالتّسمّم!!

(١٤)
قليلٌ من الهواء... كثيرٌ من الحريَة

كان هناك تَعداد يومي ؛ يُفتح الباب ، فنُسرع جميعًا إلى الآريا ، وهي ساحة التشميس ، كأنّنا الخيول الجامحة ، قليلٌ من الهواء ، كثيرٌ من الحُريّة . بعضُنا يجرّب أنْ يركض في السّاحة ، يُطلق لساقيه العنان ، نركضُ كأننا سنُحرَم من الركض لما تبقّى من حياتنا ، نمشي قبلَ أنْ يفتك بنا صِياح الحرس ، كي نتجمّع من أجل البَدء بالعَدّ . كانت الآريا إحدى نِعَم الله علينا هنا ، إنّها ساحةٌ واسعةٌ فيها يتدفّق سُجناء العنبر بأكمله إليها ، نلتقي كلّنا فيها كأنّنا رفقاء غابوا في المنفى سبعين عامًا ، وفجأةً وجدوا أنفسهم وجهًا لوجه ، مع أنّ أكثرنا لم يكنْ يعرفُ ما يزيدُ عن عشرةٍ أو عشرين من هؤلاء السّجناء . النّظر في العيون متعة ، النّظر في الوجوه نعمة ، رُؤية البسمة تعلو المُحيّا أكبر نِعمة ، حنين البشريّ إلى مَنْ يُشبهه ، تَوق القلب إلى مَنْ يُناصِفه الحديث ، يبادله السّلام ، الأيادي تتماسّ مع الأيادي ، نشعر بالدّفء ، صقيع الغربة قاتلٌ ، فكيفَ إذا كانت الغربة هنا مُضاعفة . كنّا نستغلّ اللّحظات الّتي تمرّ كأنّها غزلانٌ نافرة في الآريا لنتناقل الأخبار ، نتعرفُ مَنْ دخل المدرسة من الأبناء ، مَنْ تزوّج ، مَنْ وُلِدَ له ولدٌ أو حفيد ، مَن تخرّج في الجامعة ، مَنْ وجد عملاً ، من خرج من البلاد ، مَن دخل ، أو حتّى مَنْ مات . . . كانت الأخبار شحيحةً جِدًا ، إنْ لم تكن معدومةً في بعض الظّروف ، أنْ نجد مَنْ يجود بها علينا ولو كانت

باقتضاب؛ فهذا يعني أنّنا ما زلنا أحياء، ما زلنا نقاوم الموت، ما زلنا قادرين على أنْ نستعيد ما انخطفَ من بريق أعيُننا، وما قتم من بسمة شفاهنا.

غير أنّ هذه الفرحة لم تشمل مَنْ كان في (المحقرة)؛ الجزء المعزول كليًّا عن بقيّة السّجناء، كان كلّ مَنْ في المحقرة من الّذين حُكموا بالإعدام، ولا أدري كيفَ يعيشون هناك، كيفَ يطلع عليهم النّهار، كيف يقضون أوقاتهم، وهل يتراءى لهم حبلُ المشنقة في الظّلام مثل قدرٍ محتوم، كيفَ يتعايشون مع الموت؟! أنْ يجلس الموتُ معك، يأكل معكَ، يشربُ معك، ينام معك، فذلك أمرٌ فوقَ الوصف، فوق الاحتِمال، هل كانوا بالفعل قادرين على التّعايش معه؟ بعضُهم لبّى نداءه، وبعضُهم ما زال ينتظر. الّذين لبّوا النّداء، كيفَ واجهوه، كيفَ ساروا إلى المنصّة معه؟ هل ساروا عن يمينه أم عن شماله أم أمامه أم خلفه، هل بدا لهم الموتُ شخصًا لطيفًا أم بشعًا، هل كان الموتُ رجلًا أم امرأة؟ طفلًا أم شيخًا؟ ملاكًا أمْ شيطانًا؟ وهل كان مسموحًا لهم أنْ يُحادِثوه، وإذا حادَثوه ماذا قال لهم وماذا قالوا له؟ هل صوتُه يشبه فحيح الأفعى أم حفيفَ أوراق الشّجر؟ هل له كركرة الأطفال أمْ هزيم الرّعد؟ أمْ أنّه يُشبه خرير الماء إذا جرى في النّهر هادئًا وادعًا؟!

هل كان الموتُ مرسومًا على الجدران؟ هل كان مغموسًا في لقمة الأكل؟ أم كان يتسرّب إليهم من النّافذة الصّغيرة المُخصّصة لإدخال الأكل؟ أم أنّه كان يتشكّل طيفًا في الظّلام؟ أينَ كان ينام إذا نام معهم في الزّنزانة بانتظار أنْ يتصاحَبا معًا إلى الموعد المقدور؟ هل كان ينام إلى جانبهم؟ أمْ يستلقي على ظهره في السّقف، أمْ يلتصق بالجدار؟ أم يجلسُ إليهم يقصّ عليهم قصص الغابرين كي يُخفّف عنهم وطأة

الجنة؟! هل كان يضحكُ أمْ يعبسُ في وجوههم؟ هل كانتْ له عينان أم أنّ مكاني عينيه فارغان؟ وإذا كانتْ له عينان ، كيف كانتا تبدُوان؟ هل هما جمرتان أمْ نجمتان؟ هل هما عينا صَقرٍ أم عينا ذئب؟ هل كانت تلمعان في الظّلام أمْ كانتا مُطفأتَين؟ هل كانتا مُخيفتَين أمْ مُطمئنتَين إذا نظر فيهما المرء شعر أنّه ينظر في عينَي صديقٍ قديمٍ زاره على غير انتظار؟!!

على جدار الانفراديّ في (المحفرة) يمكن أنْ تكتب ، لكنّك لا ترى ما تكتب . تخطّ ما قاله القلب في لحظة ضعفٍ أو قوّة لا يهمّ ، المهمّ أنْ تكون العبارة خارجةً من القلب ، وما من عبارةٍ نُقشت على هذه الجدران إلاّ كانتْ خارجةً من القلب ، ذلك أنّ الموت لا يترك لغير القلب أنْ يتكلّم في حضرته ، في حضرة الموت لا يكون إلاّ الصّدق ، والصّدق لا ينبع إلاّ من القلب . على هذه الجدران المقرورة ، الرّاعفة بالوَجع ، يُمكن أنْ تحفر بإظفرك ، ثُمّ تقرأ بإصبعك ؛ تتلمّس المحفور وتقرأ : «منذُ دخلتُ إلى هنا وأنا ميّت» ، كانتْ هذه العبارةَ الأشدّ تشاؤمًا . على الجدار المقابل في الزّنزانة ، تلمّستْ أصابعي هذه العبارة : «كلّ هذا الظّلام سينتهي ؛ اللّيل لا يعقبه ليلٌ آخر» ، كانت هذه العبارة الأشدّ تفاؤلاً . في الزّنزانة نفسها يُمكن أنْ تعيشَ الحالتَين ، ليسَ في زمانَين مُنفصلَين ، بل في لحظتَين مُتتابعتَين .

امتلأ قلب القائد في عيد الأضحى بالأسى ، فرثى لحالنا ، وأحبّ أنْ نقضي العيدَ مع أهلنا وعيالنا . كان ذلك في عام ١٩٧٤ ، أفرجوا عن كلّ القضايا مدّةَ عطلة العيد ، خمسة أيّام ثُمّ نعود . أفرج عن التروتسكيين وعن يساريّي الجبل الأخضر ، وكذلك عن الإخوان المسلمين ، واستُثني من هذا الإفراج المُؤقّت أعضاء حزب التحرير .

بعد مُضيّ الأيّام الخمسة عاد التروتسكيون ويساريّو الجبل الأخضر، ولم يعد الإخوان بسبب تفاهم بينهم وبين النظام، قال لهم القذافي: هذه جمعية الدعوة الإسلامية الّتي أنشأتها اهتمّوا بالجانب الدّعوي، واتركوا الجانب السّياسي، وإذا أردتم نشر الإسلام فادخلوا الجمعية. كانت الجمعيّة تُعنَى بالدّعوة خارج ليبيا، وقال رأس النّظام إنّه يريد من خلالها أنْ يغزو إفريقيا، فراحَ يبعث المشايخ ويبني المساجد، ويُقرِئ القرآن.

طالَ بقاؤنا في السّجن، مرَّ عامٌ والثّاني، ولم نُعرَض على المحكمة، كانت السّياسة تقضي بأنْ نُرمَى حتّى نُنسَى. وقد قال القذّافي أوّل ما اعتقلنا: «والله لأخلّيكم في السّجن لعام ١٩٨٠». وكان يرى أنّ هذا التّاريخ بعيدٌ جداً، وأنّ بقاءنا هذه المُدّة طويلٌ جداً، فما من أحدٍ يظلّ في السّجن عقداً كاملاً!!

(١٥)
مِن ظَلام السَّجن إلى ظَلام القَبر

في عام ١٩٧٧م رأى القذّافي أنْ يُحيلنا إلى محكمة الشّعب. وهي محكمة استثنائيّة بامتياز. وأصدر قانون تجريم الحِزبية. ثُمّ قانون حماية الثّورة. كلّ الأحكام فيها إعدام. حُكمنا (١٥) سنة، ثُمّ لم يَرُق الحُكم للنّظام الرّحيم فغيّره إلى الإعدام والمُؤبّد. وكان نصيبي هو المُؤبّد. وكان المُؤبّد يعني المُؤبّد، وكان القذّافي يُقسم: «والله لن نرحمهم؛ من ظلام السّجن إلى ظلام القبر». والمحاكمة كانت تظاهرة، يأتي القاضي، وكان عنده تعليمات ألاّ يدخل في نقاش مع أعضاء حزب التّحرير أبعدَ من السّؤال القانونيّ. كانوا يخافون الدّخول في النّقاش لأنّهم يعلمون أنّ الحجّة الّتي يمتلكها صاحب الحَقّ دامغة. وحجّة الباطل ضعيفة وإنْ انتفش وعَلا. فيقول القاضي للأستاذ عبد الله المسلاّتي: «التّهمة؛ حزب التّحرير، تنظيم سياسيّ محظور، يعمل لقلب نظام الحُكم وإقامة الخلافة الإسلاميّة. وقد وصفَ هذا الحزبُ النّظامَ بأنّه نظام علمانيّ، وقد اندسّ في صفوف الشّباب والمثقفين للتّرويج لأفكاره». يتوقّف القاضي قليلاً بعد تلاوة التّهمة، ثُمّ يسأل: يا عبد الله (كان أمير حزب التّحرير يومئذٍ): «هل أنتَ عضو في حزب التّحرير؟». فيقول: «لا». (كُنّا معرّضين للإعدام بجرّة قلم). يُتابع عبد الله: «لا، لكن السّؤال لا يُطرَح بهذه الطريقة أيّها القاضي، سأصدقك القول إذا أتحتَ لي الفرصة لأطرحَ رأيي». يقول القاضي:

«لا مَجال لأنْ تقول أكثر من لا أو نعم» . فيجلس الأستاذ (عبد الله) دون أنْ يزيدَ كلمةً واحدة . ولكنّ القاضي مضطرٌ أنْ يسمع . فيتابع سلسلة التُهم المُعدّة له في ملفّنا سلفًا : «وقد قام هذا الحزب على أفكار تخالف أفكار ثورة الفاتح من سبتمبر» . فينهض عبد الله رئيس الحزب ليقول : «إنّ ما يُسمّى بثورة الفاتح من سبتمبر لا تزيد على أنْ تكون انقلابًا عسكريًا» . فيسأله القاضي : «ما رأيك في النّظام؟» . فيجيب عبد الله : «نظامٌ عميلٌ ، فاسدٌ» . فيسأله القاضي : «ما رأيك في القائد؟» . فيجيب : «جاء بلعبةٍ دوليّة . المُسلمون لا يحكمون أنفسهم . لو كان مُسلِمًا لما فعلَ ما فعل» .

يطوي القاضي الملفّ ، لو أنّ هذه الإجابات كانتْ بعد عام ١٩٨٠ لأُعدِمْنا في قاعة المحكمة قبل أنْ نخرج من بابها ، لم يكن النّظامُ قد استشرسَ بعد!!

أُعِدْنا إلى السّجن . راحَ القذّافي يبعثُ لنا بمشايخ لكي يُفاوضونا ونقوم بعمل مراجعاتٍ من خلالهم ، ونتخلّى عن بعضِ المواقف والأفكار . أحد المشايخ الّذين بعثهم اجتهد في أنْ يُقنعنا بالعدول عن أفكارنا ، بعد نقاشٍ طويلٍ لم نتوصّل معه إلى اتّفاق في هذه المفاوضات ، فقال غاضبًا : «إذا كان عثمان بن عفّان قد بايعوه ستّة ، فهذا القائد (يقصد القذّافي) قد بايعوه اثنا عشر (يقصد أعضاء مجلس الثّورة)» . فقلتُ له : «يا شيخ لقد جِئتَ تُجمّل النّظام ، ونحن جئنا لِهَدمِه وتحطيمه وزلزلة أركانه» . فانصرفَ لا يلوي على شيء . بعد ما يقرب من أربعين سنةً من تلك الحادثة ، حدث ما لم يكنْ أحدُنا يتنبّأ به ؛ سُجِنَ هذا الشّيخ بعد ثورة فبراير باعتباره أحد الرموز الدّينيّة للنّظام ، ثُمّ أُخرج من سجون مصراته للصلاة على القذّافي ، إذ لم يكن

أحدٌ يريد أنْ يُصلّي عليه ، وأُطلق سراحه فيما بعد أن أمضى سنوات عجافًا في السجن .

حضرتْ أمّي المُحاكَمات كلّها ، كانتْ تأتي مُتعبَة مُرهَقة ، لا زوج ولا ولد ولا أهل ، أختها الوحيدة خالتي تعيشُ في تونس ، فتقطع أمّي المسافات دون رفيق ، وتتحمّل عناء ركوب المواصلات أو المشي الطَويل في نهارات الحرّ القائظ ، وحينَ تصل إلى المحكمة كانتْ تُهرَع باتّجاه القفص الّذي نقف فيه مع بقيّة المتّهمين ، وكان شبك القفص يمنعها من احتضاني ، فتكاد تُذيب تلك القُضبان بنظراتها الحانية من أجل أنْ تصلَ إليّ أو إلى شيءٍ منّي ، تسيلُ دموعها بصمتٍ على وجنتَيها ، وهي تلهج باسمي : «وليدي يا حبيبي» . أتناول يدها لأقبّلها ، فتحتضن يدَيّ كأنّها تستعيضُ بهما عنّي ، وتروح بعينَيها الدّامعتَين تنظر في عينَيّ ، كانتْ عيناها مزيجًا من مشاعر لا يُمكن وصفُها ، الرّحمة والحُزن والعتب والرّضا والفخر والرّجاء . . . وسؤال قاتلٌ كان يتردَّد في تلك العينَين : «لمن تتركني يا بُنيّ وقد هرمتُ ، وطال بي الشّقاء ، وليس لي سواك في هذه الدّنيا» . فأحاول أنْ أقول إنّه قدر الله ، وأنّه في سبيله فتخنقني العَبرة وتخونني العِبارة ، فأكتفي بأنْ أعضَ على شفتَيّ من الوجع الّذي في داخلي وأشيح بنظراتي بعيدًا .

كانتْ تجلس في الصّفّ الأوّل تنظر إلى القاضي ولسان حالها يقول له : «ارأفْ بي ، أليسَ لك ولدٌ مثل ولدي ، أليسَ أولادُنا حبّاتِ قلوبنا ، فهل ستفجعني بوحيدي أيّها القاضي؟! ضع قلبك مكان قلبي ؛ إنّ قلبكَ لن يُطاوعك في أنْ تُؤذي قلبَ أمٍّ مسكينةٍ لا حول لها ولا قوّة» . ثمّ تنشغل بالدّعاء لي طيلة الجلسة . ويرفع القاضي الجلسة ،

وتعود منكسرة الخاطر، تجرّ ثقل أيّام اليُتم والبُؤس، وتحمل فوق ظهرها جبالاً من الحُزن والأسى.

مرّ بنا في سنوات السّجن الطّويلة ما لا يُمكن أنْ تسعه الكتب والمُجلّدات، ولا أنْ تصفه الأحبار واللّغات، لم يبقَ أحدٌ من أصحاب الأفكار الشرقيّة أو الغربيّة، اليمينيّة أو اليساريّة إلاّ مرّ بنا، كانوا يأتون ويرحلون، بعضهم يرحل بروحه تاركًا جُثمانه للطّين، وهؤلاء مُعظمهم كانوا ضُبّاطًا. وبعضهم كان يمكث سنةً أو سنتين أو ثلاثًا أو حتّى عشرًا، ويرحلون، إمّا لأنّهم أنهوا مُدد حَبسِهم، وإمّا لأنّهم راجعوا ما كانوا يُؤمنون به فرضيتْ عنهم السّلطة، وإمّا أنّهم وجدوا أنفسهم في الطّريق الصّحيح الّذي أوصلهم إلى المكان الخاطِئ، فعرفَ النّظام كيفَ يُقلّم أظافرهم ويُعيدهم إلى الشّارع لا وزن لهم ولا قيمة.

كان معنا حزبٌ آخر هو (حزب العودة). وكان حزبًا يدعو إلى الدّستور، ويدعو إلى دولة مدنيّة. كانوا شبابًا صغارًا، لم يمكثوا في السّجن كثيرًا. كانت الحياة خارج السّجن تضجّ بالحركة، ترشح لنا أخبارٌ قليلةٌ ولكنّنا لم نكنْ نعرفُ كلّ شيء، غير أنّ هذا القليل جعلنا نعرف أنّ طرابلس عاشتْ أواسط السّبعينيّات على صفيح من نار، لم تهدأ فيها حركات الوقوف في وجه النّظام سواءً أكان القائمون عليها مدنيّين أم عسكريّين.

كلّ الّذين قاموا بمحاولات انقلابيّة، والّتي تزيد عن عشر محاولات توزّعت على أكثر من عشر سنوات زُجّ بهم معنا كذلك. فتعرّفنا إلى ضُبّاط كبار، بعضُهم كان رفيقًا للقذّافي، آخرون كانوا أعلى رُتبةً منه، وبعضُهم كانوا وزراء في حكوماته المتتابعة. كان معنا ما عُرِف بقضيّة (جند الله) كانوا خمسةً وعشرين، قضوا معنا زمنًا

أتاح لنا أنْ نرى وجوههم ، أنْ نلمسَ الموت في عيونهم ، وأنْ نتوقّع لهم رحيلاً مُبكّرًا ، وهذا ما حدث بالفعل ؛ فقد أُعدِمَ منهم ثمانيةً!! سُجِنَ معنا كذلك قضيّة عُرِفتْ بقضيّة (الطّلائع) ، وهؤلاء سُجلوا كما سُجِلَ غيرهم . وكان معنا ما عُرِف بـ (قضيّة الطّلبة) ، وما عُرِف بأحداث (باب العزيزيّة) ، وما اشتُهِر باسم (الجبهة الوطنيّة لإنقاذ ليبيا) . وقضيّة (المغرب الإسلاميّ الشّعبيّ) ، وقضيّة (الزّنتان) ، وكلّ مجموعة من هذه المجموعات لها قِصّتها وتفاصيلُها الكثيرة ، ولو أردتُ أنْ أفرِدَ للقضايا ولأصحابها لكلّ واحدٍ منهم صفحةً أو اثنتين لملأتُ بذلك الكتب ، ولضاقتْ عنه الصّحف . ولكنّني أنتقي منهم ما يُرمّز لهم ، ويُبعد عنهم شبح النّسيان ، ويُعطيهم ولو جزءاً يسيرًا من حقّ تاريخهم النّضاليّ علينا ، وأقول : من هنا مرّوا وهذا هو الأثر .

بعد سنتين من آلام السّجن ، وبعد لياليه الطّويلة ، صرنا جسدًا واحدًا ، ذابتْ كل الفوارق بيننا وبين مَنْ يُشبهنا أو يختلف عنّا ، كُنّا نعلم أنّ الاختلاف سُنّة الكون ، وطبيعةُ الحياة ، وأنّ اختلافي عن الآخرين لا يعني خلافي معهم ، فبدأنا ننصهر في بوتقة واحدة ، وحدّثتنا المحنة ، ورقّقتْ قلوبنا ، وعظّمت الإنسانيّة الموجودة في أعماقنا ، فصار وجعنا واحدًا ، حزننا ، فرحنا ، انتصاراتنا الصّغيرة ، انهزاماتنا ، كُلّها كانتْ توزّع علينا بالتّساوي ، فإذا كان ما توزّعه علينا مصيبةً فقد خفّفنا بذلك من أثرها ، وإنْ كان ما نوزّعه علينا انتصارًا فقد عظّمنا قيمته ، وجعلناه يكفي الجميع ، ويرسم البسمة والأمل على وجوه الجميع ؛ بهذا كُنّا نحمي أنفسنا من أنْ نُجنّ ، أو ننهار ، أو نموت .

لا أدري متى حصل ذلك على وجه الدّقّة ، لكنّ التّروتسكيّين في زمنٍ ما لم يكن بالحسبان ولا كُنّا نسعى إليه بدؤوا يُصلّون معنا ،

ويصومون معنا ، ويُعيّدون معنا ، وإن احترمْنا رغبة بعضهم في أنْ يظلّ على أفكاره ومُعتقداته ، ووسّع هذا دائرة التّقبّل بيننا ، بل وأدّى إلى تلاحم عزّ نظيرُه .

نعَم لقد أقمنا علاقات إنسانيّة فريدة مع من تبقّى معنا من هؤلاء التروتسكيّين والماركسيّين ، وكانوا يقرؤون منشوراتنا الممنوعة ، ونقرأ كتبهم الممنوعة . ثُمّ وقّعنا ميثاق شرف يقضي بأنْ : أيّ اثنين يتعاركان ويمدّان أيديهم على بعضهما بعضًا يُقاطَعان من الجميع ، واستطعنا بذلك أنْ نحافظ على توازن داخل هذا الاختلاف ، ولم يتدخّل النّظام طيلة (١٥) سنة لِفَضّ أيّ نِزاع بيننا وبينهم . بل أكثر من ذلك كان التروتسكيّون أثرى مِنّا وزياراتهم أكثر مِنّا ، فقلنا لهم : هذه فرصة مواتية ؛ فطبّقوا علينا النّظام الاشتراكيّ الّذي تُؤمنون به ، فاتّفقنا أنّ الطّعام والملابس والدّخان الّتي تأتينا ، نجمعها مرّة واحدة ونوزّعها بيننا بالتّساوي ، سواء جاءك شيء أم لم يجئك . وكانتْ فترات استرخاء نسبيّ استمرّتْ حتّى عام (١٩٨٠) . صحيحٌ أنّ النّظام لم يكنْ يُقدّم لنا وردةً حين أقول إنّها فترة رَخاء نسبيّ ، لكنّه على الأقلّ لم يُكشّر عن أسنانه ، ولم يكشف عن ساديّته بشكلٍ مفرط أكثر مِمّا حدث بعد عام (١٩٨٠) م .

ثمّ استُؤنِفت المحاكمات ، وكان القضاء الليبي يستعين بقضاة مصريين ، أحد القضاة : الأستاذ (هاشم) تأثّر بمرافعة أحد السجناء وبكى ، وقال له وهو يمسح دُموعه : مَنْ منّا لا يُعاني يا أخي؟!

وأمر هذا القاضي بفتح تحقيق حول التعذيب الذي تعرّض له السجناء ، والقبض على السّجانين ، والإفراج عن السجناء ، فجُمّد القرار من قِبَل القذّافي ، ورُحّل القاضي إلى مصر دون سابق إنذار .

(١٦)
التّروتسكيّون

التّروتسكيّون صنفٌ نبيلٌ من النّاس . طيّبو القلب ، مَرِحون ، توّاقون للحياة . كسروا كثيرًا من الجهامة الّتي كانت تُجبرنا ظروف السّجن على أنْ نرسمها على وجوهنا . اندمجنا معهم كما لو كُنّا قد نزلنا من بطنٍ واحدٍ . هذا لا يعني أنّ الأمور كانت رومانسيّة دائمًا ، كان لا بُدّ من بعضِ الخِلافات أحيانًا ، وهذا أمرٌ طبيعيّ ، لكنّ الميثاق الّذي وقّعناه كان يحمينا ويحميهم . كان عنبرنا - وهو أحد عنابر السّجن السّتّة - يضمّ عشر شيلّات ، وعليه فإنّ عنبرنا وحده ربّما كان بقطنه ما يقرب من مئة وخمسين سجينًا ، ولم يكنْ سهلاً أنْ نعرف كلّ هؤلاء ، فضلاً عن أنْ نعرفَ بقيّة السّجناء في باقي العنابر ، ولكنّ طول الزّمن عرّفنا على آلاف السُّجناء القادمين والمقيمين والرّاحلين .

أحد الطّيور المُهاجرة الّذين أغنوا محنتنا ، وغنّوا على شجنها عبد العزيز الغرابلي الّذي جاء إلى الحياة في عام ١٩٤٧م ، سكَنَتْهُ مدينته الزّاوية ربّما أكثرَ ممّا سكنَها ؛ فهي مدينة مُناضلة بسبب وجود مدرسة الزّاوية الثّانوية الّتي لعبتْ دورًا بارزًا في تخريج الكثير من القيادات الوطنية . كانت هذه المدينة منذ الخمسينيّات من القرن الماضي معقلاً لحركة الإخوان المسلمين بقيادة أمير الجماعة الشّيخ فاتح حواص رحمه الله .

كان عبد العزيز قصير القامة ، شديد السّمرة ، ذا عينَين جاحظتَين تُشعّان ذكاءً مع اصفرار بادٍ في بياضها . يكاد يلتصق رأسُه بكتفيه .

مُحدَودب الظهر قليلاً مع بروز في عظام القفص الصدري بما يُشبه القُبَّة أو السَّنام الصَّغير . لكنَّه بَشوش في كلّ الأحوال ؛ لا تكاد البسمة السَّاحرة تُفارق مُحيّاه . وكان سريع الخطو إذا مَشى ؛ كأنّه يسعى إلى شيءٍ مُهمّ ، أو كأنَّ موعدًا سيفوته إذا لم يفعل . ولم يكنْ من شيءٍ ينتظره أو يدعوه إلى الاستعجال ، ولكنّه هكذا . كان قارئًا نَهِمًا ، يجيد فن الإصغاء ولا يكاد يقاطع مُحاوِره . جادًا كأنّ لا وقتَ عنده للهَزْل ، وهادئًا كأنّه الكون وقتَ السَّحر ، ومتَّزنًا لا يُفرِط ولا يُفرِّط . تجده دائمًا في سباق مع الزمن وكأنَّ ساعات النهار لا تكفيه ليُنجز ما يريد من عمل . كان مُتعدِّد المهارات ؛ كاتبٌ كأنَّ سِنان القلم طوْع فِكره ، ورسام تشكيلي كأنَّ الرّيشة وترٌ بين أصابع عازفٍ ماهر ، وخطّاط كأنَّ الحرف العربيَّ يكتسبُ جمالاً فوق جماله إذا رَسَمه . لا يردّ طلبًا لأحد حتى ولو كان الأمر يتعلق بكتابة العناوين الرئيسية لبعض المقالات الثقافية والمناشير السياسيّة لحزب التحرير التي كنّا نريد تعميمها وترويجها داخل البلاد رغم ما يمكن أن يسببه له ذلك من مشاكل . كتبَ كذلك كثيرًا من عناوين الصّحف الّتي أصدرها التّروتسكيّون في السّجن . هذا الإنسان الجميل في إنسانيّته ، المُدهِش في دِفءِ تعامله ، المُذهِل في نقاءِ روحه ، سكنَ المرضُ جسده سنوات ، وكانَ جَلْدًا لا يشكو ولا يتشكّى ، صبورًا على مرضه الّذي هَدّه هَدًّا ، كانَ يتقيّأ كميات مَهولة من الدم بسبب ما كان يُعانيه من تليّفٍ في الكَبِد . واجه مصيره المحتوم بكثيرٍ من الثّبات والصّبر .

عبد العزيز مُثقّف مُؤدلَج تروتسكيّ الاتّجاه ، ينتمي إلى فكر الأُمميّة الرّابعة التي كانت على خلاف حادٍّ مع ستالين انتهى باغتيال زعيمها ليون تروتسكي .

كان الرِّفاق التّروتسكيّون ينحدرون من عائلة واحدة، رغم أنّهم يُصرّون جميعًا على أنّ التّروتسكيّة لا تتمثّل إلا في رئيسهم (عبد الحميد)، ويعدّون أنفسهم يساريّين تقدّميّين فحسب، وهم - في الواقع - ينتمون إلى قبيلة ذات جذور وطنيّة ودينيّة عميقة بقيت آثارها واضحة المعالم في نفسيّة هؤلاء الشباب الذين تبنّوا في مَيْعة العَهد، وحماسة الصِّبا الفكر التُّروتسكيّ الذين لم يكنْ أصيلاً في البيئة التي عاشوا فيها.

كُنّا نختلف معهم في الأصول والفروع؛ كانوا يحلمون بدولة تقودُها الطّبقة البروليتاريّة تحت شعار: (مِن كُلٍّ حسب طاقته، ولكلٍّ حسب حاجته). كانوا يتموضعون في خانة اليسار التّقدميّ، ويعتبروننا من الناحية الفكرية من القوى الظلامية التي تنتمي إلى البورجوازية الصغيرة، وتقع ضمن مناطق تأثير المعسكر الليبرالي الرأسمالي ونفوذه، رغم أنهم من الناحية الاقتصادية كانوا أيسر منا حالاً! ومع ذلك كانوا يحترمون نضالنا ويثمّنون شدّةَ مِراسِنا في مواجهة آلة النظام الرهيبة الّتي لم تكنْ تعرف إلاّ القتل. أمّا نحنُ فكُنّا نعتبرهم خياليّين وحالمين أخذتْهم أحلامُ الصّبا إلى ما هم عليه، والواقع يقول غيرَ ما يقولون، ويتطلّبُ غيرَ ما إليه يَسعَون. كانوا يتبنون أيديولوجيةً تتناقض مع عقيدة الأمة العربيّة الإسلاميّة - ولم يكنْ أحدٌ منهم أو مِنّا خارجَها إلاّ إذا طلعَ من جلده - وتتعارض مع البيئة التي ينتمون إليها. بل كنا نُعدُّهم أتباعًا لتفكيرٍ دخيلٍ يُريدُ مَسخَ قيم هذه الأمة، وبمثابة العَجَلة الخامسة للفكر الشيوعي المُلحِد الذي لا يريد خيرًا لا بنا ولا بالمنطقة. كان نشاطهم داخل السجن يرتكز على الجوانب الثقافية، وكان اليسار في عمومه الموجود داخل السجن بمثابة خلية نحل تضم الكثير من الشعراء

وكتاب المقالة والقصة القصيرة والمسرحيّة . شغلوا بذلك أنفسهم . ووجدوا في الفنّ معادلاً موضوعيًا للحرّيّة ، ويشهد الله أنّ أقلامهم جميلة لولا ما يَشوبها من تخليطات مردّها الفكر البعيد عن هويّة الأمّة كما كنّا نرى . ولكنّنا في الفنّ كُنّا سواءً . كان الشّعر مثلاً هو الملاذ الّذي يأخذ بأيدينا ولو في الحلم خارج بوّابات السّجن ، في ليلةٍ تتزاحم فيها النّجوم لِنُصغي إلى إيقاع الكون الأخّاذ .

غير أنّنا كُنّا نؤجّل خلافاتِنا ، ونرميها وراء ظُهورنا ، ونبحثُ عن الإنسان فينا ، كُنّا نتركُ ما يعتقده كلّ طرفٍ في الآخَر حبيس الصدور ، لا تبرز تلك الخلافات إلاّ لِمامًا أثناء نقاشٍ حادٍّ وعنيف ، أو عند محاولة منّا لحماية وافدٍ جديدٍ خوفًا من أن يلجوا إليه عبر بوّابة الأدب والشعر للتأثير فيه ، أو عند حَدَثٍ مُزلزِلٍ تمرّ به المنطقة كالحرب الأفغانية أو الثورة الإيرانية أو الحرب العراقية الإيرانية ، إذ يأخذ كلّ واحدٍ يحلّل ذلك من منطلق فِكره وإيمانه ، ولكنْ - وكان فينا عُقلاء كثيرون - سرعان ما يتمّ تطويقها دون أن يحدث ذلك شرخًا في جدار العلاقة الإنسانيّة الفريدة التي كانت تجمعنا . اقتسمنا معهم كل شيء من الرغيف إلى الفَلَقة . لقد كنا على متن مركبٍ واحدٍ ، ونُجلَد بسوطٍ واحد ، ونواجه مصيرا مشتركًا .

كان التّروتسكيّون يهيمون حُبًّا بفيروز ووديع الصافي ونصري شمس الدين ومدرسة الرّحابنة ومارسيل خليفة . وكانوا يَتغنّون بشعر أمل دنقل ومظفر النواب وبدر شاكر السياب ومحمود درويش وأشعار أحمد فؤاد نجم وأغاني الشيخ إمام . وكان في الشّعر مساحةٌ جديدةٌ للالتِقاء . وكانوا يُشارِكونا حُبّ فلسطين والاحتفال السنوي بيوم الأرض .

كان عبد العزيز أنموذجا للشخصيات التي كُنّا نتمنّى أن تكونَ إلى جانبنا . شأنه في ذلك شأن علي بوزقيّة وعلي اللافي من التيار الماركسي ، وعامر الدغيس ومحمد حمي من البعثيين ، ومنصور الكيخيا القريب منهم والذي تطوع للدفاع عني مجانًا قبل أنْ تلحقه المحنة ، وكان وجهها غريبًا ؛ إذْ إنّه اختُطِف في عام ١٩٩٣م ، واختفَى دون أنْ يكون له أثر .

إنّ هذه المجموعة من التروتسكيين الذين تعايشنا معهم لمدة عَقْد ونصف كانوا يتمتّعون بكثير من الخِصال الرّائعة التي يفتقدها الكثير من الإسلاميّين الذي يتصدّرون المشهد اليوم .

كانتْ (الأريا) فرصةً للالتقاء بالآخرين ، وخاصّة في عَقْد السبيعينيّات . الزّنازين كلّها في وقت التّشميس تقذف بساكنيها إلى الخارج ، وكالنّمل يبدأ الخارجون بالتّحرّك في كلّ اتّجاه ، تلتقي الوجوه ، تبتسم ، تُسرع في خُطاها إلى المجهول ، وتلتقي وجوهًا جديدةً وهكذا .

في العنبر نفسه ، لكنْ في زنزانةٍ أخرى ، جمَعنا القدر الجميل مع الشّاعر عبد العاطي خنفر ابن مدينة (البيضاء) ، الشّاعر الصّعلوك كان أشهرَ (يساريّي الجبل الأخضر) وأبرزهم حضورًا ، وإنْ لم يكنْ زعيمَهم ، كان الدّكتور المفتي والمبروك الزّول هما اللذان يتولّيان قيادة هؤلاء اليساريّين يومئذٍ ، بل إنّ القضيّة الّتي يُحاكَمون عليها سُمّيتْ باسم الأوّل منهما .

حكم على اثنين من هذه الجماعة بالإعدام وهما المبروك الزول وعبد الغني خنفر شقيق الشّاعر ، وأجّلهما الموتُ إلى حين ، وعُزِلا في (المَحقرة) مثل كلّ المحكومين بالإعدام في السّجن . أمّا بقيّة أفراد

القضيّة فقد حكم عليهم بالسجن المؤبد ، وسيمضون معنا خمسة عشر عامًا قبل أنْ يُفرَج عنهم في (أصبح الصّبح) في عام ١٩٨٨م باستثناء الدّكتور المفتي الذي أُفرج عنه سنة ١٩٨٤م .

كانت (المحقرة) تضمّ عددًا من الشّخصيّات يطول الحديث عنها ، وتحتاج كلّ واحدةٍ منها إلى روايةٍ خاصّةٍ بها ، والماء إذا طغى أغرق . والكلام كثير ، والوجع أكثر ، ولكنّني سأرمّز كلّ هذا الوجع فيما بعد في شخصيّتين ، هما : الزّبير ، والحاسي .

كان الشّعر في السّجن للشّاعر ولنا طوقَ نجاة ، طريقةً في التّحليق بعيدًا فوق جدران السّجن العالية ، وسيلةً للحلم الّذي كان عزيزَ المنال . بالشّعر كُنّا نُبعِدُ قبضة السّجّان عن أعناقنا فنتنفس قليلاً . بالشّعر كُنّا نرفع جدار السّجن الجاثي فوق صدورنا فنغنّي قليلاً . بالشّعر كُنّا ننسى ، والنّسيان في السّجن يأتي في مقدّمة النِّعم الّتي يُمكن أنْ يحظى بها السّجين ، لولا أنّنا كُنّا ننسى ، أو نتناسَى ، لانكسرنا أمام أبسط الأشياء ، ولانهزمْنا أمام أقلّ التّحدّيات . لكنّه الشّعر ، الحرف الّذي يبرعمُ الأمل ، ويُؤجّل الأسى ، ويُشعل الحنين ، ويُحيي الذّكريات ، ويزيد من قدرتنا على الاحتمال .

كان عبد العاطي خنفر النّاي الشجيّ الّذي تصدح به حنجرة سجننا ؛ كان نحيلَ البنية حتى كأنك لا تراه ، كأنّما صدق فيه قول المتنبّي :

كفى بجسمي نحولاً أنّني رجلٌ
لولا مُخاطبتي إيّاكَ لم ترَني

إذا خلع ثيابه الّتي تُغطّي نصفه العلويّ صار (غاندي) ، وصار بإمكانك أنْ تعدّ أضلاعه البارزة من تحتِ جِلده ضِلعًا ضِلعًا!! وكان مع

رقّة عُودِهِ ثورةٌ لا تهدأ ، حتى لا تكاد تخلو منه زاوية أو حجرة أو ساحةٌ أو زنزانة . له مع كل أحدٍ في العنبر حكاية ، بسمته لم تكن لِتفارقه ، تكشف عن صفٌ أصفر من الأسنان ، تساقطَ بعضُها مع الزّمن ، ودلّتْ على عمرٍ يُنهَبُ مُضاعَفًا هنا في هذه القبور الكثيرة المُتناثرة . كانَ ودودًا جدًا ، لا يُمكن أنْ يُغضِبَ أحدًا ، وإذا ما حصل احتِدامٌ من نوع ما ، فإنّه يُسارع إلى نَزع فتيله ، كُنّا نتكئ على حِكمته وهُدوئِه ، وصبرهُ في حلّ كثيرٍ من مشاكلنا ، وكان مِعطاءً يُؤثِرُ على نفسه ولو كان بهِ خَصاصة .

كثيرون لازموه ليأخذوا عنه العربيّةَ السّاحرة ، فقد كان ضليعًا في علومها ، جمعَ بين الشعر العموديّ المُقفّى والشّعر الحديث والشّعر الشّعبيّ ، وأبدع فيها كلّها . كان يأسرنا حين يبدأ النّشيد ، نشيد الشّنفرى ، لأنّه ما من شكٍّ أنّه كان حفيدًا حقيقيًا له ، كان بدويًا في لهجته ومظهره وجلسته ، كان في منزلة بين الرّاعي الّذي لا يخاف على شيء وبين الوليّ الصّالح الذي زَهِدَ بكلّ شيء .

وكان إلى ولعه بالشّعر الجاهليّ ، يُقدّم المتنبّي ، وكثيرًا ما عقد - إذا ما سمحت الظّروف - دروسًا في شرح المتنبّي ، ولو كانت الأوراق والأقلام لدينا يومئذ ، وكتبْنا خلفه ، لَكُنّا خرجنا بشرح جديدٍ للمتنبّي يُضاف إلى الشّروح الشّهيرة كشرح العُكبَريّ والبرقوقيّ والمعرّي وابن جنّي .

وتعلّمنا على يديه الصّرفَ والنّحو ، ولعلّ الصّرف كان يستهويه أكثر من النّحو ، لدقّة البناء فيه ، وكثرةِ التّباديل في معانيه إذا تغيّرت أبنيته ، وكان جريئًا في التّفسير ، لكنّه مع ذلك كان مُؤدّبًا فلا يتجاوز ما لم يعلم ، ويُرجع الفضل إلى أهله ؛ وكُنّا إذا ما قرأنا له آيةً من كتاب

الله وطلبنا منه شرحها أو إعرابها اعتذر وأحالنا إلى الأستاذ (محمد الزهوني) المتخصص في اللغة العربية ، فإذا ذهبتَ تسأله عن سبب ذلك ، قال : قد أغفر لنفسي خطئي في شرح بيت للمتنبي أو الجواهري أو إعرابه ، ولكنّني لن أغفر لها خطئي في تفسير آية من القرآن أو إعرابها .

كُنّا نخرج للسّاحة أوقات التّشميس ، وأخوه (عبد الغنيّ) في (المحقرة) على بُعد أمتار من السّاحة لا يُسمَح له أنْ يخرج ولا أنْ يرى الشّمس ، كُنتُ أعرفُ من مسحة الحُزن الّتي تُغطّي وجهه أنّه لا يستمتع مثلما نستمتع بهذا النّور الّذي كُنّا ننتظره بكثيرٍ من التّوق ، ذلك أنّ أخاه كان محرومًا منه . أخوه هذا ظلّ في (المحقرة) عشرة أعوام لم يخرجْ ليرى النّور ولو مرّةً واحدة ، ولم يرَ أخاه الشّاعر ولم يسمع صوتَه طيلة هذه الأعوام الطّويلة ، ذلك أنّ المحقرة كانت مقبرةَ الأحياء ، كلّ ما فيها كان ميّتًا ولكنّه يمشي أو يتنفّس .

كان عبد العاطي يحبّ لعب الشّطرنج ، وكُنّا نصنع رقعتها وبيادقها بطرقٍ مُبتكرة سأحدّثكم عنها لاحقًا . لم يكنْ مصطلح الاستسلام في قاموسه ، ناضلَ حتّى شاب ، وقاومَ حتّى وهن منه العَظْم .

ماتتْ زوجته وهو في السّجن ، فحُرِمَ من أنْ يُلقي عليها نظرة الوداع ، في اليوم الّذي وصل إليه الخبر كان يبدو شبحًا ، انكفأ على نفسه في زاوية الزّنزانة ، وغطّى وجهه بيديه ، وراح ينحب بصمت .

كتبَ لها يومَ أنْ ماتت : «لم أكنْ أدركُ أنّ هناك ما هو أقسى من السّجن حتّى فقدتُكِ ، حينَ كُنّا معًا كُنتِ لي كلّ شيء ، ويوم رحلتِ لم يبقَ لي منّي شيء . أنا هنا أحلامٌ مُبعثَرة ، ذكريات مذبوحة ، وحياة لا معنى بها ، لم يكنْ أحدٌ يدري أنّني صمدتُ بك ، أنّني بقيتُ حيًا

إلى اليوم لأنْ روحك كانت تدثّرني ، لأنّ صوتكِ كان دفئني في الصّقيع ، اليوم كيفَ لي أنْ أعيش ، كيفَ لي أنْ أبدو حيّاً ، وأنا فقدتُ بفقدك أهمّ مقوّمات صمودي ؛ الإيمان . إذا كانتْ هناك عدالةٌ حقيقيّةٌ في السّماء ، فإنّني واثقٌ أنّ الله سيُبطئ رحيلك السّريع إليه حتّى ألحقَ بك» .

(١٧)
العَقيد

«أحضِر لي الكتاب الأخضر يا منصور» ، يفزّ منصور ، يأتيه بنسخة منه ، يمدّه له من فوق كتفَيه ، يتناوله دون أنْ يُدير له صفحة عنقه ، بدا في تلك العنق خَطٌّ مثلَ جُرح قديم كان قد كُوِيَ بالنّار ، وظلّتْ آثاره واضحة ، وقد تجعّد الجلد واحْمرّ وخالفَ لونُه سائرَ لون العنق . كان العقِيد يبدو غاضِبًا ، دلّ على ذلك احمرار ذلك الجرح ، وانتفاخ أوداجه ، وارتجافة يده وهو يتناول الكتاب من منصور ، فتح العقيد صفحةً من الكتاب وقرأ : «البقرة تلد ، والدّينار لا يبيض» . قال وهو يلوّح به أمام المرآة : «ألمْ أضعْ لكم في هذا الكتاب المنهاجَ الّذي لو اتّبعتموه لاهتديتم؟! فلماذا تنكّبتم الدّرب ، أيّها اللّيبيّون الّذين لا يعرفون ما يريدون : ماذا أصابكم؟! هل كان لينين أعظمَ منّي؟ كلاّ ، أنا أقولُ لكم كَلاّ . أنا أعظم من ألفِ واحدٍ مثل لينين ، ولينين هذا القزم ما زال إلى اليوم يُعبَد ، وأنا؟ ماذا فعلوا من أجلي؟ يخرجون ضدّي!! أنا لا يُمكن أنْ أصدّق ذلك ، لا بُدّ أنّ في الأمر خُدعةً من نوع ما ، هل فعلها المقريف؟ هل أخرج كلّ هؤلاء ودفعَ لهم ، هذا الرّجل بيني وبينه الرّصاص ، الحاقد حاول أنْ يقتلني أكثر من مرّة ، ورجالي أيّها الضّراط منصور؟ تعالَ إلى هنا ، قلتَ لي كم محاولة بعثتَ أنتَ والسّنوسيّ من أجل أنْ يغتالوه؟ عشر محاولات؟ عشرُ محاولات أيّها البائسون ولم تنجح واحدة؟ لماذا؟ هل هو جِنّي؟ هل هو شبح؟ تُطلِقون عليه

الرّصاص ولا يموت؟ لماذا؟ هل تحميه الملائكة مثلاً؟ أم أنّه يتعامل مع الشّياطين؟ هل هو ساحرٌ حتّى لا تُصيبه الرّصاصة بشيءٍ سوى بخدوشٍ قليلة؟!

لو قتلتموه لأضفتُه إلى الجثث الّتي أحتفظ بها في الثّلاّجات . آه نسيت . تريد منّي يا منصور أنْ أغادر طرابلس ، أنْ أغادر باب العزيزيّة ، حسنًا فليكنْ ، ولكنّني لن أخرج من هنا قبلَ أنْ أرى أصحابي؟ لقد اشتقتُ إليهم؟ اشتقتُ إلى عمرو النّامي ومنصور الكيخيا ومحمّد الشّيباني ، وخليفة الحمّاصي . . . والآخرين . . . على الأقلّ أريدُ أنْ ألقي نظرة وداع على وجوههم قبل أنْ أخرج من هنا . إنّك لا تُدرك يا منصور لأنّك غِرّ وجاهل معنى الشّوق إلى الأصدقاء القُدامى ، ربّما لأنّك لأنّك مقطوعٌ من شجرة ، أمّا أنا فالشّعب اللّيبي كلّ عائلتي ، كلّ فردٍ من أفراده هو عندي أغلى من ابني . . . الجثث يا منصور ، الجثث ، ائتني بها» . يقترب منه منصور ورجلاه لا تكادان تحملانه : «ولكنْ يا سيّدي . . .» . «ماذا هناك أيّها الضّرّاط؟» . «الجثث ليستْ في مكانٍ واحدٍ ، ولا مُستشفى واحد» . «أعرف هذا أيّتها السّحليّة ، ماذا تريدُ أنْ تقول؟» . «من أيّ المواقع تريدُ أنْ ترى الجُثث؟» . «ألم تسمع الأسماء الّتي قُلتُها لك؟» . «بلى» . «فأين تظنّ أنّها موجودة أيّها الغبيّ؟» . «في مستشفى طرابلس المركزيّ مولاي» . «إذًا أسرع إلى جلبِها هنا ، أنا لا أطيقُ صبرًا على رُؤيتهم» . «ولكنّ ذلك يستدعي أمورًا لوجيستيّة صعبة يا سيّدي» . «الأمر لا يستدعي أكثر من سيّارة إسعاف أيّها الضّرّاط ، وسيّارات الإسعاف كثيرةٌ في باب العزيزيّة» . «أعرف يا سيّدي ، ولكنّها قد تُقصف في الطّريق» . «تُقصف؟!» . وندّتْ ضحكةٌ عاليةٌ من السّيّد الأبديّ : «تُقصف؟ لماذا يقصفون سيّارة

موتى يا منصور؟ سيّارة الإسعاف لا تُقصَف، وعلى أيّة حال اطمئنّ حتى لو قُصِفوا لن يُصيبهم شيءٌ؛ الموتى لا يموتون . . . والآن أسْرِعْ إليَّ بهم» .

كان صوتُ بوقِ سيّارة الإسعاف يختلطُ مع صوتِ المتظاهرين . في مكان ما ظلّ سِرًا طَوال عقود كـانتْ هناك في مستشفى طرابلس مشرحةٌ لم تطأها قدما بشريّ إلاّ إذا كانتا قدمَي السيّد الأبديّ ، كأنّ هذا الجزء المبنيّ من المستشفى ليس جزءاً منه ؛ لا يصل إليه أحد ، الطّريق إليه مقطوعة ، والنّزول في درجاته الغامضة إليه لم يكنْ مُتاحًا لأيّ أحد .

عتمت الغرفة ، كلّ الغرفة ، باستثناء الجزء الجنوبيّ منها ، سطع ضوءٌ خافتٌ ليُلقِي بأشعّته فيبدو شريطًا من الضّوء ينتشر على مسافة عشرين مِترًا ، وعرضه متران . سُمِعت أصواتُ جَلَبة ، وقرقعة نقّالات تتحرّكُ عجلاتُها على البلاط الرّخاميّ ، اقتربَ يونس من العقيد ، قال له : «لقد جاؤوا بعشرين جُثّة» . قال له العقيد : «هل هذه كلّ الجثث؟» . «لا ، ولكنّني أظنّ بأنّها هي ما ترغب في أنْ تراه» . «حسنًا أريدُ أنْ أراها» .

دُفِعتْ الجثث من قبل عددٍ من الأطبّاء والممرّضين الّذين سيرافقون العقيد بعدَ ليلة أو ليلتَين ، ووُضِعتْ تحت شريط الضّوء ، ثُمّ أمر العقيد بأنْ تُفتَح سَحّابات الأكياس البلاستيكيّة عليها ، ابتداءً من الرّأس ، إلى منتصف الصّدر ، قال لهم وهو ما زال أمام المرآة : «يكفي أنْ تكشفوا لي وجه الجُثّة وشيئًا من عنقها» . سألهم : «هل أتممتم عملكم؟» . أجابه منصور : «نعم يا سيّدي» . في تلك اللّحظة ولأوّل مرّة يلفّ العقيد جسده متحوّلاً عن المرآة ويُعطيهم وجهه ، بدا لهم أنّ

العقيد ما زال يحتفظ بكبريائه وجبروته وعَظَمته ، سارَ ببدلته العسكريّة بخطواتٍ واثقة . شعره المنكوش يتكوّم في قُبب تحت طاقيّته العسكريّة . اقترب من النّقالة الّتي تحمل الجُثّة الأولى . حدّق النّظر ، بدا على وجهه الاهتمام . يونس ومنصور لم يعرفا لمن تعود ، العقيد يعرفُ كلّ شيء ، بسطَ يدَها ومسح على جبهة الجُثّة ، ثُمّ اقتربَ من أذنها ، وهمس : «لو اتبعتَني لرأيتَ الجنّة ، كيفَ اخترت الظّلام على النّور الّذي جاء بي؟!» . يعتدل . يُشير إليهم أنْ يسحبوها بعيدًا . يخطو الخُطوة الفاصلة بينه وبين الجُثّة الثّانية ، ينظر إليها من علٍ ، يُميل رأسه محاولاً أنْ يتذكّر ، تُشرقُ ابتاسمةٌ على شفتَيه ، ينحني . يَطبع قُبلةً عميقةً على جبين الجُثّة ، يرفع رأسه قليلاً وشفتاه ما زالتا قريبتَين من ذلك الجبين . ينظر في الفراغ : «أشهدُ الله أنّني كُنتُ أحبّك ، غير أنّك خُنتَ هذا الحُبَّ ، ولا أدري لماذا؟ إلى اليــــوم لم أدرِ لِمَ خُنتَني يا عزيزي!!» . ينتقل إلى الجُثّة الثّالثة ، بدت اللّحية السّوداء ما زالتْ تُحافِظُ على سَوادِها الكثيف بالرّغم من أنّ بعضَ ذلك الشّعر قد تساقط . بدا على وجه السّيّد الأبديّ الحُزن العميق ، حَكّ الشّعرات النّابِزات من تحت ذقنه ، قال بصوتٍ أقربُ إلى العُواء : «أعرفُ أنّكَ كنتَ تعرفُ أنّكَ الوحيد الّذي كان يُصيبني الخوف منه ، كلّ الّذين أشهروا السّلاح في وجهي لم أكنْ أعتبرهم أكثر من قطاطيس ، ووحدكَ كنتَ الأسد ، ولكنْ ماذا أفعل لك إذا اخترتَ طريقًا غير طريقي؟!» . ينتقل إلى الجُثّة الرّابعة ، يكفهرّ وجهه ، وتزداد شفتاه انقباضًا ، يُمسك بيده عنق الجُثّة كأنّه يريدُ أنْ يخنقها ؛ إنّها مُتيبّسة ، يرفع يده ، يصفعها . وينتقل مُسرِعًا كأنّما يهرب إلى الجُثّة الخامسة . يهزّ رأسه أسفًا . يُسقِط الذّكريات الّتي عاوَتْه للتّوّ . يبتسم رُبع ابتسامة .

ويمضي. أمام الجثة السادسة، يضحك، يعلو صوته بالضحك يرجع ظهره إلى الوراء وهو مستمرٌ في قهقهته، يهتف: «لقد كان شاعرًا مضحكًا». أمام الجثة السابعة انقطعتْ ضحكتُه فجأة، يتناول مسدسه الذهبي، يضعه في أذن الجثة، بدت الجثة تتحدّاه من جديد، همّ بأنْ يُطلق الرصاصة، كان الفوهة الذهبيّة تلمع على ضوؤ السقف، فيما بدا جلدُ الجثة متقبّضًا، وقد اهترأ الخدّان فبانتْ عظامهما، وتشققت الشفتان فظهرت الأسنان من تحتهما كأنما تضحك ساخرةً دون أنْ تفتحَ فمَها. تراجعَ في اللحظة الأخيرة، تذكّر أنّ عليه أنْ يحتفظ بها، وبالبقيّة، لأنّ عليه أنْ يراها من جديد في قادم الأيّام. عَبَر الجثث المتبقيّة عبورًا، بدا أنّه مُستعجلٌ، توقّف عند الجثة التاسعة عشرة، قبل الأخيرة، كانتْ لطفل لم يتجاوز العام. انفجر بالبُكاء أمامها، حملَها من غطائها البلاستيكيّ، احتضنَها، قبّل الطّفل في جبهته، وهمس: «سامحْني، لم أكنْ أقصدُ أنْ أقتلك، كنتُ أريدُ أنْ أقتلَ أباك، ولكنّه فرّ كالجبان، لو كنتَ مكاني لفعلتَ ما فعلتُ، ولو قُدّر لكَ أنْ تعيشَ، لعشتَ في كنفي كواحدٍ من أبنائي، ولكنّك لم تفعل، وأبوكَ لم يعدْ. حتّى بعد سنوات طويلة، رجتْه أجهزةُ أمني أنْ يعودَ ويستلم جُثتَك لكنّه أبى، أنا أعرفُ لو قُدّر لك أنْ تكبر فلن تكونَ فخورًا بأبيك؛ لأنّه جَبان. كان يُمكن لكلّ هذا ألاّ يحدث، لكنّه حدث. واليوم ستظلّ معنا. سأظلّ أزورك كلّما سنحتْ لي الفرصة». يتراجع خُطوتَين إلى الوراء، يُصبح خارجَ دائرة الضّوء، يبدو شبحًا. صوتُه وحده الّذي يكشفُ وجودَه، وجّه حديثه إلى الجُثث: «لماذا ذهبْتُم وتركتموني وحيدًا؟! لماذا تخلّيتُم عنّي وجعلتموني أتحمّل أعباء الثّورة وحدي؟! أما كان يُمكن أنْ نتقاسَم العِبءَ، ونصنع المَجد والأسطورة معًا، سلامًا

على أرواحكم الخالدة ، سلامًا على قلوبكم النَقيّة ، سلامًا عليكم في الخالدين ، والموعدُ الحوض» . يصمت قليلاً ، ثمّ يشير إلى منصور : «اعد هؤلاء الأحباب إلى ثلاّجاتهم ، لكنْ ارفقْ بهم وارفقْ بي ، كُنْ حذرًا من أنْ يمسّهم سوء ، أريدكم أنْ تعتنوا بهم جيّدًا ، إنّهم التّاريخ الّذي لا يموت ، سأعود إليهم بين فترة وأخرى لكي أستشيرهم في القضايا المصيريّة ، كانوا أصدقَ من الوعد النّازل من السّماء ، ولكنّ الحَظّ عثر بهم» . ينقطع الصّوت فجأةً . يسود صمتٌ مُطبق . لا أثر لحيّ في الغرفة الصّامتة . كانتْ غرفةً تتنفّس برائحة الموت المُعتّق . وحدها الجُثث تبدو مثل نهرٍ من الموتى ، أو برزخ بين حياتَين ، وبينَ عالَمين . صوتُ أنفاس السّيّد الأبديّ سُمعت من بُعدُ . تحرّكَ ذيلان من العتمة البعيدة . صرخَ السّيّد : «ألم أقلْ لك يا منصور أنْ تُعيدها إلى مكانها ، هيّا ماذا تنتظر أيّها الـ . . .؟!» .

ركض منصور . استدعي الممرّضين والمُساعدين . تدفّق عشرةٌ منهم . صرخَ السّيّد الأبديّ كمن تذكّر شيئًا عزيزًا : «توقّفوا . . توقّفوا . . .» . جمد الجميع في أماكنهم ، كأنّهم بشرٌ مُسخوا حجارة ، سأل السّيّد الأبدي مُستدرِكًا : «ولكنْ أينَ جُثّة منصور الكيخيا؟» . تبرّع يونس بالإجابة هذه المرّة : «إنّه من بين هؤلاء يا سيّدي» . ردّ عليه كأنّما يريد أنْ يعضّه في فمه : «تكذب يا يونس ، أنا أكثرُ واحد في الكون يعرفه ، لم يكنْ بينهم» . هرّ يونس كما لو كان قطًّا أليفًا داسته قدمٌ ثقيلةٌ ، وتراجع ليجلس . تقدّم منصور من سيّده ، قال كأنّما يعتذر : «أنتَ تعرف يا سيّدي أنّه في تلك المزرعة المجهولة الّتي يُشرف عليها . . .» . يقاطعه السّيّد : «أعرفُ مَنْ يشرف عليها ، أنا أسألك لماذا لم تُحضِروه من مستشفى طرابلس؟» . «لأنّه لم يكنْ هناك يا سيّدي» .

«لم يكنْ هناك؟» . «أقصد ، ربّما كان هناك فترةً من الفترات ثُمّ نقلوه إلى المزرعة ، ثمّ نقلوه من هناك إلى مقبرة؟ لا أدري على وجه الدقّة أيّة مقبرة» . غضب : «لم يقلْ لي ذلك من قبل أحد» . كان منصور يريد أنْ يقول : «إنّنا قلنا لك ذلك يا سيّدي ، أنتَ لا يغيبُ عنكَ شيءٌ ، وخاصّة في أمر الجثث ، ليس لأحدٍ قرارٌ عليها إلاّ لك» . لكنّه خاف من العواقب ، فعدلَ إلى أنْ يقول : «لقد رحل يا مولاي؟ وارتحت منه ألا يكفي هذا؟» . «ومَنْ قال لك إنّني ارتحتُ منه ، لقد كان أقرب النّاس إلى قلبي ، وأنا أريدُ أن أراه الآن» . «يا سيّدي هذا غيرُ ممكن ، وخاصّة في هذا الظّرف» . نظر السّيّد بغضب إلى يونس وكأنّه يسأل : «هل حقًا الأمر صعب؟» . هزّ يونس رأسه كأنّه يقول : «نعم» . صرخ السّيّد الأبديّ : «تكذبون ، حتّى لو كانت جثّته في السّماء فعليكم أنْ تُحضِروها لي ، حتّى ولو تناهَشَتْها السّباع أو الطّيور الجارحة ، فعليكمْ أنْ تلمّوا أشلاءه من بطون السّباع ومن أفواه الطّيور ، وتجمعوها وتأتوني بها . هل فهمتم؟ يا يونس أنا أوجّه كلامي لك ، أنتَ أكثر مَنْ يفهمني؟ ائتني بجثّة منصور الكيخيا على الفور ، كم أنا مشتاقٌ إلى حبيبي!!» . كان السّيّد الأبدي يرتجف ، جسده كلّه كان يرتعش كجناح ذُبابة ، رِجلاه بدتا نحيلتَين كرجلَي مالك الحزين ، لا تكادان تحملانه ، تقدّم منه يونس أخذ بيده كما لو كان طِفلاً . قاده إلى أقرب أريكة لينهار السّيّد بكامل جسده عليها ، نظر في وجه يونس الّذي ما زال قريبًا من وجهه ، وقال بصوتٍ أقرب إلى النّواح : «أنا جائع» . «سآتيك بكلّ ما تشتهي يا سيّدي» . حدّقَ السّيّد في وجه يونس ، كأنّما عاد إليه رُشده ، وهتف بإصرار : «لن أخرج من هنا قبل أنْ أرى منصور الكيخيا ، هل تفهم؟!» .

(١٨)
إنّا سلكنا طريقًا قد خبرناه

كيفَ يُمكن أنْ تصفَ رجلاً مخلوقًا من نور ، رجلاً كلّ ما فيه يجعلك تثق بالفرج ، تعقدُ راية الأمل ، وتبتسم في وجه المحَن الكالحة . لم يكنْ يعيشُ لنفسه ، كان يعيشُ لفكرةٍ ربّما ملأتْ عليه كيانه فصار كلّ ما يفعلُه ، يفعله في سبيلها . ولد عام ١٩٣٩م في (نالوت) في أقصى الجبل الغربيّ ، جبل نَفوسة ، الجبل الّذي أطلعَ الأبطال ، وعلّم النّاس الكرامة . فارع الطّول ، دائم البسمة ، إذا ضحك بانَ صَفّا أسنانه عقدَين من لؤلؤ ، خدّاه ناضِران مَشوبان بالحُمرة ، ووجهه دائم الإشراق ، وعيناه السّوداوان تزيدان هذا البَياض لقمانه جَمالاً ، حاجباه منبسطان كانبساط تعامله الدّافئ ، لكنّه إذا حدّق ارتفع حاجب عينه اليُمنى وتقوّس كأنّه جناح طائرٍ مُسافر . شعر رأسه كثّ ، وناعمٌ ، وطويلٌ ، ومُرجّلٌ كهضبةٍ خفيفة باتّجاه كتفه اليُمنى . في السّجن كان يلبس طاقيّة بيضاء من تلك الّتي يلبسها الحُجّاج ، على ثوبٍ عربيّ أبيضَ كذلك . تخرّج في البكالوريوس في الجامعة اللّيبيّة في بنغازي ، وسافر إلى مصر عام ١٩٦٢م لكي يُتمّ دراساته العُليا ، كان على صِلةٍ وثيقةٍ بالشّهيد سيّد قُطب ، وحينَ كان سيّد وأصحابه يُحاكمون ، ويقعون في قبضة الظّلم ، أفلتَ هو من تلك القبضة ، وعاد إلى ليبيا عام ١٩٦٥م ، وكان قد حُكِمَ غيابيًا في قضيّة سيّد قطب بـ (١٥) عامًا .

التقيناه هنا ، مع الحملة الّتي قادها القذّافي على المثقفين المرضى كما كان يحبّ أنْ يُسمّينا ، بعد عام ١٩٧٣م ، العام الّذي لم يبقَ فيه صاحب فكرٍ وعِلم لا يسير في رَكبِ القذّافي إلاّ وزُجّ به معنا هنا في الحصان الأسوَد . وكان من قبلُ قد أنهى دراسته وحصل على الدّكتوراة من جامعة كامبردج عام ١٩٧١م .

كانت السّجون تتناهَبه ، كأنّ كلّ سجنٍ كان يريد أنْ يحظى بحصّته منه ، وكان الضبّاط والمُحقّقون يرجون لقاءه ، ليروا كيفَ لشابٍّ مثله أنْ يكون له كلّ هذا التّأثير ، حتى عُدّ من أعلام ليبيا . خمسة سجون فتحتْ له ذراعَيها ، قبل أنْ تأخذه الدّروب المُتشعّبة فيعتلي صهوة (الحصان الأسود) . ذلكم هو الدّكتور (عمرو النّامي) .

كان شُجاعًا ، عاشقًا للحرّيّة ، يريدُها لوطنه كما يريده لأمّته ولنفسه ، حينَ كُنتُ أجلسُ معه في اللّيالي أُحادثه كُنتُ أجد نفسي أمام رجلٍ فِكرٍ وثقافة ، واسع الاطّلاع ، لبق الحديث ، دافئ العبارة . وكان في السّجن يتمتّع باحترام الأطياف كافّة ، وكان كثيرًا ما يُجادل البعثيّين والقوميّين ، ولكنّه يعانقهم في آخر حواراته معهم ، ليرسم في قلوبهم سؤالاً عن قَبوله بالآخَر ، والبحثِ عن المُشتركات الّتي تجمع ولا تُفرّق . وكان إلى ذلك عنيدًا في مواقفه مع النّظام ، شديد الوضوح فيما يُريد ويقبل . صلبًا على استعدادٍ لتقبّل كلّ المخاطر والمشاقّ . وشاعرًا مُجيدًا ، موسيقاه صادحة ، وعبارته رصينة . وكُنّا في السّجن نحفظ عن ظهر قلب قصيدته الّتي يقول في مطلعها :

أمّاهُ لا تَجزَعي فَالحافظُ اللهُ
إنّا سَلَكْنا طَريقًا قَدْ خَبِرْناهُ

كان دائم الحركة ، لم يقلْ كلمةً واحدةً طوال مكوثه معنا تدلّ

على يأسٍ أو قنوط ، أو حتى تحمل تأففًا أو عبوسًا ، كان دائم الرّضى ، واستطاع هو والحاجّ صالح أنْ يكونا جدارًا لكثيرٍ من السُّجناء وقاهم من السّقوط ، ولم يكنْ أكبرنا سِنًا ، لكنّنا كُنّا نرى فيه هيبةَ العالِم والمُفكّر .

أكلتْ من جسده السّياط في السّجون كلّها ، فما حدّثني مرّةً عن عذاباته إلاّ إذا أرادَ أنْ يُصبّرنا ، يقول : «انظر إليّ ، وضعوا أسلاك الكهرباء في كلّ بوصةٍ من جسدي ، وها أنا أمامك أحيا بألف نعمة» ، ثمّ يردف : «لم ندخل السّجن باختيارنا ، لقد اختاره الله لنا ، ومن الأدب مع الله أنْ نراها نعمة ، فالله لا يختار لنا إلاّ الخير» . ثُمّ يبتسم فيظهر صَفًا أسنانه اللّؤلؤيّة وينتفخ خدّاه المُورّدان ، فيزيل من قلبِ مُحدّثه كلّ ضيقٍ أو ألم ، ويمحو كلّ يأسٍ أو أسى .

كُنّا قد بدأنا نتقابل في السّجن ولو كان ذلك على فتراتٍ وبما تسمح فيه أوقات التّشميس في الأريا ، أنا وهو والحجّ صالح ، وعبد الله المسلاتي ، والكاجيجي ، وحسن الكردي ، ومُهذّب احفاف ، وعبد الله النّوال ، والمفتي ، وعبد العزيز الغرابلي ، وصالح وآخرون . . .

أمّا (حسن) ، فكان نحيلَ الجسد نحولاً بيّنًا ، خفيضَ الصّوت ، عيناه غائرتان قليلاً في وجهه لكنّهما واسعتان وغائرتان في محجرَين عميقَين ، فيهما ذكاء وفِطنة ، وتحدٍّ وإصرار . قمحي البشرة ، عريض الجبهة ، كثيف شعر الرأس ، يميل إلى الطول ، ترتسم على ثَغرِه ابتسامة عريضة لا تكادُ تُفارِقُ مُحيّاه . هادىء الطباع كأنّه البحر إذا كان رَهوًا . قليل الغضب ، حلو المعشر ، ليّن العريكة ، ما دُعِي إلا أجاب ، وما طُلِبَ منه إلا استجاب . هو باختصار من الذين يألفون ويُؤلَفون . وإذا غابوا يُفتَقدون . وُلِدَ عام ١٩٤٢ ذات العام الّذي وُلِدَ فيه الحاجّ صالح ، وينتميان إلى قرية تمزة القرية المناضلة التي قدمت الكثير من الشهداء

والعديد من السجناء الّذين أكل السّجن زهرة شبابهم ، وأورثهم الآما
لا تنتهي . تخرّج في كلية الآداب في جامعة بنغازي ، وأنهى من قبلُ
المرحلة الثانوية في مدرسة غريان الثانوية التي كانت هي ومدرسة
الزاوية الثانوية من أهمّ المعاقل التي خرجت الكثير من الذين قادوا
نشاط الحركة الوطنية المعارضة للنّظام .

خضع في بداية السّتينيّات لعملية جراحيّة كلّفتْه استئصال نصف معدته ، أثّر ذلك على صحّته كثيرًا ، وزاده السّجنُ مرضًا إلى مرضه ، ومع ذلك كان شعلةً مُتّقدةً من النشاط ، دائم التّنقّل يجوب مدينة طرابلس على رِجليه من زاوية إلى أخرى . تراه إمّا مُلقيًا لمحاضرة ، أو مُشرفًا على حلقة حزبية ، أو زائرًا لمكتبة يبحث عن آخر ما قذفتْه دور النشر من كتب ، أو مُرتادًا لأحد الأندية الثّقافيّة يحضرُ محاضرةً للشّيخ الشّرباصيّ ، أو للأستاذ مالك بن نبيّ ، أو لمختلف الشّخصيّات الّتي كانت تتردّدُ على ليبيا آنذاك .

في أواخر عام ١٩٧٣م ، كُنا نجلسُ أنا وعمرو في الآريا ، كانت الشّمس ما زالتْ لم تشتدّ حرارتُها ، وكان حسن الكردي يمشي بخطوات سريعة ، ورأيتُه يركضُ في بعضها ، كأنّه يحاول اللّحاقَ بشيء ، نظرتُ إلى عمرو ، وابتسمتُ ، قلتُ : «يبدو أنّه يبحثُ عن شيء ما» . ردّ عليّ عمرو : «لعلّه يبحثُ عن الشّهادة ، إن كان يراها فسيصل إليها . يبدو أنّ ما يراه لا نراه نحن ، ولذلك يغذّ إليه الخُطا» . لم أقلْ كلمة . كانا يعرفان أكثر ممّا نعرف . ناديتُه : «حسن... حسن ، تعال اجلسْ إلينا ، لن تطول مثل هذه الرّفقة ، غدًا يُفرجون عنك وتتركنا وحدنا» . ضَحِكَ عمرو : «تعال اجلسْ . لم يعدْ هناك محاضرات لكي تحضرها في الخارج ، القذّافي طرد كلّ العلماء الّذين لا

يثق بهم . إنْ كنت خرجتَ فوجدتَ نفسكَ وحيدًا ولن تستطيع أنْ تقول كلمةً واحدةً حتّى لنفسك ، إنْ كنتَ تريدُ جمهورًا فلن تجدَ أفضل منّا ، تعال . . .» . جاء ، وجلسَ ، كان يلهث ، قلتُ : «أرهقتَ نفسك ، لا تنسَ أنّكَ تعيش بنصفِ معدة ، وأنتَ قليل الأكل بالطّبع ، وهذا الرّكض خلفَ اللاشيء سيُفاقم الأمور» . ضحك . قال : «كنتُ أبحثُ بالفعل عن شيء ، ولكنّني لم أكنْ أدري ما هو ، شيءٌ ما كان يمشي أمامي وأتبعه ، لقد رأيتُه يتسلّق الأسوار ، ويخرج . يبدو أنّ الفرج قريبٌ» . قال عمرو وهو يضحك : «أنا رأيتُه كذلك» .

أمّا (مهذّب احفاف) طالب الهندسة الميكانيكيّة ، الّذي اعتقل في سنته الخامسة الأخيرة ، فكان نحيلاً طويلاً ، أسمر البَشَرة ، جادًا ، أنيقًا ، دخل السّجن وهو يلبسُ بدلةً ، وحينَ عُرِضْنا على المحكمة لبسها ، وتأنّق ما استطاع ، وطلبَ منّا جميعًا أنْ نحذُوَ حذوه حتّى لا نُري النّظام من أنفسنا ضعفًا ، وأنّنا لا نعنو ولا نذلّ ولا نشكو ما نحن فيه . وكان حليقَ الذّقن ، شَعْر رأسه كَثّ ، وفَوْداه عريضان ، وكان جريئًا في مخاطبته آمر السّجن ، أو رؤوس النّظام الّذين كانوا يزوروننا للحوار بين فترةٍ وأخرى .

في عام ١٩٧٤م كان الإفراج المُؤقّت في عطلة عيد الأضحى ، استُثني حسن ، لكنّ عَمرًا خرج ، بعد خروجه دخل الإخوان في جمعيّة القذّافي فقبل بهم جميعًا واستثنى من ذلك الدّكتور عَمْرًا ، أرسله إلى إحدى الجامعات الأمريكية أستاذ كرسيّ كي يتخلّص منه ومن تأثيره في المجتمع . فغادر إلى أمريكا . كُنّا في السّجن أنا والحاجّ صالح والأستاذ عبد الله الملاّني والأستاذ حسن الكرديّ ، نأتي على ذكره أحيانًا ، فنقول : «من السّجن إلى أمريكيا مرّة واحدة!!» . ظلّتْ

ذكراه الطيّبة حاضرةً سنين بُعده عنّا في المنفى . كانت أشياء كثيرة تُذكرنا به ، بعضُ النّاس يمرّون على قلبك ، كما تمرّ الفراشة على الرّوض فتزيده بهاء .

ظللنا من بعده نتذكّره . الحاجّ صالح الّذي ترك ابنته وهي ذات أربعين يومًا ، وحُرِمَ من أنْ يراها لسنواتٍ طويلة ، كان كلّما هاجه الشّوق إليها يتذكّر أبيات عمرو إلى ابنته :

أبُنيّتي لا تيأسي من عودتي
فأبوكِ في سَعْيٍ يَجِيءُ ويذهبُ
لا تجزعي إنْ مسّ والدكِ الضّنا
سيُبْقِ القضاءُ به فضاقَ المَهْرَبُ
أيهزُّ قلبَ الصّقرِ في أجوائه
بُومٌ يُصَوِّتُ ، أو غُرابٌ يَنْعِقُ؟!

وكان الحاجّ صالح يبكي رقّةً وجلالاً ، وهو يترنّم بأبياتها ، وكُنّا نبكي معه . ماذا فعلَ المنفى بعمرو؟! لا ندري ، كلانا في منفى ، وكلانا مرتفقٌ بحبّ صاحبه!

(١٩)
العقيد

جلبةٌ كبيرةٌ . المُمرّضون والمُساعدون ينقلون الجُثث بشكلٍ سريع ، تندفع النقّالات باتّجاه الباب الكبير الّذي يقع شمالاً ، يحمل اثنان من المقدّمة واثنان من المُؤخّرة كلّ نقّالةٍ كي يرفعاها عن الدّرجات الخمس التّي تلتفّ لتبدأ دهليزًا يرتفع بدشكلٍ حلزونيّ ، ربّما ثلاثة أو أربعة أو عشرة طوابق ، لا أحدَ يدري كم عليه أنْ يبقى صاعدًا في الدّرج الحلزونيّ حتّى يظهر بصيصٌ من ضياءٍ في الخارج ، شعاعُ الشّمس إذا كان الوقتُ نهارًا ، وأضواء الأعمدة الفوسفوريّة إذا كان الوقتُ ليلاً . العزيزيّة مكانٌ مُحصّن ، لكنّه مخيف ، السّراديب فيه أكثر من الغرف ، والدّهاليز أطول بكثيرٍ من المساحة التّي تتربّع المنطقة فوقها ، لأنّها تلتفّ كأفعي ، هابطةً ، تتلوّى في كلّ اتّجاه ، والدّاخل إليها يغرقُ في الضّياع إذا لم يكنْ خبيرًا بها ، أو يحمل خارطتها .

أتمّ المُساعدون نقل الجثث ، تحرّك السّيّد الأبديّ نحو المرآة . همس في نفسه : «لم أقابلْ كلّ أشباحي بعد . عليّ أنْ أفعل قبل أنْ أُغادر هذا المكان» . صاح بصوتٍ مسموع : «أريدها أنْ تعود إلى مكانها دون أنْ يمسّها سوء» كأنّما قال ذلك للممرّضين . «اخلدوا إلى الرّاحة أيّتها الأجساد الطّيّبة ، انعمي بسلام أيّتها الأرواح الطّاهرة ، لن أُطيل غيبتي عنكم» كأنّما قال ذلك للجثث وهي تصعد تِباعًا دهاليز العزيزيّة باحثةً عن النّور والخَلاص كقاطرةٍ مسافرةٍ إلى الغيم تودّ لو أنّها ترتاح من سفرٍ

طويل، وتلقي بأثقالها بجانب الله.

يُعتِم المكان، ينظر في المرآة فلا يرى أحدًا، يسأل سؤالاً راجفًا: أينَ أنتَ يا يونس؟ أين أنتَ يا منصور؟ هل ما زلتما هنا في الغرفة...؟! لا يُجيبه أحدٌ، يصرخ بصوت أعلى، لا يسمع أيّ استجابة، يرتجف من الخوف: «تتخلّيان عنّي الآن، أيّها الخائنان». يلوّح بقبضته في الهواء: «أنا لا أحد يتخلّى عنّي ما دام الله معي، ما دام الكلّيّ القدرة إلى جانبي، ما دامت الملايين تتعطّش لافتدائي. أنا أعظم من أن أموت، وأكبر من أنْ أبقى وحيدًا». يهرّ. ينتفض. يرتجف. ترتعش شحمة أذنه المُتدلّية من تحت قبّعته، يستمرّ ارتعاشه لحظات قبل أنْ يهدأ تدريجيًا: «وماذا يعني أنْ أظلّ وحيدًا، فبوذا كان وحيدًا، وماني كان وحيدًا، ولينين كان وحيدًا، وماركس كان وحيدًا، وكريشنا كان وحيدا، ومانديلا كان وحيدًا، وموسى كان وحيدًا، وعيسى كان وحيدًا، ومحمّد كان وحيدًا... وأنا لستُ بِدْعًا من هؤلاء، أنا وحيد إذًا أنا أوحد، والفَرْد صفة العظيم، ولن يُهزَم العظيم حتى ولو لم يكنْ معه أحد». قال العبارة الأخيرة بكثيرٍ من الانتشاء، بكثيرٍ من الزّهو، كان صدره أعلى من رأسه.

عادتْ به الذّكريات إلى غابة النّصر في طرابلس، تذكّر اليوم الّذي افتتح فيه حديقة الحيوانات، واسمه الّذي اقترنَ بها في لوحة رُخاميّة كبيرةٍ على مَدْخلها. جلبَ إلى الحديقة كلّ أنواع الحيوانات في العالَم، مئاتٍ من الأصناف المتعدّدة، ولكنّه لم يجلبْ إليها إلاّ أسدًا واحدًا، لأنّ الغابة إذا حكمها أكثر من أسد فسدتْ، ولَعلا كلّ أسد على الآخر، يبغي أنْ تكون له المشيئة. وكان يدرك أنّ ليبيا لا يُمكن أنْ يحكمها إلاّ أسدٌ واحدٌ، بل إنّ العالَم كلّه يجب ألاّ يحكمه

غير حَيَوانٍ واحد . كان هو ذلك الحاكم الأوحد . لكنّ الأسد ظلّ وحيدًا . حزن ، أراد له أنيسة ، رفيقة تُعينه على تحمّل حماقات البشر كلّما جاؤوا إلى الحديقة ، وهم يتعابثون أمامه كأنّه فُرجة ، لم يدرْ في باله أنْ يُصبح فُرجة . تجاوز الأمرُ الحُزنَ عند الأسد . قرّر أنْ يُضرِب عن الطّعام ، فهزُلَ جسده ، ولم يعدْ يلتفتُ إلى قِطَع اللّحم الكبيرة الّتي تُرمَى إليه ، واستمرّ على إضرابه في عناد ، ثُمّ دخل مرحلة الكآبة ، ومات . لم يكنْ قادرًا على أنْ يكون وحيدًا ولا أوحد ، كان ضعيفًا وبحاجةٍ إلى مَنْ يُسنده ، إلى صدرٍ يُلقي برأسه عليه في آخر المطاف ، بعد أنْ يكون البشر قد أرهقوه بحماقاتهم وصِبيانيّاتهم .

تزداد ظلمة المكان ، تنطفِئ الأضواء كلّها . ضوءٌ صغيرة من السّقف يسقط بزاويةٍ مائلة على مؤخّرة رأس العقيد فيلقي بظلال شَعرِه على المرآة فتبدو كما لو كانت كُبّة من الشّوك ، أو حجرًا من الصّوان أسود ، تنسلّ من تحته ومن الشّقوق أفاعٍ صغيرة تذهبُ في كلّ اتّجاه . لقد أرهقتْه الذّكرى ، الغابة خاليةٌ الآنَ إلاّ منه . كلّ الزّائرون رحلوا . كلّ الّذين جاؤوا إلى غابته من أجل أنْ يُشاركوه مهرجانه ولّوا عنه ، ها هو يطوف الغابة وحده متوجّسًا ، الممرّات موحشة ، الدّروب مُقفرة ، والحيوانات كلّها أوتْ إلى بيوتها ، لم يعدْ يُسمَع لها صوت . حتّى الحارس أطفأ أضواء الغابة فبدتْ مُرعِبة ، لا نورَ يتسلّل إليه إلاّ ذلك الّذي تبعثه بعض النّجوم الهرمة من قبّة السّماء البعيدة . أراد أنْ يخرج من الغابة ، لكنّه لم يكنْ يعرفُ أين المخرج ، كانتْ كلّ طرقها متشابهة ومُتشابكة ، وكلّ طريقٍ يُفضي إلى طريقٍ يُشبهه . اختلطتْ عليه الجهات ، فبدأ الرّعبُ يدبّ إلى داخله ، بحثَ عن أناسٍ يُشبهونه ، فلم يجدْ أحدًا ، التفتَ يمينًا ويسارًا فرأى كلّ شيءٍ خاويًا وهامِدًا كأنّه أمام

شواخص قبور دارِسة . كأنّ أهل المكان غادروا المكان وتركوه له ، كأنّهم ملّوا الإقامة هنا فرحلوا ، أو أنّهم قُتلوا جميعًا واندثروا في التّراب ، أو كأنّهم ماتوا وجاءتْ طيورٌ ضخمةٌ من السّماء فحملتْهم إلى الأعالي ولم تعدْ أبدًا . كلّ شيءٍ كان مُخيفًا . رجفَ قلبُه ، مع كلّ رجفة سمعَ هذه الكلمات : «ما الّذي حدث؟ لقد كان كلّ شيءٍ لي ومعي ، فما الّذي بدّل الأحوال ، ما الّذي تغيّر حتّى يخلو كلّ شيءٍ من كلّ شيءٍ؟!» . توقّف . دار حول نفسه دورةً كاملةً . الظّلام والموت والخواء يُحيطُ بكلّ شيءٍ . ملأ صدره بالشّهيق ، وأخرج الزّفير في صرخةٍ شقّت سكون الفضاء : «ملعونون . . . أنتم ملعونون . . . لتلعنكم النّطفُ الّتي في الأرحام . . . اللّعنة على ليبيا الّتي أوجدْتُها . . . اللّعنة على الخونة الّذين أعطيتُهم ثقتي . . . اللّعنة على الزّعماء الّذين سرقوا أموالي . . .» جثا على رُكبتَيه أو هكذا تخيّل نفسَه . لكنّ صدى صرخته ضاع ف الفضاء ، لم يتحرّكْ شيءٌ ، ولم يردّ على صرخته أحدٌ . «أينَ الحارس اللّعين؟» . تساءل بحذر واستنكار : «أيكون قد هرب هو الآخر؟ أينَ النّاس؟ أين شعبي المحبوب؟ أين الحياة؟ أأكون قد متّ فِعلاً؟ ولكنْ لا ، أنا لا أموت . الخالدون لا يموتون» . ركضَ في الطّرق ، ركضَ بأقصى سرعة ، بدأ كلّ شيءٍ يتساقط عنه ؛ أوّل ما سقط قبّعته العسكريّة ، سقطتْ أمامه فدهسَها تحت رجلَيه في خضمّ ركضه ، ثُمّ سقطتْ نياشينه الألف الّتي كانتْ تُزيّن صدرَه ، فرقعتْ على الأرضِ قرقعةً خفيفةً ، لكنّه لم يجدْ وقتًا ليلتقطها ، كان هناك شيءٌ ما من خلفه يُرغِمه على الهروب ، والرّكض إلى الأمام مهما كلّف الأمر . ثُمّ هبّتْ رِيحٌ قويّة ، فأطارتْ قميصه العسكريّ ، فبدا بالشّبّال الّذي تحت القميص نحيلاً ، بائن العِظام ، مصفرّ الجلد ، كأنّه

جلدُ موتى قضوا قبل آلاف السّنين! استمرّ في الرّكض ، كان شعرُ رأسه المنكوش المتطاير في الهواء وجسده العاري يُظهرانه صعلوكًا ، «آه إنّه أنا ذلك الطّفل العاري في تلك الصّحراء الشّاسعة» . واصل الركض ، انفلتتْ من قدمه فردة الحذاء اليُسرى ، فتعثّر قليلاً ، لكنّه استعاد توازنه ، تركها وركضَ من جديد ، فانفلتتْ الفردة اليُمنى ركلها بعيدًا وهو يشتم ، كان المجهول خلفه يُطارده ، ماضيه المزدحم بالأهوال يدفعه إلى البحث عن النّجاة ، ركض . تمزّق البنطال ، ازداد تمزّقه بفعل ركضه المرعوب ، مدّ يده ، فأجهزَ على ما تبقّى منه ، وركض ، صار حافيًا وعاريًا كما بدأ . ركض حتّى لم يعدْ قادرًا على أنْ يتنفّس . استسلم . توقّف . عند أحد المنعطفات ، حنى جذعه ، وارتكز بقبضتَي يديه على رُكبتَيه ، وقفَ الشّيء الّذي كان يُطارده خلفَ رأسه تمامًا . أحسّ بأنفاسه ، ورائحته الكريهة ، وقدّر أنّه شيطانٌ ما ، اقتربَ الشّيطان منه أكثر ، سمع نبضات قلبه كأنّها صرخات مكتومةٌ قادمةٌ من قلب الجحيم ، شعَر بيدَي وحش كثيرتَي الشّعر ، تتحرّكان ببطء من خلفه تُريدان أنْ تلتفّا حول عنقه لتخنقاه : «لكنّ السّيّد الأبديّ لا يستسلم» . شجّع نفسه بهذه العبارة ، استدار فجأة وبقوّةٍ ليواجه قدره ، لكنّه تفاجأ أنّه لم يكنْ هناك من شيء خلفه ، لم يجد إلا الفراغ والظّلام والصّمت ونجومًا في البعيد ما زالتْ تُصرّ على أنْ تكون شاهدة على كلّ ما يحدث على هذا الكوكب البائس . زعق . فرح . أراد أنْ يبكي من الفرح فمنع دموعه . اعتدلتْ قامته ، مشى ، تذكّر أنّه ما زال في قلعته في العزيزيّة . الذّكرى أنقذته ، لكنّ غربانًا حلّقتْ في الفضاء الّذي أمامه فجأة ، تكاثرتْ . سدّت الأفق . وأحاطتْ به من كلّ جانب . صارتْ فوقَ رأسه ، لطمتْه اجنحتها على رأسه ، ملأ نعيقُها

الجارح أذنيه ، غطّى بيديه وجهه ليحمي عينيه من مناقيرها الحادّة ، وراحَ يصرخ . لكنَّ المناقير نهشتْ ذراعَيه العاريتَين ، فصرخ بصوت أعلى . هُرِع إليه منصور ، وضمّه إليه ، حاول أنْ يُفلتَ من الأفاعي الَّتي التفّتْ حوله . «اهدأ يا سيّدي . . . اهدأ . . . أنا منصور وهذا يونس . . . نحن معك يا سيّدي» . ضربه بكلتا يديه على صدره وأبعده عنه ، وهو يقول : «أين كنتما . .؟! تتركانني وحيدًا وتهربان أيّها الوغدان!!» . «نحن لم نغادر الغرفة لحظة يا سيّدي» . «إنّكما تكذبان . . لقد رأيتُ أشياء فظيعة يا يونس ، تركتَني وحدي معها . . .؟!» . نظر يونس إلى منصور التقتْ نظراتهما ، همس منصور في أذن يونس : «إنّه بحاجة إلى جرعة سريعة ، لقد بدأ يهذي» .

(٢٠)
الحاجّ صالح

اعتُقل بعدي بأسبوعَين ، ومشى معي هذه الرّحلة كلّها ، بكل ألوانها وتقلّباتها ومخاضاتها وانهزاماتها ولوعاتها ، كان هو و(الكاجيجي) و(التّرهوني) أكثر ثلاثةٍ رافقوني على كثرةِ مَنْ مرّوا بنا أو مررنا بهم ، لكنّ الزّنازين تختار أحيانًا ساكنِيها ، إنّها تألفُ أناسًا دون آخرين مثل البشر ، ربّما تحبّ وتكره ، وربّما تدفع بمن لا تتآلف معهم إلى خارجها ، إلى منافٍ أخرى ، وأوطان متعدّدة . الحاج صالح سيرسخ في ذاكرة الكثيرين ، لن يكون مروره عابرًا . بعضُنا ارتحل مُبكرًا ، مات أو انتحر أو قُتل أو أُفرج عنه أو نُقِل إلى سجونٍ أخرى . . . وأقلّ هؤلاء مكثَ ما يزيدُ عن عشر سنوات . كان العبور في السّجن في نظام القذّافي يعني أنْ تمكثَ فيه هذه السّنوات العشر كاملةً غير منقوصة . ولم تكنْ هذه المحنة لتطالَنا نحن الرّجال وحدَنا ، فقد كان في السّجن نساء مكثْنَ أربعَ سنوات بلا تُهمة ، ولا ذنب ، ولا جَريرة ، سوى أنّ أخاها أو أباها كان من المغضوب عليه عند الدّولة ، بل إنّ الدّولة كانت تأتي بالمرأة وأمّها فتزجّ بهما في السّجن لا ترحم شيخوخةً ولا تُراعي حرمةً ولا ترقبُ ذِمّة ، ومن هؤلاء الّذين هبطتْ عليهم مقصلة النّظام (آمنة) وأمّها . وصبرَتا مع الأخريات ، كأنّ الصّبر كان يتوقّف عندهنّ مليًا قبل أنْ يطوف بأهل المحنة من بعدهما!!

في السّجن ، عُذّبت النّساء مثل الرّجال ، كانتْ تقول لهم :

«اضربوني كما شئتم ، انتهالوا على رِجلَيَّ بالفلقة ، ولكنْ لا تكشفوا عورتي ، أسدلوا اللّباس على جسدي» . ولكنْ أنّى للوحوش أنْ تسمع؟! وأنّى للصّخور أنْ ترقّ؟! في السّجن أُطلقتْ على النّساء الكلاب ، وعُلّقنَ في السّقوف ، واغتُصِبْنَ أبشعَ اغتِصاب مِمّن هم من أبناء جلدتنا ، لونهم لوننا ، وأسماؤهم كأسمائنا ، ولكنّهم نزعوا من قلوبهم كلّ رحمة ، وخلعوا عن أكبادهم كلّ مروءة ، وتحوّلوا إلى حيوانات تنهشُ الأرواح قبل الأجساد . في السّجن ولدت النّساء الحوامل ، وكَبُر أبناؤهنّ حتّى جاوز عمر الواحد منهم السّنين والسّنين ، لم تكنْ تنطبق عليهنّ ولا على أبنائهنّ اليتامى مقولة عمر بن الخطّاب حين قال : «متى استعبدتُم النّاسَ وقد ولدَتْهُم أمّهاتهم أحرارًا؟!» فقد وُلِدَ الأحرار في السّجون ، وذُبِحتْ أمّهاتهم ، وعُلِّقَ آباؤهم على المشانق!! في السّجن ما لا يُقال . في السّجن ما لا يتصوّره الخيال . في السّجن وحده تعرفُ معنى الانكسار ، تذوق مرارة القَهر ، وتُدرك أنّك وحيد ، وأنّك حشرةٌ تُداس بالأقدام ، وأنّك رهينُ الذّبح عمّا قريب .

الحاجّ صالح ، حينَ وفدَ إلى هنا ، كان في بداية الثّلاثينيّات من عمره ، شابٌ تبدو على وجهه سيماء الحكمة والرّصانة ، مُمتلئ الوجه ، عريضَ الجبهة ، حنطيَّ البشرة ، شعره خفيف قبل أنْ يتوكّل السّجن بإسقاطه تدريجيًا عبر السّنوات الطّويلة ، بسمته حاضرة ، خَجولاً ، قليل الكلام ، خَدومًا للآخرين ، ومُحبًا لهم بشكلٍ لا يُمكن تفسيره ، كان يغسل ملابسنا ، وملابس المهاجع الأخرى ، وينشرها على الأبراش ، والنّوافذ ، وينتظر حتّى تجفّ ويُعيدها إلى أصحابها ، وكان يبكي إذا رفض أحدنا أنْ يُعطيه ثيابَه ليغسلها ، وكان يفرح إذا أراد أحدنا أنْ يستحمّ ؛ إذ إنّ ذلك يعني تلقائيًا أنّ هناك ثيابًا لهذا

المُغتسِل يريد أنْ يغيّرها ، فيتلقّف الثّياب غير النّظيفة كأنّه تلقّى هديّة من السّماء ، ويجلس بأدوات بسيطة جداً ، وبيديه يفرك ثيابنا ، ويُزيل ما علق بها ، مرّة بعدَ مرّة وهو مُقرفصٌ أمام حوضِ الحمّام الصّغير ، سادًا فتحته بقطعة من القماش ، كي يُحافظ على الماء في الحَوض ، ليغسل به أكبر قدْرٍ من الثّياب ، إذ إنّ الماء كان شحيحًا ، ولربّما يمرّ اليوم واليومان ، والثّلاثة والأربعة ، دون أنْ تتدفّق في صنبور حنفيّتنا قَطْرَةٌ واحدة . هذا الحوض الّذي هو متر في متر ، وله حوافٌ ترتفع عن البلاط عشرة سنتيمترات كُنّا في أيّام العطش الشّديد ، حينَ تمنّ علينا إدارة السّجن بالماء في الصّنبور ، نملؤه بالماء ، ونُغلق منهله بقطعة من الخيش ، أو بسدّادة ما كي نحتفظ بالماء في الحوض ليوم أو ليومَين ، فإذا عَطِشْنا رُحنا نُقعي على رُكَبِنا ، ونمدّ أعناقَنا ، ونبدأ نلْعَقُ الماء من الحوض كما تفعل الدّواب ، لم نكنْ حتّى تلك اللّحظة نحظى بكوب من البلاستيك من أجل أنْ نشربَ فيه ، كان ذلك يُعدّ ترفًا ، ربّما بعدَ سنين سنحصل على هذه الرّفاهية!!

كان معنا في السّجن كذلك الأستاذ (عتيقة) ، محام بارع ، كان فَطِنًا ، شديد الحذر ، يحسب الأمر وتبعاته ، تعلّق به كثيرٌ من المساجين حينَ علموا أنّه مُحام يسألونه عن أنبائهم ، وكان خفيف الظّلّ ، رجلٌ نحيل ، مربوع ، حليقُ اللّحية والشّارب ، يضع نظّارةً طبّيّة على عينَيه ، ومثقف أكلت الكتب قبل أنْ يأتي إلينا ما شاءتْ من عمره . وكان جريئًا ؛ تولّى قبل السّجن وبعده الدّفاع عن المظلومين ، وعن الّذين طحنتْهم آلة القذّافي ، مع أنّ مهنة المُحاماة والقضاء أصبحتا في عهد العقيد (شُخشيخة) ، لكنّه لم يأبه لما يلحق به جرّاء مواقفه من أذى . وكان شاعرًا مُقِلاً فلمّا دخل السّجن ، فجّر هذا السّجن طاقته ، ودفّق

عنده العبارة ، والسّجن يجعل من غير الشّاعر شاعرًا ، ويجعل من الّذي لم يقلْ كلمةً واحدةً أمام العامّة خطيبًا . كان في البداية من الإخوان المسلمين ، ثمّ روى لي الحاجّ صالح أنّ الإخوان المسلمين طلبوا من الأستاذ (عتيقة) بعد حصوله على التّوجيهيّة ، وسفره إلى بنغازي لدراسة الحقوق ، أنْ يختلط بالقوميّين واليساريّين دون أنْ يُظهر اتّجاهه أمامهم ؛ لكي يُؤثّر فيهم ، ولكنّ الّذي حدث هو العكس ، أثّروا فيه فذهب معهم . أضاف هذا الخليط العجيب من فَهْم أفكار اليسار واليمين له مِيزةً في حواراته المستقبليّة مع الجماعات الجهاديّة حين سيلتقيهم في المستقبل في السّجن الأكثر شهرةً ؛ (سجن أبو سليم) .

السّجون تمتلئ بالخوف . بالتّرقّب ، وبالرّعب الّذي ينفجر في وجهك فجأةً . كُنّا هكذا نعيشُ أيّامنا ، لا أحدَ يدري من أينَ تأتيه الطّعنة ، ولا كيفَ تهوي عليه الصّاعقة . كان السّجن العسكريّ في الحصان الأسود بكلّ ما فيه ، بجدرانه ، بأسواره ، بأبراج مراقبته ، بزنازينه ، بسجّانيه ، وحتّى بمساجينه ، يضجّ بالرّهاب . يرشح بالذّعر . لن يمرّ يومٌ دونَ أنْ تُصفَع ، أو أنْ تُجلَد ، أو أنْ تسمع شتيمةً بذيئة ، كانت العصا تهوي على أيّ موضع في الجسم دون تفريقٍ بين ما يكونُ قاتِلاً أو مؤذيًا ، كُنّا دائمي الدّعاء أنْ تنزل على أيّ جزءٍ من أجسادنا باستثناء الرّأس لأنّها قد تكون الأخيرة ، وسقط كثيرٌ منّا دون أنْ ينهضوا بعدَ ضربةٍ حاقدة من هذا النّوع ، أو أنْ تهوي على العين ، إذ إنّ معناها العَمى ، وفقد عددٌ كذلك منّا عيونهم ، بضربةٍ طائشة من هذا النّوع . رأيتُ عيونًا تسيل على العَصا ، وصاحبها يصرخ من الألم وجلّاده يضحك ، ثمّ يهوي على رأسه من جديد ، ولم نكنْ نملك أنْ نتدخّل أو نحتجّ ، ومَنْ فعل كان يلقى مصيرًا أسوأ من مصير صاحبه .

كُنّا فقط نلهج في سرِّنا بالدّعاء على الظّالمين، أو بطلب الرّحمة للرّاحلين.

كانت العَصا الّتي قد يصل طُولها إلى كتف السّجّان الأداة الأكثر استخدامًا في ترويعنا، يليها (الكاو) وهو جَدْلَةٌ من الأسلاك المعدنيّة، ويليها السّوط المصنوع من جلد البقر، وكان الأخير شديد الإيذاء، لكنّ المساحة الّتي يُؤثّر فيها أقلّ من المساحة الّتي كانتْ تُؤثّر فيها العصا الغليظة، مِمّا يُعطي فرصةً أكبر للنّجاة، أو الإفلات من عاهة مُستديمة.

كانت العُصيّ تهوي على أجسادنا كأنّ الجلاّدين اعتادوا بلا وعي أنْ يرفعوها ليهووا بها علينا كلّما رأونا، لم تكنْ هذه العِصيّ تستخدم للمعاقبة دائمًا، بل للتّسلية أو بحكم العادة أحيانًا، كأنّ فيها غريزةً مركّبة أنْ تلتحم بنا كلّما رأنا السّجّان، فتنهال علينا حينَ نخرج إلى (الأريا) للتّشميس، وتنهال علينا عند العَدّ للدّخول، وتنهال علينا حينَ نذهب لجلب الطّعام، وتنهال علينا حينَ نوزّعه، وتنهال علينا ونحن نتناوله، وكان يُمكن أنْ تهوي عصًا من تلك العصيّ على عنق أحدنا فيختنق باللّقمة، فيُترك وقد ازرقّ وجهه، وانكتم نفَسه، ولا يُذهب به إلى الطّبيب أو إلى المُستشفى حتّى يُفارق الحياة.

ومن المشاهد الّتي لا يُمكن لكبار مُخرجي هوليود أنْ يتخيّلوها، أنّنا كُنّا نُؤمَر بشيبنا وشُبّاننا، بمريضنا وصحيحنا، فنصطفّ في طابور طويل في الممرّ الّذي يفصل بين الزّنازين، أو في السّاحة أحيانًا في انتظار الطّعام، وفي يد كلّ واحد منّا صحنه البلاستكيّ باليمين، وكوبه باليسار. ويقف خلفنا طابورٌ آخر من السّجّانين المُدجّجين بالسّلاح الآليّ وبالهراوات، وكان علينا ألاّ نأتي بحركة، ولا همسة،

ولا أنْ نرفع رؤوسنا ، ولا أنْ نُبدي أيَّ تذمّر . الرّؤوس مُنخفضة ناظرة إلى الصّحن ، جائعة ، وكُنّا نقف وقتًا طويلاً ، وتبدأ أضلع الكبار منّا في السّنّ تؤلمهم ، لكنّ الثّمن سيكون فادِحًا لو اشتكوا ، أو طلبوا الرّحمة ، أو تحرّكوا . وكان بعضُ السّجانين متمرّسًا في الاستفزاز لكي يجدَ مُسوّغًا لممارسة ساديّته ؛ يقترب من عنق السّجين من الخلف ، يسمع السّجينُ أنفاسَه ، فيتوقّع الضّربة في أيّة لحظة ، فتنكمش كتفاه في حركة لا إراديّة ، ولكنّه سرعان ما يُعيد إليهما شكلهما الطّبيعيَّ محاولاً أنْ يقسر عنقه على ألاّ تميل جهة اليسار لكي لا يُكتَشف ، فإذا مرّ الاختبار الأوّل بسلام ، وقليلاً ما كان يمرّ ، انتقل العسكريّ اللّعين إلى المرحلة الثّانية ، فيسحب أقسام البُندقيّة كأنّه يُهيّئها للرّماية ، في هذه اللّحظة يكون سَحْبُ الأقسام في خيال أحدنا بمثابة النّهاية ، فيتخيّل أنّه أطلقتْ عليه طلقات البندقيّة ، كان بعضُنا تنحلّ رُكَبه ، وسرعان ما يتهاوى ، وتبدأ بعدها الويلات ، الّذين كانوا شُجعانًا ولديهم قلوبٌ قويّة ، ربّما يصمدون أمام هذا الاختبار ، لكنّ نوري السّجان الّذي كان يملك - بالإضافة إلى مواهبه السّابقة - قدرةً على إطلاق صرخة ينخلع لها الفؤاد ، كان يمارس هذه اللّعبة معنا ، يقترب من أذن السّجين ، يجمع أنفاسه في صدره ، يحبسها ، ثُمّ يُطلقها في صرخة متفجّرة ، فكان أغلبنا يضع يده على أذنَيه لكي يتفادَى انثقاب طبلة الأذن ، وتجد قلبه يخفق في أضلعه بشدّة من الرّعب الّذي سبّبه الصّوت ، على الأقلّ يفعل ذلك ستّة من هذا الطّابور ، هؤلاء السّتّة ، ستكون في انتظارهم الهراوات والكاوات والسّياط ، تنهال على رؤوسهم وظهورهم ، حتّى تسيل دماؤهم ، ثُمّ يُؤمرون - بعد أنْ يكونوا قد سقطوا على الأرض وهم يتلوّون تحت تأثير الضّربات - أنْ ينتظموا في الطّابور

من جديد، ويبدأ من بعدها توزيع الطّعام، في هذه اللّحظة سترى سيول الدّماء تُغطّي وجوههم، وتلوّن ثيابهم، وتصبغ شعورَهم، وهم لا يكادون يقوون على الوقوف يمدّون صحونهم الفارغة ليحظوا بعد هذه الحفلة من التّعذيب، بأرزّ مُعَجّن تنزل عليه قطراتٌ من الدّم النّازف من رؤوسهم، وخبز يابس مغمّس بالدّم، وليس من حقّهم أنْ يشكوا ولا أنْ يتأوّهوا، ولو كانت الصّخور والجُدران تتأوّه عنهم لقسوة ما رأت!

كانوا يدخلون غرفنا فجأةً، فإذا وجدونا قد جمعنا الأكل في قصعةٍ واحدةٍ وتحلّقنا حولَها من أجل أنْ نأكل، صرخوا بنا: «كُل واحد على سريره». فإذا دخلوا مرّة أخرى ووجدوا كلّ واحدٍ منّا قابعًا في سريره يأكل بقهر صرخوا بِنا: «لا تأكلوا على السرير. النّظافة من الإيمان». النظافة؟! كان السّجن أقذر مكبٍّ للنّفايات على وجه الأرض!!

الحاجّ صالح كان يداوي الجراح، لم يكنْ طبيبًا، ولكنّ كلماته كانتْ تشفي، هدوء مظهره، وسحابة الصّبر الّتي تُغلّف وجهه كانتْ تُخفّف عنّا كثيرًا من الألم. وكان يُبادر إلى الّذين امتلأتْ ثيابهم بالدّماء، فيخلعها عن كلّ واحدٍ منهم برفق، وهو يطلب منه أنْ يصبر، ويهوّن عليه كما لو كان أباه، ثُمّ يبادر بما كان متوافِرًا فيقوم بغسل ثيابهم، فإذا جفّتْ، بادر إلى إصلاح ما تعرّضتْ له بما أمكن، فإذا أنهى ذلك، ألبسها لأصحابها بنفسه، ثُمّ ينظر إلى كلّ سجينٍ ألبسه ثيابه، ويبتسم ابتسامةً واسعة، ويقول: «عريس... والله عريس».

الحاجّ صالح حين اقتادوه إلى السّجن، تركَ خلفه ابنته (صفيّة) الّتي كان عمرها يومئذ أربعين يومًا. وكان قد تعلّق قلبُه بها، وكان إذا خَلا إلى نفسه، وعاودتْه وجهها الملائكيّ، بكَى بينه وبين نفسه، فإذا

تخفّف من الحمل قليلاً ، هُرع إلى ورق كُنّا نُعِدّه للكتابة من علب السّجائر ، وكراتين الحليب ، فكتبَ إليها ، يُخاطبها كأنّها معه . وبطريقة ما استطاع أنْ يهرّب تقريبًا كلّ ما خطّه في السّجن ، في زمنٍ كان بعضُنا يحلم بأنْ يحصل على ورقةٍ أو [illegible] صفحةٍ من جريدة .

(٢١)
العقيد

«هل نفثتْ مبروكة لي في العُقَد؟!» . قال لمنصور ويونس ، وهو يولّيهما ظهره أمام المرآة . ثمّ يُتابع قبل أنْ يسمع جوابهما : «أريدُ أنْ أعرف ماذا سيحلّ بعظَمتي . أريدُ أنْ آخذ رأيها في الخروج من العزيزيّة أو البقاء فيها» . اقتربَ منه يونس ، قال له وهو يخفض بصره فيما بين حذائي سيّده : «لقد استنبأناها يا سيّدي ، مبروكة رسمتْ لنا الطّريق ، قالتْ إنّ بقاءنا هنا سوف يجعلنا تُذبَح كالخراف» . ارتجفَ شيءٌ ما في الجهة اليُسرى من صدر العقيد : «تُذبَح ، هذه الشّيطانة من أين تأتي بهذه الخيالات السّوداء؟!» . ردّ منصور بعد أنْ نهض من أريكته واقترب هو الآخَر منهما : «سيّدي لقد استشرْنا السّحَرة والعرّافين الآخرين ، استشرنا ربّما أكثر من عشرين من سَحَرة أفريقيا ، سحرة الأدغال الخُبراء بالسّحر الأسود الّذين تعجّ بهم غرف العزيزيّة وطبقاتها» . قاطَعه العقيد : «هه . . . وماذا قالوا لك؟» . ردّ منصور بصوتٍ أقربَ إلى الاستسلام : «لقد قالوا كلامًا قريبًا مِمّا قالتْه العرّافة ، قالوا : إنّهم رأوا بيوت العزيزيّة تُهدّم ، والكتاب الأخضر يُحرّق ، والأبناء يُشهِرون السّلاح في وجوه الآباء ، والطّائرات الموشومة بالعلم الفرنسيّ تطير من غرفة إلى غرفة في العزيزيّة وهي تضحك» . ارتجفتْ رُكَبُ العقيد هذه المرّة ، هتف بهما كمحاولة لإيجاد حلّ لهذه النّبوءات المُخيفة ، وحملتْ عبارته صيغة السّؤال : «ولكنّ السّراديب الّتي تحت العزيزيّة

سوف تُخرجني من هنا سالمًا». ردّ يونس: «لقد حدّثونا في نبوءاتهم عن هذه السّراديب يا سيّدي. أخشى ألاّ تكون آمنة». صرخ العقيد: «كيف لا تكون آمنة وهي ضِدّ الرّصاص المُذاب، وضِدّ الانفجار النّووي». تبرّع منصور بالإجابة هذه المرّة: «صحيح يا سيّدي، لكن حسب نبوءة العرّافة مبروكة، والتّي لم تُخطئ مرّة في تنبّؤاتها، والتّي لم تعتمد أنتَ سِواها في السّنوات العشر الأخيرة، أليسَ كذلك يا سيّدي؟!». ردّ العقيد مُستحثًا إيّاه على إكمال حديثه دون إسهاب: «بلى... بلى... ماذا قالت العرّافة؟!». فتابع منصور: «والتّي بعدَ أنْ قدِمتْ إلى العزيزيّة طردتَ أكثرَ من ثلاثين عرّافةً قبلَها». نفد صبر العقيد، فزعق: «أكملْ أيّها الضّرّاط، ماذا قالت؟». تابع منصور: «لقد قالتْ إنّ الخطورة لا تقف على الطّائرات الّتي تقذف بحممها فوق قلعة العزيزيّة المنيعة، ولكنّ الخطورة في ما يخرج من سراديب هذه القلعة ودهاليزها، لقد رأتْ أنّه يخرج منها...» وتوقّف قليلاً ليبلع ريقَه، فيما كان العقيد يُصغي باهتمام وينتظر أنْ يعرف ماذا رأت العرّافة، فودّ هذه المرّة أنْ يعضّ (منصور) في عنقه، وينهال عليه بالصّفع والركل، لكنّه فجّر غضبه، بصرخة ترجرجت لها المرآة: «ماذا قالتْ أيّها الكلب؟ قلْ بسرعة». بلع منصور ريقه بسرعة قبل أنْ يستعيد رباطة جأشه من هول الصّرخة الّتي أطلقها العقيد في وجهه القابع خلفَ كتفَيه في المرآة: «لقد رأتْ أنّه يخرج من باطن هذه الدّهاليز أفاع ربداء، تخرج من الشّقوق الّتي لم تكنْ مرئيّة في السّابق، تتسلّل منْ تحت الأرض دون أنْ يدري أحدٌ كيف، تتلوّى على الجدران، وتمدّ الجزء الأخير من رأسها تتهيّأ للانقضاض على كلّ مَنْ يعبر تلك الدّهاليز». هتف القذّافي وحنجرته تصعد وتهبط: «هل قالتْ ذلك حقًا؟». ردّ يونس: «لا أظن

أنها تكذب» . قال العقيد : «لعلّها خرفتْ هذه العَجوز» . «لقد ازدادتْ حكمةً مع كبر سِنّها يا سيّدي ، أرى أنّها صادقة» . سأل العقيد بصوت راعف : «والذّهب والجوهرات والنّقود المُخبّأة في تلك الدّهاليز؟» . «لن نستطيع أنْ نأخذها معنا الآن ، ربّما نعود إليها بعدَ أنْ تهدأ الأمور» . «لكنْ قلتَ إنّه لا يوجَد مخرجٌ آمن من هذه الدّهاليز؟» . تقدّم منصور خطوة من العقيد حتّى لامستْ ذقنه كتف سيّده ، وهمس بصوت مسموع : «العرّافة قالتْ إنّ عدد المخارج ثلاثة عشر مخرجًا . أليسْ كذلك يا سيّدي؟» . ردّ العقيد بترقّب : «بلى» . هتف منصور : «لقد قالتْ شيئًا يُمكن أنْ نجد فيه طريقةً للخروج الآمن من هنا ، فأنتَ تعلم يا سيّدي ، أنّ بوّابة العزيزيّة ، مُراقبة في كلّ ثانية ، وصواريخ النّاتو موجّهة إلى كلّ مَنْ يعبرها أو يتحرّك حولها ، إذا خرجْنا من هناك فسيكون هذا انتحارًا بكلّ تأكيد» . ردّ العقيد وقد ضاق صدره بشروحات منصور الطّويلة : «ماذا قالت العرّافة من جديد أيّها الخَرِف؟» . أرجع منصور رأسه إلى الوراء قليلاً ، وعقد يدَيه خلف ظَهره ، وأحدّ نظره في المرآة لتلتقيَ عيناه مع عينَي مولاه اللّتَين بدتا من الضّيق كأنّه قد أغلقهما ، أو أنّه أعمى : «لقد قالت العرّافة إنّ الدّهاليز الثّلاثة عشر ، فيها دهليزٌ واحدٌ لم ترَ في نبوءَتها الأفاعي تخرج من بين شقوقه ولا من تحتِ ترابه ، بخلاف الدّهاليز الاثني عشر المتبقّية» . استعجله العقيد : «وما هو هذا الدّهليز؟ أيّهم هو؟ أين يقع؟ كم رقمه؟ من أين نسلكه؟» . ردّ منصور وهو يُحدّ النّظر أكثر ، وقال كأنّما يُلقي عن ظهره بسِرٍّ ثقيل : «لقد قالتْ إنّه لا أحدَ يعرفه سواكَ يا مولاي» . ردّ العقيد : «كيفَ لي أنْ أعرفَه؟!» . «لقد قالت العرّافة إنّ لذلك علامة؟» . «وما هي تلك العلامة ، قُلْ أيّها الضّرّاط؟» . «قالتْ إنّكَ

دفنْتَ فيه سِراً» . «كيف؟ هل الأسرار تُدفَن أيّها الخَرِف؟» . «لقد سألْتُها ذات السّؤال يا سيّدي؟» . «وماذا قالتْ لك؟» . «قالتْ إنّ السِّرّ إنسان» . انفتحتْ عينا العقيد فجأة ، اتّسع مَحجَراهما ، وهمس : «ماذا تعني؟» . «لقد سألْتُها مثلما سألْتَني يا سيّدي» . «وماذا قالتْ لك؟ مَنْ هذا الإنسان؟» . «قالتْ إنّه أحد الّذين كُنتَ تريدُ أنْ تأنسَ بزوجته فأبى» . ابتسم العقيد ، انفرجتْ شفتاه حتّى بانت من وراء الكهف الّذي انفرجتْ عنه الشّفتان صفُّ أسنانٍ مُدبّبة صفراء . كانت شفتاه مُسطّحتَين ، مُتشقّقتَين كأنّ عهدهما بالماء بعيد ، ومبعوجتَين كأنّما أصيبتا بشللٍ بحيثُ لا تتحرّكان بشكلٍ طبيعيّ . قال صوتٌ ما خرج من بين أسنانه : «آآه . . . لقد عرفْتُه» .

(٢٢)
الشعر والشعراء

في أوّل مجيء عبد العاطي خنفر إلى هنا ، كان شَعره يتكوّم فوقَ كتفَيه كأنّه بُلاّنة كثيرة الشّوك ، خَشِنة ، متلبّدة ، لا يتخلّلها المشط لكثرة تلبّدها ، كان أكثر الصّعاليك يتركون شَعرهم في تلك السّنوات في بداية السّبعينيّات على هذه الشّاكلة . لكنّ الزّمن يفعل كلّ شيء ، يقذف بأناسٍ إلى خارج دائرة الحياة ، ويستجلب آخرين . يرسمُ دمعةً على خدّ أحدهم ، ويمسحها بمنديل الصّبر أو النّسيان عن خدّ آخر . وهكذا بعد عشرِ سنواتٍ أخرى ، بدأ شَعر عبد العاطي خنفر يتهدّل على كتفَيه ، وتخفّ كثافته ، وبدأ التّصحّر يغزو أعلى رأسه ، حتّى تساقطَ أكثره . كلّ شيءٍ في ملامح وجهه تغيّر ، باستثناء عينَيه ، ظلّتا عينَي بدويّ عنيد ، ليس من طبعه أنْ يشكو حتّى لنفسه ما ألمّ به من عنت .

لقد ضَجّ السّجن بالشّعراء ، ظللنا إلى آخر السّبعينيّات قبل عهد الاستشراس ، نغنّي الشّعر كأنّنا في مهرجان ، ونحتفي باللّغة كأنّها كانتْ سِرّاً من أسرار صمودنا .

كان الشّعراء يصدحون بما يحفظون من أشعارهم ، فنتمايل طربًا على إيقاع النّغم السّاحر ، فلمّا غادر الشّعراء كلّ متردّم ، راح السّجن يبعثُ فيهم قصائد جديدة ، ولمّا كان القلم والورقة ممنوعَين ، راحوا يكتبون قصائدهم على علب السّجائر الفارغة ، على كراتين الدّخان ،

على أيّ شيءٍ يرد من الخارج يكون صالحًا للكتابة ، كان (عبد الرّحمن الشرع) أحد شعراء المحنة الّذين ظلّلتْنا نخلاتُ قصائدهم في الهجير، كتبَ فاشجى ، وغنّى فأدمع العيون ، ونزفَ شعره حُبًا للأوطان المنهوبة والمغتالة فنزفْنا مع كلّ حرف قاله : «البلاد الّتي طوّقتْنا حين تسرّبتْ حتى خصلات شَعرنا . . . واندفعتْ في ارتعاشاتِ أكفنا . . . وفرّتْ إلينا . . . واستجارتْ بنا لتحمينا . . . البلاد الّتي سيّجتْنا أشواكَ محنتها . . . وغلّقتْ أبوابَها في وجوهنا . . . ثُمّ أبكتْنا حينَ وسّدتْنا ذراعَيها . . . وأربكتْ أحزاننا» . وهل من حزنٍ تُربكه البلاد ، البلاد التي هي ملاذُنا ، ومآلنا ، والتي كُنّا نبكي منها ونبكي عليها ، كُنّا نضع رؤوسنا على أكتافِها ونبدأ النّشيج ، نحن مخطوفون مثلكِ يا أمّاه!!

كانتْ أشعار عمرو النّامي تُلهبُ حماسَنا ، تقتل اليأس ، تحرّض على الأمل ، وتملأ فراغ القلب ، كان القلب يحتاج إلى كلماته ، من وراء باب زنزانته كُنّا نسمعه يُغنّي ، وكان يُهرّب لنا قصائده من تحت الشّقوق ، أو نردّد وراءه لنحفظَ ما يقول ، وكان إذا كانتْ ليلةَ العيد وحنّ إلى أبنائه الّذين طال غيابُه عنهم ، نسمعه يُردّد :

يا عِيدُ يا فَرحةَ الأطفالِ ، ما صَنَعتْ
أطفالُنا نحنُ والأقْفالُ تَنْغَلِقُ
ما كُنتُ أحسبُ أنّ العيدَ يَطْرُقُنا
والقَيْدُ في الرّسْغ والأبوابُ تَصْطَفِقُ

وكُنّا نطلّ خلف الجدار الكئيب لنَلمح معه تباشير الفَجْر ، وسيرحل العنليب مبكّرًا ، وسنفتقد صوتَه في الغناء ، وهكذا كان قدر البلابل ، إنّ غناءَها الرّقيق يُغضب قلوب الطّغاة القاسية ، وإنّ حرّيتها تنقم منها عبوديّة العبيد . فلم يطل معنا المكوث .

وكُنّا إذا جاء العيد ، وتذكّرنا الأحباب ، شَرِقْنا بالدّمع ، فلا حبيب يُؤنِس ، ولا قريبَ تتقاسَم معه الهموم ، ولا زوجَة ، ولا ابنًا ولا ابنةً ، كُنّا وحدنا مع اللّيل والجِدار ، فإذا سَمِعْنا تكبيرات العيد قادمةً من الزّنازين ، متحدّية الحواجز والسّدود ، تذكّرنا بصغارنا الّذين لم ينبتْ ريشهم بعدُ ، ولم تَقْوَ أجنحتهم على الطّيران ، فنسمع من إحدى الزّنازين الدّكتور عمرو النّامي ، وهو ينشد ويبكي ، ونبكي معه .

قلوب الشّعراء أنبل القلوب ، رقيقةٌ إلى الحدّ الّذي تنكسر بسهولة ، لكنّهم إذا انكسروا فتنوا بالقول سامعهم ، فإذا غنّوا اهتزّتْ لهم الأرواح ، فإذا ألِفوا صاروا القلب ، تسمعُ في أصواتهم دِفْءَ البَحر إذا كان ساكِنًا ، وغضبه إذا كان مُزبِدًا . يصعدون كلّ ليلة إلى السّماء فيقطفون لكلّ واحدٍ منّا نجمة ، ويُهدونها له . كانوا شَغَفنا بالمجهول ، وصورةَ ما نودّ أنْ نقول دون أنْ ندري كيف ، عبّروا عن حُزننا ، حتّى صارَ لحُزننا وجه ، وعن أملنا حتّى برعمتْ لأملنا وردة ، وكُنّا مع الموت نحيا ، حينَ يهتف الشّرع : «ولِفَرْطِ ما أسْرَفْتُ مِنْ وَجْدٍ لِفاتِنَتي . . فَكلُّ يَمامةٍ تَمْضِي اتّجاهَ الغربِ زاجِلَتي . . وكلُّ يَمامةٍ تأتي تَحُطّ على السّياجِ رَسُولُ مَنْ أهوى . . فَطِيْري باتّجاه الغربِ . . طِيْري باتّجاه الشّرقِ . . طِيْري باتّجاه البَحْرِ . . طِيْري باتّجاه الرّملِ والواحاتْ . . منّا سلامُ الوُدِّ ، مِنْ قبرٍ يموتُ المَوْتُ في أحشائه لكنّنا نَحْيا . . فَطِيْري أيْنما تبغينَ مُثقلةً بِشَوقِ نَوارِسٍ للصّارِيَةْ . . فَلَنا على طُولِ البلادِ أحبّةٌ . . أضناهُمُ البُعدُ . . التّسمّرُ عِندَ بابِ السِّجْنِ أيّامًا بِلا جَدْوَى . . وعادُوا يَنْسِجُونَ الحُزْنَ تاجًا للسِّنينِ الضّارِيَةْ» .

من أعجب الشّعراء الّذين مرّوا بنا الشّاعر (الشّلطامي) ،لم يكنْ له من ذنب سِوى أنّ الطّلبة الّذين ثاروا فيما سُمّي بقضيّة الطّلبة عام

١٩٧٦م كانوا يكتبون بعضَ أبياتِهِ على يافِطاتهم ، ويرفعونها في مُظاهراتهم الّتي يطوفون بها أرجاء الجامعة .

سِيْقَ الشّاعر الشّلطامي إلى الجلاّد (حسن إشكال) ، دعُوني أحدّثكم قليلاً عن حسن إشكال قبل أنْ أروي مأساة الشّاعر معه ، (حسن إشكال) عقيدٌ فيه شُقرة ، وسيم ، عيناه تبدوان هادئتَين تَدعوانك إلى أنْ تألَف الرّجل ، بل وتُحبّه!! ووجهه الأبيض مَرِحٌ إلى الحدّ الّذي تشعر أنّه سيهبكَ فَرَح الدُّنيا وسرورها ، لكنّ هذا الوَجه يُخفي خلفَه شيطانًا مَرِيْدًا ، لا يُمكن أنْ تُصدّق أنّ هذا الرّجل يُخبِئ خلفَ ملائكيّته الظّاهرة لكَ جَلادًا سادِيًا . كان الرّجل يستمتع بالعبث بأعضاء المساجين المُعلّقين كالشّياه المسلوخة من أعلى الزّنزانة ، كانتْ عيناه الوادِعتان تتحوّلان إلى جمرتَين من اللّهب مُثبّتَتَين في رأس جنّيٍ قاتل . كان إذا وقفَ بَدا مارِدًا جبّارًا ، يسحقُ تحت أقدامه أجسادَ المُعتقلَين ، ويتلذّذ بالقفز على بُطونهم ، ورُؤية الدّماء تسيل من زوايا أفواههم ، ولا يُمتّعه شيءٌ مثل استغاثاتهم به ، أو نَظَرات طَلَب الرّحمة الّتي تُظلّل عيونهم ، أو لَمعات الرُّعبِ في عيونهم!!

تلقّى حسن إشكال الشّلطامي في التّحقيق الأوّل بالاستهزاء بأشعاره وبالطّلاّب الّذين يرفعونها على لافتاتهم : «سنمنحكم خازوقًا يليق بكم معًا . . وسنرفعكم عليه بشكلٍ يليق بشاعرٍ كبيرٍ مثلك» ، كانوا قد ضبطوا مع الشّلطاميّ حقيبةً أحضروها برفقته إلى مكتب التّحقيق ، كان بها مُصحف وسجّادة صلاة وديوان شِعر وعُلَب سجائر . كانتْ سجّادة الصّلاة حمراء ، فرفعها حسن إشكال أمام المساجين الآخرين وأمام عدد من ضُبّاطه الصّغار وحَرسِه الشّخصيّ كما لو كان وقع على كَنز ، وألقى القبض على المجرم ومعه دليلُ إدانته ، قائلاً : «لم

أقلْ لكم إنّه شيوعيٌّ أحمر، حتّى سجّادة الصّلاة الّتي يحملها حمراء». وقهقه كالمجنون. كان خلفَ مكتبه أكثرُ من دزينة من (الكاوات) الّتي يستخدمها بالتّناوب، لكثرةِ ما يتقطّع منها على أجسادِ المساجين أو يدخل بعضُ حديدها في لحومهم، رفع الكاو عاليًا وانهال به على جسد الشّلطاميّ، ظلّ يضربه متعمّدًا أنْ يُسقطه على الأرض، حتّى سقط بالفعل؛ كانت تلك هي اللّحظة الأمتع بالنّسبة له، قفز في الهواء ربّما أعلى من متر، بطوله الفارع، ثمّ هبط ببسطاره العسكريّ، وبكامل ثقله على صدر الشّلطاميّ، سُمِعتْ أصواتَ عظام طقطقتْ، كان هذا آخر ما سُمع من الشّاعر، لم يتحمّل جسده أكثرَ من ذلك، غاب عن الوعي، وتحوّل بعدها إلى جثّة هامدة.

حينَ استيقظَ في ساعةٍ متأخّرة من اللّيل، كانتْ ثيابه كلّها مُبلّلة، يبدو أنّهم حاولوا إيقاظه برشق الماء في وجهه، لكنّ غيبوبته كانتْ أعمق من أنْ تُوقظها كلّ مياه مكتب التّحقيق. كانتْ أرض الزّنزانة الّتي قُذِف في جوفها تطفح بالماء كذلك. لكنّ ذلك كان البداية!!

في اليوم الثّاني، عذّبوا الشّاعر، ومزّقوا عنه ثيابه حتّى اصطبغ جسدهُ باللّون الأحمر، كان الدّم يُغطّي جانبَي وجهه، ويسيل من فتحتَي أنفه، ويتجمّع عند فمه، وتغرق فيه أسنانه. اقتادوه إلى الزّنزانة الّتي اعتُقِل فيها الطّلبة الّذين هتفوا بأشعاره، أراد حسن إشكال أنْ يتسلّى، أمر الطُّلاّب أنْ يهتفوا بتلك الأشعار، أجبرهم على ذلك، فهتفوا بأصواتٍ كسيرةٍ خفيضة، فانهالتْ عليهم السّياط، صرخ بهم: «انظروا إلى وجهه لقد سبّبتُم له كلّ هذه الدّماء الزّكيّة... ارفعوا أصواتكم أيّها القِحاب... إنّه كبيركم الّذي علّمكم السّحر»

وصرخ بشتائم كثيرة ، رفعوا أصواتهم ، وبدؤوا يسقطون واحدًا واحدًا تحت آثار السياط القاتلة . لم يبقَ محتفظًا بوعيه سوى الشاعر ، وإنْ بدأت الغرفة تميد به لكثرة ما نزف من أنفه من دماء ، كانتْ يداه مُقيّدتين خلف ظهره ، لم يتمكّن حتّى من مسح تلك الدّماء الّتي غطّتْ كذلك على عينيه ، وترقرقَ بعضُها في تجويفِ عينَيه السُّفليّين!!

بقي الشّلطامي يُساق للتّعذيب شهورًا . لم يكنْ له من تُهمة إلاّ الشّعر ، كان ذلك يبدو جريمةً في زمن الثّورة الثّقافيّة اللّعينة . في السّجن كان الألم الّذي سبّبه له التّعذيب هو السّبب ذاته الّذي حفظ لنا أشعاره الّتي ظلّتْ تُبلسمُ جراحَنا ، وتُشعل فتيل الصّبر في قلوبنا أعوامًا من بعد ، حينَ صدح ذات ليلةٍ من قلبٍ جريح : «إنْ يكنْ يُعتِمُ في القَبْوِ الظّلامْ . . وتموجُ الرّيحُ في الأفقِ وينهار المَدَى . . تحتَ أقدامكَ في اللّيلِ . . وتبدو شُرُفات اللّيلِ كالقارِ . . ويشتدُّ على قلبكَ وَقْعُ العاصِفَةْ . . وانطفَتْ أضواءُ هذا الكونِ في العَيْنِ . . وذابتْ في هَباءِ الأرصِفَةْ . . وبدا الكونُ كأنْ لم يَعْرِفَكْ . . وغدتْ تُنكرُكَ الأعيُنُ من رَهْبَتِها . . إنْ بدا حِمْلُكَ تَنْهَدُّ الجِبالُ . . من رُؤى وَطْأته الكُبْرى . . وفاضتْ في سُكُونِ اللّيلِ عيناكَ بأشياءِ الحَزَنْ . . ثُمّ لم يَسمعكَ الكونُ الّذي نامَ ولم يُسند رأسَكْ . . وانْطَفَى البارقُ في العَتْمَةِ مُرتاعًا . . ورَنّتْ في المَدَى المُوحِشِ آهاتُ الشّجَنْ . . فابْتَسِمْ للحُزْنِ في اللّيلِ فقدْ صِرتَ وطَنْ» . وحقًّا هذا ما حدث ، ابتسمنا للحزنِ في ليالينا الطّويلة من بعد الشّلطامي ، وصِرْنا أوطانًا مضيئةً في دياجي الظّلم والظّلمات .

لقد كان خلفَ كلّ جدار شاعر ، وفوقَ كلّ بَرْش قلبٌ يهفو إلى الحرّيّة ، كيفَ يُمكن أنْ نحتملَ السّجن دون قصيدة ، كيفَ كان يُمكن أنْ نفهم ما نحن فيه دون كلمة ، كُنّا بالقصيدة الشّامخة نشمخ ،

بالعبارة الصّابرة نصبر ، بالكلمة الطّيبة تطيبُ نفوسُنا ، بالإيقاع الشّجيّ نطرب ، وبموسيقى تكسر رتابة الزّمن المملّ في السّجن نتجدّد ، وبمخاطبة الحبيبة كُنّا نحافظ على قلوبنا من أنْ تصدأ . هل في السّجن شعرٌ نُهديه إلى الحبيبة؟ بلى . كان كلّ ما نكتبه من أجل عينيها ، وكلّ ما نبوح به في ليالينا العقيمة ، من أجل أنْ تبرعم كلماتنا على شفَتَيْها . شعراء معروفون مرّوا من هنا ، شعراء مجهولون كتبوا على جدران الزّنازين أحلامهم ، شُعراء نعرفهم ملؤوا بالورد أفئدتنا ، وشعراء لا نعرفهم ، وصلتْنا كلماتهم مع نسمات الفَجر الّذي نتوق إليه ، وحلّقتْ في فضاء زنازيننا الضّيّقة حتّى اخترقتْ تلك الأسقف المهترئة صاعِدةً بنا نحو السّماء . الشّعراء مِلحُ الأرض . كلماتهم وجعٌ في القلب كي يبرأ من الوجع : «قولُوا لها للصّابِرَةْ . . عَبْرَ السّنينَ الكافرَةْ . . بأنّني أُحبُّها . . لأنّها تعلّمَتْ كيفَ تكونُ ثائرَةْ . . قولُوا لِعَيْنَيْها الحَزِيْنَةْ . . لِفَجْرِها المَصْلُوبِ في المَدِيْنَةْ . . بأنّ حُبّنا هو الأملْ . . هُوَ الشّراعُ والمِجدافُ والسّفِيْنَة . . قُولُوا لها . . زنزانةُ العذابْ . . ستَنْهزِمْ وتُفْتَحُ الأبوابْ . . لكلِّ عُشّاقِ الحَياةْ . . لكلِّ مَنْ تَعَذّبُوا . . لِكُلِّ مَنْ تَشَرّدُوا . . وكُلِّ مَنْ ضاعُوا بِصَحْراءِ الغِيابْ» .

(٢٣)
لماذا تأخرْتَ يا حبيبي؟!

مرّتِ الأيّام والشّهور والسّنوات . لم نعدْ نميّز حُلوها من مرّها ، كلّ يوم كان يحمل فيه النّقيضَين ، توافدَ إلى السّجن المِئات . خرج العشْرات . تبدّلتْ وجوهٌ كثيرة ؛ وجوه السّجانين والسّجناء ، كل الوجوه تبدّلتْ إلاّ وجوه الجُدران الكئيبة . وُلِدَ أبناء لأولئك الّذين رتعوا في عتمة الزّنازين ، مات أبناءٌ آخرون . دخل المدرسةَ بعضُهم ، وتخرّجَ بعضُهم الآخَر . تركتْ زوجاتٌ أزواجهنّ ، طُلّقتْ أخريات . وصبرت الكثيرات رَغم سواد المحنة ، والمستقبل الغامض ، والآلام الّتي لا تنتهي . كَبُر من كان يافعًا ، شبّ مَنْ كان غلامًا ، وابيضّت الشّعرات في ذوائب مَنْ كان شابًا . وأكل السّجن الأعمار ، ونهبت السّياط القُوى . وركضتْ وحوشٌ في الممرّات . وزعقتْ رخمٌ سود . وعلتْ صيحاتُ رُعبٍ في الزّنازين ، وانخمدتْ أنفاسٌ لم يستطعْ أصحابُها أنْ يُخرِجوها من صدورهم ، وانطفأتْ شعلة الحياة في عيونِ آخرين . ومتنا ألفَ مرةً في ليالي الظّلم ، وانبعثنا من جديدٍ في صباحات الحياة ، وكان الموتُ حليفَ كلّ طير مُهاجِر . كلّما نهشَ الموتُ جسدًا ، حفرْنا على جدار الزّنزانة خطًا . كُنّا نعدّ الرّاحلين وأسماءَهم كما لو كانوا سبقونا إلى النّعيم ، نأسى عليهم ثُمّ نفرح ، فَمَنْ يخرج من هنا ولو خرج ميتًا فهو أسعدُ حالاً منّا .

منذ عشرين شهرًا لم يسمحوا لأحدٍ بزيارتنا . حدثَ هذا في أحد

مرّات المَنع ؛ جاءتْ أمُّ سجين ، قاطعةً ما يزيدُ عن ألف كيلومتر من أجل أنْ تراه . كان طيفُ ابنِها زادَها في الطَّريق ، ودافعَها إلى تحمّل آلام ومشاقَّ لا يقوى عليها مَنْ كان فتيًا ، فكيفَ بمن سرقَ منها الهرمُ كلَّ عضوٍ سليمٍ في جسدها؟! كانتْ تحلم به في كلّ لحظة ، ها هي تسمع صوتَه حينَ خرجَ من رَحِمها بعدَ سنين من الانتظار المُمِضّ ، لقد كان صوتُه موسيقاها الّتي تستعيدُها من أجل أنْ تبتسم . ها هو يحبو ، لقد كان يضع في فمه كلّ شيء يجده في طريقه ، ويبكي فتُسرع لكي تكفكفَ دموعه ، ها هو يقفُ مُتأرجحًا على قدمَيه ، إنّه يمشي بضع خطوات ويسقط ، لكنّه يقفُ من جديد ويمشي ، وهي تكاد تبكي من الفرح لأنّه يفعلها ، ها هو يلبس أوّل حذاء يختاره بنفسه ، ويمشي به مختالاً بين رفاقه ، ها هو يعودُ من المدرسة ضاحكًا قائلاً بصوت عالٍ : إنّني الأوّل على صفّي يا أمّي ، تحضنه في ذلك اليوم ، وتقبّله طويلاً ، ثمّ تُشيحُ بوجهها بعيدًا عنه حتّى لا يرى دموع الفرح المنهمرة من عينَيها ، فالأطفال ما زالوا أطفالاً وعليهم ألاّ يرونا في حالة ضعف ، يجب أنْ نبدو أقوياء أمامهم دائمًا . ها هو شارباه يَطِرّان فوق شفتَيه ، لقد أصبح شابًا قويًا . صار له أصدقاء كثيرًا ما يزورونه ويأكلون معه ، ويخرجون معه . وها هو يحصل على المعدّل الّذي يُدخِله كلّيّة الطّبّ ، أقامتْ له أمّه ليلةَ فرح كأنّه عريس ، وها هو يتخرّج في الجامعة ، ويرغب في أنْ يدرس الاختصاص في لندن ، لقد أراد أنْ يعرفَ أسرار القلوب فأراد أنْ يُصبح جرّاحًا ، ها هي تبكي من جديد وهي تُودّعه في المطار ، انتبهتْ لنفسِها ، إنّها تبكي دائمًا ، إنّها تبكي في كلّ مناسبة ، هل تتشابه الدّموع إلى هذا الحَدّ ، هل يُبكيها ابنُها لأنّه جميلٌ ووسيمٌ وتعشقه كلّ بنات الحيّ إلى هذا الحدّ ، لماذا تبكي على ابنٍ رأتْ فيه

كلّ ما تهوى، وحقّق لها كلّ ما أرادتْ منه؟ هل بكتْ كلّ هذه الدّموع من أجل ما سيحدثُ معه في المستقبل، المستقبل الّذي يتزيّا بلباس الرّهبان فيما هو يُخفي المدية من تحت ثيابه الفضفاضة. ها هي تستعيد صوتَه على الجانب الآخر من الهاتف، وهو يكلّمها أنّه أنهى تخصّصه في جراحة القلب من لندن، وأنّه سيعودُ بعدَ عصرِ غدٍ، وعلى ليبيا أنْ تنتظر مُبدعًا جديدًا وعالما فذًا. كانتْ مكالمته تلك هي آخر ما تسمعه منه منذ ما يقرب من سنتَين، إنّها لم تدرِ لليوم ماذا حدثَ معه؟ كيفَ لصوتِه السّاحر أنْ ينقطع فجأة، كيفَ لصورته أنْ تغيبَ إلى أجلٍ غير معلوم؟ كيفَ له أنْ يحرمها من أنْ تحتضنه، وتطيرَ بابنها الّذي فتح باب القلب على مصراعَيه لسعادةٍ غامرة؟ أينَ ذهبَ ابني؟ لماذا لم يكلّمْني بعدَها؟ لقد انتظرتُه في المطار طويلاً، كنتُ أرى النّاس يتزاحمون وهم يتدافعَون أفواجًا للخروج، أبحثُ عن وجه ابني بينهم، لكنّني لا أراه، هل يكون الزّحام قد أخذه في غفلةٍ منّي فغابَ عن ناظرَي...؟ لقد قالوا لي أخيرًا إنّه مسجون؟ ولكنْ لماذا يُسجَن جرّاحٌ قادمٌ من لندن من أجل أنْ يخدمَ وطنه؟! ها هي تحاول أنْ تستبطنَ شيئًا مخفيًا في نبرة صوته في مكالمته الأخيرة، إنّها تبدو كما لو كانتْ قادمةً من بئرٍ عميقة. قطع جدار السّجن العالي عليها خيالاتها وأحلامَها. يصل إليها الدّور، يسألها الحارس الفَظّ على الباب عن اسم ابنِها، فتقوله له. فيردّ بكلّ بساطة: «ممنوعٌ عنه الزيارة». تحاول أنْ تعرفَ لماذا، لكن سجّانةٌ أخرى تنتظر الإشارة من سيّدها، تأخذ العجوز بعيدًا وتُلقيها على الطّرف الآخر من الشّارع الّذي يمرّ من أمام السّجن كأنّها كومةٌ من الثّياب المهترئة. تتكوّر العَجوز على نفسها، تنظرُ بعينَين زائغتَين حولَها، لا تكاد تفهم شيئًا. أمن المعقول أنْ يتخلّى عنها ابنُها؟ ألم

برِّها من شُبَّاك الزِّنزانة كيفَ فعلوا بأمِّه فيأتي لينقذها؟ لماذا يتأخرَ عليَّ بهذه الطَّريقة؟ ما الَّذي فعلتْه لندن به؟ هل بلادُ الكُفّار هي السَّبب؟ إنَّها محتارةٌ بالفعل . جرّتْ رِجلَيها ، وعادتْ منكسرةً . شيءٌ ما ثقيلٌ جِداً فوقَ كاهلَيها يجعل خُطُواتِها بطيئة . إنّها لا تكاد تمشي . أكان فُقدان الابن مُؤلِمًا بهذه الصّورة؟! تجرّ رجلَيها جرًا . تسقط أكثر من مرّة ، تقوم ، تنظر حولَها ، تبحثُ عن أحدٍ ليُساعدها ، لكنَّ الشّارع كان خاليًا من كلّ ذي قلبٍ وإنْ كان مُزدحِمًا . ربّما ظنّوها متسولة ، ربّما ظنّوها مجنونة؟ أليسَ للمجانين أحدٌ يسأل عنهم؟! واصلتْ طريقَها ، رفعتْ يدَها لكي يُشفق عليها أحدهم فيوصِلها إلى مجمّع الباصات الذّاهب إلى مُحافَظات الجنوب ، يحملها ابن حلالٍ . تتحامل حتّى تصعدَ بمعاونته الدّرجة إلى الباص . وتُلقِي بكلّ أعباء السّنين الغابرات على أقربِ كُرسيّ ، تُلقِي بكلّ أحزانها وأوجاعها ، وهي تسمع صوتَ فرحة ابنها حينَ جاءها نبأ تفوّقه في الثّانويّة العامّة . بعثَ صوتُه المُستعاد فيها شيئًا من القُوّة ، لتشدّ جسدها ، وتجلس بشكلٍ أكثرَ راحةً على الكرسيّ ، وتُسنِد رأسَها على زجاج النّافذة . بعد أربع ساعاتٍ وقف الباص في المحطّة الأولى ، كانتْ تبدو نائمة . أرادوا أنْ يسألوها عن وجهتها القادمة ، لكنّهم فضّلوا ألاّ يُوقِظوها . حمل الباص حمولته الجديدة ، وهي ما زالتْ مكانها . اقترب منها السّائق ، هتف بها بلطف ، لكنّها لم تستفِق . كانتْ تبدو كما لو أنّ ألفَ سنةٍ من الهموم قد شكّلتْ تجاعيد وجهها في تلك اللّحظة ، هزّتها امرأةٌ من كتفَيْها ، لم تستجبْ لأحدٍ ، كانتْ مشغولةً في عالَمٍ لا ينتمي إلى هذا العالَم . كان آخر شيءٍ سمعتْه هو صوتُ ابنها مُتحدّثًا إليها من لندن واعِدًا إيّاها أنْ يراها عصر غدٍ ، غدٍ الّذي مرّ عليه سبعمئة غدٍ وهي تنتظره في

كلّ عصرٍ دون أنْ يَهلّ عليها بطلّته البهيّة ، الغد الّذي ظلّتْ منذ أوّل غدٍ تسأله السّؤال ذاته دون أنْ تجد إجابةً ولو مرّةً واحدة : لماذا تأخّرتَ يا حبيبي؟

أمّ صالح الدّلاّل ، سجينٌ آخر ضمن آلاف السّجناء الّذين تعجّ بهم الجنَبات هنا ، وأمّ مكلومةٌ أخرى ضمن آلاف الأمّهات اللّواتي انتُزِعتْ منهن أفئدتهنّ . لم تُصدّقْ أمّ صالح أنّ ابنَها سيغيبُ طويلاً . قالتْ : «إنّه لم يكذبْ مرّة واحدةً في حياته ، لقد قال لها سأغيب خمس دقائق وأعود» . كانتْ تجلسُ بانتظاره في غرفة الاستِقبال ، تُهيّئ له الشّاي الّذي يُحبّه ، وبعض أقراص الخبز الّذي يشتهيه ، وتنتظر أمام الباب المُوصَد ، متحفّزة أنْ يُفتَح في أيّ لحظة ، فيُطلّ منه وجه ابنِها الحبيب ، وجه صالح ، لكنّ الباب يظلّ موصَدًا . تمرّ السّاعات ، تأتيها ابنتُها تقول لها : «ارحمي نفسكِ يا أمّي ، قومي لترتاحي قليلاً» . ينتصف اللّيل ، ولكنّ قلبَها لا يُطاوعها أنْ تقوم من مقامها ، تنعس ، يدبّ نَمْل النّوم فوقَ يدَيها ، ويسكن في عينَيها ، تغفو قليلاً ، تحلم أنّه وصل ، ها هو يلبسُ ثيابًا أنيقةً ، قد رجّل شَعره ، وخطا خطواته الأخيرة باتّجاه بيته ، وها هو يطرقُ الباب . تسمع في الحلم صوتَ الطّرقات ، فتفتح عينَيها فجأةً ، تستيقظ لتجد نفسها تحلم ، وتجد اللّيل قد ذهب ، وطلعَ الفجر والباب ما يزال مُوصَدًا . في اليوم التّالي فعلت الشّيء ذاته ، بقيتْ أسبوعًا على هذه الحال ، تنتظر أنْ يدفع ابنُها الباب وتحضنه ، لكنّ الباب لم يُفتَح وابنُها لم يدفعْه ، قالتْ : «لنجرّب أسبوعًا آخر» . ثُمّ قالتْ : «لنجرّبْ شهرًا آخر . لا بُدّ أنْ يأتي» . . . ثُمّ قالتْ : «لِنُجرّبْ سنةً أخرى . . . أنا أعرفه لم يكذب مرّة في حياته ، ابني وأنا أدرى النّاسِ به . . .» . بقيتْ ثماني سنوات

تنتظره على الهيئة ذاته، لم ترحمْ نفسَها ليلةً واحدةً. لكنَّ الله أراد أنْ يرحمها؛ في تلك اللّيلة، حلمتْ به يطرق الباب، يحتضنها، يسأل عن أخبارها، يقبّل كفَّيْها، ويطلب منها أنْ تُسامحه. عاتبتْه قليلاً لتأخّره كلّ هذه السّنوات، لكنّها سرعان ما مسحتْ بيدَيها على رأسه وسامحتْه على الفَور. مرّت لحظات الحلم سريعةً. صعدتْ إلى السّماء بعد ذلك، صارتْ ترى ابنها من هناك. انقطع سَهَرها أمام الباب المُوصَد. قال لها الله: «الرّاحمون في ظِلّ عرشي». قالتْ له: «وابني؟!». قال لها: «لنْ يضيره شيء.. كتبتُ له الفوز».

الحاجّ صالح، تركَ زوجَته شابّةً، لتجد نفسَها - مثل الكثيرات - تقوم بأعباء البيتِ كلّه، كانتْ هي الأمّ والأبَ والأخ والصّديق لكلّ الأبناء، هي الّتي تتولّى تربية الأطفال، وتوجيههم، داخل البيت وخارجه، وهي تتابع تعليمهم، وتتحمّل عبْء تدريسهم، وتحاول أنْ تسدّ الفراغ الّذي أحدثه غياب الزّوج، وهي الّتي تشتري الطّعام وتطهوه، وهي الّتي تعمل وتكدّ من أجل أنْ تُحصّل المال لإنفاقه على العيال. كُنّ جبّاراتٍ، تحمّلْنَ ما لم تتحمّلْه الجبال، وصبرْنَ صبر المؤمنات، وثبتْنَ ثبات الرّاسِيات. وجهدْنَ ألا يرى أبناؤهنّ ضعفَهنّ ولا قِلّة حيلتهنّ، أمّا البُكاء فكُنّ يؤجّلْنه حينَ يخلون بأنفسهنّ بعيدًا عن عيون الأبناء. كانتْ كلّ ذكرى تُبكيهنّ، كلّ عام يكبرُ فيه أبناؤهنّ ويرين هذا التّغيّر يُبكيهنّ، كلّ سؤال يُبكيهنّ. كانَ أكثر سؤال يُبكيهنّ، حينَ تسأل ابنتُها الّتي لم يكنْ عمرها يتجاوز ستّة أعوام: «أينَ أبي؟». أو يهتف الصّبيّ: «لماذا ليس لنا أب؟».

أمّي تمكّنتْ في أوائل عام ١٩٧٥ من زيارتي. كات الزّيارة عبارة عن رحلة إلى الجحيم، كان كلّ شيءٍ ممنوعًا. أنْ تُسمَح الزّيارة فمعنى

ذلك أنّ رحمات السّماء كلّها قد تنزّلتْ على الأرض، أو على قلوب هؤلاء الجلّادين.

أنْ ترى وجه مَنْ تحبّ بعد كلّ هذا الغياب، هو أمرٌ يكنُسُ عامًا بأيّامه كلّها وساعاته من دفتر أحزانك، ويملأ مكانها أملاً وفرحًا، أنْ تُطفئ الشّوق المستعر في فؤادك بزيارة حبيب. وأنْ تُعيد لكَ تلك الزّيارة إنسانيّتك، وشعورك بأنّكَ ما زلتَ حيًا في مكان ما في قلب أحدهم. لكنْ لم تكن الزّيارات دائمًا على هذا النّحو. كانتْ أحيانًا ذابحة. لأنّ أخبارَها تزيدُ من عدد الطّعنات في القلب، كثيرون غرقوا في الحزن بعد زيارةٍ أو أخرى. أنْ تعرف أنّ أباك قد مات منذ ثلاث سنوات دون أنْ تكون لك الفرصة بالدّعاء له يومَ فاضتْ روحه، أوْ أنْ تقرأ عليها بعضًا من آيات الذّكر الحكيم. أنْ تعرفَ أنّ زوجتكَ استصدرتْ بعدَ أنْ حُكِمَ عليكَ بالمؤبّد حُكمًا بالطّلاق، وأنّها تزوّجتْ وأنّ ابنَها من زوجها الثّاني قد صار عمره ثلاث سنوات. أنْ يُنعَى إليكَ كثيرون، وأنْ تدركَ أنّك هنا منفيٌّ في مقبرة، وأنّ العالَم الخارجيّ يسير باتّجاهاتٍ لا تعرفُ أينَ تنتهي. أنتَ هنا معزولٌ عن كلّ شيءٍ، وفاقدٌ أنْ يكون لكَ خيارٌ في أيّ شيءٍ!!

كان معنا في السّجن مجرمون ولصوصٌ وقَتَلة وزُناة وهاربون من الجيش، وهؤلاء كانوا يتمتّعون بزياراتٍ كثيرة، وميزات عديدة، وكان يدخل لهم من الطّعام من ذويهم ما اشتَهَوا، وكذلك من اللّباس ما شاؤوا، أمّا نحن أصحابَ القضايا السّياسيّة، فكُنّا محرومين من كلّ شيءٍ، كانوا يعدّوننا أخطر منهم، وأنّ إذلالَنا ممّا يسعَون إليه.

غير أنّه مع كلّ هذا المنع، كانتْ هناك فترات رخاء، ترتخي فيها القبضة الأمنيّةَ الّتي تشدّ على أعناقِنا، ويكون هذا بسببِ من الضّابط

المعزول عن عنبرنا في غفلة من أمر السّجن ، ولا أزال أذكر يومَ أنْ بعثَ لنا أهالينا كمّيات كبيرةً من الخُضار والفواكه ، ودخلت السّيّارة باحة السّجن ، وكُنّا - على عادتنا - نُخصّص أفرادًا للخدمة ، يقومون بتوزيع الطّعام ، فهُرِعوا أوّل وصول السّيّارة ، وراحوا يفرزون ما فيها من طعام ، ويحملون في كلّ سلّةٍ مكتوبٍ عليها إمّا المهجع أو اسم السّجين ، فيتفرّقون بين المهاجع يوزّعون الأشياء على مُستحقّيها ، في تلك اللّحظات نكون أسعدَ ما نكون ، يجلسُ الواحدُ منّا متطلّعًا من باب زنزانته إلى السّاحة ، مُشرَئِبًّا بعنقه ، مترقّبًا أنْ تسير السّلّة المُتهادية في يد أحد السّجناء إليه ؛ فتكونَ من نصيبه .

(٢٤)
ليسَ لي غيرُك

زارتْني أمّي هذا الصّباح، كانتْ مُجهَدة، شاحبة الوَجه. سألتُها عن أخبارِها، فطفرتْ من عينِها دمعة. أرادتْ أنْ تقول، تهيّأتْ كلمةٌ للخروج من فمها، لكنّ الدّمع منعها. أمّي وحيدة. ماتَ أبي وأنا ابنُ يوم أو أيّام، وأنا ولدها الوحيد الّذي كانتْ تُؤمّل فيه أنْ يكونَ لها ومعَها. كانتْ لها أختٌ تعيشُ في تونس، وكذلك أخٌ هناك. أمّا في ليبيا فلم يكنْ لها سوى ابن من زوجها الأوّل عاش طفولته وصباه مع أبيه، و(سالم) الأخ غير الشّقيق الّذي دأب على زيارتي طَوال سِنيّ المحنة، و(سعيد) ابن خالها الّذي أنفقَ عليّ وأنا خلف القُضبان إنفاقَ مَنْ لا يخشى الفقر. كانتْ أمّي مثل غُصنٍ في أرضٍ وشجرته في أرضٍ أخرى. بدا أنّ مرضَ القلب الّذي أصابها من أيّام العمل المُضنية وأنا طفلٌ تسعى لكي تربّيني قد أثّر فيها كثيرًا، كانتْ قد هَرمتْ جدًّا، وإنْ حاولتْ أنْ تُخفِيَ عنّي ذلك. أنا يا أمّ لكِ غيرَ أنّ الطّريق الّذي آمنتُ به ووهبتُ له حياتي هو الّذي قادَني إلى هنا، أكان من المعقول أنْ نستلذّ السّجن أو أنْ نقبَله يُضيّق علينا عيشَنا، ويسرق منّا أحبابَنا، كلاّ يا أمّي، ولكنّ ما نؤمن به من أجل الله هو الّذي جعلهم يُلقون بنا إلى هنا، أفلم يكنْ علينا أنْ نرضى ما رَضِيه الله لنا؟!

قالتْ يومَها عيناها شيئًا كثيرًا، كانتْ تريدُ أنْ تقول لي إنّني لم أعدْ أقدر على أنْ أعيشَ أكثر، ها أنتَ ترى جسدي وقد ضَعُف،

وأركاني وقد انهدَتْ . يا بُنيَّ أما من مخرج ممّا أنتَ فيه؟ ألا يُمكن أنْ تجعلني أموتُ وأنا أكحّلُ عينَيَّ برؤياك . قالتْ لي في ذلك اليوم : «يا بُنيّ ، قالوا لي لو أنّكَ تخلّيْتَ عن أفكار الحزب فسيُطلقون سراحَك» . «كيفَ أتخلّى يا أمّي عنها؟ أكذب؟ أقول إنّنا مُخطئون؟ وهل ترينَنا يا أمّ كذلك؟» . «يا بُنيّ أنا تعبت؟» . «والله يا أمّي لو بيدي لحملتُكِ في قلبي ، ولدَفَعْتُ عنكِ كلّ أسى» . «يا بُنيّ ، أتعرفُ . . قبل ثلاثة أيّام نقلوني إلى المستشفى ، قالوا إنّ داءَ القلب قد استفحل ، وإنّه لا بُدّ من تدخّلٍ جراحيّ» . بكيتُ يومَها . توقّفت الكلماتُ في فمي ، شعرتُ بالعَجز ، لعنتُ الطّغاة الّذين يفعلون كلّ هذا ، تمنّيتُ لو أنّ بيدي أنْ أقف إلى جانب أمّي في كلّ ثانية . قلتُ لها : «إنّ الله لن يُضيّعنا» . «إنّني أريدُ أنْ أفرحَ بكَ قبل أنْ أموت . . . أريدُ أنْ أرى عروسكَ إلى جانبك . . . أريد أنْ أرى أولادكَ يملؤون البيتَ ضجيجًا . . . أريد أنْ أرى ذلك بعيني . . . ليسَ لي غيرُكَ في الدّنيا يا حبيبي» . بكيتُ من جديد ، رجوتُها أنْ تتوقّف ، كان واضِحًا جِدًّا أنّها جاءتْ لتودّعني ، كانتْ عيناها تقولان ذلك ، نبرةُ صوتِها تقول ذلك ، وأنا كنتُ أتكسّرُ إلى شظايا بعد كلّ كلمة . عادتْ مرّةً أخرى إلى الحزب ، كانوا قد أفهموها أنّه لو اعتذر عن الحزب وكفر بأفكاره وأعلن ولاءَه للثّورة ولقائد الثّورة فسيخرج في اللّحظة نفسها ، كنتُ أريدُ أنْ أقول لها الطّغاة يكذبون كما يتكلّمون ، كنتُ أريدُ أنْ أقولَ لها إنّ بعضَنا صدّق ذلك ، وفعل ما أرادوا منه ، ثُمّ نعتوه بالخائن ، وقالوا له إذا كنتَ تخون مبدأكَ وحِزبَك ، فأنتَ أسهلُ أنْ تخوننا ، ولا يُؤمن جانبك من أنْ تخون الثّورة ، فأعدموه ، تخيّلي يا أمّي ، أعدموه بعد أنْ خضع لهم ، كانوا فقط يريدون منه أنْ يموت متحسّرًا ، أنْ يكسروا شوكته ، أنْ يفقؤوا

عينَيه ، أنْ يجعلوه صغيرًا في عينِ رِفاقه . أنْ يبدو أمامهم خائنًا . لكنّني صمتُ عن ذلك خوفًا على قلبها .

قالتْ لي : «لم يعدْ قلبي الضّعيف يحتمل رؤيتك خلف القُضبان أكثر . أنا أطلبُ منك أنْ ترحمني» . «الله حسيبُنا يا أمي ، وهو الّذي يرحمنا» . أخذتْ نفسًا عميقًا لتبدأ نشيدًا هو أقربُ إلى النّشيج :

يا زهْوَ بالِي . . يا رِضـيْـوةْ عَيْـنِي . . .

مـتَـبَّعْ طريقِ الحِـزِبْ . . . ومْـخَلّينِي

خنقَتْها العبرة ، أرادتْ أنْ تُكمل فلم تستطعْ . «هل أصبحتَ شاعرةً يا أمّي؟» . «ما أنتَ فيه يا بُنيّ ليسَ سهلاً . لو تدرِي ما فعلَ بي غيابُك؟» . لماذا تُصرّين يا أمّي أنْ تثقبي فؤادي؟ سألتْني : «هل ستمكثُ طويلاً في السّجن؟ يقولون إنّ هناك إفراجات ستكون في عيد الأضحى القادم» . «ربّما يا أمّي ، الأمل بالله كبير ، والفَرج من عنده» . كانتْ قد جاءتْ لي بمطرّزة ، قد طرّزَتْها في البيتِ من أجلي ، لألبسها في الأيّام الباردة . وأتتْ بكثيرٍ من الطّعام . «أنا بخيرٍ هنا يا أمّي . دعواتُكِ تُظلّلني ، وتملأ قلبي بالرّضا» .

عادتْ أمّي إلى البيت . في الطّريق أحسّتْ أنّ قلبَها لم يعدْ ملكًا لها ، لقد تركتْه مع ابنِها كي يؤنسه في الوَحشة . تفاقَم مرضُ القلب معها . مكثتْ شهرًا تُعاني . أُخِذَتْ إلى المستشفى في طرابلس ، دخل عليها عيدُ الأضحى . سَرَتْ شائعاتٌ تقول إنّ العقيد أفرج عن السّجناء السّياسيّين ، وأنّني من ضِمنهم ، لم تُصدّق من شدّة الفرح ، تحامَلتْ على نفسِها وعلى قُواها الخائرة ، تعالتْ على قلبِها الملتاع ، فأرسلت من اشترى لها الحلويات ووزعتها على نزيلات قسمها بالمستشفى حتّى قبل أنْ تراني . أفرجَ عنّا النّظام بالفعل في عطلة

هرعتُ إليها ، كانتْ نائمة من شدّة الألم والتّعب . دبّ فيّ العيد . الحُزن دُفعةً واحدة ، اقتربتُ أكثرَ من وجهها الملائكيِّ ، ها هي عيناها المغمَضتان تنطقان بالرّضا رغم الوجع ، وها هما كَفاها اللّذان خطّتْ عليهما السّنون سطورَ مُعاناتها ينسدلان على جانبَيها في طمأنينة . كانتْ شاحبة ، لكنّ نورًا ما يُشعّ في جبينها ، أكنتُ أراه وحدي أم يراه الآخرون معي؟! اقتربتُ أكثر ، خفق قلبي بشدّة ، أأوقظها؟! أمْ أتركها تأخذ قسطها من الرّاحة فإنّ تعبَها شديد ، وألمها طويل . ولكنْ كيفَ وسوط الطّاغية في ظهري يستعجلني؟! كيف وأنا لا أملك إلاّ سويعات منحَها لنا هذا الدّيكتاتور قبل أنْ يرمينا مرّة أخرى في قعر الزّنازين؟! تشجّعتُ أكثر . مسحتُ بيدي على جبينها ، فسرى فِيّ حنانها فأيقظ فِيّ سماءات الحنين ، ارتعشتُ . أحسّتْ هِيَ أيضًا بيد حبيب تسري فوقَ جبهتها ، فانبعثَ الدّمُ في قلبِها ، وسَرى في أنحاء جسدها ، ففتحتْ عينَيها ، فلمّا رأتني فزّتْ . وهتفتْ باسمي ، فانكببتُ عليها أحتضنها ، فضمّتْني إليها بكلّ ما في الكون من شوقٍ وفرح ، وتفجّرتْ في عيوننا المدامع ، فرُحنا نبكي معًا . وراحَ صوتُها يعلو بالبكاء ، وهي تهتف : «ابني . . حبيبي . .» وظلّتْ محتضنةً لي لا تحوّل ذراعَيها الحنونَين عنّي إلاّ لكي تتمعنَ في وجهي قليلاً ثُمّ تقبّلني ، وتعود من جديدٍ لاحتضاني . كان فرحها هستيريا لا يوصف . لم أخبرْها بأنّنا سنعودُ بعدَ يومَين إلى منافِينا . توسّلَتْ إليّ بأغلظ الأيمان أن أحلق اللحية . وأصرّتْ على أنْ أزورها في المساء من اليوم نفسه . فعلتُ . إصرارها على الزيارة المسائية كان مردّه إحساسها الذي لم يَخِب بقرب عودتي إلى السجن . أخبرتُها بحقيقة أنّنا عائدون للمنفى . كانتْ ربّما تعرف أو لا تعرف ، لم أكنْ متيقّنًا من ذلك ، لكنّ قلبَها لم يحتمل أنْ

تفقدني من جديد، فأصيبت بنوبة قلبية حادة. كان حزنها ذابحًا هذه المرّة. قالوا لي: «هنا لن نفعل أكثر ممّا فعلنا، يجب نقلها إلى مستشفى في لندن». طلبتُ منها مرارًا وتكرارًا مُسامحتي عما سبّبته لها من متاعب: «لم يكنْ بيدي يا أمّي. إنّني أفعل ذلك من أجل أنْ ننجو، ننجو مَعًا، أنا وأنت، أفرأيت إنْ كُنّا مع الله أفلا يكون الله معنا، أفرأيت لو سلكْنا الطَّريق الّتي نرى أنّها تُوصلُ إليه أفنكون مُخطئين؟ فلماذا نُحاسَب على ما نعتقد؟ ولماذا نُرمى في السّجون جرّاء ما نؤمن؟ والله يا أمّي يُؤذيني أنْ تتعذّبي كلّ هذا العذاب، ولكنْ ألم تعلّميني أنت أنْ أدافع عمّا أعتقده ولو كان ثمن ذلك حرّيّتي؟ ألمْ تعلّميني الشّهامة والكرامة والإباء والعزّة والأنفة؟! من أجل كلّ هذه القيم، من أجل أنّنا نعيشها أخذوني بعيدًا عنك، لكنّ الطَّريق وإنْ طالتْ فستُوصل السّائر إلى مُبتغاه، والدّروب وإنْ كانتْ مليئةً بالأفاعي والأشواك والحُفَر فإنّها لا تثني السّاعي عن غايته. فهل علّمْتني يا أمّي أنْ أنكص، أو أتراجع أو أتخاذل، أو أخرج من الطَّريق؟ كلاّ. فسامحيني يا أمّي سامحيني. إنّكِ وحيدتي أيضًا في هذا العالَم، إنّني لا أتخيّل أنّني يُمكن أنْ أفقدك، أنْ أخرج من السّجن ولا أراكِ... سا محيني يا أغلى عليّ من نفسي». بكتْ، قالتْ وعيناها مغرورقتان بالدّموع، وصوتُ نشقها يتخلّل الكلمات: «لم تفعلْ خطأً واحدًا في حياتك بحقّي حتّى أسامحكَ يا بنيّ.. أمّا طريق الحزب فإنْ كنتَ مؤمنًا به حقّ الإيمان فامضِ فيه ولا تلتفتْ، فالله معك. وقلبي معك. والمُؤمنون معك».

في صبيحة اليوم التّالي كُنّا قد حجزنا لها التذكرة إلى أحد مستشفيات لندن العريقة. كانت تأخذني بين أحضانها ولا تريد أن

تتركني البتّة . أوصلتُها إلى مقعدها في الطائرة . وكان آخر ما لفظتْه من الكلام أنّها راضيةٌ عنّي ، وأنّها ستدعو لي في كلّ لحظة . كانتْ عيناها تقولان وداعًا ، دَعْني أملأ منك قلبي ، دَعْني أُسكنْ صورتكَ في روحي ، كانتْ عيناها تحلّقان في آفاق بعيدة ، تعودان إلى أيّام الصّبا والشّباب ، تتذكّران كلّ ما لاقتْه من ضَنكٍ في حياتها ، وتقول : «كلّه يهون من أجلك يا حبيبي» . كانتْ تمسح الدّموع المنهمرة منهما بظاهر كَفّها ، حاولتْ هذه المرّة أنْ تبدو طبيعيّة ، أنْ تُهيِّئ صوتَها المجروح لتقول : «إذا لم نلتقِ مرّة أخرى ، فلا تتركْني مع وحشة القبور وحدي ، أنعِشْ روحي بالدّعاء لي ، وأضِئ عتمتي بقراءة الفاتحة» . بكيتُ كطفلٍ . ورجفتُ كعصفورٍ ذبيح ، غطّيتُ وجهي بيدَيّ . وأردتُ أنْ أقول أشياء كثيرة لها ولكنّني لم أستطعْ ، كان الموقف أكبر من الكلام ، والمشاعر أعظم من أنْ تُوصَف . طارتْ بها الطّائرة إلى مستشفى لندن ، وطار قلبي معها .

أُعِدْتُ في اليوم ذاته إلى السّجن . في لندن كانتْ تئنّ تحتَ وطأة الأنابيب الطّبّيّة المغروسة في جسدها ، وفي أنفها ، أجرَوا لها عمليّة القلبِ المفتوح . خرجتْ من العمليّة حيّة . قاومت الموتَ يومًا كاملاً . في اليوم التّالي فارقت الحياةَ غريبةً وحيدةً دون أنْ يكون إلى جانبها أحد .

ماذا يمكن أنْ أقولَ لكم عنها ، هذه القدّيسةُ الطّاهرة؟ ماذا يُمكن أنْ تحدّث القَطرةُ عن النّهر ، والنّجمةُ عن السّماء ، والزّهرةُ عن الرّبيع ؛ أمّي كانت النّهرَ والسّماء والرّبيع .

في زيارتها الأخيرة ، قالتْ لي : «يا ضِياء عيني . . . أنتَ وحيدي الذي لا يمكنني أن أستغني عنه . تَركني أبوك والتحق بالرفيق الأعلى

وأنتَ على فراش الولادة . وَعَدْتُه بعدم الزواج وأنا لا زلتُ في مقتبل العمر ، ووفيت بوعدي حتى لا تتعرّض لضرب الأزواج من بعده . مارست كل المهن الشريفة لأنفق عليك وأربّيك تربيةً فاضلة» .

هل تعرفون كيفَ كانتْ أمّي تؤمن لقمة العيشِ لي ولها؟ يومَ أنْ لم يكنْ من أحدٍ ليعيطنا شيئًا؟ هل تعرفون كيفَ تكون التّضحية؟ هل يُمكن أنْ يشعر الأبناء الجاهِلون مثلنا ، قليلو الدّراية بقلوب أمّهاتهم كيفَ تتجسّد فيها الرّحمة؟!

خاطت الملابس حتّى ضَعُفَ بَصرُها ، وغسلت الملابس حتى نال الصّقيع من أصابعها . لقد أكل البرد كلّ شيءٍ في جسدها . تحمّلت حَمارّة القيظ وصَبارّة القَرّ لمرافقتي إلى المدرسة ، وكانتْ تتباهى بي عندما نجحتُ في دراستي ، وتفوّقتُ - وأنا اليتيم - على أبناء الأثرياء من أبناء الجيران في بلاد المهجر . كانت تحضر تباعًا جلسات المحاكمة ، وتُعبّر لي عن قَلقِها من نحول جسمي رغم ما كنت أتّسم به من اعتدالٍ مقارنة بأجساد أقراني الّتي تبدو كأنّها أجساد أشباح . مع تأجيل كُل جلسة كانت تعود باكيةً إلى المنزل منفطرة القلب ؛ القلب الّذي لم يعدْ يحتمل ، القلب الّذي استوطنه مَرَضٌ عُضال لم يغادِرها حتّى غادرتْ معه .

عانت أمّي الويلات في سبيل تربيتي في الخمسينيّات من القرن الماضي حيث كانت الفاقة طاغية ، وظروف العيش بالغة القسوة والتعقيد ، وكانتْ تمرّ علينا أيّام لا نجد فيها حتّى رغيف الخبز اليابس . ناضلت في بلاد المهجر وهي المرأة المحجبة فنالت اعجاب العائلات المحافظة في بلد عرف مُبكرًا الدعوة لموجةٍ عارمةٍ من السُّفور والتّحرّر كانت غريبةً في ذلك الوقت عن أهل تونس .

عدنا إلى ليبيا ، وبدأت تشعر معي برَغَد العيش عندما نجحتُ بشكل لافت وفي وقت قياسي وبما أُتقنه من لغات أجنبية في مجال الوظيفة العمومية . كانت الآفاق عظيمةً وممتدَّةً أمامي وأمامها في بلد يزخر بثروة نفطية هائلة . ولكن يد الظلم سرعان ما ذبحتْ كل الأماني وحطمت كل الأحلام ، وابتُلينا بنظام مُوكَل بقتْلِ الجميلين في بلده ، الرّائعين ، الّذين يحلمون بغدٍ لا يكون فيه للغربان والجراد والأفاعي وجود . لقد ألقى النّظام بأجمل أبناء الوطن في السجون ، وهَجّر الآلاف في المنافي ، ولاحقهم في تلك المنافي حتّى وهم هارِبون من جحيمه ، ليقول لهم : إمّا أنْ تعيشوا في جحيمي أو أنْ تموتي خارجه ، وما بين الموت والجحيم قضى كثيرون من صفوة شبابنا .

كانتْ أمّي حينَ توصلني إلى المدرسة الإبتدائيّة تنتظرني النّهار الدّراسيّ بكامله حتّى أعود معها ، لم تكنْ أمّي تقرأ أو تكتب ، لكنّها كانتْ حريصةً أنْ تجعلنيٍ منارةً في العلم . أنْ توفّر لي كلّ ما تستطيع من أجل ألاّ يفوتني شيء . وكانتْ تتمنّى أنْ تتحوّل إلى عصفورة صغيرةٍ تحطّ على شُبّاك الصّفّ ، لكي تُكحّل عينَيها برؤية وحيدها يقرأ ويكتبٍ ويتعلّم ، ثُمّ تطير جذلى مطمئنّة ، بل إنّها صاغتْ ذلك شعرًا شعبيًا :

يا رِيْتِنِي عَـصْـفُـورْ فُـوقِ المَكْتَبْ
نْشُـوفْ (عِلِيْوَةْ) كِـيفْ يِقْـرَا وْيُكْتُبْ

عملتْ أمّي في مدرسة ؛ كانت تمشي منذ طلوع الفجر أربعة كيلو مترات على رجليها في طقس شديد البرودة لتصل للمدرسة التي كانت تعمل بها وتُعِدّ الإفطار لطلبتها نظير مبلغ شهري زهيد لا يتجاوز خمسة دنانير ، ونظرًا لندرة المواصلات أو لعدم وجودها كانتْ أمّي

تبيت أحيانًا عند صديقاتها المجاورة بيوتهنّ للمدرسة ؛ حتى تتجنّب الذهاب والعودة كل يوم خصوصًا في فصل الشتاء القارس ، وكانتْ تتركني عند جدتي رحمها الله في تلك الأثناء . بهذه الدّنانير الخمسة كُنّا نعيش ، كُنّا نأكل ونشرب ونلبس ونسكن وندفع للتّعليم حاجته ، وكانتْ بالطّبع لا تكفي ، فتعمل أمّي بعد عودتها من المدرسة خيّاطةً تخيطُ الثّياب أو تُصلحها لنساء الحيّ مقابل قروشٍ تحاول أنْ تسدّ بها ما نقص من مصروف الشّهر ، أو تُقصّر فيه فترة الجوع إذا مرّتْ بنا .

استمرّتْ تعمل في هاتَين الوظيفتَين المُتعبتَين طيلة ستّة عشر عامًا ، هي فترة إقامتنا في تونس قبل أنْ نعود إلى ليبيا ، لقد تقلّبتْ عليها الظّروف ، وفقدت الزّوج والأهل ، وعملتْ من أجلي ما أعجز عن أنْ أقولَه أو أصفه ، كان برد الشّتاء مع قلّة المُؤنة ينخر جسدها ، أصابَها بالرّوماتيزم أوّلاً ، ومع أنّه كادَ يُقعِدها ، ويهلك عِظامَ ساقَيها ، إلاّ أنّه كان أقلّ وطأةٍ مِمّا سبّبه من أمراضٍ أخرى ، أخطرها مرض القلب ، إذْ تطوّر الروماتيزم ليُصيبَ عضلة القلبِ ، فيُضعِفها ، ثُمّ أكملتُ أنا عليها ، فلم تحتمل كلّ ذلك ، ولم تعدْ في القلبِ مساحةٌ لمزيدٍ من الحزن والألم ، فقتلها داء القلب ، وكان يُمكن لقلبها أنْ يعيش لَولا أنّ قدر الله أسبَق ، ولولا أنّني أقول إنّني كنتُ سببًا من أسباب هذه الوفاة الفاجعة .

غادرت أمّي الدّنيا وهي موفورة الكرامة ، كانتْ تُكرّر لي دائمًا وقد أخذ التعب منها مأخذه تعبيرًا سائدًا لدينا : «شاقِي ولا محتاج» أي : أكون مُرهقًا ولا أتسول من أحد . كانت مثالاً للإيثار تمقت الأَثَرة ، وتُنفق كمن لا يخشى الفقر ، وتُقرض من يحتاج ولو أدّى بها ذلك للاقتراض من الآخرين لِتُقيل عثرته ، وغرست في كلّ مَنْ حولها قِيم

البذل والعطاء. رحلتْ إلى الله راضيةً بقدرها، مطمئنَّة إلى ما ضحَّتْ به من أجل ابنها؟ فهل كان ابنُها يستحقّ ذلك؟ إنكم لو سألتموها لقالت: كان يستحقّ أنْ أعطيه من عمري ليعيشه كلّه؛ إنّه قلب الأمّ. وهل في الأرض من رحمةٍ إلاّ وكان موطنها؟!

والآن ماذا تبقّى منّي؟ لا شيء. ماذا يتبقّى من الإنسان حين يفقد أمّه!!

(٢٥)
الضبّاط الأحرار

كان الزّبير ما يزال يسكنُ على مقربةٍ منّا، ولا نراه، إنّه محكومٌ بالإعدام، وهؤلاء المحكومون بالإعدام يُرمَونَ في (المحقرة) ويُنسَوْن على الحقيقة. بقي في زنزانةٍ انفراديّة ضيّقة، زنزانة تُشبه القبر حوالي عشر سنوات، مِن بَعدها يوم أن امتلأ السّجن، وقذف العقيد بالمزيد من أبناء ليبيا إلينا هنا في الحصان الأسود، اضطُرّوا إلى جمع عددٍ من هؤلاء المحكومين بالإعدام في زنزانةٍ واحدةٍ، وكان يُمكن أنْ يكونَ في الزّنزانة الّتي عرضُها متران وطولها متران حوالي عشرة مساجين، ولكَ أنْ تتخيّل كيفَ تكون حياتُهم. كان زنازين المحقرة غير مُهوّاة، ولا يوجد فيها ما يُدخل الهواء غير طاقة الطّعام الّتي تُفتَح ثلاث مرّات خلال اليوم بأكمله، وبعض الشّقوق الّتي تكون في السّقف، أو أعلى الجدران، وإذا كانت الزّنزانة لها نافذة، تطلّ على مِنْور أو أنبوب تهويةٍ صغير، فهذا يعني أنّها زنزانة خمس نجوم، وسيكون نزيلها أحد المحظوظين.

كان جوّ المحقرة خانقًا. اكتظاظ الأجساد البشريّة، ورائحة العَرَق في الصّيف، وقلّة الهواء وفساده إذا دخل، وأنفاس عشرةٍ بعشرين خيشومًا في مترَين، كان يجعل من المحقرة مكانًا نموذجيًا للاختناق الطّبيعيّ، وموضعًا خصبًا للموت البطيء. ومع أنّ السّجين يفرح إذا رأى عينَي بشريّ مثله، بل يُصاب بهستيريا من الفرحة إذا استطاع

التخاطب مع إنسان آخر خاصة لأولئك الّذين أمضوا عقدًا كاملاً في الانفرادي ، إلاّ أنّ وجود هؤلاء المساجين الجُدد كان بمثابة عقوبة لا جائزة ، ونِقمة لا نِعمة . إذ لم يعرفْ أحدٌ منهم كيفَ ينام ، وأينَ ينام ، ومتى يستطيع أنْ يستخدم الزّاوية الصّغيرة الّتي في الزّنزانة المُسمّاة حمّامًا . وتحوّلت الحياة في زنازين المحقرة من جحيم يمكن التّعايش معه إلى جحيم لا يمكن التّعايش معه ، ولا يُطاق أبدًا . ويبدأ يدبّ الخلاف بين نزلاء المحقرة بصورةٍ يُرثَى لها!!

ومع ازدياد عدد الّذين يقبض النّظام عليهم ويأتي بهم إلى هنا ، بدأ هذا النّظام يُفكّر ببناء سجنٍ أكبر ، يتّسع لكلّ المجرمين أمثالنا ، وتظلّ فيه أمكنةٌ جاهزةٌ لاستقبال المزيد . إذْ لم يعدْ هناك متّسع في (الحصان الأسود) .

الزّبير أحد الّذين أُحضِر إليه محكومون آخرون بالإعدام . قضى معهم ثماني سنوات أخرى ، كان مجموع ما قضاه في المحقرة هو ثمانية عشر عامًا ، أربعة عشر منها في الحصان الأسود ، وأربعة أخرى يومَ نُقِلَ المساجين إلى سجن (أبو سليم) الّذي ستُغطّي شهرته في المستقبل على كلّ سجون ليبيا . وطوال السّنوات الثّماني عشرة لم يخرج من زنزانته ، ولم يرَ النّور إلاّ مرّة واحدة ، هي المرّة الّتي فُتحَ له فيها باب الزّنزانة ليُذهب به إلى السّجن الجديد .

في المحقرة التقى كثيرين مِمّن تعرفهم ليبيا ، من الشّخصيّات المرموقة في الوطن ، أحرارًا ثائرين ، فيها كان الضُّبّاط والمهندسون والمحامون والصّحفيّون وغيرهم . في هذه المحقرة التقى الزّبير في سنوات الاكتظاظ بشخصيّات مثل الرّائد عمر الحريري ، والمُقدّم آدم الحوّاز وزير الدّفاع ، وعمر الواحدي ، والنّقيب عبد الونيس الحاسي ، الأخيران عمر

الواحدي وعبد الونيس الحاسي فرّا في حرب ١٩٦٧ بالدّبّابات ودخلا الحدود المصريّة ، تحرّكتْ فيهما دماء العروبة ، وأرادا أنْ ينتصرا لأبناء جلدتهم في معركتهم مع الجيش الإسرائيليّ حَمِيّةً ووطنيّةً ، وكانا عازِمَيْن على إضافة الدّبّابات الّتي يقودانها إلى دبّابات الجيش المصري ، والانخراط فيه ، والقتال إلى جانبه . اعتبرهم الشّعبُ يومها أبطالاً . وكان إلى جانبهما عددٌ آخر من الضُّبّاط اللّيبيّين ، ولم يكن العقيد من بينهم!!

كان الضُّبّاطُ يُعذّبون في الحفرة . كلٌّ في زنزانته . وكُنّا نسمع أصوات تعذيبهم تشقّ كلّ تلك الجدران وتصل إلينا . ولو حَدّثْتُ بكلّ ما سمعتُ ورأيتُ لكانت مِئات المجلّدات لا تكفيني ، ولكنّني أحاول أنْ أرسم خطوط الصّورة لتبدو واضحةً تقول التّاريخ في عموم أحداثه ، ومن أراد التّفاصيل فيستطيع أنْ يعودَ إلى الأسماء والأمكنة والأزمنة فيستزيد .

عددٌ كبيرٌ من الضُّبّاط الّذين شاركوا العقيد انتصاره في ثورة الفاتح يقبعون هنا في الحفرة ، كان قد بدأ يقصّ بعض الأجنحة الّتي ساعدته على الطّيران ، لم ينتظر كثيرًا ، معظم هؤلاء القابعين هنا ينتظرون حبل المشنقة من زملائه المُخلِصين له اعتقلهم بعد أربعة أشهر فقط من نجاح ثورته ، كان يعلم أنّ كثرة السّيوف تزلزل أركان الحُكم ، وأنّ سيفًا واحِدًا قاطِعًا سيُثبّتُ تلك الأركان خاصّة إذا ما سارع باستعماله في الإطاحة بالرّؤوس القريبة منه . لقد عزم العقيد من أوّل يوم جلس فيه على الكرسيّ أنْ يقضي على كلّ مَنْ أوصله إليه ، ثُمّ يُنشِئ حوله فريقًا جديدًا من الأيادي الّتي يبطش بها إلى أجل محدود ، ثُمّ يأتي بمن يقضي على هذه الأيادي من أجل أيادٍ أخرى أشدّ بطشًا بمناوئيه ، وأشدّ إخلاصًا له!!

المُقدّم موسى أحمد أوّل وزير داخليّة بعد نجاح ثورة الفاتح مثالٌ صارخٌ على أنّ العقيد لا ينسى ، وأنّ أنيابه لا يُمكن أنْ تهدأ إلاّ إذا شربتْ من دماء أصدقائه الأوائل ، وأنّ طول الزّمن لا يُخلف الوعد الّذي قطعه العقيد على نفسه بإبادة كلّ مَنْ يُمكن أنْ يكون مثار شكٍّ له من الّذين اشتركوا في ثورته أنْ ينقلبوا عليه ، كان يقول : إذا كان بإمكانهم أنْ ينقلبوا على الملك كما فعلتُ معهم فما أسهلَ أنْ ينقلبوا عليّ!!

ينحدر موسى أحمد من منطقة (سُوسة) التي تغلب عليها طبيعة البداوة وينتمي لقبيلة (الحاسة) وهو ضابط شجاعٌ ووطنيّ بامتياز . كان له دورٌ بارز في السّيطرة على معسكر (قرنادة) من أبرز المعسكرات في المنطقة الشرقية ؛ المعسكر الذي كان يُعدّ اليدَ اليُمنى للنظام الملكيّ ، والقوة الوحيدة القادرة من ناحية العدد والعُدّة على التّصدّي لتحرّكات الجيش . سيطر موسى أحمد على المُعسكر بعد أنْ أقنع ابن عمّه النّقيب عبد الله شعيب بالاشتراك معه في ذلك ؛ فقد كان ابن عمّه هذا يشغل في تلك اللّيلة مهمّة ضابط الخفر ، ممّا سارعَ بسقوط المعسكر . لقد كان نجاح ثورة الفاتح يتوقّف على السّيطرة على مُعسكَر (قرنادة) هذا . وكان العقيد وقتها مختفيًا في بنغازي في معسكر (قاريونس) تحت حماية المُقدّم آدم الحوّاز ، ينتظر خبر سقوط معسكر (قرنادة) ، ولو لم يتمّ ذلك لما ألقى العقيد بيان ثورة الفاتح .

كان القذافي قد زار موسى أحمد في بيته بصحبة أخيه مصطفى الحاسي الذي كان من بين الضباط الأحرار كذلك ، والذي سجنه القذّافي فيما بعد خمسَ سنوات في قضية عمر المحيشي . أبلغه القذافي بموعد الانقلاب وطلب منه المساعدة وكان أعلى رتبةً عسكريّة

من القذافي. كان موسى أحمد مؤمنًا بأنّ العهد الملكيّ لن يُساهم في تقدّم ليبيا، وأنّ ما يصلح لها هو النّظام الجمهوريّ الدّيمقراطيّ، فاستجاب لطلب القذّافي منه، ووعده بأن يصطفّ إلى جانبه. دخلت أثناء حديثهما إلى الصالون الابنتان الصغيرتان لموسى أحمد، وكان موسى يُحبّهما حُبًّا استثنائيًا، فقال ليُؤكّد للقذّافي على أنّ حُبّ الأوطان يفوق حُبّ الأبناء: «أنا مستعد من أجل ليبيا للتضحية بهاتين الصغيرتَين».

بعد انتصار القذّافي الّذي لم يصنعه وحده، بل كان هناك لاعبون كُثر، ومنهم مَنْ له دورٌ أكثر تأثيرًا على أرض الواقع منه، راح يتفرّد بالسُّلطة؛ فانتفخَ صدره، وورمَ أنفُه، وصار يتصرّف على أنّه لا أحدَ سواه صنع هذه المُعجزة. ولمّا كان زملاؤه من الضّبّاط يرون ذلك، بدأ بعضُهم ينتقد ما صارت إليه الأمور. فلم يصبر عليهم إلاّ أربعة أشهر، فلَفّقتْ للكبار منهم قضايا من نَسْج الخيال لا تجرؤ الأبالسة على التّفكير بها.

وها نحن معهم، هنا في سجن الحصان الأسود، مع مجموعة من هؤلاء الضّبّاط الأحرار، يُهانون أيّما إهانة، ويُعذّبون صباحَ مساء، ويُتركون عرايا في البرد في زنازين من أيّام الفاشيّين. كانت محاكمتهم من أسرع المُحاكمات في التّاريخ؛ إعدامات بالجُملة، ومؤبّدات. بعضُهم ظلّ ما يقرب من عشرين عامًا وهو محكومٌ بالإعدام، كلّ يوم يمرّ يعتبره فائضًا على عمره، فهو بحكم الميّت منذ زمن.

في العيد العاشر للانقلاب ذَكَر القذافي في إحدى خطاباته قصة ابنتَي موسى أحمد، وقال عندما أبلغتُ موسى أحمد بالانقلاب بكى وقال: «أنا مُستعدٌ من أجلك أنْ أُضحّي بهاتين الفتاتين». كان موسى

أحمد يومَها ما يزال في السّجن . رأى الكذب الّذي يُسوّقه العقيد على الشّعب المسكين ، فكتب إليه رسالة من داخل السجن وقال له : «صحيحٌ أنّني بكيتُ لانتصار الثّورة ، لأنّني كنتُ أحلم بأنْ نتخلّص من السّلطة المُطلَقة ، بكيتُ لأنّنا نجحنا في ذلك ، وأمّا ابنتاي الحبيبتان فأنا لم أقلْ إنّني مستعدٌ للتّضحية بهما من أجلك ، بلْ قلتُ من أجل ليبيا . لكنْ مهلاً أيّها العقيد ؛ هل تعلم أن هاتَين الابنتَين هما الآن في الشهادة الثانوية وتعيشان تحت خطِّ الفقر على مبلغ خمسين دينارًا تتقاضاه والدتهما من الضّمان الاجتماعيّ ، كأنّهن يتامى؟! وهل تعلم أيّها العقيد أنّ السجناء والضُّبّاط الّذين ساعدوك على أنْ تصير إلى ما صِرتَ إليه اليوم يأكلون من القمامة؟!» ثُمّ ختم رسالته ببيت الشّعر المشهور :

إنْ كنتَ لا تَدْري فتلكَ مُصيبةٌ
أوْ كُنتَ تدري فالمصيبةُ أعظَمُ

عندئذ قرّر القذافي أنْ يُجريَ لعائلة موسى أحمد راتبًا شهريًا ، وأرسل مَن رَمّم لهم بيتهم المُتهالك .

لكنّ حلاوة الكرسيّ آسرة ، تُرسّخ الأنانيّة والفرديّة ، فإنْ استحكمتْ في القلب قاتلتْ كلّ مَنْ هو دونَها ، حتّى لا يذوقَ حلاوتَها أحدٌ آخر . لقد أصبح هاجس المؤامرة عليه يقضّ مضجعه فبدأ بتتبّع سيرة الشخصيات التي يمكن أن تملأ الفراغ ، أو يُنادي بها النّاس ، أو يستعين بها أعداؤه فتخلفه ، فقرّر مُلاحقتَها وتصفيتها سواء أكانت موجودةً في الدّاخل أو الخارج .

غادرنا موسى أحمد في الإفراج الكبير عام ١٩٨٨ ، وسأحدّثكم عنه . أراد أنْ يعيشَ بهدوء ، أنْ يتركَ الدُّنيا لأهلها ، أنْ يترك القذّافي

يشبع بالسّلطة، فما عاد له ما يعنيه بعد أنْ قضى ثمانية عشر عامًا في السّجن. السّجن الّذي أمرضه، وأقعده، وحوّله إلى كائنٍ آخر، إلى إنسانٍ لا يُشبه نفسه، وجعل منه هو وزملائه موضعًا لتفريغ عُقَد العقيد وجلاّديه. أراد أنْ يعيشَ وحده، أنْ يقضي ما تبقّى له من عمرٍ بعيدًا عن الأنظار. حملَ ذكرياته وأحزانه وحُبّه لوطنه، وذهب إلى مزرعته ليريح هذا القلب الّذي نزفَ كثيرًا. لم يعدْ يتدخّل بأيّ شأنٍ سياسيّ، ولا حتّى وطنيّ، ولا اقتصاديّ ولا أيّ شيءٍ آخر، أراد أنْ يأكل مِمّا تُنبت الأرض، وأنْ يشربَ مِمّا تجود به السّماء، وأنْ يجترّ أحزانه، محاولاً دون فائدة في كلّ مرّةٍ أنْ ينساها، وأنْ يبدأ صفحةً جديدةً.

دخلَ عليه قومٌ سودٌ، أفارقةٌ زادهم الظّلامُ خَفاءً. كان ذلك في ليلةٍ من ليالي إبريل عام ٢٠٠٤م، كان وحده، كأنّه كان ينتظرهم، لا يريدُ أنْ يموت معه غيرُه، لم يتحرّك من مكانه، لم يصرخ، لم يَسْتَنجِدْ، لم يطلبِ النّجدة، لم يطلبْ منهم الرّحمة، ظلّ جالسًا على كُرسيّه بهدوء كأنّه لا يراهم، تقدّموا إليه بِحرابهم، فلم يطرفْ له جفن، ولم يرفّ له رِمش، كأنّه كان يعرفُ كلّ شيءٍ، هيّأ صدره للطّعنة الأولى، تلقّاها فنفر الدّم على وجه قاتِله نَفْرًا، لم تُسمَع منه إلاّ زَفرةٌ خرجتْ مع دفقة الدّم، اختصر فيها وجع ليبيا كلّها. انهال عليه الثّاني والثّالث إلى العاشر، طعنوه ستًّا وثلاثين طَعنة، غَطّاه الدّم حتّى لم يعدْ لوجهه ملامح. مسحَ القتلةُ ما تناثر من قطرات دمه على وجوههم، وعلى ملابسهم، وخرجوا بهدوء كأنّ شيئًا لم يكن. بعد يوم كامل، سُلّمت الجُثّة إلى أرملته في صندوق مُشمّع وطلبوا منها ألاّ تفتحه كأنّ الّذي مات كلب، وأنْ تُعجّل بدفنه، وألاّ تفتح فمها بكلمة.

ليبيا مُختطفة يا سيّدي ، إنّها في قبضةِ جلاّد لا يعرفَ الرّحمة ، قذف به الحظّ إلى سُدّة الحُكم على غير ميعاد ، فصار إلهًا ، ولولا أنّ فرعون سبقه إلى العبارة الخالدة ، لقالها هو ؛ لأنّها أكثر لصوقًا به ؛ بفؤاده ، بأحلامه ، وبطموحاته المجنونة : «أنا ربّكم الأعلى» . آمن بفكرته رفاقُه في السّلاح ، فقتلهم بالسّلاح ، والّذين لم يقتلهم أعدمَ ذكرهم ووجودهم ؛ فعاشوا في خمول . كسرَ صورايهم واحِدًا واحِدًا ، وحطّم قواربهم قاربًا قاربًا وهم في لجّة البحر ، طغى عليهم فغرقوا ، ولاحقَ من نجا منهم من الغرقِ فأغرقه ، ولم يُبقِ لهم فوق البحر شيئًا يدلّ عليهم حتّى ولو كانتْ ثيابَهم ، فلمّا صار وحده في الميدان صدق فيه المثل العربيّ : «الذّئبُ خاليًا أسد»!!

(٢٦)
العقَيد

«أعطِني عَصا فرعون يا منصور» ، نهض يونس ، كان يعرفُ موضع العَصا ، ناولها للعقيد ، عصا من العاج ، مستقيمة ، أبيضها لامع ، لا اعوِجاجَ فِيها ، رأسُها من الذّهب على هيئة أفعى تتهيّأ لأنْ تلدغَ ، إذا أمسكَه العقيد غار اللّسان ، وأصدر الرّأسُ فحيحًا كفحيح الأفعى تمامًا ، وليسَ ذلك لأحد إلاّ له ، ركزَ العصا على الأرض ، فارتفعَ أعلاها قليلاً فاستند إليه السّيّد الأبديّ . «أريد أنْ أسألك يا يونس» . رفع يونس رأسه متأهّبًا : «أسمعك سيّدي» . «لو أنّ جسدًا أصيب بمرض عُضال ، فقال الأطبّاء العارِفون ، إنّه لا يَصلحُ سائرُ الجسد إلاّ بقَطْع هذا العُضو منه ، فما العمل حينئذ؟!» . «قَطْعُ العُضو المريض من أجل سلامة بقيّة الجسد» . «أنا لم أفعلْ شيئًا في حياتي كلّها خارج هذا المنطق ، كان جسد وطني أعزّ عليّ من أمّي ، لو أنّ أمّي كانتْ هذا العضو الفاسد لقطعتُها» . «أتّفق معك يا سيّدي» . «سؤال آخر يا يونس» . «قُلْ أيّها الحكيم» . «المدن المليئة بالأخطار ، الّتي يعيثُ فيها الغوغاء فسادًا ، ويجترئ عليها السّفَلة الأفّاقون ، كيفَ يُمكن أنْ نُعيدَ إليها الأمن والطّمأنينة؟» . «أنتَ أدرى يا سيّدي» . «أنا أدرى بالفعل ، بالشّدّة يا يونس ، بالشّدّة أيّها الرّفيق العتيد ، بالضّرب بيد من حديد ، إنّ الغوغاء لا ينفع معهم تبويس اللّحى ، ولا التّربيت على الأكتاف ، ولا التّمسيد على الشّعُور ، ولا الكلمة الطّيّبة ، ولا عَرْضُ الخَدّ الآخَر ، هؤلاء الشّواذ

لا ينفع معهم إلاّ الاقتلاع ، الاقتلاع من الجذور يا يونس ، أتسمعني؟ الاقتلاع من الجذور» . كان الغضب يتصاعد في رأس العقيد ، فرّغه بارتفاع الصّوت وبالتّلويح بالعصا بشدّة حتّى كادتْ تحطّم المرآة الّتي يقفُ أمامها . هتف يونس مؤمّنًا : «صدقتَ يا سيّدي . . صدقت» . «أنا لم أفعلْ شيئًا خارج ما يتطلّبه المنطق والموقف . ماذا تريدُ أنْ تعرفَ من أمور الحكم يا يونس . دع منصور الضّرّاط ، إنّ عقله محشوّ في فوهة بندقيّته فحسب ، وإنْ كان هذا الأمر جيّدًا ، إلاّ أنّ البندقيّة تحتاج إلى عقل يُديرها . . . أليس كذلك يا يونس؟» . «أنتَ لم تقلْ إلاّ عين الصّواب يا سيّدي» . «أريد أنْ أسألك يا يونس ، ولكنْ هذه المرّة سأختبر معرفتك» . «أنا أسمعُ أيّها الحبيب» . «النّاس لا يُساندون الّذي جعل من نفسه محبوبًا أكثر من الّذي جعل من نفسه مُخيفًا ، لأنّ الحبّ الّذي يرتبط بسلسلةٍ من المصالح الّتي تقتضيها أنانيّة النّاس ، يتحطّم بمجرّد أنْ ينتهوا من تحقيق أهدافهم ، ولكنّ الخوف يعتمد على ما يُنزله من عقاب ولا يفشلُ أبدًا» . يصمت العقيد . ينتظر يونس السّؤال متأهّبًا . «أوّلاً هل أعجبتْكَ العبارة؟» . «بلى يا سيّدي» . «إنّها تمثّلني يا يونس . أتعرف لمن هي؟» . «أهي لك؟» . «كلاّ يا يونس ، إنّها لواحدٍ من الّذين أعشقهم ، إنّ عباراته تُشكّل الطّريقة الّتي أحكم بها البلاد ، إنّها بمثابة قانونٍ يسري على كلّ شيءٍ ، ثمّ يفهم أحدٌ العلاقة بين الآلهة والشّعوب كما فهمها هو» .

دوّتْ قذيفةٌ هزّت أركان الغرفة . تبعتْها قذيفةٌ أخرى . غطّى منصور رأسه بيده كأنّه يتوقّع أنْ تنفذ القذيفة أو شظاياها إلى هذا المكان المحصّن . فعل الشّيء ذاته يونس . وحده العقيد ظلّ واقفًا مكانه ، ناصبًا جذعه أمام المرآة ، وينظر إلى رأس الأفعى ويبتسم . دوّتْ

عشرُ قذائف من بعدها . دخل أحدُ الحرس إلى الغرفة ، سارع إليه منصور ، بدا على وجهه التأثّر ، انتظر حتّى أنهى الحارسُ تقريره ، اقترب من السّيّد الأبديّ : «سيّدي ، طرابلس كلّها سقطتْ في يد الغوغاء» . ضحك العقيد ، قاطعه قبل أنْ يُتِمّ : «نحن في طرابلس أيّها الغبيّ . أنسيت؟ ها نحن هنا صامدون ولم نسقط . نحن لا نسقط أيّها الخوّار . أنا لا أسقط أيّها الجبان . ها أنتَ تراني ، أرأيتني أقمتُ لكلّ هذه المفرقعات الّتي يلقيها الجيش الصّليبيّ الحاقد وقوى التّآمر الظّلاميّ وزنًا؟ ها نحن؟ ماذا ينقصنا؟ قلْ لي أيّها النّكس . أنا لن أغادر ليبيا . إنْ رأيتَ يا يونس حسب خبرتك العسكريّة أنْ نناور بالانتقال إلى مكان آخر فسأفعل لثقتي المُطلقة بك؟ أمّا مغادرة ليبيا فلن أغادرها إلاّ شهيدًا ، سأرتفع إلى السّماء ، وساجلس عن يمين الرّبّ . . أتسمع يا منصور . . . السّاقط مَنْ لم يمتْ في سبيل ما يؤمن» . هدأتْ ثورة العقيد . اقتربَ منه يونس . قرّب المائدة الّتي أحضروها له : «كُلْ يا سيّدي . أرجوك . سأُطلعك على الخُطّة . لكنْ بعد أنْ تأكل» . «حسنًا يا يونس . أمهلْني قليلاً من الوقت ، ما زال لديّ حسابات أريدُ أنْ أصفّيها مع الخونة قبل أنْ أخرج من هنا» . توقّف قليلاً . أنغضَ رأسه ببطء ثُمّ رفعه : «هل تعرف المخرج الّذي سيقودنا من هنا؟» . ردّ يونس : «كلاّ يا سيّدي . لا أحدَ يعرفه سواك» . قهقه العقيد : «اثنا عشر مخرجًا هي متاهة ، وحده المخرج الّذي دفنتُ فيه تلك الجثّة هو المخرج الّذي سيُوصلنا . . . أتعرفُ لماذا يا يونس؟» . «كلاّ يا سيّدي» . «لأنّ الأفاعي لا تقتل الأفاعي» . ورفع عصاه ، واختلط صوت قهقهاته بصوت فحيحها .

دفَع منصور عربة الطّعام إلى منتصف الغرفة . أخذ يونس بيد

العقيد برفق، وسحبه إلى حيثُ المائدة. طاوعه السّيّد. وقفَ ثلاثتهم على المائدة الّتي ضمّتْ أطايب الطّعام. كانتْ كلّ مائدة للعقيد تحفل بهروس الثّوم، وبمنقوع عظم الدّجاج، لقد نُصح بأكلهما منذ أنْ شكّ في قُواه الجنسيّة قبل سنوات بعيدة. تحلّق الثّلاثة حول المائدة. لم يجرؤا أنْ يمدّا أيديهما قبله. مدّ يده، اقتطع جزءاً من لحم الخروف المشويّ وازدرده بلقمة واحدة. كان ذلك إيذانًا لهما بأنْ يبدآ بعده، حين همّا بذلك تراجَع كلاهما إلى الوراء مذعورًا، لقد كان منظر الطّعام مُخيفًا؛ كانتْ هناك أفاع صغيرة تجول في الصّحون، تقع من طرف صحن، وترتقي طرفًا آخر، كان عددها كبيرًا، لا تتوقّف عن الحركة وهي تزقي. نظر إليهما السّيّد وهو يمسح لقمته الأخيرة عن طرف فمه، شاهدهما مذعورَين. هتفَ بهما: «لِمَ لا تأكلان؟ إنّه لذيذ. لم آكل مثله منذ زمن». وهجم على الطّعام، طاشتْ يده في الصّحفة، وراح يزدرد اللّقمة بعد اللّقمة، يأكل بنهم وبسرعة. بدا أنّ جوعًا طويلاً قد أفرغ معدته، وهو الآن يُلبّي نداءَها الجارح. لم يتوقّف. أتبع اللّقمة باللّقمة. والشّربة بالشّربة. ومنصور ويونس ينظر أحدهما في وجه الآخر دون أنْ يَفُوها بكلمة. كان سيّدهما يأكل الأفاعي!!

(٢٧)
خُيوطُ الدَّمِ مناراتُ الأحرار

كُنّا نعيشُ في عالَم الكتاب قبل أنْ ندخل هذا المنفى. كان الكتاب نافذتنا على العالَم. لكنّ هذه النّافذة مُغلَقةٌ في وجهنا هنا. فماذا يُمكن أنْ نفعل؟! في السّنتَين الأولَيين، كان بإمكاننا تهريب بعض الكتب من خلال الزّيارة، كان يُمكن أنْ يُخاطَ الكتاب مع الملابس خاصّة إذا كان صغيرًا، أو يوضَع تحت بعضِ الأطعمة، ويُدثَّر بها، وأحيانًا كُنّا ندخل الكتاب على مراحل، أو مع سِلال مُختلفة، نُهرّب عشرين أو ثلاثين صفحة في سلّة، ونقوم بعد دخول السّلال إلى المهجع بتجميع كلّ الأوراق المتفرّقة وترتيبها، وهناك متخصّصون يقومون بمحاولة إعادة الكتاب المتناثر إلى صورته الأصليّة باستخدام صَمْغ مُبتَكر، وهناك مَن يصنع له غلافًا جميلاً، وفينا من الخَطّاطين مَنْ يقوم بتخطيط عنوانه أفضل من هيئة العنوان الأصلي. هل كان الحرّاس لا يعرفون ما نفعل؟! ربّما كان بعضُ الحرّاس يشكّون، وبعضهم الآخر يعرفون، ولكنّهم كانوا يغضّون الطّرف، يتغافلون، التّغافل نِعمة، لا يُدركها إلاّ مَنْ كان يشعر أنّه مُراقَبٌ على مدار السّاعة. كان زمن الاستشراس لم يأتِ بعد، وكانتْ هناك بحبوحة من نوع ما. كان لكلّ عقدِ سنواتُ استشراسه. كان التّضييق أو الانفراج هنا في السّجن يتبع مِزاج العقيد. فإذا كان مزاجه رائقًا وهو في قصره وقلعته المنيعة فإنّ ذلك ينعكس علينا في السّجن هنا، فنشهدُ مرونةً

في التعامل ويكفّ الضّرب والشّتم والتّعذيب، ويكثر الطّعام والشراب. وإذا أصيب مزاجه الحسّاس بلوثة لا سمح الله فإنّ جهنّم تصبّ فوق رؤوسنا صبًّا. تنهال علينا العصيّ والكاوات، ونُمنع من الزيارة، ويشحّ الطّعام، ويقلّ الماء، حتّى المرض يتواطأ مع الجلّاد ويفتك ببعضنا، ويُسفّرنا إلى العالَم الآخَر موتى دون أنْ يتعاطَف معنا أحد!!

مرّت فترات تضييق ما بعد ١٩٧٧م، وكان أشدّها أنّ الكتب منعت، ولم نقدر على إدخالها، وكان منعها عن الإسلاميّين أشدّ. ولم نجدْ من وسيلة إلى أنْ نخفّف رهقَ السّجن ومرور أيّامه البطيئة بالقراءة كما كُنّا نفعل في السّابق. وبدأنا نجد المحنة تتضاعَف، ورُحنا نبحثُ عن حلّ، وكان بسيطًا وفعّالاً، وأدّى دورًا في حمايتنا من الجنون والعته؛ كان الحلّ يتمثّل في أنْ يُقرِئنا كلّ واحد ما قرأه وثقفه قبل أنْ يدخل إلى هنا، فنتعلّم على يدَيه من خلال ما يُحدّثنا به مما تعلّمه هو من خلال ما قلّبه من أوراق هذا الكتاب أو ذاك. باختصار كُنّا نطلب من كلّ واحد منّا أنْ نقرأ عقله؛ أنْ نقرأ الكتاب الموجود في عقله. وبدأنا جلسات عظيمةً في هذا المِضمار، وبدت الفِكرة عبقريّة، ورُحنا نستخرج من عقول بعضِنا بعضًا ما اختزنه هذا الدّماغ من الكتب. وعثرنا في أدمغتنا على كتبٍ كثيرةٍ متعدّدة المواضيع، ملوّنة الاتجاهات. وبعضُنا ألجأته هذه الطّريقة إلى إحياء كُتُب كانتْ قد ماتت في عقله، وانتحتْ زاويةً من زواياه فاستحثّها بعد هذا الطّلب، فأنهضها من مجثمها، ونفضَ عنها غبار السّنين، وفتحَ صفحاتها، واستعادَ ما كان فيها من العِلم، وقدّمه لنا صافيًا رائقًا!!

قرأنا على الدّكتور المفتي. جلسْنا إلى عقله ذات مساء. سمعْنا

منه ملحمة جلجامش ، كان يحفظ شيئًا من مقاطعها ، كان التّاريخ يتحرك من خلالها ، أُغرم بالقصّة كثيرون مِنّا لدرجة أنّهم حفظوا تلك المقاطع عن ظَهْر قلب ، سنطوّر الفِكرة فيما بعد ، ويقوم عددٌ من الممثّلين المُحترفين بأداء أدوارٍ منها أمامنا ، فيستمتعون ونستمتع معهم.

سيحدّثنا المفتي كذلك عن كُتب (كارل بوبر) في المنهج العلميّ وتاريخ الفنّ التّركيّ ، سيحضر (هنريك إبسن) هو الآخَر ، وسيحدّثنا المفتي عن مسرحيّته (عدوّ الشّعب) وهي ليستْ من مسرحيّاته الشّهيرة ، المسرحيّة تتحدّث عن طبيبٍ يكتشف أنّ الحمّامات العامّة مُلوّثة ، فيبدأ حملةً صارمة لتنقيتها من أجل فائدة الجمهور والدّولة الّتي تحرص على شعبِها ، لكنّه يصطدم بأصحاب المصالح المُتنفّذين في المدينة . ويقاوم نفوذهم ، لكنّه لا يستطيع الصّمود أمام الحملة الّتي تُشنّ عليه ، فتنتهي المسرحيّة بفَصْل الطّبيب من منصبه ، وعندها يُعلن لزوجته : «ألا ترين ، الحقيقة يا عزيزتي . . إنّ أقوى رجلٍ في العالَم هو ذلك الّذي يستطيع أنْ يقف بمفرده . . إنّ مجتمعنا مُشيَّدٌ على خزّان مجاري مُعبّأ بالأكاذيب» . لقد نجح خصومه في تحويل عمله النّبيل إلى جريمة : «إنّ الطّبيب يتحدّث ظاهريًا عن الحَمّامات العامّة . . لكنّه في واقع الأمر يهدف إلى الثّورة» .

كان الدّكتور المفتي جرّاحًا كبيرًا قبل أنْ يُلقَى في السّجون معنا ، تخرّج في كلّيّة الطّبّ من جامعة (ليدز) في بريطانيا . وكُنّا نستمع معه في أيّام الانفراج أو السّعة إلى المذياع الّذي يبثّ على موجةٍ واحدة ، وغالبًا ما كُنّا نهرّبه ، أو نرشو الشّرطيّ بمبالغ ماليّة كبيرة كي يسكتَ على وجوده عندنا ، كُنّا نستمع مع الدّكتور إلى إذاعة BBC البريطانيّة ، وكان عددٌ من مُذيعيها من زملاء الدّكتور ، كان يقول لنا مُتندّرًا : «لو

بدري صديقي (جيمس نجوجي) الّذي يجلس خلف المذياع الآن في بلد العلم والحريّة أنّني أجلسُ على البلاط البارد في غرفة مقرورة خلف باب زنزانتي وبيننا آلاف السّدود والأسوار والقُضبان».

لم نكنْ نخترق جدران السّجن السّميكة بوسيلة أفضل من القراءة والتّجوال في عقول الآخرين، لكنّ الكتاب؛ السّلاح الأخطر في مواجهة الطّغيان، والسّلاح الأقوى في قمْعنا كذلك، ظلّ يراوح في الفضاء فيما بيننا وبين الجلاّدين، إذا أفلتَ من أيديهم سقط في أيدينا، فكأنّما سقط من السّماء، فنتلقّفه كأنّه وحيٌ مُقدّس، فيطوف بيننا جميعًا فنقرؤه، وحينَ يتأخّر سقوط كتابٍ آخر من السّماء، كُنّا نعمد إلى حِفظِ فقراتٍ من الكتاب السّابق دونَ أنْ ندري لماذا. فيما بعد تولّى عددٌ من حفَظَة القرآن المهمّة الأقدس، فحفظ الدكتور (عتيقة) القرآن كاملاً في السّجن. وكُنّا يصبر بعضُنا على حتّى يتمّ الآخر حفظه. وكان المُفسّرون عندنا قليلين في البداية، لكنّ فترة التّسعينيّات اللاّحقة ستقذف إلى منفانا عددًا كبيرًا من الحَفَظة والفقهاء، وسيكون ذلك نعمة من جهاتٍ كثيرة، ولكنّه سيكون نِقمة، نقمة في الاختلاف والاجتِهاد الّذي جرّ علينا عددًا من الويلات كُنّا في غِنًى عنها.

الطريق موحشٌ دون صديق، فكيف إذا كان الطّريق هو السّجن، كُنّا بالأصدقاء نخفّف من الوحشة، ونزرع الألفة في قلوبنا، بهم وحدهم كان يُمكن للسّجن أنْ يُحتَمل، بصبرهم، بإيمانهم بقضاياهم، بجَلَدهم، بتفانيهم. كان معنا في السّجن مَنْ كانتْ صُحبتهم تُبعِد شبح الكآبة، وتملأ الفراغ الّذي يُودي بصاحبه إلى الانفِصال عن كلّ شيءٍ، أنا أعترفُ أنّ عددًا منّا كان يُفكّر في الانتِحار، ما من أحد

مهما كان إيمانه إلاّ برز في وجهه سؤال ليس له إجابة : «لماذا يفعلون بنا هذا؟ لماذا يتفنّنون في سَحْقنا ، وتحطيمنا ، والتّعامل معنا كأنّنا نُفايات؟» ولولا الأصدقاء الّذين كانوا دواءً لكثيرٍ من الأدواء لمضى كثيرون في طريق اللاّعودة ، ولما كان بوسعهم أنْ يصمدوا .

في نهاية السّبعينيّات وبداية الثّمانينيّات كانت الذّروة الأولى من الضّيق والعذاب غير المُسوّغ ، لم نكن نفهم ما كان يحلّ بِنا ، ولا أنْ نجد له تفسيرًا ؛ كُنّا نعيشُ في رعب ، وننام على رعب ، ونستيقظُ على رُعب . كانوا يقتلون في السّجن أيّ أحدٍ . قتلوا (عامر الدّغيّس) القياديّ في حزب البعث رغم وساطة صدّام للإفراج عنه ، لأنّه لم يقبل التّعاون مع النّظام ، اقتيد الى معسكر «باب العزيزية» ، حقّقوا معه حول مواقفه الوطنية وعلاقاته بالمعارضة وصلته بدولة عربية يتهمها القذافي بمساندة المعارضة ، وبمحاولة تدبير انقلاب ضد نظامه . تعرّض لتعذيبٍ شديدٍ حيثُ كان يُربَط معلّقًا في السّقف من يديه ، وينهالون عليه بالكاوات ، وبحراب البنادق ، وقطّعوا أجزاء من جسده ، ولا أدري كيفَ كانوا يتلذّذون بالدّماء تسيل من أشلائه المُقطّعة أنهارًا ، وتتراشق على جُدران غرفة التّحقيق المُرعبة رَشَقاتٍ في الجهات الأربع . مارسَ أكثرُ من ثلاثين جلاّدًا التّناوب على تعذيبه ثلاثة أيام بشكلٍ متواصل ، في ليل اليوم الثّالث تَعِبَ الطّين ، كان جسده باردًا ، لم يُدْفئه دمه ، ولم تشفه أنهار الأرض ، عَطشه كان منذ أنْ حلم بوطنه حُرًا ؛ نعم تعبَ الطّين الّذي فيه ؛ فترك لهم جسده وحلّقتْ روحه عالِيًا ، كان تحليقُ روحه الفرصة الّتي أعطاها لهم كي يرتاحوا من تعذيبه . كان ذلك في أوائل عام ١٩٨٠م . سَلّموا جثمانه إلى ذويه في صندوقٍ مُحكَم الإغلاق ، وادّعى النّظام أنّه مات مُنتحرًا . لم يسمحوا

لأنه إلا أن يرى وجهه من خلال فتحة عُليا في صندوق الموت ، وأشرف النظام على دفنه ليختم بذلك صفحته!!

فعلوا الشّيء ذاته مع (محمّد حمّي) ، الّذي اعتقل في العهد الملكيّ . وعندما كان جلادو النظام ، يلقون بالقنابل المسيلة للدموع على الطلبة ، أثناء مظاهرات الطلبة في عام ١٩٧٦م ، في مدينة بنغازي ، تلك المظاهرات السّلميّة التي تصدّت لها قوات الصاعقة ، وتصدى لها الحرس الجمهوري ، ورجال الأمن . في تلك الأيام العصيبة ، فتح السيد حمي بيته للشباب المتظاهرين ، والذين تضرّروا جرّاء دُخان القنابل المسيلة للدموع ، ووفّر لهم كميات هائلة من المياه في بيته ، وذلك لمعالجة آثار هذه الغازات . كان الشباب المشاركون في تلك الصدامات ، يتقاطرون على بيته ، فإذا ما نالوا قسطًا من الرّاحة انطلقوا بعدها إلى المظاهرات لمواصلة احتجاجاتهم ضد الطّغيان .

قام محمّد حمي بتأبين عامر الدغيس أثناء تشييع جنازته الأخير بمدينة طرابلس ، فَعَدّ النّظام أنّ ذلك قمّة التّحدّي له ، والوفاء لخائنٍ عميل ، فاعتقلوه بعد شهرٍ واحدٍ من موت (عامر الدّغيّس) ، في شهر مارس من عام ١٩٨٠م . وأخذت ابنته سلوى محمّد حمي ، تبكي بحرقة ، عندما كان عددٌ من رجال الأمن المُثقَلين بالسلاح يقتادون والدها من بيته إلى مقرّ الأمن الداخليّ بمدينة بنغازي . اقتادوه عند الساعة الثانية ظهرًا ، ثم عادوا به في اليوم التالي ، عند الساعة الرابعة مساءً ، وفتّشوا منزله تفتيشًا دقيقًا ، وعبثوا بخصوصيات مكتبه ومحتوياته ، واستولوا على أوراقه ودفاتره ومطبوعاته . وكانوا ، أثناء عملية التفتيش ، يصطحبونه من ركن في البيت إلى ركن آخر ، يبحثون عما يمكن استخدامه في توريطه . لم تكن واقعة اعتقال

والدها، هي الواقعة اليتيمة، لكنّها أحسّت أنها الأخيرة. لذلك انهمرت بالبكاء، بينما كان محمّد حمّي يهبط من السلم الداخلي للبيت خاطبها شقيقها الأكبر جلال، قائلاً: لماذا البكاء، إنها ليست المرة الأولى على أية حال، عندها التفت والدها، وخاطب جلالاً قائلاً: «دعها تبكي يا جلال». لقد أحسّ أنّه لن يعود إلى بيته وأسرته حيًّا. لم يكنْ يهبطُ جسدًا، كان يهبطُ جثّة، هكذا بدا الأمر لابنته.

استمرّ اعتقاله خمسة أسابيع. كان قد وفد خلالها إلينا، فتعرّفْنا إلى رجل شَهْم، وواسع المعرفة، عامَلنا كأنّه يعرفنا من زمن بعيد، وكان فرِحًا لا يبدو عليه أدنى اهتمام بما حصل معه، تاريخه النِّضاليّ الطّويل جعله يستصغر كلّ شيء، لقد سُجِنَ في ثلاثة عهود، ولن يتراجع عن أنْ يكون حُرًا ويُدافع عن الأحرار.

حضرتْ ستّ سيّارات مُدرّعة إلى السّجن، عبَر عشرةٌ من الرّجال المُلثّمين والمُدجّجين بالأسلحة البوّابات، والمهاجع، كأنّهم يعرفون إلى أينَ يسيرون، فتح لهم الحارس بوّابة الزّنزانة، وهجموا عليه، أشبعوه ضربًا أمامنا، ثُمّ كبّلوا يدَيه ورِجلَيه، وحَمَلوه خارج السّجن. أكانوا يريدون أنْ يحقّقوا معه؟ ماذا كان لديه أكثر من حُبّه لوطنه كي يُجيب عن أسئلتهم، ماذا كان يحمل في قلبه غير حُزنه على بلده وأساه من أجله؟!

كان أعضاء طاقم التعذيب، يستخدمون طبيبًا بعد كلّ حفلة من حفلات التّعذيب ليُحدّد إنْ كان المُعذب يحتمل المزيد أمْ أنّ عليهم أنْ يرتاحوا قليلاً قبل أنْ يبدؤوا نوبةً جديدةً. كان بعضُ الجلّادين حين يقوم بدوره في التّعذيب، ينهار في النّهاية، يسقط من شدّة التّعب، وكان بعضُهم يتناول (البَخّاخ) وهو يلهث لأنّه لا يستطيع التّنفّس

بشكل طبيعيّ ، آخرون كانوا يتناولون المُهدّئات بعد كلّ حفلة . كان تعذيبه صعبًا عليهم!

تعدّدت النّوبات الّتي تعرّض لها (محمّد حمّي) ، وكانت ذروتها في شهر مارس من عام ١٩٨٠م . على الطبيب أنْ يترك تقريرًا على باب الزّنزانة في قدرة السّجين على الاحتمال . فإذا كان التقرير يقول إن السّجين على حافّة الموت ، ولم يعد قادرًا على تحمُّل المزيد ، كان الضّحيّة يُترَك لفترة بدون تعذيب ، إلى أن يستعيد بعض قُواه ، فيواصل الجَلاّدون معه الجحيم من جديد .

أجرى الطّبيب كشفًا على مجموعةٍ من المعتقلين . وعند انتهاء الطبيب من الكشف ، خرج من غرفة التعذيب ، ووضع تقريرًا على جميع غرف الضّحايا يُفيد بعدم إمكانية احتمالهم لمزيد من التعذيب ، ولكنه لم يضع تقريرًا على باب غرفة السّيّد (حمي) ، ولا أحد يدري إنْ فعل ذلك عن قصدٍ أم لا ، هل كان يريدُ له أنْ يرتاح من سفرٍ في العذاب طويل؟ فاستمرّوا في تعذيبه طوال الليل . وعند الفجر كانَ قد تَعِب الطّين كما تعب الطّين يوم صعود روح رفيقه ، ومن خلال النافذة ، رأيناهم وهم يجرّون جثمان الشهيد محمّد حمي ، بعد أن فارق الحياة . كانوا يجرّونه في كيسٍ بلاستيكيّ على الأرض ، خَطّ الكيس على الأرض خيطًا واضحًا من الدّماء والأشلاء ، سيظلّ الخيط لسنواتٍ طويلةٍ المنارةَ الّتي يهتدي بها طالبو الحرّيّة في ليل الاستبداد الطّويل .

(٢٨)
الإنسان مُعجِزة

كُنّا قادرين على التكيّف ؛ كُنّا مُضطرّين إليه . الإنسان مُعجزة . المخلوق صُورة الخالق . القدرة على الفعل إرادة . العجز موت . التذرّع بالأعذار ضَعف . الجلوس في دوّامة الحياة الطّاحنة دون أنْ تدري ماذا تفعل أو ماذا تريد كارثة . مواجهة الرّيح بالإعصار حَلّ . مغالبة الموج بيدَين عاريتَين في بحرٍ هائج مُقدَّمٌ ومُقدَّسٌ على الاستسلام . الاستسلام كُفر . مَنِ استسلم أساء الأدب مع الله . سنقاوم ما دامتْ هناك فرصةٌ للنّجاة من الموت ولو كان الإمساكُ بها كالإمساكِ بريشة في عاصفة . مَنْ قال إنّنا لا نُحبّ الحياة؟! لم يكنْ لغول الكآبة أنْ يبتلع إلاّ منْ ضعُف . الضّعف طبيعةٌ بشريّة ، وفي السّجن كان علينا أنْ نحاربه ، كُنّا نستطيع ذلك إذا نَظَر القويّ في عينَي الضّعيف . كُنّا نوزّع القُوى بينَنا ، مَنْ كان ذا فضلٍ فلْيعُدْ على مَنْ لا فضل له ، كان ذلك ينطبق على كلّ شيءٍ ، على الطّعام حتّى لا نموت ، وعلى الإيمان حتّى لا نسقط ، وعلى العَزاء حتّى لا ننتحر!!

كانت أيّام السّجن متكرّرة ومتغيّرة مَعا ، ثابتةً ومتحوّلة في آنٍ واحد . كان كلّ واحدٍ يأخذ من كلّ صفةٍ من صفاتها المتناقضة بمقدار ما في قلبه من إيمان . الجلاّدون أيضًا أصابهم ما أصابنا ، وكانوا عاملاً مُساعِدًا في كَسْرِ الرّتابة ، كانوا يدخلون إلى المهاجع يطلبون منّا أنْ نخرج إلى السّاحة ، يصفّوننا في دائرة تُحيط بالسّاحة من ثلاثة

جوانب، يقفون هم في الجانب الرّابع أمامنا، عشرون بكامل عتادهم وسلاحهم. اثنان يقفان أمام كرتونة كبيرة، يُعطي الأمر أوامره إليهما، يستخرجان طمّاشات سوداء، يتولّيان مع ثلاثة آخرين تغطية وجوهنا بأكياس من القماش سوداء، ليس فيها فتحتان لا الأنف ولا للعينين، يبدأ القماش بالانسحاب إلى داخل أفواهنا ونحن نتنفّس، نبدأ نشعر بشيء من الاختناق، لكنّ الوَعي مطلوبٌ في هذه الحالة، يُبقون عليكَ نادرًا أنْ تسمع وتشمّ ما يريدون. يأتي آخرون يُقيّدون أيدينا من الخلف. نتوقّع الأسوأ. كيفَ يُمكن للإنسان أنْ يتفاءل في وضع كهذا. الخيالات تبدأ عملها: هل سيُطلِقون علينا الرّصاص؟ هلْ سينهالون علينا بالخراطيم والهراوات؟ هل سيسكبون علينا الماء؟ هل سيتولّون وَخزنا بحراب بنادقهم؟ هل سيقومون بركلنا أو رَفْشنا أو صَفْعنا؟ هل... هل...؟ ولكنْ لا شيء يُمكن أنْ يكون أكيدًا. نسمع أصواتَ أغراضٍ تُلقَى في وسط السّاحة، نحاول أنْ نعرف، لكنّ أيدينا مُقيّدةٌ ورؤوسنا ملقاة في قماش أسود، نحاول أنْ نلوي أعناقنا لنحرّك الكيس القماشيّ علّه يسمح لنا أنْ نرى ما الأغراض الّتي تُلقى في وسط السّاحة؟ لكنْ دون جدوى، ومَنْ كان يُضبَط متلبّسًا بهذا الجرم يهوي على رأسه كَعْبُ بندقيّة قد يُفقده وعيه. ما زلنا نسمع أصواتَ الأغراض تهوي في المنتصف، لا بُدّ أنّهم يجمعون في السّاحة أشياء من تلك الّتي ضبطوها في زنازيننا، وسيقولون إنّها ممنوعة، وسنُعذّب بسببها. لكنّنا لم نكن نملك في الزّنازين إلاّ أجسادَنا! حتّى أجسادنا لم تكنْ لنا، بل كانت مرتهنة لسلطة جلاّد لا يعرفُ الإنسانيّة ولم يعدْ يتذكّر أنّه بشر. بعد حوالي نصف ساعة من التّرقّب والانتظار، ومن رَمْي الأغراض المُبهمة في وسط السّاحة، شمَمْنا

رائحة بنزين ، يبدو أنهم القوه على تلك الأغراض ، وفي لحظات شعرنا بحرارة شديدة ، بلهيب نيران حامية ، وهذا ما حدث ! لقد أضرموا النّار في جبل الأغراض الّتي جمعوها . ثمّ سمعنا أوّل صرخة ، كانتْ إيذانًا ببدء الجحيم ، هبط الكاو المعدني على رأس أحدنا فشقّ الكيس ، وفقأ العين ، فراح المسكين يصرخ ويجري ، والجلاّد خلفه يقوده بالسّوط وهو لا يدري جهة النّار ، حتّى إذا أحسّ بلفحها تراجع لا إراديًا وهو يصرخ وراح يركضُ في كلّ اتّجاه . عندها بدأتِ السّياط والكاوات تهوي على ظهورنا وبطوننا ورؤوسنا ، ورُحنا من الألم نصرخ ونركض ، والسّجانون يُقهقهون ، والآمر يطلب منهم أنْ يوجّهونا إلى النّار ، وتراكض النّاس هربًا من السّياط ، وارتطمت الأجساد ، وتعالت الصّرخات ، وسقطَ بعضُنا في النّار نتيجة التّدافع ، وشبّت النّار في ثيابه ، وأكلتْ شيئًا من جسده فراح يركض من حرارة الرّوح فارًا ، فإذا به يُوقع سواه ، فتدوسه الأرجل ، والنّاس يتخابَطون ، وكان مشهدًا لم يُفكّر فيه أبالسة الجنّ ، وذُقنا يومَها من العذاب ما لم نذقْه من قبل ، وبعدَ ساعتَين تعب الحَرس من ضَرْبنا ، وشبعوا من الضّحك ، وأُتخِموا من التّلذّذ بمنظرنا ونحن نحترق ، فسكبوا الماء على النّار ، ثُمّ أدخلونا بشكلٍ عشوائيّ إلى الزّنازين . كان العشرات قد أُصيبوا بحروقٍ بعضُها خطِير في أجزاء بعضُها حسّاس من جسده . وظلّ الأنين طوال ثلاث ليالي ، ولم يُسعفوا أحدًا منّا . ولم يسمعوا لصرخاتنا ونحن نطلبُ منهم أنْ يأتوا لنا بطبيب ، أو بعض الأدوية لنخفّف عن المُصابين . تركونا مع الألم الفظيع ، دون أنْ يرأفوا بكبيرٍ أو شيخٍ أو عالِمٍ أو فقيه . مات خمسةٌ في اليوم الثّالث . وعاشَ بعضُنا بعاهاتٍ مستديمَة من بعد ، بعضُ الجروح تعفّنتْ جرّاء قلّة النّظافة وعدم المعالجة . وبعضُنا تمنّى لو يبتر يده

المحروقة لشدّة الألم ، وبعضُنا كان يصحو من نومه وهو يشهق كلّما عاده الموقف في الحلم ، آخرون كانتْ تُصيبهم نوبة هيتسيريّة من الصُّراخ كلّما تذكّروا المشهد . وظلّ السّؤال المعلّق كالعادة : «لماذا يفعلون بنا ذلك؟» . وجاء الجواب من أحدهم ذات مرّة وهو يوزّع الطّعام : «لقد كُنّا نتسلّى!!» .

الضُّبّاط كانوا يُعذّبون بأساليب وحشيّة ، كُنّا نسمع صرَخاتهم قادمةً من المَحقَرة . كانتْ كلّ صرخةٍ تتسلّق سابحةً على جدران السّجن من الجهات كلّها فتتشقّق من تحتها ، كأنّها ديدان صغيرة تتسلّق الحيطان بسرعةٍ جنونيّة في كلّ اتّجاه ، نُحسّ أنّها ستدخل إلى حُلوقنا وتأكل أمعاءنا ، وتقضي علينا في لحظات . إذا كان صُراخهم مُرعبًا إلى هذا الحدّ ، فكيف يكون رُعب العذاب الّذي أحوجَهم إلى مثل هذا الصُّراخ!!

في أيّام التّحقيق الأولى مع السّجناء الّذين كانتْ تعتبرهم الدّولة خطرين ، كان بعضُهم يُجبَر على أنْ يتلو اعترافات أُمليتْ عليه بعدَ تعذيب شديد ، ويقوم بتلاوة تلك الاعترافات أمام كاميرات التّلفاز ، لتُبثّ لاحقًا من أجل أنْ تكون المُتّكأ الّذي يستندون إليه في الحُكم عليه بالإعدام . وكانوا من قبل أنْ يُدلوا بتلك الاعترافات يتعرّضون إلى عمليّات اغتصاب أمام الكاميرات أيضًا . يتناوب على فِعل الفاحشة فيه عددٌ من المُحقّقين ، أمام مُصوّر يستمتع بالمشهد وهو يقوم بتصويره . كانوا يتعمّدون فعل ذلك مع أبناء القبائل الّذين يعدّون الموت دون الشّرف شرفًا . وأنّه مستعدّ أنْ يموت ألف مرّة ولا أنْ يُمسّ في عِرضه . أيّ شيء يُمكن أنْ يبقى له قيمة أمام سجينٍ تُغتالُ روحه بهذه الطّريقة؟!

من المُفارَقات الّتي كانتْ تحدثُ أنّ مجنونًا كان يأتي إلى جدار السّجن العالي، ويجلس ساعاتٍ طويلة، يُصيخ السّمع، فإذا ما سمع أصواتَ المُعذّبين، فتح كيسًا يحضنه بين ذراعَيه، وأخرج منه بعض الخبز، وفتّته إلى قِطعٍ صغيرة، وكوّمها في يده، ثُمّ رماها بكلّ ما يستطيع من قوّةٍ لتقعَ داخل السّور ظنًّا منه بأنّها تصل إلى هؤلاء المُعذّبين. رآه حرس الأبراج، فسكتوا عنه أوّل مرّة، لكنّه ظلّ يفعل ذلك مرارًا. يأتي منذ الصّباح، يجلس ككيس قُمامةٍ في قاع السّور، يهزّ رأسه بين الفينة والأخرى كأنّه يريد أنْ يُنظّف أذنيه من ضوضاء الشّارع لكي يسمع بشكلٍ أفضل، فإذا ما طرقتْ سَمْعَه الصّرخة الأولى، فزّ واقفًا، وصنع الصّنيع إيّاه، ورمى فُتات الخُبز. وراحتْ شفتاه تُظهران أسنانه الصّفراء وهو يبدو سعيدًا بما يفعل. كرّر ذلك مرّاتٍ عديدة، حتّى نزل إليه اثنان من حرس الأبراج، أشبعه أحدهم ضربًا بالهراوة على رأسه وجسده، ثُمّ حملاه إلى الجانب الآخر من الشّارع وألقيا به هناك، وحذّراه من أنْ يُعيدها مرّة أخرى أو أنّ يقترب من المكان. ظلّ ذو القلب الطّيّب يبكي وهو ينزف من رأسه، ويمسح بيده دمه، ثُمّ يخلطه بما تبقّى في جيوبه من قطع الخُبز، ويرميها من مكانه فتدوسها السّيّارات العابرة. لم يبارح عادته. يغيبُ في اللّيل، ويأتي في الصّباح وقد جمع الخُبز من الحاويات أو ممّا تصدّق عليه به أهل الصّدقة. يأتي إلى الشّارع المُقابل للسّجن، لا يمنعه صيفٌ أو شتاء، أو حرّ أو برد، يُفتّت الخبز إلى قطعٍ صغيرة، ويُكوّرها بيده ويرميها، لكنّها لا تجاوز الشّارع تدوسها العجلات المُسرعة وينتهي أمرُها هناك، واظبَ على ذلك عشرين عامًا، لم يملّ، كان يجد في ذلك نوعًا من السّعادة الغريبة، كان هذا مَبلغَه من الفرح، ولم يتأخّر يومًا واحدًا

عن موعده ، غير أنّ ظهره تقوّس قليلاً ، وشَعر رأسه غَطّى على عينَيه ، حتّى حانَ حينُه ، كان بصره قد ضَعُف ، لم يرَ حركة السّيّارات بشكل جيّد ، كان يتهيّأ لرمي ما في يده بعد أنْ أنهى تفتيت الخُبز إلى قِطَع صغيرة ، أراد هذه المرّة أنْ يكون جسدُه أقربَ إلى أصدقائه الّذين يُعذّبون ، فمشى خطوتَين في الشّارع ، لم يسمع بوقَ السّيّارة المُسرِعة ، كانتْ قطع الخُبز تتهيّأ للانطِلاق إلى الفضاء ، يده كانتْ قد أحدثتْ قوسًا من هذه القِطَع السّابحة إلى مُستحقّيها المُتخيّلين منذ عقدَين من الزّمان ، طار الفتُات ، سُمِعتْ أصواتُ كوابح عالية ، وصوتُ ارتِطام بشريٍّ حالم بالحديد القاسي ، وصرخةٌ أخيرةٌ دُهِسَتْ على الفَور ، أطلقَها المسكين قبل أنْ تقتله السّيّارة العابرة وتقتل خُبزه في آنٍ واحد!!

(٢٩)
سبعةٌ وعشرون بقرة

حفل السّجن بالكثيرين الّذين ألهمونا . كان السّجن صورةً أخرى من صور الحياة ، الحياة الأكثر واقعيّةً وقسوةً معًا . بعضُنا يُغادر مع المغادرين ، وآخرون يأتون مع القادمين . سَفَرٌ في ضروب العمر ودروبه . لو كان السّجن هو المعادل الموضوعيّ للحياة ، فسيكون ذلك واضحًا لكلّ مَنْ راقبَ الحركة فيه . يأتي فوجٌ ويغادر آخر ، يفرح قومٌ ويحزن آخرون . . يعيشُ أناسٌ في دوحة الأمل ، ويتيه آخرون في صحراء اليّأس ؛ وهل الحياة إلاّ هذَين ، مغادرةٌ وقُدوم ، فرحٌ وحُزن ، أملٌ ويأس؟!

في إفراج ١٩٨٨ الكبير ، والّذي وعدتُكم أنْ أحدّثكم عنه لاحقًا ، قذفتْ تبدّلات السّجون إلينا شخصًا ظريفًا ؛ (عبد القادر) . كان عريفًا في الجيش قبل أنْ يعمل سائق شاحنة ، وكان أميًا ، من الّذين لم يُرهقهم الوعي ، ولم يُتعبهم التّفكير ، فعاشَ على سجيّته الّتي أعتقد أنّها لا تتغيّر مهما كان الظّرف الّذي يكتنفه . هذه السّجيّة تُريح لأنّها صادقة . شاءت الأقدار أنّه في يوم من الأيّام حصل له حادثُ سير ، ومعه شخص آخر ، فأوقفتْهم دُوريّةٌ في أحد مراكز الشّرطة في طَرابلس ، كي يُحال صبيحة اليوم التّالي إلى النّيابة ، وتأخذ الأمور الطّبيعيّة مجراها . كان عنده واسطة ، فقال له مدير المركز : «يُمكنك أنْ تبيت اللّيلة في بيتك ، وغدًا تأتينا لتُعرض على النّيابة ، الأمر سَهْل ، والقضيّة إجرائيّة» . أمّا صاحبه فلم يقمْ أحدٌ

بتكفيله فبات في الحبس . وكانتْ تلك اللّيلة هي الّتي غيّرتْ مجرى حياته ، كان يضربُ كفًا بكفٍ وهو يلعن ويطوّح بيديه في الهواء ، ويقول : «يا ليتني بِتَ تلك اللّيلة في الحبس ولم أبتْ في بيتي . كان ضروريّ أعمل واسطة لأجل أنْ أخرج؟!» . نام في البيت . صادفَ في تلك اللّيلة حدوث محاولة انقلاب (عمر المحيشي) في عام ١٩٧٥م .
كان أحد الموقوفين في قضيّة الانقلاب هذه هو مدير مكتب القذّافي اسمه (أحمد بوليفة) من مصراته ، كان موقوفًا في إحدى الزّنازين في مُعسكر باب العزيزيّة . وكان لعبد القادر أخٌ اسمه (محمّد الأصفر) يعمل حارسًا للزّنازين ومن ضمنها زنزانة بوليفة هذا . فقام (محمّد الأصفر) بتهريب (أحمد بوليفة) من السّجن ، وأخذه إلى أخيه عبد القادر الّذي ذهبَ لينام ليلةً واحدةً فقط في بيته ، ويُعرَض في اليوم الثّاني على المحكمة . كانت السّاعة هي الخامسة فجرًا عندما طرق (محمّد الأصفر) الباب على شقيقه (عبد القادر) ، نهضَ عبد القادر من نومه متثاقلاً ، مُنزعجًا من أنّ أحدًا يُوقظه في هذه السّاعة المُبكّرة ، فهو لم يهنأ بالنّوم جيّدًا بعد حادث السّير أمس ، وعليه أنْ يذهب إلى المحكمة من أجل إجراء اللازم وإنهاء الأمر ، فوجِئ بأنّ الطّارق على الباب هو أخوه (محمّد) ومعه (بوليفة) ، قال له محمّد : «عليكَ تهريبَنا» . فركَ عينَيه من أثر النّوم ، هتف وهو غير مُصدّق : «تهريبنا؟ ماذا تقول؟ أهرّبكم؟ إلى أين؟» . «لن أشرح لك كلّ شيءٍ ، أنا وبوليفة علينا أنْ نجتاز الحدود اللّيلة إلى تونس قبل أنْ تطلع الشّمس» . «يبدو أنّ الأمر خطير» . «خطيرٌ جداً . لقد هرّبتُ بوليفة من السّجن ، وعلينا أنْ ننضمّ إلى رفاقنا في تونس» . «لكنّني لستُ أكثر من سائقٍ يا أخي» . «لهذا نريدك» . «أنا لا أصلح لشيءٍ» . «لن ترفض ، أعرف

ذلك . هل شاحنتك موجودةٌ هنا؟» . «نعم . هل تريدان أنْ أهرّبكما بها؟ هل أنتما مجنونان؟» . «نعم بها ، إنّها أبعدُ للشّبهة ، سوف تجتاز الحدود كأيّ شاحنةٍ مُحمّلةٍ بالبضائع . . هيا لا تُضع الوقت» «لكن . . .» . «قلتُ لكَ الوقتُ ليسَ في صالحِنا . . . أسرعْ ؛ الشّمس لن تنتظرنا» . حاول أنْ يرفض ، لكنّ شقيقه أصرّ عليه ، واستنهض فيه دم الأخوّة ، فلم يجدْ من الأمر بُدًا .

ركب ثلاثتهم الشّاحنة ، وانطلقتْ بهم تتهادَى في الصّحراء كأنّها ناقة مُرمِلة . سمح الوقتُ لإدارة السّجون أنْ تعرف السّجين الهارب ومَنْ قام بتهريبه ، لم يكنْ صعبًا اكتشاف الأمر ، كان الرّهان على الوقت . هل يُمكنهم اجتِياز الحدود قبل أنْ يُلقَى عليهم القبض؟

كانت الشّمس قد صارتْ في عيون الثّلاثة ، حينَ برزتْ ذبابةٌ تطير من بعيدٍ إلى جانبها . غشّتْ على عيونهم فلم يتبيّنوها إلاّ عندما اقتربتْ منهم وصار صوتُها مسموعًا ، إنّها (هوليكبتر) تطوّف بمروحتها من النّوع المُقاتل . قال محمّد لأخيه : قُدْ بأقصى سرعتك؟» . «أنا معي شاحنة وليس بورش يا خوي» . «ليس وقت المزح هذا ، أنا أعني ما أقول ، قُدْ بأقصى سرعةٍ تحتملها الشّاحنة» . دوّتْ قذيفةٌ مع آخر كلمة قالَها ، كان صوتُ انفجارها عاليًا ، تناثر الرّمل في الفضاء ، غَطّى على زجاج الشّاحنة ، واهتزّت الأرض ، تأرجحت الشّاحنة حتّى كادت تنقلب ، لكنّها استعادتْ توازنها ، صرخ محمّد بأخيه : «لا تتوقّف . أسرع» . «أنا لا أرى شيئًا الغبار والأتربة غطّيا على الأفق أمامنا» . «قلتُ لك لا تتوقّف حتّى لو مشيتَ على الرّمال ، أسرعْ . . ها نحن نقترب من الحدود . . . بإمكاننا أنْ نفعلها» . لكنّ قذيفةً ثانية وثالثة تفجّرتْ فحولّت الجوّ إلى جحيم ، الرّابعة جاءت من تحت الإطار

الخلفي ، فتسبّبت بانقلاب الشّاحنة . واحتراق جزء منها . خرج الثلاثة من غرفة القيادة بصعوبة ، كان محمّد وبوليفة مُسلّحَين ، وحده عبد القادر لم يكنْ يحمل سِلاحًا . هبطت المروحيّة ، فيما كان الثّلاثة يهربون باتّجاه الحدود ، سمعوا أصواتًا من خلفهم تأمرهم بالتّوقّف والاستسلام ، كان عبد القادر يعرج ، فرفع يديه وأعلن استسلامه على الفور ، فيما بدأ الاثنان إطلاق النّار باتّجاه العساكر ، استمرّ أطلاق النّار عشر دقائق قبل أنْ يسقط محمّد وبوليفة ميّتَين . وأُلقي القبض على عبد القادر الأصفر حيًا ، وذُهِب به إلى (مصطفى الخَرّوبي) ، فقال له : «إيه يا قذّورة ، إيه يا عبد القادر ، لو جِئت وبلّغتَ عن أخيك والخائن الآخر ، لكُنتَ الآن وزيرًا» . فنكّس عبد القادر رأسه ، وكان يعلم أنّه لن يفعل ذلك ، فعادة البداوة المستحكمة فيه لن تسمح له بتسليم أخيه وصديقه ، أو التّبليغ عنهما . وعُرِضَ على المحكمة ، فحُكِمَ عليه بثلاث سنوات . فقضى السّنوات الثّلاث وهو يلعن اللّيلة الّتي كُفّل فيها بعد حادث السّير إيّاه ، مرّتْ سنواته الثّلاث وأُفرِج عنه ، فأقسم أنْ يعيشَ حياته بعيدًا عن كلّ ما له علاقة بالدّولة ، واعتبر خروجه من السّجن نعمةً وهديّة من الله ، فأراد أنْ يشكره عليها بطريقته ، فذبحَ جَمَلًا وخمسةَ خرفان فرحًا بالإفراج والنّجاة ، وعقدَ لذلك حفلة مَهيبة في طرابلس ، ودعا إليها كلّ أصدقائه ، وطوى صفحة أخيه القتيل وصديقه الثّائر . انتقل بعدها إلى أهله في مِصراتة الّتي تبعد (٢٠٠) كم عن طرابلس ليعيشَ حياته بشكلٍ طبيعيّ ، وفي حفلة التّهنئة له في مِصراتة ، رآه أعضاء اللّجان الثّوريّة ، فقالوا : «معقولة الّذي هرّب بوليفة خارج الحبس ، يمشي متبخترًا في مِصراتة؟!» . فألقوا القبض عليه ، وأهانوه ، وأُعيد إلى الحبس ، فمكث في الحبس (٢٧) سنة .

دخل إلى السّجن أمّيًا ، فلزم الشّيوخ الحُفّاظ ، وعلى أيديهم حفظ القرآن الكريم كاملاً ، وتعلّم الكتابة والعربيّة . وعاش معنا في زنازيننا كواحد منّا . وكان مُغرمًا بكرة القدم ، يستمع إلى مبارياتها في المذياع ، فإذا أتيح لنا في زمنٍ ما أنْ نشاهد التّلفاز كان يُتابعها هناك ، فإذا ما عرض التّلفار في بعض البرامج الوثائقيّة مقطعًا لشاحنة ، فرّ من مكانه ، وارتعش جسدُه ، وصاحَ صيحة المأخوذ من حُبّه للشّاحنات ، وعشقه لها . كان نحيلاً ، لكنّ صوتَه صوتَ بدويٌّ فخم ، وإذا ضحك خرجت الضّحكة من أعماقه صافيةٌ صادقةٌ فضحكنا لها سرورًا بها .
كُنّا نسأله : «أينَ كنتَ اليوم؟» . فيردّ : «في عيادة السّجن» . فنسأله : «ماذا أعطاكَ الطّبيب؟» . فيردّ مازحًا : «حَيَوانات منويّة» . ويقصد : «مضادّات حيويّة» . فنسأله : «مِمَّ كان يشكو رفيقك الّذي مات؟» . فيقول مازحًا : «سَقْطَة نبويّة» . يقصد : «سَكْتة قلبيّة» . كان يتعامل بهذه اللاّمبالاة مع كلّ شيءٍ ، حتّى مع الموت الّذي كان يخطف النّاس أمام عينَيه ، وأمام أعيننا جميعًا .

في أصبح الصّبح كان معنا من ضمن المئة المُستثناة . يقعد معنا . ويضاحكنا ، ويلعن في كلّ لقاء تلك اللّيلة الّتي خرج فيها من الحبس إبّان حادث السّير ، أدخلونا القِسمَين الخامس والسّادس . الخامس إعدام ، والسّادس مُؤبّد . وهو محكوم فقط ثلاث سنوات ، فأدخل إلى قِسم الإعدام ، فيجلس مع جماعة الإعدام وهو لا يعرفهم ، فيطوف عليهم واحِدًا واحِدًا يسألهم : «اسم الأخ؟» . فيردّ عليهم : «أحمد الزّبير السّنوسيّ» ؛ حكمك : «إعدام» . فيُصعَق ، ويتركه إلى آخر ، ويسأله : «اسمك؟» . «عمر الحريري» . «كم حُكمك؟» . «إعدام» . فيُصعَق من جديد . يأتي إلى الثّالث يسأله : «اسمك؟» . «فايد

إبراهيم» . «كم حُكمك؟» . «إعدام» . «اسمك» . «عمر الفرجاني» . «كم حكمك؟» . «إعـدام» . «اسـمك؟» . «عـبـد الونيـس الحـاسي» . «حُكمك؟» . «إعدام» . عندئذ يُمسك (عبد القادر) برأسه متوجّعًا ، ثُمّ يضرب كفًا بكفَ ، ويتأوّه : «إيييه يا قدورة ، يا إمّا هم خفضوهم أحكامهم ، يا إمّا أنا رَفعولي في الحكم» .

في عَرض اللّجنة الأوّل في عام ١٩٨٨ في أصبح الصّبح ، قال له (خليفة حنيش) : «مَنْ أنت؟» . فقال : «عبد القادر الأصفر» . فيُنادي حنيش : «تعالَ يا نائب الآمر» ووشوشَ في أذنه ، فلم يفهم أحدٌ منّا ما قيل . فأُعيد معنا ، كان قلبه يرتجف من تلك الوشوشة ، كان يعرف أنّ خليفة حنيش لا يرحم ، ظنّ أنّه وشوش نائبه بالتّخلّص منه ، فقد كان ذلك أسهل من أنْ تشربَ كأسًا من الماء ، فكّر أنّهم يُمكن أنْ يُعدموه داخل الزّنزانة ، أو أنْ يطلقوا عليه الرّصاص فهو في الأساس عسكريّ ، تمنّى أنْ يُقتَل - إذا كان هذا هو مصيرَه - بعيدًا عن أنظارنا ، كان لا يريدنا أنْ نُشاهد موته ، كـان يفضّل أنْ يموت بهدوء بعيـدًا عن أعين الجميع ، لم يكنْ مـرتعبًـا إلاّ من فكرة أنْ يموت على دفعـاتٍ لا على دفعةٍ واحدة . بعد عودتنا من مقابلة خليفة حنيش واستثنائنا من العفو العامّ ، جلس صاحبنا قدّورة (٢٥) يومًا لا ينطق بحرف . كان صامتًا صمت اللّيل ، وكافرًا بكلّ شيء ، عيناه زائغتان ، إذا نظرَ إلينا لا يرانا ، وإذا أطرقَ أطال إطراقه . كـان يظنّ أنّ كلّ يوم هو آخر يوم له . في اليوم السّادس والعشرين ، رسمَ أحد السّجناء صورةً شاحنةٍ على ورقِ علب الدّخان ، ومدّها إليه وهو يقول : «إييه يا قـدّورة . . قـريبًا ستخرج وستكون عندك شاحنة أجمل من هذه» . حينَها فقط تحرّكتْ شفتاه بعُشر ابتسـامة ، أمعن النّظر في الصّورة الّتي أهديتْ له ، واستعاد

ذكرياته في قيادة الشاحنات فانحلّتْ عُقدته . ضحك . قهقه . وعاد إلى طبيعته!

مكث حتّى عام ٢٠٠٢م ، أُفرجَ عنه ، لم يمتْ كما كان يتوقّع في كلّ يوم ، مشى إلى بيته ، طرق الباب ، خرجتْ له فتاةٌ صغيرةٌ شابّة ، ظنّ أنّ البيت مُؤجَّر ، أو مُباع ، وأنّه لم يعدْ له . لكنّه آثر أنْ يُجرّب حظّه ، مع أنّ الحظّ كان عنيدًا معه منذ تلك اللّيلة . سألها عن زوجته : «أين أمّ فلان؟» . قالتْ له : «لقد ماتت» . «ماتت؟! مستحيل؟ لم يُخبروني بذلك» . «لقد ماتت قبل أربعة أشهر . مَنْ أنت؟» . بكى بكاء الأطفال ، وانتحب ، أرادت الفتاة أنْ تغلق الباب . رمى سؤاله الأخير ، مثلما يرمي اللاّعب حجر النّرد : «أين ابني محمّد؟» . فقالتْ له : «هل هو ابنك؟ انتظرْ قليلاً» . خرج ابنه على الصّوت : «ماذا هنالك؟!» . «أنا أبوك ، هل تتذكّرني؟» . حدّق فيه النّظر قليلاً قبل أنْ يشعر أنّ الأرضَ تدور به ، سارع إليه أبوه ، احتضنه بكلّ ما في قلبه من شوقٍ ورحمة فاستفاق . «أبي . ما زلتَ حيًّا؟ لقد قالوا إنّك مُتّ؟ كيفَ خرجت؟ متى؟ لم يقولوا لنا أيّ شيءٍ؟» . أخذه من يده ودخل ثلاثتهم ، كانت هذه الفتاة الشّابة زوجة ابنه .

اندمج في الحياة ، ولأنّه يملك روحًا مرحة ، استطاع أنْ يردم كلّ الفجوات الّتي حفرها السّجن في روحه ، اشترى (تاكسي) ، وصار يكسبُ رزقه من العمل عليه . كان فرحًا بخروجه حيًّا من المقبرة ، كان مُقبِلاً على الحياة ، لم يمنعه القيد من أنْ يضحك ملء فمه أيّام المصائب المُتراكِبة ، أفيمنع عن نفسه هذه الضّحكة وقد أمسى طليقًا؟! حاول أنْ ينسى موت أخيه ففعل ، وأنْ ينسى كلّ السّياط الّتي أكلتْ من ظهره ، ففعل . وأنْ ينسى كلّ العذابات الّتي مرّتْ عليه في السّجن

مهل، شيئان لم يتمكّن من نسيانهما، زوجته الّتي كان يُحبّها، وتلك اللّيلة الّتي خرج فيها من الحبس بعد حادث السّير.

كان يركب معه النّاس فيحدّثهم أحاديث السّجن فلا يُصدّقونه، ويضحكون منه، فيقول لهم: «نعم، من الطّبيعيّ ألاّ تُصدّقوا ما يحدث لأنّنا لا نعيش على كوكب الأرض، ليبيا يا أيّها السّادة تنتمي إلى كوكب البطّيخ»؛ يقصد كوكب المرّيخ. كان يغنّي في ساعات الملل، ويهزّ رأسه ويقول وهو يقود سيّارته: «إيييه يا قدّورة من شاحنة إلى تاكسي».

بعد سنتين من خروجه، وقعَ له حادثُ سيرٍ صعب، فانكسر حوضُه، نُقل إلى العلاج، فزرتُه في مستشفى الحروق، روحه المَرِحة لم تُفارقْه رغم ألمه الشّديد. تذاكرتُ معه عهد السّجن وضحكْنا كثيرًا. كان ذلك في يوم من أيّام عام ٢٠٠٤، وكان يوم ثلاثاء، في اليوم التّالي؛ يوم الأربعاء مات.

كان شخصيّة لطيفة، وجميلة، ومعتوهة في الوقت نفسه. لكنّه عَتَهٌ لذيذ، غير مُؤذٍ، بل إنّ فيه من الحِكمة ما فيه. كُنّا نمازِحه، نقول له: «يا قدّورة أنتَ لَك (١٦) سنةً في الحبس، صحيح؟». ويكون له مثلاً (٢٧) عامًا، فيبدأ يحسب السّنوات على أصابعه وهو مُطرِق، وحين يكتشف أنّها (٢٧) عامًا يُجنّ ويبدأ يصيح: «إنت تِبِي تِسرق من عمري يا عليّ... أنا لي في السّجن ٢٧ بقرةً». وكان يُسمّي السّنة بـ بقرة!

(٣٠)
مع المَهديّ المُنتظَر

كُنّا نخرج إلى الآريا أوقات التّشميس ، فأستغلّ الظّرف في معرفة قصص المُعذّبين الّذين يُشارِكوننا المنفى ذاته ، كان من هؤلاء أستاذ في التّاريخ اسمه (علي عون) ، وكان مسجونًا من العهد الملكيّ ، وقد خرج . بعد نجاح القذّافي في انقِلابه العسكريّ ، ملأ حيطان طرابلس بالشّعارات المُناوئة له ، فاعتقلوه . كان يفيض حيويّة ، ويملأ السّاحة بالصّياح والرّكض كلّما خرجْنا إليها ، وكان عالمًا في أمور الدّين . استفدْنا منه كثيرًا ، وحاولتُ في فترات خفوت الرّقابة أنْ آخذ عنه ، كان مليئًا بالفعل ، لكنّ لديه مشكلةً عويصة ، لم أُصدّق أنّه يقع فيها ؛ كان يظنّ نفسه (المهديّ المُنتَظَر)!! ويتصرّف معنا على هذا الأساس ، فكلّ كلامه مشحونٌ بالنّبوءات ، وبنظريّات المُؤامرة ، وبفرضيّات النّهايات الكُبرَى للكون ، كان يقول : «الدّجال يسبق خروج الشّمس من مغربها ، وأنا أسبق الدّجال ، فلو عشتَ حتّى تخرج يا عليّ ، فسيظهر الدّجّال ، وإنّي لأراه كما أراك ، ولولا أنْ يُكذّب النّاس كلّ ما أقول ، لأخبرتُكَ من أيّ الأمكنة يخرج ، وفي أيّها يتنقّل ، وعلى أيّ زمان ، لكنّ عقول النّاس الصّغيرة ، والّتي حُشيَتْ بالهُراء لا تحتمل ما أقول ، فأصمت» . ثُمّ يروح يردّد بيتَين كان كثير التّكرار لهما :

وأسكتُ عن أشياءَ لو شئتُ قلتُها
وليسَ علينا في المَقال أميرُ

أصبّر نفسي باجتهادي وطاقتي
وإنّي بأخلاق الجميع خبيرُ

ثمّ يزفر زفرةً، تكاد تنقلبُ لها شفتاه. ويُطرق طويلاً في الأرض كأنه يرى أشياء تتحرّك على التّراب لا نراها نحن، ثمّ ينقلبُ إلى كُتلة هامدة، لا يفوه بكلمة واحدة ولا ينطق بحرف. ونسأله فيتأبّى، ونستفتيه فلا يردّ. وندعوه فلا يستجيب، وننهره فلا يطرف، كأنّه حيّ ميت!

وفد إلينا هنا في البدايات. كُسر فكّه في التّعذيب، ثمّ برئ بعد سنة، فكنّا نظنّ سكوته من انكسار فكّه. وقد خُلعتْ أظافره كلّها أيّام التّحقيق، وازرقّتْ أطرافه، فلم يكنْ يقوى على المشي، ثمّ نبتتْ أظافره بعد شهرين، فراح يمشي، ويقفز من مكان إلى آخر كأنّ شيئًا لم يمسّه. كان يقول: «أنا قاتلُ الدّجال، ولئن عشتَ يا عليّ لأقلعنّ عينه السّليمةَ أمامك». وكان يحمل مُذ دخل إلى هنا، كتابًا بلا عنوان، غلافه من الجلد، يقرأ فيه اللّيل كُلّه، فإذا نادى مُؤذّن الفَجْرِ قبّله، ثمّ وضعه تحت مخدّته، وقامَ فصلّى وحده، وكان لا يُصلّي معنا لأنّ زمانه لم يأتِ بعد!

في أيّام التّحقيق الأولى، سأله المحقّق: «ما رأيك بعبد النّاصر؟». فقال: «كلبُ عميل». ورُفعَ أمرُه إلى وزير الدّاخليّة آنذاك خويلدي الحميدي، فطلبَ أنْ يراه، وخافَ من تأثيره إنْ هو جِيءَ به إليه، فزاره في الزّنزانة، ووقف الوزير على باب الزّنزانة دون أنْ يدخل إلينا توجّسًا. وكان قد مرّ عليه سنتَان في الحَبس معنا، فسأله الخويلدي: «ما رأيك فينا شيخ عليّ؟». فردّ عليه: «ضالّون مُضلّون تتبعون أذناب البقر». «والقذّافي؟». «سِنّورٌ خبيث، وشيطانٌ أمرد، وسيأتيك

خربُه» . فيسأله : «وماذا تقصد بكلمتك الأخيرة؟» . «سيُقتل» ، «كيف؟» . «كما قُتل فرعون ؛ بالغرق» . فيخبّئ الخويلدي خوفًا ناشئًا في قلبه عن طريق الاستهزاء به : «بما أنك المهديّ المُنتظر ، فما رؤيتك لنا وللنّظام؟» . فيردّ عليه علي عوْن : «ستنقسمون إلى قسمين ، وستنتصر أنتَ والقذّافي وستحكم بشريعة الشّيطان ، وستحكمون بالاشتراكيّة ، وستسيل بينكم برَك من الدّماء . ولن يكون لكم توبة» . «ولكنْ نتوبُ عن ماذا يا مولانا؟» . «عن الشّيطان الّذي يسكنكم» .

الشّيخ (علي عون) مهديُّنا المُنتظر كان يملك مكتبةً ضخمة ، حُرقتْ بكاملها أيّام الثّورة الثّقافيّة الّتي أعلنها القذّافي . ورأى بعينيه اللّجان الثّوريّة وهي تسحب الكتب وتُكوّمها في غرفة الجلوس في بيته ، وتُضرِم فيها النّيران . رَمى نفسه فيها يريدُ أنْ يستنقذ ما يُمكن إنقاذه منها ، فلم يشكّ الحرَس أنّه مجنون ، فأخرجوه قبل أنْ تحرقه النّار ، وأتوا به إلى هنا .

كُنتُ أسمعه في اللّيل يُكلّم شخصًا ما ، وكنتُ أسمعُ صوتًا آخر يردّ عليه . كان عون يسأل : «هل خرجت الدّابّة؟» . فيردّ الصّوت الّذي لم أعدْ أميّز إنْ كان صوتًا حقيقيًا يخرج من بشريّ ، أم من حيوان ، أمْ من جدار الزّنزانة : «لقد أوشكتْ» . فيسأل : «أتصفها لي؟» . فيقول : «وهؤلاء الجَهلة القابعون بين يديك» . فيردّ : «لا عليك لن يفهموا شيئًا» . «إنّها . . .» . ويغيبُ الصّوت ، ويحرّك الشّيخ رأسه ، ويُمسّد على ذقنه الطّويلة ، ويتسلّل إليّ الخوف ، وأغطّي رأسي بالمخدّة ، وأجيل النّظر حولي ، فأرى الرّفاق غارقين في النّوم مطمئنّين ، كأنّما أخذوا من الدّنيا ما أرادوا ، فأزدادُ خوفًا ، لكنّني أبتلع ريقي ، وأحاول أنْ أقنع نفسي بأنّني كنتُ أحلم .

كان رفاقي يعتبرون أنّه خَرِف ، أو أنّه منفصلٌ عن الواقع ولا فائدة من نقاشه أو الاستماع إليه ، وكنتُ أرى في حديثه غرابةً منطويةً على مودّة ليس لها تفسير . وظننتُ مع تقادم الأيّام أنّه سيتخلّى عن فكرة المهدي المُنتظَر هذه ، وأنّه سيؤوب إلى حقيقتنا الّتي لا تخفى على أحد ؛ وهي أنّنا مسجونون كالمساكين في أسوأ سجون النّظام ، لا نكاد نجد ما يُبقينا على قيد الحياة . لكنّ تطاول الأيّام زادَ في ترسيخ قناعته بنفسه ، وبأنّ البشريّة تنتظر أنْ يُميط لها الله اللّثامَ عنه . وأنّه في سبيل ذلك اليوم الموعود سيتعرّض إلى فِتَن ، وأنّ علاجها الصّبر . قلتُ له مرّة محاولاً أنْ أزعزع قناعته هذه : «لكنّ المهديّ المُنتظر اسمه محمّد ، وهو ينتسب إلى آل هاشم ، وأرى أنّه لا ينطبق عليكَ منهما شيء» . فردّ عليّ كأنّه يستعظم شدّة جَهلي : «إنّما يُسمّى محمّدًا حينَ يبعثُ الله به إلى هذه البشريّة المسكينة الّتي تغرق في الضّلال ، أمّا بالنّسبة لنسبي فماذا تعرفُ أنتَ عنه ، ألا ترى أنّني أنتهي إلى عَون ، وهو من نسل آل هاشم» . فأحاول محاولةً أخرى : «ولكنْ يغلب على ظنّي أنّ المهديّ يكون ضخم الجُثّة ذا هيبةٍ وبسطةٍ في العِلم والجسم ، وأنتَ ضئيل الجسد ، قصير الباع» . فيردّ : «يا جاهل ألا ترى بسطتي في العلم» . فأسأله : «والجِسم؟» . فيردّ : «لطالَما خدعك بصرك ، ألا ترى أنّني أحمل السّرير لا يحمله اثنان منكم!» . فأسكتُ لأنّني أعرفُ أنّني لن أصل معه في الجِدال إلى شيء .

كان مَهْديُّنا قد قسّمَ القذّافي وجماعته إلى حيوانات ، فكان يظنّ نفسه أنّه هو الأسد ، والقذّافي هو القِطّ ، والجنود والضّبّاط هم الفِئران .

دخل الآمِر ذاتَ ليلةٍ ونحن جالِسون ومعه مجموعة من الجنود ، ففصله الآمِرُ من بيننا جميعًا ، وقال له : «انهضْ» . فردّ عليه الشّيخ :

«والله قد تنهض الأسود للفئران ، وقد يخدش الفأرُ وجه الأسد» . فقال الآمر لأحد الحرس : «أحضِرِ الفلقة» . فقال الشّيخ : «قُلْ لن يُصيبَنا إلاّ ما كتبَ الله لنا» . فقال له أحد السّجانين : «انزلْ للفلقة» . فردَ عليه الشّيخ : «والله لن تُكتَب عليّ ، ولن يسمح جدّي بأنْ أنزل مختارًا لأرفع رِجلَيّ للفلقة . إنْ كنتَ رَجُلاً ، تعالَ لاكِمْني» . فأعطى الحارس مُسدّسه للآمر ، ونحّى جانبًا الشّعار والنِّطاق ، ودخلا في ملاكمة عنيفة ، رأينا اللّكمات تهوي على فَكٍّ كلّ واحدٍ منهما ، كان الحارس ضَخم الجُثّة يزن اثنَين من الشّيخ ، فتغلّب عليه ، ووَرَّمَ وجهه ، وأشبَعَه ضربًا ، وأوقعه على الأرض منهكًا . فقال آنئذٍ : «خَذَلَني جَدّي . الآن تفضّلْ إذا أردتَ الفلقة لي» . فانهال عليه جميع الحَرَس يضربونه ، كلّما تعب أحدهم جاء غيره وظلّوا يتبادلون على ضَرْبه ، بعصا الطُّوريّة ، أكثر من مئتَي ضربةٍ تلقّاها على باطنِ قدمَيه ، حتّى اضطرّ أحد الحرس الّذين كانوا يضربونه بعد الانتهاء من الضّرب أنْ يضع ضمّادةً على يده فقد تأذّتْ من شدّة الضّرب . وكان الشّيخ عليّ يقول مع كلّ ضربة : «حسبيَ الله ونِعْمَ الوكيل . . . حسبي الله ونِعم الوكيل» . ولم يصرخْ ولو مرّة واحدة!!

(٣١)
خُرُور الصنم

وفدوا إلينا في عام ١٩٧٦م ، مجموعة من طُلاّب الجامعات الّذين اعترضوا على سياسات النّظام وخاصّة ما أطلقه القذّافي فيما سُمّي بالثّورة الثّقافيّة الّتي تسبّبت في اعتقال آلاف المثقّفين من أنحاء ليبيا جميعها ، الطّالب (نوري الماقني) كان رئيس اتّحاد الطّلبة في تلك المرحلة الصّداميّة ، حين اجتاحت المُظاهرات الجامعات ، وأصبحتْ تُشكّل خطَرًا على النّظام ، عمد رأسُ النّظام إلى الخديعة ، أعلنَ أنّه أبو الدّيمقراطيّة وجدّها وابنُ عمّها ، وأنّ الحِوار هو السّبيل إلى التّفاهم ، طلبَ القذّافي الاجتماع مع ممثّليهم ، كان (المَقني) منهم ، وصنع لهم عشاءً ، لكنّه لم يأكل ، دخل غاضِبًا ، وتحدّث مع رئيس اتّحاد الطّلبة وقال له مُهدّدًا : «اسمعْ . . أنا جِيت بالسّلاح والرّاجل يجي يطلّعني بالسّلاح . . أنا راجل دولة . . وبارك الله في إنّي دعيتك . . أنا نوريك . . أنا نقتلك» . وانتهى اجتماعهم بالتّهديد بقتلهم .

في يناير من عام ١٩٧٦ بدأت اللّجان الثّورية بتصفية رؤوس الحركة الطّلابيّة ، اقتحموا حرم جامعة بنغازي ، كانوا بالعشرات ، مُحمّلين بالمُسدّسات والرّشّاشات والهراوات والسّكاكين ، وهاجموا الطّلبة بشكلٍ غوغائيّ ، وقتلوا بعضهم ، وجرحوا آخرين ، كما قاموا بحرق سيّاراتهم .

لم يرضخ الطّلبة للتّهديد ، فقاموا بالاعتِصام في حرم الجامعة بعد

هذه الحادثة ، وصاروا يهتفون : «خونا في الكلّيّة ماتْ . . . قتلوه المُخابراتْ» . «يا قذّافي يا لعينْ . . . ثلاثة ماتوا مقتولينْ» . «لا إله إلا الله . . . بومنيار عدوّ الله» . «يناير ستّة وسبعينْ . . . ثلاثة ماتوا مقتولينْ» . «وحدة وحدة طُلاّبيّةْ . . . سُحقًا سُحقًا للفاشيّةْ» . «يسقط العقيدْ . . . ويحيا الشّهيدْ» .

وامتدّ اعتِصامهم خارج أسوار الجامعة ، ووصل إلى وسط مدينة بنغازي ، وتوجّهوا إلى ضريح عمر المختار رمزًا للمقاومة والتّحدّي والحرّيّة ، فواجهتْهم بنادق الحرس الجمهوريّ ، وأطلقتْ عليهم الرّصاص بلا رحمة ، فأدّى ذلك إلى قتْلِ عددٍ منهم ، وجَرْح آخرين .

وجُنّ جنون القذّافي . مَنْ يتجرّأ على السّيّد الأوّل ، مَنْ يرفع (لا) في وجهه بعد كلّ ما صنعه لليبيا ، حينَ حرّرها من الاستِعمار ، وواجه وحده بشجاعته اللامتناهية ، وحِكمته البالغة كلّ أعداء ليبيا من الدّاخل والخارج على حدّ تعبيره!! وانهال في خطاباته يصف الطّلاب بالعمالة للمخابرات الأجنبيّة ، وتوعّد بأنّه سيُصفّي الحركة الطُّلاّبيّة بالحديد والنّار .

تعرّض الطّلبة لحملة محمومة من الاعتقالات . قُتلتْ بعض القيادات ، وجُرّتْ إلى الأقبية قيادات أخرى ، فعُذِّبوا ؛ كانَ يتولّى في تلك الفترة أمر التّحقيق (عبد الله السّنوسيّ) و (حسن إشكال) . تعرّضوا لوسائل شيطانيّة من التّعذيب ، كانوا يُشعلون النّار في رؤوسهم ؛ حتّى يقضوا على العفن الّذي فيها كما كان يردّد المُحقّقون ، وكانوا يُعلّقون في سقف الزّنزانة من أيديهم ، وأحيانًا من أرجلهم ثلاث ليالٍ . لكنّ ذلك زادَ من وتيرة الأحداث ، وتصاعدت الاحتِجاجات ، خرج الطّلبة إلى الميادين ، بنغازي كلّها خرجتْ معهم ، طافت

المظاهرات شوارع المدينة وانتهت إلى ميدان (السلفيوم) ، وهناك أقاموا مهرجانًا خطابيًا ، واعتصموا ، وسيطروا على وسط المدينة . تعاطفَ معهم كلُ مَنْ كان في المدينة ، وفي الخارج بعد انتشار ما حدث في مجاري عمّت المُظاهرت كلّيات طرابلس والمدارس والمعاهد ، كما قام عددٌ من الطّلاّب الدّارسين بالخارج باحتلال بعض السّفارات اللّيبيّة في القاهرة ولندن وواشنطن . وفي الداخل كانت الحركة في المدن شبه مشلولة ، دون أيّ مظهر من مظاهر الدّولة ، وكان يُمكن للنّظام أنْ يسقط لو توافرت الظّروف الموضوعيّة كاملة .

أنشا القذّافي تنظيمًا طُلاّبيًا مناوئًا لاتّحاد الطّلبة ، وجزءًا من اللّجان الثّوريّة الضّاربة ، ليقطع بذلك الطّريق على الطّلاّب المُطالبين بالديمقراطيّة ، وبالحريّة ، والإفراج عن المعتقلين ، وكانوا مُسلّحين ، يستخدمون الرّصاص في القتل عشوائيًا ، ودون أيّ رقابة .

تذنت الاعتقالات بالطُّلاّب في السّجون ، وتوزّعوا بحسب مدنهم ، كان نصيبَ زنزانتنا من مئات الطّلبة المُعتقلين ، طالبٌ متوقّد الذّكاء ، اسمه (عبد السّلام الحشاني) ، وقصّته تتشابه مع قصص المئات الآخرين ، لكنّ فيها شيئًا يستحقّ أنْ يُروى ، لقد كان إرهابيًا من وجهة النّظر الأخرى ، كان يستعمل المُتفجّرات!! فكيف حدث ذلك؟!

وصل تعاطف النّاس مع الحركة الطّلاّبية إلى البحّارة وصيّادي الأسماك ، كان هؤلاء الصّيّادون يملكون مادّة من المتفجّرات اسمها بالإيطاليّ (جِيلاتِينا) يستخدمونها لاصطياد الحيتان تحت الماء ، تواصل معهم عبد السّلام وآخرون وطلبوا أنْ يحصلوا على هذه المادّة المُتفجّرة ، وقد كان لهم ما أرادوا . فرح عبد السّلام بما حصل عليه ، تعلّم منهم طريقة التّفجير ، ومساحة التّأثير ، وقوّته . أخذ المتفجّرات ، تلثّم ، واتّخذ

من اللّيل ساترًا ، وقصد تمثال (جمال عبد النّاصر) في مدينة بنغازي. تأكّد أنّه لا أحدَ من النّاس حوله ، حتّى لا يُصيبهم بأذى ، وانتظر حتّى انتصف اللّيل ، أو عبرَ المنتصف بقليل ، نظر إليه ، فوجده صنمًا قبيحًا ، شيءٌ من البلاهة والجمود على هيئة إنسان لا روحَ ولا منظر ولا حركةَ فيه ، فَلِمَ يحتلّ وسط مدينة مُجاهدة قاتلتْ مع عمر المختار؟! كان عبد السّلام يعتقد أنّه لم تحلّ بالعرب مُصيبةٌ كما حلّتْ بهم مُصيبة عبد النّاصر ، لم ينتصر في معركة واحدة ، هُزِمَ في معاركه جميعًا ، واعترفَ ضِمْنيًا باليهود ، ولا زال العرب المُغَيَّبون يُقدّسونه ، إنّه لا أقلّ من أنْ أفجّر صنمه الّذي يُلوّث هواء بنغازي الطّاهر ؛ هكذا فكّر عبد السّلام . وفعل . وضع المتفجّرات تحت قدمَيه البرونزيّتَين المُنتصبتَين على قاعدة من الرّخام ، ونزع الصّاعق ، ووقف على مسافة كافية ليستمتع بالصّنم وهو يخرّ من علْيائه . نفضَ يدَيه ، وشعر براحة كُبرى ، وتسلّل عائدًا إلى بيته مسرورًا كأنّما تخلّص من ذنب ثقيل!

لم يكنْ صعبًا على الدّولة أنْ تعرف أنّ هذه المادّة المتفجّرة هي المادّة نفسها الّتي يستخدمها صيّادو الأسماك ، اعتُقلوا وتحت التّعذيب اعترفوا لمن باعوا تلك الموادّ ، وأُلقي القبضُ على عبد السّلام ، وجيء به إلى هنا . لم يتردّد القاضي في الجلسة الثّانية أو الثالثة من الحُكم عليه بالإعدام ، ولم ينتظروا طويلاً حتّى يُنفّذوا فيه الحُكم .

كان الحُكم بالعادة يتمّ تنفيذه ، بإخراج المحكومين من (الحصان الأسود) ، وأَخْذِهم إلى بنغازي ، يكون الشّيخ (المُلقّن) موجودًا ، والقاضي ، ومدير السّجن ، وعددٌ من الزّبانية . في اليوم الّذي تقرّر فيها إعدام عبد السّلام وعدد من زملائه خرجتْ زنزانتان مُتحرّكتان في الصّباح من السّجن ، ودّعتُ عبد السّلام ونظرتُ في عينَيه عميقًا ،

كان هادئًا ، تبرق عيناه بابتسامة مُخبّأة . لم أحتمل النظر في عينيه طويلاً ، فأشحتُ بوجهي وبكيتُ ، ربّتَ على كتفي ، وقال لي : «وينجّي الله الّذين اتّقوا» . حضنتُه لأداري الدّموع المنهمرة في خطوط متسارعة على خدّي ، فشعرتُ بالحبّ تنبض به كلّ خليّة في جسده ، تابع يقول وهو يبتسم ابتسامةً واسعة : «إذا أحضروا لكم الغداء ، فحصّتي من الطّعام لك ، فقط تذكّرْ أخاكَ بدعوة صالحة» . انفجرتُ بالبكاء . وخرج .

وصلت السّيارة الأولى في الموعد ، أنزل كُلّ أفرادها ، وأُعدموا واحدًا تلو الآخر ، بعد أنْ لقّنهم المُفتي وهم يقفون تحت المشنقة وحبلُها ملتفٌ حول أعناقهم ، تأرجحتْ في غرفة الإعدام في ذلك النّهار أكثرُ من عشر جُثث ، لم يكنْ أحدٌ ليدري ما الّذي كانوا يُفكّرون فيه في لحظاتهم الأخيرة ، الحبل المتأرجح أرجح ما دار في خلَدهم أيضًا!

السّيّارة الثّانية تأخّرتْ . أشياء كثيرة أمسكتْ بها يد القدر لتجعلها تتأخّر كلّ هذا الوقت . انفجرتْ إحدى إطاراتها ، فنزلَ سائقُها ليُصلح الإطار فيما تحلّق عددٌ من الحرس حولها ببنادقهم تحسُّبًا من أنْ تكون تلك خُدعة ، أو يتفاجَؤوا بهجوم من زملاء هؤلاء المحكومين بالإعدام من الطّلبة . بعد ساعة واصلت الزّنزانة تحرّكها ، شعر السّائق بجوع شديد ، كانتْ لديه سُلطةٌ أعلى من الحرس ، فركنَ السّيّارة في الطّريق ، وأعلن أنّه سينزل ليأكل . في المطعم أكل حتّى انتفخ بطنه ، شعر بالنّعاس ، فأخذتْه غفوة ، أيقظه أحدُ الحرس ، فاستيقظَ منزعجًا ، وركبوا الزّنزانة وتحرّكوا من جديد ، في الطّريق كان الوقتُ قد مرّ ، والأزمة قد تصاعدتْ ، وفي غرفة الإعدام كانتْ لجنة الإعدام تنتظر ، وطال انتظارها ، وكان لدى رئيسها موعدٌ مهمّ ، فلعنَ السّائق واللّجنة

الّتي معه وشملتْ لعنته الشّيخ المُلقّن ، وقرّر تأجيل تنفيذ الإعدام برُكّاب الزّنزانة المتحرّكة الثّانية ، وخرجَ من الموقع وهو يواصل شتائمه ولعنانه . وصلتِ السّيارة بعد سيل الشّتائم بنصف ساعة . لم يجدوا أحدًا باستثناء حرس منصّة الإعدام ، فأخبروهم أنَ الحُكمَ قد تأجّل ، فعادوا إلى السّجن من جديد . عبد السّلام كان في هذه السّيارة المُتأخّرة!!

لم يُنزِلوهم من السّيّارة ، ولم يُخبروهم بشيْءٍ ، وعادوا أدراجهم إلينا . كُنّا قد عرفْنا الخبر قبلهم ، استقبلتُه باكيًا كما ودّعتُه . لكنّ الباعث للبُكاءَين كان مُختلفًا ، قلتُ له : «كنتُ أعرفُ أنّك ستعود ، والدّليل أنّ نصيبَك من الطّعام لم يُمسّ» . ضحك ، وقال : «أنا جائعٌ بالفعل» . أكل كلّ ما أبقيتُه له . من الطّبيعيّ أنْ يجوع مَنْ ظلّ يرى حبل المشنقة ملتفًا حول عنقه كلّ هذا الوقت ، ثُمّ هو ينجو دون أنْ يدري كيف . تساءلت : «عجيبٌ أنّكم نجوتم» . قال لي : «إنّما يقبضُ الأرواحَ نافخُها» . قلتُ : «وهبكَ الله حياةً جديدة» . «كي نستزيد قبل أنْ تجري علينا يدُ القدر» .

علم القذّافي بالقصّة ، فحرّكتْه يدُ القدر هو الآخَر ، فتعجّب من أنْ يُؤجّل الموت مجموعةً ويُقدّم أخرى ، فقرّر ألاّ يُعدِمَ المجموعة الثّانية ، ويتركها حتّى ترمّ في السّجن . بعد أيّام زار (حسن إشكال) السّجن ودخل غرفة عبد السّلام ، وقال له مانًّا : «يا عبد السّلام القائد عفا عنك ، وخفّض حكم الإعدام إلى مُؤبّد» . فردّ عليه : «ربّي الّذي عفا عنّي وأنجاني ، وليس القائد تبعك . لا أنا ولا أنت ولا القائد نملك من أمرنا شيئًا» .

كان (حسن إشكال) يخترع طرقًا في التّعذيب ، ويبتكر أساليب

فيه ، فهو صاحب حرْق الرّأس ، واخترع في أيّام الطّلبة ما سُمّي يومئذ (اللّويندة) ، كان الضّحيّة يُؤمَر أنْ يركض في دائرة حول مجموعة من أشجار النّخيل الموجودة في ساحة السّجن ، وخلف كلّ شجرة يقفُ جلاّدٌ مستعدٌ بالكاو أو الهراوة الغليظة ، يتحيّن اللّحظة الّتي يمرّ بها السّجين من أمامه ، ويكونُ مُرجعًا جذعه في تلك اللّحظة إلى الخلف ، ومُمسكًا عصاه بكلتا يدَيه ، فإذا مرّ من عنده ضربه بها بكلّ عزْمه وقوّته ، فلربّما جعلت تلك الضّربة السّجين يترنّح ، وعليه ألاّ يسقط ، لأنّه إذا سقط فإنّ كلّ الجلاّدين يجتمعون عليه من أجل أنْ يضربوه ، فكان المُعوّل عليه ألا يسقط مهما كانت الضّربة قويّةً ومؤلمةً لأنّ ضربةً واحدة لو كان فيها كلّ هذا الألم أفضل من أنْ تجتمع عليه الضّربات كلّها ، وليسَ هذا فحسب ، إنّ على الضّحيّة أنْ يواصل الالتفاف حول تلك الأشجار ولا يتوقّف حتّى يملّوا هُم ، فإنْ أصابه الإعياء والتّعب فتوقّف أو سقط فليسَ له إلاّ أنْ يتلقّى الضّربات كلّها مرّة واحدة!!

بعدَ عام من الصّدامات المريرة ، والاعتقالات الأمرّ في قضيّة الطّلبة ، صار القذّافي يُعدِمهم ويُعدم المتعاطفين معهم في الشّوارع ، فأمام مدخل الكنيسة في بنغازي أُعدِم (عمر دبوب) و(محمّد بن سعود) . وفي الميناء أُعدِم (عمر المخزومي) وأحد معارفه المصريّين ، وكانتْ أجسادهم تتدلّى من تحت حبل المشنقة ، ورؤوسهم مُغطّاة ، وجذوعهم موشّحة ببعض العبارات الّتي تنصّ على خيانتهم . وكان الغوغاء من حول الجُثث يهتفون للقذّافي :

سـيـر ولا تِهـتَمْ . . . صَـفّي جنب الدّمْ
شنقًا شنقًا في الميدانْ

وتُرِكتْ الجُثّتان ثماني ساعاتٍ من الظّهر إلى المساء في الشّارع ،

كان منظرهما كما لو كان مُنتَزَعًا من فلم يتحدّث عن الدّيكتاتوريّات في جنوب أمريكا . وأمر القذّافي بتحويل سَيْر الحركة إلى الشّارع الّذي أُعدما فيه ؛ لكي تمرّ السّيّارات كلّها من أمام منصّتي الإعدام ، ويُشاهد النّاس جميعًا بأمّ أعينهم مصير كلّ من ينتقد أو يعترض أو يقول : لا . وبالفعل رأى كلّ مَنْ مرّ في الشّارع المُعدَمين ، وانتشر الخوفُ والحُزن في المدينة ، فغرقتْ في السّواد ، وسقطتْ في جُبّ الرّعب ، وبذلك صُفّيت الحركة الطّلّابيّة ، وأحكم القذّافي قبضته على البلاد .

(٣٢)
كرسيّ الاعتِراف

كُنّا أرقامًا أو أشياء في نَظَر الدّولة ، لم يكنْ لنا أيّ اعتِبار ، لكنْ ما كان يُعزّينا بعضَ العَزاء أنّنا لم نكنْ وحدنا في ذلك ، كان الوزراء في حكومات القذّافي كذلك أرقامًا ، لم يُسمَّ وزيرٌ واحدٌ باسمه ولا بلقبه ولا بموقعه في اجتماعه بهم ، كان يُلصِق بهم أرقامًا على هواه ، وكذلك كان الفنّانون واللاّعبون والمُفكّرون والعُلماء ، لم يكنْ واحدٌ من كلّ هؤلاء يُساوي أكثر من الرّقم الّذي يُطلَق عليه!!

كان ذلك (التّرقيم) مُفيدًا لنا في بعضِ الأحيان ، فالحَرَسُ لا يدرون إنِ اختلطَ نزلاء زنزانة بزنزانة أخرى ما دامت الأرقام فيها صحيحة وثابتة ، يتولّى الحَرَس العَدّ ، عليهم أنْ يعدُّوا مثلاً ثلاثة عشر سجينًا في الغرفة العاشرة من المهجع الثّامن ، ولا يدرون مَنْ هم ولا كيفَ هي أشكالهم ، فنحن مجموعةٌ من الدّوابّ السّائمة المحشورة في زنزانةٍ هي الأخرى رقمٌ من الأرقام ، فإذا تطابقَ العدد ، فلو دخلَ مَنْ دخل إليها فلا يهمّهم . أتاح لنا ذلك أنْ نُبادل بعضَ الأرقام بأرقام أخرى من زنازين مجاورة ونحافظ على العدد دون زيادة أو نُقصان ، وأفادَنا ذلك في لعبة (كرسيّ الاعتِراف) . فجلَبْنا من الزّنازين الأخرى مَنْ أردْنا أنْ نُجلِسه على هذا الكرسيّ ونقوم بمساءلته والدّخول معه في حوارٍ صريح .

على كرسيّ الاعتراف كان يجلسُ السّجين الّذي وقع عليه الدّور

يحكي لنا سيرة حياته من أوّل ما اعتُقل إلى اليوم ، يحكي عن طفولته أو شبابه ، عن غرامه ، عن ولعه بأمرٍ ما ، عن أسراره الصّغيرة ، عن أحلامه ، عن رؤاه ، عن نظرته إلى المُستقبل . كان ذلك تفريغًا للكبت المتراكم في الصّدر ، كُنّا بالبوح نرتاح ، لم يكنْ لنا من مستقبلٍ في زنازين لا ترى الشّمس ولا تراها الشّمس ، ولكنّ الحوارات كشفتْ عن تفاؤل الكثيرين بحصولهم على غدٍ أفضل ، على مُستقبلٍ تتحقّق فيه الطّموحات ، ولا أدري إن كان ذلك تعويضًا عن الحرمان المخيف الّذي نعيشه ، أمْ هي مجرّد أحلام وهواجس تدور في بال الكثيرين منّا لفداحة الخسارة الّتي مُنينا بها .

كانت الأسئلة لا تضع حَدًا لشيءٍ ، ولا تعترف بالانتقائيّة ؛ ولذا كان موضوع الغراميّات عند اليساريّين يشغل الحيّز الأكبر من كرسيّ الاعتراف ، ولم يكنْ عندهم حَرَجٌ من أنْ يذكروا مغامراتهم مع النّساء ، ويتبسّطوا في الحديث عنها ، كان في أعماق كلّ واحدٍ منّا عاشقٌ أسطوريّ لم يكنْ ليجد الوقت كي يُخرجه من قمقمه إلاّ بهذه الوسيلة ، وكان كرسيّ الاعتِراف يُنشّط الذّاكرة ، ويقذف بكلّ مكنونات الفؤاد ، وبالفعل كان تمرينًا ساعد على احتِمال العذابات الّتي يضجّ بها عالَم السّجناء القاتل .

كان القذّافي يريدنا في القبور بطريقةٍ أسرع ، الموت البطيء في السّجن لم يكنْ ليُشبعَ نهمه إلى الدّم ، فبعثَ بنا من سجوننا ، نحن الإسلاميّين واليساريّين بكلّ أطيافهم ، وكذلك القوميّين بألوانهم كافّة إلى أروقة المحاكم ، لعلّ أزلامه يحكموننا بالإعدام فيرتاح منّا دُفعة واحدة . كانتْ ملفّاتنا بين يدي القاضي ، وكانتْ على ما فيها من كذبٍ وتلفيق لا ترقى إلى أنْ تكون أحكامنا ما كانتْ عليه ، وكُنّا قد

قضينا في السّجن حتّى ذلك التّاريخ خمسَ سنوات على الأقلّ .

اختار القاضي (المختار الهويسا) ماذا يفعل بنا ، كان يرى أنّ الفترة التي قضيناها حسبَ ما لديه من معلومات أكثر من كافية ، فأصدر حكمًا قضائيًا بالإفراج عن جميع السجناء السّياسيّين ، وكانتْ تلك مفاجأة غير متوقّعة ، والأدهى أنّه أوصى أنْ يأخذ الحُكم طريقه إلى التنفيذ الفوريّ . أردْنا أنْ نتأكّد من أنّنا لا نحلم فنظر بعضُنا في عيون بعض ، فرأينا علامات التّعجّب نفسها ، لكنّنا أرجعْنا ذلك إلى الأقدار الغريبة . لم نجرؤ على أنْ نحتفلَ أو نفرح خوفًا من أنْ نكتشف بأنّ النّطق بالإفراج عنّا لم يكنْ حقيقيًا .

لكنْ ما من شيءٍ مستحيل في السّجن ، ما من شيءٍ طبيعيّ فيه ، ما من شيءٍ فيه لم يحدث . ما من طامّة فيه لم نجرّبها . ما من حزن فيه لم يبتلعنا . ما من عجيبة فيه لم نرها . أضفْنا هذا الحُكم الغريب إلى مجموعة الأشياء الغريبة الّتي نتعرّض لها في اليوم الواحد عشراتِ المرّات ، وصدّقْنا أنفسنا وإنْ بقيتْ كرةٌ من الشّكّ تجول في أحشائنا تمنعنا من أنْ نوغل في توقّعاتنا!

رجعنا إلى السّجن ؛ لنتهيّأ للخروج ، قام زملاؤنا بتسليم ملابسهم لفقراء السّجن ، بالنّسبة لي سلّمتُ ملابسي ، وأغراضي الّتي كانتْ كلّ عالَمي في السّجن إلى سجناء الحقّ العامّ . كنتُ أريدُ لهم أنْ يشعروا ببعض البحبوحة ، أحدهم كادَ يبكي وهو يأخذ منّي قميصًا مهترئًا ، قلتُ له : «لو كان عندي أثقل منه لوقاكَ برد الشّتاء» . آخر أعطيتُه الحذاء الّذي رافقني خمس سنوات ، كان في فردته اليُمنى ثقبان ، واحدٌ من الأمام والثّاني من الجانب الأيسر ، رأيتُ في عينَيه فرحة الأطفال وهو ينتعله وقبّلني على جبيني ، قلتُ له : «إنه لا

يحمي من الماء إذا أمطرت» . ردّ عليّ : «لكنّه يحمي قدميّ العاريتين من الصقيع على الأقل» . ثالثُ أعطيتُه كأسي البلاستيكيّة ، قلّبها بين يديه ، ووضعها على رأسه ، ثمّ ولّى دون أنْ يقول كلمةً واحدة .

ركبْنا في الزنازين المتحرّكة ، لكي يوصلونا إلى مجمّع السيّارات . أنا قلتُ لهم : «أمشي على قدميّ» . رفضوا . حاولتُ أن أقنعهم أنّ بيتي قريبٌ ، لكنّهم لم يفهموا ، قال أحدهم : «من هناك يُمكنك أنْ تمشي إذا أردت ، الأوامر واضحة» . خرجْنا ونحن غير مُصدّقين حتّى هذه اللّحظة . استقبلتْنا أُسَرُنا في مجمّع السيّارات بالزّغاريد ، كانوا مثلنا غير مُصدّقين . أجواء الفرح كانتْ تملأ المكان ، القريبون استقلّوا السيّارت مع ذويهم إلى بيوتهم ، وسُكّان المناطق الشّرقيّة البعيدة استأجر ذووهم السيّارات إلى المطار ، كي يستقلّوا الطّائرة الّتي تُعيدهم إلى مُدُنِهم .

كان طنين الزّمن الصّامت يتصاعد في أذنيّ كأنّه قادمٌ من غورٍ سحيق . كلّ شيءٍ كان ساكِنًا على بوّابة البيت . التّاريخ الّذي قضيتُه هنا نهضَ فجأةً على قدمَيه ووقف قُبالتي ، كان له وجهٌ غائمٌ لم أستطعْ أنْ أتبيّنه ، لكأنّه لم يكنْ بوجهٍ على الإطلاق .

خطوتُ أولى خطواتي إلى بيتنا الّذي كانتْ أمّي تملؤه بالحبّ ، وتطرّز جُدرانه بالحنان . ألقيتُ بأعباء السّنين الخمس خلف ظهري ، ورميتُ جسدي على إحدى الأرائك القديمة الّتي كانتْ تجلس عليها أمّي . حظيتُ بدقائق من الهدوء في غرفة الجلُوس وأنا أستعيد الذّكريات ، وبدأتُ الاستعداد لاستقبال المُهنّئين ، كان أوّل الواصلين إلى البيت سيّارات الأمن المركزيّ ، قال قائد الفرقة الّتي حضرتْ : «العقيد أمر بإعادتكم إلى السّجن» ، حمّلونا في مركباتهم وأعادونا إلى

السّجن ، في الطّريق حاولتُ استعادة صورة أمّي ، كان طيفُها يظهر من وراء زُجاج المركبة ، كانتْ تبتسم ، لم تقلْ شيئًا ، رأيتُها تغيب وتظهر مرّات من خلال ذلك الزّجاج ، حتّى إذا ملأ المنظر من خلف الزّجاج بوّابة السّجن وجدرانه العالية اختفتْ . أمّا سكّان المنطقة الشرقية المُفرَج عنهم ، فقد أُوقفوا في المطار وأُعيدوا ، لم نحظَ بالحريّة أكثر من أربع ساعات . كانتْ أكثر من كافية ربّما لتكثيف هذا المعنى الّذي لا يُدركه إلاّ مَنْ جرّب السّجن ؛ إنّها الحرّيّة!

كان منظرنا كالأيتام الّذين أعيدوا إلى مياتمهم بأسمال بالية ، ليسَ من تعريف لخيبة الأمل أكثر مِمّا نحن عليه ، كُنّا قد ابتلعْنا الصّدمة ، أمّا حُرّاس السّجن فكانوا ما زالوا مشدوهين من الموقف ، وهم يُشاهدوننا ندخل إلى زنازيننا من جديد ، بعضُهم لم يتمالك نفسه وانخرط في بُكاء صامت .

(٣٣)
الرّاهبات الثّوريّات

سلسلة المحاولات الانقلابية الّتي قادَها عددٌ كبيرٌ من الضبّاط على القذّافي ، وخاصّة محاولة (عمر المحيشي) أفقدتْه الثّقة بكلّ أحد ، فلجأ إلى ما سمّاه بـ (الرّاهبات الثّوريّات) ، وجعلهنّ موضع ثقته ، وأغدق عليهنّ الأموال ، وكان أوّل ظهورهنّ في عام ١٩٨٠م . وهي السّنة الّتي مهّدتْ لعهد الاستشراس الّذي لم يكنْ له مثيلٌ في السّابق .

كان العقيد يختارهنّ بنفسه ، ولم يكنْ عملهنّ مقتصرًا على حراسته فقط ، فقد كُنّ يقمْن بالدّرجة الأولى بالتّرفيه عنه ، واستخدامهنّ لمُتَعِه وشهواته ، كان يشترط في أنْ يكون عُمْر الواحدة منهنّ ثمانية عشر عامًا ، وأنْ يكنّ عذراوات ، وقابلات لتفديته بأرواحهنّ ، ويحظَين بجمالٍ يُحدّده بنفسه ، فقد كُنّ يُعرَضْنَ عليه حتّى ينتقي منهنّ ما يتناسَب مع ما يريد . وكُنّ يخضَعْنَ لتدريبٍ عسكريٍّ نوعيّ ، وكان يُشيع أنّه اختارهنّ لأنّهنّ أكثر من يحرس الثّورة ، فكما في الدّين المسيحيّ راهباته ، فللثّورة كذلك راهباتُها ، والثّورة دينٌ ، بل هي أهمّ من الدّين لأنّها الحامية القويّة له!

عجّ باب العزيزيّة بهنّ ، ومنهنّ منْ أُخِذتْ من مدرستها بعد إعجاب العقيد بها ، وبقيتْ سنواتٍ ترفّه عنه بشتّى أنواع التّرفيه ، ومن ثمّ مَنْ تثبتُ قُدرتها على حمايته كان يضمّها إلى قطيع حارساته . في العزيزيّة كان يُمارس معهنّ الجنس أمام مستشاراته الأخريات من

اللواتي بلغن عمراً متقدّمًا ولم يعدْ للعقيد فيهنّ مطمع ، وكانت المستشارات يُحدّدْنَ له عدد اللّواتي يجب أنْ يمارس معهنّ الجنس في اليوم ، وفترة الممارسة الواحدة . واتّخذ له كذلك من الغلمان من يركبهم ، ويمتطي ظهورهم ، وهؤلاء الغلمان كانوا يخضعون لمنهج مدروس من قبل المستشارات في تقديمهم للعقيد ، في الأوقات التي كنّ يرينها مُناسبة . كان الغلام يُزيّن للعقيد كما تُزيّن الفتاة . العطر ، والدّهن ، والجسد النّاعم ، والأوراك البَضّة ، واللّباس الشفّاف وأمور أخرى . ولم يكنْ مُحرّمًا على وَكْر الجنس المُعدّ خصّيصًا لذلك أيّ شيء ، فقد كانت الخمرة بأنواعها والحشيشة بأنواعها وأصناف الطّعام كلّها متوافرة للمحظيّات والمحظيّين ، بشرط أنْ توافق على ذلك مستشارته أو ساحرته الخاصّة .

أمّا الطّالبات اللّواتي لم يكنّ يعرفْن ماهيّة الجنس ، ولا أوضاعه وأساليبه وطُرُقه من اللّواتي أُخِذْنَ من مدارسهنّ وهنّ بنات اثنتي عشرة سنة ، فكانت المستشارة الكبيرة تتولّى شرح ذلك لهنّ ، وكُنّ يُجبَرْن على حُضور بعض الوضعيّات المدروسة في أفلام إباحيّة لتطبيقها مع العقيد!

كان العقيد يُفسّر سبب إحاطة نفسه بالنّساء بأمرَين مُعلنَين ، وثالث مخبوء . أمّا الأمران المُعلنان فإنّهن أكثرُ أمانًا من الرّجال وخاصّة فيما يتعلّق بحمايته بعد أنْ أنْ فقد الثّقة برفاق السّلاح ، والأمر الثّاني أنّ النّساء أقدرُ على إطلاق الرّصاص لحمايته من الرّجال ، إذْ كان يعتقد أنّ الرّجل لن يُطلق الرّصاص من سلاحه على امرأة . أمّا الأمر الثّالث المخفيّ ، فقد كان يؤمن بأسطورة المرأة الحارسة ، والأسطورة الّتي أقنع نفسه بها واختار راهباته الثّوريّات على أساسها تقول بأنّ أصول

هؤلاء الحارسات يعود إلى منطقة الصحراء التي تشير الروايات التاريخية المتداولة في ليبيا إلى أنها كانت مقرّ النّساء الأمازيغيات المُحارِبات في الأساطير اليونانية القديمة!

بدأتْ قصصه، ومغامراته أو فضائحه تنتقل عبر العالَم، عندنا في السّجن عرفْنا كثيرًا من هذه القصص عن طريق الحرس، بعضُهم كان يتفاخر بفحولة سيّده، ولا يتورّع أنْ يرويَ لنا قصص لياليه الحمراء الّتي سمعها من الّذين شهدوا الواقعة من ذوي الرّتب العاليةِ في الجيش أو في الشّرطة العسكريّة.

أعطَى العقيد لحارساته الإناث سُلطةً مُطلَقة، وكانتْ كلّ واحدة تحملُ سلاحًا على جانبها، وخنجرًا في عُروة نِطاقِها، وكان يحلو له أنْ يراهنَ يستخدمْن المُسدّس سريع الطّلقات والخنجر أمامه، ولو أدّى ذلك إلى القتل وإراقة الدّماء.

كان للرّاهبات الثّوريّات مقرّات خاصّة موجودة في طرابلس وغيرها من المدن، لكنّه كان عليهنّ أنْ يمررْن جميعًا بباب العزيزيّة وهو قصر القذّافي أو قلعته، وكثيرًا ما كانتْ تتغيّر الوجوه الأنثويّة في باب العزيزيّة، لأنّ العقيد كان يحبّ أنْ يرى وجوهًا ناعمةً جديدةً في كلّ مرّة.

كان العقيد يُرسِل الرّاهبات الثّوريّات إلى إيطاليا وفرنسا ليتسوّقْن في متاجرها الكُبرَى كلّما أراد أنْ يُشعرهنّ بمحبّته، وكان يُسمّي كلّ واحدةٍ منهنّ (عائشة) على اسم ابنته الوحيدة، وكان هذا شرفًا لم يحظَ به الوزراء ولا المُفكّرين ولا العُلماء الّذين كانوا يُسمّون بالأرقام.

كان بمقدور الرّاهبة الثّوريّة أنْ تقتل دون أنْ تُحاسَب. وكُنّ يُظهِرْن ولاءهنّ المُطلَق في لحظات تنفيذ أحكام الإعدام بالخائنين والضّالين

كما كان يُسمّيهم ، ومنهم (هدى بن عامر) الّتي كانتْ تتلذّذ بالهتاف المسعور بحياة القائد ، وكانتْ تتعلّق بأقدام المشنوق وتشدّه إلى الأسفل حتى تُسارع بإنهاء حياته .

لم تسلم الجامعات أيضًا من نزوات قائد الثّورة ، فكان العقيد يختار ضحيّته من خلال جلوسه في غرفة خاصّة ترصد الفتيات عن طريق كاميرات مُراقبة مبثوثة في أرجاء قاعات المُحاضرات ، وفي المدرّج الرّئيسيّ في بعضِ الجامعات هناك تحته غُرف خاصّة لكي يستمتع العقيد بصَيده ، وغرفةٌ أخرى لكي يقوم أطبّاء متخصّصون بعمليّة الإجهاض لكلّ فتاة يتبيّن أنّها حملتْ من العقيد . وكان العقيد يُصرّح أنّ الشّعب اللّيبيّ هم أبناؤه ، وأنّه أبٌ للجميع!!

كان العقيد يستخدم لغة الإشارة في صَيْد ضحيّته ، مرافقاته من الرّاهبات الثّوريّات ، أو من حرسه الأنثويّ يعرفْن إشاراته ، ويفهمْنَها دون عناء ، كانت ثلاثَ إشارات لا غموضَ فيهنّ ، فإنْ كانت الجارية الّتي يريدها من بنات المدرسة فإنّه يمسح بيده الشّريفة على رأسِها ، وإنْ كانتْ من بنات الجامعة فإنّه يُمسِكُ بيدها ، وإنْ كانتْ من سيّدات المجتمع فإنّه يربّتُ بيده على كتفها ، وقد تختلطُ إشارةٌ بأخرى ، ولكنْ ما من أنثى مُسحَ على رأسِها أو أمسكتْ يدها أو رُبّتَ على كتفها إلاّ وأُحضِرتْ إلى العقيد لكي يغتصبها!!

زار الرّئيس المُؤتمن مرّة معهد المعلّمات في طرابلس ، وفي الحفل الّذي ضجّ بكلمات التّمجيد من كلّ مَنْ صعد للمنصّة وألقى خطابه ، لم يكن العقيد يسمع شيئًا ، كان يدورُ بعينَيه باحثًا عن فتاة تُشبع هوسه الجنسيّ ، مرّ على عشرات الفتيات اللّواتي لم يكنّ يعرفْن أنّ عينَي ذِئبٍ أغبر قد عبرتْهُنّ جميعًا ، كانتْ في عينَيه الضّيّقتَين تتسع

رغبةٌ لا حدودَ لها ، كلّما أحسَّ بأنَّ دَمَ الضَّحيَّة حرّكه كان يُضيّقُ عينَيه أكثر ، ويفتَح فمه قليلاً ، وتتصاعَد أنفاسه في زفيرٍ محموم ، لكنْ رائحـة الدَّم يجب أنْ تكون قـويّة ونفّـاثة حـتّى ينقضَّ الذّئب على ضحيّته ، بعضهنَّ حرّكْنَ شيئًا من تلك الأنفاس المُتصاعدة ، لكنَّ هذه الفتاة الّتي تجلس في الصّفّ الأوّل قد نثرتْ دمه ، وكادتْ تحرق بنَفَسه المحموم رأسه . أومأ العقيد لإحدى حارساته أنْ تنتبه على حركته ، ففهمتْ على الفور ، بعد الحفل ، نزل وسلّم عليهنَّ واحدةً واحدةً ، وأراد أنْ يتأكّد من جديدٍ أنّ دماء الرّغبة ستتجدّد عندما يحينُ دورُ ضحيّته . هذا تمامًا ما حدث ، حينَ صافحها تحرّكَ كلّ شيءٍ فيه ، وحينَ نظر في عينَيها كادت الرّغبة تُطيح به ، توقّف عندها قليلاً . أمسكَ بيدها لتصل إشارته إلى حارساته . وعادَ إلى العزيزيّة . في الطّريق قالوا له ، لن تتأخّر عليكَ كثيرًا ، مجرّد إجراءات احترازيّة كما يتطلّب البروتوكول وتكون في فراشك على أحسن مِمّا تشتهي أو تتخيّل .

عُرِضَتْ على الطّبيب العراقيّ المختصّ بضحايا القذّافي ، فحصها ليتأكّد من أنّها خالية من (الإيدز) أو أيّة أمراض أخرى . ثُمّ أرسل تقريره إلى الحارسات لكي تتمّ الإجراءات الأخرى . أُخذت الفتاة إلى خبيرة تجميل ، نُظّف جسدها من كلّ شائبة ، وصارَ ناعمًا طريًا . ثُمّ أخذتْ إلى حوض كبيرٍ للسّباحة مملوءٍ بالحليب ، كان عليها أنْ تغطس فيه ، وتبقى فترةً كافيّة حتّى يطرّي الحليب كلّ بوصةٍ في جسدها . ثُمّ خرجتْ لتكون حوريّة العقيد الحديثة ، ثُمّ تولّتها خبيرات التّجميل من جديد ، العطور الّتي يفضّلها الرّئيس ، والدّهون الّتي يريد أنْ تنزلق بها تحته ، وأحمر الشّفاه الّذي يجعل العقيد ينهل من خمرهما ، والكحل

الذي يُعيد العقيد إلى بداواته، إلى حرمانه القديم، لكي يشكر الله اليوم على عطائه اللامحدود.

بعد حوض الحليب، هناك على الأطراف غُرَف مُتعدِّدة تُفضي إلى أبواب خارجيّة لمن أرادتْ أنْ تغادر، أو أنْ تعود إلى الحوض لمن أعجبها أنْ تبقى إلى جوار سيِّد الجنّة، الغُرَف مُجهّزة بكلّ أنواع الرفاهية، ويُمكن أنْ تكون هناك أكثر من فتاة في هذه الغرف في الوقت نفسه، ويُمكن أنْ تبقى الفتاة في الغرفة بكامل زينتها لياليَ طويلة قبل أنْ يهلّ عليها السيِّد ويهبها خيراته!!

أُخذت الفتاة الجامعيّة إلى إحدى هذه الغرف بأسرع ممّا كان يُمكن أنْ يحدث، لأنّ العقيد وصّى بها على غير العادة. في البداية تلتقيها امرأة خبيرةٌ بعلوم النّفس، تحاول أنْ تُطمْئنها، وتُهدِّئ من روْعها خاصّة إذا كانتْ من بنات المدارس الصّغيرات. ثُمّ تتولاها امرأة ثانية تشرح لها التّعليمات الكافية بالخضوع لكلّ ما يطلبه العقيد منها، وتقول لها: «إنّه شرفٌ كبيرٌ أنْ تكوني بصحبة العقيد لليلةٍ كاملة. إنّه أب الجميع، ولكنّه لا يهب جسده لأيّ أحد، لقد اختارك لكي تحظَي بهذا الشّرف، وعليك أنْ تكوني فَخورة». ثُمّ يُقال للعقيد: «إنّها جاهزة». تدخل المستشارة مع العقيد إلى المضجع، لتراقب حركة جسده، تتأكّد من الوضعيّة الصّحيحة، وتُلقِي بعض النّصائح، وتتابع العمليّة عن كثب، أو تذهب لفترةٍ قصيرةٍ ثُمّ تعود، أو قد تنشغل بأمور أخرى وهي في الغرفة معهما، وأحيانًا قد تنهر العقيد، وتقول له: «هذا يكفي، قُم. إنّك تخور كالعجل. إنّها ما زالتْ صغيرة. هناك من اتّصل. عندك اجتماع عليك أنْ تُسرع» وكان يُذعن لها كما يُذعن طفلٌ صغيرٌ لأمّه، فيقوم وهو يلعق شفتيه، أو يمسح الزّبد المتجمّع عند زاويتَي فمه.

العقيد نفسه قبل أنْ يدخل على جاريته ، يخضع لفحص هو الآخر ، ويُعطى بعض الحبوب المُنشطة ، ويُتأكد من كميتها وتأثيرها عليه حتى لا تُسبب مشاكل أخرى . وتتلقاه المستشارة بعد العمليّة - إنْ لم يكنْ لديه اجتماع مهمّ - بلفافة الحشيش ، وكثيرًا ما كانتْ تأتيه بالموادّ وتطلب منه أنْ يلفّ سيجارته بنفسه ، ولم يكنْ يعترضْ على أيّ شيء تقوله!

الفتاة الّتي سرقها من الجامعة ، اختارت الباب المُفضي إلى الخارج . قبل أنْ تخرج منه ، كان في انتظارها أمير الخَراج ، صرف لها سيّارة من نوع (فولفو) هكذا تقضي تعليمات العقيد ، ومبلغًا كبيرًا من المال ، وعقدًا من الذّهب الخالص ، وكذلك أسوارةً .

ما جرى بالنّسبة لها خارج تصديق العقل ، كان كلّ شيء فيها يرتعش ، لم تكنْ تشعر بأنّ جسدها هو الّذي اغتُصب بل روحُها ، كلّ ما هو مُقدّس انتُهك في لحظات أشبه ما تكون بالخيال . لم تُصدّق أنّها فقدتْ كلّ شيء في نزوة لرئيس نصّب نفسَه إلهًا ، فقدتْ عُذريّتها وشرفَها وكرامتها وقلبَها وروحَها وجسدَها وحياتَها ، وكلّ شيء .

أسرعتْ إلى خطيبها ليحميها ، كان هو الآخَر جُنديًا ، وفي السّلاح ، وهو من ضمن طاقم حماية العقيد . تردّدتْ قبل أنْ تُخبره بالقصّة ، فالخوف من الفضيحة أعظم من الخوف من الموت ، لكنّ الضّابط الّذي يحمل المُسدّس على جانبه إمّا أنْ يتفهّم الأمر ، فيثأر لها منه فيقتله ، أو لا يتفهّم الأمر فيثأر لنفسه منها فيقتلها . وهي راضيةٌ بالأمر على الحالَين . قد يُطهّر ذلك روحها من الدّنس الّذي تشعر به ، ولا تعرف كيف تتخلّص منه .

القصّة لم تجدْ سبيلاً للتّصديق عند خطيبها الضّابط ، فشكّ في

الأمر، ثُمّ شكّ فيها أنْ تكون قد انضمّتْ إلى الضّالّين المُضلّين، ثُمّ صار عنده ما يُشبه اليقين بأنّ خطيبته تشترك في مؤامرة لإسقاط العقيد بإشاعة أكاذيب عنه لا يُصدّقها أحدٌ، ورأى أنّ شرف انتمائه للسّلاح أكبر من شرف ارتباطه بهذه الفتاة المجنونة، وأنّ ذلك يُحتّم عليه أنْ يُخبِر رئيسَه في الأمن بالقصّة حتّى يأخذ احتياطاته للتّصدّي لهذه المؤامرة وحماية الرّئيس مِمّا يُراد به في الخَفاء!!

مرّ يومٌ واحدٌ فقط على تلك اللّحظة الّتي أخبر فيها الضّابط الشّهم رئيسه بالقِصّة. يومٌ واحدٌ فقط ليكون كفيلاً باختفاء الاثنين معًا؛ الضّابط وخطيبته من الوجود!

لم يكن العقيد يُخلي نفسه دون أنْ يلازمه المُصحف. كان يقرأ فيه ما استطاع. إنّه صورةٌ حَيّةٌ للرّئيس المُؤمن، الّذي لا تشغله مهامّ منصبه الكبيرة عن أنْ يظلّ مُتّصلاً بالله، فمنه يستمدّ القوّة، والحماية، والقدرة على التّصدّي للمؤامرات الّتي تُحاكُ ضِدّه والّتي لا تنتهي.

قرّر العقيد أنْ يذهب إلى بيت الله الحَرام لأداء العُمرة، فجلبَ معه العُلماء والمُفتين، وأصحاب العمائم واللّحى، من أولئك الّذين بايعوه على الخِلافة، وبأنّه أمير المؤمنين ورحمة الله إلى النّاس أجمعين.

في الطّائرة الفارهة، أصابه التّعب الّذي يُصيب البشر، فغفا. في النّوم حلم أنّه في الجنّة عند الله، وأنّ كلّ ما عاناه في الدُّنيا أبدله الله به نعيمًا لا ينفد في الآخرة، وأنّ الجنّة لا مؤامرات فيها ضِدّه، ولا ضُبّاط يخونون الطّريق الّتي مشاها، ولا يتركونه في منتصفها بعد أنْ أعطاهم قلبه يُواجه وحده المتاعب.

هزّه أحد مرافقيه من كتفه، صحا من غفوته، سقط الحلم من خياله، فقد منظر الجنّة مرّة واحدة، حينَ استوعبَ ذلك كاد يصفع مرافقه الّذي حرمه من متابعة الحلم، لكنَّ المُضيفةَ كانتْ هي الأخرى تهمّ بتقديم الطّعام له، نظرَ إليها فخُيّل إليه أنّه ينظر إلى حوريّة من حوريّات الجنّة، كانتْ جميلةً جِداً. فركَ عينَيه ليتأكّد من أنّها هبطتْ من السّماء القريبة منهما، ونزلتْ إلى هذه الطّائرة الّتي تسبح باتّجاه الكَعبة، فأكّد له العيانُ الخبر. تحرّكَ فيه ضُباح الشّهوة. كاد أنْ يقفزَ من مقعده ويلتهمها. تذكّر البروتوكول في مثل هذه الأحوال. نظرَ حوله يتفقّد حارساته من أجل أنْ يُعطيهم الإشارة. رأى واحدة على مقربة منه تنظر إليه لتؤكّد له أنّها تنتظر. كانَ عليه أنْ يُربّتَ على كتفِ المُضيفة لتكون ضحيّته القادمة. مدّ يده لكنّها لم تصل إلى كتفها. طلب منها أنْ تنحني قليلاً، ابتسمتْ مُستغربةً، حينَ انحنتْ بدتْ له أجمل من حوريّات الجنّة، رائحتها أيقظَ فيه كلّ رغبة، ربّت على كتفها بسرعة، وأرجع جذعه إلى الوراء وهو يُغمِض عينَيه كأنّه يحلم. وضعتِ الطّعام أمامه، فتح عينَيه ليراها مرّة أخرى. كانتْ قد ولّتْ، حينَ رأى كفلها، تأكّد أنَّ الجنّة يُمكن أنْ تُسقِط خيراتها من الآخرة إليه في الدُّنيا. نظرَ إلى الحارسة الّتي تلقّت الإشارة. حرّك يده في أنحاء من جسده، ودفع الطّعام من أمامه. فهمتْ أنّه يريدُ ذلك قبل أنْ يأكل. فأسرعتْ بإتمام المهمّة.

عندما كان ينزو فوقَها في غرفة خاصّة في الجزء الخلفيّ من الطّائرة، كان صوتُ صرختِه في الدّفقة الأخيرة يطغى على صوتِ التّلبية الّتي كان يُلبّيها العُلماء في المقدّمة!!

(٣٤)
شَيطان في ثَوبِ إنسان

أشعلتْ حرب عام ١٩٦٧م مُظاهراتٍ عارمةً في أنحاء ليبيا كافّة.
كانتْ طرابلس تغلي في تلك الأيّام، انداحَ النّاس في الشّوارع كالحمم البركانيّة يهتفون ضِدّ اليهود وصهاينة العالَم. أضرموا النّار في كلّ ما اعتبروه معاديًا للعروبة في حربِها المُقدّسة، كانتْ ألسنة النّار تلتهم كلّ المحلاّت الّتي تعود ملكيّتها للإيطاليّين واليهود، وامتدّ الشّعب ليطال اليهود والإيطاليّين أنفسهم. وشعرتْ هاتان الأقلّيّتان بخطرٍ داهم.
حاول بعضُهم الاتّصال بسفارة بلاده لكي تُخرجه من هذا الجحيمَ والكراهية الشّديدة الّتي تقول بوضوح إنّ موتهم على أيدي الهائجين من العرب صار مؤكّدًا. بعضُهم استجابتْ له سفارة بلده، وبعضُهم الآخر لم تتمكّن من إنقاذه. برز على السّاحة شخصٌ مجهول، قدّم نفسه للعائلات اليهوديّة منها بشكلٍ خاصّ على أنّه المُنقِذ، وأنّ لديه الإمكانيّة الكافية لحمايتهم من بَطش الشّعب الأهوج. اقترحَ عليهم حمايتهم من أنْ يُمَسّوا بأدنى أذىً مقابل مبلغ بسيطٍ من المال يُغطّي تكاليف إقامتهم ريثما تنجلي الأمور، وأعطاهم العَهدَ على ذلك. لم يكنْ لدى اليهود والطّليان خيارٌ آخَر، خاصّة أنّ العَرض كان سَخيًا. لكنّهم أرادوا أنْ يتأكّدوا من أنّ مُخلّصهم صادقٌ، ولأنّه مسلم، فقد أقسم لهم على المُصحَف أنْ يتولّى حمايتهم كما يحمي أبناءه. وثقتْ به الأُسَر المنكوبة، وتمّ ترحيلهم في جُنح الظّلام بواسطة شاحنةٍ كبيرةٍ

إلى مزرعةٍ مهجورةٍ خارجَ طرابلس تبعد عشرات الكيلومترات وكان عددهم بحدود العشرين أو الثلاثين . أسكنهم في أربعة بيو متلاصقة في المزرعة ، وقبضَ منهم ثمنَ حمايتهم . وغادرهم متمنيًا لهم إقامةً هانئة وليلةً سعيدة . طلبَ منهم أنْ يغطّوا أنفسهم جيدًا وألاّ يخرجوا من البيوت لأنَّ الأمر في الخارج ليسَ مأمونًا .

لم يغادر المُخلّص المجهول بعيدًا ، تلثّم بلثامِ الطّوارق ، غطّى اللّثام كامل وجهه ، باستثناء عينَيه اللّتين كانتا تلمعانِ من تحت اللّثام . كَمَن هو ورجاله على مقربةٍ من البيوت الأربعة ، بقوا حتّى تأكّدوا أنّ اليهود والطّليان قد غطّوا في نومٍ عميقٍ ، وبإشارةٍ منه اقتحموا الغُرَف الأربعة بكاملِ أسلحتهم . أشهرُوا أسلحتَهم الرّشّاشة . أمرَ رجاله بتقييدهم جميعًا ، كان بعضُهم يصحو من نومه وهو يصرخ متسائلاً عمّا يحدث ، رآه أبُ إحدى العائلات ، التقتْ عيناهما ، عرفَه ، قال له : «ألستَ المُخلّص؟» . ظلّ صامتًا . أعادَ عليه السّؤال مرتعشًا : «ما الّذي تفعله؟» . أماطَ المُخلّصَ اللّثام عن وجهه لكي يراه بشكلٍ واضح ، كانت عينا المُخلّص تقدَحان شررًا ، قال له : «أنتم تقتلون أطفالَنا في فلسطين ، ونحن سنقتلكم هنا» . ردّ عليه وقد اجتاح الرّعبُ كيانه : «إنّنا لم نقتلْ أحدًا ، أولئك الصّهاينة ، وهم هناك على بعد آلاف الكيلومترات ، فما ذنبنا نحن؟» . أجابه : «كلّكم قَتَلَة ، وكلّكم مُتشابِهون» . عرفَ اليهوديّ أنّ الحِوار بهذا الاتّجاه لن يُفيد ، فحوّله إلى جهة أخرى : «ولكنّكَ أعطيْتَنا الأمان» . «أنا لم أُعطِ أحدًا شيئًا» . «ولكنّكَ قبضْتَ مُقابل أن تحميَنا» . «هذه الأموال الّتي بين أيديكم هي أموال بلادي وشعبي ، وأنتم سارِقون لها» .

كان رجاله قد قيّدوا جميع مَنْ في الغُرَف الاربع ، طلب المُخلّص

المهول من رجاله أنْ يجمعوهم في ساحةٍ واحدة ، أضاءها بشُعل من المشاعل الزَيتيّة المحمولة على عصًا طويلة ركزها في الأطراف . كانت الأيدي مُقيّدةً إلى الخلف . أحضر أربعةً من رجاله أربعَ سكاكين كبيرة ، كان هناك نساء وأطفال وشباب لم يبلغوا الحُلُم ورجال ، ذُبحوا جميعًا عن بكرة أبيهم . لم يشفع للأطفال صُراخهم وهلعهم ، كان المُخلص يريد أنْ يُخلّصهم من هذه الحياة .

بعدَ أنْ أتمّوا المهمّة ، طلبَ من رجاله أنْ يحفروا لهم في المزرعة حُفرةً كبيرة ، ألقَوا فيها الجثث ، وألقَوا معها ثيابهم الّتي تلطّخت بدماء الضّحايا ، والسّكاكين الّتي أعملوها في أعناقهم ، ودُفِنوا جميعًا في قبرٍ واحد . على مقربةٍ من هذه الحفرة الّتي أخفتْ آثارهم إلى الأبد ، كان هو ورجاله يشربون احتفالاً بالنّصر ، وكان هو يوزّع عليهم نِصفَ ما أخذه منهم ، ويحتفظ لنفسه بالنّصف الثّاني . هذا المُخلّص الفظيع اسمه (عامر المسلاّتي)!!

قُدّم للمحاكمة في العَهد الملكيّ ، وأدانته المحكمة ، وأدخل السّجن ليمكث فيه سنتَين . حينما جاء عهد ثورة القذّافي في عام ١٩٦٩م أفرج عنه ، ورُقّي من رئيس عُرَفاء أي ضابط صفّ إلى ضابط شرف . وهذه الرتبة تُعطى على سبيل التكريم والاستثناء ؛ لأنّه ليس من خريجي الكلية العسكريّة برتبة ملازم ثانٍ .

في عام ١٩٨١م ، تمّ تهريب رسالةٍ من سجننا بتواطُؤ من الحَرَس . كان تهريب الأوراق إلى الدّاخل أو إلى الخارج ، يقضي على الطّرَفَين : السّجان والمسجون . حين اكتُشف الأمر ، حُقّقَ مع آمر السّجن ، وأُقيلَ على الفور من إدارته ، وبعثوا لنا بـ (عامر المسلاّتي) مكانه .

كان حِنطيّ البَشَرة ، فارع الطول ، قويّ البنية ، كبير الرأس ،

مُستدير الوجه ، مُمتلىء الخَدَّين ، يتهدّل شارباه الغليظان فوق شفتيه . وتتدلّى بطنه أمامه قليلاً ، لم يبتسمْ لشروق الشّمس مرّة ، ولا حتى للرّغيف السّخن كما يقولون ، كان دائم التجَهّم ، كثير الازدراء والشّتيمة لكلّ مَنْ يُقابله ، إذا ظهر في الأريا ظهرتْ معه الكوارث . وإذا مشى جرّ خلفه المصائب ، ما رأيناه إلاّ عمّنا الشّرّ ، وحفّتْ بنا الخُطُوب ، ونزل بنا العذاب ، ولم يكنْ هذا تطيُّرًا ، فلقد عشناه حقيقةً عشرات المرّات!

إذًا (عامر المسلاّتي) ، صار في عام ١٩٨١م مديرًا للسّجن الّذي نسكبُ على بوّابته أعمارَنا . لم يمرّ في تاريخ السّجون اللّيبيّة أمرٌ مثله ، حتّى إنّنا كُنّا نصل إلى درجة الشّكّ في أنّه من البشر! توافقَ مجيئه كآمر لسجن الحِصان الأسود مع عهد الاستشراس ، الّذي سيكون هو أبرز عناوينه لأكثر من عَقدَين من الزّمن .

كان قلبَ العقيد النّابض ، وقرنَي استشعاره اللّذين لا ينامان . كان العقيد يعتمد عليه في كشفِ محاولات الانقلاب ضدّه ، أو العمل في المعارضة ، وكان المسلاّتي يسجن لمجرّد الشّكّ في أيّ حركة أو أيّ شخص . وعاونه في ذلك (علي بوشعالة) الّذي كان يده اليُمنى ، وعليه يتكِئ في الأمور الخَطرة .

(علي بوشعالة) كُنّا نسمّيه عقيد الكِلاب ، لأنّنا لم نره مرّة واحدةً في حياتنا دون أنْ تكون معه زمرةٌ كبيرةٌ من الكِلاب المُدرّبة . في التّسلّم الأوّل لعامر المسلاّتي لسلطاته في سجن الحصان الأسود عام ١٩٨١م ، أرادَ أنْ يكافِئنا ، ويُطلِعنا على قدراته ، والمستوى الّذي يتعامل فيه معنا ، فحضرَ هو وبوشعالة ومعهم قطيعٌ مُرعبٌ من هذه الكلاب!

كان الوقتُ ظُهرًا ، كان الحاجّ صالح ، والكاجيجي ، والتّرهوني ،

منـلقين على أبراشهم ، كُنا جوعَى وننتظر ما يقذفونه لنا من تحت أبواب الزّنازين لنأكل ، وكُنّا نأكل كلّ شيء ، وأيّ شيء ، كان للطّعام في السّجن لذّة لا يُمكن أنْ تجود بها الحروف فتصفها ، ولم تكنْ وجباتنا أكثر من البطاطا المُغطّسة دون تقشير أو غسْل ، ومعها أتربتها في طناجر كبيرة ، ومهروسة بالأقدام أو بالبساطير أحيانًا ، ومُقدّمة لنا مع بعضِ شوربتها البُنّيّة الّتي كُنّا نشعر ببعضِ حصاها تحت أسناننا ونحن نغمس فيها قطع خبزنا اليابس . كان طعامًا مثل هذا يُؤكل بتلذُّذ ويُشكَر الله بعده ألف مرّة . فلقد كانتْ تمرّ علينا أيّامٌ لا نجد العُشبَ لنأكله .

في ذلك الظّهر الّذي كُنّا نتلوّى فيه فوق الأبراش بانتظار أنْ نسمع الحرَس وهم يصيحون بنا أنْ نمدّ من تحت الأبواب أو من طاقات الزّنازين صُحوننا لنأكل ، اقتحم علينا (عامر المسلاّتي) القسم الرابع مع نائبه العقيد (علي بوشعالة) . سمعنا أبواب الزّنازين تُفتَح مرّة واحدة . تكْ تاك . . تكْ تاك . . . الزّنازين فتُحتْ كلّها مرّة واحدة ، حوالي عشر زنازين في العنبر الرّابع الّذي كنّا نزلاءه ، أمرنا الحَرَس بصوتٍ عالٍ أنْ نخرج إلى السّاحة (الآريا) . خرجْنا مذعورين ، لنفاجأ بالآمر الجديد ، ومعه نائبه ، وبصحبتهم حوالي عشرين كلبًا ، من الكلاب الّتي كانَ لها أسماء ورُتب ، في دولة محا فيها العقيد الأسماءَ كلّها وأبقى على اسمه ، واسماء هذه الكلاب!! كانت الكلاب مطوّقةً من أعناقها بأطواق جلديّة ، تنتهي إلى سيور سوداء يُمسكُ فيها الحارس بالكلب ويمنعه من أنْ يأتي بأيّة حركة قبل أنْ يدعوه إلى ذلك . كانت الكلاب تهرّ هريرًا عاليًا ، وكانتْ ألسنتها تتدلّى من أشداقها ، وأسنانها المُدبّبة البيضاء تبرز من تحت هذه الألسنة ومن فوقها وهي تقطر زبدًا . كاد

قلبي ينخلع للمنظر ، كان هذا أوّل مشهد أرى فيه هذا العدد الكبير من الكلاب . تلمّستُ أطرافي ، أحسستُ بأنّ نُهِشْت . تخيّلتُ ذلك ، لقد كانتْ يد أحد زملائي الّذين يتهافتون تحت تأثير الصّيحات والدّفع بالهروات هي الّتي مسّتْ جانبي . تجمّعْنا في السّاحة ، وزعونا على دائرة كبيرة . أجلسونا أرضًا في السّاحة على الإسمنت ، واعتلى أسطح القسم مجموعة من المسلّحين ببنادق آليّة ، في حين انتشر آخرون داخل الحُجُرات يُهشّمون الطاولات والكراسي الّتي صنعناها من عُلَب الصابون والحليب والعصائر . قاموا بعد ذلك بالتفتيش الدّقيق لكلّ ما في الزّنازين ، وصادروا كُلّ ما تقع عليه أيديهم من أمتعة . ثُمّ جمعوا بعضَ الأوراق الّتي كان السّجناء يُهرّبونها وتحمل كتاباتهم أو أشعارهم أو رسائلهم . وُضِعت الأوراق في أظرُف خاصّة تحمل اسم صاحبها في كلّ ظرف ، ونُقِلت في أوعية كبيرة خارج العنبر ، صودرَ كلّ شيءٍ بما في ذلك ملاعق الأكل . ولا ندري ما فعلوا بكلّ ما أخذوه .

مرّتْ ساعتان . بعضُ الحرس أخذوا أمتعتنا إلى مكانٍ مجهول . بعضهم الآخَر ما زال يتمركز على الأسطح مُصوِّبًا نحونا البنادق الآليّة . بعضهم الثّالث كان لا يزال يقف مع قطيع الكلاب مُتحفزًا . عامر المسلاّتي وبقيّة الضُّبّاط يتابِعون باهتمام الأحداث . ونحن؟ صامتون لا ندري ما سوفَ يُفعَل بنا . عادَ الحرَسُ الّذين صادروا الأمتعة ، ليتولّوا مهمّة جديدة ، كانوا يقودون مزيدًا من الكلاب .

بدأت المرحلة الأشدّ رعبًا . أُطلِقت الكلاب المُدرّبة علينا . بدأتْ تنبح بشدّة ، وراحتْ تثبُ في وجوهنا ، وتنهشُ لحومنا ، كانتْ مدرّبة على نَهْشِ المناطق الحسّاسة من أجسادنا . الأفخاذ ، الأقفية ، وموضع الخصيتين . من فوقنا كان الحرسُ يتأهبّون لإطلاق النّار على كلّ مَنْ

يحاول الفرار . كنّا فقط نحاول ألاّ تنال نيوب الكلاب من وجوهنا ، اتقيناها بأيدينا ، وسمحنا لها أنْ تنهشَ ما تبقّى من أجسادنا . اختلطت صيحات الألم بالنّباح المسعور بصياح الحرس وتهديداتهم بالقتل ، بقهقهات عامر المسلاّتي وبوشعالة . استمرّ هذا الطقس ساعتين أخريين . معظمنا سقط أو كلّنا . وظلّ يتكوّر على الأرض حاميًا لحم خدّه أو ماء عينيه من أنْ يُمسّ ، وفيما عدا ذلك ، سالتْ دماءٌ كثيرةٌ من الرّؤوس والأكتاف والظّهور والسّيقان والأفخاذ والأقدام . لم يبقَ أحدٌ من نزلاء العنبر كلّه بزنازينه العشر إلاّ وعقره كلبٌ في موضع ما من جسمه أو نالتْه هراوة . خرجت الكلاب كلّها مع رُتبها . صاحَ أحد السّجانين يأمرنا أنْ ندخل وأتبعَ ذلك بسيلٍ من الشتائم المُقذِعة . دخلنا إلى زنازيننا . كان يومًا حزينًا . بكينا من القهر قبل أنْ نبكي من الألم . وراح الحاجّ صالح يداوينا كما اعتاد أنْ يفعل ، قال : «عند الله لا يضيع شيء . كلّكلم أحياء ؛ تلك نعمة . احمدوا الله أيّها الشّباب» . بكينا مرّة ثانية . وراح الحمدُ يختلطُ بالآهات .

لم نجدْ ما ننام عليه . كان الحرسُ قد صادروا كثيرًا من الفرشات . توزّع الكبار للنّوم على ما ظلّ منها ؛ كلّ اثنين على فرشة . أمّا نحن الشّباب فنزعنا بعضَ ملابسنا المُمزّقة والمعجونة بالدّماء ، ووضعناها تحتنا ، ورُحنا نستجلب طائر النّوم لنتخلّص من أحداث اليوم الدّامية .

مرّ اللّيلُ بطيئًا . أيّ صباح يُمكن أنْ يطلع على مُعذّبين مثلنا؟! هل خُلقنا من أجل أنْ يلحقَ بنا كُلّ ما ابتكره خيال البشر المريض من عذاب؟! تقلّبتُ على البلاط البارد ، كان جسدي شبهَ عارٍ ، كان الجزء الأعلى من نافذة الزّنزانة مُشرَعا ممّا سمح لمزيد من الهواء الثّلجيّ أنْ يتسلّل إلينا ، مشى الصّقيع في أطرافي ، حاولتُ أنْ أتكوّر على نفسي

لأشعر ببعض الدّفء فلم أفلح . نفختُ في يدَيَّ ، وفركْتُهما ، ثُمّ وضعتُهما بينَ فخذيّ لكنّ الصّقيع أبى أنْ يتوقّف . تقلّبتُ على جنوبي كلّها لعلّ شيئًا ما يكسر هذه الحدّة . نظرتُ إلى وجوه رفاقي ، كانوا يتظاهرون بالنّوم حتّى لا يُقال إنّ الآلام الّتي ذاقوها اليوم تجعلهم يستيقظون شهرًا كاملاً قبل أنْ تبرأ . كانتْ رائحة الدّم المتخثّر ، الّتي تجلّطتْ على أجسادنا تجول في أجواء الغرفة . حاولتُ طردَها ، إنّها رائحة كريهةٌ لكنّها ازدادتْ تعتّقًا ، نفضتُ رأسي لأُبعدها قبل أنْ أشمّ رائحةً أخرى نقلّها لنا تيّار الهواء الصّقيعيّ . كانت الرّائحة قادمة من الجهة الشّرقيّة ، الجهة الّتي يقف فيها سُور السّجن ، كانتْ رائحة حريق ، تسلّلتِ الأدخنة من ذلك الحريق عابرةً الزنازين كلّها ، كانتْ كثيفة لدرجة أنّها جعلتْنا نبدأ بموجةٍ من السّعال ، لكنّها مع ذلك أشعرتْنا ببعضِ الدّفءِ في هذه البحيرة الباردة . لم يكنْ يعنينا أنْ نسأل من أين هي قادمة؟ ولا إذا كانتْ من داخل السّجن؟ ولا إذا ما كان السّجن نفسُه هو الّذي يحترق ، وسنحترق معه؟ لم نكنْ نكترث لشيءٍ ، أيّ شيءٍ نخافُ أنْ نفقده وكلّ شيءٍ مفقود!!

مرّ اللّيل . لا ليل يتوقّف تمامًا ، قد يسير بطيئًا ، ولكنّه في النّهاية يرحل . كلّ ليلٍ إلى رحيل ، لم يَقِفْ ليلٌ ليلاً . حدثَ ذلك منذ بدء الخليقة ، ونحن لسنا استثناء في هذا النّهر المتدفّق من البشر والزّمن .

في الصّباح ، قال أحد الحرّس مُتشفّيًا : «لقد كوّمْنا أغراضكم كلّها في السّاحة الشّرقيّة للسّجن ، وقُمنا بحرقها» .

(٣٥)
مُخيَرون بين المَوتِ والمَوت

خطب القذّافي في أوائل الثّمانينيّات في باب العزيزيّة على إثر تشكّل (الجبهة الوطنيّة لإنقاذ ليبيا)، وأقسم بأغلظ الأيمان بأنّه سيُقتّل الرّجال، ويسبي النّساء، ويُيتّم الأطفال، وسيُصفّي كلّ معارضيه. نفّذت اللّجان الثّوريّة وعيده؛ فلم تُبْقِ على أحد.

كانت البداية مع محمّد مصطفى رمضان المذيع البارز في إذاعة BBC قُتِلَ في مسجد ريجنت بارك بلندن بعد صلاة الجمعة بسبب كتابه: (الشّعوبيّة الجديدة)، كان رمضان يبعث برسائل مفتوحة إلى القذّافي يُناصحه فيها. وكان في كلّ عيدٍ يبثّ عبر الإذاعة أغنية للسّجناء السّياسيّين العرب يُشجّعهم فيها ويُصبّرهم. أطلقَ القَتَلة عليه ثلاث رصاصاتٍ اخترقتْ صدره، وأسالتْ دماءه أمام النّاس، ابنته الوحيدة ذات الأربع سنوات والّتي كانتْ ترافقه في كلّ صلاةِ جمعةٍ لم تكنْ معه تلك الجمعة بالذّات، شاء لها القدر أنْ تكون في مسجد النّساء بين يدَي أمّها حتّى لا تُشاهِدَ أباها وهو يسقط غارقًا في دمائه أمامها.

كان دمه ثمن الحرّيّة الّتي أرادها لنفسه ولشعبه، فلقد قال من قبلُ: «إنّ إصلاح الأمر كلّه يكمن في إشاعة الحرّيّة بين النّاس حتّى يعودوا كما خلَقهم الله بَشرًا مُكرّمين». بعدها بيومَين قُتل المحامي اللّامع محمود نافع. وبدأ القذّافي ولجانه الثّوريّة حملة تصفيات أخرى في أوروبّا في

أثينا وروما وغيرها من عواصم العالَم . وكُنّا نسمع هذه الأخبار تتوالى إلينا هنا في سجن (الحصان الأسود) من خلال الموجة الوحيدة الّتي ضبطناها على هيئة الإذاعة البريطانيّة ، فتبثّ الهلع في نفوس الكثيرين منّا . كنتُ في سِرّي أتمنّى أنْ أرى يدًا سماويّةً تمتدّ لكي تسحب بعيدًا خيمة الرّعب الّتي ضرَبَ العقيد أوتادَها حول ليبيا كلّها .

في مكانٍ آخر ، كان الشّيخ محمّد البشتي يخطب في مسجد (القصر) في طرابلس ، قائلاً : «إنّني أعلمُ أنكم معنا تستمعون الآن إلى ما أقول ، فأرجو كتابة ذلك عنّي : إنّ السّنّة تُعَدّ أصلاً من أصول التّشريع ، وإنّ مُنكِرَها كافر» . كان يردّ بذلك على إنكار القذّافي للسُّنّة . وكانتْ فِتنة . لم تنتظر اللّجان الثّوريّة كثيرًا ، أخذتْه من على المنبر ، وانهالوا عليه وعلى عددٍ من المُصلّين بالضّرب ، وجُرّ من هناك إلى إحدى مقارّ اللّجان الثّوريّة ، استُجوِبَ فظلّ ثابتًا على رأيه ، وحُمِلَ إلى غرفٍ أخرى ، فعُذّب تعذيبًا شديدًا ، ثُمّ أخذه بعضُ القنّاصين إلى إحدى الغابات المجهولة ، واختفى منذ ذلك التّاريخ ، كان ذلك في عام ١٩٨٠م . في عام ٢٠٠٨م ؛ أيْ بعدَ ثمانيةٍ وعشرين عامًا من اعتقاله ، قال الرّجل الثّاني في النّظام : «إنّه قُتِلَ في الغابة على أيدي رجال الأمن في العام الّذي اعتُقِل فيه ، وإنّ قبره وجثمانَه بَقِيا مجهولَيْن ، ولا أحد غير الله يعرفُ مكانَهما!!» .

نُقِلْنا بعد ثماني سنواتٍ إلى السّجن العسكريّ . جُمّعتْ كلّ القضايا وذُهِب بها إلى هناك . حينَ دخلْنا تعرّضْنا لاستقبالٍ حافلٍ بأدوات التّعذيب ، ضُرِبنا كما لو كُنّا سُجناء جُدُدًا ؛ لم تكن الرّحمة تعرف طريقًا إلى قلوبهم . أحد أصحابنا أعمى ، لم يكنْ يرى غير السّواد ، ذات السّواد الّذي كُنّا نراه معه أيضًا وإنْ بعيونٍ مفتوحة . كانوا

يَتَصيدون عينَيه بالهراوات ، وهو يفرّ منها لتفاديها ، ويسقط على الأرض ، ونُمنَع من الاقتِراب منه أو معاونته . يواجه مصيره وحيدًا مثلما تواجه الطَّريدة حشدًا من السِّباع الضَّارية . مَنْ كان في قلبه ليسمع دقّاته ما تقول؟ مَنْ كان في نور عينَيه المُطفأتين ليرى ماذا كان ينوي أنْ يفعل؟ مَنْ كان يدري أنّ الله أراد له ذلك لأنّه أراد له أنْ يُطلعه على ما خبّأه له وحده دون سِواه ، ودون أنْ يعرف أحدًا!! بِمَ كان يختلف الأعمى عنّا ؛ كان يرى ما لا نرى!!

في ذلك العام ، ١٩٨١م على وجه التَّقريب بدأنا ننقطع عن كلّ ما حولَنا ، لم يكنْ هناك من وسيلة للتّواصل مع العالَم الخارجيّ . وكُنّا نخرج مرّة واحدةً في الأسبوع إلى الحمّام للاستِحمام ، ننال نصيبَنا من الضّرب في الذّهاب والإياب ، بعضُنا كان يعود والدّم ينزّ من رأسه ، فيُضطرّ أنْ يمسح دمه ببعضِ ملابسه بدل أنْ يغسلها بالماء ، فالفرصة بالذّهاب للحمّام لا تكون إلاّ لمرّة واحدة ، فإذا استنفدها وعاد مُغطّى بالدّم فتلك مشكلته!!

في المصيبة شيءٌ من الرّوعة ، ليسَ شرطًا أنْ تكون كلّ وجوهها عابسة ؛ بعضُ هذه الوجوه قد يكون ضاحكًا ؛ كان يُشرف على الحَمّام ، أحد جَلاّدي الحقّ العامّ ، الحقيقة الّتي عشناها في السّجن : كلّ الجَلاّدين يُمكن استمالتهم بالنّقود ، ربّما كلّ البشر يُستمالون بالطَّريقة ذاتها إلاّ ما رحم ربُّك . في البداية كان وجهه وهو يترقّب وصولنا إلى الحَمّام ليستقبلنا بالسّوط يجلعنا نرتجف كأنّ راعوشةً أصابتنا قبل أنْ يهوي سَوْطُه الأسود المشهور على رقابنا ووجوهنا . همسَ له أحدُنا وهو يلعقُ دمًا سالَ من خدّه في خطّ حتّى دخل في فمه بعدَ ضربةٍ منه : «كم تساوي ثمانون دينارًا؟» . «إنّها تُساوي راتبي

كاملاً» . «ما رأيكَ أنْ تأخذها مقابل . . .» . «مقابل ماذا؟» . «أنْ تأتينا بمذياع» . «تريدُني أنْ أهرّبه؟» . «هل هذه أوّل مرّة تفعلها . لقد عرفْنا من المهجع الآخَر» . «لكنّ ثمنه عشرون دينارًا» . «سيتبقّى لك ستّون ، أليسَ مبلغًا جيّدًا؟!» .

وهكذا صرنا في زنزانتنا نملك مذياعًا ، كان هذا امتيازًا من نوع عالٍ . ربّما يجلب الحسد ، الحسد الّذي لم يكنْ بمقدوره أنْ يُلحِق بنا مزيدًا من المصائب ، فلقد نهشتْ هذه المصائب من عافيتنا حتّى أصيبتْ بالتّخمة .

بعد عام آخَر ، نُقِلنا إلى زنازين تحتوي على تجويف صغير في قلبها لا يكاد يتّسعُ لجسد الدّاخل فيه ، يُمكن تسميته تجاوزًا (حَمّامًا) ، صرنا نستحمّ فيه بدل أنْ نخرج إلى حمّام العنبر الكامل . في الشّتاء كُنّا نصرخ ونحن نستحمّ ، لم يكنْ لدينا سخّانة ، كان الماء في ليالي يناير لا يكاد ينزل من الصّنبور لشدّة تجمّده ، نرتجف ، نرتعش . تصطكّ أسنانُنا . تزرقّ شِفاهُنا . تتراقص سيقاننا كتراقص سيقان الذّرة في مهبّ الرّيح ، نطوي أذرعنا على جذوعنا . لكنْ لا مهرب من البَرد . كُنّا نداريه بالصّرَخات المتقطّعة ، وبالحركة الدّائبة . كُنّا لا نكفّ عن القفز مثل رقّاص أو زنبرك ، كان ذلك يُدفّق بعضَ الدّم في عروقنا .

مع مرور الأيّام صار مَنْ يملك بعضَ المال يشتري بعضَ الجلدات . ادفعْ تَنجُ . نجا قليلون جدًا . كُنّا فقراء . لم نكنْ نحلم كثيرًا . صار السّجّان أكثرَ تعاطفًا معنا . المال يُرقّق القلوب . لمعانُ الدّراهم يخطف الألباب . صرنا ندفع له دُريهمات ليأتينا بعناوين الصّحيفة الّتي تصل إلى مكتب مدير السّجن . لم نكنْ قادرين على شراء الصّحيفة نفسها ، فكُنّا نشتري عناوينها!

حركَ المذياع أجـواء السّـجن ، أبعـدْنا به شـبَح الملل . عناوين الصّحف ساعدتْنا قليلاً على كَسْرِ العُزلة الإجباريّة علينا . لكنّ المال لا يتوافر دائمًا من أجل أنْ نظلّ على معرفة بما يدور في الخارج . الكتاب كان نادرًا . في زنزانتنا كان ممنوعًا . لكنّنا لم نكنْ عاجزين تمامًا ، كان السّجن يضمّ النّخبـة من الأطبّـاء ، وأساتذة الجامعات ، والمحامين ، وغيرهم ، وكنّا نتدارس فيما بيننا . ظلّ الكتاب يشكّل هاجسًا مُقلقًا . زنينُ نحلة في العقل . طيفُ حبيبٍ في الروح . لمسةُ ناعمة من أنثى فاتنة في حلمٍ يتيم ، ووردةٌ مُشتـهاة في صحراء قاحلة ؛ لقد كان أعزّ مفقود .

لا أحدَ يدري ما يجول في خاطره . العينان تفضحان أحيانًا ، لكنّ عينَيه لم تكونا تقولان شيئًا ، كانتا جامدتَين تمامًا كأنّما قُدّتا من زجاج . في الشّهر الأخير الّذي تغيّرتْ فيه أحكامنا من خمسـةَ عشر عامًا إلى المُؤبّد رأيناه اختلفَ تمامًا ، صامَ عن الكلام . كان يسهر رغم التّعب . يكتبُ في أوراق ويُخبّئُها تحت مخدّته . طاف قلمُه على آخرين ، لكنّه كان يعود إليه . حصل على بعض المال في الزّيارات الأخيرة . كان قليلَ الأكل . لم يستفدْ ممّا لديه من مال في شراء ما يهوى من طعام . وكان يبدو أنّه ينتظر شيئًا ما!

في ظهرِ يوم من أيّام الصّيف ، رأيتُـه يرتدي بلوزة صوفيّة ذات عنق ، استغربتُ أنّه في مثل هذا الجوّ الخانق يلبسها . لم أشأ أنْ أسأله ، فلم يعدْ يتجاوب مع مُحدّثه منذ زمن . مرّ اللّيل . في الفجر قبل أنْ تشرق الشّمس ، ناداني أحد النّزلاء من الزّنزانة الّتي تقابلنا . صحوت على صوته : «عليّ . . عليّ . . يا عكرميّ» . كان يتلفّت من فتحة الزّنزانة يخشى أنْ يصحو الحارس الّذي كان يغطّ في نوم عميق .

على ما يبدو . اقتربتُ من طاقة زنزانتي ، قال لي بصوت قريب من الهمس ، لكنّه كاف لكي أراه : «اسمعْ لديّ خبرٌ صعبٌ» . هززتُ رأسي ، بدتْ علامةُ السّؤال في عينيَّ من وراء الطّاقة : «ماذا هنالك؟» . «محمّد علي هرب» . «صديقنا الّذي كان يرتدي بلوزة الصّوف أمس؟» سألتُه لأتأكّد . فأجاب : «نعم . ولديّ رسالةٌ منه لكلّ نزلاء العنبر» . قذف بها من تحت شقّ الباب . تراجعتُ ليختفي وجهي المطبوع في الطّاقة ويختفي من الممرّ الّذي يفصل بين الزّنازين ، فتحتُها متلهّفًا ، سابقتْ عيناي حُروفَها المكتوبة بخطٍّ أنيق كأنّما كُتبتْ على مَهَلٍ وفي لحظاتِ صفاءٍ ذهنيٍّ نادر ، كانتْ تقول : «أخواي قُتلا في السّجن . وأبي السّبعينيّ عُذّب ولا أدري إنْ كان حيًّا أم اختاره الله إلى جِواره ، بالنّسبة لي لا أريد أنْ أموتَ . أتمنّى من أخي الثّالث الموجود في العنبر الخامس أنْ يُقدّر له مثل ما قُدّر لي ؛ الحرّيّة . إذا كنتم تقرؤون هذه الرّسالة فسأكون قد تمكّنتُ من الهرب . أُصلّي من أجل أنْ تنالوا حرّيّتكم مثلي . وأعتذر عن كلّ أذًى سوف أتسبّب فيه حين تعرف إدارة السّجن . كلّ ما أرجوه منكم أنْ تُعطوني خمس ساعات قبل أنْ تُبلّغوا الإدارة حتّى أتمكّن من اجتياز الحدود . التّوقيع : محمّد علي» .

لم يكن التّشديد على العدّ في تلك الأيّام كبيرًا . طلبَ من الفدائيّ الّذي تبرّع بأنْ ينقل العدد للحارس أنْ يقول إنّ العدد تامّ . اختبأ في الحمّام . ومن طاقتها الّتي كانتْ قضبانها صَدِئة لم تتغيّر من ايّام الاستعمار الإيطاليّ وسهلة الخَلْع خرج . مشى متذرّعًا بنوم الحرّاس ، ومتخفّيًا في ظلمة الهزيع الأخير من اللّيل ببلوزته الصّوفيّة السّوداء . حتّى وصل إلى جدار السّجن . تمكّن من تسلّق الجدار . من

خلف الجدار من الخارج كان ينتظره أحد أقاربه الّذي اتّفق معه على ساعة الصّفر. رمى إليه بزرّاديّة. قطع الأسلاك الشّائكة الملتفّة كشجر الصّبار فوق السّور، أحدث فيها فتحةً تتّسع لجسده. مرّ بحذرٍ وبطءٍ حتّى لا يمسّ جسده أيّ شيءٍ. كان يلهث تعبًا ولهفةً وخوفًا وفرحًا. مزيجٌ من المشاعر المتضاربة يجعل اللّهاث بطعم الكُحول. كاد يتسبّب له اللّهاث بالغيبوبة، فقد كان يعاني من ضيق التّنفس، إلاّ أنّ وقت الفجر ساعده بهوائه النّقيّ على ألاّ يسقط، استعاد توازنه. قفز من السّور العالي إلى الخارج. أُصيب ببعض الرّضوض. كانت سيّارة قريبة تنتظره. ركبها دون أنْ يُضيء أضواءها، وانسلاّ هاربَين!

عرفْنا ما حدث. توقّعنا حجم المُصيبة. خفنا أنْ نُلامَ من قِبَل التّروتسكيّين، إذ إنّ السّجين الهارب كان إسلاميًا، قُلنا نحتمل نحن، لكنْ قد لا يحتملون هم ما يُسبّبه هذا الهروب من ويلات، وهذا من حقّهم. حينَ عرضْنا عليهم القصّة، وطلبْنا منهم أنْ يُسامحونا، كانوا أكثر نُبلاً مِمّا توقّعْنا، قال زعيمهم: «مِنْ حقّه أنْ يهرب. ونحتمل الأذى من جرّاء ذلك مثلكم، فكلّنا في الهَمّ شرق، ورجلٌ شُجاعٌ مِثله استطاع أنْ يفعلها تُحنَى له الهامات وتُرفَع له القُبّعات».

ظللنا نتظاهر أنّ كلّ شيءٍ عاديّ أمام الجلاّدين، في العدّ المسائيّ، عند وقتِ المغرب، أخبرنا عن فُقدان أحد النّزلاء. حينَ أدركت الإدارة ما حدث، بعثتْ لنا قطيعًا أكثر شراسةً من سابقيه من قُطعان الكلاب. كُنتُ أتّقي رُعبَ أفواهها الفاغرة وهي هاجمةٌ عليّ باستدعاء صورة سجيننا الهارب، حاولتُ أنْ أتخيّل كيفَ فعلها، كيفَ خطّط لها، وكيفَ نجحت؟ لكنّ صوتَ الكلاب المسعورة كان يقطع عليّ تخيّلاتي كلّها.

فعل «محمّد علي» شيئًا مُدهشًا آخر ؛ تسلَّل قبل أنْ يهرب إلى إدارة السّجن ، وصل إلى سجلّ الزّيارات ، مزّق الصفحات الّتي تظهر أقاربه الّذين زاروه في آخر ستّة أشهر ، كان لا يريد لأحدٍ منهم أنْ يعتَقَل ، ولا أنْ يجرّه التّحقيق إلى الاعتراف بالخُطّة .

اجتاز «محمّد علي» الحدود التّونسيّة . حقّقتْ معه السّلطات التّونسيّة . قال لهم كلّ شيءٍ . لم يجدوا ما يدينونه به . من تونس طار إلى أمريكا وانضمّ إلى الجبهة الوطنيّة لإنقاذ ليبيا . حكم عليه النّظام في عام ١٩٨٣م بالإعدام حُكمًا غيابيًا . تزوّج رغم حُكم الموت هذا . الحياة تهزأ أحيانًا بمغازلة الموت لها ، أنجبَ ولدَين . كان أحد أولاده يسبح في إحدى الشّواطِئ في ولاية (فلوريدا) على الخليج المكسيكيّ أثناء نزهةٍ مع العائلة . كان يصرخ وهو يُخابط يديه في الماء ، قفز إليه ليُنقذه ، غالبَ الماءَ حتّى وصل إليه ، حمله معه عائدًا ، لكنّ ضيق التّنفّس المُزمِن مع لهاثه وسُرعته في محاولة إنقاذ ابنه عجّلتْ به ، نجا ابنُه من الغرق ، أمّا هو فمات . كان ذلك في عام ١٩٩٤م .

الرّاحلون الّذين غادروا الحياة أمام أعيُننا ينفلتون من العَدّ . المرضى ينفلتون من الحَصر كذلك . المجانين لا يُمكن أنْ تتنبّأ بهم ، كثيرون لدرجة أنّ أحدًا مِنّا لم يخرج من دائرة الجنون هذه في لحظةٍ من اللّحظات . صنع السّجن من الحياة مهزلة . جعلَ من الحرص على أيّ شيءٍ فيها مسخرة . لم يعدْ لغريزة البقاء الّتي رُكّبتْ في الجنس البشريّ أيّ معنًى . كُنّا نشعر أنّنا مُحاطون بآلاف السّباع المُفترسة ، ونحن مُخيّرون بين الموت والموت ، نركضُ هربًا منه فنجد أنّنا نهرب إليه ، كان الهربُ من السّبع الفاغر فاه خلفكَ يبدو مُثيرًا للضّحك ، فأينَ تهربُ وكلّها من حولك تفغر فاها لتصطادك . اكتشفنا أنّ خوفنا

منها يُخبرها أكثر، يجعلها تشمّ رائحة ذلك الخوف وتنقضّ علينا، أدركنا أنّ الركض لا معنى له، الهرب لا قيمة له، وأنّ أفضل شيء نفعله في هذه الغابة المضمّخة بالموت أنْ تتظاهر باللاّمبالاة، أنْ تتظاهر بأنّ كلّ شيء يسير بشكل طبيعيّ، كُنّا مُضطرّين للتّعايش مع الموت، للضّحك في وجهه كلّما رآنا، للتّسليم عليه كلّما مرّ بقربنا، وللّنوم بجواره طالما ظلّ وادِعًا؛ كان التّعايش مع الموت يجعل منه كائنًا لطيفًا!

جُنّ في ذلك العام عبد القادر الهادي، ومن ثَمّ أصابَ الجنونُ عبد السّلام الشّلتات، ومحمّد هويدي، والزّائر الأعرج، وفتحي قليصة؛ كانوا شديدي الذّكاء، فائقي الإحساس، أخذ الجنون بأيديهم إلى الضّفّة الأخرى. استسلموا له كما يستسلم الطّفل لأمّه. تَبِعوه إلى آخر المطاف، أخذهم بأحضانه، وبَدَوا كأنّهم غرباء لا ينتمون إلى هذا العالَم، مَنْ يدري؛ ربّما كُنّا نحن في نظرهم أشدّ غرابةً. انعزلوا عن كلّ ما يمتّ إلى الوجود الإنسانيّ بصلة. أنساهم الجنون أنفسهم، فلم يقدروا أنْ ينتشلوها من جُبّه السّحيق، ظلّ قرارُه العميق مأواهم، وجُدرانُه السّوداء الكئيبة المُظلمة عالَمهم، وأفاعيه الّتي لا ترحم صُحبتهم، لقد ظلّتْ تنهش عافيتهم حتّى رحلتْ ببعضهم، وهناك أكملوا الغياب؛ لقد حاولنا معهم في البداية، وحاولوا هم قليلاً مع أنفسهم، لكنّهم لم يتمكّنوا من ابتلاع غول السّجن فابتلعهم!

(٣٦)
المَسيح

لم تكنْ أخبارُنا في السّجن تخرج إلى أهلنا إلاّ نادرًا ، كان بعضها ينفلتُ إلى الخارج من خلال الزّيارة ، لكنّ الزّيارة هي الأخرى كانتْ قليلةً ، وإذا ما تمّتْ فإنّ وقتَها يكون قصيرًا ، وبدل أنْ يقومَ السّجين بنقل أخبار السّجن إلى أهله فإنّه سيقوم باستغلال الوقت الثّمين في نقل أخباره هو والاطمئنان على عائلته . وهكذا ذهبَ موتُ الكثيرين ، وجنون آخرين ، وإصابة ثلاثة أرباعنا بالمرض ، ذهبَ أدراجَ الرّياح لم يعلمْ به أحدٌ ، وكان التّكتّم على الخبر يُشكّل كارثةً تُضاف إلى الكارثة الأمّ .

لم نكنْ ندري إنْ كان أهلُنا أحياءً في الخارج . وأينَ بعثرتْهُم دروب الحياة . كنتُ أتخيّلُ النّاس خلف هذه الأسوار كائنات سوداء من الكرتون تتحرّكُ صامتةً ، بشكلٍ عشوائيّ وبدون هدف . مرّتْ على أحدنا سبعُ سنوات لم تزره زوجته ، كان ألمُه أكبر من ألم الحوت الأزرق في المحيط الأطلسيّ . كان يُلصقُ وجهه بالجدار المُقشّر للزنزانة ، ويقوم بحكّ خدّه طوال اللّيل حتّى يتقرّح وينزّ منه الدّم ، لم يكنْ يسمح لنا بالاقتراب منه . وإذا حدث أنْ أقتربَ أحدُنا فإنّه يتحوّل إلى وحش ، يُمكن أنْ يفقد الواحد منّا إصبعه أو جُزءًا من يده ، ولهذا غالبًا ما نتركه وننظر إليه من طرفٍ خفيٍّ ، ونبكي في صمت . في الزّيارات الأربع الّتي سُمحَ له بأنْ يزروه فيها ذووه ، لم يرَ وجه زوجته ، لوراء

لتُشفيَ من نصف جنونه ، لكنّها لم تأتِ . في العام العاشر لسجنه ، أعطيتُ بضعة دنانير للجَلاّد المسؤول عن الزّيارات كي يأتيني بخبر زوجته ، في اليوم التّالي لم يجرؤ أنْ يقول لي الخبر وجهًا لوجه ، كتبه على ورقة ، ودفعَ بها إليَّ : «زوجته ماتت منذ تسع سنوات» . كنتُ أريدُ أنْ أسأله عن الطّفل الّذي كان ببطنها ، لكنّه عاجلني بالمعلومة : «في الشّارع ، يعيشُ على خَشاش الأرض ، لا يعرفُ أبًا ولا أمًّا» . أردتُ أنْ أبكي لكنَّ الدّموع تحجّرتْ . أردتُ أنْ أصرخَ ، لكنَّ الصّرخة انخمدتْ . أردتُ أنْ ألعنَ كلَّ شيءٍ لكنَّ الكلمة انحبستْ . لم أقلْ له شيئًا بعدَ ذلك ، استشرتُ الحاجَّ صالح ، فقال لي : «لا فائدة من إخباره . لقد فقد عقله منذ زمن» .

مرّ عيدٌ ، اثنان ، عشرة ، بل عشرون عيدًا . كأنْ لم يمرّ إلاّ الأسى . زارَنا البقّ شهورًا طويلة ، راقَ له أنْ يلتصق بأجسادنا الهزيلة ، لم أدرِ ماذا كان يُعجبه فيها ، لم يعدْ لنا مِنّا إلاّ العِظام ، اللّحم نشف ، والجلد رقّ ، والعظام فقط هي التّي برزتْ .

لم أرَ مُرزأً في السّجن مثل الحاجّ صالح ، ولم أرَ في صبره أحدًا . لكأنَّ المصيبة كان يحلو لها أنْ تحلّ بداره ، وتستعذب البقاء في فِنائه ، ولكأنّه كان يُحسِن ضيافتَها ، فلا ترى منه إلاّ قلبًا ثابتًا ، ووجهًا باسمًا راضِيًا . في مكوثه الطّويل هنا معنا ماتَ أخوه خليفة بمرض مُفاجِئ بعد أسبوع من دخوله المستشفى ، وماتَ أبوه دون أنْ يراه ، وهرمتْ أمّه فلم تعدْ تزوره ، ومات ابنه أسامة قبل أنْ يُتمّ سنته الأولى ، ثُمّ مات أخوه مسعود في حادث سير ، ثُمّ خُطِبْت أخته مريم ، وكان خطيبُها مُجنّدًا في الجيش اللّيبيّ فبعث به القذّافي ليقاتل في تشاد فمات هناك .

كانتْ قُدرة الحاجّ صالح على النّسيان أو ربّما التّناسي ليستْ عند أحدٍ منّا وإن ادّعَيْنا أنّ صَبْرَنا صَبْرُ الجبال الرّواسي ، ولا أدري إنْ كان ينسى بهذه السّرعة أم أنّ قلبَه كان مثل الإسفنجة يمتصّ كلّ الماء الأسود ولا يُخرِج إلاّ ماءً مُقطّرًا زُلالاً!

كان الحاجّ صالح أكثرَنا تنظيمًا للوقتِ واستفادةً منه . فهو في شُغْلٍ دائم . إمّا يُعطِي درسًا في التّاريخ أو الفقه أو الأدب ، وإمّا يُعلّم غيرَه أو يُساعده على حِفظ القرآن الكريم ، وإمّا يقرأ إذا وجدَ إلينا الكتاب سبيلاً . وإمّا يغسل ثيابَنا كما اعتاد منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا . وإمّا يلمّ الغسيل من نافذة الزّنزانة أو من الأبراش ، ويقوم بطيّها ، وإعادتها إلى أصحابها ، وإمّا يغسل بعض الأواني البلاستيكيّة الّتي كُنّا نأكل بها إذا كان دَور الغسيل عليه . فإنْ فرغ من أعماله انتحى زاويةَ بَرْشِه فراح يكتبُ مذكّراته على ورق الدُّخان وكراتين الحليب ، وكان حُسنُ تعامله مع الجميع ، يُتيح لنا أنْ نهرّب بعضَ تلك المذكّرات في الزّيارات ، أو في المرّات الّتي تدخل فيها إلينا الملابس من الخارج . مذكّراته الّتي تُشكّل يوميّاتنا في السّجن تُعدّ أدقّ وثيقة لما كان يحصل هنا ، ذلك أنّها مشاهدات سُجّلتْ بالقلم ما كانتْ تريدُ الكاميرا أنْ تفعله .

استطاع الحاجّ صالح أنْ يُهرّب كثيرًا من هذه المذكّرات مع (أمّ عبد القادر) زوجة (أحمد الثّلثي) . لقد قامتْ بدورٍ خطير ، كان من الصّعب أنْ يقوم به غيرها . ذكاؤها . حركيّتها ، وعلاقات أهلها في الخارج وجرأتها ، كلّ ذلك مَكّنها من أنْ تقومَ بنقلِ هذه المذكّرات على ورق الدّخان إلى الخارج وتحتفظ به في مكانٍ أمينٍ حتّى يأتي وقتُ نشرها .

لم يقع الحاجّ صالح في خصومةٍ مع أحدٍ طَوال فترةِ سجنه . وفي

أحلك ظروفنا وأصعبِ أوقاتنا كان يُرَى هادئًا مُبتسمًا. يمدّ يديه بالسّلام والحبّ لكلّ أحد، يقف إلى جانب المرضى، يخفّف عنهم. لم يكنْ طبيبًا عضويًا، لكنّه كان طبيبًا من نوع آخر، لولا كلماته المعجونة بالرّضا، ونظراته المُشعّة بالحُبّ لفقدَ أكثرُنا عقلَه. كان يتفقّدنا في النّوم مثلما تتفقّد الأمّ أبناءها، يتأكّد من أنّنا أوينا إلى فُرُشنا، ويسحب البطّانية لكي يُغطّينا بها، ويطبع قبلةً على جبين كلّ واحد منّا، ويبتسم قبل أنْ يقوم، وكُنّا أطفالاً نحتاج إلى أنْ يفعل هذا لنا في كلّ يوم. بل إنّه كان يقول لبعضنا: «هل أقصّ لكَ حكايةً قبل النّوم؟». وإنْ قال أحدهم: «نعم». يستجيب لطلبه على الفور، وكان لديه مخزون من القصص يكفي لكلّ اللّيالي وإنْ استمرّتْ أعوامًا لم نعدْ نعدّها لطولها.

كان أكبرَنا، كلّنا في الزّنزانة أصغر منه، ومع ذلك خدمَنا كلّنا، وخدمَ نزلاء المهاجع الأخرى، وكان يفرح إذا طلبَ منه أحدٌ شيئًا، أو استشاره في أمر، وكُنّا نرجع إليه في المُدلهمّات، وما كان يُستثنى من العذاب على عِظَم قَدْره، وكان يأخذ نصيبه منه مثلنا، ولم أره مرّةً واحدةً شاكيًا. في الزّيارة اليتيمة الّتي رأته أمّي فيها، وصّته بي، فقالت: «ابني في رقبتك، اعتنِ به». فأخذها دَيْنًا على نفسه. ما طلبتُ منه شيئًا إلاّ لبّى دون جِدال.

كان عليه إجماع في السّجن، ربّما الوحيد الّذي حاز على هذا الاحترام الكبير من الأطياف والتوجّهات كافّة. كان ملاكًا يمشي على الأرض. وسمّاه التّروتسكيّون بـ (المسيح).

(٣٧)

ثِقْ بالله يأتِكَ الفَرَج

في السّنين الوارفـات الظّلّ ، ظلّ الحـزن الشّـفـيف . في الأيّام الرّاكضة باتّجاه الوديان ، الوديان المُظلِمة الغامضة . في السّاعات الّتي تتربّص عقاربُها بنا رَيبَ المنون ، المنون الّذي كان يأكل ويشرب معنا ، في كلّ ذلك كُنّا نرى الفَرَج والفَجْر معًا . ها نحن نخرج من شرنقة العدم ، لنصبح وجودًا لا يقبل الامّحاء . ها نحن نتبرعم في روضة الأسى ليزداد عطرنا تعتُّقًا ، ها نحن نُفيق من السّبات لنرى الشّمس ترسم بأشعّتها أقدار سعادتنا . سيقتلون كلّ شيء إلاّ الفرح الّذي نَعِد به أنفسنا ، سيُصادرون كلّ شيء إلا الصُّبح الّذي يَعِدنا الله به .

كُنّا على وشك الرّحيل من هنا إلى منفًى آخر ، كان السّجن الّذي ضمّتْ زنزاناته ضُلُوعَنا اثنتي عشرة سنةً قد ضاق بنا وبالوافدين الجُدُد . بنى الألمان لنا سجنًا جديدًا يتّسع لكلّ الباحثين عن الحرّيّة . ونحن على سفر . إليه المآل قريبًا . هكذا قالوا لنا . فرحْنا ، فرح اليتيم يفرّ من اليُتم إلى اللّطم . بعضُ الشّرّ أهونُ من بعض . كلّ جديدٍ له بهجتُه . الموتُ الّذي يحمل طعمًا جديدًا خيرٌ من الموت المكرور المُهترئ .

بعضُ الأنباء الّتي طارتْ كالعصافير في أجواء أقفاصنا قالتْ : «إنّهم سيُفرِجون عن القُدامى الّذين لهم في السّجن أكثرُ من عشر سنوات» . على الموتى القُدامى أنْ يُخلوا القبور من أجل الموتى الجُدُد .

بعضُ الموتى مــا زال ينتظر . انتظار الموت مُــملٌ هو الآخــر ، ومن المُستحسن نَبْشُ القُبور وإخراج سُكّانها عنوةً عِوَض انتظار بركان أو زلزال من أجل أنْ يُخرجِها . لقد صار هذا ممكنًا ؛ الأموات يرحلون مثل الأحياء تمامًا .

كُنّا نُسمّي إشاعات الإفراج بـ (الحُقَن) ، حُقن مُخدِّرة ، أو مُهدِّئة ، بعضُ الحُقَن كانتْ تتلاطم في عقل السَّجين ، وتتفاعل في جسده فيتشبّع بها حتّى تكاد تقتله . هذا الصِّنف من السُّجناء حينَ رأوا أنّنا لن نخرج من السّجن إلاّ إلى الآخرة فقد عقله ، وانضمَّ إلى زُمرة المجانين .

لا زلتُ أذكر (الزّول) ، قضمت الإشاعات عقله كتفّاحة . كان متلهِّفًا للخروج من أوّل يوم جاءَ فيه إلينا ، قلتُ له : «يا أزغبَ الجناح ، انتظر حتّى تقوى على الطَّيران» . لم يفهم . تولّى عنّي الحاجّ صالح طمأنته ، كان يقصّ له حكايا عن الصّبر : «ثِقْ بالله يأتكَ الفرج» . كان يتسقّط أخبار الإفراج ، لكنّه يكتشف أنّها خرزٌ مُلوّن ، أو فُقاعات جميلة لا تكاد ترتفع حتّى تنفثِئ . مرّتْ علينا أكثر من ثلاثين إشاعة ، في كلّ سنة تأيتنا حقنتان أو أكثر . يئس الزّول . ضاقَ ذرعًا بكلّ شيء . كان يجلس مُمدّدًا على ظهره ، يعقدُ رجلاً فوقَ أخرى ، وقد بانَ لحمُ ساقه الرّفيعة ، حينَ حملَ إلينا الحارس حُقنةً جديدة . لم يكترثْ . ظلّ على هيئته . قال وهو يطوّح بها يمينًا وشمالاً متلهّفًا : «كذب . هُراء . مسخرة . لحمنا تخرطش من هذه الحُقَن . يلعن أبو . . .» كُنّا نعرف التّكملة لكنّنا رجونا ألاّ يقولها في حضرة الحارس . صمت ، وشدّ على أسنانه . خرج الحارس . فزّ واقفًا على قدمَيه ، صار يصرخ : «يلعن أبوك يا بومنيار . . يلعن روح أبوك وروح جدّك وروح

الشّيطان إلّي خلفك . . يا طِ» ثمّ صار يرهز كأنّه رجل مَأتة تلعب به الرّيح : «والله انموت كلّنا في السّجن . . . والله القذّافي حاطّنا في راسه . . . والله القذّافي أقسم بالشّيطان إلّي جابو ليقتلنا . . . إنتا رَح تموت . . إنتا رَح تنعدم . . . إنتا رَح تتعلّق من خصاك . . إنتا . . .» وعدّدَنا واحِدًا واحِدًا . وظلّ يصرخ إلى أنْ سقطَ من التّعب .

قُبَيل المغرب ، طرق الحارس إيّاه الباب ، كان يحمل في يده ورقة ، صرخ وهو يقرأ منها : «وين مسعود الزّول؟» . كان يُعطيه ظهره المتكوّر كقنفذ نائمًا على بَرشه . صرخ الحارس مرّة ثانية : «مسعود الزّول» . وقف الزّول منكوش الرّأس رفيع السّاقَين كأنّه مكنسة من قَشّ : «نعم» . «تعال» .

لم يَعُدْ بعدَها . مرّتْ سنة على خروجه بهذه الطّريقة . استعدْنا ذكراه ، بعضُنا قال أعدِم . بعضُنا الآخَر قال : أُفرج عنه . آخرون لاذوا بالصّمت والحيرة .

(٣٨)

العقيد

«يا منصور» ناداه العقيد . قبل أن يفزّ واقفًا ليلبّي ، همس منصور في أذن يونس : «خلال نصف ساعة يجب أنْ نخرج» . هزّ يونس رأسه موافقًا . فالطّائرات لن ترحمنا كثيرًا . صرخ العقيد من جديد : «يا منصور» . «لبّيك» . «أريدُ أنْ أرى بعضَ الرّاهبات الثّوريّات ، ما زال في الوقت مُتّسع لكي أكحّل عيني بهنّ قبلَ أنْ أخرج ، واحسرتاه على الأيام اللاّتي كُنّ يطفْنَ بي فيها كما يطوف الحجيج بالكعبة ، ويستلمْن أركاني كما يستلم الرّاغبون الرُكنَ اليمانيّ ، ويقبّلْن كلّ بوصة في جسدي كما يقبّل الوالِهون الحجر الأسود» . «سيّدي . . . لقد صرفهنّ رئيس التّشريفات كلّهنّ» . «ألمْ تبقَ حتّى واحدة منهنّ أيّها الضّرّاط؟» . «كلاّ يا سيّدي ، سنرحل من هنا ، فما فائدة أنْ يبقَين ، لمَن تتركهنّ بعدك؟» . «أنتَ لا تفهم يا منصور ، أنتَ ساذج ، عقلكَ يترجرج داخل جمجمتك كأنّه حصاةٌ في طاسة . آه على الرّاهبات الثّوريات يا منصور ، نحن محتاجون إليهنّ حتّى ولو رحلنا من هنا يا منصور ، طبعًا هذا لا ينطبق على كلّ النّساء ، وإنّما ينطبق على الثّوريّات الّتي تصل ثوريتهنّ إلى درجة الرّهبنة» . نظر منصور في وجه يونس ، عاد إليه ، قال : «انظر ما يقول يا يونس ، هل نحن في وضع يسمح لنا أنْ نتحدّث حول الرّاهبات الثّوريّات؟» . أتاهما صوته من أمامهما وهو لا يزال يُعطيهم ظهره : «أسمعك أيّها الضّرّاط ، ألم أقلْ

إنّك لا تفقه شيئاً؟! إنْ كانتْ هناك واحدةً تدخل الجنّة بدون حساب فستكون هي هذه الرّاهبة الثّوريّة» . لماذا بالصّمت ، أدار هذه المرّة وجهه إليهم ، خاطب يونس : «هل أخطأتُ في شيءٍ ممّا تنبّأتُ به أيّها الرّفيق العزيز؟» أجابه يونس بخشوع : «كلاّ يا سيّدي ؛ لقد أصبْت في كلّ شيءٍ ، وحذّرتَ من أشياء كثيرة ووقعتْ ، ولم يستمعْ إليك أحدٌ من هؤلاء الجالسين على كراسيهم» . خفض العقيد رأسه قليلاً ، أزال النّظارة الّتي كان يلبسها عن عينيه ، ثُمّ صمت قبل أنْ يقول : «لقد كانت اللّجان الثّوريّة الّتي أسّسْتُها هي نبيّ الجماهير ، وأنا كنتُ قائد هذه اللّجان ، لقد كان بمقدور العالَم ، وليس العرب ، أنْ يكون أفضل حالاً لو أنّه سمع نصفَ ما قلتُه» . كان يبدو على وجهه التّأثر ، اقترب منه يونس ، قال له بخشوعٍ أشدّ : «لا تحزنْ يا سيّدي ، سيعرفون قدْرَك ، ولن يضيع ممّا قلتَه شيءٌ» . هزّ رأسه ، تلا بحروفٍ باكية : «يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسولٍ إلاّ كانوا به يستهزئون» . خُيّل إلى منصور ويونس أنّ سيّدهما يبكي ، نظر منصور في عينَي العقيد ، كانتا جامدتَين كما لو أنّهما قُدّتا من صخرٍ ، أو كما لو أنّهما عينا كاليجولا محفورتَين في تمثاله .

صرخ فجأةً : «ماذا يريدون أنْ أفعل لهم أكثر ممّا فعلت؟! قُل لي يا يونس أنتَ أقدم من منصور ، قل لي بربّك؟ ألم أحوّل ليبيا من صحراء إلى جنّة؟ ألَمْ أرفع شعبي المختار من هوّة الفقر إلى قمّة الغنى؟! ألَمْ أُنشئ لهم الأنهار تجري من تحت أرجلهم؟» . «بلى ، يا سيّدي» . «فمنْ خدَعهم إذاً كي يخرجوا عليّ؟ مَنْ جرّأ مجموعات من الغوغاء والحمقى والجهلة والمُغفّلين على أنْ يركلوا النّعمة الّتي كانوا يرتعون فيها؟ مَنْ نفثَ في رُوعهم أنْ يقذفوا بالقاذورات في آبارهم؟ مَنْ جرّأ

العبيد السُّودَ المخصيّين على البِيض الكِرام؟ هل هم إلاَّ الصّليبيّون في أمريكا وأوروبا؟ هل هو إلاَّ ساركوزي هذا الخائن؟ هذا الصّليبيّ العلج الكافر الّذي يقطر حقدًا؟ . أتعلم يا يونس ؛ أنا الّذي جعلتُه رئيسًا لفرنسا ، بأموالي ، بذَهبي أنا ، هذا القمّيء لم يكنْ أكثر من مجرّد كلب ، أنا الّذي جعلتُه يجلس على كرسيّ الرّئاسة ، لقد كان نكرةً لولا أنّ أموالي عرّفت النّاس به ، أترى يا يونس ، أنا أشتري الدّول بما لديّ من أموال ، أنا أشتري الرّؤساء ، أنا أشتري النّاخبين؟ كلّ هؤلاء الّذين يُسمّون أنفسهم العالَم الدّيمقراطيّ أو العالَم الحرّ ليسوا إلاّ مجموعةً من الفَسَقة والمُرتَشين ، المال ساقَ أعناقهم ، وأنا ركبْتُهم بالمال . أنا الّذي أمرْتُه أنْ يجمع لي في إحدى اللّقاءات أكثر من (٢٠٠) امرأة جميلة من عارِضات الأزياء الفرنسيّات ؛ كي أنشر بينهنّ الإسلام العُظيم . الأبله الجاهل بالتّاريخ لا يدري أنّني أنتقم منه ومن سادته ، أنتقم من موسوليني الّذي عندما جاء إلى ليبيا ، أجبر (٢٠٠) امرأة ليبيّة على أنْ تستقبله . أتدري لماذا يرسل ساركوزي أسطول طائراته الحربيّة ليقصف باب العزيزيّة؟ أتدري لماذا أيّها العزيز يونس؟» . «كلاّ يا سيّدي ، الله ورسوله أعلم» . «لأنّني أردتُ أنْ أنام مع امرأته ليلةً واحدة ، فقط ليلةً واحدة ، ما حاجتي بها أكثر من ذلك ، وقد جاءتْني نِساءُ الأرضِ كلّها فأعرضتُ عن أكثرهنّ ، لا تعففًا ، ولكنّ الكريم يختار ماجِدتَه» . «وماذا في ذلك؟» . «الشرمـ . . . لم يُعجبْه السّعر الّذي دفعتُه» . دوّتْ قذيفةٌ جديدة . هتف منصور : «علينا أنْ نخرجَ الآن» . بصق العقيد في وجهه : «لنْ أخرج ، قبل أنْ أنهي كلّ ما يتعلّق بأشباحي» . ردّ عليه منصور : «ستقابل ما ظلّ منها في سِرْت» . سأل العقيد كأنّه يعرف المعلومة لأوّل مرّة : «هل نحن ذاهبون إلى سِرْت؟» . «بلى يا سيّدي» .

«مَنْ أمركم أنْ تذهبوا بي إلى هناك» . «أنتَ يا سيّدي من اختيار ذلك!!» . همسَ العقيد بينه وبين نفسه : «أشتاق أنْ أعود إلى القرية الّتي منها خرجتُ ، وفيها رَبِيْت ، أشتاقُ أنْ أعودَ إلى جهنّم» . تنحنح العقيد ، قال بصوتٍ مسموع : «سأخرج ، بقي شيءٌ واحدٌ فقط» يونس متلهّفًا : «تحتَ أمرك يا سيّدي» . جذبه العقيد من ياقة بدلته العسكريّة ، فاجأه الموقف ، هتفَ به وهو يصوّب نظرات ثاقبة إليه كاد ينخلع لها قلبُه : «أريد أنْ أرى جُثّة منصور الكيخيا» .

(٣٩)
قلبي تُفَاحة كُلَ الأشياءْ

«الذكـراكِ كلّ الحُـقُـولِ الّتي أينعتْ بالجَـمـالْ . . لعـينيك كلّ الحكايات ما قيلَ مِنها وما سيُقالْ . . . لنا زهرةُ الصّبر والإحتمالْ . . . لنا حجرٌ في فم لا يُلاك ولا هو يُلفَظ مثل مجيء النّهايات لسنا نراها سوى في الخيالْ» . كان عبد العاطي يُدندنْ . «في التّاسعة مساءً من كلّ مساءْ . . . في اللّيل النّابض بالحلم وبالأهواءْ . . . أوّل أغنية للقلبِ المذبوح على حجرٍ والمُلقَى في جُبّ الأنواءْ . . . يترعرعُ . . . يتبرعمُ . . . يُصبح وردةَ جوريٌّ حمـراء . . . مـاتتْ كلّ الأحـزانِ بقلبي . . . قلبي تُفَاحة كُلّ الأشـيـاءْ» كـانتْ روح الشّلطامي تهجس . «بالشّعـر هزمْنا الخَوْف . . . بالشّعر تعمْلَقْنا حتّى ينكسر الضّعفْ . . حلّيْنا بالكلماتِ السُّكْرِ طَعْمَ الحَتْفْ . . . بالشّعر نُدلّل هذا اللّيل القاتم حتّى يأتي الصّبح ولكنْ لا نعرفُ كيفْ» .

كان السّجن يعجّ بالسّجينات من النّساء ، لهنّ سجنهنّ الخاصّ . وفي قصصهنّ من الألم أكثر ربّما مِمّا في قصصنا . إذا كُنّا نحن على غلظة الرّجال الّتي جُبلتْ عليها أجسادُنا لا نحتمل السّجن ، فكيف بمن فُطِرْن على رِقّة القلب ، ورهافة الحسّ ، وصفاء العاطفة من النّساء؟! كانتْ سنتهنّ بعشر سنوات من سنيِنا . لكنّهنّ تحمّلنَ ما لم تتحمّله الجبالُ ولا الرّجال ، ولم يكنْ لأكثرهنّ من ذنبٍ ولا من جريرة ، إلاّ التّعاطف!

حقق (خيري خالد) مع النّساء، كان ضخم الجُثة، يده مثل مهدَة، إذا ضرب بها طاولته في غرفة التّحقيق من غضب قفزتْ أوارق الملفات من أمامه وسقطتْ على الأرض. كان صورةً أخرى من صور الجلاّدين المُرعبين، هل يولَد الإنسان حينَ يولَد جلاّدًا، أمْ أنّ الحياة ترمي بهم بعد أنْ يكبُروا على ما خُلِقوا من أجله؟! كان (خيري خالد) مخلوقًا من أجل أنْ يقتل، ويستبيح كلّ ما هو مُحرّم.

اعتُقل أبوه الضّابط السامي (نوري خالد) في الأيام الأولى لانقلاب القذّافي العسكريّ لأنّه كان من ضُبّاط النظام الملكي السّابق. لم يمكثْ طويلاً في السّجن. فضّل أنْ يموتَ مُبكرًا. كان له ما أراد. بعد أشهرٍ من موته تزوجّ القذافي ابنته السيدة (فتحيّة خالد) شقيقة جلاّدنا، وأنجب منها ابنه البكر مُحمّد. طلّقها بعد عام من الزواج، وبقيتْ مُعلّقةً لم يتجرأ أحدٌ على أنْ يتزوجها، ولا أنْ ينظر في وجهها.

جاءنا مرة الى السّجن، كان يهذي، لم يُفِقْ من سُكر شديد، في السُّكر تذوب قِشرة الكذب عن النّفس ويتجلّى الصّدْق، يقول السّكران في غَيابة العقل ما لا يقوله في صَحْوه، يصعدُ ما من أعماقه ما كان مدفونًا من النّقاء. وقف بجثّته الضّخمة، وبلباسه العسكريّ، عقد يدَيه حول وسطه، كان يعنّ له أنْ يُحاضِر بين فترةٍ وأخرى فينا عن الوطنيّة، نصفُ محاضرته تذهبُ بالشّتائم، كان يصفنا بالخَوَنة. ختم محاضرته تلك بسؤال: «هل تعلمون ماذا نفعل بمن نقتله منكم؟ إنّنا نرميه في البحر». أطعمَ (خيري خالد) كثيرًا مِن أجسادِنا للحيتان، أشبعَها من لحومنا، بعدَ أنْ نهشَ هو قبلَها ما لذّ له منها.

بعد أنْ صاهره القذّافي صار مدير الشّرطة العسكريّة، تخصّص

في تعذيب طلاّب الجامعات . طبعه القذّافي بطابعه ، وألصق به كلّ الجرائم ، ونقّى نفسه ممّا كان يُدنّسه به!

اشتُهر - بعد أنْ خلع عليه القذّافي ثوبَ السّلطة - بأسلوبه الوحشيّ السّاديّ في تعذيبنا ، وكان مُغرمًا باستعمال الكلاب - مثل عقيد الكلاب بوشعالة - ضدّنا لإرغامنا على الاعتراف والإدلاء بالمعلومات الّتي يُريدها . كان خيري خالد يستدعي الطّلبة إلى مكتبه الفاخر ، يسوقهم جلاّدوه إليه ، يُشرِف بنفسه على تعذيبهم في مكتبه الفاخر الواقع فوق بهو السجن ، ثُمّ يغادر إذا انتهى من وجبته اليوميّة ، وكان عمّال السّجن يُضطرّون إلى تنظيف أرضيّة المكتب المُلطّخة بدماء ضحاياه .

في إحدى المرّات تحصّل أحد مرضى عنبرنا - بعد أنْ وقف على الخطّ النّهائيّ للحياة مُشرفًا على الموت - على السّماح له بالذّهاب إلى المستشفى . سمعتْ أمّه أنّ ابنَها في المُستَشفى ، فذهبتْ إلى الحرس ، وبدأتْ تتوسّل إليه أنْ يسمح لها بزيارة ابنها فهي لم تره منذ أربع سنوات ، تعاطفَ هذا الحارس معها ، فجعلها تزور ابنَها . في الصّباح الّذي يليه ، تغيّر الحارس ، وجاء حارسٌ آخَر ، فجاءتْه الأمّ مرّة ثانية ، ورجَتْه أن يسمح لها بزيارة ابنها ، ولكنّه رفض ، وبعد إلحاح منها ، ورفضٍ منه قالتْ له : «يا ابني زميلك أمسِ سمحَ لي بالزّيارة» . فوشى به عند خيري خالد . فطلب إحضار الحارس صاحب القلب الطّيّب وقيّده إلى جانب ابنها في المستشفى ، وأمرَ بإخراجهما معًا إلى السّجن . تلك اللّفتة الإنسانيّة كلّفتْ ذلك الحارس سبع سنوات مَرميًا في زنزانة انفراديّة بسبب تعاطفه!!

لم يكُنْ أحدٌ بمعزلٍ من أنْ تطاله يد العقيد . حتّى ولو ابتغى نفقًا

في الأرضِ أو سُلّمًا في السّماء . كان (عمر المحيشي) أحدَ أركان انقلابه العسكريّ الأوّل ، لكنّه انقلبَ على الانقلاب ، ورأى أنّ العقيد يسير في اتّجاه غير الّذي اتفقوا أنْ يسيروا عليه منذ البداية ، فقرّر أنْ يتخلّص من القذّافي ، كادَ أن يفعل ذات مرّة حينَ رفعَ رشّاشه في وجهه ، ولكنّ أمرًا ما لا أحدَ يدري ما هو منعه من أنْ يضغطَ على الزّناد ، ويُطلِق الرّصاصة الّتي كان من الممكن أنْ تُغير وجه ليبيا أو وجه التّاريخ! لكنْ لا شيءَ يُغيّر وجه الأوطان مثل الانقلابات الاعسكريّة ، إنّها تجرّ تلك الأوطان من أعناقِها إلى قيعان الخوف ، تذبُحها ، وتأكل من لحمها ، وتشربُ من دمها ، ثُمّ تجلس على تلّة الخراب تتوعّد كلّ مَنْ ظلّ حَيًّا بالموت ، وبأنّ الّذي صنعتْه بالسّلاح مستعدّة أنْ تُنهيه أيضًا بالسّلاح . ما من انقِلابٍ عسكريّ - حتّى ولو كان بالهونولولو - إلاّ وكان نِقمة على الشّعب ، كان يأتي ومعه حَشْدٌ من الغربان فينذره بالشّؤم ، ولفيفٌ من الأفاعي فيملأ جسده بالسُّمّ ، وقطيعٌ من الذّئاب فيصبغ لحمه بالدّم ، وسِربٌ من الجراد فلا يُبقي له إلاّ العَظْم!

وُلِدَ عمر المحيشي بمصراتة ، حيث عاش ودرس فيها حتى المرحلة الثانوية . تعرّف على القذافي ، بعد قدوم الأخير إلى مصراتة سنة ١٩٦١ مطرودًا وشريدًا من سَبْها ، فقامت أسرة المحيشي بمساعدة القذافي المطرود ، وآوته ، ونشأتْ بينهما علاقةٌ قويّة . التحقَ هو والقذّافي بالكلّيّة العسكريّة ، وتخرّجا فيها في الدّفعة نفسها . وفي عام ١٩٧٢م أرغمَ القذّافي على التّنازل عن رئاسة الوزراء لصالح عبد السّلام جلّود .

لم يَفِدْ (عمر المحيشي) إلينا هنا في السّجن ، لكنّ كثيرًا من مجموعته الّتي خطّطتْ للقضاء على القذّافي كانتْ معنا . فعرفْنا

إخباره منهم . ستّة من هؤلاء الضبّاط الأحرار - النقيب عمران الدعيكي ، النقيب عبد المجيد حسين بريبش ، الملازم إسماعيل الدغاري ، الملازم فرج بن علي ، الملازم أحمد ذياب ، الملازم محمّد سعد الدرداح - من الّذين قادهم المحيشي للتّخلّص من القذّافي ماتوا بين أيدينا تحت التّعذيب . استطاع هو أنْ يُفلِت . ذهبَ أوّلاً إلى تونس ، ثُمّ ما لبثَ أنْ غادرها إلى مصر بتشجيع من السّادات الّذي منحَه لجوءاً سياسيًا ، ثُمّ ضاقتْ عليه بعد أن انتقدَ السّادات في هرولته إلى السّلام مع إسرائيل ، لكنّه لم ينتقدْه فحسب ، بل أحضرَ صورةً كبيرةً للسّادات ، وفتحَ عروة بِنطاله ، وأخرج عُضوَه ، وقام بالتّبوّلِ على صورة السّادات أمام مجموعةٍ من اللّيبيّين والمصريّين ، فنُمِي الخبر إلى الأمن المصريّ ، فأخذه فعذّبه ، ثُمّ فرّ إلى المغرب ، فلقيَ إهمالاً شديدًا من مَلِكها ، ثُمّ لمع الذّهب ، وقامت المصالح في عينَي الحسن الثّاني فسلّمه إلى القذّافي مقابل توقّف القذافي عن دعم جبهة البوليساريو السّاعية لاستقلال الصحراء الغربية ، وتقديمِ مِنَح وعقود بقيمةٍ تتراوح بين (٢٠٠) و (٣٠٠) مليون دولار لإنعاش الاقتِصاد المغربيّ . وكان رأسُ المحيشي عند القذّافي يُساوي أكثر من هذا بكثير .

انتظر القذّافي لحظةَ التقائه برفيق الدّرب ثماني سنوات تامّات بلياليهنّ الطّوال بفارغ الصّبر بعد أنْ فشلَ في كلّ محاولاته السّابقة لإقناعه بالعودة إلى ليبيا واستِلام أرفع المناصب ، وإتمام المِشوار الّذي بدأه معًا ، قائلاً له : «لن أنسى أنّكَ آويتني في بيتكَ يومَ كنتُ شريدًا ، وكسوتَني من ثيابكَ يومَ كنتُ عاريًا ، وأشبَعْتَني من طعامكَ يومَ كُنتُ جائِعًا» .

سنوات المُلاحقة الأمنيّة الّتي عاشَ المحيشي رُعبَها ، إضافةً إلى

تحوّله إلى شخص منفيّ وغريب ولاجئ سياسيّ بعيدًا عن أهله ووطنه أثرت كثيرًا في نفسيّته ، فقد قال الرّفيق (عتيقة) الّذي اجتمع به عام ١٩٨٢م في المغرب «إنّه كان يُعاني من أعراض انفصاميّة حيث كان يسترسل في الحديث بشكل مُتسلسل ثمّ ينقطع هذا التّسلسل ويدخل في مواضيع أخرى».

انتظره القذّافي عام ١٩٨٣م في المطار بعد أنْ حُوّل مسار طائرته المغادرة إلى السّعوديّة لكي تحطّ في مطار سرت . كان المحيشي لا يزال يظنّ أنّ طائرته متوجّهة إلى مكّة ، حين فُتِح باب الطّائرة كان القذّافي أوّل وجه يُطالعه . أصابته الصّدمة بشلل نصفيّ ، لم يستطعْ الحركة . لم تعدْ أطرافُه له . ابتسم القذّافي في وجهه قائلاً : «أهلاً برفيق الدّرب ، ثماني سنوات كثيرةٌ والله على الشّوق الّذي في قلبي لك ، إنّ الله ليسأل عن صُحبة ساعة يا رجل» . حاول المحيشي ابتلاع الصّدمة ، لكنّ لسانه انعقد ، لم يدر ما يقول ، كان لا يزال ينظر حوله بعينيْن زائغتيْن ، لو كان وجه القذّافي الّذي يراه كابوسًا فماذا يفعل وجه عبد السّلام جلّود ذو الأنف الدّقيقة ، والعينيْن الصّغيرتيْن ، والسّحنة الباردة؟! استفاق من الخديعة ، لقد كانتْ فوقَ الخَيال!

مشى القذّافي أمامه ، واقتِيد المحيشي إلى غرفة التّشريفات . «من أجلك كلّ هذه الأبّهة ؛ تشريفٌ يليقُ بصديق قديم» . غيّر القذّافي ملابسه في غرفة أخرى ، لبسَ لِباسه العسكريّ ، وانتعل بُسطاره ، ثمّ فتحوا له الباب على المحيشي الّذي كان لا يزال تحت تأثير الصّدمة . كفَ القذّافي كُمّ قميصه العسكريّ ، وظلّ ينظر مُحدّقًا في المحيشي ، تقدّم نحوه ، وببسطاره راح يركل رفيق الدّرب ، وهو يصيح بانفعال شديد : «أنتَ تقول أمّي يهوديّة يا شَرْ . . أمّي يهوديّة ولا أمّك يا أخو

الخمر . . .» . وظلّ يركله في بطنه وعلى رأسه ، وهو يشتمه بأقذع الشتائم ، ويبصق عليه ، حتّى تعب ، وصار يلهث . ثمّ تركه وأنفاسه تتلاحق . ثمّ طلبَ - وكانوا لا يزالون جميعًا في المطار - اجتماعًا للمجلس العسكريّ ، واستدعى العقيدُ خليّة القتل ؛ كما روى أحد المقرّبين من القذّافي : «كان على رأسهم عبد الله السّنوسيّ ومحمّد المجذوب وسعيد راشد وعزّ الدّين الهنشيري ، سألهم وهو ما يزال منفعلاً : ماذا نفعل بالخائن المحيشي؟ فقال سعيد راشد : أنا أريدُه يا سيّدي ، أعطِنيه ، وأنا سأعطِيه الجزاء الّذي يستحق . ابتسم معمّر ، وقال : هو لك . ونهضَ من مكانه وغادر الاجتِماع . سِيْقَ المحيشي إلى سعيد راشد ، دعا سعيد صَفْوة القتل إلى وجبة خاصّة ، وكان خروف المأدبة هو عمر المحيشي . وضع سعيد عمامةً سوداء على رأسه ، وهو تقليدٌ يتّبعه رجال القبائل العربيّة عندما يذهبون إلى الحرب ، كان عمر المحيشي مُقيّد اليدَين والقدَمَين ، طَرَحه سعيد أرضًا بمساعدة بعض الجنود ، ظلّ المحيشي صامِتًا زائغًا ومرتجفًا . تقدّم سعيد رافعًا سكّينه وأمسكَ برأسِ ضحيّته وذبحه في ثوانٍ مثلما يذبح جزّارٌ مُحترِف ضحيّته العاشرة أمام مسلخه!!» .

كان (سعيد راشد) قد قال من قبلُ للقذّافي : «يا سيّدي القائد ؛ أنا خنجرك وسيفك ومُسدّسك وبُندقيّتك ، ولو أمرْتني بإطلاق الرّصاص على أولادي ، بل على نفسي ، سأنفّذ ، قبل أنْ يرتدّ إليكَ طرفُك» .

(٤٠)
اسكُتْ يا كَلب

لم يكنْ من وسيلةٍ لنخرج من دوّامة الرّعب ، كلّ شيءٍ كان قاتلاً ؛ الجدران ، السّاحات ، الطّعام ، صَرَخاتُ الجَلاّدين ، زَرَدُ السّلاسل ، التفاف القيد على الرّسغَين ، وأصواتُ أبواب الزّنازين وهي تُفتَح صباحًا .

أكثرُ شيءٍ مُرعب ، كان وجه عامر المسلاّتي مدير السّجن ، كانتْ مجرّد رؤيته تعني الموت ، كان يتسلّى بالقتل ، ويتلهّى بالذّبح ؛ كان يأخذ البطّانيّة الّتي نتغطّى بها ، ويلفّها حول عنق السّجين ، ويقوم بخنْقه بيدَيه حتّى يُفارق الحياة . قتلَ عددًا كبيرًا بهذه الطّريقة ،لم يكنْ يفعل ذلك مع عنبرنا فحسب ، كان يفعلها مع العنابر كلّها ، حتّى سمّيناه (عامر الخنّاق) .

كان عنده ابنٌ ملتزمٌ يصلّي ، فكان يقول لنا عنه : «ابني زِنديقٌ مثلكم ، ولو سُجِنَ معكم لما رَحِمْتُه» . وكان عنده ابنٌ آخر رزقه الله بمولودٍ ، فسمّاه على اسم أبيه : «عامر» . بعد سنة توفّى الله هذا الصّغير ، فخرج عامر المسلاّتي الجَدّ من البيت ورفع وجهه إلى السّماء وراح يكلّم الله : «عارفك تدوّر فِيّا . . . عارفك تترصّدْلي . . . لكن ما رح تِقدر لي!!» .

ذات صباح باكرٍ جدًّا ، سمعنا أبواب الزّنازين تُفتَح ، صيحات الجَلاّدين ترتفع ، كانوا يأمروننا بالخروج سريعًا إلى السّاحة ، كان

العشرات من الحرس المُدجّجين بالبنادق قد طلبوا منّا أنْ نقف على محيط السّاحة ونضع أيدينا خلفَ ظهورنا ونخفضَ رؤوسنا ، وأمروا عشرينَ آخرين بالوقوف في أوّل السّاحة اختاروهم من بيننا بطريقة عشوائيّة . بقينا مكتّفي الأيدي خافضي الرّؤوس حوالي ساعة ، وكان الصّمتُ يغلّف المكان تمامًا ، فلا نحن قادرون على أنْ نفوه بحرف ، ولا الجلاّدون قالوا شيئًا . بعد مرور هذه السّاعة ، دخل علينا عامر المسلاّتي يتبختر وكرشه يتدلّى أمامه ، فعلمْنا أنّ كارثةً ستحلّ قريبًا من دارنا ، فازدادَ وجيبُ قلوبنا . وقف مدير السّجن في منتصف الحلقة عاقدًا يديه خلف ظهره ، يروح ويجيء أمامنا ، حتّى إذا مرّتْ عشرُ دقائق أخرى من الصّمت المطبِق وكأنها دهور سحيقة ، وقف وقال مشيرًا إلى مجموعة العشرين : «لقد قرّرتُ إعدام هؤلاء لأنّهم حاولوا الهرب» .
حبسَ بعضُنا بَوْلَه في مثانته حتّى لا يُفتَضح من شدّة الخوف ، ورعشتْ سيقان بعضِنا . كُنّا نعرف أنّ الحُكم بالإعدام عند مدير السّجن أسهل من لبس البسطار . ثُمّ أدار ظهره قائلاً لمساعده بوشعالة : «لماذا قرّرنا إعدامهم يا بو شعالة؟» . ردّ بوشعالة بافتخار من اكتشف شيئًا عظيمًا : «لأنّهم حاولوا الهرب سيّدي» . كانتْ محاولة الهرب الّتي اكتُشِفتْ هي حَفْر بعض المساجين مساحة صغيرة في جدار الزّنزانة من أجل أنْ يصلوا إلى حديد الخرسانة ، فيستخدموا ذلك الحديد كمعاليق للملابس ، لأنّه لم يكنْ من مسمار واحدٍ في الجدار يُمكن أنْ تُعلّق عليه ثيابَك .

ثُمّ راح يتبختر في السّاحة بضعَ دقائق ، حتّى إذا وصل إلى أوّل السّاحة وتأكّد من أنّنا نراه جميعًا ، قال وهو يُشير إلى كرشه المتدلّية أمامه : «تشوفوا في هالبطن ؛ أنا صارف عليه . . كلّ عام أذهب

لإيطاليا . . وكل يوم نضرب في زجاجتين نبيذ . . ليس مثلكم يا مقملين . .» ثُمَّ بصقَ علينا وخرج .

ذات مرّة كُنّا نهرّب بعض الأشياء لأعضاء الجبهة الوطنيّة لإنقاذ ليبيا . لأنّهم كانوا ممنوعين من الزّيارة ، نهرّب المأكولات من زنزانة إلى أخرى . رآنا أحدُ الحرَس ونحن نهرّب هذه المأكولات ، فأخبر آمر السّجن عامر المسّلاتي ، فجاء إلينا ، وجَمَعنا في السّاحة ، وكان معنا (سويسي قرقوم) و(خليفة الميساوي) . . . فألقى فينا محاضرة ، وصاح بعنجهيّة : «خَوَنة . . . أنتم خَوَنة ، المفروض تتعاونون معنا ، تُهرّبون لهؤلاء (يقصد الجبهة الوطنيّة) السّفّاحين الطّعام ، هؤلاء كانوا يريدون حَرْق المُنشآت التّعليميّة ، المدرّج الأخضر» . سكتَ قليلاً . لفّ جذعه يستطلعنا ، نظرَ في وجوهنا جميعًا ، تفحّصنا واحدًا واحدًا ، كان يعرف (سويسي قرقوم) ، بدأ به ، قال له : «وأنتَ يا (سويسي قرقوم) ثلاثة أشهر سِجْن انفرادي» ، فردّ عليه سويسي ، بشجاعة :

لا تظلمنّ إذا ما كُنتَ مُقتدِرًا
فالظّلم مرتعه يُفضي إلى النّدمِ
تَنامُ عيناكَ والمظلومُ مُنتبِهٌ
يدعو عليكَ ، وعينُ الله لم تَنَمِ

فصرخ عامر المسلاّتي : «اسكُتْ يا كَلب . عارفك تردّد الآيات ، والإسرائيليّات أعرفها» . ظنًا منه أنّ ما يقوله من القرآن ، ولكنّنا لم ندر كيفَ جمع بين القرآن والإسرائيليّات؟!

عَقلُه الثّخين أثّر في مُرتّب السّجن ، وفي حُرّاسه وجَلاّديه ، وكان مصدر فخرٍ لهم ، إذ مرّةً قال حارسٌ لأحد السّجناء : «لو كنتَ حمارًا مثلي ، ما أتوا بِكَ إلى السّجن» . حارسٌ آخر قال لسجينٍ آخر : «أنت

مظلوم؟ تعتبر نفسك مالك علاقة؟ أخذوك من المسجد يا مسكين؟»
فيرد السجّان كأنّما يريد أنْ يقول : «إنّ الجامع ليس هو السّبب ، وإنّما أنتَ عملتَ شيئًا آخر ، يقول السّجّان : «لماذا لم يأخذوا أخاك؟» . فيردّ السّجين : «والله أخي هو معي . . . ها هو» . فيُسقط في أيدي السّجّان .

استمرَّ عامر المسلاّتي في سياسة العصا الغليظة تُجاه السجناء ؛ فعذّب دون رادع ، ونقل سُلطاته إلى حَرَسه ، فأطلق أيدي الحُرّاس يفعلون ما يشاؤون بنا ، مع توفير أنواع الحماية كلّها لهم . ومنعت الزيارت لسنوات ، بعضُنا حُرِمَ منها أكثر من (١٢) سنة متواصلة . وانتشرت الأمراض الكثيرة نتيجة الإهمال الصّحيّ الصّارخ . كان أكثر الأمراض شيوعًا بيننا مرض السُّلّ الذي أودى بحياة (٢٠) سجينًا في يوم واحد . ثُمّ عمد المدير إلى سياسة التّجويع ، فقُنّنت كمّيّات الطّعام بحيْث لم تعدْ تكفي لسدّ الرّمق مِمّا أجبرنا على أنْ نتحوّل إلى دواب كي تعيش ؛ فكنّا نأكل العشب من السّاحات!

أسَرُنا كانتْ تُنحّي من دمها من أجل أنْ تبعثَ لنا ما يُخفّف عنّا محنة السّجن ، فكان عامر المسلاتي يستلم ما ترسله هذه العوائل من بضائع ، ويقوم بسرقة ما خفّ وزنُه وغَلا ثمنُه منها ، وكان يرشو بعضَ الحرس مِمّن أرادَ أنْ يكون عصاه إذا بطش بنا ، فكان ينال الحرس قسطهم من هذه الغنائم ، الّتي هي لنا في الأصل ، وكان الحَرَسُ يقومون ببيعها إلى الدُّكّان داخل السّجن العسكريّ ، ثُمّ نقوم نحن بشرائها بعد ذلك و كثيرًا ما كُنّا نجد أسماءنا مسجلة عليها . أمّا ما تبقّى من البضائع من تمور وزيوت وأشياءٍ أخرى ، فكانت تُكدّس في إحدى السّاحات ، وتُضرَم فيها النّيران ، وكانوا يُخرِجوننا من الزّنازين

أحيانًا لنشاهد طعامنا وأغراضنا تحرق أمامنا ، ونحرم منها رغم ما كنّا نعانيه من جوع شديد وشظف أشدّ .

كان يجمعنا كل بضعة أشهر في الساحة عند حدوث حدث هام في الدّولة ، أو موت أحد السّجناء أو قتله ، أو عند الإحساس بخطر ما كأنْ يحسّ بأنّ السّجناء يستعدّون للاحتجاج أو ردّ الفعل . وكان لا يظهر لنا إلاّ مُحاطًا بحرسه في لقاء استعراضيّ رغم قلّة زاده المعرفي وثقافته ، وضحالة تعليمه . وكان إذا برز لنا وقد جمعنا في أوقات راحتنا من على أبراشنا يجلسْ على كُرسيّ فخم في منتصف مدخل العنبر ، ويضع رجلاً فوق رجل ، ويُحرّك في يده عصاه الّتي دائمًا ما تظلّ ريّانة من دمائنا السّائلة فوقها ، ثُمّ يبدأ يكيل لنا ما تيسّر من الشّتائم ، وينعتنا بما استقذر من الصّفات ، ويُهدّدنا بشتى أنواع العذاب . وكان يمقتُ كلّ شيء ويكره كلّ أحد ، وما من شكٍّ أنّه كان يمقتُ نفسه ويكرهها ، وإلاّ لما فعل ما فعل . وكان مقتنعًا بأنّه خطيبٌ مُفوّه ، ومحاورٌ لبيب ، ومُفكّر عظيمٌ ، وهذا شأنه ، فليظنّ نفسه أفلاطون أو أرسطو ، لكنّ المُصيبة أنّه كان يُجلسنا السّاعات الطّوال وهو يستعرض قدراته الكلاميّة الّتي هي محض ثرثرة مُؤذية ، وكان يبدو وهو يتكلّم بهرائه في غاية السّعادة ، مزهوًا بحُرّاسه المُحيطين به ، مُسترسلاً في حوار من طرف واحد ، مُهدّدًا بالويل والثّبور ، وعظائم الأمور لكُلّ من يُفكّر في التّمرّد ، أو الإضراب ، أو النّيل من هيبة النّظام .

جاءنا مرة إلى قسمنا وقد بَلغه أنّنا نقوم بتهريب بعض المؤونة للقسم المجاور لنا من أعضاء الجبهة الوطنيّة لإنقاذ ليبيا الذي كانوا ممنوعين من الزيارة لسنوات عديدة . قام بإخراج ثلاثة من الذين قاموا

بالتهريب ووضعهم بجانبه ، ووجّه لنا سيلاً من الشّتائم وقال : كُنّا نأمُل باعتباركم من قُدامى السُّجناء أنْ تقفوا معنا صَفًا واحدًا ضدّ هذه الكلاب الضّالّة الّذين تسلّلوا من خارج البلاد ، بعد أنْ أوفدناهم للدّراسة بأرقى الجامعات ؛ لِيُسمّموا آبار المياه ، ويُفجّروا المُنشآت ، ويَحرقوا المدرج الأخضر بالجامعة فإذا بكم تتعاونون معهم وتُهرّبون لهم الأكل؟! ماذا فعلْنا بكم حتّى تفعلوا بنا هذا؟! هل آذينا أحدًا منكم طَوال هذه السّنوات؟! لقد كنتُ أعامِلُكم كإخوةٍ لي؟! ثُمّ بعد كل هذا تقفون إلى جانب هذه الفئة المارقة ؛ ليتَهم واجَهُونا في ساحات القتال لا التّآمر علينا من خلف ستار» ثُمّ أطلقَ رصاصةً في الهواء ، وخرج .

كان قمّةً في الجهل . قلبُه قُدّ من الصخر . لا تعرف الرحمة سبيلاً إلى قلبه . لا يَنطِقُ إلاّ كُفرًا . يستمرىء السُّحت ، ويتلذّذ بأذى الآخرين ، ويَلغ في الدّماء ، ويلذّ له القَتْل بالخنق على القتْل بأيّ وسيلة أخرى .

كان (موسى أحمد) أوّل وزير داخليّة في عهد القذّافي محبوسًا معنا ، استدعاه عامر المسلاّتي ، فيما مضى لم يكنْ لشيءٍ مثل هذا أنْ يحصل ، كانت ساقا عامر المسلاّتي ترتعشان إذا ذُكِر اسم وزير الدّاخلية أمامه عوض أنْ يراه فترتعد فرائصه كلّها ، لكنّ الحال لا يدوم ، كان أبناء (موسى أحمد) متفوّقين في دراستهم ، فكان هذا يغيظُ المدير ، واستدعاه ليطرح عليه هذا السّؤال الّذي يجرح كبده بسكّين : « لماذا أنتم في السجون وأبناؤكم مُتفوّقون في دراستهم ، ونحن نعيش مع أبنائنا وهم فاشلون فيها؟!» .

(٤١)
مَنافي العُمر

للمَـوْت مَنْذُورُونَ حـتَّى في هَنَاءَة نَوْمنا . . . والموتُ يَنْهَشُنا ولو علَّقناهُ في الجُدْرانِ مثلَ مَلابِسِ الثَّكْلى وَراءَ ظُهُورنا . . . والمَوْتُ يَبْغتنا ولَوْ أنَا أَلِفْناهُ ونامَ على وَسائد صَحْونا . . . وَالمَوْتُ يخترمُ الحبيبَ كأنّه ما عاشَ يومًا بيْنَنا . . . يا أيّها الموتُ الّذي لم يُبْقِ فينا ما نقدّمُهُ لأنّا لم نَعُدْ أبدًا لَنا . . . رِفْقًا فقد أَلْهَيْتَنا عَنْ أنْ نكونَ وأنتَ تَملأُ بُؤسنا بُؤسًا وتحشُوهُ بِنَا . . . وَزَرَعْتَ وَحْشَتَنا وُرُودًا في الدّروبِ الذّاهبات إلى منافي عُمْرنا . . . إنّا سَنَمْضي طائعينَ إليكَ فافْتَحْ بالمَحبَّة صَدْرَكَ الحاني وَسَهِّلْ مَوْتَنا . . . لا شيءَ أكثرَ أيّها الموتُ الرّحيمُ فلا تُؤجّلْ فَقْدَنا!!

دخل عامر المسلاتي في ٧ إبريل من عام ١٩٨٣م ، ومعه أكثرُ من ثلاثين عسكريًا كأنّهم الغربان . أخذوا (مهذّب احفاف) ركلوه بالأقدام ، وجرّوه جرًا . لم يُقاوم ، كان رقيقَ الجسم ضامر العضلات على أنْ يُبدي أيّةَ مقاومة ، حمله أحدهم على أكتافه ، ومَضَوا به . سَرَتْ في السّجن رائحة الخوف ، زكمت الأنفاس حتّى كدنا نختنق . كُنّا نتوقّع أنْ يحدث ذلك ، لكنْ لم يكنْ أحدٌ يعرفُ السّببَ سواي ، لقد قال ذلك لي بعد أنْ عاد من غرفة الأمر في ذلك اليوم المشؤوم البعيد .

كان المشهد مختلفًا عندما أخذوه من قبل ، جاءنا يومَها عامر المسلاّتي بشكلٍ مُهذّبٍ وسأل عنه ، طلبَ منه بكلِّ أدبٍ أنْ يتبعه إلى

مكتبه فهناك مَنْ ينتظره ، وكان يأمر مرافقيه أنْ يظلّوا مُؤدّبين في حضرته فلا يمسّوه بشيء . في المكتب وجد القذّافي بانتظاره . قال له : «منفاجئ يا مهندس؟» . لم يردّ (مهذّب إحفاف) . طلبَ منه بكلّ هدوء أنْ يجلس . جلس . قال له : «أريد أنْ أعرفَ لماذا تكرهني؟» . «أنا لا أكره أحدًا . أنا أنصح بما أعتقد» . «لن أدخل في جدال طويل معك . أنتَ أخونا ، وحبيبُنا ، وأنا سأقدّم لكَ عرضًا تستفيدُ فيه من خبرتك ومن دراستك وتنهض به معنا في بناء الوطن ، أنا أعرضُ عليكَ أنْ تتولّى منصب أمين شعبيّة غريان ، وأطلبُ منكَ مقابل ذلك طلبًا بسيطًا» . وسكت القذّافي ليرى ردّة فعل (مهذّب إحفاف) . لكنّه لم يتكلّم ، فتابع القذّافي : «أطلبُ منكَ مقابل ذلك أنْ تُجري مقابلةً على الشّاشة المرئيّة تتنصّل فيها من أفكارك ، وتوقّع إقرارًا بعدم مزاولة أيّ نشاط فكريٍّ أو سياسيّ» . وسكت القذّافي ، ونظرَ في عينَي مهذّب مرّة ثانية ينتظر جوابًا . ردّ عليه بكلمتَين : «لن يكون» . بلع القذّافي الرّفض ، لكنّه كان يريده إلى جانبه ، فقال : «ليسَ شرطًا أنْ تقول ذلك على التّلفاز ، ولا أنْ تكتب بذلك إقرارًا ، فقط اقبلْ أنْ تكون محافظًا لمدينة غريان ، وأفعالك هي الّتي ستحكم عليك إنْ كنتَ تركتَ السّياسة أمْ لا» . وسكتَ القذّافي من جديد ليرى أثر ذلك على مُحدّثه ، فردّ عليه مهذّب هذه المرّة بحزم أشدّ : «قلتُ لكَ لن يكون . لن أقبلَ أبدًا» . حينئذ ارتعد جسدُ القذّافي ، وقف مهتاجًا ، وصرخَ بعصبيّة : «أنا قادرٌ على أنْ أمحوكَ من على وجه الأرض . أنتَ نكرة . ماذا تظنّ نفسك؟ لن تخرج من هذا السّجن إلاّ ميّتًا» . فوقف مهذّب مثله ، وصرخ في وجهه بنفس الدّرجة من الحدّة : «تهدّدني بالشّهادة ؛ سيكون ذلك مبعثَ فخرٍ لي» . وخرج القذّافي مُسرعًا وهو يُرغي

ويُزبِد . من أجل ذلك اللّقاء أخذوه اليوم من عندنا ، كان الوجوم يرتسم على وجوهنا جميعًا ، وتوقّعنا الأسوأ .

في التّاسعة من صباح ذلك اليوم بدأت اللّجان الثّوريّة بدعوة الطّلبة والطّالبات وأساتذة جامعة طرابلس للتّجمّع في ساحة كلّيّة الهندسة ، كانوا يقولون إنّ حدثًا مهمًا سوف يحدث اليوم وعليكم أنْ تُشاهدوه بأنفسكم ، أكثر الجمهور كان يظنّ أنّه خطابٌ جديدٌ سوف يطلّ به عليهم القذّافي كما اعتاد أنْ يفعل في السّاحات العامّة في الجامعات بين فترةٍ وأخرى .

في العاشرة والنّصف صباحًا ، وصلتْ سيّارات الأمن ، إحدى هذه السّيّارات كانتْ تحمل مهذّب مقيّد اليدَين خلفَ ظهره ، أنزلوه ركلاً من السّيّارة ، وانهالتْ عليه عصيّ الشّرطة العسكريّة على كلّ جزءٍ من جسده النّحيل ، ومُزّقتْ عنه ملابسه حتّى صار شبهَ عارٍ ، ثمّ نُصِبَتْ مشنقةٌ بطريقةٍ بدائيّة وعلى عَجَلٍ في ساحة كلّيّة الهندسة ؛ كلّيّته ، وأمام زملائه وأساتذته ، وقريبًا من المكتبة الّتي قضى فيها قارئًا وباحِثًا معظم وقته ، اقتادُوه أمام أعين الجمهور كلّه ، رَفَعُوه على كرسيّ الإعدام ، لفّوا حول عنقه حبلاً رديئًا ، وكان عددٌ من الأمن الموزّعين في كلّ مكان يهتفون : «لا ترحم مَنْ خانْ . . . شنقًا شنقًا في الميدان» .
كان الذّهول قد بدأ يرتسمُ على وجوه زملائه وزميلاته ، لم يُصدّقوا ما يرَون ، تقدّم الجلاّد (سعيد راشد) وتلا على مسامع الكلّ حكم الإعدام ، ثُمّ دَفعَ الكرسيّ من تحتِ رجلَيه ، فتأرجحَ الجسد النّحيل المُغطّى بالدّم والكرامة ، ثُمّ صعدتِ الرّوح إلى بارئها ، لكنّ واحدًا من الأمن تقدّم نحوه ، وتعلّق بقدمَيه وأخذَ يشدّه إلى الأسفل وهو يصيح مهتاجًا ، كان يشدّ بكلّ ما أوتي من قوّة ، لم يدرِ أنّ الرّوح قد فارقت

الجسد منذ الهبوط الأوّل ، وأنّه لم يعدْ يشدّ إلاّ القشرة . ثُمّ تكالبَ على الجسد المشنوق عددٌ كبيرٌ من الحَرَس ورجال الأمن ، يضربونه بالأحذية ، ويُهشّمون رأسه بالهراوات . ظلّ جسده يتأرجح ساعات . في المُدرّج كان عددٌ من الطّالبات قد فقدْن الوعي ، أُخريات تقيّأن كلّ ما في أحشائهنّ ودخلْنَ في نوبة صراخ شديد . وآخرون صاروا يَهذُون . بكتْه الكتب على الأرفف الّتي كانت تتابع المشهد من زجاج النّوافذ المُطلّة على السّاحة ، بكتْه الحروف الّتي مرّتْ عليها عيناه ، وانتحبتْ عليه الكعوب والأغلفة الّتي لمسْتها كفّاه!!

ظلّ الشّهيد إلى اللّيل . اختفتْ جُثّته ، لا أحدَ يدري أينَ ذهبتْ . سألتْ أمّه عنه في اليوم الثّاني ، قالوا لها : «لا وجودَ في السّجن لأحد بهذا الاسم» . قالتْ لهم بكلّ ما في الكون من حُزنٍ ووَلَه : «لقد أعدمتموه أمسِ» . ردّوا : «لم نعدمْ ابنك ، وليس في سجلاّت المُعدَمين لدينا أحدٌ بهذا الاسم» . تولّتْ عنهم وعيناها تفيضان من الدّمع . لم تحتمل أنْ تعيشَ يومًا آخر ؛ ماتت في اليوم الثّاني . ربّما أرادتْ أنْ تلحقَ به قبل أنْ تزدادَ المسافة بين روحَيهما!!

نسجوا حوله من بعدُ كثيرًا من الحكايات ؛ بعضُهم قال» «إنّه انضمّ إلى السّماء . والّذين في السّماء لا يُمكن لأهل الأرضِ أنْ يروهم» . أحدهم أقسم أنّه «رآه في اليوم الثّاني في المكتبة يقرأ في زاويته الّتي اعتادَ أنْ يجلسَ فيها» . آخَر قال : «إنّه ما زالَ مُعلّقًا في السّاحة ، لماذا لا ترونَ رُوحه ؛ إنّها تُحلّق في المكان ، فقط دقّقوا النّظر جيّدًا» . خبراء الأمن قالوا : «لقد انضمّ إلى الجثث الّتي يحتفظ بها العقيد في ثلاّجته الخاصّة»!!

بعدَ يومَين من رحيل (مهذّب إحفاف) ، سمعنا قَرْع أبواب

الزّنازين ، وأصوات الحرَس وهم يخبطون ببنادقهم كلّ شيء يُصادفونه في طريقهم ، يتوسّطهم عامر المسلاّتي ، عرفْنا أنَ شيئًا مهولاً احر سيحدث ، قبعْنا داخل أنفسنا ، تقوقعنا على ذواتنا بحذر . صرخ عامر المسلاّتي بوحشيّة : «أينَ صالح النّوال؟» . نهض من مكانه . خلتُ أنه يسير بشكل مائل ، لا أدري إنْ كان هذا ما أراه أم أنَ عينيّ هما اللتان قد زاغتا؟! وقفَ النّوال قُبالة الآمر : «ها أنذا؟ تريدون أنْ تأخذوني كما أخذتم مهذّب؟! لا بأس ، لا أملك الكثير ، يمكنكم أنْ تصادروني الآن» . جرّوه ، إلى قصْر الملك السّابق والّذي غُيّر اسمه إلى قصر الشّعب وصارتْ تُعقَد فيه المحاكماتُ الثّوريّة . نصبوا له المشنقة . صعد الكرسيّ . قرّر رئيس اللّجنة أنْ يؤجّل التّنفيذ دون أنْ يُبدي أيّ سبب . فأنزل الجسد من على المنصّة . ظنّ النّوال أنّ في الأمر حيلة . ظلّ ينظر لا يدري ما الّذي يحدث ، قال له سعيد راشد : «لا أشتهي في هذه اللّحظة أنْ أقضم روحك ، ربّما في مرّة أخرى . قريبًا أعدك ، قريبًا جدًا» . فأُعيدَ إلينا ، تلمّسْتُه ، تلمّستُ عنقه ، تأكّدْتُ أنّها سليمة . كانتْ كذلك بالفعْل ، إلاّ أنّ حبل المشنقة قد حزّ فيها زُرقةً خفيفة . ضحكتُ بشكل هستيريّ : «أنتَ حيّ . لقد نجوت» . ضحك هو الآخر ، وضحك كلّ مَنْ في الزّنزانة ، وضاع الموت في خضمّ ضحكاتنا .

في شهْر أكتوبر من ذلك العام ، نقلوه إلى قسم (المحقرة) ، أودع في زنزانة انفراديّة . كان يُصلّي صلاة النّفل للظّهر ، جاءه اثنان من الحرَس ، أحدهما عبد الحميد السّائح ، ففتحوا عليه الباب وكلّموا حارسًا ثالثًا أنْ يبقى على الباب يراقب الوضع بسلاحه ، فتح الاثنان المذياع على صوت (سعاد توفيق) وكانت تُغنّي : (والشّاهد ربّي

والشاهد ربّي . .) . قيّده أحدهم ، حملاه إلى الجدار الّذي تعلوه نافذة الزنزانة . رفعاه فوقَ كرسيٍّ كانا قد أحضراه مُسبقًا . لفّا الحبل حول عُنقه وشدّاه إلى قُضبان النّافذة . كان يتابع ما يفعلان بصمت . لم يقلْ أيّ شيء ، كأنّه لم يكنْ مصدّقًا أنّ ذلك حقيقيّ ، لربّما كان يظنّه حُلمًا أو كابوسًا لا يستحقّ كلّ هذا الاهتمام . تركهم يفعلون كلّ شيء ، أحكما لفّ الحبل حول عنقه ، وتأكّدا أنّ قُضبان الطّليان قادرةٌ على الصّمود تحت ثِقل جسده ، ثُمّ دفعا الكرسيّ من تحت قدمَيه ، فتدلّى بثقله مُلاصِقًا للجدار ، وكُسِرتْ رقبته . لقد شُنِق في مِزلاج النّافذة ، سحبَ الحارسان السّرير من الزّنزانة ، وخرج الثلاثة . في الزّنزانة المُجاورة له ، كان النّزيل القابع فيها يقرأ : «ومَنْ يقتلْ مؤمنًا متعمّدًا فجزاؤه جهنّم . . .» . ظلّتِ الجُثّة في الزنزانة وحدَها لا يدري بها أحدٌ ، في الظّهر حضر الحارس المُكلّف بتوزيع الطّعام إلى زنزانته والّذي كنّا نُسمّيه (ابن الشّعب) ، كان الغداء في قسم (المحقرة) يُعطَى من فتحة صغيرة في الباب ، فتح (ابنُ الشّعب) الطّاقة ، ووضع عليها صحن الطّعام البلاستيكيّ وانتظرَ قليلاً لكي يأخذه السّجين ، لكنّ أحدًا لم تمتدّ يده لتتناول الصّحن ، صرخَ شاتمًا السّجين لكي يأخذ الطّعام فلا وقتَ لديه لمثل هؤلاء الحمقى ، وأنّ عليه أنْ يُتمّ توزيع الطّعام في المحقرة على الباقين ، لكنّ الزّنزانة كانتْ هامدة ، ليسَ فيها أيّ حركة ، بل لا يُسمع فيها أيّ نَفَس . قذف (ابن الشّعب) صحن الطّعام على الممر الفاصل بين الزّنازين ، وشتمَ مرّة أخرى السّجين ، ومضى ليُتابع عمله ، لكنّه أحسّ أنّ يدًا ما أوقفتْه ودعتْه إلى العودة ، عاد ، جالَ ببصره في أرجاء الزّنزانة ، لم يرَ في الزّاوية اليُمنى أحدًا ، ثُمّ تابع مجال نظره إلى وسط الزّنزانة فلم يجد فيها سريرًا ، ظنّ أنّ نزيلها

قد أفرَج عنه ، هَمَّ بأنْ يرفع بصره ويمضي ، لكنَّه ألقى نظرة أخيرةً على الزاوية اليُسرى ليجد قدمَين مُلتصقتَين بالجدار ومرتفعتَين عن الأرض تتدلَّيان في الفراغ ، أصابه الرّعب ، صعدَ ببصره إلى أعلى ليمسح بعيونه جسدَ صالح النَّوال كاملاً مشنوقًا في نافذة الزّنزانة ، رمى العربة الّتي يسوقُ فوقَها الطَّعام ، هُرِعَ مرتعبًا إلى آمر السّجن (عامر المسلاّتي) ، لم يكترث الآمر لهلع حارسه ، قال بهدوء : «مثلُ هذه الأمور تحدث . لا يمكنني أنْ أتوقَّع ماذا يُمكن أنْ يفعل المجانين!» . طلبَ أنْ يُحضِروا طبيبًا ، شرّح الجُثّة ، كتب الطَّبيب في تقريره أنّه انتحر . وبلّغوا أباه ، قال الأب : أعرف ابني جيّدًا ؛ صالح لا ينتحر .

(٤٢)
ما زال في العُمر بقيَة

كُنّا نسمع صرخات التّعذيب ، آهات المذبوحين ، استجداءَهم ، في كلّ يوم . أحيانًا توقظنا تلك الصّرخات في منتصف اللّيل . أحدُ الزّبانية عنّ له أنْ يتسلّى فأخرج سجينًا بطريقةٍ عشوائيّة من أقرب عنبر إليه وراح يتلذّذ بتعذيبه!! كان بعضُ التّعذيب يتمّ أمام أعيننا جميعًا . كانوا يفعلون ذلك لزرع الرّعب في قلوبنا . أحدهم ألزموني أنْ أقف فوق رأسه ، انهالوا على رأسه بهراوةٍ غليظة ، نفر الدّم من جبهته كنافورة . صرخ صرخةً نزعت الحياة من رُوحي . استجداهم أنْ يتوقّفوا ، قال لهم : «توقّفوا واكتبوا ما تريدون على لساني وأنا أوقّع عليه . . فقط ارحموني» . لم يتوقّفوا ظلّوا يضربونه ، وظلّ يصرخ حتّى خفتَ صراخه مرّة واحدةً ، وهمدَ فجأةً!

رأيتُ أناسًا قُلِعتْ أظافرهم وظلّوا لا يستطيعون المشي شهورًا . رأيتُ جلودًا اصطبغت بالدّم أوّل التّعذيب ، ثُمّ لما تجلّط الدّم في المساء بدأ اللّون الأزرق يظهر ، ثُمّ لَمّا لم يجد السّجين أيّ عنايةٍ طبّيّة ، تقرّحت الجروح وأصابها العفن ، ثُمّ لَمّا ترك فيها العفن زمنًا تحوّلت إلى اللّون الأسود حافرةً أخاديد ، وتاركةً تشوّهات ظلّتْ ترافق السّجين إلى آخر عمره .

ورأيتُ أصابع مقطوعة جرّاء الضّرب بالكاوات المعدنيّة . لممتُ عن الأرض بعضَها ، ولم أدرِ ما أفعل بها . أعطيتُها للحاجّ صالح ، لفّها في

بعضِ القماش ودفنَها في الآريا في صباح اليوم التّالي في غفلة من أعين الحُرّاس . رأيتُ أسلاكًا كهربائيّة تغوصُ في أقدام سُجناء، وتُنتزَع من باطن تلك الأقدام آخذةً معها شيئًا من لحم القدم ، ومخلّفةً وراءها دفقات كبيرةٍ من الدّم لا تتوقّف .

رأيتُ أناسًا ماتوا تحت التّعذيب أمام ناظرَي . كيفَ يُمكن أنْ أصفَ خروج الرّوح من جسد المُعذّب ، هل يكون الخروجِ خلاصًا؟ هل يكون الموتُ في هذه الحالة أمنية؟ لقد كان كذلك حقًا ؛ لكنّ أمنية الموت كانتْ تجري على ألسنتنا ألفَ مرّة دون أنْ تتحقّق . كان الدّخول في الغيبوبة أوّل الخطوات إلى الخلاص ، أوّل الدّرب إلى النّجاة . كثيرون لم يصحوا من غيبوبتهم ، كانتْ أرحم من أنْ تُعيدهم ببعضِ رَشَقات الماء إلى الحياة ليواجهوا الموت في كلّ جلدة . ما شكلُ عروج الرّوح حينَ تغادر جسد السّجين المُنهَك؟ كيفَ تستقبلها ملائكة السّماء؟ هل تستغرق وقتًا طويلاً لتعبر كلّ هذه الفضاءات قبل أنْ تتعلّق بالعَرش؟ وماذا يحدث للجسد الّذي تركتْه وراءها ، هل نقاء الرّوح يمنع الزّبانية من أنْ يستمرّوا في انتهاك الجسد؟

قضى الزّبير أكثر من ثمانية عشر عامًا في زنزانة انفراديّة في المحقرة ، كانت الرّصاصة تقف على نافذة زنزانته في كلّ يوم من أجل أنْ تخترق رأسَه حسبَ طريقة إعدام العسكريّين . وقضى (عبد الونيس الحاسي) ثمانية عشر عامًا في زنزانة انفراديّة ينتظر ذات الرّصاصة تقف على نافذة زنزانته هو الآخَر في كلّ يوم .

كان (عبد الله السّنوسيّ) يمرّ بساكنِي المحقرة الّذين تحوّلوا إلى كائنات خرافيّة لوجودهم الطّويل لسنوات مُظلمة وحدهم في زنازينهم ، فينظر إلى هذه الكائنات من خلال الطّاقة الّتي تُفتَح لكي يرى الكائن

القابع فيها ، هل تحوّل إلى مسخ ، هل جُنّ ، هل مات منذ زمنٍ فتحلّل جسده فتحوّل إلى كومة من العظام مُلقاةً في الزّاوية؟

كان الزّبير وعبد الونيس الحاسي ينتظران في كلّ يوم تنفيذ الحُكم فيهما ، مثلهما بالطّبع مثل بقيّة نُزلاء المحقرة ، كانا في كلّ لحظة يتخيّلان الرّصاصة الغادرة تخترق الجمجمة ، لم يكفّا عن تحسّس تلك الجمجمة طوال ساعات النّهار واللّيل . كان مزيجًا من الشّعور بالخوف والرّاحة ، بالألم والفرح ، كلّ لمسةٍ للجمجمة في لحظة الإحساس بأنّها انفجرتْ ثُمّ يظهر أنّها سليمة وليسَ بها أيّة ثقوب يعطي فُسحةً للأمل بأنّ الحياة قد انتصرتْ على الموت . كانا إذا لَمسا صدرَيهما ، ثُمّ أحسّا بخفقان القلب خلفهما ، ثُمّ إذا رفَعا أيديهما أمام وجهَيهما ولم يرَيا أثرًا للدّماء على تلك الأكفّ شعرا ببعضِ الرّاحة ؛ لا زال في العُمر بقيّة .

الخوفُ من الموت أصعبُ من الموت ، انتظار الموت أشدّ ألمًا من الموت نفسه ، والوقوف على حافّة الانهيار أعظمُ بُؤسًا من الانهيار نفسه . أعذب الموت هو ذلك الموتُ الّذي يقطع حبل الحياة بضربة واحدةٍ ومن المُفضّل ألاّ تكون متوقّعة . أصعبُ الموت هو الّذي يتحرّكُ معك في الزّنزانة في كلّ لحظة ، ويتراقص وحشه المُرعب أمام ناظرَيك ، ثُمّ هو يبقى على هذه الحالة من المراوغة دون أنْ ينقضّ عليكَ في لحظة خاطفة .

كان عبد الونيس الحاسي يقرأ لنا حينَ خرج من الانفراديّ بعد أحد عشر عامًا : «تصبّبْتُ عرقًا في الصّيف . . تجمّدتُ برودةً وانكماشًا في الشّتاء . . زحفتُ إلى زوايا زنزانتي كلّها هربًا من الرّطوبة المُتساقطة بعفن الأسطح المتقشّرة في كلّ شبر ، أو بحثًا عن ملاذٍ يمنعني من قطرات المطر النّازّة من الشّقوق . وضعت السطل (الجردل) الّذي أغسل

فيه ملابسي تحت قواطر المطر ، امتلأتْ بالماء ، راح الماء يفيضُ في كلّ اتجاه على نحو فوضويّ ، تجمّدتُ كأنّني سطحٌ من زجاجٍ أملس . كادتْ عظامي تتكسّر من شدّة البرد كما يتكسّر الزجاج ... في الصّيف ركضتُ وراء الصّراصير وطاردتُها بلا هوادة . وعرفتُ أنّ وسيلتها للنّجاة من أعدائها هي حركتها اللولبية السريعة أثناء فرارها . واكتشفت أنّها تفترسُ بعضَها بعضًا بلا رحمة مثلما يفعل البشر تمامًا . راقبتُ العناكب وهي تنسج بيوتها بمهارة فائقة ، وبعبارة أكثر دقّة ، وهي تنصب فخاخها لاصطياد الضحايا ؛ فبيت العنكبوت ليس في الواقع إلا فخًا . وأشفقتُ مرةً على نملة ضعيفة تُحاول الخلاص من فخ العنكبوت ، فأنقذتها لأخالف هرم الغذاء الطّبيعيّ ، وأطلقت سراحها . وبطريقة ما اعتقدتُ أنها شكرتني ، وأنها رفعتْ كفَّيْها بالدّعاء لي . تأملت قوافل النمل المثابر وأسرابه الطويلة وهي تخاطب بعضها بلغة الإشارة ، وخاطبتُها بدوري مُعاتبًا لأنّها تنقل نفايات مخازن الشتاء إلى وسط الزنزانة . تابعتُ (أبو بريص) الشّبيه بالتمساح ، الزّاحف طوال الليل والنّهار في السّقف وعلى الجدران وهو يتبرّز ، ويلتهم الصّراصير الغافلة مجّانًا وبغير حساب . وقتها قلتُ مُحدّثًا نفسي :إنّ قانون الغاب ليس في الغاب وحده ، إنه هنا في هذه الزنزانة أيضًا ، وفي هذا السجن وفي ليبيا كلها وربما في العالم برمّته .

طاردتُ كلّ شيء حتّى ذاتي الهاربة منّي . . . راقبتُ كلّ شيء حتّى عدد النّمل والصّراصير والبريعصات والعناكب والشّقوق والصّرخات والأنفاس والخيوط والخُطوط ، وأحصيتُ كلّ ذلك وحفرتُه بأظافري على جدار الزّنزانة ، ورسمتُ قائمة على الجدار بأعداد كل الأشياء الموجودة معي في الزّنزانة . . تأمّلتُ حتّى ذرّات الهواء ...

فكرتُ حتّى بالموتى والرّاحلين من عهد سُقراط إلى اليوم . . . تذكّرتُ كل من رأيتُهم في حياتي ، وقابلتُهم في الجيش أو في الشارع أو في المقاهي أو في السّاحات أو في المقابر . . . واستحضرتُ في ذهني كلّ من درسوا معي في الكلّيّة العسكريّة وتوقّفتُ عند صورة معمّر ، لعنتُه في سرّي ليس لأنّني أكرهه ؛ بل لأنّ وجهه منعني من أستمرّ في تذكّر الباقين ، انقطعتْ عنده السّلسلة ، وفقدتُ الذّاكرة ، لم أستطع أنْ أستعيدها إلاّ بعد أنْ محوتُ صورته من السّلسلة وتجاوزتُ وجهه النّائم . كُنتُ أحاول بذلك أنْ أقضي على الوقت المتمدّد في الفراغ والّذي لا يرحل من هنا ، وتتشابه فيه السّاعات بالأيّام بالشّهور بالسّنين ، وكأنّه لا ينقضي ، ولا يسير إلى الأمام ، ولا يبشّر بأنّ له نهاية . فماذا أفعل بالزّمن إذًا؟ فكّرتُ بالنّوم ؛ النّوم يسرقُ جزءًا من هذا الزّمن ، يقضم شيئًا من عنقه الطّويلة ، يُساعدني على الشّعور بأنّ شيئًا ما ينتهي ، وبأنّني يُمكن أنْ أخرج من هنا ولو بعد ألف سنة . لكنْ متى يحطّ طائر النّوم على عينيّ . لقد كان النّوم فاتنةً لعوبًا كلّما غمزتُها بعينيّ لتقبل إليّ ، تغنّجتْ وذهبتْ بعيدًا» .

مع الزّبير وبقيّة سجناء المحقرة ، تتقاطع بعضُ القصص ، قد تكون أقسى ، قد يكون فيها ألوانٌ أخرى ، وإنْ كان لكلّ زنزانة روايتُها الخاصّة الّتي يُمكن أنْ تسمح لنا نافذتها الضّيّقة ببعضها . عاش الزّبير سبعة آلاف يوم في قبو نصفه تحت الأرض ، لا يرى أحدًا ولا يراه أحد ، لا شمس ، لا هواء ، لا قمر ، لا ليل ، لا نهار ، لا صديق ، لا ونيس ، لا كتاب ، لا زيارة ، لا صوت غير أصوات التّعذيب ، لا راحة ، لا غطاء جيّد ، لا وجه غير وجوه السّجّانين القاتمة ، لا مراسلات ، لا طعام ، لا دفء ، لا سرير ، لا حياة ، لا موت ، لا أمام ، لا وراء ، لا أمل ، لا

فرج ، لا فرح ، لا شيء ألبتّة . . . هل كان حيًا بالفعل؟ ما تعريفُ الإنسان الحيّ في حالةٍ مثل حالة الزّبير؟ هل الحيّ هو الّذي يُمكن أن يشعر بقلبه ينبض بدقّاتٍ ضعيفةٍ في مقاومة موتٍ لا وجودَ لشيءٍ في كلّ الأشياء مثل وجوده هو؟!

كُنّا نسمع أحيانًا أصوات طلقات رصاص تخترق سكون اللّيل في المحقرة . لم يكنْ صعبًا معرفة النّتيجة . دمٌ يسيل على الأرض ، ينحدر باتّجاه شقوق الباب ، يسري في الممرّ ، نراه كأنّه أمرٌ طبيعيّ أنْ نراه ، تفوح رائحة الموت معه ، يتخثّر ، يبقى حتّى الصّباح ، يأتي عامل التّنظيف ليمسحه ، أو يُنسَى كأنّه لم يَسِلْ ، نحاول أنْ نقدّر مَنْ قُتِلَ في تلك اللّيلة ، ثلاثةٌ ربّما أو أربعة ، نعدّ الرّصاصات ، إذا كانتْ كلّ رصاصة في الرأس أو في الصّدر قادرةً على أنْ تذهب بالسّجين إلى الضّفّة الأخرى فمعنى ذلك أنّ العدد أكثر من أربعة . من خلال الدّم السّائل من تحت أبواب الزّنازين نحاول أنْ نعرفَ مَنْ تحرّرتْ رُوحه وصعدتْ إلى السّماء ، لكلّ روح رائحتها ، لكلّ روح طريقتُها في العروج إلى الأعالي ، ومع كلّ ذلكُ لم يكنْ سهلاً أنْ نعُرف مَنْ غادر من نزلاء المحقرة . كلّهم مرشّحون للموت ، فمن تُرى هو الّذي شرّفه الموتُ بالاختيار .

قيل إنّ النّقيب (عمر الواحدي) والمُقدّم (آدم الحوّاز) كانا من ضمن اختيارات الموت كذلك . حاولتُ أنْ أستعيدَ رائحة دمائهما في أنفي ، لقد كنتُ أراها واضحةً جليّة قبل أنْ يُغادرا قِسْمهما . لم نتأكّد من الخبر إلاّ بعد أربع سنوات ، في الإفراج الكبير ، إذ لم يُفرَج عنهما ، ولم يعدْ لهما من بعدُ أيّ ذِكْر . استمرّ اختفاؤهما كلّ هذا الزّمن المر الطّويل . أكل معمّر صديقه الحوّاز الّذي حماه ليلة انقلابه العسكري

في عام ١٩٦٩م ، من قديم تأكل الدولةُ أبناءَها ، كان معمّر قد طلب منه أن يكتب استرحامًا يتقدّم به إليه حتّى يُخرجه من السّجن ، بصق الحرّاز على الورقة الّتي قُدّمتْ إليه من أجل أنْ يفعل ذلك ، توعّده القذافي ، ونفّذ وعيده . لكنْ أين جُثّته؟ لا أحدَ يدري ، بمن فيهم أهله وذووه ، أمّا خُبراء الأمن ، فيردّدون عبارتهم الأثيرة : لقد انضمّ إلى الجثث الّتي يحتفظ بها العقيد في ثلاّجته الخاصّة»!!

(٤٣)

نحنُ إنْ متْنا فمن أجلِ الرَّبيعْ

عبد العزيز الغرابلي أو (زيزو) كما كُنّا نُسمّيه سقط في موجة الأمراض الأخيرة، كان وجبةَ التهمها المرض في شهر يناير من عام ١٩٨٤م مع البرد القارس. لم يكنْ عبد العزيز مهتمًا كثيرًا، ظلّت البسمة ترتسم على وجهه الشّاحب رغم كلّ شيء، وظلّ يردّد: «نحنُ إنْ متْنا فمن أجلِ الرّبيعْ... وإذا عِشْنا فمن أجلِ الرّبيعْ».

دخلْنا هذا المعتقل معًا منذ خطاب زوارة الثّقافيّ في ١٩٧٣م. ها هي إحدى عشرة سنةً تمرّ هكذ كأنّها وحشٌ طليقٌ في السّاحات يتربّص بنا، لا هو يذهب ويتركنا وحدنا، ولا هو ينقضّ علينا ويأخذنا معه فيُريحنا، لكنّه ربّما وجد أخيرًا أنّ ثمرة (زيزو) قد حان قطافُها. في هذه السّنوات انشغلتُ أنا في التّنظير الدّيني السّياسيّ لأفكار الحزب، وتناقشْنا مع كلّ التّيّارات، وخصوصًا الإخوان والتّروتسكيّون، كان (زيزو) من التّروتسكيّين، لكنّهم ذهبوا أيضًا في اتّجاه أعمال سرّية أخرى، أسس مع رفيقه عبد الفتاح البشتي مجلة (إبريل) إذ صدر منها أكثر من ثلاثين عددًا، وكان هو رئيس تحريرها. بعد أن تم تجميع المعتقلين في سنة ١٩٨٠م تأسست حلقة سرية تحت اسم (مجموعة المتراس) وكانت مجلة (المتراس) لسان حالها. نجح هو ورفاقه في إصدار تسعة عشر عددًا منها بوسائل شتّى، رغم ظروف السّجن العسكري القاسية. كتب افتتاحية المجلة في إبريل في عددها الرّابع عام ١٩٧٨م:

في السّجن يكبر الوطن . . في السّجن ، بقدر ما يُضيّقون مساحة الأرض حولك ، بقدْر ما يتّسع الصّدر والقلب حتى ليحوي كلّ العالم ، وتملكك الرّغبة

لأنْ تضمّ في داخلك كلّ دقائق هذا العالم بمن فيه ، وما فيه ، ويأتي الشّعور بحُبّ العالَم وحبُ النّاس عنيفًا ، عنيفًا إلى حدّ يختلط فيه الحبّ بالألم ، ويُوصلك إلى مشارف بحر من الحزن . في السّجن يكبُر الوطن . . . وتراه بحجم العالَم ، فالعالَم وطنُك ، والنّازفون دماءهم من أجل بناء الغد الأفضل إخوتُك ، والرّائعون القابعون في كُلّ سُجون العالَم ، رِفاقُك ، بهؤلاء تُحسّ بأنّك لستَ وحدَك ، وبأنك تكبُر ، وتكبُر ، وفي داخلك يكبُر الوطن . في السّجن يكبر الوطن . . . في السّجن نعشق الحياة ، كما لم يعشقْها إنسانٌ من قبلُ ، لأنّهم يُصادرون الحياةَ على مداخل الأبواب الحديديّة ، وفيما تتركّزُ حربُهم لأنْ ينتزعوا من داخلك كل معنًى للحياة ، تظلّ أنتَ تُحاربُ ، بالحياة ، فتحلمُ بحياة جديدة ، مُشرِقة ، فَرِحَة ، وترى أنّ ذلك سيكون على أنقاض كلّ سنين الزّيف هذه ، وكل التّشوّهات ، والتّعفّن الحاضر ، ومَسْخ الإنسان إلى أقصى حدّ . ويتركّز حلمُك في صورة جديدة كل الجدة للوطن» .

كان تليّف الكبد عنده قد وصل إلى مراحل متقدّمة . هكذا شخّصَه الدّكتور المفتي . كلّ توسّلاتنا لنَقْلِه إلى المستشفى لم تُفلح . بعد عام من التوسّلات نقلوه إلى المستشفى في أواخر شهر ديسمبر من عام ١٩٨٣م ، كانتْ يداه ورِجلاه مُقيّدتَين إلى أطراف السّرير . قال الأطبّاء : «إنّ مرضَه في مراحله الأخيرة ، وإنّ لديه استسقاء في البطن ، وصفراء ، وتدهورًا عامًا ، وحالته في أقصى درجات الخُطُورة» . توقّعنا جميعًا أنْ يُفرِجوا عنه ويُتابِعوا حالته الصّحّيّة مثله مثل أيّ

مواطنٍ آخر، لكنّ عامر المسلاّتي أمر بإعادته إلى السّجن. ذهل الأطبّاء. صُدم كلّ مَنْ عرف وضعه، كانتْ أوامر عامر فوق كلّ ذهول. وبالفعل أعيد إلينا في أوّل يناير من عام ١٩٨٤م.

مكث أقلّ من شهر، أحبّته الأمراض، فاجتمعتْ عنده، أصابه نزيفٌ من دوالي المريء، وحوّله السّلّ إلى شبح، كان الدّم ينقذف من فمه في دُفُقات كلّ خمس دقائق. نشّفه السّلّ، لم يبق من دمه شيئًا. اجتاحت العنبر حالةٌ من الرّعب والحُزن، لم يدر أحدٌ ماذا نفعل. صرنا نطرق على الأبواب بصورةٍ جماعيّة، علتْ أصواتُ الطّرقات حتّى تردّد صداها خارج السّجن، جاء الحرس غاضبين يشتمون ويتوعّدون، لم يشأ أنْ يُتعِبَهم أكثر من ذلك، لم يَشْكُ، واجه الموت بشجاعةٍ فائقة، وقبلَ أنْ يصلوا كان قد أسلمَ الروح. أخذوه إلى المستشفى، كانَ ميّتًا. لم يُعيدوه إلينا؛ لقد أصبحَ حُرًا، من هناك نقلوه إلى الزّاوية المدينة الّتي أحبّها وأحبّته، وهناك أراح جسده من تعب الطّريق!

كان راهبًا في محراب الحُبّ، أخرجَ بهدوئه ودفءِ قلبه كلّ ضغينةٍ في النّفوس فأحببْناه جميعًا، رسوماته ظلّتْ تُزيّن جدران الزّنازين، لم يرسم وجهًا عابِسًا في حياته، كلّ الشّخوص الّتي رسمها كانتْ تبتسم، لم يقلْ قصيدةً حزينةً واحدةً في حياته، كلّ القصائد الّتي كتبها كانتْ تضحك. في أسبوعيّته، اجتمعْنا حول ذكراه، كانَ على رؤوسنا الحُزن، رثاه عبد الرحمن الشّرع: «جبلٌ على قلبي رحيلُكَ يا جَبل... لو أنّ عاصفةً تُزحزِحُ غاشيات الحزن عن عينيّ... لو دكّناه مُزني تنتهي ماءً... لأوصلتُ السّؤالَ إلى التي استَوْلَتْ عليكَ لنفسِها... كيفَ اتّفقْنا يا بلادي في محبّته... ولِمَ

تركتِ نزيفهُ ينهالُ . . . كم طرقتْ أيادينا حديدَ السّجن . . . لانَ ولم تَلنْ هذه المدينة . . . كم صَرَخْنا لم تُجِبْ غيرُ السّماء استنفرتْ رعدًا . . . يكتْ مطرًا . . . أقلبُكِ من حَجَرْ . . . قلبي لا يُصدِّقُ ؛ هذه إغفاءةٌ في الظّهر تصحو بعدَها لِتُعيدَ كلّ نشاطكَ اليوميّ . . . كان لقاؤنا سهلاً وعادِيًا . . . وكانَ حوارُنا حول الغَدِ المأمول والأعراسِ ناريًا . . . بَكَتِ السّماءُ ولمْ تُجِبْ هذي المدينةُ . . . هل نُعاتِبُها ، نُخاصِمُها . . . أمْ أنّها في اللّيل مثلُكَ ترتوي نزفًا بصمت . . . إنّها يا صاحبي أيّامُهم . . . لكنّه في آخر الأيّام يشتدّ النّزيف . . . وأخرُ الأيّام مُغبِرةٌ . . . ويومٌ ماطرٌ يأتي» .

(٤٤)
العقيد

لم يكنْ في هذه الأرض عندما جئتُها سواي . بذرتُ فيها الحبّ فبزغ من تحت الثّرى ساقًا رفيعة ، فسقيتُها بنضالي فنَمَتْ على أطرافها الغصون ، فسقيتُها بدمائي فأينعتْ على جوانبها الأوارق ، فسقيتُها بروحي فغَلُظَ ساقُها ، وامتدّ فرعها إلى السّماء ، فصبرتُ حتّى أنضجتْ ثمارًا حُلوة ، فلمّا حان القِطاف جاء الخائنون والجهلة فأضرموا النّار في أصلها فاحترقت!! أمعقولٌ أنّ شعبي يفعل ذلك وأنا لم أحبّ في حياتي أكثر منه! لقد كنتُ أريدُ لليبيا أنْ تكون الدّولةَ الأولى في العالَم ، لكنّ الّذين عاشُوا بين القبور لا يُمكنهم أنْ يُقدّروا قيمة الشّمس الّتي أهديتُها لهم . صدقَ من قال : يُلاقِي الّذي لاقى مُجيرُ أمّ عامِرٍ . الذّئاب لا يُمكن أنْ تلد إلاّ ذئابًا . والكلاب لا تعرف غير النّباح . والغَدَرة لا يقتلون بالخنجر إلاّ أنفسهم . أردتُ لهم القمّة الّتي لا يعلوها شيءٌ وأبَوا إلاّ أنْ يدفنوا أنفسهم في القيعان . لكنْ لا بأس يا يونس ، لا بأس . التّاريخ لا يرحم ، والدّيّان لا يموت ، والأرض العاقر لا تُنجِب . والشّجرة اليابسة النّارُ أولى بها . لا أدري بأيّ قلم سيكتُب التّاريخ عن هؤلاء الّذين خانوا أنفسهم قبل أنْ يخونوني! ويومًا ما سيكتشفون العظمة الّتي تركتُها لهم مقابل العار الّذي تركوه لبلدهم» .

ظلّ يونس صامتًا خاشِعًا ، بدا وجهه الأسمر على ضوء بعض المصابيح كأنّه جلدُ تمساحٍ سميك . كان منصور يعقدُ يدَيه خلف ظهره ،

وهو يرفع كَعبَي قدمَيه عن الأرض قليلاً ثمّ يُنزلهما بعصبيّة، وينظر في وجه يونس: «متى سنغادر؟». همس يونس: «أظنّ أنّنا على وَشْكِ أنْ نفعل ذلك. اصبرْ قليلاً يا عزيزي».

«يا يونس». ناداه وهو يلفّ بجذعه إليه وينظر بعينَين نصف مُغمَضَتَين كأنّه يتذكّر شيئًا. «مولاي» هتف يونس، وهو يؤدّي التحيّة العسكريّة لسيّده، بعد أنْ خطا باتّجاهه خُطوتَين. «أتعرفُ لماذا حطّمْتُ تمثال عمر المختار في بنغازي وهدمتُ ضريحَه؟». «لستُ أدري يا سيّدي، لستُ أدري». «لأنّه تحوّل إلى صنم، وأنا لا أريدُ للنّاس أنْ يعبدوا أصنامًا. لقد نقلتُه إلى قبرٍ عاديٍّ في (سلوق) ليرتاح من تقديس النّاس له عن جَهْل، أنا لا أريد للسّاحة الخضراء أنْ تتحوّل إلى مزارات أولياء يتمسّحون بقبورها كما تتمسّح الكِلابُ بأذيالها، ويحكّون وجوههم في حديدها كما تحكّ القردة آذانها، أنا لا أريدُ حضارةً تخضع للخزعبلات». صمت، ثمّ أرسلَ نَفَسًا طويلاً. قال له منصور: «ووالدك يا سيّدي؟». واجهه القذّافي، ونظر إليه شزرًا، ارتعشَ منصور، اخترقتْه نظرات العقيد حتّى كاد لحمُ وجهه يسقط. سأله العقيد بلهجة حازمة: «ما باله أيّها الضّرّاط؟». «لقد نقلتَ ضريحه إلى مقبرة الشّهداء في الهاني». «بلى؛ لأنّه كان أعظم شهيد عرفتْه ليبيا، وحُقّ لرؤساء العالَم أنْ يتوجّهوا إلى رُفاته بالفاتحة قبل أنْ أرى وجوههم». هزّ منصور رأسه كحَمَلٍ وديع، ثمّ هتف بصوتٍ مُشبع بالرّجاء: «علينا أنْ نغادر الآن، الانفجارات فوق الأرض في العزيزيّة حوّلت السّاحات الخضراء إلى رماد؟». «هذه حضارتهم، يدمّرون كلّ شيء يجدونه في طريقهم، تتار العصر الحديث أسوأ من تتار العصر الوسيط، نحن منكوبون بذوي العروق الحمراء». «لا خلاف يا

سيّدي ، ثلاثون سيّارة تنتظرنا في مخرج السّرداب الثّالث عشر. السّرداب الوحيد الآمن كما تعلم يا سيّدي» . هتف العقيد بيونس «وجثة منصور الكيخيا يا يونس؟» . «لقد أخرجتَ من الثّلاّجة ودُفنَ منذ عشرة أعوام يا سيّدي» . «مَنْ أمر بذلك يا يونس؟» . «أنت يا سيّدي» . «مستحيل . أنا لا يُمكن ألاّ أرى وجه صديقي . هذا الوجه الجميل لا يُمكن أنْ أسلِمه للتّراب والدّود» . اقترب يونس من العقيد . ألصقَ شفتيه في الشّعرات المتهدّلات من تحت القُبّعة فوقَ أذنيه : «لقد وجّهتَ هذا الأمر إلى الخُلصَاء بشكلٍ مُباشر . لا تقلق يا سيّدي ، إنْ شئتَ نبشْنا لك قبرَه ، المقبرة لا تبعد كثيرًا من هنا ، وبقليل من الاحتياطات الأمنيّة وبمساعدة أصدقائنا من حفّاري القبور ستكون الجثّة بين يديك خلال ساعة . . . لكنْ هل تريدُ أنْ ترى وجهه حقًّا؟!» . فكّر قليلاً . تخيّل العقيد وجهه . انقطع بينهما خيطُ الماضي . ابتعدَ وهو ينظر في عينَي يونس برعب : «لا . . . لا . . . ليسَ الآن على الأقلّ» . «فلْنخرجْ من هنا إذًا يا سيّدي» . «شيءٌ واحدٌ بقي يا يونس؟» . «تحت أمرك» . «الشّمعدان اليهودي الّذي على مكتبي أريدُه أنْ يخرج معي» . «سأبعثُ مَن يُحضره على الفور» . «والمسدّس الذّهبيّ؟» . «إنّه على جنبك يا سيّدي» . «وسجن الزّاوية؟» . «أيّ سجنٍ يا سيّدي . هل هناك سجنٌ في الزّاوية؟» . «أنتَ انقطعْتَ عنّي فترةً يا يونس ، تعالَ يا منصور ، تعال ، أنتَ ابنُ العهد الجديد» . اقترب منصور منهما : «في خدمتك» . «السّجن الّذي تحت الأرض وتحرسه الكلاب العَقورة من فوقه» . «ماذا تريدُ منه؟» . «أريدُ أنْ تنغلق حفرته إلى الأبد» . «على ساكنيه؟» . «عليهم جميعًا . لا أظنّ أنهم بقوا أحياء . الموت اليوم يملأ ليبيا كلّها ، فليموتوا من أجلها مرّة واحدة» .

«لقد ردمنا الحفرة بالفعل يا سيّدي» . صمت الثلاثة . قاد يونس العقيد من يده بعيدًا عن السّلّم الّذي يظهر منه الحرس . «الشمعدان يا يونس؟» . «لقد صار جاهزًا مع الرّتل يا سيّدي . سنتقابل فوق حين نخرج من الدّهليز . الآن دورك يا سيّدي . قُدْنا إلى المخرج» . «لقد كانتْ فكرة جبّارة» . «أيّة فكرة يا سيّدي؟» . «أنْ تصنع كلّ هذه الدّهاليز والأقبية . لقد كنتُ مفتونًا بها منذ طفولتي يا يونس . أنا لا أجد متعةً أكبر من الزّحف في هذه الدّهاليز المُظلمة . لا تترك يدي يا يونس . في عروقنا دماء أربعين عامًا من النّضال المُشترك أو يزيد» . «أنا معك يا سيّدي ، لن أتركك لحظة» . عبرَ الثّلاثة الغرفة . مشوا إلى طرفها القصيّ . كان هناك درجٌ يقود إلى الأسفل . ثلاث عشرة خطوة قادتْهم إلى الدّهليز الثّالث عشر . تقدّم يونس ، تبعه العقيد ، ثمّ منصور . وفجأةً غاب الثّلاثة في الظّلام .

(٤٥)
سيُزهِرُ روضُ الحياةِ العَشيب

حاصروا بيتَه ، أُجبِر سُكّان البيت على إخلائه . تقدّم خبراء المُتفجّرات ، سيّجوه بالدّيناميت كما يُسيّج الحقل بالشّوك ، وفجّروه بالكامل . انهدّ بناء كان يحمل روح (عمرو النّامي) .

أبعدَ القذّافي الدّكتور (عمرو) إلى أمريكا ليُدرّس هناك ، بعد بضعة شهور جاء مسلم أمريكي والتقى القذافي في إحدى اللّقاءات وقال له : «تهدرون طاقاتكم فتُصدّرونها إلينا ، وتتركون شخصيّة مثل الدّكتور عمرو النامي يستفيد منه الأمريكان ، ولا تستفيدون أنتم منه!!» . أصيبتْ خلايا الدّماغ الّذي يملكه القذّافي بكهربة من نوع خارق . ناداه على الفور من أمريكا ، ونفاه من جديد إلى اليابان ، ليدرس في الجامعات اليابانية ، فلا أحدَ من هناك سيأتي ليقول له العبارة الّتي قالها الأمريكيّ . بعد سنوات كبر أولاده ، ونزع فيه عِرقُ الحنين إلى وطنه ، وحفرت الغربة في روحه نفقًا مُظلمًا ، فبعث عبر وزير خارجية ليبيا ورئيس وزراء اليابان برسالة للقذّافي : «لقد كبرتُ على الغــربة . ولا أريد لعظامي أنْ تنحني هنا . ووطني أولى بي . فأعذني» . عاد ليواجه محنة جديدة . كان عليه أنْ يُقدّم إلى رئيس جمعيّة الدّعوة الإسلاميّة في ليبيا كلّ حرف يريد أنْ يقوله في محاضراته . فرفض الدّكتور عمرو هذه الرّقابة ، وانقطع عن التّدريس . وعزمَ على أنْ يترك الدّنيا لأهل الدّنيا . وجّه إليه القَذّافي دعوةً للعشاء

معه ، فرفض . كان قد بدأ يسير في طريق تُخرجه من هذه الدُّنيا بالفعل . كان يبدو أنّه يسير في طريق اللاّعودة . لا أحد يستطيع أن يقول لا في الزّمن الّذي بلغتْ سُلطة القذّافي فيه مداها . قال له (لا) دون أنْ يفكّر بتبعات ذلك . أراد أنْ ينتهي على النّحو الّذي يُريده قبل أنْ تتحكّم بمصيره يد السّلطة ، فقرّر أنْ يذهب بعيدًا إلى قريته في (نالوت) في أقصى الجبل الغربيّ ، واشترى عددًا من الماشية ، رمى البدلة الأنيقة وربطة العنق ، ولبس لباس الرُّعاة ، وتلثّم بعمامة الطّوارق ، وساق الأغنام يتبع بها رؤوس الجبال . فإذا ما تعب استظلّ تحت شجرة ، فأخرج النّاي الّذي رافقه في صِباه ، فغنّى عليه أحزان وطنه ، وشجَى وأشجى ، حتّى رقّ قلوب الصّخور من حوله .

لم يتركْه القذّافي يعيشُ وحده بعيدًا في السّهوب والشّعاب ، فبعثَ إليه من يبحث عنه في المهامه ويعتقله ، ويأتي به مُقيّدًا . بقي في زنازين الأمن العسكريّ أربعة أشهر ، كانوا على خِلاف مع هذا الفكر الّذي يحمله في عَقْله ، فحملوا على هذا العقل . يدخلون عليه فيُمسك اثنان برأسه فيضربونها بجدار الزّنزانة الإسمنتيّ الّذي برزت من خلفه أسياخ الحديد حتّى يسيل الدّم فيملأ وجهه ، ثُمّ إذا أصابتْه غيبوبةٌ رشقوه بالماء حتّى يُفيق . فإذا مرّتْ دقائق وصحا من بعدها انهالوا على رأسه بالهراوات الغليظة ، وهو يترنّح تحت أثر الضّربات . كانتْ مشكلتهم الكبرى مع هذا الرّأس . لم يلنْ لهم كما لانَ سِواه . لم يقلْ كلمةً ترطّب جفاف أرواحهم كما قال الآخرون . كان الجلاّد الأكبر يقول له : «لو أطعْتَني لفزت» . فيردّ بثقة : «لو أطعْتني لفزت» .

بعد هذه الشّهور الأربعة عادَ إلينا في الحصان الأسود . استقبلتْه بكلّ ما في الدُّنيا من حبّ . استقبله العنبر كلّه بكلّ ما في قلوبهم من

وفاء . كان قد غاب عنّا ما يقرب من عشر سنوات . عادَ كأنّما عاد إلى منفاه . كانت المنافي تملأ الوطن . كان كلّ ليبيّ قد أُعِدّ له منفى على قياسه ، موعودٌ به آجلاً أم عاجِلاً ، ذلك اليوم الّذي سيمرّ فيه بهذا المنفى لم يكن اختياريًا ، كان قدرًا محتومًا : «وإنْ منكم إلاّ وارِدُها» .

لم يُبْقِ عليه الزّبانية بيننا طويلاً . نقلوه إلى زنزانةٍ انفراديّة ، مع أنّه لم يكنْ مُتّهمًا بتهمةٍ ليُلقى في الانفراديّ ، ولا أدري إن كان قد نُقِلَ إلى الحقرة وإنْ كنتُ أظنّ أنّهم فعلوا ، لأنّنا لم نعدْ نراه من بعدها . لكنّ المرض جمع بيننا من جديد بعد ستّة أشهر من غيابه الحاضر ؛ كنتُ أعاني من مشاكل في المعدة ، وكان النامي يُعاني من قرحة ، فأقلّتنا سيارة واحدة إلى المستشفى ، حينَ صعد ليجلس إلى جانبي بكيتُ ، احتضنْتُه وانتحبتُ ، كان قد هرم كثيرًا وقد وخط الشيب لحيته ، ولم يعد النامي الأوّل . غيّرتْنا السّجون كثيرًا . أكلتْ من كلّ شيءٍ فينا ، ولم تبقِ لنا إلاّ الحزن والموت . بكيتُ يومَها على صدره كثيرًا وظلّ صامتًا . كانتْ عيناه زائغتَين تنظران في البعيد ، وفيها دمعةٌ مؤجّلة تترقرقُ في المحجرَين . كانتْ لحيته السّوداء الكثّة قد حال لونها إلى البياض . وجذعها المستقيم الفارع قد انحنى . ويداه الغَضّنان القويّتان قد ذبُلَتا . أردتُ أنْ أقول له : «إنّني أحبّك . . . إنّني أتمنّى لو كنتُ تلميذًا بين يديكَ خارج هذه الأسوار . . إنّني أتمنّى أنْ ألتقيكَ في غير هذا المكان ، في شارع جانبيّ من شوارع وطني لأبثّك حُزني وألمي ، لأقول لكَ أشياء لم أعدْ قادِرًا على أنْ أقولها هنا» ، لكنّني بقيتُ صامِتًا كأنّني في غير هذا العالَم .

كانت السّيارة تتهادى بنا في الطّريق إلى المستشفى ، وكان القيد يجمع يده اليُمنى بيدي اليُسرى . كُنّا نجلسُ متجاورَين . ألفُ كلمة .

وقفتْ على شفاهي قبل أنْ أنطقَ بها ، ألفُ قبلة كانتْ لتجد طريقَها لو أنهم اغتالوا فينا كلَّ شيءٍ . «أخي عليّ» هتف بي . ففرحتُ أنه نطق . «أنا في الزّنزانة وحدي» . لم أفهم ماذا يريد ، ولكنّني كنتُ أريدُ أنْ أقول له : «لستَ في هذا وحدك ، ليبيا كلّها في الزّنزانة وحدَها» . لكنّني مسحتُ دموعي الّتي انهمرتْ بصمت ، وبقيتُ ساكتًا . تابع : «ولا أعرفُ أوقات الصّلاة . فهل لك أنْ تؤمن لي ساعةً لأعرفَ متى تحينُ ساعتي!» . نهضتُ من مكاني ، فشدّ القيد الذي يجمع بيننا يده إلى يدي ، حللتُ السّاعة الّتي في معصمي وقلتُها له : «هي لك . أنا معي آخرون يمكن أنْ يدركوا المواقيت . أنتَ وحدك» . قال بحنوّ وهو يتناولها منّي : «لم أعدْ وحدي . صارتْ معي» ، ويتابع : «لن أنسى لك هذا الصّنيع ما حَيِيت» .

في المستشفى عمل منظارًا للمعدة ، بقينا في المستشفى إلى المساء . جاء الجلاّدون وأخرجونا بالزّنزانة المتحركة قبل أنْ نستكمل إجراءات العلاج ، وعُدنا إلى الحصان الأسود . عاد إلى زنزانته ، بقي فيها يومَين ينتظر أنْ يأتوه بالدّواء لكنّهم لم يفعلوا . صار يخبط على باب زنزانته ، لكنّ أحدًا لم يستجبْ . بقي حتّى اليوم الثّالث بلا طعام ولا دواء . حينَ ظهر الحارس بعد ثلاثة أيّام كلّمه النّامي بحدّة : «هل نحن حيوانات لكي ترمونا في الزّنازين دون أنْ تسألوا فينا؟ حتّى الحيوانات يأتونها بالعلف . . . هل أنتم بشر أم ماذا؟ ونحن ألسنا بشرًا» . ردّ عليه الحارس بهدوء : «لا» . ثُمّ احتدم النّقاش بينه وبين الحارس ، فلم يكن من الحارس إلاّ أنْ تناول ملعقة الطّعام المعدنيّة الكبيرة وهوى بها على رأسه ، ففقد عقله .

صار يخلع ملابسه ، ويصيح ، ويتحرّك من مكان إلى آخر في

الزّنزانة ، ويرفس الباب برجلَيه . وصار يتكلّم بعبارات غير مفهومة حجروا عليه في الانفراديّ ، ففاقم ذلك من وضعه الصّحيّ السّيئ لم يأتوه بطبيب ، ولم يجعلوه يتناول أدويته بشكلٍ طبيعيّ ، وتركوه مهملًا أسبوعًا . بعد أسبوع نقلوه إلى مستشفى المجانين!

يقع مستشفى الأمراض العقلية في منطقة قرقارش بطرابلس . حينَ دخل المستشفى عاد إليه عقله ، كانت الضّربات أيّام التّعذيب في التّحقيقات الأخيرة قد جعلتْ أيّة ضربةٍ على الرأس تؤذيه كثيرًا . صار بين المجانين ، لكنْ كانوا قد حكموا عليه بالجنون وانتهى الأمر . راح يجري بينهم ، يتطلّع في وجوههم بشغف ، إنّه لن يجد وجوهًا بريئة مثل هذه ليمتّع ناظرَيه بتفحّصها ، إنّه لن يجد قلوبًا نقيّة مثل قلوب هؤلاء ، لقد بدا له أنّه خرج إلى الجنّة من الجحيم . كان مسرورًا جدًا . نصفُ المجانين كان يصيح في اللّيل وهو يقفز كما تقفز السّعادين من حائطٍ إلى آخر : «أنا القذّافي . . . أنا القذّافي» والنّصف الثّاني كان يصيح ، وهو يفتل شَعَرات النّاصية بحركةٍ عصبيّة : «أنا عبد الله السنوسيّ . . . أنا عبد الله السّنوسيّ» . وحده الدكتور عمرو النّامي كان هو عمرو النّامي ولم يكنْ سِواه .

بعد أيّام من مكوثه في مستشفى المجانين حصل بسهولةٍ على أوراق وأقلام ، كان كلّ شيءٍ مُتاحًا تحت ذريعة الجنون ، شعر بفائدة أنْ تكون مجنونًا في بعضِ الأحيان ، أتقنَ الدّور ، وكان يحصل على ما يريد .

بدأ يكتب هناك ما لم يستطعْ أنْ يكتبه عندنا في الحصان الأسود . وراح يبعثُ لي برسائل تُعَدّ توثيقًا حقيقيًا لتلك المرحلة ، كانتْ توصيفًا يُمكن أنْ يكون مرجعًا مهمًا لحالات المرضى النّفسيّين

فيما لو طُبِعَتْ في كتاب . لكنّها أحرقت بالكامل في إحدى حملات التفتيش المسعورة الّتي كان يباغتنا بها عامر المسلاّني بين فترة وأخرى .
«الفكرة العظيمة تستدعي الدّم ، لكن لا أحد يريد أنْ يموت . النّجاح يتطلّب الجرأة ، لكن لا أحد يريد أنْ يكون شجاعًا . يظنّ السّاكتون أنّهم يعيشون في أمان ، لكنّهم لا يدرون أنّ سكوتهم يتساوى مع الذّلّ ، والذّلّ لا يُمكن أنْ يكون أمانًا . إنّ تبعات السّكوت على الظّلم أفدح من الثّورة عليه ، لكنْ لا أحد يا عزيزي يريد أنْ يتحرّر من الخوف» . كانتْ هذه أوّل رسالة بعثها بها إليّ . كانتْ رسائله تصلني في المرّات الّتي أخرج فيها إلى المستشفى ، كانت الزّنزانة المتحركة تمرّ على مستشفى الأمراض العقليّة ، يدسّ أحد المجانين بورقة في جيبي دون أنْ يراه أحدٌ ، إنّها من عمرو النّامي ، الّذي يتابع تنقّلات الزّنازين المتحركة من المستشفى وإليه .

«أخي عليّ . . . نحن ننال من الحريّة بقدْر ما نتخلّص من الخوف الّذي في قلوبنا . اقتلِ الخوف تنل حريّتك . الحريّة أغلى من الموت في سبيلها ، يبدو الموت إلى جانبها كائنٌ صغيرٌ متطفّل ، وهي عملاقة أمامه ، يحاول أنْ يتسلّق على أقدامها فلا يكاد يصل إلى ظُفر إبهامها . نحن بالحريّة أحياء ، وبالعبوديّة موتى . وأعجبُ من أولئك الّذين يبيعون حياتهم بلا ثمن» . قال في رسالة ثالثة : «الأمل ليسَ وهمًا كما يعتقد اليائس . الأمل حالةٌ ؛ انظر حولك وستجد أنّ كلّ شيء يحتفي بالأمل . كلّ شيء يتحوّل إليه . كلّ شيء يريدُ أنْ يكونه . تخيّلْ أنّ الكون والكائنات بلا أمل ؛ كيفَ يُمكن أنْ تكون هناك حياة ، كيفَ يُمكن أنْ يُعبَد الله!! الآخرة أمل الدّنيا . الفوز أمل المعذّبين . النّهاية أمل المُتعبين . الحقيقة أمل الخائفين . العدل أمل المظلومين .

الجنون الذي هو انفصال العقل عن الواقع هو تحرّرٌ من نوع خاص. إنه تحرّرٌ من قيود قاسية فرضها علينا البَشر من أجل ألاّ يكونوا أحرار. الحرّيّة عند هؤلاء، مُخيفة. تبدو كأنّها سقوطٌ في بئرٍ عميقة ليس لها قرار، وليس منها عودة. لكنّها عند الذين غامروا بكلّ شيءٍ تبدو أجمل ما يمكن أنْ يحدث. تبدو صعودًا في السّماء إلى معارج ليس لها منتهى. سيكون لنا غدٌ لأنّ اللّيل تعب من الظّلام. وسيكون لنا شمس، لأنّ الغياب تعب من الوَحشة. وسيكون لنا فوزٌ لأنّ القلب تعب من الحزن. وسيكون لنا روحٌ لأنّ الجسد تعب من الطّين...

كانت رسالةٌ طويلةٌ ذيّلها، بهذه الأبيات:

سيُزهِرُ روضُ الحياةِ العشيبْ
وتَسعَدُ بالزّهرِ فوقَ الكثيبْ
وينفرجُ السّجنُ بعدَ انغلاقْ
وينزاحُ ظلُّ الضّلالِ المريبْ
هنالك خلفَ الجدارِ الكئيبِ
تَباشيرُ فَجرٍ مُنيرٍ قريبْ
وأنفاسُ صُبحٍ وَضيْءِ السّماتْ
وأنسامُ روحٍ رَخيٍّ الهُبوبْ

لم تصلني منه رسالةٌ من بعد، كانتْ الرّسالة الأخيرة هي الرّسالة السّابعة، وكان ذلك في أواخر عام ١٩٨٤م. اختفى عمرو النّامي تمامًا كما اختفتْ رسائله. لم يجدْ أحدٌ له أثرًا ألبتّة، لا في السّجون، ولا في المستشفيات، ولا في المقابر، ولا على المرّيخ، ولا في أيّ كوكبٍ آخر، باستثناء مكانٍ واحدٍ مُحتَمل لا يمكن أنْ يصل إليه إلاّ هو: «لقد انضمّ إلى الجُثث الّتي يحتفظ بها العقيد في ثلاّجته الخاصّة»!!

(٤٦)
نموت واقفين

في مايو من عام ١٩٨٤م وقعتْ أحداث باب العزيزيّة الّتي قام بها أفرادٌ مسلّحون تابعون للجبهة الوطنيّة لإنقاذ ليبيا ، (أحمد أحواس) الاسم الأبرز ميدانيًا في الجبهة المولود عام ١٩٣٨ كان ضابطًا في سلاح الهندسة ، وآمِرًا لسريّة هندسة الميدان ، ومدرّسًا بالكلّيّة العسكريّة ، وكان معمّر أحدَ طلبته قبل أنْ يقوم بانقلابه العسكريّ .

ظلّ (أحمد أحواس) يدخل إلى ليبيا من منفاه متسلّلاً عن طريق الحدود مرّة باسم مستعار ، أو بهيئةٍ تنكّريّة ، أو عن طريق البحر ، وكان يتنقل بين البِلاد ليُعدّ لعملٍ عسكريٍّ ضدّ القذّافي مع أفراد من الجناح العسكريّ التّابع للجبهة .

أثناء تنقّلاته اصطدم بدوريّة مُسلّحة قرب مدينة (زوارة) ، واشتبكَ مع الدوريّة بالسّلاح ، وسقط على التّراب مُعفرًا بدمه . كان قبلَ أعوام عديدة قد بعثَ باستقالته من الجيش إلى قائده يقول فيها : «عرفتُ مُعمّر القذّافي بومنيار طالبًا بالكلّيّة العسكريّة سنة ١٩٦٥م عندما كنتُ مدرّسًا بها ، ثُمّ عرفْتُهُ ضابطًا في الجيش اللّيبيّ حتّى انقلاب سنة ١٩٦٩م ، وعرفْتُه شاذًا في تفكيره وتصرّفاته ، وما أشدّ دهشتي وقلقي عندما أصبح على رأس السّلطة في ليبيا عَبْر انقلاب سيُظهِرُ الأيّام مَنْ كان وراءه» .

بعدَ يومٍ من حادثة مَقتِله الّتي انتشرتْ في أوساط المجتمع ، وقعتْ

أحداث الثّامن من مايو ، إذ اشتبكتْ قوّات النّظام اللّيبيّ مع مجموعة بدر، التّابعة للجبهة الوطنيّة . في الاشتباك قُتل عددٌ كبيرٌ من الطرفَين ، وأُلقيَ القبض على اثنين هما : عماد الحصائري ، وعلي حمّودة ، وسُجنا معنا ومنهما عرفتُ تفاصيل العمليّة . مجموعة ثالثة تسلّلتْ إلى عمارة بجانب العزيزية معقل القذّافي ، في اللّيل اكتُشفوا فصار تبادل إطلاق نار قويّ معهم ، واستُشهد أغلبهم ، مَنْ تبقّى منهم وأُلقي القبض عليهم أُودعوا معنا في الحبس . (أحمد أحواس) الّذي قُتلَ في (زوارة) عثروا معه على مُذكّرة فيها أسماء كثيرة ، أُلقي القبض على جميع هؤلاء وأُودعوا السّجن . وكان عدد الّذين اعتقلوا بالآلاف .

أحدهم ، لم أعد أتذكّر اسمه ، لكنّ هيئته لا تُفارق مخيّلتي ، كان يبدو أنّه قادمٌ من أرض بعيدة ، وعلى سَفَر ، ولم يطلُبْ سوى شربة ماء ، قال لي : «عطشان» . فسقيتُه بيدي . لم يمكث معنا طويلاً . أُطلقتْ عليه سبعُ رصاصات ، اثنتان منها في الرّأس . قبلَ أنْ يأخذوه من هنا إلى ساحة الإعدام ، دَسّ في جيبي قُصاصات بخطّ الشّهيد (أحمد أحواس) ، قُصاصات كثيرة ، لو أسعفَ الزّمن ذويه لصنعوا منها كتابًا يدلّ عليه ، بخطّ أسودٍ غليظٍ نوعًا ما على ورقةٍ فيها أسطر زرقاء ذ هبة ، وقد اهترأتْ من جوانبها ووسطها لكثرة ما طُويتْ أو انتقلتْ بين ا. يدي ، كانتْ هذه الكلمات تقول : «إنّ النّظام اللّيبيّ يُمثّل حلقةً من الحلقات ، ولا يُمكن اعتباره ظاهرةً مُنعزلةً عن ظاهرة الانقلابات العسكريّة ، الّتي فُرضتْ على العالَم الثّالث ، والّتي كان من نتيجتها تأخيرُ تنمية هذه البلدان وتطوّرها بكلّ تعمّد ، وذلك عن طريق إهدار الموارد الاقتصاديّة والبشريّة للبلد ، وعن طريق إقحام الشّعب في تجارب غير مدروسة ولا ناضجة بقصد تفريغ المجتمع من أيّ شكلٍ تنظيميّ

مُستقر يُمكن أنْ يجلب للبلد تَقدُّمًا مُطّردًا وملموسًا . ويُمكننا أنْ نلحظ بسهولة أنّ المصالح الأجنبيّة في أغلب بلدان الانقلابات العسكريّة لم تتأثر بصورة فعّالة» .

عقدت اللّجان الثّوريّة لأعضاء الجبهة الوطنيّة محاكم ثوريّة فوريّة ، وحكمتْ على العشرات بالإعدام حُكمًا غير قابل للنّقض . وسِيقَ هؤلاء العشرات إمّا إلى منصّات الإعدام بحبل المشنقة إذا كانوا مدنيّين ، أو إلى ساحات الإعدام بالرّصاص إذا كانوا عسكريّين .

الجثث الّتي أُنزِلت من فوق أعواد المشانق ، رُبِطَتْ من أطرافها إلى السّيّارات العسكريّة ، وسُحِلَتْ في الشّوارع العامّة أمام أعيُن النّاس . كانت الجثث تتعثّر بالأرجل ، والأعمدة ، والحجارة ، رؤوسها تتدحرج هنا وهُناك ، أعضاؤها تتمزّق من السّحْل فينفصل العُضو عن الجسد ويبقى مُفردًا تحتَ بسطة خُضارٍ أو عربةِ طعام أو رصيفٍ أو مصطبة . لقد وزّع القذّافي أشلاءَهم على كُلّ شوارع طرابلس ، أرادها أنْ تتمزّق قطعةً قطعةً في كلّ ناحية!

أمّا في ميدان الشّهداء بطرابلس ، فقد أمر القذّافي بالإتيان باثنتي عشرة جُثّة من الّذين رفعوا السّلاح في وجهه ، وألقَى نِصْف أجسادهم في حاوية القُمامة ، وأبقى نصفها الآخَر خارج الحاوية ليُشاهدها النّاس ، كان نصفهم قد أُلقي وجهه ، وعُرِضتْ قدماه ، ونصفهم قد أُلقيتْ قدماه وعُرِضَ وجهه ، ثُمّ أمر أنْ تُبثَّ هذه المناظر على التّلفاز ، وكان ذلك في منتصف شهر رمضان ، وقد شاهدْنا كلّ هذه الأحداث من تلفازٍ صغيرٍ لا يتعدّى ثماني بوصات تجمّعْنا حوله هنا في الحصان الأسود ، يومَها تغافل الحرس عن التّلفازات المُهرّبة بأمرٍ من المدير من أجل أنْ نُشاهد بأعيُننا نهاية كلّ خائنٍ عميلٍ كما كانوا يُردّدون .

في اليوم نفسه الذي حدثت فيه هذ المعركة يوم ٨ مايو ٨٤ جاء إلى قسم المحقرة على الساعة الحادية عشرة ليلاً أحد الحُرّاس من عائلة القذافي وهو ضابط الصف (صالح سلطان) صاحب السلطات الواسعة في السجن رغم تدني رتبته العسكرية وطلب من (عبد الله المسلاتي) و(حسن الكردي) الخروج ، فعرفْنا أنّها الشّهادة . فأصرّ الأستاذ (عبد الله) والأستاذ (حسن) على أنْ يستحمّا ، وصلّيا ركعتين ، ولبسا أحسن الثّياب . قال عبد الله : «أريد أنْ أقابل الله نظيفًا» . قال حسن : «لن يروا منّا أيّ ضعف» . كنتُ أرقبهما وأبكي ، شيءٌ ما في قلبي كان يقول إنّهما لن يعودا . كان واضحًا تمامًا أنّ الموت قد اختارهما . كان وجه (عبد الله) مُشرقًا كأجمل ما يكون الإشراق ، كان يبتسم ، وينظر إلينا بحنوّ ، ويودّعنا ، قال كأنّ الكلمات قالها عنه أحد الملائكة : «اللّقاء على الحوض . إنّما نحن كُلّنا مرتحلون» . بكيتُ في داخلي . كانت الدموع تنهمر في أعماقي . انزويتُ في سريري ، وضممتُ ذراعيّ على رأسي . لم أكنْ قادرًا على أنْ أودّعهم ، قال عبد الله موجّهًا كلامه لي : «تعالَ يا أخي . . . تعالَ يا عليّ . . . أريدُ أنْ أحضنك ؛ لربّما لن يُتاحَ لي أنْ أراك مرّة أخرى . . . تعال» . واقتربَ منّي . وقفت . أشحتُ بوجهي حتّى لا يروا الدّموع الّتي راحت تتدفّق . حضنني ، فشعرتُ بأنّ رحمة الله قد تنزّلتْ عليّ ، وغمرت المكان بأكمله . كان هادئًا تمامًا . غنّى أنشودته المُفضّلة كأنّه ذاهبٌ إلى احتفال : «يا نَفْسُ إلاّ تُقتَلي تَموتي . .» . وخرجا ، شعرتُ أنْ روحي خرجتْ معهما ، وعَمّ ظلامٌ دامسٌ كلّ شيء .

كانتْ أمّي تحبّ (حسن الكردي) وتفضّله على بقيّة أصحابي ، كانتْ تطلبُ منه ألاّ يتركني ، أنْ يظلّ مرشدًا لي ، أنْ يُعينني على

الصلاح ، لا أدري إنْ كانتْ تخاف علينا معًا ، لأنَّ قلبَها قال لها إنّنا سنفارقها مُبكّرًا . لكنَّ ما أعرفه أنَّ (حسن الكردي) كان نعمَ الرّفيق ، بعد أقل من عام من رحيل (مهذّب إحفاف) و (صالح النّوال) ، رحل (حسن الكردي) وعمره (٤٢) عامًا . كان النّظام يقتل شباب ليبيا ، كان لا يريد لزهورهم أنْ تتفتّح ، ولا أنْ تكبر أكثر ، ولا لشذاهم أنْ يعبقَ في الأجواء ، كانتْ آلة القمع الّتي اعتادتْ على سَحْقِ الزّهور يؤذيها العبق النديّ ؛ لأنّها تعيش في المستنقعات الآسنة . أعدموه بعيدًا عنّا . لا أحد يدري إنْ سلّموا جثّته إلى زوجته الّتي خُطفَ زوجها بعد سنتَين ونصف من زواجهما . حينَ قالوا لها بكلّ برود : «إنّ حسن مات» . هكذا كأنّهم قالوا ذلك لعابرٍ في الشّارع ، لم تستطع أنْ تصدّق أنّ هذه الرّوح لم تعد تدبّ في الأرض ، ولا أنّ أنفاسها لم تعد تحلّق في الأجواء ، لم تتقبّل فكرة رحيله ، إنّها مع أولادها الثّلاثة الّذي لا يتجاوز أكبرهم عمرًا السّنوات الأربع ينتظرون عودة فارسهم ، ينتظرون عودة الأب الحاني ، لقد انطفأ نور البيت عندما غادرهم إلى المعتقل في تلك اللّيلة المشؤومة ، أيكون لليلةٍ واحدة أنْ تُحيل كلّ النّهارات من بعدها إلى ظلام دامس!! ليسَ سهلاً أنْ يُقال إنّه رحل بهذه البساطة ، بعد أنْ كانت الزّوجة كلّ يوم تنتظر أنْ تراه يدخل من الباب شامخًا ، بهيًا ، ليقول لها : «ها أنذا قد عدت . . . لقد ولّتْ أيّام الحزن . . . دعينا نفرحْ قليلاً . . . دعينا نعشْ هذه الحياة كأيّ زوجَين حبيبَين» . لكنّ هذا لم يحدث . «حسن مات» . رنّت الجملة في عقلها من جديد ، فوقعتْ أسيرةً لحروفها الذّابحة ؛ فعانتْ مرضًا شديدًا بسبب ذلك ، وظلّتْ ملتاعةً متأثّرة بفقْد حبيبها الّذي رحل بعد إحدى عشرة سنةً خلفَ القُضبان . وحينَ رحل لم تدرِ كيف ، ولا أين ، ولم

يمنحوها فرصة النَّظرة الأخيرة على وجهه الطَّهور الّذي ظلّتْ تُشكّله في خيالاتها كلّما اشتدّ الظّلام!

كانت الأجواء تنضح بالرّعب . رمادُ الخوف ملأ الحلوق فتيبّستْ . ولم نعدْ ننبسُ ببنت شفة ، ولم نكنْ ندري ما نقول .

بعدَ ليلتَين ، سُحِبت الجثث متفحّمة متيبّسة من حاويات القُمامة ، وأُخِذتْ إلى المجهول ، إحدى عشرة جُثّة دُفِنتْ في مقابر لا يعلمها إلا الله ، أمّا جُثّة (أحمد أحواس) فقيل إنّه : «انضمّ إلى الجُثث الّتي يحتفظ بها العقيد في ثلاّجته الخاصّة»!!

لا أدري كيفَ حَمَلوا جُثّته ، وبأيّ ثلاّجة وضعوه ، ولكنّني أدري أنّ قصاصةً وحيدةً من قُصاصاته بقيتْ معي ، كان قد قال فيها : «لن نتخلّى عن دورنا ، ولن نقعد مع القاعدين ، ولن نقنطَ مع القانطين ، والخيار الوحيد الّذي نرضاه لأنفسنا ، هو أنْ نعيشَ أحرارًا أعزّاء أوفياء ، أو أن نموت واقفين ، ونسقط سَقطة الشّهداء الصّالحين» .

(٤٧)
مِن منَفى إلى منَفى

اصطفقت الأبواب . تعالت الصّرخات ، تطايرت الشّتائم ، صكّت النّداءاتُ المتلظّية الآذان ، كأنّ سيلاً هائجًا متدفّقًا في كلّ اتجاه كان يصيح : «إلى البوّابات أيّتها الحيوانات . . . إلى البوّابات أيّتها الجراء اللّعينة . . . إلى البوّابات . . .» كان ذلك فجر يوم جديد من أيّام السّجن الّتي لم تعُدْ تُعَدّ لكثرتها . لم ندر لماذا كانوا يُنادُون علينا بالخروج إلى البوّابات ، لكنّنا امتثلْنا لأنّ التّأخير في تنفيذ الأمر كان يعني أنْ تنزل بنا مصائبُ لا يمكن لأحد أنْ يتنبّأ بشكلها .

تجمّعْنا في السّاحات مثل المُهاجرين الّذين أُجبروا على مغادرة أوطانهم تحت تهديد السّلاح ، فلم يحملوا معهم إلاّ أنفسهم . كان بعضُنا لم يتمكّن من انتعال حذائه ، وبعضُنا خرج بفردة واحدة . آخرون تركوا ألبستهم وأمتعتهم في الزّنازين . دفعتْنا السّياط الّتي ألهبتْ ظهورنا إلى البوّابة الرّئيسيّة للسّجن ، كُنّا نخرج أفواجًا كما لو كُنّا قُطعانًا من الماشية تتدافع تحت عصا الرّاعي ، وتحبسها البّوابة فتتهارش ، ثُمّ تنفتق حينَ تخرج ، منفلتةً إلى شاحنات عسكريّة كبيرة كانتْ تنتظرنا عند تلك البوّابات . ركبْنا الشّاحنات بشكلٍ عشوائيّ ، وساعدَ صِغارُنا كِبارَنا في الصّعود ، وانطلقتْ بنا هذه الشّاحنات إلى المجهول ، لقد كان ذلك هو يوم الخروج الكبير ، في الطّريق علمْنا أنّهم ذاهبون بنا إلى سجن (أبو سليم) .

يقع سجن (أبو سليم) في الضّاحية الّتي تحمل هذا الاسم (أبو سليم) جنوب غرب طرابلس ، ويبعد حوالي (٤) كم عن مركز المدينة كُنّا قد بقينا في سجن (الحصان الأسود) حتّى عام ١٩٨٤م ، ثمّ ها هم ينقلوننا إلى هذا السّجن الّذي بناه القذّافي مُستعينًا بالألمان . لم يبقوا على سجين سياسيٌّ واحدٍ في الحصان الأسود ، هدموا السّجن بعد خروجنا منه ، واعتبروه رمزًا للعهد البائد ، وأقاموا على أنقاضه حديقةً أسموها حديقة الحرّيّة ؛ ليبدؤوا معنا هذا العهد الجديد!!

لم نكنْ أوّل من دخل سجن (أبو سليم) ، كان الآلاف من الّذين اعتُقلوا في قضيّة (باب العزيزيّة) قد نُقلوا إليه للتّوّ ، ودشّنوه قبل بضعة أيّام فقط .

يتكوّن سجن (أبو سليم) من سجنَين مُتماثلَين : السّجن المركزيّ والسّجن العسكريّ . وكلّ سجنٍ يتكوّن من (٨) عنابر أو مهاجع ، كلّ عنبر يتكوّن من (١٤) زنزانة في صفّين متقابلَين ، في كلّ صفٍّ سبعُ زنازين وبينهما ممرّ بعرض مترٍ ونصفٍ وطول عشرين مترًا هو طول صفّ الزّنازين ، وفي كلّ زنزانةٍ يقبع ما بين (١٢-١٥) سجينًا في الوضع الطّبيعيّ ، وقد يزيد عن ذلك في بعض الأحيان . المهجعان (٧، ٨) مُخصّصان للزّنازين الانفراديّة والمحكومين بالإعدام ، وعدد زنازين العنبر الواحد من هذين العنبرَين يزيد عن عدد زنازين العنابر الأخرى العاديّة ، إذ إنّ كلّ عنبرٍ منهما يتكوّن من (٢٠) زنزانة .

أوّل مَنْ دُشّن بهم السّجن ، وأدخلوا إلى حُجُراته هم جماعة (أحمد أحواس) ، قُتِل منهم العشرات في الميادين العامّة ، وعلّقوا على المشانق ، وألقيت جثثهم في الأزقّة ومكبّات النّفايات ، وأخذ بعضهم إلى ساحات الرّصاص ، لينتهوا برصاصاتٍ من قنّاصةٍ محترفين في

الرأس أو الصّدر . ومَنْ تبقّى منهم شاركنا المنفى الجديد ، وبقوا معنا لسنوات طويلة دون إفراج أو مُحاكمة .

في سجن (أبو سليم) الّذي يحمل البصمة الألمانيّة الهتلريّة كان كلّ ما يُمكن أنْ تتمنّاه عقليّة الجَلاّد موجود وحسب الطّلب . بعضُ الزّنازين صُمّمتْ للتّعذيب ، بها كلّ أدوات التّعذيب المستوحاة من كلّ مدارس التّعذيب في العالم ؛ الشّرقية والغربيّة . بعضُ الزّنازين صُمّمتْ للتّعذيب بالوجود ، مجرّد وجودك فيها هو تعذيبٌ بحدّ ذاته ، تلك هي الزّنازين الانفراديّة والّتي كان أغلبها عرضُها مترٌ واحدٌ وطولُها متران ، وزاوية قضاء الحاجة في متر العرض ، فكان عليك إمّا أنْ تضع رأسك عند الفتحة الّتي تقضي فيها حاجتك وتتحمّل كلّ الرّوائح الكريهة المنبعثة منها ، والمُصمّمة عن قصد بحيثُ تُصدِر تلك الرّوائح ، أو أنْ تضع رجلَيك فيها إذا جعلتها من الجهة الأخرى . وكان يُمكن لسجين محكوم بالإعدام أنْ يقضي فيها عشر سنوات . بيدَ أنّ هذه الزّنزانة ليست الأنكى والأقسى من بين الزّنازين ، فهناك نوعٌ آخَر مُرعب جدّاً ، زنزانةٌ يكون عرضها وطولها (٦٠سم × ٦٠ سم) ، وهذه لا تسمح لساكنها إلاّ بالوقوف ، وهي قبرٌ قائمٌ ، تأكل فيها وأنتَ واقف ، وتشرب وأنتَ واقف ، وتنام وأنتَ واقف ، وتقضي حاجتك وأنتَ واقف . وقد قضى فيها بعضُ المساجين ستّة أشهر ، وهي أقصى فترة للتحمّل ، ومن بعدها كانتْ مثل هذه الزّنازين تُفتَح على جُثث ميّتة . ماتَ عددٌ لا أذكره من المساجين بهذه الطّريقة ، وقد خُصّصتْ لكي تقضي عليهم بطريقة مُبتكرة من دون الاضطرار إلى استخدام حبل المشنقة أو الرّصاصة ، أو البطّانيّة للخنق كما كان يفعل عامر المسلاتي!!

نوعٌ آخَر من الزّنازين ، وهو يقع في السّاحات الخلفيّة للسّجنَين ؛

المركزيّ والعسكريّ . كانتْ هذه الزّنازين تُحفر للمساجين تحت الأرض ، وكانتْ مغلقةً تمامًا ، والواحدة منها أشبه ببئر ، والبئر له غطاء مُحكَم ، أُبقِيتْ فيه بعضُ الفتحات لدخول قليلٍ من الهواء الّذي يُحافِظ على وجود الضّحيّة أطول وقتٍ ممكن ، لكنَّ نهاية ساكنها الموت ، لأنّه كان يموتُ بالتّدريج . لم ينجُ من نُزلائها أحدٌ ، ولم يخرج من تحت تلك الأقبية المُرعبة حيٌّ واحد ، كان الدّاخل إليها محكومًا بالإعدام ، ويُنفَّذ فيه الحُكم بهذه الطّريقة . الزّمن يتكفّل بكلّ شيء .

لم يكنْ في هذا النّوع من الزّنازين أيّ مكان لقضاء الحاجة ، وكان السّجين يفعلها في زاوية من زوايا الزّنزانة ، ولا يجد ما يستعين به على تنظيف ما يتركه خلفه ، ومع الزّمن كان جسده يتحوّل إلى مستنقع للأمراض الخبيثة الّتي كانتْ مصدر عذابٍ له أشدّ من أيّ أنواع أخرى من العذاب . أمّا الطّعام فكان يُلقَى لهؤلاء الضّحايا من غطاء البئر أو الزّنزانة ، ولم يكنْ يحرس السّجن أحدٌ باستثناء الكلاب الشّرسة المسعورة الّتي كانتْ تنتشر في أرضه الخالية والمُسوّرة ، والّتي لا تبدو لمن يراها من فوق تعني شيئًا ، وكأنّ المكان مهجورٌ تتجوّل فيها الكلاب الضّالّة!

ماتَ أناسٌ في سجننا ولم يعرفْ بهم أحدٌ ، لا نحنُ ولا ذووهم ، ولا حتّى الجَلّادون ، كانوا يموتون نسيًا منسيًا في مثل هذه الزّنازين ولا يدري بهم غير الله . ولم يكنْ من أحدٍ لينقل الفظائع الّتي ارتُكِبتْ بحقّهم إلى أيّ جهة أو بأيّة وسيلة ، وإلى اليوم ما زال في ليبيا مَن يجهل ما حلّ بأخيه أو ابنه أو أبيه ، أو واحدٍ من أهله من الّذين قضَوا نحبهم في غياهب السّجون .

في سجن (أبو سليم) ، تقاسم (عبد الله السّنوسيّ) مع (عامر

السلاتي) البطولة في التنكيل بنا. لكنّ عبد الله تفوّق على عامر. لقد جاء أخيرًا من يقول لعامر: «أيها الغرّ سأعلّمك ما لم تعلم».

كان (عبد الله السنوسيّ) الرجل الثاني في الدّولة، وما (عامر) إلاّ أحد أذرعه العديدة، لكنّه كان يقضي له بما يريد في السّجن، كان عبد الله يأتي بأفارقة سودٍ، ضِخام الجُثّة، ويُعرّي المساجين الضّحايا تعريةً تامّة، ويربط أيديهم وأرجلهم، ويُلزِم وجوههم إلى الحائط، ثُمّ يطلب من هؤلاء الأفارقة أنْ يقوموا باغتصابهم. كان يتلذّذ بذلك كأنّه لم يكنْ في الدّنيا من سعادةٍ له إلاّ في أنْ يرى سجينًا مسكينًا ضعيف البنية، هزيل الجسد، واهن العِظام، تتشقّق عنه ملابسه، يُولج أَسْوَدُ ضخمٌ عُضوه فيه، وكان لا يكتفي بذلك، فقد كان يأمر الأفارقةَ أنْ يبولوا على المساجين بعد أنْ يفعلوا فِعلتهم تلك. وكان يضحك ملء شِدقَيه وهو يُتابع المشهد!

نصبَ ذات مرّة ستّ مشانق في الممرّ بين الزّنازين في أحد العنابر، أحضر ستّة مساجين مُقيّدة أيديهم من خلفهم، مُغطّاةٌ عيونهم، رُفِعوا على الكراسيّ السّتّة، وقام هو بنفسه بِلَفّ الحبل على عنقِ كلّ واحدٍ منهم. ثُمّ نزل، وراح يتمشّى خلف أجسادهم، وهو يفكّر فيمن ينتقيه للموت منهم. كان كلّ سجين يتوقّع أنْ يُدفَع الكرسيّ من تحت قدمَيه في أيّة لحظة، لينتقل إلى العالَم الآخَر. ظلّ يروح ويجيء لأكثر من عشر دقائق دون أنْ يفعل شيئًا، كانتْ أنفاسُ السّجناء تبدو مضطربةً مرعوبة من انكماش القماش إلى أفواههم مع الشّهيق، ومن انفراجه مع الزّفير. كلّ لحظة من الدّقائق العشر كانت تُساوي عامًا بالنّسبة لكلّ سجين، بل كانتْ تساوي العُمر كلّه. توقّف عند أحدهم في لحظةٍ ما، وبحركة خاطفة وقويّة ومشحونة بالغلّ دفع

الكرسيّ الّذي يقف فوقه ، فخرّ جسد السّجين إلى الأسفل ، وانفتقتْ من فمه صيحة قبل أنْ تنخمد على الفور بسبب اختناقه بالحبل ذاهبةً بصاحبها إلى وادي الموت . السّجين الّذي بجانبه كانتْ رجلاه ترتعدان ، لم يستطع أنْ يحتمل أكثر ، فجرى السّائل الدّافئ من بين فخذَيه وملأ سرواله . حينَ خرج من الممرّ كان قد بعثَ بثلاثة من المرفوعين على الكراسيّ إلى الموت ، لم يكنْ هناك من سببٍ لأنْ يموتوا دون الثّلاثة الآخَرين ، لقد اختارهم الجلّاد بطريقةٍ عشوائيّة!!

للسّنوسيّ فظائع أخرى ، كان يدخل على زنزانتنا مثلاً ، ويصرخ : «أنتم كُفّار ، أنتم زنادقة ، أنتم أحفاد عمر المختار ، حتّى عمر المختار كان عميلاً للطّليان مثلما أنتم عملاء لأمريكا وللبريطان ، كان عمر المختار خائنًا ثُمّ انقلب على الطّليان ، أنتم تتباهَون أنكم أحفادُه ؛ إذًا فأنتم أحفاد الطّليان» . وكان يضع حذاءه في فم السّجين بعد أنْ يكون قد أجثاه على الأرض ، ويقول له : «نحنُ أسيادكم ، معمّر سيدك وتاج راسك ، وحذائي أشرفُ منك ومن كلّ قبيلتك» .

في سجن (أبو سليم) دخل مصطلح جديد من مصطلحات السّجن يُضاف إلى (الشيلّة) و (الآريا) و (المحقرة) ، إنّه مصطلح (التّوكة) . والتّوكة هي حراسةٌ ليلةً يقوم بها خمسةٌ من الحرّاس يرأسهم أحدُهم ، وهي تحرسُ العنبر لمدّة (٢٤) ساعةً إذا كان نزلاؤه خطيرين في نظر الدّولة ، ثُمّ تستريح لمدّة (٤٨) ساعة . وكان طول العهد مع رئيس التّوكة يورث بعضَ العلاقات ، الّتي لم يكنْ لها قاعدة ، فقد تكون الخنجر الّذي ينشب في عنقك في لحظةٍ غير متوقعةٍ أبدًا ، وقد تُسهّل لك بعضَ الأمور على نحوٍ مُفاجئ .

لم يكنْ أحدٌ ليفهم كيفَ يتصرّف الحُرّاس وعلى أيّ نَحْو . لم

نكنْ نعرف لماذا هذا الكُره العتيق العميق في قلوبهم لنا ، والحقد الصَارخ علينا ، لقد كُنّا نراهم مخطوفي الأذهان لصالح العدوى الذهنيّة ، لصالح الدّعاية المستمرّة ضدّنا في كلّ الوسائل ، كانوا تحت تأثير الضّغط والتّكرار ، والتّدريس ، وصناعة خريطة جديدة للفهم ، وملء الفراغات العبثيّة في العقل ، لقد لُقّنوا على أنّهم إنْ لم يفعلوا معنا ذلك فسيكونون خائنين لضمائرهم ، وأنّه إنْ لم تَقتلْ فستُقتلْ ، وأنّ مَنْ مدّ إليكَ الوردة فلا تمدّ إليه إلاّ السّيف!!

على وجه الحقيقة كنتُ أجهل كيفَ يتصرّف هؤلاء الجلاّدون إذا غادروا أسوار السّجن ، هل سيكونون طبيعيّين تمامًا؟! كيفَ سيتصرّفون مع أبنائهم ، مع أهلهم ، مع بائع الخُضار في السّوق ، مع سائق الأجرة . . كيفَ يشترون ربْطة الخُبز؟! هل إذا كان البشريّ الّذي مقابلهم هو مَنْ يحتاجونه في البيع والشّراء ، هل يقولون له : من فضلك ، أو شكرًا ، أو إذا سمحت؟ هل يعرفون هذه الكلمات أمْ أنّ ألسنتهم تتحوّل إلى حجارةٍ في اللّحظة الّتي يريدون أنْ ينطقوا بها؟! هل سيكونون طبيعيّين في علاقاتهم الاجتماعيّة أمْ أنّ سلطة الجلاّد ستظلّ منغرزةً في جلودهم لِتُبرز تعجرفهم وخُواءهم!! هل يخلعون قشرة الجبروت الّتي كانت تُظلّهم وهم بيننا ويتصرّفون على نحو طبيعيّ خارج هذا السّجن المَقيت ، أم أنّهم سيتصرّفون كما لو أنّهم آلهة تملك أعناق البشر وحرّياتهم وحَيَواتهم وكلّ نَفَسٍ فيهم؟!!

(٤٨)
العقيد

حمل معه الشمعدان، والمسدّس الذهبيّ. تقدّمهم كأنّه ذاهبٌ إلى الاحتفال بنصر ما في ساحة ما، والجماهير تنتظر طلّته على أحرّ من الجمر!! خرج من الزّاوية الجنوبيّة للغرفة الفسيحة. قال العقيد لمنصور: «أعطِ يونس إحداثيّات السّرداب ١٣». تسلّم يونس الأمر، زعق في اللّاسلكيّ الّذي كان يحمله. بعد أنْ أعطى أوامره للوحدات العسكريّة المُرابطة حول باب العزيزيّة. قال لرفيقَيه: «خلال خمس دقائق سيكون الرّتل جاهزًا في فوهة السّرداب بانتظارنا».

في الزّاوية الجنوبيّة، مرّر العقيد إصبعه على الحائط الأصمّ، فانفتح. كان به بابٌ غير مرئيّ، قاد الباب إلى غرفة تُشبه الزّنزانة، كانتْ مُصمَتة. من حديدٍ فضّيّ. أمرهما العقيد أنْ يأخذا الزّاوية الضّيّقة. حُشِرا هناك. أدار لهما ظهره، وضغط على لوحةٍ لم تكنْ مرئيّة على الحائط الحديديّ المقابل، فانفتحتْ في قَعر الغرفَة فتحةٌ مربّعة، كان هناك سُلّم حديديّ مُعلّق بها برزتْ منه درجاته الأولى. وضع قدَمه اليُمنى على أوّل درجة وهمّ بالنّزول قبلَهما. مدّ يونس يده: «سيّدي ننزل قبلك، لعلّ هناك خطرًا ما». ضحك ضحكةً أبانتْ أسنانه، فبدا مثل ذئبٍ أغبر: «أنتَ لا تعرفُ شيئًا. اتبعاني». وراح يُكمل نزوله. انتهى الثّلاثة إلى سردابٍ متعرّج، لا يكاد يستمرّ بضعة أمتار حتّى يصلوا إلى نقطة تقاطع في الجُهات الأربع، كانتْ ثلاثة منها

تؤدي بعد مسير طويل إلى حائط مُغلق ، جهةً واحدة فقط تقود إلى المخرج ، ولا أحد يعرفها باستثناء العقيد . تبعاه كجروين صغيرين . استغرق الأمر نصف ساعة قبل أنْ يجد الثّلاثة أمامهم سُلّمًا حديديًا آخر مكوّنًا من (٥٢) درجة ، يبدأ من الغرفة الّتي يقفان فيها ، ثمّ يصعد لتضيق الغرفة بعد الدّرجة (١٣) ، وتُصبح أنبوبًا مربّعًا طوله وعرضه (٦٠سم × ٦٠ سم) . أشار العقيد لمنصور أنْ يتقدّم : «من هنا . اصعد» . امتثل على الفور . قال له وهو يصعد : «خُذ هذه الورقة . عليها رقمٌ مكوّن من ستّ خانات . ستجد في نهاية السّلّم غطاء حديديًا . أدخل الأرقام في لوحة المفاتيح من أجل أنْ ينفتح الغطاء» . امتثل من جديد . قال العقيد ليونس : «إذا طار رأسه أوّل خروجه من السرداب فسيكون ذلك نذير شُؤم» . ثُمّ أشار له بالصّعود . صار الثّلاثة على الدّرجات ، تفصل بين كلّ واحدٍ منهم ثلاثة عشر درجة ، كانتْ رجلا منصور قريبتَين من رأسِ يونس ، ورِجلا يونس قريبتَين من رأسِ العقيد . حين أدخل منصور الأرقام انفتح غِطاءٌ ثقيلٌ من الحديد المُقاوِم للانفجار النّوويّ ، صار رأسُ منصور في الهواء الطّلق . تفاجأ بوجه قاتم يبتسم له ، إنّه وجه (وفيق) رئيس القُوّة الخاصّة بحماية الرّئيس . تحسّس منصور رأسه ليتأكّد من أنّه لم يَطِرْ . كانت القطاعات العسكريّة منتشرة في أرجاء باب العزيزيّة على مدّ البصر . أتمّ خُطُواته ووطئت قدماه الأرض . برز رأسُ يونس ، ثُمّ رأس العقيد . أدّى له وفيق التّحيّة ، وقال لهم : «من هنا» . دخلوا في ممرّ آمن ، مُغطّى بالتّمويهات العسكريّة . كانتْ تنتظر في نهايته سيّارةٌ مُصفّحة . كان الجوّ في الممرّ خانقًا . درجة الحرارة تقترب من الأربعين ، إنّها نهاية آب من عام ٢٠١١م . والعقيد يُودّع مُلكَه في هذا المكان الّذي حكم فيه لأكثر من

أربعين عامًا كما ودّع أبو عبد الله الصّغير غرناطته . قبلَ أنْ يصعدَ السّيّارة ، سمح له يونس بأنْ يُجيل النّظر في الأرجاء ، كان باب العزيزيّة يبدو موحشًا . المكان كأنّه مدينة أشباح . الجزء الّذي قصفتْه الطّائرات الأمريكيّة في الثّمانينيّات كان يبدو أكثر بهاءً من الأماكن المُقفرة الأخرى . حتّى العشب الّذي ظلّ ناضرًا طوال أربعين عامًا ها هو يَيْبس ، والنّخلات بدتْ كمُتعَب يمدّ أذرعه المُنهكة حول جذعه كأنّه يستسلم لقدَره الغامض . وفي الأجواء كانتْ طائرات مجهولةٌ كثيرة تُحلّق وهي تزعق ببعض القنابل ترميها هنا وهناك . كان الدّخان يتصاعد في الأفق . أصوات الانفجارت لا تتوقّف أبدًا ، وأولاد يحملون رشّاشات أطول منهم يتراكضون من مكانٍ إلى آخَر ، وصياح جماهير غاضبة في الجهة البعيدة المقابلة لا ينتهي . كان العقيد يُطيف بنظره في كلّ مكان وزفراتُه الحرّى تكاد تحرقُ صدره ، توقّف قبل أنْ ينحني قليلاً ليصعد إلى السّيّارة ، سمعه يونس يقول : «سلام عليك ياعزيزتي . . . سلامٌ عليك لا لقاء بعده» . شاهده الجميع ، وهو يمسح دمعةً وحيدة طفرتْ من زاوية عينه اليُمنى ، هزّ يده في الفضاء كأنّما يُودّع المجهول ، وصعد في الكرسيّ الخلفيّ . وسارَ الموكب . كان يتألّف من (٦٠) سيّارة ، خرجتْ من باب العزيزيّة باتّجاه (سِرْت) ، كانت السّيّارات كلّها مُتشابهة تقريبًا . ولا أحدَ يدري أيّها سيّارة العقيد . وكانت الخُطّة تقتضي أنْ يتمّ تغيير موقعها طَوال الطّريق ، وتتّخذ كلّ مرة رقمًا جديدًا في التّرتيب ، على ألاّ تكون في المنتصف ولا في السّيّارات الخمس الأولى أو الأخيرة . الثّلث الأوّل والثّلث الأخير كان الأكثر أمانًا بالنّسبة لرتلٍ قد يتعرّض للقصف في أيّة لحظة .

سلك الرّتل طريقًا غيرَ مطروقة . على الأطراف من بعيد ، كانتْ

جثث القتلى تتوزّع في الحقول والسّاحات، وتتعفّر بالأتربة. بعض القطع العسكريّة المدمّرة كانت تجثم في الدّروب كذلك. بعضها كان قد أعطب للتوّ والأدخنة كانت لا تزال تتصاعد منها، الحرائق كانت تنتشر هنا وهناك، الأجساد المتفحّمة كانت تنظر للعابرين بعيون مفتوحة تثير الرّعب. نظر العقيد في وجه يونس: «هل هذه ليبيا الّتي حكمتُها أربعين عامًا يا رفيقي؟». هزّ يونس رأسه بأسى. تابع العقيد: «هل هذه ليبيا الّتي نعرفها يا رفيق؟ أيّ ذنب ارتكبه أهلُها حتّى تُعاقب بهذه الطّريقة؟». خفض رأسه، بدا كأنّه يبكي. كان رأسُه يهتزّ على وقع ارتجاج عجلات السّيّارة العابرة للطّريق المليئة بالحُفَر والجُثث. رفع رأسه، أطلّ من النّافذة، كان هناك جرحى لا يزالون يُصارعون الموت. وعابرون مُهمَلون لا يدري أحدٌ إنْ كانوا سيظلّون أحياء أمْ سيبتلعهم الموت كما ابتلع الآلاف حتّى الآن. تنهّد العقيد: «يونس». «لبّيك». «أقسم بالإله العظيم أنّني لم أُرِدْ لليبيا إلاّ أنْ تكون دولةً عُظمى. أهذا جزائي؟!». «الخَوَنة أكثر من النّمل يا سيّدي». «أتعتقد أنّني سأنتهي مثلما انتهى يوليوس قيصر؟!». ودّ يونس أنْ يقول للعقيد: «إنّك لن تجد فرصةً لتقول: حتّى أنتَ يا بروتس»، لكنّه سكت، كان صمته خنجرًا يشقّ حلقه. تابع العقيد: «لتكنْ نهايتي كنهاية أيّ عظيم. سأتقبّل قدري راضيًا. العُظماء لا يموتون يا يونس». اهتزّ جسداهما على وقْع الكلمة الأخيرة، كانت السّيّارة قد صعدتْ فوقَ جُثّة من الجثث الّتي تنتشر انتشار الأوراق في خريفٍ حزين.

(٤٩)
ما يُخفيه الفُؤاد تُبديِه العَينان

فجأةً نُزِعت روح الرّجل الوسيم ذي العينَين الطّيبتَين والوجه المُربع من جسده . لكنْ لا أدري كيفَ استطاع هذا الوجه الّذي كان يبعثُ كلّ راحةٍ في القلب أنْ يكونَ جلاّدًا لا يُباريه في اجتلاب الموت أحدًا!! هل يزرعون وجوههم بالورد وقلوبهم بالشّوك؟! هل يُمكن أنْ يلبسَ الوجه غير ما في القلب ، ألم يقولوا : «ما يُخفيه الفُؤاد تُبديه العينان؟!» . كذبوا . في هذا الوجه الّذي نراه يبدو أنّهم لم يكذبوا فحسب ؛ بل أوقعونا في الخديعة أيضًا . هل يُمكن أنْ تكون للبشر كلّ تلك القُدرة على التّحوّل؟ كيفَ يُمكن أنْ يتحوّل حَملٌ وديعٌ إلى ذئب مُفترس؟!

كان متعجرفًا حدّ التّخمة ، فَجًا . غليظًا . سلبه العقيد صلاحيّاته مرّة واحدة في أوائل عام ١٩٨٦م ، فأراد أنْ يستعيدَها بالسّلاح ، فخانه السّلاح نفسه . قال للحارس الّذي يحجب البوّابة المُفضية إلى لقاء القذّافي : «لا أحد يمنعني من أنْ أفعل ما أشاء . أنا دولةٌ بأكملها . أبعثُ بالجيوش لتقاتل . وأحيي مَنْ شئتُ بالعفو عنه ، وأميتُ مَنْ شئتُ بإنزال القضاء فيه . من قبلكَ دهستُ تحت عجلات شاحنة كبيرة أجسادًا كانتْ مكلّفةً بمراقبتي لصالح الجُبناء . في الطّريق نثرتُ كلّ ما أنتجتْه الأرض الزّراعيّة وأمرتُ العجلات العملاقة أنْ تهرسها مع الشّارع . أجعتُ شعبًا بأكمله لم يُرِدْ أنْ ينحني لي ، أفأنتَ استثناء

من هذا الشعب؟! كلا ، تريدُ أنْ تمنعني من الدّخول على مَنْ صنعتُه رجلاً . كان ولدًا فصار يأمرُ وينهى . أنا أكبر منكَ ومنه ومن الجميع . انحن رأسك . تنحّ أيّهـا المسخ» . تنحّى الحـارس . دخل (حسن إشكال) على العقيد . كان يصرخ كأنّه سكران ، يهذي كأنّه مضغ حقلاً كاملاً من زهرة الخشخاش قبل أنْ يأتي : «أنت عملت الثّورة بشوية عيال ، أنا أعملها برجّالة» ، في هياجه الّذي ملأ الفضاء . امتدتْ أيادي كثيرة إلى أوساطها مستعدّةً للحظة الحَسْم . اللّحظة تقفُ على أطراف عينَي العقيد . ما إنْ يرمش حتّى تكون ألفُ رصاصة قد انهالتْ على جسد الضّحيّة . تحفّزت العيون والأصابع . كان حسن إشكال لا يزال يصرخ وهو يستعرضُ نصيبَه من السّلطة ، رمشتْ عينا العقيد ، امتدتْ إلى الزّناد أصابع الحرس كلّهم بمن فيهم امرأةٌ ذات أثداء ضخمة ، اخترقتْه الرّصاصات ، وترنّح تحت سَيْلها قبل أنْ يسقط غارقًا في بركة دمائه . قال العقيد : «جنى على نفسه» . قال دمه : «العنتي ستُصيبُكَ عن قريب» . لفّوه في خرقة ، ووضعوه في تابوت ، ومُنعَ أهله من أنْ يُلقُوا عليه نظرةً ولو كانتْ يتيمة ، ودُفنَتْ جُثّته في مقبرة (بن همال) ، وحُرِسَ القبر أربعين يومًا حتّى لا يقترب منه أحدٌ . قالتْ ذرّاتُ هواءٍ تنفّس بها دمٌ حارٌ ذاتَ يوم : «بَشّر القاتل بالقتْل ، ولو بعدَ حين» .

ها نحن نركزُ رحالنا في هذا المنفى الجديد ، كانتْ قد مرّتْ علينا سنتان في سجن (أبو سليم) . فقدْنا الكثيرين ، لكنّنا كُنّا نحسّ أنّنا نتخفّف بالموت ، كـان الموتُ راحـةً للطّرفَين وإنْ كـان صعبًا . يرحل الشّهيد فيرتاح من العذابات . ويرحل هو عنّا فنعاني فَقْده قليلاً ، ولكنّنا حين نُمعن في التّفكير قليلاً ، نجد أنّه أخلى مكانه لنزيلٍ كان

باب الزّنزانة يشدخ رأسه كلّما فتحوا علينا الباب لاكتظاظ الزّنزانة بالنّزلاء . ونجد أنّه حينَ رحل عنّا رحل معه مرضه الّذي كان يُمكن أنْ يفتك بنا جميعًا لو أنّ حياته استمرّتْ يومًا واحِدًا آخَر ، وخاصّةً إذا كان مُصابًا بأحد الأمراض المُعدية والفتّاكة . كان الموت من أيّ الجهات رأيتَه رحمةً!!

في عام ١٩٨٥ قال القذّافي مقولة : «الحَدّ الأدنى من الطّعام . نحن نواجه حصارًا من قِبَل أمريكا ، ويجب أن نتقشّف في الطّعام» كان هذا بعد حادثة طائرة لوكربي ، واستمرّ الحِصار ثلاث سنوات ، كان الجوع يفترس شعبَ ليبيا في تلك السّنوات ، أمّا نحن القابعين خلف جُدران السّجون فكان يمضغنا ويُخرجنا فضلات دوديّة!

كان عام المجاعة الأبرز هو عام ١٩٨٦م ، في عام المجاعة ذاك ، أكلنا كلّ القشور ، قشور البرتقال ، قشور الموز ، قشور البطّيخ ، قشور البطاطا . الحشائش الّتي كانت تنبت على أطراف المهاجع . وبعض أوراق النّباتات ، وأكلنا ورق الكراتين بعد أنْ غمسْناه بالشّاي! كان الطّعام الّذي يُوزّع هو ذلك القَدْر الّذي يُبقيك حَيًا أو يُطيل أمد هذه الحياة قليلاً قبل أنْ يحلّ محلّها الموت . الأرزّ كان يأتي بكمّية محدودة ، وكان مُعجّنًا . ورغيف الخبز نتقاسمه مع ثلاثة أو أربعة طوال اليوم . لتر الحبيب يُوزّع على (١٢) أو (١٣) فردًا ، مِمّا يعني أنّ نصيبك هو رشفة واحدة .

مرّة منعوا عنّا السّكّر ، فكان الأهل يُذيبون السّكّر في البيت ، ويوضع في دِلاء الزّيت فيبدو أنّه زيتٌ تمامًا ، فيُهرّب بهذه الطّريقة . نستعمله على هذه الهيئة . ومرّة كنت أنا الّذي دعوتُ نزلاء الزنزانتَين إلى الطّعام ، وكنتُ قد أعددتُ لهم وليمةً ممتازةً جِدًا . لكنْ عِوَض أنْ

أصع الزيت وضعتُ السُّكَر، لتشابه الأشكال والألوان، فلمّا بدؤوا بالأكل تفاجؤوا بالطّعم، ولكنّهم نتيجة المجاعة أكلوا كلَّ شيء.

القهوة كانت ممنوعة؛ فالأمّهات كُنَّ يطحنَّ القهوة ويخلطْنها بالسُّكَّر، وتعملها على شكل قلب كأنها (غَرَيِّبة)، وتحاول أنْ تُدخلها على أنها حلوى رديئة أو رخيصة الثّمن. أوقف الحرس إحدى الأمّهات مرّةً وسألها: ما هذا؟ فقالت له: «يا ابني إنتَ ما تعرف البيتيفور؟»، فخجل الحرس وقال: «باهي . . . باهي . . .» ودخلت القهوة بهذه الطّريقة. وكُنّا في الدّاخل نكسّر (الغريبة)، ونفصل القهوة عن السُّكَّر، ونغليها بطرقٍ شتّى.

(٥٠)
عُصفورٌ يُنقطُ بالعَسَل

في السِّجنِ فُسحَةُ حالم، ظَلّتْ أمانيه تَدُورُ عَلَى عَجَلْ... في السِّجنِ يَختَلطُ الخيالُ مَعَ الحَقِيقَة، والحَقِيقَةُ بالخَيال، كَأنّما لَهُما البِدايَةُ والنِّهايَةُ ذاتُها، كُلٌّ يَسيرُ إلى أَجَلْ... في السِّجنِ رُغْبُ اللَّحظة الأُولى كَرُغْبِ اللَّحْظَة الأُخرى، فَمَا مِنْ لَحْظَة تَمْضِي بلا فَزَعٍ يُمزّق حُلْمَنا، ولَقَدْ يَمُرُّ بِنا الهُدوءُ على خَجَلْ... في السِّجنِ يَنْسَحِقُ الأَمانُ، وَتَستَفيقُ على جِدارِ القَلْبِ بُرْعُمَةُ الوَجَلْ... أَوَكُلَّما غَطَّى على شُبّاكنا لَيْلٌ مِنَ اليَأسِ المُعَتَّقِ وَاسْتَطالَ تَقُولُ دامعَةُ المُقَلْ... هَلْ مِنْ أَمَلْ؟ فَيَقُول عُصفورٌ يُنقّطُ بالعَسَلْ: أَجَلْ أَجَلْ!!

ألقت الأقدار بـ (إدواردو سيليتشاتو) إلينا في السِّجن؛ رجل أعمال إيطاليٌّ، في نهاية العَقد الثالث من العمر، أبيض البشرة، خفيف شَعر الرّأس الذي غطّاه الشيب. لا زالت تبدو عليه آثار النّعمة رغم ما واجهه من عنت خلال السَّنة الأخيرة، مُتوسِّط الطُّول، قريبٌ إلى البدانة، يميل في مِشيته إلى الجانب الأيمن دون أن يصل إلى درجة التَّرنّح أو السّقوط. قليل الكلام، كأنّ ما يُلقيه من حروف هو ما يرميه في البحر من ذهب، ولهذا يحسب لكلِّ كلمة حسابَها، ودودٌ، طيّب المعشر، لا يبدأ بالحديث إلا إذا بادَرْتَه به؛ عندئذ ينغمس معك فيه، كأنّه جائعٌ يتناول أطايب الطّعام وأشهاه. يُظهِر احترامًا للإسلام وتقديرًا للرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يُتمتم، مُطرقًا برأسه في

خضوع كلما صلّينا عليه أو ذكرناه أمامه .

دخل إلى ليبيا أواخر السّبعينيّات ، بعد فوزه في مناقصة مشروع وادي الشّعبة الزّراعيّ بـ (طبرق) على الحدود المصريّة ، والّذي كان يُديره النّقيب (إدريس الشّهيبيّ) أحد العسكريّين المقرّبين من النّظام ، والّذي أُشيع عنه أنّه كان على علاقة وطيدة مع (السّادات) العدوّ اللّدود للقذّافي . أغرى بريقُ السّلطة كثيرين مِمّن كانوا في السّلك العسكريّ ، لم يُصدّقوا أنّ انقلابًا بإمكانيّات بسيطة لرجلٍ حالم يُمكن أنْ تقذف به إلى سُدّة الحُكم في ليلةٍ واحدة . كانوا يريدون كلّهم أنْ يكونوا ذلك الرّجل ، ولم يكنْ (إدريس الشّهيبي) خارج هذه الدّائرة ، وكان رجل الأعمال الإيطالي فيما يبدو الوسيط بين الرّجلَين للتخطيط لانقلابٍ عسكريّ ضد النّظام اللّيبيّ . كان (إدواردو) كما قال لي مُقتنعًا بلعب هذا الدور متحمّسًا لأطروحات (الشّهيبي) الذي فَهِمَ منه بأنه يريد - في حالة نجاح انقلابه - دمج ليبيا بدول البحر المُتوسّط ونَتْحها أمام السياحة وربْطها بعلاقات متينة مع أوروبا . كان كلّ انقلابٍ عسكريّ في أيّ مكانٍ في العالَم يجد مسوّغاته ودوافعه ، وأمام مصلحةِ الوطن تتراجع أطماع النّفس مؤقّتًا كي تنجح ، فإذا نجحتْ كشفتْ هذه الأطماع عن وجهٍ قبيحٍ مريضٍ لا يُمكن لكلّ المسوّغات السّابقة أنْ تُجمّله .

ألقَوا بإدواردو في زنزانةٍ انفراديّة ، لم يمسّوا جسده بالعذاب ، لقد كان يعني لهم كنزًا ثمينًا يُمكن المقايضة به في صفقاتٍ قادمة . يدُ الجلاّد لا تشتهي إلاّ لحومنا نحن ، سوطُ السّلطة لا يُرفَع إلاّ في وجوهنا نحن ، العذاب لا يليق إلاّ بنا ، أمّا هؤلاء الطّليان فهم من جنسٍ آخَر ، من طبقةٍ لا يُمكن أنْ تُمسّ ؛ إنّهم مرهفو الحسّ ، مُصابُون بالحساسيّة

المُفرَطة تُجاه نظرةٍ واحدة قد يرون أنّها لا تُعجبهم ، ولِذا فيجب الحذر من إغضابهم أو الإساءة إليهم ، ولْنذهبْ نحن إلى تيه العذابات، ولتغتَلْ أرواحَنا سياطُ القَتَلة الّذين لا يرحمون . . . نعم ، لكنّ الشياطين لا يُمكن أنْ تُمرّرَ الأمر بهذه السّهولة ، فاستعاضوا عن تعذيب جسده ، بنوعٍ آخَر من التّعذيب . قاموا بتجويعه حدّ الإرهاق ، وصار شبحُ الطّعام يتراءى له من بعيد ، يدنو منه ، فيمدّ إليه يده فلا يقبضُ إلاّ على الوَهم ، حينئذٍ أدخلوا عليه صديقه (إنزو كاستيللي) الّذي كان يعمل معه في الشّركة ، كان النّظام قد خدّرَ (إنزو) ، ورشّ على صدره العاري بعضَ الدّماء ، وصبغ بالأزرق أجزاء من ظهره وعنقه وساقَيه ، ثمّ عرضوه على (إدواردو) على أنّه ماتَ تحت التّعذيب ، وأنّه ينتظركَ مصيرٌ مثل هذا المصير إنْ لم تعترف بما قمتَ به . أوّلَ ما سقطتْ عينا إدواردو على صاحبه (إنزو) انخلع قلبُه ، وارتجفتْ أركانه ، قلَبوا له الجُثّة فرأى آثار التّعذيب الوحشيّة ، فانهار ، واعترفَ بكلّ شيءٍ . قالوا له : «ستُرمَى جُثّته للكلاب ، وستُدفَن بعد أنْ تُنهَش في الصّحراء ، ولن يستلم أهله جثّته أبدًا» ، وأتبعها عامر المسلاتي ، وهو يفتل شاربَه أمامه : «وستتبعه لعنات اللّيبيّين الأطهار الّذين كانت دماؤهم ستسيل بسببه إلى أبد الآبدين» . حملوا الجسد المُخدر ، وانزوى (إدواردو) في زاوية الزّنزانة يومًا كاملاً زائغ النّظرات ، لم يُبارحْ مكانه ، ولم يأكلْ شيئًا مِمّا قدّموا له من الطّعام ، مع أنّهم قدّموا له أفخر أنواع الأطعمة . بعد شهرٍ حكموا عليه بالإعدام ، وبعثوا به إلى المحقرة .

قبل أنْ يخرج من المحقرة ويلتحق بنا ، قذفوا بصاحبه (إنزو) قبله إلى مهجعنا . (إنزو كاستيللي) مهندس تربة ، استعانتْ به الحكومة

الليبيّة خبيراً في مجاله ، كان يأتي دوريًا إلى ليبيا لدراسة التربة الخاصّة بالمشروع الذي رسا عطاؤه على رجل الأعمال الايطالي (إدواردو) . كان يتقاضى ألف دينار عن كل عشرة أيام يقضيها في المشروع . إذا ما تجاوزت إقامته هذه المدة بيوم واحد يضاعف المبلغ إلى ألفين ، وكان يحدث أنْ يتقاضى في الشّهر ستّة آلاف دينار ، وهو راتبٌ لم يكنْ رئيس الوزراء ليتقاضاه يومئذٍ . اتّهمه النّظام بأنه عَلِم بالوساطة التي يقوم بها زميله الإيطالي (إدواردو) بين النّقيب إدريس الشهيبي والسّادات ولم يُبلّغ عن ذلك السلطات الأمنيّة الليبيّة . كان قانون حماية الثورة ينصّ على أنّ عقوبة مَنْ لم يُبلّغ عن مثل هذه الجرائم هي عشر سنوات ، لكنّها وللاحتياط الأمنيّ الإستراتيجيّ ارتقت للسجن المؤبد لعلّ في بقائه لدى السّلطة ما ينفعها في مبادلته ببعض الذين يُلقى عليهم القبض من أعضاء اللّجان الثّوريّة الّذين كانوا يُنفذون عمليّات اغتيالٍ لأفراد المعارضة في الخارج .

كان (إنزو) في بداية العَقد الرابع من العمر ، وهو ابن لضابط صفٍّ في الشرطة الإيطاليّة ومُتزوّج من إسكتلنديّة . كان عالمًا باللغة الإيطاليّة علم المُتخصّصين الحاذقين ، وله إلمامٌ واسعٌ باللّغة اللاتينيّة . حنطيّ البشرة ، مُدبّب الأنف ، بارد الأعصاب ، جليديّ المشاعر ، تبرقُ عيناه من ذكاءٍ حادّ ، وحضور ذهنيٍّ مُعجب ؛ تشعر وأنت تتفرّس فيه بأنه يحمل جينات يهوديّة ، كان شعلة مُتّقدة من النّشاط ، عيناه الصّغيرتان الصّافيتان تبدوان من خلف نظارته كأنّما تبحثان دائما عن شيء تريد أن تكتشفه أو تسبر أغواره ، وتنطويان على قَدْرٍ من الخُبث سوف نكتشفه بمرور الأيّام وطول العشرة . لم أره هازئًا أو هازلاً مرّة واحدة . حتّى إنّ جديّته أتعبتْني ، وأتعبتْ مَنْ كان معنا في الزّنزانة . وكان

قويَ البُنية مفتول العضلات، مُعتزًا بنفسه، ثقةً تمشي على الأرض، كان يقضي أغلب وقته في السّاحة حين نخرج إليها لممارسة الرياضة مع إتقانٍ لافت، وكان شديد الإصرار على المحافظة على لياقته البدنية طيلة مُدّة حبسه. حريصًا على قضاء جلّ وقته بين سماع للراديو، أو قراءة في كتاب، أو ممارسة للرّياضة، أو انغماس في نقاشٍ ناجع، حسب ما كان يتوافر من هذه الإمكانات.

حينَ التحقَ بنا أوّل الأمر في الحصان الأسود قبل أنْ نُرحّل إلى سجن (أبو سليم)، كان رمضان على الأبواب، وكان قد تبقّى له أسبوعان، فتعهّد بصيامه معنا احترامًا منه لمُعتقَدنا. أقام معنا في الزّنزانة التي تضم أغلب أعضاء حزب التحرير. اقتسمتُ معه السرير ذا الطّابقَين، وحلّ هو في الطّابق الأعلى. اندمج معنا في محيطه الجديد بسرعة وأصبح له بعد أيام الضيافة الأولى ما لنا وعليه ما علينا. استساغ أكلَنا الشّعبيّ الذي كان يأتينا أحيانًا في الزيارة، الأكل الذي يملأ البطن ويُقوّي الجسد ولا يُهضَم بسرعة؛ وخاصّة (الزُّمّيطة) وهي أكلةٌ مكوّنةٌ أساسًا من شعيرٍ مَحصودٍ في فصل الرّبيع أو في بداية فصل الصّيف، والأول أجْود يُمكن أنْ تُصنع مَقليّةً أو مطحونةً ومُضافًا إليها كمّيّة من الأعشاب المُنكّهة وتُخلَط بالماء وتُرطّب بالزيت. من تلك الأكلات كذلك أكلةُ (البَسِيسة) وهي أكلةٌ مكوّنةٌ من خليط القمح المُحمّص مُضافًا إليه الكثير من البقول الجافّة مثل الحمّص والمُعطّرات، مخلوطًا بزيت الزّيتون، ويؤكل بالتّمر والتّين المُجفّف، وكلّها أكلاتٌ تُعطي طاقةً كبيرةً للجسم، وتبقَى طويلاً قبل أنْ تنهضم تمامًا.

كان السّجين يعدّ الخروج من الحفرة إلى الزّنازين العاديّة بمثابة

الخروج التامّ من السّجن نفسه والإفراج عنه ؛ لما في المحقرة من ضنك شديد ، وكان مع كلّ ما يلقاه في الزّنازين من آلام يرى أنّ العيش مع نزلاء آخرين يسمع أصواتهم - ولو كانت صرخاتهم وهم يُعذّبون - هو انتصارٌ حقيقيٌّ على فظاعة ما يحدث في المحقرة الّذي هو قبرٌ حقيقيٌّ في داخله ميّتٌ حيٌّ! كان الخارج من المحقرة إلى الزّنازين يعتقد أنّه كُتبتْ له حياةٌ جديدة ؛ وهذا ما حدث مع (إدواردو) ، أخرجوه إلينا ، وكان أوّل لقائنا به في السّاحة ، استقبلْناه كما نستقبلُ ضيفًا عزيزًا ، وتعرّفتُ إليه عن قرب . كنتُ أتحدّثُ إليه ونحن نُعطي جدار العنبر ظهرنا ، حينَ فزّ واقِفًا بشكلٍ مُفاجِئ ، وراح يتقلقل في مكانه كأنّ أفاعي تحت أقدامه تنهشه . سألْتُه عمّا به ، فأشار إلى (إنزو) ، نظرتُ إلى (إنزو) واستغربْتُ أنّه ينظر إليه مرعوبًا . أخذني إلى جهة قصيّة من الآريا ، وسألني وهو يشير إليه : «مَنْ هذا؟» . فأجبْتُه : «إنّه إنزو» . فاتّسعتْ حدقتا عينَيه من الرّعب ، واصطكّتْ أسنانه ، واهتزّت الحروف على شفتَيه ، وهو يهتف : «إنّه ليسَ إنزو ، إنزو مات ، لقد قتلوه تحت التّعذيب ، أنا رأيتُ جُثّته بأمّ عيني» . نظرتُ إليه مستغربًا : «يا رجل هوّن عليك ، إنّه إنزو ، وقال إنّه المستشار الهندسي لشركتك ، أليسَ كذلك؟!» . ارتجفتْ ساقاه أكثر : «كَلاّ . . . كَلاّ . . . إنزو مات ، رأيتُه ميّتًا ، وقالوا إنّهم دفنوه» . سألْتُه : «ومَنْ هذا المهندس الإيطاليّ إذًا؟» . فردّ مرتعدًا : «إنّه الشّيطان مُجسّدًا في إنزو» . علمتُ بعدَها أنّه لن يخرج من أثر الصّدمة الّتي أوقعوه بها . اعتزلني قليلاً ، كان يتحوّل إلى رجلٍ عصبيّ بمجرّد رؤيتي أكلّم (إنزو) ، أو أسير إلى جانبه في السّاحة . تمنّيتُ لو نقلوا (إدواردو) إلى عنبرٍ آخَر حتّى لا تبقى تصيبه هذه الحالة من الرّعب كلّما رأى (إنزو) صارِخًا وهو يهزّ رأسه كمن

أصابه المسّ: «إنّه ليس إنزو . . إنّه شيطان . . . إنزو مات . . . الشّيطان حلّ فيه . . . اللعنة إنّه ليس إنزو . . .» .

كان (إنزو) يراقب كل ما يحدث في الزّنزانة ، طريقةُ في العيش صعبة ، ولكنّها تروق له ، وجزءٌ من شخصيّته الّتي لا يُمكن أنْ تتبدّل ؛ تجول عيناه في كلّ زاويةٍ ، تسمع أذناه لكلّ ما يُقال ، وتمشي رجلاه إلى كلّ مكان ، وفي النّهاية لا يتكلّم إلاّ نادرًا ، إذا كانت الزّنزانة صرصارًا ضخمًا فإنّه كان قرني استشعارها!

لفتَ انتباهه الطّريقة الّتي يعامل فيها بعضُنا بعضًا ، وكان يقيس مدى التزامنا بما نقوله في واقعنا العملي اليومي ؛ هل يُطابِق الفعلُ القول . كنّا نتقاسم الأدوار في الزّنزانة . ويقوم كل واحدٍ منّا بمعدّل يوم في الأسبوع بالمَهامّ كُلّها من تنظيفٍ واستلام للأكل أو توزيع له ، وغسْلٍ للأواني ، وتنظيفٍ للأرض . كان يتابع أداءَ كلّ فردٍ ، وينبهر بأداء محمد التّرهوني أستاذ العربيّة الّذي كان قلّما يُغادِر سريرَه أو يترك مُصحفَه أو كِتابه إلا عندما يأتي دوره . كان التّرهوني يُتقن عمله اليومي ويتفانى في خدمة الآخرين لدرجةٍ تجعل الإيطاليّ ينبهر إلى حدّ الذّهول . كان (إنزو) هذا إذا ما رآنا مُنكبّين على تلاوة القرآن يُهرَع إلى إنجيله ويُمسك به كأنّه تعويذته الّتي يحتمي بها من عدوى يمكن أن تُصيبه بسببنا .

أثناء محاكمته سأله المُدّعي العامّ : هل أنت عضو في (التشيا) يقصد ((C I A؟ وهو الاسم المختصر للمخابرت المركزيّة الأمريكيّة ، تظاهر (إنزو) بعدم الفهم وسأل المُدّعي العامّ : هل هذا اسم شركة؟ أنا لم أسمعْ بها من قبل!

قال لي متفاخِرًا أوّل وفوده إلينا بأنّ وراءه حكومةً قويّةً ، ولن يطول

به المقام في هذا السّجن البغيض ، وخلال أيّام سيودَعنا بالطَّريقة الّتي استقبلناه فيها ، نظرتُ إليه مبتسمًا ، وقلت : انك يا صديقي إنزو لا تساوي سعر برميل من النفط عند حكومتك وعند رئيس وزرائك البراجماتي النفعي» . غضب ، وتجهّم وجهه ، وكاد يُقاطعني . بعد عام من الأمل بالخروج من القمقم ، استوى لديه العِلم بما قلتُ ، فجاءني وقال : «رئيس وزرائنا ليس أندريوتي ، وإنما أندرلوطا» . و(أندر) بالانجليزية تعني أسفل ، و(لوطا) باللّهجة الليبية تعني أسفل ، والمعنى أن رئيس وزرائنا مُنحطّ وهو أسفل السّافلين .

بعدَ عام آخر حينَ نُقلنا إلى سجن أبي سليم التفت للحاج صالح ، وقال لهُ : «إنّه فعلاً سجن يا صديقي . . . هنا المعنى الحقيقيّ لذلك» . وكان يقارنه برحابة سجن الحصان الذي بناه الإيطاليّون في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين . في (أبو سليم) حينَ تم توزيع السّجناء من جديد وجدتُ نفسي معه ومع الحاجّ صالح ومع مجموعة من اليساريين في الزّنزانة نفسها . كان يخرج بين وقت وآخر للزيارة ، إذ كان يأتيه أعضاء السفارة الإيطاليّة بمقرّ وزارة الخارجيّة الليبيّة ، وكنّا نحن محرومين من زيارة الأهل ؛ يستمرّ حرماننا أحيانًا سنوات كثيرة . كان يُوبّخ زُوّاره عندما يعرضون عليه مبادلته وزميلَه (إدواردو) بأعضاء اللّجان الثورية المسجونين في إيطاليا جرّاء ما قاموا به من تصفيات جسديّة لمعارضي القذّافي . كان يعارض ذلك بشده باعتباره بريئًا ، في حين أنّ الآخرين مُدانون ، وهم يخضعون لمحاكمة عادلة .

كان أفضل ما يحدث لنا في زيارة أعضاء السّفارة له أنه كان يُسمَح له بإدخال بعض الكتب ، كانت الكتب كلّها بالطّبع باللّغة الإيطاليّة ، ولأنّنا توّاقون لأنْ نقرأ ، جائعون لأنْ ننظر في سطور كتاب ،

فقد كان علينا أنْ نجتاز عقبة اللّغة ، توزّعتْ الكتب الّتي يأتي بها (إنزو) بين كتب التّاريخ لمؤرّخين إيطاليّين كبار ، وبين الرّوايات البوليسية للمُفتّش (ميقراي) .

في الأشهُر الأولى من تعرّفي على (إنزو) اقترحتُ أنْ نستفيد من علمه بالإيطاليّة وبتاريخ أوروبّا الوسيط ، قلتُ له : «ما رأيك أنْ تعلّمنا الإيطالية ، ونعلّمك نحن الفرنسيّة والعربيّة» . وافق على الفور ، تولّيتُ أنا أمر الفرنسيّة فقد كنتُ حاذقًا بها ، وتولّى محمّد التّرهوني أمر العربيّة . طلبَ منّا أنْ نصنع الألواح والأقلام ، ما من فكرةٍ تصعب على ذي إرادة ؛ جمعنا له حسب طلبه ما تيسّر لدينا من عُلب الحليب الورقيّة وعُلب الصّابون وغسلناها وأفردْنا طبقاتها ونشرْناها على الحائط لتجفّ . وجمعنا له كذلك عُلَب الدخان وأوراقه القصديريّة اللامعة وحوّلْناها إلى كرّاسات مُتقنة الصّنع استفدنا منها في دراسة اللغة بطريقة متينة .

عندما قرّرْنا البدء بحلقات التّعليم هذه ، راح (إنزو) يمرّ على السّجناء ، يدعوهم واحِدًا واحِدًا إلى دَرْسِه ، ويُصِرّ على انضِمامهم لحَلَقاته بدعوى ضرورة اطّلاعهم على جزء من تاريخه المكتوب بهذه اللّغة ، وعليهم إتقانها للولوج إلى الوثائق الخاصّة بتلك المرحلة . كان عندنا مجموعة الصّحفيّين ، وهم أغلبهم من اليسار ، وكان يحثّهم على التّعلّم : «صحفيّون ولا يعرفون تاريخ الأمم الأخرى ؛ أليستْ هذه مهزلة؟!» كان حادًا لكنّه كان مؤمِنًا بما يقوم به ، إيمانه العميق هذا ساقنا إلى أنْ نتتلمذَ على يدَيه بالفعل . كان يصرخ فينا كما لو كان قائد أوركسترا ونحن جوقته الّتي تتابع حركة أصابعه : «باب العلم يُفضي إلى الفردوس» ولم نكنْ ندري أيّ فروسٍ يعني ونحن ننغمس في طبقات الجحيم السّبع!!

درسْنا على يديه القواعد الإيطاليّة ، وعرفْنا أنّ كلّ فعل يتصرّف إلى (١٤) زمن ، المستقبل القريب ، المستقبل البعيد ، الماضي القريب ، الماضي البعيد . . . إلخ ، وكانت الأفعال وتصريفاتها كلّها توضع على ورق غُلب الدّخان المُقوّى بعد أنْ يُفرَد ، وكان جزءٌ من الدّرس يعتمد على الحفظ والمُراجعة .

عرفْنا تاريخ أوروبّا وما قبل تاريخها ، عرفْنا روما في صعودها وانهيارها ، عرفْنا كيف تشكّلتْ إنجلترا وفرنسا ، وعرفْنا دوافع الحروب الصليبيّة وتاريخها وعدد حملاتها ، وحدّثنا عن الإمبراطوريّات العثمانيّة والسويديّة والبولنديّة ، وعرّج بنا على الحروب الطّائفيّة الّتي انهكتْ أوروبّا ، وعرفْنا منه كذلك كلّ ما أحاطَ به علمًا عن الثّورة الفرنسيّة ، وأظهر لنا وجهها القبيح أكثر مِمّا انطوتْ عليه من نِيّات قال أصحابها إنّها نقيّة ، وساقَنا إلى عصر التّنوير وانتهى بنا إلى عصر الثّورة الصّناعيّة ، ولو مدّ الله في فترةِ بقائه معنا لكُنّا عرفْنا أكثر من ذلك . لكنّه على الجانب الآخَر كان يُطرّي مادّة الدّرس الثّقيلة بعمل مسرحيّات بالإيطاليّة داخل الزّنزانة ، كان يكتب النّصّ ، والسّجناء يقومون بتمثيله ، وكان حريصًا على إظهار تاريخ ليبيا كلّه مكتوبًا في العصر الفاشيّ باللّغة الإيطاليّة .

كان المهندس (إنزو) كثير الحذر والخوف والتّرقّب ، وكان عندما يرانا نُصلّي يخاف ، يتناول الإنجيل على عادته ، ويفتح فيه ويقرأ . دخلنا معه في حوارات هادئة حول الإسلام والمسيحيّة ، ولم يُسلِم .

كان يعشق مثل معظم الإيطاليّين المعكرونة ، فكُنّا نغلّف الكتب الّتي يصل إلينا بعضُها بعلب المعكرونة ، فيبدو الكتاب كأنّه علبة معكرونة ، وكان يأكل أكلاً صحيًا بدون أي إضافات أو ملوّنات ما

استطاع، وكان لا يأكل المعلّبات لأنّها تُؤثّر على المعدة. ولم يكنْ يأكل أيّ طعام بالفلفل. وكان يحسب عدد المعكرونات الّتي يأخذها، يقول: سبعين حبّة معكرونة. ويطبخها بالماء بدون أي شيءٍ آخر. وكان يُقايض بها أشياء أخرى أحيانًا، ويعتمد العَدّ في المُقايضة. فالورقة مثلاً بثلاثين حبّة معكرونة، والقميص الأبيض بأربعين، والمعلومة بخمسين أو ستّين... وهكذا.

كان (إنزو) صبورًا ولكنّه خائف من الموت، وكان لَمَاحًا، من الأشياء الّتي تعلّمتُها منه: عندما تقع في خصومة مع شخص، إيّاك أنْ تردّ عليه في اللّحظة نفسِها، وأنتَ مُضطرب، اتركْ لنفسِكَ الفرصة الكاملة للإحساس بأنّه أخطأ في حقّك، ثُمّ دَعِ الأمر ينتقل إلى مرحلة التّفكير، ثُمّ جهّزْ ردّك، ثُمّ رُدّ عليه، بحيثُ يكون ردّ الفعل نافذًا، وصادرًا عن حِكمة ورَويّة لا عن جهلٍ وتسرّع. في إحدى المرّات الّتي نجحنا فيها بتهريب تلفاز كُنّا نُشاهدُ قناة تونسيّة تبثّ بالفرنسيّة، وكان البرنامج يبثّ حلقة عن الرّفق بالحيوان، وكانتْ تظهر في الحلقة مجموعة من الكلاب والقِطط والحيوانات وهي مُدلّلة وقد لبستْ ثيابًا مُزركشةً ونظيفةً وجميلة، وبعضُ إناث الكلاب تلبس في آذانها أقراطًا مُلوّنة، وكُنّا نضحك من المفارقة الّتي نحن فيها؛ يُدلّلون الكلاب ويُهينون البشر! فانزعج أنّنا نضحك على أناسٍ تهتمّ بالحيوانات، فلم يردّ، وكانتْ عندنا حصّة بالإيطاليّة في صباح تلك اللّيلة الّتي تليها، فأوّل ما بدأ الحصّة قال: «كلّما تحضّرتْ أمّةٌ من الأمم وتقدّمتْ اهتمّتْ بالحيوانات، وكلّما انهارتْ أمّةٌ في عالَم القِيَم يسخرون مِمّن يهتّمون بالحيوانات»، وهكذا وصلتْنا الرّسالة كأبلغ ما يكون.

كان حريصًا على أغراضه؛ مرةً طلبتُ منه أن أستعمل الكأس

البلاستيكيّة الّتي يشرب فيها . فقال لي : «لا بأس من ذلك ، ولكنّني كنتُ أستعملُها في الزّنزانة للشّرب وللتّبوّل في آنٍ واحد» .

كانت تجربتنا معه تجربة مميزة وثريّة . أُفرج عنه سَنة ١٩٨٦م هو وزميله (إدواردو) ولا ندري ماذا فعلت بهما الأيام . . . أمّا أنا فاستمرّرتُ في تعليم الإيطاليّة والفرنسيّة لأفواج المساجين الّذين ما انفكّ السّجن يفغر فاه ليبتلعهم في كلّ يوم!!

(٥١)
قلبُ الرَّجل إسفنجة، قلبُ المرأة بلّورة

كلّما نَعَق ناعقٌ في ليبيا ، نسمع صدى نَعقته هنا في السّجن . إذا غضب العقيد ، يتطايرُ شرر غضبه إلى هنا متجاوزًا الحدود والسّدود ، والآفاق والجُدران لنكتوي بناره . إذا حلُم بأنّ مؤامرةً تُحاكُ ضِدّه فسنذوق نحن أولى ويلاتِ عقابه الّذي تُوحيه إليه شَطَحاتُ خيالِه . إذا انزعج من شيءٍ فنحن من أزعجناه ، إذا تكدّر مِزاجه فنحن مَنْ كدّرناه ، إذا تقيّأ ما في بطنه فنحن مَنْ سبّبْنا له الغَثَيان ، إذا عثرتْ رِجله في الطّريق فنحن مَنْ وضعنا حجر العثرةِ في طريقه ، إذا حاصرتْنا أمريكا فنحن الّذين دعوناها إلى محاصرتنا ، إذا قلّ سِعر صَرْفِ الدّينار فنحن مَنْ تسبّبنا بهذا التّدهور الاقتصاديّ ، وإذا لم يتمّ بناء النّهر العظيم فنحن مَنْ عرقلْنا سَيْرَ عمله ، وإذا شَتَم فإنّما نحن المشتومون ؛ نحن من أفقرنا الأوطان ، ونهبنا الخيرات ، وخُنّا البلاد والعِباد ، وتعاونّا مع الصّليبيّين لإسقاط حكومة الأخيار والأبرار!!!

كان هذا ثابتًا في عُرفِ السّجن ؛ في ذلك اليوم الّذي لا تُفتح فيه الأبواب حتّى السّاعة العاشرة صباحًا ، نعرف أنّ هناكَ حدثًا ما ، وبالتّالي ربّما نبقى ثلاثة شهور أو أربعة لا نخرج إلى السّاحة ، ولا نرى الشّمس . ونُحرَم من الزّيارة ، ولقد مرّ على بعضِنا عشر سنواتٍ ما رأى وجه ابنته ، ولا ابنه ، ولا زوجِه ، ولا أحدًا من أسرته .

مع كلّ هذا القهر الّذي كان يملؤنا ، كانتْ خالتي تزورني ، ظلّ

وجهها الّذي أرى به الدّنيا ولا أصدّق أنّني أراها طاقةَ الفرج ، ظلّ وجهها ريحانة قلبي تَعبق بشذاه دون أنْ تذبل ، ظلّ وجهها قمري المنير في سُدفة اللّيل الطّويل . منذُ أنْ ماتتْ أمّي دأبتْ خالتي على زيارتي ، لم تكن الزّيارة سَهْلةً لأهل طرابلس ، فكيفَ بِمَن كانوا يقطنون في تونس ، كانتْ خالتي تقطع الحدود في العام مرّة أو مرّتَين ، من أجل أنْ تراني ، من أجل أنْ تقول لي : «قلبي معك» . كانتْ هاتان الكلمتان زادي بقيّة العام ، على ضوئِهما قطعتُ اللّيالي الطّوال ، وعلى نورهما اهتديتُ من ضلال ، وعلى فرحةِ حروفهما الّتي تتراقص في فؤادي جلبتُ الفرحة في بحرٍ من الآلام ، كانتْ خالتي تُشبه أمّي ، بل صارتْ أمّي بعدَ رحيلها . هل يُمكن للأمّ أنْ تعودَ في وجه آخَر؟! كان ذلك مُستحيلاً ؛ لكنّه حدث في وجه خالتي . لقلبها النّقيّ ألفُ دعاء ، لروحها المُحلّقة ألفُ سلام ، لقدمَيها المُعفرَتَين بالتّراب ألفُ قبلة ، لأنفاسِها اللاّهثة وهي تقطع كلّ هذه المسافات ألفُ بركة ، لعينَيها الغائرتَين ينطفِئ بريقهما في كلّ مرّةٍ تزورني وهي تسوقُ عمرها إلى النّهايات ألفُ تحيّة .

لم يكنْ أحدٌ ليصدّق أنّها تأتي من تونس إلى ليبيا ، تقطع آلاف الكيلومترات من أجل أنْ ترى هذا الولد الشّقيّ ، يسألونها على بوّابة السّجون : ما اسمه؟ تردّ بكلّ فخر : «عليّ العكرمي» . يقولون لها : «ابنُكِ؟» . تردّ : «أغلى عليّ من ابني» . «ما الّذي يحملك على أنْ تقطعي كلّ هذه المسافات من أجل أنْ ترَي زنديقًا» . تردّ بحدّة : «إنّه أطهر من يدبّ على قدمَين ، لو خلت الأرض من المؤمنين لما خلتْ منه ، ولو كان مسجونًا وراء البحار لزرتُه» . يقولون : «في مثل هذه السّنّ ، وقد احدودبَ الظّهر ، وكلّت القدمان» . تردّ : «لو لم تحملني

قدماي فأحبو على ركبتي لكي أمتّع ناظري برؤية وليدي ضيِّ عيوني». كنتُ أبكي أوّل ما أراها، وهي تصبّرني. كيف يحتمل قلب الأمّهات كلّ هذا، كيف يقدرن على ما لا تقدر عليه الجبال الرّاسيات؟!.

كانتْ تأتي بزوّادة الطّعام، تقول لغلاظ القلوب على الأبواب: «لم يأكلْ من طبخ أمّه منذ أنْ رحلتْ، إنّه يحبّ هذه الطّبخة، لو كان لكم أبناء، وتحبّونهم، فأستحلفكم بالله أن توصلوها إليه... منذ عشرة أعوام لم يأكل، لقد رحلتْ أمّه، أليس لكم قلوب؟! أنا أمّه، فلا تحرموني من أنْ أفرح حينما أعرف أنّه أكل منها». كان يأتي معها ابنُ خالي، كان عمره في أوّل الزّيارات ستّ سنوات، واظب على الحُضور معها طوال عقودٍ، ظللتُ أراقبُه يكبر في العام مرّةً أو مرّتين. لقد طالَ عن المرّة السّابقة. إنّ شاربَيه بدأ يظهران فوق شفتَيه عن السّنة الفائتة. صوتُه صار خَشِنًا، لم يكنْ كذلك منذ ثلاث سنوات. هذه الشّعَرات النّافرات فوق ذقنه لم تكنْ موجودةً في العالم الفائت. لقد تخرّجتَ في الثّانويّة، ستدرس التّخصّص الّذي تحلم به؛ أليسَ كذلك؟ أوه يا خالي سمعتُ أنّكَ صرتَ عاشقًا، مَنْ سعيدة الحَظّ؟ تقول إنّكَ ستتزوّجها حالما تتخرّج وتجد عملاً؛ فليكنْ؛ انظر إلى قلبِكَ يا خالي؛ فإنْ وجدْتَها فيه فأقدمْ، إيّاك أنْ تهدر هذه الفرصة يا خالي؛ المرأة لا تحلّ في قلبِ الرّجل إلاّ مرّة واحدةً في الحياة. أووه لقد تزوّجْتُما. هذا أمرٌ رائعٌ. دلّلِ امرأتك يا خالي، المرأة جوهرةٌ، قلبُ المرأة عجيب، كلّما مددتَ إليه يدَ الرّحمة نبتتْ فيه وردة، لا تُهمِلْ قلبَها يا خالي، لو كانتْ لديك امرأةٌ صالحةٌ فأنتَ لديك الدّنيا بأكملها، المرأة أجمل ما خلقَ الله، نحن القبيحون حينَ نحوّلها إلى متاع فحسب، المرأة هي

الطبيعة في أبهى تجلّياتها ، لا تكسرْ قلبَها ولو كَسرَتَ قلبَك ، قلبُ الرّجل إسفنجة يمتصّ الحانات ولا يَسكر ، قلبُ المرأة بلّورة . لا تُؤذ قلبَها مهما حدث ، قلبُ المرأة يغفر لكنّه لا ينسى ، وإذا نزف فلن يتوقّف نزيفُه أبدًا إلاّ إذا أعدْتَ إليه فَرَحه بالكلمة الحُلوة . أووه من هذا الصّغير الّذي تحمله بين يدَيك؟ ابنُك ؛ كيفَ سمحوا لك بإدخاله! قلتَ لي ، الفلوس تغيّر النّفوس ، عند هؤلاء الفَسَدة نعم ، نحن صورة أخلاقنا يا خالي ، لا تكنْ مثلهم . . . . ظلّ ابن خالتي يزورني معها في كلّ مرّة ، كانت الحياة ترتسمُ على وجوههم الثّلاثة في كلّ مراحلها ، كان وجه الصّبيّ يُؤذن بالشّروق ، وكان وجه ابن خالتي يُعلنُ عن ظهيرة قبل الزّوال ، وكان وجه خالتي يحثّ الخُطا نحو الغروب ، لقد رأيتُ في وجوههم حياتي كلّها .

في عام الحُزن أذِن الله للمنارة أنْ تغيب ، أَذن الله للشمس أنْ تودّع الدّنيا ، كيفَ لليلٍ طويلٍ أنْ يمشي فيه حزينٌ مثلي بعد رحيلها؟!

(٥٢)

العقيد

تهادى الرّكب في الطّريق، كانت السّيّارات تتبادل الأمكنة التّراتبيّة على الدّوام، أمرهم العقيد ألاّ يتوقّفوا مهما كانت النّتائج. لم يكنْ قد نام لا هو ولا يونس ولا منصور في اللّيلة الفائتة. واليوم قد غادروا منذ الصّباح، الطّريق يحتاج إلى خمس ساعاتٍ على الأقلّ، وفيها من الخطورة ما فيها، لقد كان قرارًا صعبًا أنْ يخرج من طرابلس في هذا الظّرف، ولكنْ للضّــرورة أحكام، عــوّل كــثــيــرًا على ابنه (المعتصم) في محاولة لحسم المعارك الجانبيّة، وفي تأمين (سِرت) من أجل أنْ تكون مُستقرّه الجديد، الإنسان يعود إلى الحضن الّذي ضمّه، وإلى المنبت الذي أطلعه؛ لقد بنى (سرت) من جديد بعد أنْ كانت مهملةً في العهد الملكيّ، وأغدق عليها الأموال، وسيّر نحوها الاستثمارات، وحوّل صحراءها إلى جنّة، إنّها مسقط رأسه، وأهلها يُحبّونه كثيرًا، كان المعتصم قد قال من قبلُ في اللاّسلكي ليونس: «لم يعدْ في سِرت ما يُنذر بخطر، قوّاتي قامتْ بتمشيطها، القاطع رقم (٢) هو أكثر القواطع أمنًا». قبل أنْ يصلوا إلى سِرت، كان العقيد ينظر من زجاج سيّارته المُصفّحة ضدّ الرّصاص والقنابل والحرائق، وصلت السّيّارات الثّماني الأولى إلى القاطع رقم (٢)، نزل القنّاصة، ومجموعة من الحرس العسكريّ ليؤمّنوا الطّريق، انتشروا في الأرجاء بسرعةٍ، احتلّ القنّاصة أسطح العمارات الممتدّة على صفٍّ واحدٍ في

القاطع، كانت عشرات البنايات تصطفّ بعضُها بجانب بعض، وجميعها كانتْ خاليةً من أيّ بشريّ أو أيّ كائنٍ حيّ. أمّن الحرس الخاص بتوجيهٍ من (منصور) البنايات الثّلاث الّتي تحمل الأرقام (١٢) و(١٣) و (١٤)، تمركز القنّاصة على أسطحها، واختاروا للعقيد البناية الّتي في الوسط. أشار لهم منصور أنْ يترجّلوا، نزل العقيد، أحاطتْ به مجموعة لتأمينه، أزاحهم من طريقه برفق، طلبَ من يونس أنْ يرافقه، تحفّز منصور: «يُمكن أنْ نُكتَشف يا سيّدي، ومن السّهل أنْ تكون هدفًا». نظر إليه من تحت نظّارته، ثُمّ خلعها: «أريد أنْ أرى سِرتَ يا منصور». «لا يمكننا هذا يا سيّدي. ألا ترى الطّائرات الّتي بدون طيّار» وأشار إلى السّماء الّتي تعلوهم. «لحظاتٍ أيّها...» أراد العقيد أنْ يشتم، لكنّه تراجع: «لحظاتٍ أريدُ أنْ أرى سرت الّتي منها خرجت، هل تعرفُ أنتَ أينَ تقع جهنّم؟». بلع منصور ريقه: «كلاّ». «إذًا فلا يحقّ لك أنْ تتكلّم. أمهِلوني دقائق أنا ويونس، لا أريد أنْ يتبعنا أحدٌ. وحدنا. أريدُ أنْ أملأ عينَيّ من سِرت». تراجع الحرس ليُفسِحوا لهما الطّريق، تقدّما معًا كان العقيد يضع يده على كتف يونس: «أتساءَل يا يونس، هل يُمكن أنْ ينهدم كلّ هذا في لحظة، ما أشبه اللّحظة بالحُلُم». لم يكنْ لدى يونس ما يقوله، تابع العقيد: «أردتُ لهم الجنّة وأرادوا لي النّار، شتّان ما بيني وبين بني أبي. هناك...» وأشار إلى جهةٍ ما: «هناك بنيتُ لهم الحدائق، وهناك كان الزّعماء العرب الخَوَنة يستجمّون في رفاهية لم يحلموا بها أيّام القمم العربيّة البائسة. لقد أتخموا بطونهم وهم يريحون مؤخّراتهم على كراسيّ مائدتي، واليوم يبصقون في الصّحن الّذي أكلوا منه. لقد كانوا يمشون على ريش النّعام الّذي بسطتُه من تحت أقدامهم لأجعل لهم قيمة،

واليوم يبولون عليه!! هل يُمكن أنْ تُسمّي هؤلاء حُكّامًا يا يونس؟! هل هم رجالٌ بالفعل؟ كلاّ ؛ لا يغرّنّك النّياشين الكاذبة الّتي تتدلّى على صدورهم، فإنّهم لم يدخلوا معركةً واحدةً، ولم يطلقوا رصاصةً واحدةً. ولم يُتقنوا غير استجداء أمريكا والخضوعِ لها، لم يقفْ في وجهها غيري وغير صدّام، لكنّ صدام كان غبيًا . . .» تنهّد، أطلقَ زفرةً طويلة : «إيه يا يونس . . . حتّى الّذين كانوا يُقسِمون بأرواحهم فِداءً لي هربوا، أين عبد الله السّنوسي اليوم، لقد اختفى، أتعلم لماذا؟ ببساطة لأنّه جبان، على أيّة حال لم أكنْ لأثق به، كان كلبي المسعور، وكنتُ مرتاحًا للدّور الّذي يلعبه. الجُبناء لا مكان لهم في التّاريخ، وحدهم الّذين يملكون قلوب الأسود هم الّذين يواجهون أقدارهم بشجاعة، ها نحن . . .». وصمت. تقدّم بضع خطواتٍ إلى الأمام، أشار إلى يونس : «أريدُ أنْ أستعيد روحي هنا». سرح ببصره إلى الأفق، تذكّر عندما كان طفلاً، كانتْ أمّه تقول في لحظات الصّفاء ما قالتْه أمّ معاوية : «ثَكِلَتْكَ إنْ لم تَسُدِ العربَ والعَجمَ»، وأمّا إذا غضبتْ عليه فكانتْ تشتمه بأقذع الشّتائم، وتقول : «أيّ شيطانٍ يسكنكَ أيّها المَسْخ؟». لا بأس، لم أكن أدري مَنْ أمّي ولا ما أمّي. مضت. غابتْ في طفولتي مثلنا غاب دورُها الّذي أعدّتْه لي، لقد عرفتْ كيفَ تصنع منّي عظيمًا. لكنّ الفقر لا يرحم، فإذا أُضيف إليه البؤس، كان الخليط العجيب الّذي أنا هو. تذكّر القطط الّتي أزهق أرواحها عندما كان طالبًا في مدارس سبها، كانوا يقولون إنّ القطط بسبعة أرواح، لم تكنْ تحتمل معي كثيرًا، أُمسِكُها من أذيالها وأُديرها في الهواء عشر دورات وهي تموء مواءً شديدًا، قبل أنْ أقذف بها إلى الحائط، ليسيل مُخّها عليه كبرتقالة سال عصيرها على زجاجٍ صقيل. غابتْ أمّي فجأة، ليظهر مَن

قال إنه أبي كذلك فجأة ، لم يكنْ له من دور إلاّ أنْ بعث بي إلى الصّحراء ، قال لي : «الرّجال لا يخرجون إلاّ من الصّحراء ، أمّا المدن ، والحواضر فلا تُخرّج إلاّ المُخنّثين ، الصّحراء أمّنا ، وعلينا نحن أبناءَها أنْ نكون أوفياء لها» . قال بصوتٍ خفيضٍ كأنّما يُحدّث نفسه : «لقد كنتَ على حَقٌ يا أبي» . وقف صامتًا كجذع شجرةٍ يتيمةٍ في بيداء شاسعة .

«الأرض مكشوفة . والشمس ما زالتْ ساطعة يا سيّدي . وقد تندمُ في لحظةٍ لا ينفع فيها النّدم» . قال له يونس . ردّ عليه : «لن أندم لو قُطِعتْ رقبتي الآن» . تقدّم يونس نحوه ، تجاوزه حتّى صار قُبالته ، فتح ذراعَيه واحتضنَ سيّده ، استسلم العقيد للعاطفة الجامحة ، ألقى برأسه على كتف يونس : «أيّ جريرةٍ ارتكبْناها حتّى يحدث لنا كلّ هذا؟!» . كانتْ أكتافهم ترتجّ!

(٥٣)
هَرْوِلْ يا بني آدم

في السّجن تحشُر النّوادر نفسَها لتخفّف عنّا المحنة ، تُزحزح الطُرفة بعضَ السّجناء المهمومين عن أسرَتهم قليلاً لتجدَ لَها مكانًا بينهم .

كان أحد الحَرَس مهتمًا بأنْ يتحدّث العربيّة الفصيحة معنا ، وكان يظنّ نفسه سيبويهِ أو الخليل بن أحمد ومع أنّ نِيّته في ذلك كانتْ صادقة ، إلاّ أنّه كان كثيرًا ما يذبح العربيّة إنْ لم ينحرْها نحرًا ، كان يرفض مصطلح (الأريا) الإيطاليّ أو حتّى (السّاحة) ، ويُسمّيها (الفناء) ، المشكلة أنّه كان يلفظ هذه الكلمة الفصيحة بطريقة خاطئة ؛ فبدلاً من أنْ يقول (الفِناء) بكسْر الفاء يقول (الفَناء) بفتحها ، والّتي تعني الموت والهَلاك ، فكان يصرخ بطريقة مرعبة : «مَنْ يريد الخروج إلى الفَناء» . وبالطّبع لم يكنْ أحدٌ ليرغب بالخروج إلى الموت ، فننظر في وجوه بعضِنا ، وكان التّرهوني يُمسك فمه حتّى لا ينفجر بالضّحك وتحلّ علينا العواقب الوخيمة . كانت الشّتيمة والكلمات البذيئة هي ثلاثة أرباع ما يتلفّظ به الحَرَس في الوضع الطّبيعيّ إذا أرادوا مخاطبتنا ، هذا الحارس الظّريف كان يقول لنا إذا أرادنا أنْ نركض في السّاحة : «هَرْوِلْ يا بني آدم» . أو إذا أراد أنْ يضرب أحدًا على ظهره : «قَرْفِصْ أيّها الرّجل» . كان الّذين يُضبَطون مجتمعين داخل الزّنزانة يتلقّون درسًا أو علمًا ما فإنّ مصيرهم الجَلْد أو الشّبح أو الكلاب تعقر أطرافهم كُنّا مرّة بين يدي الحاجّ صالح نتلقّى درسًا في التّاريخ الإسلاميّ

مستترين أنْ يرانا أو يسمعنا أحدٌ من الحرَس ، وكان الحاجّ صالح يتحدّث عن أبي بكر الصدّيق ، ويبدو أنّ حارسنا كان يستمع إلى الدّرس من خلف باب الزّنزانة دون أنْ ندري ، فلمّا أتمّ الحاجّ صالح الدّرس ، فتح الباب ، وكان وجهه مكفهرًا ، وتوقّعنا أنْ نُجلَد جميعًا ، لكنّه توجّه إلى الحاجّ صالح ، وقال له : أريد أنْ أناقشك في الدّرس؟ اتّسعتْ حدقتَا الحاجّ صالح ، واستعدّ للنّقاش ، سأله الحارس : هل قابلتَ أبا بكر؟ هل سمعتَ منه هذا الكلام؟ من أينَ تأتي بهذا الهُراء إذا لم تكنْ قابلْتَه؟ هل تنقل عنه من غير عِلم؟ أمّا أنْ تُضلّ النّاس بقولك قال أبو بكر وقال وقال . . . فهذه زندقة» . وصفق الباب وخرج ، وحمدْنا الله أنّ الأمر انتهى عند هذا الحدّ .

قال التروتسكيّون الّذين ظلّوا معنا حتّى عام ١٩٨٨م ، وأكلوا معنا من الصّحن نفسه ، وشربوا معنا من الكأس ذاتِها : لو أنّنا خُيِّرنا بين علي العكرمي أو الكاجيجي مَنْ يحكمنا منهما ، فسنختار علي العكرمي ، على الأقلّ مولود في تونس بلد الحرّيّات والانفِتاح ، ويفرهدنا (يُبسطنا) على الأقلّ في مباراة كرة قدم تُبثّ على التّلفاز ، وكنتُ أنا لاعبًا جيّدًا قبل أنْ أدخل متاهة السّجن ، لعبتُ كرة القدم ، وكرة السّلّة وكرة اليد ، وكنتُ أتابع بشغف مبارايات كرة القدم الدّوريّ .

علي الكاجيجي ، نموذج فريد ، عنده ضيق تنفّس دائم ، وعنده (البخّاخ) يستخدمه دائمًا ، وكان قويًا صلبًا ، لا يخشى في الله لومة لائم ، وكان عندنا واحد ألمانيّ محبوس كالعادة كي يُبادل القذّافي به جماعته ، وكان عند هذا الألماني أيضًا ضيق تنفّس ، اسمه (أحمد كوبسل) ، وهو من ألمانيا الشّرقيّة ، رمى نفسه على إحدى القبائل

اسمها (الفواخر) فألحقَ بهم نسبًا ، وصار اسمه أحمد كوبسل الفاخري ، فلمّا تضيق بهم الأمور ، نطرق الباب ، فيأتي الحارس ، فيصرخ : «مين الألماني ولا الكاجيجي؟» ، فإذا قلنا له الكاجيجي ، يقول : «إنْ شاء الله يموت» . فإذا قلنا له إنّه الألماني يقول الحارس : «وراه دولة ، طَلعوه» فيأخذونه إلى المستشفى أو إلى عيادة السّجن أو يُؤمّنون له الدّواء ، كان أبناء الوطن لا يُساوون مليمًا في عُرفِ الدّولة .

(سعد) الّذي كان محبوسًا معنا في قضيّة الصّحافة ، شاهدَ بأمّ عينه شَنْقَ صديقه الشّاعر في مكان الأمسية الشّعريّة الّتي تحدّث فيها ، قالتْ له اللّجان الثّوريّة : «الزندقة ، وكلمات الكفر ليس لها جزاء إلاّ الموت» أنا متأكّد أنّهم لم يفهموا كلمةً واحدةً من قصيدته . أُصيب (سعد) بصدمةٍ عميقة بعد ذلك ، حاولْنا أنْ نُخرجه منها ، ولكنّنا كُنّا نطرق باب غرفةٍ لم يعدْ فيها أحدٌ . ظلّ يهذي : «شنقوه . . . السّقف . . . الحبل . . . شنقوه» . سافرَ عقلُه بعيدًا ، كلّ محاولاتنا أنْ نصرف من خياله مشهد شَنْق صاحبه لم تُجدِ نفعًا . ظلّ أسير المشهد المُؤلم ، خلا عقله من كلّ ذكرى أو رؤيا أو صورةٍ غير ذلك اليوم المشؤوم . كانتْ إعادته إلى الحياة صعبة . بعضُ النّاس يموتون قبل أنْ يموتوا . يسافرون إلى البعيد وهم معك . الأدهى من ذلك أنّهم لم يستثنوه من التّعذيب بالرّغم من حالته النّفسيّة المتردّية ، كان حسّاسًا جدًا ، قلبه وردةٌ يجرحها وَخْز الشّوك ، لم يُصدّق أنّ القذّافي حبسه هو وجماعته لمجرّد أنّهم صحفيّون ، شعراء ، حالمون ، يتغنّون بالكلمة المُجنّحة . . . في إحدى الأماسي غافَلنا ، وقطع شِريان يده ، لا أدري من اينَ حصل على السّكين ، ولا كيفَ اهتدى إلى الشّريان المُميت . . . سقطَ على الأرض ، كان دمه يشخب من ساعده ، غامتْ

عيناه، بدا أنَّه يتخذ الخُطوة الأخيرة إلى سفرٍ لا عودةَ منه . . . رُحنا نطرق الأبواب وهو يتابع رحلته إلى اللاّعودة . . . جاء الحرس، وأخذوه بعد زمنٍ طويل وهم يبصقون ويُرعِدون ويتوعّدون، ويشتمون . . . لم يعد (سعد) في تلك اللّيلة، لا ندري أقبلتْ الحياة أنْ تعود إليه وتسكن جسده من جديد، أم سافرتْ وتركتْ هذا الجسد خاويًا؟!
الذي عاد بعد تلك اللّيلة هم الحرس ومعهم قطيعٌ من الكلاب، تركْنا لها أجسادَنا تنهشُ منها ما شاءت، كانت الحياة تتساوى مع الموت في تلك اللَّحظة، فلْيَحُلّ فينا مَنْ شاء منهما، وليُغادِرْنا مَنْ شاء منهما، فالأمرُ سيّان!!

في اللّيلة التّالية لم يعدْ سعد، كان قد لحِق به آخرون، أجبرونا على أنْ ننام على بطوننا عرايا، واعتَلَوا ظهورنا بالبساطير يخبطونها بقوّة، كان الدّم يتدفّق من أفواهنا دُفُقات دُفُقات، مع كلّ دُفقة كان الواحد منّا يفقد جزءاً من حياته، بعضُنا كان رصيده من الحياة قليلاً فتركنا وحلّق بعيدًا، وبعضُنا قاوم حتّى لا نُفجَع به . أنا قاومتُ جيّدًا .

كان الطَّرق على الأبواب أكثر ما يُزعِجُ الحَرَس، إنّه ينقر هدوءَهم، ويُزعِج راحتهم، وكُنّا نذوق الويلات جرّاء هذا الطَّرق، وإنْ كُنّا لا نفعل ذلك إلاّ إذا كان لدينا سجين يتأرجح خَيطُ حياته فوق وادي الموت يكاد أنْ يهوي به . بعد فترةٍ طويلة، صرنا نطرق الباب لمجرّد إزعاجهم شيءٌ من المعاملة بالمثل، وإنْ كان إزعاجهم بهذه الطّريق لا يُقارن بالعذابات الّتي نتلقّاها . . . صار الطَّرق على الأبواب متعة، صار احترافًا، صارتْ له أوقاته وإشاراته ونغمَاته، صار الطَّرقُ موسيقانا المُفضّلة، صِرنا نُنغّم ذلك . . . نتّفق على (النّوتة) عند الخروج إلى السّاحة، ونحدّد عدد الزّنازين الّتي ستُشارك به، ولحظة الصّفر الّتي نبدأ منها .

في تلك اللّيلة المشهودة، كانت السّماء تُصغي لإيقاع الطَّرْق على أبواب الزّنازين. إيقاعٌ يبدأ بطيئًا ثمّ يتسارع، الصّحون البلاستيكيّة، الملاعق الخشبيّة والحديديّة، كاسات الشّاي، أنتينات التّلفاز، وحديد الأبواب، كانتْ أدواتنا الموسيقيّة، نبدأ من الزّنزانة الأولى، والثّانية، إيقاعٌ بطيء، باستخدام الصّحون: دُمْ... دُمْ... دُمْ... ثمّ الزّنزانتان الثّالثة والرّابعة باستخدام الأنتينات بإيقاع أسرع قليلاً وأرفع صوتًا: تَك تَك.. تَك تَك تَكْ تَك... ثمّ الزّنزانتان الخامسة والسّادسة، باستخدام الملاعق الخشبيّة والمعدنيّة، وبضربٍ أقوى على الحديد: دُمْ تَكْ تَكْ تَكْ... دُمْ تَكْ تَكْ تَكْ... ثمّ جميع الزّنازين من الأولى وحتّى الثّامنة بإيقاع واحد: دُمْ تَكْ تَكْ تَكْ... دُمْ تَكْ تَكْ تَكْ... ارتجّتْ له جدران السّجن وأسواره وحلّق في الأجواء عاليًا... كان شعورًا لا يُوصَف، الإيقاع نفسه كان يبعثُ طوفانًا من الفرح يغمرنا من رأسنا إلى أخامص أقدامنا، أصابَنا الهياج مع الإيقاع، تعالتْ صيحاتنا، قذفْنا بكلّ ما في أعماقنا من كبت... خبطْنا على الأبواب كما لو كُنّا نستعدّ إلى دخول مدينةٍ فاتحين مُحرّرين، تحرّرْنا من قيد الصّمت بالصّياح، كسرْنا طوق الذّلّ بحريّة أنْ تفعل ما تشاء... غطّى فرَحُنا الطّفوليّ على التّفكير بالعقوبة الّتي تنتظرنا، لم يكنْ لها من فُسحةٍ في العقل آنئذ، لم يكنْ يُسيطر على تفكيرنا إلاّ تلك السّعادة الّتي لا تجيء في السّنوات العشر إلاّ مرّة واحدة، وماذا يُمكن أنْ يفعلوا لنا بعدَها، كلّ ألم من بعدُ سيكونُ ثمنًا زهيدًا بالنّسبة لفرحة غامرةٍ كالّتي ترتعش لها قلوبنا الآن... أمّا الحَرَس، فتركونا في هياجنا حتّى خارتْ قُوانا، وصمتَ بعده السّجن كلّه كأنّه تحوّل إلى مقبرة فرعونيّة، لا حسيس ولا رسيس، وكذّبنا أنفسنا ونحن نعلم بذلك،

قال بعضُنا : لقد استمتعوا بالإيقاع الّذي صنعناه لهم ، قال ثان : إنّنا غيّرنا رتابة السّجن وفي هذا متعةٌ لهم كما هو متعةٌ لنا . قال ثالث : لقد قالوا لا بأسَ من أنْ نهبهم بعض الحرّيّة . . . كانت العاصفة في الطّريق ، وكُنّا نعلم أنّها في الطّريق ، ولكنّنا حاولْنا أنْ نخدعها أو نخدع أنفسنا فنتناساها ، والتّناسي في السّجن قد يكون دواءً في بعض الأحيان . قُمْنا إلى الصّلاة . قلتُ للشّيوعيّين : «صلّوا معنا . ستنجون بالصّلاة» فهموا أنّني أهزأ بهم . كنتُ في الحقيقة أتخيّل المشهد . في وسط الرّكعة الثّانية سمعْنا نباح الكلاب ، عرفْنا أنّ العَقْر قادمٌ ، والعَقْر في بعض المناطق الحسّاسة أسوأ من جلد الظّهر ألف جلدة . ارتعبْنا ، وارتعب كلّ منْ في السّجن بالطّبع ، لكنّ هرير الكلاب كان أوضح أمام باب زنزانتنا من سواها ، أو هكذا خُيّل إليّ . . . فتحوا الباب ، ارتأى الإمام أنْ يُكمل الصّلاة ، ولا أدري لماذا فعل ذلك . أخرجوا الشّيوعيّين ، وقف أحدُ الكلاب بجانبي تمامًا ، أصاب أطرافي الخَدَر ، تخيّلتُ الأماكن الّتي سيعضّني فيها ، نظرتُ إليه بعينين مرعوبتَين ، لم يعدْ للصّلاة معنى ، حاولتُ أنْ أهربَ إلى الزّاوية ، لكنّ الحج صالح وكان الإمام وقتَها أكمل بصوت عالٍ . قال حارس التّوكة : «هؤلاء لم يكونوا يطرقون على الأبواب . الشُّلّة رقم (٣) هم الّذين فعلوا ذلك» . وخرجَ الحرس ومعهم كلابهم . ونجونا . لم أدرِ حتى اليوم كيف!!

استمررتُ في تدريس اللّغات بعد رحيل الإيطاليّيْن ، خرّجتُ تلامذةً كُثرًا ، فقد ظللتُ أعلّم اللغات الإيطاليّة والفرنسيّة أعوامًا طويلة مُحتفظًا بالكُرّاسات الأولى الّتي خطّ عليها (إنزو) معلوماته . الكاجيجي الّذي لم يكنْ يعرف المزح ، شخصيّة جادّة جدًا ، جاءني مرّة ينصحني : «تراك يا أخ علي تُعطي وقتًا كثيرًا للّغات ، وهذا على

حساب القرآن» . قلتُ له : «لا يا كاجيجي ، لا يا صديقي ، أنت لم تعرفْ بعدُ الفائدة العُظمى من إتقان الإيطاليّة» . نظر إليّ عاقداً حاجبيه مُستطلعًا : «نوّرنا» . قلتُ : «تنتظرنا يا صديقي فتوحات ، روما ستُفتَح ، وتنتظرنا بعد هذه الفتوحات سبايا جميلات ، بقطْن حليباً وعسَلاً ، ولا بُدّ أنْ نخاطبهنّ ونلاعبهنّ بلغتهنّ» . فسكتَ قليلاً ، وقال وهو يحكّ ذقنه : «يا أخ علي هؤلاء لا ينتظرنَ اللغات كي نتفاهم معهنّ . . . التّفاهم معهنّ يكون بطريقة أخرى» .

(٥٤)

ثلاثية الأمراض والجنون والموت

كانتْ بين فترةٍ وأخرى تتسلَّلُ يدٌ ما خفيّة من سقوف زنازيننا وتعبث بعقولنا ، ما من أحدٍ منّا لم تمسّه تلك اليد الخفيّة وتركتْ عقله سليمًا ، لكنّ عبثها كان يختلفُ من سجينٍ إلى آخر ، وتأثيرها الزمني يطول عند بعضنا ويقصُر عن آخرين . كانت هذه اليد أكثر ما تعبثُ بعقول العسكريّين ، لا زلتُ أذكر ذلك المساء الّذي نشبَ الخلاف فيه بين ضابطين من الضبّاط المحكومين بالمؤبّد . استلّ أحدهم - ولا أدري كيفَ حصل عليها - قطعةً معدنيّة حادّة لعلّها كانت أحدَ نياشينه التي قلّدها القذّافي له ، وبكلّ ما في يده من عزم طعن رفيقه بها في عنقه ، ثمّ سحبها ، ليغرزها في موضع آخر من عنقه بغلّ أكبر ، كانَ سيهوي بالطّعنة الثّالثة قبل أنْ نتداركه ، لم نتدخّل في الشّجار من البداية لأنّنا اعتدْنا على منظرهما شبه اليومي وهما يتشاجران . يقول الأوّل للآخر : «أنتَ بلّغتَ عنّي» . ويقول الثّاني للأوّل : «لم تكنْ رجلاً ، اعترفتَ من أوّل كفّ» وهكذا يتبادلان التّهم ، وتعلّمنا أنّ هذا الطّقس هو طقسٌ اعتياديّ وأنّ تدخّلنا فيه لن يُفيد ، حتّى كان ذلك اليوم ، يوم الطّعن ، يوم النّيشان العسكريّ الّذي غاص في عنقٍ عسكريّة . . . ترنّح الضّابط ، وراحَ يصرخ ، أسندْته ، تراشقَ دمه على وجهي ، كان يثعب بغزارة كأنّ صنبورًا غليظًا قد انفتح ، ملأ دمه أرض الزنزانة ، ولم نستطع أنْ نفعل له شيئًا كثيرًا ، ضغطنا على جرحه

بخرقة ، وخبطنا على الأبواب ، حينما فُتحت الأبواب بعد فترة طويلة . كان قد مات . حملوه وأخذوا معه زميله الّذي طعنه . ولم يعودا!!

كان الجنون يحلّ قريبًا من دارنا ، يروغ بيننا ، يعبثُ بطمأنينتنا . يحاول أنْ يسرقنا منّا ، لم نكنْ بمعزل عنه في أيّة لحظة من اللّحظات . كان مثل ضبع تدور حول أسرّتنا تحاول أنْ تلحظ من الواحد فينا غفلةً عابرةً لكي تخطّفه ، تبول على عقله المُغيّب ، فيتبعها اتباع المأخوذ أو المسحور ، فإنْ تبعها فإنّه لا يعودُ أبدًا . أنا كنت أرى تلك الضّبع تطلّ لي في كثير من اللّيالي تراودني عن نفسي ، ولكنّني بقيتُ مُفتّح العينين ، متأهّبًا ، حتّى لا تخطفني رائحتها ، فأتبعها إلى وادي الغياب كما فعلتْ مع كثيرين منّا .

الّذين فقدوا عقولهم لم يكونوا يغتسلون لشهور ، ولم يكونوا يفارقون أسرّتهم ، ولا يخرجون إلى الشّمس ، حتّى تعفّنوا ، وأحيانًا يقومون بخلع ملابسهم ، والتّعرّي تمامًا ، ويبدؤون سيلاً من السّباب . أحدهم حاول مرّة أنْ يهرب بطريقة لا يفعلها عاقل ، تسلّق السّور الدّاخلي ، ضربته الأسلاك المكهربة ، ارتعش جسده ، لكنّه نجح في الإفلات من الأسلاك ، ألقى بنفسه من سور السّجن الدّاخلي . تلقّفه الحرس الّذين كانوا بانتظاره في الأسفل كما تتلقّف الأمّ طفلها الصّغير ، أعادوه إلينا ، ولم يُعذّبوه لأنّهم كانوا يعرفون أنّه فقد عقله .

في ذلك العام ١٩٨٧م انتشرت الأمراض أكثر من السّنوات السّابقة ، ربّما اكتظاظ السّجن بالآلاف المحشورة في الزّنازين حشرًا سبب ، ربّما الصّيف القائظ سبب ، وبالتّأكيد الطّعام المليء بالقذارة وقلّة النّظافة ، وكثرة الإهمال كلّها أسبابٌ أخرى . كانت الصّراصير

والبراغيث قد هاجمتْنا في ذلك العام بمئات الآلاف ، بالنسبة لي أكلتْ جبهتي أكلاً . لم يبقَ في جبهتي لا لحمٌ ولا دمٌ . في صحو الصباح عددتُ مرّةً فوق المنتني حشرة بأكثر من عشرين نوعاً ، كانت تغطيه إلى الحدّ الّذي تمنع نوره من أنْ يسطع . أمّا الفئران فكانتْ تخرج من دورة المياه بالعشرات ، وكانتْ تمشي فوق صدورنا ، وتتبختر على رؤوسنا ، وتعبثُ بأرجلنا ، وكانتْ لا تمرّ دقيقةٌ دون أنْ ترى فأرًا يعبر من الزّاوية إلى الزّاوية في الزّنزانة ، في ذلك العام أكلت الفئران من طعامنا ، وبالتْ في مائنا ، وسبحتْ في شرابنا ، ولم يكنْ لنا من وسيلة للقضاء عليها سوى أنْ نتآلف معها ، ونتكيّف مع وجودها بيننا ، ونرضى بحلولها ضيفًا إجباريًا علينا . ولكنّها كانتْ مفيدةً على الجانب الآخر ؛ في حالات الجوع الشّديد ، كُنّا نأكلها لكي نمنع شبح الموت من أنْ يقترب أكثرَ من الحدّ اللاّزم ؛ أنا أكلتُ واحدًا في إحدى نوبات الجوع القاتلة !!

الرّوائح كانتْ تفعل فِعلها فينا أكثر من المُخدّرات ، لم يكن التآلف معها ممكنًا ، رغم أنّنا تآلفنا مع ما هو أصعب منها ، ولكنّ الرّائحة كان لها ألفُ رائحة ، ولهذا كانتْ عصيّة على أنْ نتأقلم معها ، كانتْ تخرج بألف شكلٍ وهيئةٍ ولونٍ وقوّةٍ ووجه ومستوًى وتأثير . . . كانتْ غريبة ، كلّ مرّةٍ تخدّر طرفًا من أطرافنا ، وتُهاجِمُ جزءًا من مسامات جسدنا ، كُنّا نُحسّ أنّ كلّ خليّةٍ في أجسادنا تتنشّقها ، لم يكن الأنف وحده هو من يراها ، كُنّا نراها بألف طريقة وطريقة . بعضُ هذه الرّوائح كان يتسبّب بالغثيان ، بالسّقوط على الأرض ، بالإصابة بالمرض ، بالتكوّر على البطن ، وأحيانًا بالغيبوبة ، بعضُ الّذين ساقتْهم الرّوائح إلى الغيبوبة لم يعودوا منها !! كيفَ فعلْنا إذًا ، أحطْناها بالتّمائم ؛ كثيرون منّا

كانوا لا يزالون يؤمنون بالتّمائم، ويعتقدون بالقُوى السّحريّة القادرة على أنْ تُحدث التّغيير إلى الأفضل بسرعةٍ خارقة، المحنة كانت أكبر من أنْ تقبل عقولنا، ضعفُ قوّتنا ألجأنا إلى القُوى العلويّة، لولا ذلك اللّجوء لكُنّا انسحقْنا تحت أقدام المأساة انسحاقًا. كان بعضُنا يردّد: «بين ما نريد والسّماء مسافةُ دعوة صادقة». ومع أنّ الدّعوات والتّعاويذ والتّمائم لم تكنْ لتفيد كثيرًا إذ لم يكنْ أحدٌ ليدري أنّها صادقة أم لا؛ إلاّ أنّنا جميعًا ودون استثناء مارسْنا شعائرها بالمُطلَق؛ مَنْ كان يؤمن بالله ومَنْ لم يكنْ يُؤمن به. وأنا؟ أضفتُ إلى الدّعوات تعويذةً جديدة، كنتُ أضع قطعةً من سيلفر الدّخان على علبة الحليب البلاستيكيّة، وأغطّي فتحة المرحاض. كانت الرّوائح تدور في العلبة، تتكثّف طوال اللّيل، فإذا ما جاء الصّباح، وفتح الحارس باب الزّنزانة من أجل الطّعام، قذفتُ تلك الرّوائح من الباب متخلّصًا من ثلاثة أرباعها، لأعيد الكرّة في اليوم التّالي!

في زمن البرد، قلّتِ الرّوائح قليلاً، ولكنّ سكّين البرد الّذي يجرح العظام عوّض ذلك النّقص المُفترض في كمّيّة الرّوائح، فعشنا مُصيبتَين. كان العفن يتعربش على الجُدران، تسبح طُفيليّاته الخضراء الصّغيرة في كلّ بوصة، وكان السّجانون حينَ يدخلون إلى مهاجعنا يضعون على وجوههم الكمّامات عوض أنْ يُولّوا هاربين.

انتشر السّلّ في ذلك العام أيضًا، أكثر من (٣٠٠) شخص أصيبوا بالسّلّ. مات منهم في أسبوعٍ واحدٍ أكثر من (٥٠) سجينًا. هربوا من موتٍ إلى موت. من موتٍ معتادٍ يوميّ إلى موتٍ أخير، من الضّفّة الأولى إلى الضّفّة الأخرى، كان الجسر الّذي عبروه طويلاً جدًا إلى الحدّ الّذي لم يتركوا فيه شبرًا واحدًا إلاّ وتقيّؤوا فوقه دمًا. كان السّجين

يمشي فوق ذلك الجسر ويتخلّى عن جزء من روحه كلّما مشى خطوة واحدة، حتّى إذا حلّ في الضفّة الأخرى تكون روحه قد انتهت تمامًا.
زنزانتنا أصيب نصفها بالسّلّ، ولم يقوموا بحجرهم صحيًا، وكنّا معرّضين جميعًا لأنْ نُصاب بهذا المرض الخبيث، ونموت جميعًا، لكنّ الله رَحِمَنا، ولا أدري، ربّما كانت الرّحمة ألصق بالّذين فارقونا وتخلّصوا من كلّ هذه الفظائع. (سالم) أحد الّذين نخر المرض أجسادهم، لم ندر ماذا نفعل له، كان الخوف من أنْ تنتقل العدوى منه إلينا تجعلنا حذرين في التّعاطف معه، كان ينظر إليّ، عيناه تستجديان أنْ أساعده، وأنا أتمزّق بين أنْ أحضنه بين ذراعيّ، وأقدّم له كل ما أستطيع لأخفّف عنه، وبين الموت الّذي يُمكن أنْ ينتقل منه إليّ لو اقتربْتُ منه ذراعًا واحدة!! كُنّا موزّعين بين العاطفة والواجب، كان الموت يعبثُ بنا، يُدنينا قليلاً ممّن أصيبوا، ولكنّ حُبّ الحياة سرعان ما يُبعدنا عنهم. بعد آلاف الطَّرَقات على الأبواب الّتي استمرّتْ أسابيع، قال لنا الحرس: ليُجهّز سالم نفسه كي ننقله إلى المستشفى، فرحْنا كثيرًا، أوّلاً له لكي يتلقّى العلاج، وثانيًا لنا حتّى لا ينتشر المرض بيننا، لكنّ ما حدث كان صادمًا، لقد أخذوه من عندنا وألقَوا به في زنزانة انفراديّة دون طعام وشراب حتّى يموت وحيدًا. وظلّوا يراقبونه حتّى إذا همدتْ حركته تمامًا، وخمدتْ أنفاسه بشكل تامّ، نقلوه إلى المستشفى ليموت هناك، لكنّ الله كتب له الحياة هناك، واستفاق من غيبوبته، تاركًا جُبّ الموت الّذي ألقوه به.

بعد ستّة أشهر كان المرض قد تفشّى بشكل أكبر، لم تعد الكمّامات الّتي يضعها السّجّانون على أنوفهم وهم يوزّعون الطّعام أو يحرسون الزّنازين تفي بالغرض، خافوا أنْ يُلقيَ المرض بشبحه عليهم،

فبعثوا بالمصابين إلى مستشفى أبي سنّة .

لا يُمكن أنْ أحصر الأمراض الّتي حلّتْ ضيفًا علينا في تلك السّنوات العجاف ؛ كان عددٌ كبيرٌ منّا مُصابًا بالبواسير ، يبقى أربع سنوات أو خمسًا وهو ينزف من المناطق الحسّاسة ، ويُعاني آلامًا لا تُحتَملُ ، ولا يُعالَج ، أو يُعطى مرهمًا أو أيّ مُسكّن . كانت المصيبة لتكون أخفّ لو أنّ الطّعام كان جيّدًا وكافيًا بحيثُ يُقاوم جسد السّجين المرض بمناعته الدّاخليّة ، لكنّ الطّعام كان لا يُقيم الأود بالمعنى الحقيقيّ للعبارة .

ولكنْ أين الأطبّاء المساجين؟! أولئك الّذين يُمكنهم أنْ يُخفّفوا شيئًا من آلامنا ، كانوا موجودين تقريبًا في كلّ زنزانة ، ولكنّهم كانوا مثل الجنود المُقاتلين في ساحة فسيحة ولكنْ دون سلاح . بعد خمس سنوات من مطالبتي بأنْ أعرَض على طبيب أسنان بسبب الآلام الفظيعة الّتي تتسبّب لي بها ، نُقلتُ إلى مستشفى عسكريّ على ما يبدو ، كانتْ تبدو مشرحةً أكثر منها مستشفى ، جاء الطّبيب تظاهر أنّه خدّرني ، وقام بخلع أربع أسنان لي مرّة واحدة . عُدتُ إلى الزّنزانة بدون فكّ!

لم نُصَب برتابة الأمراض في السّجن ، كُنّا كلّ بضعة شهور نستقبل نوعًا جديدًا من تلك الأمراض ، أُصبنا في غمرة طوفان الأمراض المنداح الذي لم يكنْ ليوقفه شيء بمرض الرّيشة أو الدُّمّل ، كان مرضًا لعينًا هو الآخر ، يُصيبُ المناطق الحسّاسة ، فيسبّب لك حكّة شديدة ، وكان من الممكن أنْ تنظر إلى السّجناء في زنزانة ما ، وقد أدخلوا أيديهم داخل سراويلهم وبدؤوا يحكّون المناطق الحسّاسة بقوّة واستمراريّة ، وهم يصكّون على أسنانهم من الألم ، وكان الحكّ

ـنب راحة لحظيّة ، لكنّه يرفع مستوى الألم ليدعو إلى حكّ أقوى ، وهكذا ، حتى تنزف تلك المناطق ، ولربّما ندّت من الواحد منّا صرخةٌ هنا أو هناك شقّت فضاء السّجن بأكمله! كان الّذين لم يُطيقوا صبرًا على الرّيشة ينزفون كما لو كانوا نساءً حائضات ، وكانوا يلفّون تلك المناطق بخِرَق حتّى لا يمشي ووراءه خيطٌ رفيعٌ من الدّم ينزّ تحته ، وكانوا يبدون مُصفرّي الوجوه ، متغيّري اللّون ، تتناوب أيديهم التّهارش ، لا تخرج من تحت السّراويل إلاّ قليلاً ، وكانوا يبقون على تلك الحال سنوات دون أنْ يُعرَضوا على طبيب ولو مرّة واحدة!

في ذلك العام كثيرون ماتوا بين أيدينا . كثيرون جُنّوا . كانوا يُركّزون الضّرب على الرّأس بهراوة غليظة ، كانتْ ثلاث ضربات من جلاّد قويّ العضلات كفيلةً بأنْ تكسر الجمجمة وتخرج دماغ السّجين سائلاً فوقها ، أو أنْ تبعثَ به إلى غيبوبةٍ توقفه على شفير الموت ، أو تُصيبه بالجنون في أحسن الظّروف .

العيش حيلة . الحياة امتحان . الصّبر دواء . الرّضى شفاء . كُنّا نوزّع المُصيبة الواحدة على قلوبنا جميعًا فتخفّ . ونتقاسم أجسادُنا المرض إذا أصاب واحدًا منّا بالكلمة الطّيّبة والنظرة الحانية فتبرأ . وحين كان الواحد منّا يذهبُ في طريق الجنون نسير معه من أوّل الطّريق حتّى إذا صرنا في ثلثها عادَ معنا ، ولو لم نفعل ذلك ، لأكمل كلّ واحد منّا طريقَ الجنون إلى نهايتها ، كانتْ طريق الجنون مثل طريق المرض ، ومثل طريق الموت ؛ كُلّها تُفضي إلى غياب أليم ؛ الأولى للعقل ، والثّانية للجسد ، والثّالثة للرّوح .

كُنّا نشتري الأقلام بأثمان مرتفعة ، حينَ تحدث بعض الانفراجات ، كان الحرس حين يأتوننا بقلم الحبر ، نمصّ الحبر الّذي فيه

ونفرّغه في قصب آخر لكي يمكننا أنْ نستخدم أكثر من قلم أو أكثر من وسيلة كتابة في الوقت نفسه . لم يكنْ هناك أقلام . كنّا نصنع أقلامنا . أمّا الورق الّذي كنّا نكتب عليه فكان أوراق السيلفا لباكيت الدّخان ، أو أوراق الصّابون . نغسل أوارق الصّابون للتّخلّص من الدّهن الّذي عليها ، وننشره في الشّمس لكي يجفّ ومن بعدها يصبح صالحًا للكتابة .

على ورق الصّابون تعلّم بعضُنا ثلاث لغات . على ورق الصّابون حفظ بعضُنا كتاب الله بأكمله ، على ورق الصّابون أضاف الحافظون إلى حفظهم سبع قراءات . وكُنّا نكتب المصحف على أجزاء ، ونوزعه بين الزّنازين حسب جدول زمنيّ دقيق .

كُنّا نعجن الخبز ونصنع منه بيادق الشّطرنج ، الأبيض بدون تلوين ، ونلوّن المتبقّي بالشّاي ليصبح أحمر للبيادق الأخرى . والرّقعة نصنعها إمّا من أوارق الدّخان أو من أوراق الشّاي .

كان الخبز مصدر كثير من الأفكار الملهمة ، العجينة الّتي في الدّاخل نذوّبها في الماء وشيء من السّكّر ونصنع بها الغراء الّذي نستخدمه لأغراض شتّى ؛ مثل استخدامه للصق بعض أوراق الصّابون والشّاي من أجل أنْ نصنع فرشةً ينام عليها السّجين ، أو طاولة ، أو رقعة شطرنج ، أو غلافًا حافظًا للقرآن .

كُنّا نأخذ طرف الحديد من اللّمبة فنسخّن الماء أو الشّاي ، ونضعها في شيء من الشّمنت ، ونأخذ صندوق الحليب المعلّب ، ونقصّه ، وفي الداخل نضع سيلفر ورق الدّخان من أجل انعكاس ضوء اللّمبة ، فيعمل سيلفر الدّخان على مُضاعفة درجة الحرارة ، فكنّا نسخّن عليها ما نشاء . وأحيانًا كُنّا نغمس خيطَين معدنيّين موصولَين بسلك رفيع

في مصدر الكهرباء في إناء مملوء بالماء ، وتبدأ الكهرباء تسري في الماء حتى يغلي ، ثمّ نقوم بفصل أسلاك الكهرباء بحذر من قبل خبير ، لأنّ الماء إذا انملق من الإناء ، أو مسّ قبل الفصل أيّ طرف في جسد أيّ واحد منا فإنّ صاعقة مميتة ستكون بانتظاره .

في العيد جهدتُ على أنْ أعمل لهم (تورتة) ، إنّه العيد ويستحقّ المغامرة ، ولا بُدّ من شيء يلوّن السّواد الطّاغي على كلّ شيء . كانت التورتة (العالميّة) الّتي نصنعها ، تتكوّن من الشّاي الّذي خبأناه من الّلبَن فانتتين ، نضعه في بلّور مُقوّى ، ونبخّره في فرن (اللّمبة) الاختراع السّابق . ونجفّف عجين الخبز ، ونسكب الشّاي الّذي قد يكون مع السّخين قد تحوّل إلى عسل فوق ذلك لعجين ، ونتخيّل أنّها تورتة ، ونأكلها كأشهى ما يكون .

كان الزبير أستاذًا في صناعة الحلويات أكثر منّي ، وكان أستاذنا ، لحق بنا هنا في سجن أبو سليم ، بعد أنْ خرج من محفرة الحصان الأسود . وكُنّا نقول له : هل نضع لك سُكّرًا على الشّاي ، فيقول : ضع المزيد منه ، فنقول له : لماذا؟ إنّه مُضرّ بالصّحة ، وأنت صرت فوق الأربعين ، فيقول : ضع المزيد من السّكّر لأنّه الشّيء الحلو الوحيد في هذه المرارة البائسة . أقول له أستاذ : «هل تأكل الحلوى الشّاميّة؟ فيقول : «كُل أنتَ الحلوى وخلّي لي الشّاميّة» .

في اللّيل نأخذ عصا المكنسة ، وأكياس البصل ، ونأخذ الرّيشة المعدنيّة من التّلفزيون ، ومن أغطية طناجر قديمة نصنع اللاقط ، ونخرج التّوليفة العجيبة من نافذة الزّنزانة فنحصل على قنوات إيطاليّة وقنوات أخرى كثيرة ، حوالي أربعين قناة . أيّ شيء يُمكن أنْ يوقف الإنسان إذا أراد؟!

(٥٥)
العقيد

كانت الغرفة الّتي أعدّتْ له تقع في البناية رقم (١٣) الّتي لعبتْ بها قذائف مجهولة في السّابق، على الأغلب هي قذائف النّظام نفسه، لقد قال لهم «عزّ الدّين» إنّ هذه الفجوات الّتي تبدو في جدران هذا الصّفّ من البنايات النّاتجة عن قذائف صاروخيّة يُوحي بأنّ معركة دارتْ هنا، وأنّها انتهتْ، وأنّ أهلَها غادروا المكان، وأنها مهجورة بالكامل، وهذا يُبعد شبهة وجودنا فيها. تلقّاه العقيد بالأحضان: «صديقي القديم». ردّ عليه عزّ الدّين: «لن أتخلّى عنك. ليس في هذه المرحلة، ولا والحال كما ترى». صعد معه هو ومنصور ويونس ليُروا العقيد المكان الّذي سيتمركز فيه.

كانت البناية (١٣) تتكوّن من طابقَين، بالإضافة إلى طابق التّسوية. حلّ العقيد في الطّابق الأوّل، واحتلّ أسطح البنايات بالإضافة إلى هذه البناية عشرات الحُرّاس المُجهّزين بالأسلحة الأوتوماتيكيّة، بالإضافة إلى المناظير اللّيليّة.

غرفة العقيد جُهّزَتْ على عَجَلٍ فيما يبدو؛ سريرٌ عاديٌ يقبع في زاوية بعيدًا عن النّافذة. كانتْ نوافذُ الغرف جميعها مُغطّاة بالسّتائر الثّقيلَة الّتي تمنع تسرّب الضّوء، بالإضافة إلى أنّ الزّجاج كان موشومًا باللّواصق الّتي تمنع تهشّمه بشكلٍ كبير في حالة حدوث انفجارٍ ما. في الغرفة ذاتها الّتي لا تزيد عن أربعة أمتارٍ في أربعة، في الشّقّة الّتي

تتكوّن من غرفتين أخريين وهي الشّقة الّتي كانت تعود لأحد المواطنين الليبيّين العاديّين يُوجَد خزانة ملابس فارغة ، علاها بعضُ الغبار ، يبدو أنّ الحرس لم ينتبهوا لذلك أو لم يكنْ لديهم الوقت الكافي لتنظيفها . بالإضافة إلى مكتبة بُنّيّة اللّون عرضُها مترٌ ونصف ، فيها أربعة أرفف من الأعلى ، وثلاثة أدراج من الأسفل وقد خلتْ إلاّ من كتب قليلة هي الّتي نجت ربّما من قصْف أو نهب ما . كان في الغرفة بابٌ يفتح على حمّام بنافذة صغيرة مُحكمة الإغلاق ومموّهة ، وأمام الحمّام مغسلةٌ من الخزف العاديّ ، ترتكز فوقها مرآةٌ صغيرةٌ لا تكاد تتّسع لوجه النّاظر فيها ، مهشّمة الزّوايا لا يُمكن أنْ تُقارَن بالمرآة العملاقة المُذهّبة الّتي كان يقف أمامها العقيد أمسِ في باب العزيزيّة .

ركزَ العقيد قُبّعته العسكريّة على زاوية الباب . مشى . جلسَ على حافّة السّرير . طلبَ من مرافقيه أنْ يخرجوا ، مدّد جسده ، وأجالَ بصره في سقف الغرفة ، كانت العفونة تنتشر في بُقع متفرّقة منه . بعض الزّوايا كانتْ تختفي بأعشاش قديمة لعناكب ما زالتْ تصطاد ما تجود به الطّبيعة ، إذ لمح ذبابةً علقتْ في الشّبكة تتحرّكُ محاولة التّخلّص من براثن الفخّ الّذي وقعتْ به للتّوّ ، والعنكبوت يسير إليها على مَهلٍ كأنّه واثقٌ من أنّ صيده لن يستطيع أنْ يُفلت منه أبدًا .

في الغرفة المقابلة بابٌ يفتح على شرفة صغيرة في زاويتها اليُمنى درجٌ حلزونيّ ، بإمكان مَنْ يستقلّ هذا الدّرج الخارجيّ أنْ يهبط إلى الطّابق الأرضي أو يصعد إلى الطّابق العلويّ أو يتابع مسيره إلى السّطح . كان الدّرج من حديد متآكل ، ويبدو أنّهم أضافوه إلى البناية إضافةً لكي يكون مخرج طوارئ إذا دعت إليه الحاجة .

مرّر العقيد يدَيه على غطاء السّرير ، كان خَشِنًا ، تقلّب على جانبه

الأيمن ، لمستْ أتربة الوسادة خدّه النّاعم ، وزكمتْ أنفه رائحة التّراب وطول العهد بالنّوم في المكان ، قام . مشى إلى النّافذة . أزال السّتارة فتسلّل ضوء الشّمس إلى الغرفة فغمرها بالنّور . كان الوقتُ عصرًا . هُرع إليه أحدُ الحرس : «سيّدي» ردّ عليه بغلظة : «اغربْ عن وجهي» . عاد إلى السّرير ، مدّد جسده وراح ينظر في السّقف من جديد ، وضع كلتا كَفَّيْه تحت رأسه ، ثُمّ خفض بصره باتّجاه النّافذة ، بدتْ له سماء سِرت من النّافذة صافية هادِئة كأنّها لم تسمع بالحرب ، ولا بالفوضى الّتي تجتاح البلاد . سرح العقيد بخياله بعيدًا . عادتْ له ذكرى الأجساد البضّة ، والنّساء المغسولات بالحليب ، والممزوجات بالعُطور . كانتْ رائحة التّراب تُفسِد عليه خيالاته . تذكّر النّساء اللّواتي امتطاهُنّ ، العذراوات اللّواتي افتضّ بكارتهنّ ، الجميلات اللّواتي دفع لهنّ ، زوجات الوزراء والرّؤساء اللّواتي اشتراهنّ من أزواجهنّ ، أراد أنْ يعدّهن ، فانفلتْنَ من الحصر والعَدّ ، أراد أنْ يرتّبهنّ حسب درجة استمتاعه بهنّ فعجز ، تذكّر الغِلمان الّذين امتطاهم ، كانوا يُسمّون أصحاب الخدمات ، لم يكونوا يُقدّمون خدمةً أمتع من تلك . عبرتْ أنفه رائحة العَفَن ، غطّاها باستِجلاب روائح العُطور الباريسيّة ، ضرّ بعض التّراب العالق ببسطاره مع شرشف السّرير ، فواجهها بآهات العذراوات وهنّ يكتشفْن لأوّل مَرّة أنّ القائد نفسه هو الّذي يقوم باعتِلائهنّ .

أرادَ أنْ ينام . لكنّ الذّكرى منعتْه من النّوم . وأيّ ذكرى أفظع من هذه الّتي ألجأته إلى مثل هذه البنايات المهجورة . إنّه مُرهَق ، ولكنّ الأحداث لم تجعل للنّوم إلى عينَيه سبيلاً . بعدَ قليل سيحلّ الغروب على سِرت . ستهبط الشّمس في الجهة المقابلة من العالَم . سيجيء

الليل. سربال اللّيل ثقيل. اليوم سيحلّ ليلٌ مختلفٌ على سِرْت. ليسَ على سرت وحدها، ولا على طرابلس وحدها، بل على ليبيا. اليوم سيبتلع اللّيل ليبيا جميعها، سيبتلِع كلّ شيءٍ، كادَ يبكي لولا أنّه سمع أصواتَ أقدامٍ تصعد الدّرج قادمةً نحوه.

(٥٦)
القوى الشيطانية

تدخّل (عبد الله السّنوسيّ) في حياتنا ، في رقابنا ، في إنزال الموت بنا ، في الهواء الّذي نتنفّسه داخل السّجون بشكل سافر ابتداءً من التّسعينيّات ، كان عامر المسلاّتي أمر السّجن ، لكنّه كان يبدو جروًا أمامه إذا حضر . كلبًا صغيرًا يتمسّح بحذاء سيّده كلّما مرّ به أو وقف عنده .

كان عبد الله في مطلع شبابه نحيلاً ، بسيطًا ، خجولاً ، صموتًا ، لا يُبادر بالحديث إلاّ إذا سُئل . لم يكنْ يدري ما السّياسة ولا ما ألاعيبها ، ولم يكنْ يملك فكرًا من أيّ نوع . ولم يخضْ في حياته في أيّ جدال أو نقاش . دائم الصّمت ، ويعدّ كلّ شيء لا يعنيه ، ولذلك لم يكنْ ليتدخّل في أيّ من الأمور . من هوّة اللاّمعنى صعد مرّة واحدة ، من الغياب الكامل تصدّر المشهد مرّة واحدة ، اختاره القذّافي ليكون عديلاً له ، وهكذا قذف به إلى واجهة المشاهد كلّها . دخل إلى الدّائرة الخاصّة جدًا بالقذّافي حينَ صار مرافقه الخاصّ وحارسه الشّخصيّ ، صنعه العقيد ، أعاد تشكيل ذاكرته ، وعقله ، وحركات يديه ، ونظراته ، وجعله قوّته الضّاربة بين عشيّة وضُحاها!! هل كان القذّافي يعرفُ أنّه قابلٌ لأنْ يُصبح طاغيةً صغيرًا بعضده ، هل لمح فيه تلك القدرة على التّحوّل العجيب ، وعلم أنّه لا يتمتّع بها بهذا القدْر سواه؟ هل عرفَ أنّه صفحةٌ بيضاء يُمكن أنْ يُعادَ برمجتُها لتتشكّل وَفْق ما يريده العقيد منه؟! ربّما .

أوّل تمرين للولاء أجراه القذّافي له ؛ طلب منه أنْ يشهد إعدام الضبّاط المتآمرين في عام ١٩٧٦م . أعطاه مسدسًا : «الرّجل لا يتردّد» . بعد أنْ أطلقت الرّصاصات على الضبّاط وسقطوا في ميدان الرّماية ، كان دوره قد حان ، مرّ بهم واحدًا واحدًا ، وأطلق على رأس كلّ واحد منهم رصاصة الرّحمة ، إنّها تعني أنْ ترتاح الضحيّة دون أنْ تُعاني آلام النّزع كثيرًا . عاد السّنوسيّ بعدها إلى مكتبه كأنّه كان في نزهة . لم يطرف له جفن ، ولم تبدُ عليه أيّة علامات للتوتّر أو النّدم ؛ لقد اجتاز امتحان القذّافي بنجاح!

كيفَ يُمكن لحَمَلٍ وديع لا يرعى إلاّ الكَلأ أنْ يتحوّل إلى ذئب تقطر أنيابه دمًا من أشلاء ضحاياه؟! أيّة قوّة شيطانيّة يُمكن أنْ تُحوّل هذا الخجول الصّموت السّكوت إلى قاتلٍ محترفٍ يقتل بدم بارد؟!

كان سهمُه يرتفع عند القذّافي بعد كلّ مصيبة ، حين قُتل (حسن إشكال) ارتقى دور السّنوسيّ ، حينَ أُحضِر (خشيبة) و(الغناي) إليه بعد أنْ تسلّل القذّافي إلى بيتهما في موضع شرف ، وضعهما السّنوسيّ بين حشد كبير من الجنود الّذين أفهموا أنّ هذين خائنَين خانا الشّرف والمروءة والقبيلة ، تدافعَ الجنود إلى الضّحيتَين ومزّقوا جسدَيهما ، لم يكتفِ السّنوسيّ بذلك ، ربط أقدامهم إلى سيّارة ، وأيديهم إلى سيّارة أخرى ، وأمر كلّ سيّارة أنْ تنطلق في اتّجاه ، تمزّقتْ أشلاؤهما أمام أعين الحاضرين ، وغابتْ صرخات استغاثاتهما في موتٍ لا يرحم . بعدها ارتقى أمر السّنوسيّ عند القذّافي ، أعجبتْه اللّعبة ، صار قتله لكلّ مَنْ تدور حوله الشُّبهة يُصعده درجةً في سُلّم الحُظوة عند القذّافي . في المستقبل القريب سيقدّم قربانًا كبيرًا لسيّده ، سيكون القربان أكبر مِمّا يمكن أنْ يشطح إليه خيالُ أشدّ النّاسِ مرضًا في هذا الكون!!

قال السّنوسي مرّة لأحد المقرّبين منه بالحرف الواحد: «علاقتي بالقذّافي لا أستطيع أنْ أصفها؛ عندما أجده منهزمًا فإنّني على استعداد أنْ أفعل أيّ شيء يُخرجه من حالة الانهزام ولو كان ذلك بقتل كلّ أولادي أو قتل نفسي. لو طلبَ منّي القذّافي أنْ أظهر أمام شاشات التّلفزيون وأنا أُقبّل أقدامه لفعلتُ ذلك بكلّ سرور... أنا لا يهمّني في حياتي أيّ شيء سوى معمّر القذّافي، ورضاؤه، وقُوّة معنويّاته وارتفاعُها، وأنا على استعداد أنْ أدفع مقابلها أيّ ثمن».

لقد صنعه القذّافي كأتمّ ما تكون الصّناعة، لقد كان الأداة الأشدّ فتكًا من بين كلّ أدواته البشريّة الّتي استخدمها عبر أربعة عقود هي العمر الّذي أحكم فيه قبضته الحديديّة على ليبيا. هل كان القذّافي ساحرًا ليتّبعه كلّ هؤلاء المريدون بهذا الشّكل الجنونيّ، هل كان لغير المال والسّلطة والشّهوة أمورٌ أخرى لم يهتدِ إليها بعدُ علم النّفس لكي يُفسّر فيها سلوك طاغوت صغير أسيرًا لطاغوت أكبر!!

من أجل ذلك، خطّط لكلّ مصيبة طوّقتْ عنق ليبيا ونفّذها، وجعلتْها تدفع الثّمن مُضاعَفًا، أسقط الطّائرة الأمريكيّة فوق مدينة لوكربي، فجّر طائرة (U A T) الفرنسيّة، قتلَ الشّرطيّة البريطانيّة (فليتشر) أمام السّفارة اللّيبيّة، وخطّط لاغتيال الملك عبد الله بن عبد العزيز لأنّه تهجّم على إلهه... لقد تفوّق في ماراثون الدّم على كلّ مَنْ جاء قبله، له نظائر عند الزّعماء عبر العالَم، ولكنّ ليس له نظير في الدّمويّة أحدًا!!

الدّنيا دوّارة. غرور. خافضةٌ رافعة. لم يكنْ شخصٌ مثل السّنوسي ليفكّر أنّ الزّمان يدور دورته، أنّ كلّ صعودٍ له هبوط، وأنّ زمنًا أرضى سيتحول إلى زمنٍ يُسخط ولو بعدَ حين.

(٥٧)
من أرجُوحةِ الجنُونِ إلى أنشوطَةِ المَوت

نجحتْ جبهة الكفاح العربيّ في إدخال كميات كبيرة من السلاح لتفجير بعض المباني الأمنيّة للنّظام ومقرّات اللّجان الثّورية . كانت الجبهة تقول : «إنّ العمل السّياسيّ لا ينفع في التّعامل مع هذا النّظام» . تدرّب بعض أعضائها في المغرب والعراق ، تمّ اختراق التنظيم وشُلّت حركته . قبضوا على كثيرٍ من أعضائها ، كان أحمد الثّلثيّ من أبرزهم ، سِيْقَ إلينا في سجن (أبو سليم) كما سِيْقَ من قبله المِئات . معرفتنا بالثّلثيّ كانتْ قديمةً نوعًا ما ، كان ذلك عن طريق زوجته (أمّ عبد القادر) الّتي ساعدت الحاجّ صالح بطرقٍ ذكيّة في إخراج مذكّراته ، وحفظتْ بذلك جزءاً مهمّاً من تاريخ السّجون في ليبيا .

أحمد الثّلثي أحد الّذين استخدمهم السنوسيّ لأهدافه ، كان البشر عنده أهدافًا ، يلعبُ بحيواتهم كما يشاء ، وعليهم أن يخضعوا لِما يُريد وإلاّ فإنّ مصير كلّ معترضٍ هو الموت ، الموت في أقسى أشكاله . ترَكَ الثّلثيّ ابنه جنينًا في بطن أمّه ، ودخل السّجن سنة ١٩٨٦, الرّجل عرض عليه عبد الله السّنوسيّ الّذي كان مُتّهمًا في قضيّة الطّائرة الفرنسيّة (U T A) صفقةً كانتْ ستبدو مقنعةً لو كان الشّخص غير الثّلثيّ ، أرسلتْ فرنسا فريقًا قضائيًا للتّحقيق مع عددٍ من المُشتبه بهم في التّفجير ، وعلى رأسهم السّنوسيّ . قال السّنوسيّ للثّلثيّ : «قُلْ للقاضي الفرنسيّ أنا الّذي فجّرتُ الطّائرة» ، وخُذ مقابل هذا الاعتراف

ما شئتَ من أموالٍ طائلة ، وأعدكَ أنْ تخرج من السّجن حالاً . كان الثّلثي يتفحّص قَسَمات وجه السّنوسيّ ، ربّما بدا له في لحظة أنّه ثعلبٌ مُراوغ ، أو ذئبٌ مفترس ، أو جَلّاد قاسٍ ، لكنّه لم يدرِ في خَلَده أنّه سيواجه وغدًا أو جبانًا . تجاهل السّنوسيّ نظرات الثّلثي ، وأكمل : «الخُطّة مُحكَمة ، المتفجّرات الّتي وجدناها في بيتك هي من مادّة المتفجّرات نفسها الّتي فُجّرتْ بها الطّائرة . إنْ فعلتَ ذلك ، فستكون وطنيًا ، وستشكر لكَ ليبيا بأكملها هذا الصّنيع ، وستُحافظ على هيبتها أمام بلاد الكُفر» . تنحنح الثّلثيّ ليزيل الشّوك الّذي وقف في حلقه ، وهزّ رأسه لينظّفه من الوسخ الّذي سَمِعه ، سأل السّنوسيّ بكلّ جرأة : «هل تظنّ نفسَك رجلاً؟!» . وقع السّؤال على سَمْع السّنوسيّ كالصّاعقة ، لكنّه تجاهله رغم الإهانة العميقة الّتي حملها السّؤال الجارح . رفع نظره إليه ، كانتْ عيْناه قد بدأتا تتحوّلان من ذلك الحَمَل الوديع الّذي كانه في أوائل السّبعينيّات إلى ذلك الوحش الّذي صاره اليوم . لكنّه ظلّ صامتًا . هزّ الثّلثيّ جذعه ليرمي بقنبلته الأخيرة في وجه السّنوسي ، قال وهو يشدّ على الكلمات : «أيّها الجبان ؛ كُنْ رجلاً لمرّة واحدة في حياتك ، قُمتَ بجريمة ، وأنا وأنتَ نعلم أنّك أنتَ الّذي فجّرْتَ الطّائرة ، الهروب من المسؤوليّة جُبنٌ ، تحمّلْ عواقب أفعالك رجلاً دون أنْ ترميها على الآخرين . . . هل تريد أنْ تضحك على الفرنسيّين؟! عندما قمتَ بهذه المجزرة وفجّرْتَ هذه الطّائرة كنتُ أنا في السّجن ، والقضاء الفرنسيّ يعرف ذلك ، فكيفَ ستضحك عليه بطريقة غبيّة كهذه؟!» . نهضَ السّنوسي من مكانه ، صرخ : «لن أنسى لك ذلك ، ماذا تظنّ نفسك؟ أعدُك أنّني سأفصل بيدَيّ هاتين رقبتك عن جسدك» . وخرج . أُعيد الثّلثيّ إلينا . ظلّ وعيد السّنوسيّ غرابًا

ناعقًا فوقَ رأسه إلى أنْ كان ما كان في عام ١٩٩٦م .

كان أحمد الثّلثي رجلاً كريمًا ، وزوجته (أمّ عبد القادر) كانتْ مناضلة ، لا تقلّ عنه جرأةً وشجاعةً وقوّة . كان أبوها ضابطًا كبيرًا في الجوازات . وكانتْ تُهرّب مذكّرات الحاجّ صالح عن طريق السّلال الّتي تُعبّأ فيها أغراض السّجناء ، أو عن طريق الحقائب الّتي تحمل الأكل أو الملابس للسّجناء ، إذْ كانت الرّسالة تُوضَع في قَعرها بعد أنْ يُنزَع الغطاء القماشيّ في الأسفل ، ثُمّ يُعاد تخييطه من جديد ، وفي السّجن تُفكّ الخياطة ، وتُستخرج الأوراق ، أو العكس .

كانتْ من أسرةٍ غنيّة ، وكانتْ تضع في أمانات السّجن مبلغًا من النّقود لزوجها خلال الزّيارة ، وكان المُشرف على الزّيارة أحد الجلاّدين الغلاظ المُجرمين ، مرّتْ أيّامٌ دون أنْ تصل النّقود إلى الثّلثيّ بعد تلك الزّيارة ، فتقدّم بشكوى إلى الآمر ، أنّ نقودًا جاءتْني في الزّيارة الأخيرة ولم تصل إليّ ، فالآمر كلّم المشرف على الزّيارة ، فجاء المشرف السّارق إلى الثّلثيّ ، وقال له : «هذه نهاية الأمر يا أحمد؟ تشكوني إلى الآمر؟ تتّهمني بالسّرقة؟» . فردّ عليه أحمد : «حاشاك ؛ أنتَ ترتكب كلّ الموبقات الممكنة ، إلاّ السّرقة ، يُمكن أنْ تقتل ، يُمكن أنْ تجلد دون رأفة ، يُمكن أنْ تنتهك الأعراض ، يُمكن أنْ تشنق أحدنا في نافذة الزّنزانة ، أمّا سرقة مبلغ بسيطٍ من المال فلا يُمكن أنْ تفعلها» .

قال الثّلثيّ لزوجته : «أنتم لم تُساهموا بالنّضال ضدّ الطّاغية ، فعليكم أنْ تُنشِئوا صندوقًا من أجل إعالة أهل السّجناء المُعوزين ، يُساهم الصّغير والكبير فيه» . وبالفِعل كانتْ تأتيه آلاف الدّنانير ، وكان بمساعدة بعض الحرس يقوم بتوزيعها على الأهل المُحتاجين أمام بوّابة السّجن . أعطاني مرّةً (٤٠٠) دينار ، فقلتُ له : أنا عَزَب ، ولستُ

محتاجًا ، أعطِ هذا المال لعوائل المتزوّجين .

غير أنّ أمر السّجن كان كُلّ يوم هو في شأن . ننجو من أرجوحة الجنون إلى أنشوطة الموت ، ومن صحراء الأماني إلى بلاقع الغياب . فإنْ ولّى الجنون حلّ محلّه سواه ، وإنْ رحلَ الخوف لحظة عاد إلينا بأشكالٍ شتّى من الفزع ، ولم نأمنْ مرّة . لم يكن الجنون وحده الّذي يسرقنا منّا . المرض هو الآخر كان لِصًا محترفًا وإنْ كان أخفى من الجنون ، كان يأتي على دفعات ، متمهّلاً لا يُسارع إلى ضحيّته ، بل يحفر حولها شيئًا فشيئًا حتّى تقع في حفرته . (محمّد المجراب) الأستاذ الجامعيّ الّذي أُخذ من أمام طُلاّبه من الجامعة وقع في حفرته . كان أحد الرّفقاء الخُلّص . كانتْ تصل إليه كميّة لا بأس بها من القهوة خلال الزّيارات ، وكان يخصّني بشيءٍ منها محبّة ومودّة . مرّ في سجننا كما يمرّ الطّيف . كثيرون عبروا السّجن عبورًا ، بعضُهم انتظر حتّى تُفتَح له بوّابة الفرج بالموت أو بانتهاء المحكوميّة ، وبعضُهم أقامَ فيه ليالي وخرج ، آخَرون هربوا ، وغيرهم أعطى ظهره لكلّ شيءٍ وانفصل بالكامل عنّا . أمّا أنا فقد بنيتُ السّجن ، وصنعتُ أبراشه ، وزرعتُ ساحاته ، وربعتُ فيه دون أنْ أتزحزح من مربّع زنزانتي شبرًا واحدًا!

كان (محمّد المجراب) وديعًا مُبتسمًا ، أُصيب بمرض السّكّريّ منذ طفولته وقد تعايش معه طوال تلك السنوات مع ما في ذلك من حرمانٍ من المُشتَهيات ، ونظامٍ غذائيٍّ صارم . أمّا في السّجن فقد أنشب المرض فيه أنيابَه حتّى أعادهُ نحيلاً كالرّمح . لم يكنْ ليأتيه الدّواء إلاّ بعد أنْ تُقتلَع حناجرنا من حلوقنا لكثرة توسّلاتنا ، بالطّبع كان الأكل غير صحي وغير متوازن ويجذب الأمراض جذبًا ، ولا يكاد يفي بالغرض سوى الإبقاء على السجين حيًا يتجرّع مرارة السّجن والموت البطيء ،

أضاف إلى ذلك كلّه داءً وبيلاً؟!

فكيف بمن قبل أنْ يموت بيومَين كان لديه موعد في المستشفى مع أحد الأخصائيّين تحصّلْنا عليه بعد ستّة أشهر من الانتظار، وبالرّغم من ذلك فإنّ الحارس لم يأخذه في الموعد المُحدّد، وأهمله كالعادة فساءت حالته حتّى دخل في غيبوبةٍ. وكُنّا نُقطّر في فمه الماء من أجل أنْ يصحو، أو أنْ نحافظ على خيط الحياة الرّفيع الّذي يصله بعالمَنا من أنْ ينقطع. ولم يكنْ لنا من حِيلةٍ إلاّ أنْ نطرق الأبواب ونستغيث ونستجير، ولكنْ لم يُلقِ أحدٌ من الحرس لنا بالاً، وصرختُ أنا بأعلى صوتي: «يا إلهي...». وكدتُ أجنّ، وأنا أرى النّور في عينَيه يخبو تدريجيًا، والحركة في ترقوته تقلّ حتّى تسكن تمامًا، ونحن نجأر إلى الله أنْ يُبقي على حياته، كلّ شيءٍ في الزّنزانة كان يُوحي بأنّ الموت كان أحدَنا، كان موجودًا بيننا، كان كذلك حقًا، لأنّه حلّ في جسد صاحبنا، وخرجتْ روحه. صار جسمه باردًا فعرفْنا أنّه غادرنا. كانتْ شفتاه تفترّان عن ابتسامة ورديّة، «ما أجمله!» قلتُ؛ في الموت كما في الحياة ظللتَ وديعًا باسمًا جميلاً. قَبّله الحاجّ صالح على جبينه، وتمتم بكلمات خافتاتٍ. ورأيتُ عينَيه تنسكبان.

كدنا نقتلع الأبواب من الطرق حتى جاءنا الحرس وعلموا بالخبر. فأخذوا جُثّته ولفّوها في كيس كما تُؤخذ الأشياء المُهمَلة؛ كان في نظرهم شيئًا، كتلةً من اللحم والعظم لم تعدْ صالحةً أنْ تواصل بقاءها في السّجن، فأخرجوها ليرموها في حفرةٍ دون كرامة، لكنْ أليسَ ثمّة إله يرى ويسمع؟! لقد كان هذا عزاء، وإنْ كان العَزاء فيما نحن فيه من مصيبةٍ لا يكون.

اعترضْنا على الاستهانة بالرّوح البشريّة، احتججْنا على الطّريقة

الّتي يتعامل بها الحَرَسُ معنا ، رفعنا صوتنا عاليًا ، جاءنا (عامر المسلاّني) مُحاطًا بجنوده المسلحين ببنادق الكلاشنكوف وانتشروا في كل الزاوايا . قام فينا مُحاضرًا وهو الذي لا يكاد يفكّ الحرف قائلاً بكثير من الاستهزاء والشّماتة : «يا أصحاب العقائد الفاسدة تعترضون على إرادة الله . الجراب مات ، على مَنْ تعترضون أيّها الفسَقَة الفجَرة؟! ولِمَ تحتجُّون أيّها الجَهَلة المَرَقة؟! وهل بإمكان أحدكم أن يُؤجّل موته لحظةً والموتُ أقربُ إليه من شِراكِ نَعله؟! تكتبون رسائل وتذيّلونها بكلمة سجناء سياسيّين؟ ليس لدينا هنا إلا نزلاء مجرمون أفّاقون» .

وخرج .

لم نَدْرِ ما فعلوا بالجُثّة ، ولم ندرِ أينَ دُفنت؟ نسيان الأموات الأحياء صعب . إنّهم يطلعون لك في كلّ خَلوة . إنّهم يظهرون في كلّ نظرةٍ ساهمة ، طيوفهم تطوف حولك تأبى أنْ ترحل . بعد عشرة أيّام من موت الجراب ، جاءتْ زوجته وأطفاله إلى السّجن ليزوروه ، كانوا قد حصلوا على إذن الزّيارة بعد سنواتٍ من المحاولات المُستميتة . سمحوا لهم أخيرًا . كانت الفرحة في عيون الزّوجة والأولاد ؛ أخيرًا سترى الزّوجة أبا العيال ، وسيرى الأبناء أباهم الّذي لطالما حدّثتْهم الأمّ عن بطولاته . أنْ يرى الابنُ نفسَه في أبيه ، ثُمّ يرى هذا الأب بطلاً ، ثُمّ يعيش مع هذا البطل ويُحادثه فتلك أقصى ما كان يدور في ذهن الصّغار . دخلت الزّوجة مع صِغارها إلى قاعة الزّيارات . وتهيّأتْ لكي ترى الوجه الّذي تاقتْ إليه من سنواتٍ عِجاف ، وتأهّب الصّغار كذلك ليُطلّ عليهم بطلُهم . أبطأت الإدارة في إظهار السّجين ، مرّ الوقتُ بطيئًا يرشح بالقلق . لكنّ الأمر يستحقّ مزيدًا من الانتظار ، أربع سنوات لن يضيرها أنْ يُضافَ إليها أربع ساعاتٍ ، وإنْ كانت السّاعات الأربع

الأخيرة في زمن الانتظار تفوق السّنوات السّابقات كلّها . أخيرًا جاءهم أحد الحرس ، سألها : «زوجك محمّد الجراب؟» . «نعم» . ضحك . نهقهه . نادَى الجَلاّدين الآخرين ، قال لهم وهو يشير إليها وإلى الصّغار : «هؤلاء المساكين جاؤوا ليزوروا الجراب» ضحك ، وتوجّه إلى رفاقه بالسّؤال متندّرًا : «هل يمكن زيارة الأموات؟» . فانفجر الجَلاّدون كلّهم بالضّحك . كاد يُغمَى على الزّوجة ، أرادتْ أنْ تسأل ، أنْ تقول شيئًا ، لكنّ الموقف لم يدعْ لحرفٍ واحدٍ أنْ يخرج من بين الشّفتَين ، اقترب الجلاّد بوجهه منها أكثر : «محمّد الجراب مات من عشرة أيّام . لا يُوجد عندنا أحدٌ بهذا الاسم!!

(٥٨)
العَقِيد

«من أخبر الشّياطين أنّنا في سرت» سأل العقيد . ردّ عليه يونس : «في الفوضى تنتقل الأخبار بشكلٍ أسرع . الشّائعات تتحوّل إلى حقائق . الحقائق تتكفّل يد الأقدار بتنفيذها على الفور» . ضحك منصور : «طائرات الاستطلاع تُحصي علينا كلّ حركة ، إنّهم يعرفون مكاننا بالسّنتميتر» . قَلِق العقيد : «ولماذا لا يقصفوننا» . «سيفعلون» . «متى؟» . «عندما يرون اللّحظة مناسبةً لذلك» . شتمه : «اغرب يا وجه الشّؤم» . لم يتخيّل العقيد أنّ حِوارًا مثل هذا يُمكن أنْ يدور بينهما . اقترب منه عزّ الدّين : «لا تقلق يا سيّدي . الأمور ما زالتْ تحت السّيطرة . السّنوسيّ تكفّل بأهل بنغازي . واجه برشّاشاته هو والجنود البواسل مجموعة الغوغاء الّذين خرجوا إلى الشّوارع ، على جسر جليانة حصد المئات منهم» . «وأين هو عبد الله ، أنا لم أره» . «حالمًا ينتهي من بعض المعارك سيكون هنا معنا ، لا تقلق يا سيّدي ، إنّه من النّوع الّذي لا ينكسر» . زفر العقيد ، أحسّ أنّ الدّائرة الّتي كانت تتمسّح بحذائه بدات تنبح ، بدأت تبول على نفسها ، تخيّل أنّه قريبًا ربّما يبقى وحيدًا . الوحدة أشدّ من القتْل . حدّث نفسه ، وهو يُشيح ببصره بعيدًا عن عزّ الدّين : «لو متّ بين جنودي الأوفياء فسيخفّف ذلك من مرارة الموت ، ما أقسى أنْ تموتَ وحيدًا!!!»

كان الطّوفان البشريّ يجتاح مدن ليبيا كلّها . البلاد كلّها خرجتْ

من تمنعها ، الّذين هربوا من الموت أمس يواجهونه اليوم . لم يعدْ أحدٌ يخاف على شيء ولا من شيء . رائحة الدّم زكمت الأنوف ، الّذين أسقطتهم تلك الرّائحة أمس توقظهم الرّائحة ذاتها اليوم ، ما بين الرّاحتين يتعملق شعبٌ بأكمله يُطالب بالتّغيير . السّيل الّذي يندلق قد يسقي الأرض العطشى ، ولكنّه قد يغرقها أيضاً .

وصل الثّوار إلى سرت ، تحسّس المتحلّقون حول القذّافي أطرافهم . الصّيحات الكريهة الّتي يهتفُ بها جيشٌ هائجٌ من الثّائرين عادتْ تزعجهم من جديد ، وتشقّ سكون سرت الهادئة ، سرت الّتي غادرها من لم يكنْ يريد أنْ يحمي القذّافي من أبناء عائلته ، لكنّ عائلة القذاذفة نفسها ذاقَ بعضُ أفرادها الأمرّين من العقيد ، كيفَ يفدون بأرواحهم قاتلَ أبنائهم!!

اقترح عليه يونس أنْ يحتفلوا بالفاتح من سبتمبر على طريقتهم ، بعد ثلاثة أيّام من وصولهم إلى هنا . كاد العقيد يبكي لمجرّد الاقتراح ، تأوّه مثل قطّ جريح : «لقد كان هذا فيما مضى يا صديقي» . «نستطيع أنْ نحتفل يا سيّدي ولو في مثل هذه الظّروف ، يجب أنْ نقول للعالم إنّنا جئنا إليه ثائرين ولن نخرج منه إلاّ ثائرين» .

مرّ شهرٌ من المواجهات الّتي عمّتْ سرت . مضى أسبوعٌ آخر . لم يجد ذوو القتلى وقتاً لسحب الجُثث من الشّوارع ودَفْنها كيفما اتّفق . المدن الّتي كانتْ تسير فيها الحياة بشكلٍ طبيعيّ أصبحتْ أشبه بالمدن المهجورة الّتي لا يسكن فيها إلاّ اللّيل والخوف .

كانتْ سماء سرت في اللّيل تتحوّل إلى نهار ، القصف لم يتوقّف لحظة . القنابل العنقوديّة تتوزّع مثل قبّة في كلّ اتّجاه وهي تنير الأف الأستار تحتها . قال عزّ الدّين : «إنْ كانوا يعلمون مكاننا فلم يقصفون

كلّ مكان في سرت؟» . ردّ العقيد : «إنّهم يريدون أنْ يتركوها خرابًا ، أنْ يُدمّروا كلّ شيء . قوّات النّاتو تريد أنْ تعيد الحضارة الّتي بنيتُها هنا إلى عصور التّخلّف والهمجيّة . الجبناء لا يقاتلون إلاّ من الجوّ . لو كان فيهم ذرّة واحدةً من الشّجاعة لواجهوا جنودي في الشّوارع . الصّليبيّون استغلّوا نزوات الشّعب وغرائزه في القتل والنّهب فأطلقوا يده ، إنّ الشّعب في هذه اللّحظة يبدو آلةَ قتلٍ بلهاء تحرّكها أيادي الصّليبيّة الخفيّة . . . أوّاه يا شعبي المسكين!!» . أحضر لهم بعض الحرس طعام العشاء . أضاؤوا المكان على إنارة المصابيح اليدويّة . أشاح العقيد بوجهه عن الطّعام : «نفسي تعاف الأكل اليوم . أحسّ بالاختناق أريدُ أنْ أتنفّس قليلاً . سأصعد إلى السّطح» . ردّ يونس : «أيّ ضوء يتسلّل من هنا إلى الخارج قد يُعرّضنا إلى القصف المباشر» . «أأنتَ تقول ذلك يا يونس . نحن نواجه الموت بصدورنا العارية ولا نخاف . لكنّني أشتاقُ أنْ أرى سماء مدينتي الحبيبة . مَنْ شاءَ أنْ يلحقَ بي فَلْيفْعل . ومشى إلى الغرفة الّتي تفتح على الشّرفة ، لم يتبعْه أحدٌ باستثناء حارسٌ يبدو أنّه انضمّ جديدًا إلى مفرزة الحرس الخاصّة بالعقيد . صعد الدّرجات الحديديّة ، نظر باتّجاه السّماء ، كانت ليلة صيفيّة ، لكنّ شيئًا من النّسمات العليلة أنعشه . اجتاح الشّوق قلبه . تابع السّير إلى السّطح ، وقف على السّطح ، وفرد كلتا يديْه ، شعر أنّه تحرّر من قيود ثقيلة كانت تُكبّله ، دار حول نفسه ، في البعيد كانت القنابل ما تزال تسقط مُضيئة أجزاء كبيرة من المدينة ، لحظاتٌ وتُسمَع أصوات انفجارات بعيدة ، على ضوء القنابل السّاقطة تظهر بعض البيوت القصيّة ، كانت تبدو مثل رؤوس جنيّات كبيرة مستسلمةً للأمر الواقع . كان يونس لم يزل يصعد الدّرجات ، حين استوى معه على السّطح ، قال له العقيد :

«ما أشبه اللّيلة بالبارحة!! . «أيّة ليلة سيّدي؟» سأله يونس . «اللّيلة الّتي قضيناها في الصّحراء» . «تلك اللّيلة الّتي غنّينا فيها أشعار المتنبّي والجواهري وأبي تمّام» . «بلى . أتذكر مَن كنتُ أفضّل من الشّعراء؟» . «عمرو بن كلثوم» . «صدقت» . «لقد كنتَ تحفظُ معلّقته عن ظهر قلب» . «صدقت . وأيّ أبياته كانت أحبّ إلى قلبي» . «قوله :

إذا بلغَ الفطامَ لنا صبيٌّ
تخرّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدينا»

اقترب العقيد من يونس ، وأسند جبهته على كتفه ، وقال بصوتٍ مُشبعٍ بالأسى : «فما الّذي جعل كلّ هذا ينتهي كأنّه حلم؟!» .

(٥٩)
أصبح الصَّبح

في آذار من عام ١٩٨٨م قرّر القذّافي أنْ يهدمَ سِجن أبي سليم، ويُحرِّر السّجناء منه، ويُطلِقَ سراحَهم، دوّى صوتُه في عيد سلطة الشّعب، قائلاً: «غدًا تذهبون إلى السّجن وتستقبلون أبناءكم، فقد (أصبح الصّبح) وسنفرج عن الجميع، إلاّ عملاء أمريكيا، فهولاء لا شفاعةَ فيهم». ودعا الآباء والأمّهات إلى الذّهاب إلى السّجون من أجل أنْ يعودوا ومعهم أحبّاءَهم!!

في صباح الثّالث من آذار من ذلك العام جاء القذّافي بنفسه ممتطيًا صهوة جرّافة، وأعمل فمها في جدار السّجن فَهَدَمه، وانهار جدار السّجن، وطُلِبَ من المساجين أنْ يُغادِروا عنابرهم ومهاجعهم، كأنّ الدّولة تعتذر لهم عن كلّ الموت السّابق الّذي سبّبَتْه لهم، لقد آنَ أنْ يعودوا إلى بيوتهم، وأنْ يبدؤوا في العمل من أجل أنْ تنهضَ بلادهم بهم!! هذا ما حدث تمامًا؛ وعليه فإنّ العقيد كان يقول ويفعل!

صباح ذلك اليوم كانت ميكروفونات السّجن وأناشيد الإذاعة والتلفاز تطلق صوتها صادحةً بقصيدة الفيتوري:

أصبح الصّبحُ
فلا السّجنُ ولا السّجّانُ باق
وإذا الفَجْرُ جناحان يرِفّانِ علَيْكْ
وإذا الحُزْنُ الّذي كَحّلَ هاتيكَ المآقِي

وَالَّذِي شَدَّ وَثَاقًا لِوَثَاق
وَالَّذِي بَعْثَرَنَا فِي كُلِّ وَادِي
فَرْحَةٌ نَابِعَةٌ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ يَا بِلَادِي

خرجَ السُّجناء جميعًا ، حوالي خمسة آلاف سجين غادروا زنازينهم كأنَّ ما عانوه من قبلُ لم يكنْ إلاَّ حُلُمًا . استثنى النّظام عملاء أمريكا ، كانوا (١٠٠) سجين ، كنتُ من ضمنهم . «ليس لنا شفاعة» ؛ هكذا قال . جاءنا (عبد الله السّنوسيّ) يوم ٢٩-٢ أي قبل يوم (أصبح الصّبح) بثلاثة أيّام ، جمعوا له كلّ مَنْ في السّجن ، وقف فيهم خطيبًا مزهوًا بنفسه : «القائد ليس سجّانًا ، لو كان أمركم بيد القائد لخرجتم من السّجن منذ سنوات ، ولكننا نحن الّذين كنّا نصرّين أن تبقوا في السّجن!!!» .

مئة سجين هم الّذين لم يشملهم قلب القائد بعفوه ؛ نحنُ وجماعة الجبهة الوطنيّة لإنقاذ ليبيا ، عزلونا نحن المُستَثْنَين عن بقيّة السّجناء في العنبرَين الخامس والسّادس من سجن أبو سليم ، وراحُوا يعدّون العُدّة للإفراج عن نزلائه كلّهم . وطلبوا من كلّ واحدٍ أنْ يكتب كلمة شُكرٍ للقائد بمناسبة هذا العفو الكبير .

في الأوّل من آذار قبل يوم من إعلان العفو على لسان القذّافي ، نقلونا نحن المئة كما لو كنّا صنفًا آخرَ من البشر إلى سجن (عين زارة) حتّى لا نحضر الاحتفال الموعود بالإفراج العظيم ، ولم يُبلّغوا أحدًا من أهلنا أنّنا استُثنينا . في التّرحيل من سجن (أبو سليم) إلى سجن (عين زارة) جرّدونا من كلّ شيء ، ولم ينقلوا معنا وسيلةَ تواصلٍ واحدة ، ولا تلفاز ، ولكنّنا هرّبنا معنا مذياعًا صغيرًا لنتابع الأخبار .

امتلأت منطقة أبو سليم بالأهالي ، كلّ مَنْ له سجين جاء ما لا

يقلّ عن عشرة من ذويه ليفرح بخروجه ، غصّت بهم شوارع طرابلس وأحياؤها ، واندلحوا كالسّيل في طرقاتها ، وتجمّعوا كالبحر أمام سجنها العتيد . آلاف من كلّ حدبٍ وصوبٍ جاؤوا ليحتفلوا مع أبنائهم بالحريّة ، بالطّبع كان أهالينا نحن المئة منهم ، انتظروا النّهار كلّه حتّى عرفوا أنّنا الوحيدون الّذين استُثنينا ، وأنّه لن يُفرَج عنّا ، فأصرّوا ألاّ يعودوا إلاّ بنا ، فسمح لهم النّظام بزيارتنا .

بعد أسبوعَين من (أصبح الصّبح) وتحت مطالبات الأهل ، قرّر النّظام ووعدوهم أنْ يعرضونا نحن المُستثنَين على (لجنة الإفراجات) . جمّعونا أمام مكتب مدير الشّرطة العسكريّة مجموعاتٍ مجموعات . كانت اللّجنة مكوّنة من أركان النّظام ، أتذكّر منهم (عبد الله السّنوسيّ) ، و(خليفة احنيش) ، و(عزّ الدّين الهنشريّ) ، و(خيري خالد) ، و(جميلة دُقمان) ، و(سعيد راشد) ، و(عبد السّلام الزّادمة) ، وآخرين . . . أدخلوا الشّيخ الحامِديّ وكان كفيفًا على اللّجنة ، وعُرض على خليفة احنيش . فقال له : «ما هي قضيّتك؟» . فردّ عليه : «الدّفاع عن الحقّ» . فقال له حنيش : «الله يذهِبْ شِيْرتك . . . أي حقّ هذا الّذي تعرفه وتُدافع عنه ، القائد عفا عنك . تخرج وتبيت مع صغارك» . وخرج . ثُمّ أُدخِل الزّبير على عبد الله السّنوسيّ ، فقال له عبد الله : «اسمك؟» . فردّ عليه : «عبد الله» . «الحكم؟» . «إعدام» . «مقتنع بالحُكم؟» . «مُقتنع» . «ما التّهمة؟» . «محاولة قلب نِظام الحُكم!» «سنرى ما يصير في أمرك» . ومكثَ بعدها الزّبير حوالي ١٤ سنة حتّى كتب الله أنْ يتنسّم نسائم الحريّة .

كان دوري مع الكاجيجي قد حان لنُعرَض على أعضاء اللّجنة ، كان الكاجيجي يُتمتم : «يُثبّت اللهُ الّذين آمنوا بالقولِ الثّابتِ في

الحياة الدُّنيا وفي الآخرة ويُضلّ الله الظّالمين ويفعلُ الله ما يشاء».
نصحتُ الكاجيجي: «يريدون أنْ يستفزّوننا فكنْ حذرًا. علينا أنْ نحسب كلماتنا». فقال لي: «يصير خير يا أخ عليّ». ودخلنا معًا إلى اللّجنة، عُرِض الكاجيجي على سعيد راشد زميله في كلّيّة الهندسة في عام ١٩٧٢، وعلى خيري خالد، وعلى عبد السّلام الزّادمة، كان عبد السّلام هذا مُتخصّصًا في قتْل السّجناء بنفسه وبمسدّسه الخاصّ ودون أيّة محاكمة. بدأ الزّادمة الحديث يريد أنْ يستفزّنا: «هذا أنتم شباب الحزب، هل هذه الأشكال أشكال بشر، تبًا لكم». لم نقلْ كلمةً واحدة، أردفَ عبد الله السّنوسيّ: «لكم في السّجن ١٥ سنة، التّقارير الّتي عندي تقول إنّه لم يتغيّر عليكم شيءٌ طوال هذه المُدّة، ولم تراجعوا أفكاركم، ولم تُغيّروها».
تولّى الزّادمة بعدها التّحقيق، سألنا فردًا فردًا، وبدأ بالكاجيجي، سأله: «اسمك؟». فردّ عليه: «علي الكاجيجي». فسمع الاسم سعيد راشد، فصحتْ ذاكرته، فقال: «يا كاجيجي تتذكّر حواراتنا في كلّيّة الهندسة في عام ١٩٧٢م؟ أنا كنت مقتنع بأفكاري، وأنتَ أين وصلتَ بعد ١٥ سنة؟». فردّ عليه الكاجيجي: «منذ متى كنتَ يا سعيد رجلَ فِكر أو رجلَ ثقافة، ما أنتَ إلاّ ضحلٌ بكلّ شيء... أنتَ رجل حِمار... لم يكنْ أحدٌ في الجامعة يُعطيك قيمة...». فتدخّل حنيش ليقول غاضبًا: «لماذا جئتَ إلى هنا إذًا متوسّلاً الإفراج مستجديًا العفو؟». فردّ عليه الكاجيجي بأنَفَة: «لم أستجدِ أحدًا شيئًا، ولم أتوسّل إلاّ إلى الله، لكنْ يُسأل الّذي أتى بي إلى هنا لا أنا... لم آتِ باختياري؛ أنتم الّذين أحضرتموني إلى هنا». فصرخ خليفة حنيش: «خذوهم حتّى نرى ما يصير في أمرهم».

فخرجنا ، كان قد مرّ علينا يومئذٍ خمسة عشر عامًا في السّجن ، خرجْنا من عند اللّجنة لنمكث بعدها في السّجن ١٥ عامًا أخرى . ونحن خارجون قال لي الكاجيجي : «هل هذه حكومة القذّافي الّتي يُرعب بها العالَم؟!» . فنكّستُ رأسي . فقال : «والله ليسوا عندي أكثر من ذباب ، وصُراخهم ليس أكثر من زَنّ النّحل» .

أفرجوا بعد انتهاء تحقيقات اللّجنة عن (٤٠) سجينًا ، ولم يبقَ إلاّ نحن ؛ (٦٠) قلبًا لم يُكتَب لهم أنْ يروا شمس الحُرّيّة . أعادونا إلى سجن (أبو سليم) ، كان فارغًا تمامًا ، كأنّما هو أثرٌ من آثار القرون الخالية والأمم السّالفة عفا عليه الزّمن ، كان موحِشًا فازداد وحشة ، كان أقلّ رهبةً بمن حلّ فيه ، فصارتْ كلّ لحظةٍ فيه تنضح بالرّهبة . وأصابتْه المحن فخلا من أهله وساكِنيه ، ولم يعدْ يعشّش في زواياه إلاّ البوم والغربان!

(٦٠)
ستنسى كلَّ الآلام

لم تمرّ إلاّ ستّة أشهر على (أصبح الصّبح)، حين رأت الدّولة أنْ تؤنسنا بالمساجين الجدد، كانتْ تعلم أنّ ستّين سجينًا في سجن يتّسع لستّة آلاف سيشعرون بالوَحدة القاتلة؛ ولذلك بدأتْ تبعث إلينا بأفواج جديدة من البشر الّذين صادرتْ حرّيّاتهم.

قال القذافي في إحدى خطبه المسعورة: «يقولون عنّي كافر، ما رأيتُ أشدّ كفرًا منهم، سنرى أيّنا أشدّ عذابًا وأبقى، لقد استغلّوا تسامُحنا وعفوَنا وخوفَنا على أمّهاتنا من اعتقال أبنائهنّ، لقد كان مَثلي ومَثلهم كمثل المتنبّي حين قال:

إذا أنتَ أكرمْتَ الكريمَ ملكْتَهُ

وإنْ أنتَ أكرمْتَ اللّئيم تمرّدَا

وتوعّدَ الشّعب كما لم يتوعّدْه من قبل، فبدأتْ سيول المُعتقلين تطغى على السّجون، وظلّ (أبو سليم) يحتضن القادمين حتّى امتلأ عن بكرةِ أبيه في أقلّ من سنتَين.

كانت سنوات النّصف الأوّل من التّسعينيّات هي السّنوات الّتي شنّ فيها النّظام الحملة الشّرسة على الإسلاميّين، كان يُعتقل أيّ أحد فيه شُبهة من دين غير دين الدّولة، وكانتْ بعض الأفكار المتشدّدة قد تسلّلتْ إلى عقول بعضِ أبناء ليبيا، جزءٌ منها جاء من حربِ أفغانستان، أو من حربِ الشّيشان، أو بسبب صعود السّلفيّة الجهاديّة

من أتباع ابن لادن والظّواهريّ ، وشملت الاعتقالات بسبب المتشددين أناسًا ليس لهم أيّ نشاطٍ دينيّ أو سياسيّ سوى أنّهم يُصلّون الفجر في المسجد أو أنّهم حضروا درس الشّيخ فلان أو علاّن ، أو أنّهم استمعوا إلى أشرطة هذا أو ذاك !! هذا حقًا ما كان يحدث في كثيرٍ من الحالات الّتي قذف بها النّظام إلينا .

ضمّ النّصف الأوّل من عقد التّسعينيّات سجناء تيّار الجهاد ، وجماعة التّكفير والهجرة ، والجماعة السّلفيّة ، وجماعة التّبليغ والدّعوة ، وجماعة الإخوان المسلمين ، قليلٌ من العَلمانيّين .

ومع الأفواج المتدفّقة ، بشكلٍ عشوائيّ ، ومع الإهمال الطّبّيّ ، وقلّة النّظافة بدأت الأمراض تسري بيننا سريان الضّوء في دامسة الظّلام : السّلّ والسّكّريّ والدّرن والتّـقـرّحـات والطّفح الجلديّ والكبد الوبائيّ . . . وعشرات الأمراض الأخرى . كان الدّكتور (أبو زيد) الّذي التحق بنا بسبب وشاية زميلٍ حاسدٍ من زملائه في المستشفى ، إذ كان يكفي النّظام أنْ تقول له عن فُلانٍ إنّه يقول عن القذّافي كافر وإنّ أمّه يهوديّة حتّى تختفي تمامًا ، كان أبو زيد دائم الضّحك والمرح ، مستضرطًا لما حدث ويحدث ، (ضارب الدّنيا بجزمة) كما يقول المصريّون ، كان قد اخترع في الطّبّ اختراعًا لم يسبقْه إليه عمالقة الطّبّ في كلّ العصور ، كان يكشفُ المُصاب بمرض السّكّريّ بطريقة مبتكرة ، يطلب منه أنْ يبول في إناءٍ مُسطّح ، ويترك الإناء تحت المراقبة ، فإذا تجمّع النّمل بكمّيّات حول الإناء قال لصاحب العينة إنّه مُصاب بالسّكّريّ . وكان لحظات مراقبة إناء البول تمرّ بطيئة ، ويكو المريض على أعصابه ، ويتابع كلّ النّمل الموجود في الزّنزانة ، وأحيانًا لا ينام وهو يُفكّر بإناء البول وعدد النّمل الذّاهب إليه ، وكم كان يفرح إذا مر

يمان وقال له الطَّبيب (أبو زيد) وهو يضرب بيده على صدره:
«حصان . . . لا مرض ولا حاجة».

غير أنّ الموت لا يعرفُ المرض، ولا يعنيه منه شيء، ولا يُفرّق إنْ مشى الهُوينى باتّجاه صاحبه إنْ كان صاحبه هذا مريضًا أم لا. كان يخطفُ صيده دون تفريقٍ بين صحيح الجسم أو عليل. كان أحيانًا يدير صفحة وجهه عن الّذين ظلّوا يُحتَضرون أشهرًا، ويطيب له أنْ يرافق الأصحاء، أولئك الّذين ملؤوا لنا أجواء السّجن الكئيبة فُكاهةً ومرحًا.

كان (سليمان جمعة) يعيش في زنزانة واحدةٍ مع (صالح العلاّقي)، الّذي ظلّ يُحتَضَر لمدّة شهرين، وكانوا يُقطِّرون في فمه في لحظات النّزع الأخير وينتظرون أنْ يسمعوا نعيه في أيّة لحظة. وكان سليمان قويًا. وكان يُساعد الحرس في توزيع الطَّعام على السّجن، وألحقنا به تسميتهم، فكُنّا نسمّيه (ابن الشّعب)، وكان خدومًا. كان ذلك يوم خميس حين كان صائمًا، وكان يوزع مع الحرس لحم الدّجاج، فأنا وقفتُ على توزيع الطَّعام، وكنتُ أمزح معه، فقلتُ له: يا خالي سليمان اليوم حمام. وقال مبتسمًا وسعيدًا: «حمام إيه حمام». فقلتُ له: «ولكنّك صائم». فردّ: «لا تخف يا عليّ، سأخبئ نصيبي منه إلى وقت الإفطار». فقلتُ: «سمعتُ أنك ستخرج من السّجن». «نعم». «متى؟». «ثلاثة أيام وأخرج، لقد أنهيتُ محكوميّتي». «كم بقيت في السّجن؟». «١٧ سنة يا عليّ. تخيّل يا صديقي . . . تبدو طويلةً أليس كذلك؟ على أيّة حال لقد مرّتْ بكلّ ما فيها من تعب، ولكن الحمد لله. الفرج صار قريبًا. الحرّيّة صارتْ على الأبواب. ثلاثة أيام وأخرج. أحسّ أنّ هذه الأيام الثّلاثة أطول من ١٧ سنة يا عليّ». ربّتُّ على كتفيه، عانقتُه. «حين تخرج ستنسى كلّ

الآلام يا صديقي» قلتُ له . أعطاني صحني ودخلنا إلى الحجرات . وأغلق علينا الحرس الأبواب . كان يوم خميس ، صلّى صلاة الظّهر بعد أنْ أتمّ توزيع الطّعام ، تمدّد على السّرير ، كان عنده ختمة للقرآن ، أكمل ختمته ، وارتاح قليلاً ، وجاء وقت صلاة العصر ، راح زملاؤه في الزّنزانة يُوقظونه للصلاة ، فوجدوه ميّتًا . طرقوا الأبواب ، فسمعْنا نحن النّازلين في زنازين أخرى طرق الأبواب فاعتقدْنا أنّ الّذي مات هو (صالح العلاّقي) لأنّه كان يُحتَضَر منذ شهرَين ، في الصّباح عندما فتحوا الأبواب رأينا (صالح العلاّقي) سليمًا يمشي في السّاحة كأنّ شيئًا لم يحدث ، فارتعبْنا ، وكنّا نظنّ أنّه هو الّذي مات ، وعلمْنا حينئذ أنّ سليمان جمعة هو الّذي كان قد رحل ، كان سيخرج من السّجن إلى الدّنيا ، إلى أهله ، فخرج إلى الآخرة ، إلى أهلٍ آخرين . رحل صائمًا ، وقال لي : «إنّه خبّأ إفطاره ، وإنّه سيتناوله» . تُرى أينَ أفطر ، وماذا قدّموا له أنئذ!!

(٦١)
المطبخ

عنابر السّجن امتلأتْ بالإسلاميّين . تراجعت القضايا الأخرى لصالح هذه الأفواج . كان ما تبقّى من البعثيّين والقوميّين والتروتسكيّين والشّيوعيّين وحزب التّحرير وغيرهم لا يتعدّى العشرات ، أمّا الإسلاميّون الّذين ينتمي أكثرهم إلى الإسلام الرّاديكاليّ فكانوا منذ منتصف التّسعينيّات تعجّ بهم كافّة السّجون ، وكانوا في سجن (أبو سليم) يشكّلون أكثر من ٩٠٪ من ساكنيه ، وكانوا بالآلاف .

وفد إلينا (حسين) منذ ثلاث سنوات ، التحقَ في ظرف لا أدريه بالمطبخ ، صار يُعدّ الطّعام للمساجين . كان طبّاخًا ماهرًا . أعني صار كذلك . كان يملأ الطّناجر العملاقة بالأكل لكي يأتي كلّ واحد من (ابن الشّعب) ويأخذ عربته ، كلّ عربة خاصّة بهجع ، كانوا أكثر من عشرة يقومون بتوزيع الطّعام على العنابر . كان معه في المطبخ آخرون بالطّبع . نوافذ المطبخ الأماميّة تُطلّ من زاوية حادّة على عنابر السّجن المركزيّ أحد فرعَي سجن (أبو سليم) . كانتْ إدارة السّجن في الزّاوية اليُمنى للمدخل ، والمطبخ في الزّاوية اليُسرى منه . وكان (حسين) يستطيع أنْ يرى التّحركات الّتي تحدث في الإدارة ، وتلك الّتي تحدث على الأقل في العنابر الأربعة الأولى الّتي تقابله . كان المطبخ هو النافذةَ الّتي أطلّ (حسين) من خلالها على أحداث كثيرة صنعت تاريخَ السّجن وتاريخَنا . كان بإمكانه من هنا أنْ يرى السّيّارات الّتي

تحمل المساجين الجدد ، أو الّتي تخرج بهم إما إلى أروقة المحاكم أو إلى الإفراجات أو الإعدامات على حدّ سواء . وكان من موقعه يستطيع أنْ يرى كلّ يوم (عامر الملاّتي) وهو داخل بكامل سلطته إلى قسم الإدارة ، ويرى كذلك (بوشعالة) ، وضبّاطًا آخرين . وفي الأيّام الاستثنائيّة ؛ أيّام الاضطرابات على سبيل المثال كان يُمكنه أنْ يرى عددًا من أركان النّظام وهم يترجّلون من سيّاراتهم الفارهة ، والحرس يخبطون الأرض بمساطيرهم ويؤدّون التّحيّة لهم ، وقد جاؤوا لمعالجة تلك الاضطرابات بمزيد من القمع والتّضييق ، أو حلول أخرى كانت تبدو غريبة وكارثيّة في آنٍ واحد ، كما كان بإمكانه أنْ يسمع على الأقلّ عشر روايات من تلك الّتي يتلفّظ بها الحرس (أبناء الشّعب) ممّا سمعوه من قادتهم ، كان (أبناء الشّعب) يتداورون في القدوم إلى المطبخ لكي يسوقوا عربات الطّعام إلى العنابر كلّها . لقد كان المطبخ اسمًا على مُسمّى ، كان في تلك الأيّام أهمّ من الإدارة نفسها ، منه كان يرى كلّ الطّبخات الّتي تُعدّ للمساجين ، بل تلك الّتي تُعدّ لليبيا بأكملها! كان منبع أخبار ، ومُستودَع أسرار ، وإنْ كان يُصيبه ما يُصيب المطابخ السّياسيّة الأخرى من تهويل أو مُبالغة أو انتشارٍ للشّائعات أحيانًا ، ولكنّه كان أوثق مصدرٍ للمعلومات ممكنٍ يومئذ!

أُودع (حسين) في العنبر رقم (٢) ، وهو العنبر الأقرب إلى المطبخ ، وهو كذلك قريبٌ جدًا من ملعب السّجن ، الملعب الّذي لم يكنْ ليخرج إليه أحدٌ ، وهو ساحة مستطيلة يزيد عرضُها عن ثلاثين مترًا ، وطولها عن ستّين مترًا ، وتقع خارج سور العنابر (٢ ، ٤ ، ٦ ، ٨) على يسارها .

تعرّض (حسين) لمراحل من التّعذيب الشّديد . نجا من الموت فيها

جميعًا، وإنْ خرج ببعضِ الآثار الّتي لا يمحوها الزمن. فقد قُطعتْ إحدى أذنيه. لكنّه تعافى حينَ استطاع أنْ يشعر بتلك الفرح الغامر وهو يُعدّ الطّعام للمساجين. شيءٌ من الفرح الدّاخلي يجعل أيّام السّجن تمرّ سريعًا. لم يكنْ قبل السّجن يعرفُ في الطّبخ شيئًا. هنا تغيّر تمامًا. أو قُل إنّ قدرة السّجين على أنْ يتحوّل إلى طبّاخ في السّجن ليس أمرًا شديد الصّعوبة؛ كانت القاعدة الرّئيسيّة في الطّبخ الّتي علّمته إيّاها الإدارة: «ألقِ كلّ ما لديك من موادّ في كلّ ما لديك من طناجر، وأوقد تحتها النّار؛ السّجناء يأكلون من الجوع حتّى الحجارة فلا تخفْ عليهم». كان يفعل هذا في البداية، يمتثل لما أُمر بها. لكنّه في الأيّام الّتي كان يقدر فيها على أنْ يُحسّن نوعية الطّعام كان يفعل. كان يشعر حينَ يطبخ أنّه يطبخ لنفسه. في عهده رأينا بعض الأكلات الطّيّبة الّتي كانتْ حلمًا فيما مضى. رأينا الحمام، والدّجاج، والملوخيّة، والأرزّ غير المُعجّن، وغيرها... غير أنه إذا نقص الطّعام، أو كان رديئًا مليئًا بالأتربة، فكُنّا نعرف أنّ (حسين) لم يملك حيلةً في ذلك اليوم لكي يأتينا بطعام جيّد!

كان قد مضى عليّ في السّجن عشرون عامًا. عقْدان بكلّ ما فيهما قضيتُها بين الجدران. لم تمرّ لحظةٌ واحدةٌ دون أنْ أشعر بها، بطولها وعرضها، بمراراتها، بآلامها، بآمالها، بفرحها، بحزنها، بالضّيق الّذي يُفجّر الضّلوع أحيانًا، والفرج الّذي يُسرّي عن القلب أحيانًا أخرى... لا تُصدّقوا أنّ السّجين يعدّ الأيّام هكذا، ولا تصدّقوا أنّ هذه الأيّام تمرّ مرور الكرام، ما من ساعة ما من دقيقة ما من ثانية إلاّ وكان لها وقْعها على النّفس، وطعمُها في القلب، وأثرها في الرّوح. اللّحظة في السّجن تمرّ بأوجع من اللحظات خارجه، وأدوَم، وأعمق.

المشاعر في السّجن تتعتّق، تتكثّف، تشعر بكلّ شيءٍ وفي كلّ حين.
كلّ شيءٍ يبدو مختلفًا، إنّها عشرون عامًا من كلّ شيءٍ بكلّ ثانية فيها، إنّها لم تمرّ كما لو مرّتْ ظِباء في أجَمة، ولا خيولٌ في ساحة، ولا طيورٌ في روض، لقد مرّتْ كأنّها سلحفاةٌ مريضةٌ تمشي بأبطأ ممّا تمشي في العادة على أرضٍ مليئةٍ بالشّوك والدّمع والبُكاء والأسى، وليس لها نهاية!!

(٦٢)
العقَيد

«أريدُ أنْ أخرج من هنا . لم أُخلَق لكي أقيَّد كالعبيد . أنا آخر الأحرار في وطني . ليبيا كلّها مِلْك لي ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يمنعني من أنْ أتجوّل فيها . أنا سيّد الأباطرة العِظام فَمَنْ يهزمني؟! أنا ملك ملوك أفريقيا . أنا خليفة الله في الأرض . أنا القاضي بأمر الله . أنا سلطانُه الّذي لا يزول . وظِله الظّليل . ويده الّتي يبطش بها . . . أنا . . .» . نفضَ يدَيه بعصبيّة . كان لا يزال يصرخ حينَ هُرِعوا إليه : «أنا النّخلة الّتي لا تنحني . سأخرج إلى حبيبتي سرت . سأمشي في شوراعها الّتي مشيتُها وأنا فتى . وسأجوب طرقاتها الّتي جُبتها وأنا غلام . وسأقتل كلّ مَنْ يقف في وجهي كما فعلتُ دائمًا . سأخرج الآن ؛ مَنْ يمنعني عمّا أريد؟!!» . رجاه يونس : «ستُقتَل في أيّة لحظة» . «سأموتُ شهيدًا» ردّ عليه ، ثُمّ تابع : «هل تظنّني جبانًا؟!» . تدخّل منصور : «سيأتينا المعتصم ببعض الأخبار عن الجبهات الأخرى . السّنوسيّ يقاتل بشكلٍ جيّد يا سيّدي على جبهة طرابلس وجبهة . . .» . قاطعه : «طرابلس سقطتْ بيد الغوغائيّين يا كلب . حذارِ أنْ تخدعني» . تابع منصور كأنّه لم يسمع الشّتيمة : «وجبهة بنغازي ، وبقيّة الجبهات مع قادة آخرين ، قال إنّه سيلتحق بنا في هذا القاطع . دَعْنا ننتظرْه ونسمع منه . لعلّه يملك صورةً أفضل من تلك الّتي نملكها» . قال عزّ الدّين : «سيّدي أعدك أنْ نخرج وسنخرج معك . لكن

دعنا ننتظر السّنوسيّ كما قال منصور». نظر إليهم جميعًا، قلّب نظره بينهم: «جُبناء. كلّكم جبناء. أنا لم أعشْ إلى هذه اللّحظة لكي أحيط نفسي بالجُبناء». وصعد إلى غرفته وهو يبصق.

جلسَ على حافّة السّرير، قلّب نظره في أرجاء الغرفة، سرح. نقلتْه الذكرى إلى رومانيا، عندما خرج في رحلة صيد إلى إحدى الغابات هناك، رفع يديه أمام وجهه، نظر فيهما مليًا، استعاد المشهد بصورةٍ أدقّ، لقد ذبح غزالاً في ذلك اليوم، وشقّ صدره، ثُمّ نزعَ قلبه من تجويف صدره، وراح يمسح يديه بدمائه الحارّة المتدفّقة منه، سألَه يومَها أحد مرافقيه وقد أرعبه المنظر: «لماذا تغسل يديك بالدّم الوَسخ؟» فقال: أيّها الغِرّ؛ أنتَ لا تعرف فوائد غسل اليدَين بالدّم وهو ساخن، إنّه يحميك من الشّياطين، ويجعلك أقوى» وغمز بعينيه: «أقوى في كلّ شيءٍ حتّى في الفِراش، هكذا قالتْ مبروكة». نظر إلى يدَيه، قلّبهما أمام عينَيه، كانتْ عروقهما قد بدأتا تنفران، كانتا ظاهرتَين بشكلٍ جليّ: «أهو الهرَم؟!» همس لنفسه؛ «آه لو كان هنا غزالٌ لكي أتعمّد بدمه، لكنْ أيّ غزال يُمكن أنْ يُشبع تَوقي وأستعيد به شبابي؟!». نفضَ يديه، وهزّ رأسه. أزاح الذّكرى جانبًا وقام يمشي في الغرفة. اقتربَ من أحد الجدران، كان الغبار يُغطّيه، تراءى له من تحت الغبار أنّ هناكَ رسمًا ما، نفخَ عليه، فطار الغبار فغشّى على عينيه، ودخل في أنفه، أزاحه عن عينَيه، وحدّق في الجدار، كان الجدار يحمل رَسْمًا قديمًا يبدو أنّ طفلةً خربشتْه، ولم ينظّفه أحدٌ من بعدها؛ شمسٌ ساطعةٌ في السّماء من تحتها بيتٌ نصفه مُهدّم، والبحر يبتلع النّصف السّليم. فكّر ماذا يمكن أنْ تكون الشّمس أو البيت أو البحر، ضاع بين الثّلاثة، وصمت، اختار أنْ يكون البحر؛ الشّمس تغيب،

البيت يُغطي عليه الزّمن ، ولكنّ البحر يبتلع كلّ شيء .

عادَ إلى السرير ، حدّق في نقوش الوِسادة ، كانتْ نقوشًا خضراء لنخلة شامخة تمدّ عذوقَها كقبّة . لم يكنْ فيها ما يلفت الانتباه ، غاص من خلفِ النّخلة ، تخيّل نفسه قائدًا رومانيًا يأمر بالقتال ، عمّا قريب سيركب عربته مثل (ماركوس أوريليوس) ، وسينتصر ، وسيفلسف انتصاره في تأمّلاته ، وسيهتف وسط الجماهير : «المجدُ للثورة . . . المجدُ لليبيا . . . المجد لي» . رمى بنفسه على السّرير ، مدّد رجلَيه ، وأراحَ رأسه على الوسادَة . ووضع يُمناه تحتها ، أحسّ أنْ تحت يده شيئًا ما بارزًا من أسفل الفَرْشة ، تحسّسه ليتأكّد ، بدا له أنّه شيءٌ صلب ، اعتدل من نومه ، أزاح الوسادة ورفع الفرْشة ، نعم ، كان هناك صندوق صغير من الخشب القديم ، فتحه بحذر ، في الصّندوق رأى ورقةً مطويّةً ، رفعها من الصّندوق ، فرأى سِوارًا ذهبيًا ، رفعه أمام ناظرَيه ، بدا أمام الذّهب الّذي كان يملكه تافهًا لا قيمةَ له ، كان يُمكن أنْ يهب ألفَ واحد من هذا السّوار لخمسين من محظيّاته في يوم واحدٍ . دقّق النّظر في السّوار ، لمع الذّهبُ على ضوء المصباح المعلّق فيْ السّقف . نظر إلى الجزء الدّاخلي من السّوار ، كان محفورًا عليه اسمان (عائشة وخالد) بينهما قلبُ حبّ ، تذكّر ابنته عائشة فاضطرب ، تمثّلتْ صورتها أمامه فخفق قلبُه ، تمنّى لو أنّه يستطيع أنْ يحضنها لحظةً واحدة ، مرّةً أخيرةً ، قبل أنْ ينتهي هذا الوجود ، أنْ يراها ولو من بعيد يسوقُها قَدَرُها خارجةً من موطنها الّذي أحبّها ، وأمام عينَي أبيها المُتيّم بها حدّ الجنون ، كانتْ قد غادرتْ إلى الجزائر مع بقيّة نساء العائلة . «هل يعاملونها بشكلٍ جيّد هناك؟! هل تحظى بما تحظى به الأميرات كما كانتْ عند أبيها؟! أمْ أنّ الملاعين يعاملونها كهاربة من الحرب ، أو كمُهاجرةٍ أو شريدة . اللعنة

عليهم إنْ فعلوا ، ألا يعلمون أنّها ابنة أعظم رجلٍ في التّاريخ ، ألا يعلمون أنّها ابنة القذّافي» . أعاد السّوار إلى مكانه ، وتناول الورقة المطويّة ، كان يبدو أنّها رسالة ، قرأ فيها الكلمات الآتية : «إلى حبيبة القلب عائشة ، هديّة عيد زواجكما . اهتمّي به عيّوش ، وأحبّيه كوطن» كان يبدو من التّاريخ في أسفل الرّسالة ٢٥-١٠ أنّهما لم يتزوّجا بعد . وتحت التّاريخ كان توقيع الأمّ . أصابته كلمة الأمّ «وأحبّيه كوطن» بمقتل . لم يُحبّه أحدٌ على هذا النّحو . أعادَ الرّسالة إلى الصّندوق ، وأعاد الصّندوق إلى مكانه ، واستلقى واضعًا كفّه اليُمنى تحت خدّه ، وغطّ في النّوم . من بعيدٍ كانتْ أصوات الانفجارات تدوّي . وضوؤها يرسم لمعانًا يخترق بعضَ الشّروخ في جوانب النّافذة ليلقي بظلاله على جدران الغرفة .

(٦٣)
بشير الزّعلوك

بشير الزّعلوك ؛ الفتى العربيّ الأصيل ، ذو الطلّة البهيّة ، والقلب المرح ، والضّحكة الرّائعة ، والرّوح المحلّقة ، عرفتُه أوّل ما دخل إلى هنا .
في شهر إبريل من عام ١٩٩٥م ، الشّهر الّذي اتّخذ منه القذّافي عيدًا لكي يقتل ويسجن ويذبح ويعتدي على الحُرُمات بدعوى الحفاظ على الأمن ومحاربة المُرتَزِقة والمُرتدّين . بشير صنفٌ آخر من البشر . ملاكٌ هبطَ من السّماء . جاءَ ليُساند الحاجّ صالح في مهمّته الرّساليّة ؛ المسح بيدٍ من حنانٍ على قلوب الموجوعين . والابتِسام في وجوه المُعذّبين ، وسَرْد حكايا الصّبر للقانطين . كان بشير للموجوعين وعدَ الشّفاء ، ولليائسين وعد الأمل ، وللمحرومين وعدَ العَطاء . كان لا يراه أحدٌ إلاّ ابتسم ، ولا ينظر في عينَيه أحدٌ إلا ارتاح .

حينَ زُجَّ به معنا في سجن (أبو سليم) ضمن الإسلاميّين الّذين حصدتْهم آلة النّظام من كلّ أرجاء ليبيا اندمج معنا على الفور . رجلٌ يألفُ ويُؤلَف .

كان (بشير) يومَ سجنه ذاهبًا إلى عمله كالمعتاد ، وكان يعمل في مصنع الحديد والصّلب في (مصراتة) ، مضى اليوم عاديًا مثل باقي الأيّام ، العاصفة تهبّ فجأة . الغيب لا يعلمه إلاّ الله . المستقبل مجهول وغامض مثل مستقبل البشريّة اليوم الّتي لا تدري إلى أين تسير .

كانوا ينتظرونه في الخارج . الوحوش المتفننة في خنق البلابل . الجراد الذي لا يترك خلفه الأرض إلاّ خرابًا ؛ كانوا عشرات من المدججين بالسلاح ألقوا القبضَ عليه . في بيته كانت الزوجة وأولاده الثلاثة ينتظرونه على طعام الغداء . أعدّت الأمّ الطعام ونضّدته على المائدة ، وانتظرتْ مع فاطمة التي كان عمرها يومئذ أربع سنوات ، ومحمّد سنتين ونصف ، وبراءة أربعة أشهر فقط . طال الانتظار ، والطعام بدأ يبرد . لكنّه لا يُؤكل دون ربّ البيت ، ولا يُستساغ دون أنْ يبدأ هو به . خرجت ابنته فاطمة إلى الباب الخارجيّ تنظر إنْ كان أبوها قد عادَ أمْ لا . الطريق إلى الباب الخارجي بدتْ يومئذٍ موحشة ، ساكنة ، كأنّ أهلها غابوا عنها سنينَ سحيقة . في الداخل كان القلق يتصاعد في قلب الأمّ ، شيءٌ ما قال لها إنّ مكروهًا قد أصابه ، القلب لا يعرف الحقيقة الكاملة ولكنّه يُحسّ بها تمام الإحساس . لن يعود أبو العيال اليوم . وربّما لن يعودَ أبدًا .

كانتْ فاطمة ما تزال بالرّغم من مرور السّاعات الطّوال ، تنظر من شقوق الباب ، من قلبِها المتلهّف إلى رؤية الأب الغائب ، لكنّ الغياب الّذي يطول انتظاره يتحوّل إلى موت مُقسّط .

سألت الأمّ كلّ أحدٍ يعرفُ (بشيرًا) عنه ، لكنّ مَنْ كان معه في العمل قال إنّه أنهى عمله وخرج بشكلٍ عاديّ . توسّعت دائرة البحث ؛ جاء الأعمام والأخوال إلى البيت ، راحوا يجهدون في البحث عن الغائب ، لم يكنْ وحده شاهد الغياب ، كانتْ الحريّات تشهد ذلك ، والحقّ ، والعدل ، كان الكون بأكمله يسير إلى الغياب ، حولّتْ القبضة الأمنيّة المتسلّطة ليبيا إلى غرفة مُحكمة الإغلاق خارجةٍ عن التّاريخ . بدؤوا يبحثون في المستشفيات ، في الطّرقات ، في

المحدود ، . . . كان الغياب حاضِرًا في كلّ شيء . في المساء جاءتْ قوة أمنيّة كبيرة بكامل عتادهم ليفتّشوا البيت ، عرفنا حينئذ المحنة الّتي حلّتْ بنا . فتّشوا كلّ شيء في البيت ، كانوا يبحثون عن أصدقاء لأبي في الزّوايا وخلف الأرفف ، وتحت الفِراش ، قال أحدهم : «لا بُدّ من هدْم البيت» . لم يفعلوا ذلك أوّل مرّة ، من قبلُ هدموا بيوت آخرين ، شيءٌ من القمع والقَهر لم تفعلْه أكثر الدّول عنصريّة واستبدادًا .

هنا ، معنا في هذا المنفى الاضطِراريّ الكبير ، الوطن داخل الوطن ، الحريّة داخل القَيد ، كان (بشير) يصنع الفَرق . أنا خبرتُ السّجن قبلَ أنْ يأتي بأكثر من عشرين عامًا ، كانتْ فيه تقلّبات كثيرة ، ولكنّ فيه فترات انفِراج ، كان حظّ (بشير) وأصدقائه من الإسلاميّين الجُدُد أنّهم جاؤوا في الوقت الّذي كان فيه الجوع أشدّ ما يكون فتكًا ، والأمراض أشدّ ما يكون انتشارًا ، والبُؤس أشدّ ما يكون استحواذًا . كان عصره أشدّ ظلمةً من كلّ العصور السّابقة ، لكنّه ومع حداثة عَهده بالسّجن ، حاول أنْ يزرع الورد في القلوب المتصحّرة ، حاول أنْ يُغيّر ، كانتْ حركته الدّائبة ، وابتسامته المُشرقة ، وصبره الطّويل ، وحِلمه الأطول قد ساعدتْ على مواجهة المرارة والحموضة والعفونة الّتي يرشح بها السّجن يومئذ . كانت الأفواج المتدفّقة إلى السّجن لا يُمكن التّنبّؤ بها ؛ لكثرتها ، لامتدادها ، كأنّ السّلطة عزمتْ على أنْ تزرع في كلّ بوصة في سجن (أبو سليم) سجينًا . آلاف مؤلّفة ، لا ندري كيف اتسع لهم السّجن ، مع أنّه أضخم سجن في ليبيا على الإطلاق ، بقسماه المركزيّ والعسكريّ بعنابره السّتّة عشر قد امتلأ عن بكرة أبيه . كان القذّافي يومَها أشدّ فترات حكمه غضبًا وانفجارًا . أشاع الجِهاديّون الّذين عجّ بهم السّجن أنّه كافر ومنكر للسّنّة وأنّ أمّه يهوديّة ، وأنّه

يهين الأنبياء والذّات الإلهيّة ، فأقسم على أنْ يجعل أجسادهم تتعفّن في السّجن ، وعظامهم ترّم فيه . ووفدَ إلينا أصحابُ قصص كثيرةٍ يُخالط بعضها الخيال لغرابتها ، ولقسوة التّعامل معها .

كانَ معنا أيضًا (عزيز) ، الشّيخ المُتنوّر . الّذي عمل على أنْ يقلّص الخلافات بين الجماعات الإسلاميّة إلى أبعد الحدود . كانت الخلافات الّتي تنشب تُهيّج الجميع ، كنتُ أراها أسوأ من المؤبّد . إذا كان السّجن لم يؤدّبنا ، ولم يعرّفنا أدب الحوار مع الآخر والقَبول به ، فأيّ مكانٍ آخر سيفعل!! كنتُ أستغربُ من أولئك الّذين يتناحَرون وهم لم يبلغوا من العلم شيئًا .

كان بعض السُّجناء من متشدّدي الجهاديّين والتّكفيريّين لا يأكل قطعة اللّحم الّتي ربّما تأتيه في الشّهر أو الشهرَين مرّة واحدة ، بدعوى أنّ الّذي قام بالذّبح للعجل أو الخروف ليسَ مسلمًا . كان الحرس يجهلون سبب الرّفض في البداية ويستغربون من السّجناء الّذين بدل أنْ يفرحوا ويُهلّلوا لقطعة اللّحم راحوا يرفضونها ، وحينَ علموا أنّ السّبب هو أنّ الذّابح لهذا اللّحم كافرٌ ، انهالوا عليهم بالعصيّ والهراوات والسّياط في كلّ جانبٍ . الغريب أنّ هذا التّعذيب زاد هذا الصّنف من المساجين إصرارًا على موقفهم ، وأنّهم على الصّواب والحقّ ، وأنّ ما حدث لهم كان ابتلاءً من الله ليمتحن صبرهم وثباتهم ؛ فالجنّة غاليةٌ كما كانوا يقولون!!

كان النّقاش بين الإسلاميّين المُتشدّدين يصل إلى الشّتائم ، وإلى القذف في النّار ، وإلى استحلال الدّم ، لقد شهدتُ معركةً ذات مرّة بين هؤلاء الإسلاميّين الّذين لم يحتمل بعضُهم بعضًا ، فقام العراك بينهم بالأيدي ، وتطوّر الأمر إلى الرّكل واللّطم والصّفع والضّرب بكلّ ما

يستطيعون ، ورأيتُ وجوهًا تنزف ، وصدورًا تُمزّق ، ودماء تسيل تغطي الساحة والجُدران ، وعجبتُ تمام العجب من أنّ هذا يحدث بيننا ، وكان الحرس مسرورين لما يحدث ، يراقبون المعركة من بعيد ولا يتدخلون ، وفوهات بنادقهم مصوّبة نحونا للسّيطرة على الأمر إذا زاد عن حدّه . وحين أمرونا أنْ ندخل إلى زنازيننا ، انجلى الأمر ، ودخل المتعاركون ، وهالني كميّات الدّمّ الّتي تركوها خلفهم ، لتُشير إلى مدى البغض والكراهية الّذي يحمله الواحد للآخر . جاء (بشير) فقلّل من حدوث ذلك ، وسانده (عزيز) ، فراحت الأمور تصفو بيننا ، أمّا نحن والحاجّ صالح ، فكانوا يحترمون آراءنا ونصائحنا لطول مُكثنا في السّجن ، ولسنّنا الّتي كان قد مرّ علينا يومئذ ثلاثة وعشرون عامًا في السّجون!!

جاؤوا مرّة في منتصف التّسعينيّات بشخص ليس له علاقة بالدّين ، على خلاف الّذين كانوا يُحاكَمون آنئذ ، يبدو متشرّدًا ، وقد حُكِمَ عليه بالمؤبّد . كان يهذي ويضحك . قال له عزيز الّذي كان يُجاورنا في الجلسة : «الحُرّاس يسمعونك . لستَ في حاجة لأنْ تُعاقَب بتعليقك من رجلَيك» . ردّ عليه وهو يواصل ضحكه : «هل بعد السّجن عقوبة؟!» . «لماذا جاؤوا بك إلى هنا؟!» . «زوّقت كلب بالأخضر وأطلقته ، ألم يروا في حياتهم كلبًا ملوّنا بالأخضر يعوي في الشّوارع!» . «هل حكموا عليك بالمؤبّد لإهانتك الكلب أم اللّون الأخضر؟!» . «يا ودّي خيرك ، تهمتي إهانة ذات القائد من خلال إهانة لونه الأخضر . كيف عرفوا أنّني كنتُ أقصد ذلك . هل يُحاسبون على ما في الضّمير؟!» . «كم حكموا عليك؟» . «السّجن المؤبّد» . «الله المستعان» . «لا ما تخافش الحمد لله مَسكوني سكران!!» . فقال له عزيز : «صحّة . . . صحّة . . . الحمد لله أنّكَ لم تُهِنِ القائد!!» .

(٦٤)
الأسوأ لم يأتِ بعدُ

منذ أواخر عام ١٩٩٥م ، حينَ لم يعدْ في السّجن موطئ قدم إلاّ وزُجّ بسجينٍ فيه ، كُنّا قد صرنا نأكل عشب الأرض . ليس على سبيل المجاز ، بل على الحقيقة التّامّة ، كُنّا نطوف في لحظات الخروج إلى الأريا ، في زواياها نبحثُ عن عشبٍ ولو كان يابِسًا أو شوكًا من أجل أنْ نقضمه . بدا أنّ الجوع في هذا العام سينزع أرواحَ بعضِنا من أجسادهم . لم أكنْ لأتخيّل أنّ عددًا منّا سيموت بسبب الجوع ، كان يُمكن أنْ ننحل إلى حدّ كبير ، أنْ تذوي أجسادُنا ، أنْ يُقعدنا الجوع فلا نستطيع الحركة ، أمّا أنْ نموت جوعًا فقد كان هذا الأمر قبل هذه السّنة خيالاً ، وأصبح في نهايتها واقِعًا حقيقيًا!!

كان (بشير) يأخذ من طعامه ليحمي المُشفين على الموت ، وكان يجهد في أنْ يوزّع الطّعام ولو جار على نفسه حتّى لا نخسر بعض الأرواح المؤمنة . قال له (حسين) ، إنّ كميّات الموادّ الّتي يأتون بها لكي نستعملها في المطبخ قلّت إلى العُشر ، مِمّا يعني أنّ ما كُنتَ تأكله في اليوم ، عليك أنْ تأكله بعد الآن في عشرة أيّام!!

حينَ خرجْنا إلى الأريا الخاصّة بالعنبر رقم (٤) ذات مرّة ، كانتْ أنابيب المجاري الّتي تتسلّق على جدارن شيلاّت العنبر من الخارج قد حدث فيها تسرّب ، وتقاطرت مياه المجاري من هذه الأنابيب على الأرض ، وأنبتت بعضَ العُشب . كان هذا العُشب ناضِرًا ، وأخضر

في لحظة التّدفّق ، رأيتُ أناسًا يسجدون على الأرض ، فظننتُ بأنهم لأوّل مرّة يرون الشّمس بعد شهور أو سنين ويسجدون شكرًا لله ، ولكنني حين دقّقتُ النّظر رأيتهم ينحنون انحاء الخراف ليأكلوا عشب المجاري ، كانوا يلتهمونه التِهامًا ، وحينَ أمرنا الحَرَسُ لندخل كُلٌ إلى زنزانته رأيتُ بعضهم يقطفُ بعضًا من ذلك العُشب ويُدخله معه لكي يكون له زادًا إنْ جاع .

لم يكنْ (حسين) يستطيع أنْ يطهو شيئًا صلبًا ، كان أكثر ما يأتينا هو المَرَق ، مرق القرع ، أو مرق القرنبيط ، أو مرق البطاطا . كان بشير يقول لحسين : «الخبز لا يُكلّف الدّولة شيئًا ، دَعْنا نطلبْ منهم زيادة الخُبز . المرق وحده لا يكفي . لا يسدّ الجوع ، البطون تحتاج إلى شيء صلب يُمسِك مِعَدها» . كان يتّفق معه ، ولكنّه لا يجد أذنًا صاغية عند الإدارة .

منذ سنة تقريبًا لم يرَ (بشير) أحدًا من أبنائه ولا زوجته ، كانوا يعرفون أنّه في سجن (أبو سليم) ، لكنّهم لا يعرفون عنه أكثر من ذلك . لم يكنْ أحدٌ في الإدارة ليدرك مدى الألم الّذي يعاني منه السّجناء في الدّاخل . تجرّأ بشير ، أوصلوه إلى (عامر المسلاّتي) ، وقف أمامه ناصبًا جذعه . سأله عامر : «ما الّذي تريده يا بشير؟» . «نحن لا نطالب باللّحم أو الشّحم . كُلّ ما نريده كمّيّات كافية من الخبز» . «لقد كنتُ سأسمع لك لو لم تكنْ أنتَ وجماعتك زنادقة خارجين عن القانون ، الخارجون عن القانون لا يُحاسَبون بالقانون ، لو أنّكَ مسجون في سجن (غوانتنامو) لعرفتَ أنّكَ تعيش وجماعتك في جنّة» . «نحن نعيش يا عامر في جحيم . مؤبّد في (غوانتنامو) ولا يوم في (أبو سليم) ، أنتَ تعرف ذلك ولكنّك تُنكره . ما أطلبه لجماعتي ، هو ما

أطلبه لكلّ المساجين هنا . الخبز» . «قائد الثّورة قال إنّكم لا تستحقّون الرّأفة» . «قائدك ليسَ إلهًا . هو شخصٌ مثلنا» . «ولكنّ حكمه نافذٌ كما هو حكم الإله» . «لن أدخل في نقاشٍ لا يُؤدّي إلى نتيجة . تريد أنْ تؤمّنوا للمساجين الخبز أو الأشياء الّتي تمكث في المعدة طويلاً كالبطاطا . هل تريد لهم أنْ يموتوا وتكون مسؤولاً عن ذلك» . «إذا ماتوا فالله هو المسؤول عن موتهم لا أنا» . «بل أنت ؛ لأنّهم ماتوا بسببك وبإمكانك ببساطة أنْ تنقذهم» . «أنا أريد لهم أنْ يموتوا . الكلاب الضّالّة لا جزاء لها إلاّ الموت» . «الكلاب الضّالّة هي أنتَ وأعوانك وزبانيتك» . اجتاحت (عامر المسلاّتي) بعد الجملة الأخيرة نوبة غضب طافحة ، أمر حرسه : «خُذوه وعلّقوه» . عُلّق بشير في سقف إحدى مواضع التّعذيب من رِجلَيه يومَين كامِلَين . كان الدّم ينحبس في ساقَيه ، ونَفَسُه يضيق ، وعيناه تقطران دمًا بين حينٍ وآخَر ، ولكنّه لم يشكُ ، ولم يتوسّلْ ، ولم يطلب إليهم أنْ ينزلوه . حينَ أنزلوه في اليوم الثّاني ، أخذه (عزيز) كان قد افتقده وعلم ما حلّ به ، مسح على وجهه بالماء ، وسقاه ، وأطعمه من الخُبز القليل الّذي خبّأه له في غيابه ، قال له (بشير) قبل أنْ يأكل : «هناك في السّجن مَنْ هو أولى منّي بالطّعام . أعطِ هذا الخبز لغيري» .

في رمضان مرّتْ علينا أيّام لم نكنْ نجد فيها من طعام عند الإفطار إلاّ الماء . حتّى إنّنا فكّرنا في أكل إسفنج الفرشات ، بعدْ غمسه في الماء حتّى يسهل مضغه ، وتقطيعه إلى قطع صغيرة حتّى نتمكّن من بلْعه . فعلها بعضُنا وأدّتْ إلى مزيد من التّدهور الصّحّيّ . استمرّ الجوع حتّى صار الخبز حلمًا . كان ثلاثة أرباع السّجناء يحلمون بالخبز ، يحلمون بشاحنات كبيرة مُحمّلة بالخبز ترمي بكمّيّات كبيرة منه من

خلف الأسوار لتقع في الأريات ، ويتهاوى إليها السّجناء يأكلون منها . كانت الكمّيات في الأحلام كبيرة جداً ، يأكل الجميع حتّى يشبعوا ، وفي الصّباح توقظهم طقطقة الأبواب ، فيستيقظون ولا شيء غير الحجارة والجُدران ، هلكى من الجوع يبحثُ أحدهم عمّا يسدّ الرّمق فلا يجد .

مُنعت الزّيارات بالكامل ، في السّجن مَنْ لم ير أبناءه أو زوجته منذ أكثر من عشر سنوات . في السّجن مَنْ لم ينظر في عينَي حبيبه أكثر من ذلك . كُنّا نفتقد ذلك الضّياء الّذي ينبعث من عيون مَنْ نحبّ فيعيد إلينا الحياة ، ويلّون لنا الدّنيا ، وينتشلنا من السّقوط في بئر الكآبة .

في آخر أيّام عام ١٩٩٥م تعرّض سجناء العنبر لجولة أخرى من التّعذيب ، كان سبب ذلك رئيس التوكة في ذلك اليوم ؛ عَنّ بباله أنْ يلهو مع أحد المساجين الشّيوخ ، كانتْ لحيته طويلة ، فأمسك بها الحارس وشدّها ثُمّ قام بصفعه على وجهه ، انقضّ الشّيخ على السّجّان فطرحه أرضاً ، وكالَ له الركلات حتّى صار يستغيث ، فتجمّع الحَرَسُ يحاولون استنقاذ رئيسهم من الشّيخ ، لكنّه كان يُحكم القبضة على عنقه ، وكان يلكمه باليد الأخرى ، ويكيل له الصّفعات بشكل جنونيّ . استمرّ المشهد دقائق مرّتْ كأنّها سنوات . انتصر الشّيخ لنفسه ، وشعرنا أنّنا نحن الّذين انتصرْنا ، لكرامتنا ، لذاتنا ، لنفوسنا من أن تُداسَ كما لو لم نكنْ أكثر من حشرات . عبّر الشّيخ بطريقة رائعة ساحرة عمّا في نفوسنا . بَرئنا من وجع الذّلّ بعدها . لكنّنا كُنّا ندرك أنّ الأهوال قادمة . تجمّع أكثر من عشرة على الشّيخ بعد أن استخلصوا سيّدهم منه ، وراحوا ينهالون عليه بالهراوات ، وكانت تنزل

عليه خمس هراوات في لحظة واحدة . ثُمّ أدخلوا الشّيخ وجماعته إلى الزّنزانة . بعد أقلّ من نصف ساعة ، جاؤوا مرّة أخرى ، وأخرجوا نزلاء الزّنزانة ، وغمروها بالماء المُثلّج ، وبلّلوا الفرش والوسائد وكلّ شيء ، كان الشّتاء في أوجه ، والبرد يقصّ المسمار لحدّته ، ثُمّ أدخلوهم شبه عرايا إلى الزّنزانة . كان تعذيبًا مُمنهجًا . استمرّوا عشرة أيّام على هذه الحالة ، يخرجونهم من الزّنزانة ، ويدفّقون الماء المُثلّج ، ويدخلونهم في الماء . كانتْ درجة الحرارة في تلك الأيّام تقترب من الصّفر ، وكان الماء يتحوّل في داخل الزّنزانة إلى صفائح زجاجيّة . أظنّ أنّ بعضهم احتاج إلى شهور لكي يبرأ .

من بعد تلك الحادثة . صار يمرّ يومان دون أنْ نرى الحرسّ يصيحون بالطّعام . التّوكة الّتي تحرس عنبرنا غابتْ ليوم كامل . لا حسّ ، لا خبر ، لا طقطقات ، لا طعام ، لا ماء . كان عقابًا أشدّ من الجَلد .

في العنبر الأوّل ؛ حدث ما لم يكنْ متوقّعًا ؛ تمكّن نزلاء الزّنزانة السّادسة من قصّ حديد النّافذة بواسطة منشار حديد صغير استطاعوا تهريبه داخل جونة تمْر ، كانوا يتستّرون باللّيل ، ويقصّون في كلّ يومين واحدًا من القُضبان ، ويُعيدونه إلى مكانه كي لا يبدو أنّه كذلك ، بعد عشرة أيّام صار بإمكانهم تنفيذ عمليّة الهرب . كان الخروج من النّافذة سهلاً . الصّعب هو اجتياز الجدار الأوّل الّذي يفضي إلى ساحة الملعب الخالي ، ومن ثمّ الجدار الثّاني ، وهذا يحتاج إلى وقت وربّما ينكشف الأمر بواسطة حرّاس الأبراج المتمركزين في أماكنهم ، وربّما يعرّضهم لصعقات كهربائيّة ، اختاروا الطّريقة الأكثر انكشافًا ولكنّها ربّما تضمن لهم هروبًا مباغتًا قبل أنْ تبدأ عمليّة مطاردتهم ، قرّروا أنْ يصعد أحدهم إلى أحد الأسطح ويستولي على سلاح الحارس ، وهذا ما كان ، استولى

على السّلاح ، وعاد مع رفقة ثمانية من زملائه إلى البوّابة الرّئيسيّة ، واقتحموها تحت تهديد السّلاح ، وخرجوا . تمّتْ ملاحقتهم على الفور . قُتل بعضُهم ، وألقي القبض على أربعة ، وتمكّن واحدٌ من الاختفاء . كانتْ جروح الأربعة بليغة ، أُعيدوا إلى السّجن دون أنْ يلقوا رعايةً صحيّة أو كشفًا طبيًا . تعافى ثلاثة منهم بعد شهور . الرّابع ذلك الّذي استولى على السّلاح تعاملوا معه بطريقة مختلفة . ألقوه في السّاحة مُقيّدًا . وراحوا يسكبون الماء المالح على جروحه . كان أنينه يصل إلينا يُلخّص المأساة في الإنسان الّذي لا يرحم أخاه في الإنسانيّة ، كأنّما توغّل ذلك الأنين قادمًا من فجاج الغاب ، عميقًا ، شجيًا ، يحمل ألفَ جرح نغّار لألفِ مألوم . لم يدخلوه إلى زنزانته لكي يحظى بشيءٍ من الرّعاية من زملائه ، ويردّوا عنه وجعه ، بل أبقوا عليه في السّاحة ، في البرد ، في اللّيل ، ولم يكنْ لينام ، وكانوا يتناوبون عليه ساعةً بعد ساعة ، يدلقون عليه الماء البارد المالح ، كان أنينه في اللّيل العميق يصل إلى مسامعنا ، ونحن لا ندري ماذا يُمكن أنْ نفعل له . في مساء اليوم الثاني كان أنينه يحمل نغمة الطّيور المهاجرة ، والكائنات الّتي تودّع الحياة برنّة حزينة . ظلّ أنينُه يخفتُ شيئًا فشيئًا ، حتّى انتهى تمامًا . سمعتُ أحدَ الحراس يسأل زميله : «هل مات ابن . . . .؟» . فيردّ عليه الحارس الآخر : «مات . . . مات . . . الله لا يردّه» .

(٦٥)
لو كان للجدِار قلبٌ لَبَكى!

زرعتْ هذه الأحداثُ في عقليّة النّظام الانتقامَ مِمّن يحاول الانتقاص من هيبته، أو الخروج على أمره . كانتْ آثار ذلك سيّئةً جدًا علينا . بدا السّجن كأنّما سُحِل بأكمله على طريق الآلام، وكأنّما عُلِّقَ من قدمَيه تحت سقف الرُّعب .

كان (بشير) لا يزال يحاول أنْ ينزع كلّ ما في قلب السّجن من كراهية، أنْ يزرع فيه بدلاً من ذلك وردة، أنْ يجمع النّاس على الحبّ، أنْ يأسو الجراح الّتي لا يتوقّف نزيفُها؛ كانتْ مهمّةً صعبةً . كان يبدو أنّنا مُقبِلون على ما لا يُمكن تخيّله؛ كلّ شيءٍ في السّجن كان متوتّرًا؛ نحن، السّجّانون، الهواء، القُضبان، الجدران، والأنفاس الحرّى . . . كلّ شيءٍ كان يُنذِر بعاصفة ربّما كانتْ أكبر من احتمالنا أو خيالنا .

«نحن نموتُ جوعًا» قال (حسين) . «سنتدبّر الأمر» ردّ (بشير) . «كمّيّات الخبز قلّتْ . صار لا يأتي إلى السّجن منها إلاّ القليل . يابسة أصابها العفن كأنّما جمعوها من جوف الحاويات» . «نُبلّل الخبز بالماء حتّى ينتفخ، ونقسمه على عددٍ أكبر، لعلّ ذلك ينفع؟» تساءل بشير . «لا جدوى من ذلك . الماء نفسه يسبّب الملاريا» . «والحلّ؟ هل يُمكن أنْ نطبخ التّراب!!» . «أصابتْكَ لوثة الجنون» ضحك . «كلاّ . حياة السّجناء أهمّ من كلّ شيءٍ . أمس في العنبر الخامس مات اثنان من

الموع . هل يُمكن أنْ تتخيّل أنّ هذا يحدث في بلادنا النّفطيّة؟» . «لو أنهم فقط يسمحون بالزّيارات ، وأخذ الطّعام والملابس من أهلنا لكنّا في حال أفضل» . «منذ متى لم يزرْكَ أهلك؟» . «منذ ستّ سنوات ؛ تخيّلْ منذ أكثر من ألفي يوم . كيف يمكن لبشريٍّ أنْ يحتمل ذلك!! وأنت؟» . «منذ اعتقلت لم أرَ وجه أحدٍ من أبنائي . . . آآه . . . لو أنّني أستطيع أنْ أرى وجه فاطمة ، فاطمة النّبويّة ، إنّ وجهها سيعيد إلى القلب زهرة الفرح ، في القلب صحراء لا يُمكن أنْ تنبت إلاّ برؤية الأبناء . أنا يتيمٌ هنا من دونهم . لكنْ لا بأس . قَدَر الله ماضٍ . أيّام وأراهم ويرونني» . «هل صحيحٌ قصّة هرب السّجناء؟» . «أيّة واحدة تعني؟ في كلّ أسبوع هناك محاولة للهرب ، في كلّ يوم هناك تخطيطٌ للهرب ، في كلّ لحظةٍ هناك تفكيرٌ بالهرب . مَنْ يحتمل أنْ يعيش في هذا الجحيم . لكن اطمئنّ ؛ من كلّ مئة محاولة للهرب تنجح نصف واحدة» . «نصف واحدة؟!» . «يتجاوز السّجين الجدار الأوّل ويظنّ أنّه بذلك أفلت ، فيصيدونه كذبابةٍ عند الجدار الثّاني . القنّاصة منتشرون في كلّ مكان» .

صرنا نُخفّف المحنة الّتي تنهشنا بالمحبّة ، بالالتصاق بنا ، بالخوف على أنفسنا فنحميها بمزيد من الالتِحام ، كان (لعزيز) أخٌ مسجونٌ معه ، لم يستطعْ أنْ يلتقيه إلاّ بعد أربع سنوات من السّجن ، في ذلك العام حصل إعادة توزيع للزّنازين ، النّزلاء الجُدُد الّذين لم يمرّ على وجودهم في السّجن أكثر من عشر سنوات أعادوا توزيعهم توزيعًا عشوائيًا ، شيءٌ من القضاء على الألفة الّتي تحدثُ لطول العهد ، وشيءٌ من الإمعان في تعذيبنا وتشتيتنا ، تأخّر الأخ في الخروج من الزّنزانة أثناء التّوزيع ليضمن الالتحاق بأخيه (عزيز) ، نجح في ذلك .

التقيا في الزّنزانة الأخيرة رقم (١٤) . لم يعرفه (عزيز) أوّل ما رآه ، كان قد نحلَ تمامًا ، التصق لحمُ خدّه بالعظم ، وبدا أنّ رأسه الصّغير قد تحوّل إلى جمجمة فيها عينان تتحرّكان ، وكان يلبس ثيابًا رقيقةً وبالية لا تكاد تدفع عنه لسعة البرد . وكانتْ ساقاه قد نَحُلتا إلى حدّ أنني شككتُ في أنهما تستطيعان حَمْل جسده على نُحوله . بدا أنّه ذهبَ إلى الأدغال قرنًا كاملاً وانقطع عن البشر تمامًا ، وظهر فجأة! احتضنه (عزيز) وبكى بكاءً مريرًا . كان أحسنَ حالاً منه ، فأعطاه بعضَ ملابسه ، ونظر في عينَيه : «أنتَ أخي . وروحي فداؤك» . كان يصغره بستّ سنوات ، وكان أخاه المُدلّل ، لم يدر كيف للسّجن كلّ هذه القُدرة على التّغيير ، ظلّ ينظر إليه كأنّه يريد أنْ يتأكّد أنّه هو ؛ السّجن يصنع كلّ هذا!!! في السّجن يُصبح أخوكَ الّذي نزلت وإيّاه من بطنٍ واحدة كلّ عالَمك ، وطنك ، وفرحك ، وأُسرتك ، والخيط الّذي تتمسّك به كي لا تهوي ، تتشبّث به كأنّه كلّ أملك في أنْ تشعر بوجودك أو بإنسانيّتك . سأله (عزيز) عن ابن عمّهما : «ماذا حصل له ، لم أره منذ دخولنا السّجن؟» . «أعدموه في الممرّ» . «متى؟!» . «منذ سنتَين» . التصقَ به أكثر كأنّه يخافُ أنْ يُعدَم هو . أحسّ أنّه إنْ ذهبَ فسيفقده . بعد عشرة أيّام أخذوه منه ، نقلوه إلى زنزانةٍ أخرى . في السّجن ليس لكَ إلا الجِدار ؛ لو كان للجدار قلبٌ لبكى!

كان المُصحف في السّجن ، يُقسّم إلى ثلاثين قِسمًا . يتداوره السّجناء من خلال فتحة صغيرة في الحائط الّذي يفصل بين زنزانة وأخرى . كان (بشير) يُشرِف على توزيع الأجزاء ، ومراقبة الأدوار ، كان المُصحف يظلّ دوّارًا بين الأيدي على مدار اليوم بساعاته الأربع والعشرين ، الحجز الأوّل من السّابعة إلى الثّامنة الجزء الفلاني في

زنزانة رقم كذا ، كلّ زنزانة تعيد الجزء الّذي حجزته قبل انتهاء الوقت بقليل . وكان (بشير) ربّما يتسامح في السّاعة قليلاً إذا زاد عدد نزلاء الزنزانة عن عشرة ، بعضُ الزّنازين كان يصل عدد نزلائها إلى عشرين سجينًا . في الزّنزانة الّتي يمكث عندها الجزء ساعةً وفيها عشرة سجناء ، يكون للسّجين الواحد ستّ دقائق ، ولم يكنْ أحدٌ ليُسامح بحقّه في هذه الدّقائق السّتّ ، إلاّ في حالةٍ واحدة ، هي حالة الإقراض ، فإذا أقرضتُكَ دقائقي ، فأنا سآخذ دقائقك في النّوبة القادمة ، من أجل أنْ يحظى باثنتي عشرة دقيقةً كاملة .

صار (بشير) يكتب رسائله إلى فاطمة ، تحوّلت الكتابة عنده إلى وسيلة تواصل روحيّ ، الكتابة نافذة على الحرّيّة ، طريقةٌ لإزاحة القيود قليلاً من أجل جرعاتٍ من الأمل . كان يكتبُ في ذاكرته إنْ لم يجدْ قلمًا ، رسمَ لها أحلى الصّور ، وخاطبها بأرقّ العبارات كما لو كانت تكبر بين يديه ، واحتضنها في خياله فرى فيه دفء المودّة ، وضحك وبكى ، وفَرِح وحَزِن ، وعاشَ كلّ لحظة : «يا ابنتي ؛ في السّجن كما في الحياة يحدثُ هذا ، نفترق ، تحول السّدود بيننا ، ولكنّ شيئًا آخر لا يدركه إلاّ مَنْ عاشه يُعوّض ذلك الفَقْد ، ويشفي ذلك الحِرمان ، إنّه الشّعور بأنّني أنظر إلى عينيك وإنْ لم تكوني معي ، وأمسكُ بيديك وإنْ لم تكوني حاضرةً ، أطوف بك على الأصدقاء الرّائعين ، أعرّفك على عليّ ، وعلى الحاجّ صالح ، وعلى الزّبير ، وأقصّ عليك حكايا البطولة والأمل ، كلّما اسودّ الظّلام نشرتْ ضحكتُك البريئة خيوط النّور فرأيتُ ما لم أرَ ، كلّما ضاقتْ عليّ الدّنيا نظرتُ في قلبي ، فأراكِ فيه ، أرى عالمًا فسيحًا ممتدًا لا يوقف امتداده شيء ، وأرى سهولاً منبسطة نركض فيها معًا ، كما لو كُنّا طفلَين ، نركض بين الخمائل

والجداول والفراشات الملوّنة . أنا أحيا بك . ستظلين شغفي الّذي لا ينتهي ، وشعلتي الّتي لا تنطفئ» .

في منتصف التّسعينيّات ، من أجل الإسلاميّين الجُدُد ، (بشير) ، و (عزيز) و (حسين) ومَنْ هم على شاكلتهم ، قاموا بابتكار أساليب جديدة للتّعذيب ، كان السّجين الجديد يتعرّض للتّحقيق أكثر من عشرين ساعةً متواصلة يُمنع خلالها من النّوم أو قضاء الحاجة . كانتْ رجلا السّجين تُدخلان في كرسيّ التّعذيب ويداه مربوطان إلى قائم الكرسيّ ، وتُربَط أطرافه الأربعة إلى حلقة واحدة وتُدفَع إلى الخلف بشدّة حتّى يتقوس بطن السّجين وتكاد أطرافُه تتمزّق . كانوا يُغطّون العيون بإحكام لمدّة ثلاثة أيّام ، ثُمّ ينزعون الغطاء فجأة بعد أنْ يكونوا قد سلّطوا على عينَيه ضوءاً شديدًا بشكلٍ مُباشر ، فتكاد عيناه تنفقئان . كانوا يُجبرون السّجين على أنْ يركز باطن كفّيه ورأسه على الأرض ، ويعتمد عليهما في رَفْع رُكبه ، ساندًا جسمه بهذه الطّريقة لساعات طويلة ، وإذا ما حدث أنْ مسّتْ ركبتاه أو إحداهما الأرض فإنّ الصّعقات الكهربائيّة تُصبّ على رأسه مباشرة . كانوا أحيانًا يُجبرون السّجين على أنْ يخلع ملابسه كلّها ، ويقف عاريًا أمام المُحقّق ، ويأتي جَلّاد متمرّس في التّعذيب ، فيقوم بإحداث إصاباتٍ بالغة في مُؤخّرة السّجين بواسطة شفرة حلاقة وغالبًا ما تكون قد استُخدمت في مؤخّرات عشرة سُجناء آخرين على الأقلّ . أمّا الضّرب الشّديد المُبرّح بالفلقة أو البوكة ذات الصّندوق الخشبيّ ، أو أخمص البنادق ، أو حرابها ، أو الأسلاك الكهربائيّة ، أو الهراوات الثّقيلة ، أو القضبان الحديديّة فكان أمرًا معتادًا يحدث في كلّ لحظة .

مات في تلك الأعوام تحت التّعذيب ؛ الصّادق القطعاني ، وسالم

لـاري ، وصالح هميل ، وصالح معافى ، وعبد الحكيم الغرياني ، وعبد العزيز التّرهوني ، وصـالح الشـرف ، وعشـراتُ آخَـرون آثروا أنْ يكونوا مناديل تحت ظلّ العرش على أنْ يكونوا أحذية تحت ظلّ الاستبداد .

كان كلّ شيء يحدثُ عشوائيًا ؛ القَتل ، والتّعذيب ، والسّحل ، والتحقيق ، ومصادرة الحرّيّة ، والإذلال ، وكَسْرِ الإرادة ، والتّجويع ، والتّعطيش ، والسّحق ، والصّعق ، والصّفق ، والمحق ، والطّعن ، والصّفع ، واللّطم ، والوَخْز ، واللّكز ، والوكز ، والنّخز ، ولم يكنْ أحدٌ في العالَم الخارجيّ ليعترف بشيءٍ مِمّا يحدث!

كلّ ذلك ساوَى عند السّجناء أو أكثرهم بين الموت والحياة ، كيفَ يُمكن أنْ تكون الحيـاة أثمن من فُـقـدانها في مثل هذه الظّروف!! من أجل ذلك كـانوا يُفكّرون بالهرب ، والتّمـرّد ، ولو أدّى ذلك بهم إلى الموت ، لأنّ الموت في سـجن (أبو سليم) كـان يطلع من كلّ شـبـر ، وينبتُ تحت كلّ حصاة! والهروب منه حياة أو احتمال حياة حتّى ولو لقيكَ على الجانب الآخَر ، الجانب الّذي هربْتَ إليه .

(٦٦)
رائحةُ الموتِ

في ٢٨-٦-١٩٩٦م بعد أنْ ناولَنا الحَرَسُ عشاءنا ، وأغلقوا علينا الأبواب في السّاعة الرّابعة والنّصف عصرًا ، اتّجه عددٌ آخر منهم نحو العنبر الرّابع لكي يوزّعوا عليه الطّعام ، أوّل ما فتح الحارس باب إحدى الزّنزانات في العنبر دَفَعَه عددٌ من السّجناء الّذين كانوا يختبئون خلف الباب ، فوقعَ على الأرض ، انهالوا عليه بالضّرب ، وقاموا بأخذ حلقة المفاتيح الّتي بحوزته ، كانت تلك المفاتيح تفتح أبواب الزّنازين كلّها . خرج نزلاء تلك الزّنزانة واندا‌حوا في السّاحة . سمعنا صوت إطلاق رصاص مُتقطّع . فعلمْنا أنّ أمرًا جللاً يحدث . لكنّنا قُلنا إنّه حدثٌ عابر . مرّتْ دقائق قبل أنْ نسمع طَلَقات متتابعة ، وصيحات : (الله أكبر) تجتاح العنبر بأكلمه . قتل السّجناءُ أحدَ الحرس جرّاء الضّرب بالكاوات الّتي كان يحملها . أفلتَ حارسٌ آخَر انسحبَ إلى السّاحة بعد أنْ أصيبَ بجرح بليغ في رأسه ، لحق به السّجناء الهائجون للإجهاز عليه ، كان رأسه يَنزف ، استغاث بالحرس الموجودين على الأسطح ، فمدّوا له حبلاً فتعلّق به ، وسحبه زُملاؤه فنجا من الموت بأعجوبة . كان باب العنبر الرّئيس قد انفتح ، راح عددٌ من السّجناء يفتح أبواب الزّنازينفي العنابر الأولى إلى السّادسة بشكل عشوائيّ ، تدفّقَ عددٌ كبيرٌ من السّجناء يخرجون من زنازينهم وهم يهتفون بحماسة : «الله أكبر . . . حيّ على الجهاد» . ذهبتْ مجموعة من

الّذين حُرّروا من العنبر الرّابع إلى العنبر الخامس والسّادس ليفتحوا أبواب الزّنازين فيهما ، كلّ عنبر يحتوي على (١٤) زنزانة ، كان الحُرّاس المتمركزون على سطحي هذين العنبرَين للسّجناء بالمرصاد ، من موقعهم العالي أمطروا السّجناء بالنّار من أجل منع تدفّقهم إلى الخارج ، والوصول إلى بوّابات الزّنازين وفتحها ، كان سيل السّجناء هائجًا ومنذرًا بالطّوفان ، اخترقتْ الرّصاصات أجساد ما يقرب من عشرين سجينًا ، سقط منهم على الفور ستّة قتلى ، وأُصيبَ اثنا عشر سجينًا إصابات مختلفة . هاج السّجناء أكثر وقاموا بأسرِ حارسَين ، وعمّت العنابرَ فوضى عارمة ، واستمرّ إطلاق الرّصاص ، اخترقتْ رصاصةٌ طائشةٌ نافذة زنزانتنا ، مرّتْ من فوق رأسي ، سمعتُ أزيزها واضحًا ، أصابنا الذعر ، تكوّمنا في الزّاوية البعيدة عن النّافذة مُحاولين الحصول على حماية من الرّصاص الطّائش .

هُرع (عامر المسلاّتي) و(بو شعالة) إلى القاطع الّذي يفصل العنبرَين الأوّل والثّاني عن العنبرَين الثّالث والرّابع ، كان معهما معظم قوّة السّجن ، وآخرون لبّوا نداء استغاثة عسكريًا ، قال للسّجناء الّذين كانوا يتجمّعون في ساحة العنبر : «ماذا تريدون؟ لماذا فعلْتُم هذا؟ ما الّذي حدث؟» . كان يتكلّم باضطِراب . لكنّ السّجناء هزّؤوه ، وطلبوا مُفاوضين على مستوى أعلى ، وذكروا له (عبد الله السّنوسيّ) بالاسم . رجع المسلاّتي لكي يتدبّر الأمر . ظلّ السّجناء في العنبر الرّابع يجوبون السّاحة ، ويتحرّكون بقلق ، ويصيحون بأنْ يغسّلوا جثث القتلى . بعد أربع ساعات ، جاء السّنوسيّ . طلبَ أنْ يُخرِجَ كلّ عنبرٍ من العنابر السّتّة الأولى مفاوِضًا . خرج عن عنبرنا (عزيز) لمفاوضة الإدارة ، سألهم السّنوسيّ عن مطالبهم ، فأخبروه بمطالب عاديّة ، ذات المطالب الّتي

يُمكن أنْ يُطالب بها أيّ سجين في أيّ مكانٍ في العالَم : ملابس نظيفة ، التّريّض في الأريا ، الرّعاية الطّبّية ، السّماح بالزّيارات العائليّة ، والحقّ في المثول أمام القضاء ؛ إذ إنّ أكثر من نصف نزلاء السّجن كانوا يقبعون فيه بلا محاكمة . طمْأنهم السّنوسي : «مطالب عادلة ، ولكم الحقّ في كلّ ما قلتم ، والقائد لا يُرضيه ما حدث ، واعتبروا كلّ شيء قد تمّ ، على أنْ تُطلقوا سراح الرّهينتَين ، وتُسلّموا مفاتيح الزّنازين إلى الإدارة ، ويعود كلّ واحدٍ إلى زنزانته خلال نصف ساعة على الأكثر ، وسأدخل ساحات السّجن بنفسي بعد نصف ساعة فإنْ لم أجدْ السّجناء قد دخلوا إلى عنابرهم فوالله لأجعلنّ السّجن يغرّد فيه البوم ، وسيسمع مَنْ بقي منكم صوتَه بأذنَيه» . سأله أحد المفاوضين عن القتلى والجرحى . أجابه السّنوسيّ : «سنأخذ سيّارات الإسعاف القتلى ، وسنحمل المُصابين والمرضى إلى المستشفى ، سجّلوا لي أسماءهم ، وأنا أتعهّد بأنْ يُنقلوا اللّيلة هذه إلى أحسن المستشفيات في طرابلس» .

غادر السّنوسيّ السّجن ، ورجع المُفاوضون السّتّة إلى زملائهم ، طلبوا منهم أنْ يدخلوا إلى الزّنازين ، كانت السّعادة تنفر من وجوههم . أخبروا السّجناء أنّ الأمور كلّها بخير ، وأنّ عهد الانفراج قريب ، وأنّ المطالب جميعها قد استُجيب لها ، وأنّ المرضى يُمكنهم أنْ يُكتَبوا في كشف الأسماء ، ويخرجوا إلى المستشفيات للعلاج . دخل الجميع إلى عنابرهم وزنازينهم ، كان آخر الدّاخلين إليها هم هؤلاء المُفاوضون السّتّة . لم يمرّ إلاّ ما يقرب من نصف ساعة قبل أنْ تغيّر إدارة السّجن أقفال العنابر والزّنازين كلّها . كان صوتُ باب العنبر الأوّل هو آخر هذه الأصوات الّتي أغلقتْ بمزاليج جديدة . وساد صمتٌ مُطبق العنابر

كلها، وفيما انهمك كلّ عنبر وكلّ زنزانة بكتابة أسماء مرضاه في كشف المرضى الّذين سيغادرون السّجن للعلاج كنتُ أشمّ رائحة الموت تنبعثُ من كلّ شيء. كنتُ أشعر ببرودتها الّتي تتسلّل عبر الأنف إلى الرّوح مباشرة، وكنتُ أرى لونها زرقاء داكنة، وثقيلة، وأسمع حفيفها حادًا جارحًا.

نصح الدّكتور عتيقة نزلاء قاطعه بألاّ يكتبوا أسماءهم في الكشف، قال إنّه لا يُؤمّن للنّظام، النّظام كذّابٌ وخادع، القذّافي لا يرحم، هذه مؤامرة، والّذي يقتل بالصّدفة، من الطّبيعيّ أنْ يقتل في كلّ حين، ولا يُمكن لمن خَبِر هذا النّظام أنْ يُصدّق بأنْ يقوم بهذه اللّفتة الإنسانيّة، ورجا كلّ أحد أنْ يستجيب له في حدْسه، ولكنّ السّجناء عارَضوه بشدّة ولم يُصدّقوه، معتقدين أنّ هذه الفرصة لن تتكرّر، وأن استغلالها لن يُتاح مرّة أخرى، فأصرّ على ألاّ يخرج أيّ أحد من زنزانته، وكان فيها نزيلٌ مُصابٌ في قدمه ويُعاني اضطرابًا نفسيًا، فرجاه أنْ يخرج مع المرضى، فأبى عليه، وأخبر الحرس الّذين يكتبون الأسماء أنّه مضطربٌ نفسيًا وليسَ مسؤولاً عن أقواله.

كان الكشف قد سجّل أسماء ما يزيد عن (١٢٠) مريضًا. كانت السّاعة تُشير إلى الواحدة بعد منتصف اللّيل. أحضرت إدارة السّجن لهم عشر سيّارات إسعاف، وطلبوا منهم بشكل مُهذّب أنْ يخرجوا من زنازينهم، كان يبدو أنّهم يُعاملونهم أرقى معاملة، كان الأمر مُريبًا، لم نُعامَل بهذه الطّريقة في أكثر سنوات السّجن انفراجًا! قادوهم عبر الفواصل بين العنابر إلى الباب الرّئيسيّ للسّجن، هناك تغيّرت معاملتهم بشكل كامل، صاروا يدفعونهم بأعقاب البنادق، ويُوسعونهم شتمًا وصَفْعًا، كان معظم المرضى لا يستطيع المشي، وتستوطنهم كلّ

أمراض الكون في كلّ أنحاء جسمهم ، أمراض القلب ، وضيق النَّفس ، والسّلّ الرّئويّ ، والرّبو ، والدّرن ، وبعضهم كان أعمى يتلمّس الطّريق ويتعثّر في مشيته . كانتْ أبواق سيّارات الإسعاف تدوي في فضاء السّجن ، كانتْ أضواؤها اللاّمعة الدّوّارة تضرب على الجُدران العالية ، كان فرح الـ (١٢٠) مريضًا بالخروج للرّعاية الطّبّيّة لا يُوصف . أحلامهم في تخفيف آلامهم كان غامرًا . شعورهم الجميل بالمشي ولو لمسافة قليلة في ساحات جديدة كان طاغيًا . ركبوا في سيّارات الإسعاف . جاء ضابطٌ من حرس السّجن ، طلبَ من أفراد القضيّة الّتي تُعرَف بقضيّة (أجدابيا) النّزول من السّيّارات ، كانوا أكثر من عشرة ، استجابَ ثلاثةٌ منهم فقط للنّزول ، البقيّة امتنعوا عن ذلك ، وأصرّوا على البقاء في السّيّارات للحصول على العلاج ، وأنّ هذا حقٌّ من حقوقهم . انطلقت السّيّارات تملأ أجواء طرابلس بأبواقها المُزعجة في سكون اللّيل : وي . . وي . . وي . . . لكنّها لم تتّجه نحو المستشفى ، اتّجهتْ إلى مكانٍ مجهول ، لم يعرفْه أحدٌ من السّجناء ، قال بعضهم من الثلاثة الّذين نزلوا إنّهم شاهدوا السّيّارات تعود مرّة ثانية إلى ساحة الملعب الخالية في السّجن ، هناك تحت تهديد السّلاح أنزلوهم من السّيّارات ، كان كلّ حارسٍ مُوكّل بإعدام أفراد كلّ سيّارة على حِدة . أمروهم بالاصطفاف تحت تهديد السّلاح إلى بطن السّور الخارجيّ ، كان القمر في السّماء قد حجبتْه غيومٌ من النّادر أنْ تظهر في ليلةٍ صيفيّة ، طلبَ قائدو التّوكات أنْ تُضاء الكشّافات الّتي على الزّوايا ، من تحت ضوء الكشّافات المترامية والقادم من بعيد كان يُمكن أنْ تُشاهد الذّهول والوجوم الّذي يُسيطر على وجوه السّجناء ، تناول كلّ حارسٍ لكلّ سيّارة إسعاف رشّاشه ، وبدأ يحصد أرواحهم . في أقلّ من عشر دقائق

كانت أرواح الـ (١٢٠) سجيناً تغادر الأرض . في إحدى الزوايا المظلمة ، تحرّك جرّافة من مكانها ، وقامتْ بفتح حفرة كبيرة ، ثُمّ جرّت الجثث وألقتْها في الحفرة ، وعاتْ إلى مكانها بشكلٍ طبيعيّ ، سكنَ الليل . . . توقّف كلّ شيءٍ عن الحركة . . . فجأةً في هذا السكون المريب ، أُشعلتْ أضواء الجرّافة من جديدٍ ، تقدّمتْ إلى الموت ، تولّتْ ردم الحفرة ، كانت الحفرة تبكي!

(٦٧)
العقيد

«لم يحم قائدٌ شعبَه كما حَمَيْتُهُ أنا ، لم يفعلْ رئيسٌ لوطنه كما فعلتُ أنا . . . أينَ الّذين أثمرتْ فيهم حسناتي؟ أين الّذين قدروني حقّ قَدْري؟» . كان العقيد قد استيقظ من النّوم للتو . سمعه يونس يهذي بهذه الكلمات . وقعتْ عيناه عليّ ، اعتدل في السّرير ، أدناه منه بإشارة من يديه ، همسَ في أذنيه كما لو كان يُفشي له بسرّ : «لن أنحني للرّيح حتّى لو ذُبحتُ على حَجَرْ» . «ولن ننحني معك» . دخل عزّ الدّين ، هَشّ له وجه العقيد : «ادنُ أيّها الرّفيق . هل ستقاتل معي» . ردّ عزّ الدّين بثقة : «كما فعلتُ دائمًا ، هل تخلّيتُ عن واجبي تُجاهكَ مرّة ؛ عشتُ معك وسأموتُ معك» . ابتسم . وقفَ على قدمَيه ، قال وهو يحدّق في وجوههم : «أنا جائع» . تداعى الحرس ، ليأتوه بالطّعام . سأل عن السّنوسيّ . أخبره منصور : «في الطّريق ، يتحرّك بحذر ، ولهذا تأخّر ، قبل ظهر اليوم سيكون هنا» . سأل ثلاثتهم : «ستنفّذون ما وعدتم؟» . «بلى» . وضعوا صَحْفة الطّعام أمامه . اعتذر يونس : «ربّما لا تليقُ بقائد ، لقد صار إمدادُنا بالطّعام قليلاً» . نهضت ذاكرة منصور على قدمَين ، تذكّر أيّام أبو سليم ، بعينَيه رأى جُثّتَين قيل له إنّهما ماتا من الجوع . مرّ شريط الذّكريات في باله ، رأى فيه قطيعَ المساجين المَسُوقين إلى زنازينهم يمرّ أمامه سريعًا ، كان بعضُهم يجحظه ، كانتْ عيونهم تسيل على خدودهم ، شعر بالرّعب ،

تمالك نفسه ، وهمس أمامه : «أيّ تبادل للأدوار يحدث؟!» . هتف يونس : «ماذا كنتَ تقول؟» . «لا شيء ، كنتُ أتساءل إلى متى سنبقى هنا» . ردّ العقيد وهو يبتلع اللّقمة : «اليوم نخرج» . قال عز الدين بأدب جمّ : «نخرج في جولة لترى سرت ، ما زال الوقتُ مبكرًا للخروج من هنا بشكلٍ نهائيّ» . سمع الأربعة صوتَ جلبة في الأسفل ، دخل أحد الحرس : «إنّه السّنوسيّ يا سيّدي» . ركل العقيد صحفة الطّعام . كان السّنوسيّ قد برز قُمع رأسه من أعلى الدّرج . بدا أنه شاب . شابَ كثيرًا . غطّى الشّعر الأبيضُ نصفَ رأسه ، حين استوى واقِفًا انهار على قدَمَيه : «اعلن اعتذاري لك أيّها القائد عن تأخري» . «الوليمة الّتي كانتْ تنتظرك فاسدة . الوحش للوحش ، وللجبان الحجر» . كرّر اعتذاره ، فأردف القائد : «ما أخبار المعارك؟» . صمت السّنوسيّ . لم يردّ . كاد العقيد يتميّز من الغيظ : «أسألك ؛ ألم نسمع؟» . «نُقتَل ونَقتل» . «أينْ» . «بنغازي سقطتْ» . «وهربْتَ كالجبان» . «كدتُ أُقتَل في كتيبة الفضيل الأمنيّة بوسط بنغازي . خرجتُ إلى طرابلس . قاتلْنا كلّ مَنْ في طرابلس ، لكنّها كانتْ تتفجّر بالأفاعي ، كلّما سحقْنا رأسًا خرج لنا ألف رأس» . «إنّه السّحر الأسود» . «الملاعين لا يموتون ، مهما قتلتَ منهم» . «وماذا فعلتَ بعدها» . «سقطتْ طرابلس» . «أعرف أيّها النّغل . ماذا بعد؟» . «أخرجنا بما تبقّى من قوّاتنا المُمزّقة إلى بني وليد» . «وماذا حدث؟» . «سقطتْ في أيدي الغوغاء في أقلّ من أسبوع» . «اللّعنة . هل أرى مدني تسقط الواحدة تلو الأخرى ولا أفعل شيئًا ، واحسرتاه بقتلُ شعبي بعضُه بعضًا . لماذا يطعنون بلادهم ، هل هانتْ عليهم إلى هذا الحدّ؟ لماذا يُسلّمونها لألفونس القرن الواحد والعشرين؟! أهي أندلس

أخرى يا يونس؟ الخونة الّذين تعاونوا مع الصّليبيّين في وطني هم من طينة الخَوَنة الّذين تعاونوا مع الصّليبيّين في الأندلس! لم أكنْ أدري أنّ التّاريخ يُعيد نفسه بهذه الصّورة القاتمة والواضحة معًا!!» . التفتَ العقيد إلى رفاقه ، كانتْ رؤوسهم مُنكَسة ، ولِحاهم قد طالتْ . وكانتْ لبُعد عهدها بالماء قد تلوّى بعضُها على بعض كأنّها أفاع صغيرة تتدلّى من فوق رؤوسهم . وجّه العقيد سؤالاً إلى منصور : «وسِرت؟» . ردّ منصور بكلّ ثبات كأنّها يحفظ السّؤال : «ستسقط في أقلّ من أسبوع . علينا أنْ نجدَ ملجأً آخرَ» . «وتقولها بهذه البساطة أيّها الضرّاط . أين كتائبي؟ أين جيشي العظيم؟ أينَ لجاني الثّوريّة؟» . كان الزّبد يتطاير من بين شفاه العقيد . تابعَ : «أين جنودي البواسل؟ أينَ حُماة الدّيار؟ أينَ الّذين أقسموا على فدائي بأرواحهم» ردّ منصور بكلّ هدوء : «لم يبقَ منهم أحدٌ» . «وتقولها بهذه البساطة أيّها الضّرّاط الفسّاء؟!» . «الحقيقة الّتي تأتي دفعة واحدة أفضل من الحقيقة المُقسّطة . أنا لا أخدعك» . «أنتَ ذيل الكلب» . «الكلب لا يُجيد غير العُواء» . لم يتمالك العقيدُ أعصابه : «كيفَ تجرؤ على قول هذا أيّها المَسْخ» . ارتفع صوتُ منصور : «أنا لستُ مسخًا . كلّ ما فعلتُه أنّني قمتُ بواجبي الوطنّي . وتبيّن أنّني كنتُ أخدم صنمًا» . «إلامَ تلمّح أيّها الوَغد؟» . «لا أَلمح لشيء؛ إنّها النهاية» . «اخرسْ» . حرّك قبضته في الهَواء بعصبيّة ، بدتْ له ذات القبضة الّتي كان يُحركها في الهواء لتحيّة جماهيره ، فتعملقت الأنا في ذاته ، راح يصرخ : «أنا لستُ جبانًا مثلكم ، أنا سيّد هذه الأرض ، وسأبقى سيّدها . أنا ربّ هذا الوطن ، وسأبقى ربّه» . دوّتْ قذيفةٌ قريبةٌ من القاطع ، لم تكنْ تبعد عشرات الأمتار عن البناية الّتي ينزلون فيها ، صوتُ الانفِجار كان عاليًا . صرخ منصور : «ما هذا الّذي

نسمعه إذاً؟ أهي صوتُ المفرقعات أم صوت القاذفات؟ أهو شعبُك الذي يفتديك بروحه أم شعبُكَ الّذي يتحيّن الفرصة لكي ينزعها من جسدك. لا تُكابر أكثر من ذلك. إنّها النّهاية». وقفت الكلمات في حلق العقيد، كانتْ صدمته بما سمع أشدّ من أنْ يتعافى منها بسرعة، أراد أنْ يصرخ، أن يلعن الحَيَوان الّذي تلفّظ بكلّ هذه الوقاحات، لكنّه ظلّ متجمّداً مكانه كما لو كان تمثالاً؛ فقط قاعدته كانتْ تهتزّ وترتعش، سحبَ عزّ الدّين منصوراً من الغرفة وأخرجه بقسوة. كان في داخله يؤمن بالنّهاية. لكنّه لم يكنْ يدري كيفَ يُمكن أنْ تأتي. اقتربَ يونس من العقيد. احتضنه: «ستمرّ العاصفة بسلام. أعدكَ يا سيّدي. لا تسمع لهذا المهذار، إنّه لا يدري عمّ يتكلّم». كانت عينا العقيد تدوران ذات اليمين وذات الشّمال مثل فأرٍ مذعور: «أريد أنْ أخرج لأرى سِرْت كما وعدتموني». ربّت يونس على كتف العقيد، ومسح على شَعره كما لو كان يُهدّئ من رَوع طفلٍ صغير: «سنخرج كما وعدتُكَ يا حبيبي».

(٦٨)
فَقْدُ الأحبَةِ مَوت

كُنّا نائمين على أمل أنْ نستيقظ فنرى في الرّابعة والنّصف فجرًا . عددًا من المرضى الّذين ذهبوا إلى المستشفيات قد عادوا وهم يتمتّعون بصحّة جيّدة ، أو على الأقلّ نالوا نصيبًا من الرّعاية الطبّيّة . لم يحدثْ شيءٌ من هذا . (تكْ . . تاك . . تااك) كان صوت مِزلاج باب زنزانتنا يُصرّ وهم يفتحونه . طلب آمر التّوكة من (أحمد الثّلثي) أنْ يخرج . علمتُ أنّها النّهاية . قمتُ إليه أحتضنه ، ثُمّ دفعته خلفي ، وسوّرته بيدَيّ كأنّني أحميه منهم . لوّح حارسان من خلف الأمرِ بالبندقيّة ، كانت فوهتا البندقيّتَين تقولان : «لا تحاول» . تراجعتُ وأنا أنفطر من الحُزن . نظر إليّ أحمد ، رأيتُ شبح الموتِ يتراقص في عينَيه ، قال وهو يبتسم : «نَفِرّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله» . ثُمّ توجّه لهم بالكلام : «أمهلوني دقائق ، لأتوضّأ وأصلّي الفجر» . انتظروه وهم يثقبون بحراب بنادقهم الحائط ويصفّرون . حينَ انتهى لثمتُه على رأسه ، سقطتْ دموعي ، انسكبتْ على وجهه ، مسحتُها بباطن يدي : «لا تنسَنا من الدّعاء» . لم يقلْ شيئًا ، كان يبتسم . سحبه الحارسان ، كنتُ لا أزال أشدّ علي يدَيه ، انفلتتا من يدَيّ وهما يأخذانه ، نظرتُ إلى موضعهما ، كانتْ أصابعه ليّنة ، شفّافة كأنّها من بلّور ، أو هكذا خُيّل إليّ ؛ اختلط الحُلم عندي بالخَيال ، فَقْد الأحبّة مَوت ، فراقهم قاسٍ ؛ على كثرة مَنْ ماتوا لم أعتد على الفِراق ، كان كلّ موتٍ يحدث أحس

ه كأنما يحدث لأوّل مرّة ، كانتْ كلّ دمعة أذرفها على الرّاحلين تختلف في كلّ مرّة عن سابقاتها ، كأنّني كنتُ أبكي بعينين جديدتين!

ساقوه إلى الإدارة ، في المكتب ، كان أوّل وجه يُطالعه هو وجه عبد الله السّنوسيّ . ضحك عبد الله : «لقد قلتُ لك ذلك من قبلُ ؛ أعدك أنني سأفصل بيديَّ هاتين رقبتك عن جسدك . لقد حان الوفاء بوعدي» . لم يقل أحمد الثّلثيّ شيئًا ، ظلّ صامتًا ، غير أنه هزّ رأسه مستخفًا ، وافترّت زاوية فمه عن بسمة ساخرة . أشار للزّبانية أنْ يأخذوه إلى غرفة الإعدام . ربطوا يدَيه ورجلَيه إلى جدار الغرفة ، وأبقوا على عينَيه لِتُشاهِدَا كلّ شيء ، كان ساكنًا تمامًا ، عيناه صافيتان ، لا ذعر ، لا ارتعاش ، لا خوف يبدو فيهما ، اطمئنانٌ تامّ ، سوى أنّه عندما ضيّق القنّاص عينَيه وهو ينظر من ريشة البندقيّة ضيّق (أحمد) عينَيه مثله كأنّه هو الّذي يستعدّ لِقَنْصِه!! انطلقت الرّصاصة الأولى ، في المسافة الفاصلة بين فوهة الانطلاق وبين رأسه ، رأى كلّ شيء ، رأى نفسه هو وزوجته (وِداد) ينطلقان في حقلٍ فسيح من الزّهور البيضاء ، كانتْ تضحك وتقول له : «أخيرًا ها نحنُ نلتقي» كانتْ تبدو من أمامهما مآذن طرابلس ، تظهر وتختفي خلف ضبابٍ شفيف . رأى ابنه عبد القادر ، كان قد صار في عمر عشر سنوات ، كان فاتحًا ذراعَيه ، وهو يركض باتّجاهه ، ويصيح : «أبي . . أبي» . ضحك أحمد ، لقد انتظر هذه اللّحظة طويلاً ؛ أخيرًا سيحضن ابنه الّذي حُرِمَ من احتضانه طوال هذه السّنوات العشر . رأى خيولاً تصهل في الأفق ، كانت الخيول جامحة ، اقتربَ أحدها منه ، مسح على عنقه فهدأ ، وصعد هو وزجته ، يحمل ابنه في حضنه ، وشدّ المهماز لكي تغذّ الخيل الخُطا ، كانت

الرّصاصة في اللّحظة الّتي غمَزَ فيها الخيلَ بمهمازه تُفجّر رأسه. صهلت الخيل، وعدتْ بالثّلاثة، ثمّ غابتْ في لجّة الضّباب.

كان (حُسَين) قد سمع صوت الرّصاصة القاتلة. فجر اليوم أيقظه الحَرَسُ كالعادة من أجل أنْ يبدأ بإعداد الطّعام للسّجناء. كانت السّاعة قد اقتربت من الخامسة فجرًا من يوم السّبت ٢٩-٦-١٩٩٦م. رأى حركةً وجلبةً في مبنى الإدارة، كانت السّيّارات الفارهة تدلّ على أنّ مسؤولين أمنيّين على مستوًى عالٍ قد حضروا للسّجن، ارتاب. قفز فأر الشّكّ في صدره، وهمس: «الله يستر»، كان لا يزال مُنهمكًا في إعداد الوجبات حين رأى مجموعةً من الحرّاس تحمل الأسلحة على أكتافها تتوجّه مسرعةً إلى العنبر رقم (٢)، العنبر الّذي يقطنه هو، أمر الحَرَسُ كلّ نزلاء العنبر بالخروج إلى السّاحة، امتثلوا كانوا أقلّ العنابر عددًا، (٣٤) سجينًا سِيقوا من السّجن المركزيّ، عبروا البّوابة أمام ناظرِيه، تشاغل (حسين) بالانهِماك في إعداد الفَطور وهو يسترقُ النّظر إليهم، بدا أنّهم يُخرجونهم من بوّابة السّجن المركزيّ باتّجاه السّجن العسكريّ. مشوا كلّ هذه المسافة على الأقدام، جمّعوهم تحت أحد الجدران ووضعوا عليهم حرسًا مُدجّجين بالرّشّاشات. كان كلّ ما يحدث يُؤرجح القلب كبندول، ويغمسه في بحر الشّكّ، لم يدرِ (حسين) ما الّذي يحدث، لكنّه بدأ بوضع الاحتمالات، «المصيبة قادمة بلا شكّ» قال في نفسه، وأردف: «المُختلَف عليه هو حَجْمُها». أوقد النّار تحت أباريق الشّاي. دخلتْ مجموعةٌ أكبر من المجموعة السّابقة، كان غبشُ الظّلام يولّي هاربًا، ركضوا تحت ما تبقّى من اللّيل. استقرّ عددٌ منهم فوق العنبرَين (٧) و (٨) لحراستهما. كانت سكّين الرّيبة قد بدأتْ تغوص عميقًا في صدره. انتظر صديقه (بشير)

لذي يُساعده في توزيع الطَّعام، نظر حوله يبحثُ عنه مع المُساعدين الآخرين فلم يَجِدْه، لم يخرجه الحرس من زنزانته في العنبر رقم (٤) كالعادة، فاقمَ ذلك من اتّساع بحيرة الشّكّ الّتي بدأ يغرق فيها. نُقل الّذين أُخرجوا من العنابر (٢) إلى السّجن العسكريّ، أمروا أنْ ينبطحوا على الأرض على بطونهم، ويضعوا أيديهم فوق رؤوسهم، ويبقوا على هذه الهيئة حتّى يأمرهم الحرس بأمرٍ آخر. في السّادسة كان (حسين) قد أتمّ تجهيز طعام الإفطار للسّجناء لكنْ من دون أنْ يظهر (بشير)! حمل الحرسُ عربات الطّعام، خرجتْ من عنده وجباتٌ تكفي لألفي سجين مثلما يفعل في العادة. العشرة الّذين يُساعدونه مع الحَرَس في توزيع الطّعام نقصوا واحدًا؛ هتف لنفسه: «بشير»، ثُمّ هزّ رأسه متسائلاً: «ما الّذي يحدثُ يا بشير؟». جاءه (عامر المسلاّتي) وطلبَ منه ألاّ يُغادر المطبخ. وأنْ يبقَى فيه حتّى يُجهّز آخر وجبةٍ في ذلك اليوم. «إنْ غادرتَ فرصاصة في رأسِك!!». لم يحدث خلال سنوات عمله السّتّ أنْ طلبوا منه طلبًا مثل هذا من قبل، ولا أنْ هدّدوه بهذه الطّريقة الحاسمة. لم يكنْ عليه إلاّ أنْ يُذعن. في السّاعة العاشرة والنّصف، جاءتْ أرتالٌ من الجنود المُسلّحين، بالمئات، كانوا يقفزون من الشّاحنات، وينتظمون في السّاحة الواقعة بين مبنى الإدارة والمطبخ، كأنّما ينتظرون أمرًا عسكريًا ما. ظهر فجأة (عبد الله السّنوسي) خارجًا من مبنى الإدارة. هرولوا باتّجاه الأدراج الجانبيّة، في دقائق كانوا يعتلون الأسطح المُطلّة على ساحات العنابر، ويتوزّعون في كلّ زاويةٍ فيها.

(٦٩)
عُرس الدَم

فُتح باب الأريا لعنبر رقم (١) ، كـان هناك أربعة عشـر حارِسًا يفتحون الأبواب الحديديّة لأربع عشرة زنزانة ، ويصيحون : «إلى السّاحة . . . إلى السّاحة . . . هيّا . . . هيّا . . . إلى السّاحة يا كلاب . .» تدفّق السّجناء إلى ساحة العنبر وهم لا يدرون ما الّذي يجري . كان صياح الحَرَس يُغطّي على كلّ شيء . لم يكنْ أحدٌ يملك خيارًا تحت تهديد السّلاح ، امتلأتْ ساحة العنبر رقم (١) بسجنائه جميعًا ، أخرجوهم من بطون الزّنازين كلّها . في الوقتِ نفسه كان هناك أربعة عشر حارِسًا آخر يفتحون أبواب الزّنازين في العنبر رقم (٣) ، وهكذا في بقيّة العنابر (٤ ، ٥ ، ٦) . كان هناك عددٌ آخَر من الحرس ، يتلقّى كلّ سجينٍ خارج من زنزانته ، فيقوم بعَصْبِ عينَيه ، وتقييد يَدَيه خلفَ ظهره بطريقةٍ بدائيّة . في ساحات العنابر (١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) كان هناك ما يقرب من (٢٥٠) سجينًا مربوط اليدَين ومعصوب العينَين في كلّ ساحة . ساد هرجٌ ومرجٌ شديدَان . لم يكنْ أحدٌ يدري ما الّذي يحدث . صاح بعضُ السّجناء : «نريد أنْ نعرف ما يجري . . . ما هذا؟ لماذا تُقيّدون أيدينا؟ لماذا تعصبون عيوننا؟ إلى أينَ تأخذوننا؟ ماذا تريدون أنْ تفعلوا بنا؟» غير أنّ هذه التّساؤلات الذّابحة غابت في الصّخب الّذي أحدَثه تدافع السّجناء . استمرّ إخراج السّجناء من عنابرهم وتقييدهم من السّاعة السّابعة إلى العاشرة صباحًا .

في العاشرة والنّصف صباحًا من يوم السّبت ٢٩-٦-١٩٩٦م ، كان المجلس الأمنيّ مجتمعًا بكافّة مسؤوليه . مئات الجنود المدجّجين بالأسلحة الرّشّاشة كانوا يتمركزون في مواقعهم فوق أسطح العنابر . خليّة القتل كانت قد أتمّت استعدادها ، تلقّى السّنوسيّ اتصالاً من العقيد ، قال له جملةً واحدة ، كانتْ كفيلةً بألاّ يكون بعدها أيّ كلام . قال السّنوسيّ للخليّة بأذرعها كافّة : «لا أحدَ يُطلق رصاصةً واحدةً إلاّ إذا بدأتُ العُرس» . سكتَ ، ثُمّ التفتَ حوله حتّى واجهتْ عيناه عينَي (منصور) : «أنتَ» وأشار إليه بلهجة الأمر : «ستبدأ إطلاق الرّمّانات» . ثُمّ لم يقلْ من بعدِها شيئًا . صمتَ السّنوسيّ فصمتَ كلّ مَنْ كان بحضرته . ارتفعت في جوّ المكتب أدخنة الّذين ملؤوا أفواههم بالسّجار . كانوا يدخّنون بشراهة وينتظرون اللّحظة الحاسمة . بدا المجلس صورةً عن تلك الّتي كانتْ تلتفّ حول رئيس الحشّاشين الحسن الصّبّاح في قلعة ألموت . في حوالي السّاعة الحادية عشرة وقف السّنوسيّ . عدّل من ياقة قميصه ، وأسدل بطرف أصابعه طرفَي بذلته ، وسار ببطء خارج المكتب . تبعه الآخرون وهم لا يزالون ينفثون دُخان سجائرهم . تناول مُسدّسه . نظر في ساعته . إنّها اللّحظة الحاسمة . أطلقَ الرّصاصة الأولى . اخترقت رصاصة السّنوسيّ جدار الصّمت ، وجدار الحياة ، وجدار الإنسانيّة ، وهدّمتْ كلّ شيء ، وأذنت بفتح صفحة كبيرة في تاريخ القَتَلة في ليبيا .

صعد (منصور) أسطح الأريات ، كان معه المعاونون ومعهم القنابل ، ناولوه القنبلة الأولى فرماها في ساحة العنبر وسط حشود السّجناء ، فانفجرتْ على الفور ، تطايرت الجثث ، تدافَع السّجناء ، انطلقت صرخات الرّعب من أفواه المساجين . تمزّقتْ أشلاء هنا وهناك .

ركضَ السّجناء مكفوفي الأعين في كلّ اتّجاه . نزل منصور من سطح ذلك العنبر ، كان ذلك إيذانًا للبقيّة أنْ يُتمّوا العمليّة . انطلقت رصاصات الرّشّاشات من القنّاصة ، كانوا يُصوّبون إلى الرّأس والصّدر والبطن ، كان هناك هدفٌ واحدٌ للعمليّة : «ألاّ يخرج من العنبر واحدٌ حيًا أبدًا» . تابع منصور عمليّته إيّاها في بقيّة العنابر ، يُلقِي القنبلة في حشد السّجناء ، وينزل لكي يبدأ القنّاصة عملهم . واحدة من القنابل ؛ القنبلة الّتي أُلقيت في العنبر الثّالث لم تنفجر . طلبَ منصور من القنّاصة أنْ يكونوا حذرين ، ومنع أيّ حارسٍ أو عسكريّ من الاقتراب من العنبر ، وأذن بإتمام عمليّة القنص ، وفتح نيران الرّشّاشات .

كان كلّ شيءٍ يموت في تلك اللّحظة ، السّجناء ، الكرامة ، شعور القتلة ، قلوبهم المقدودة من الحجارة . . . كانوا يُصوّبون نحو الرأس بلذّة غريبة ، وحينَ يهوي المذبوح ، تسري فيهم رَعشةٌ غريبةٌ ؛ هي مزيجٌ من السّعادة المُبهَمة والفرح الغامض والمتعة الكثيفة . هل في القتل مُتعة؟ كان السّجناء يتساقطون واحدًا تلو الآخَر . رصاصةٌ في الرأس تكفي . رصاصتان في الصّدر . أمّا البطن فيحتاج إلى ثلاثٍ أو أربع . الرّأس أولى بالرّصاص الّذي يتطاير من كلّ اتّجاه ؛ هؤلاء الزّنادقة لا يستحقّون إضاعة الكثير من الرّصاص من أجل إبادتهم عن بكرةِ أبيهم .

كان السّجناء يرفعون رؤوسهم نحو مصدر الرّصاص ، يريدون أنْ يتبيّنوا المصدر مع أنّهم كانوا معصوبي العيون ، كانتْ هذه أفضل زاوية بالنّسبة للقنّاصة كي يُجهزوا على طريدتهم . كان السّجناء يهربون في كلّ اتّجاه ، ولكنّ قدرهم كان لهم بالمرصاد أينما هربوا ، لا جهة معزولة عن الموت ، لا جهة يمكن أنْ يكون انطلاق الرّصاص منها أقلّ من

الجهة الأخرى ، كانت كلّ الجهات تتقاطر بالموت ، وتتراشح بالفناء والرّعب . اختلطت صرخات الاستغاثة بصرخات التّساؤلات الرّاعفة بصرخات الألم بصرخات الموت والرّعب . . . هربَ السّجناء إلى كلّ الجهات ، اصطدم الهارب بالّذي يهرب منه . سقطَ القتلى ، داسَ بعضُهم فوق بعضٍ . تعثّروا ، ركلتْهم أقدام الهاربين ، كانت الفوضى تعمّ كلّ شيءٍ . استطاع بعضُ السّجناء أنْ يفكّوا قيود أيديهم ، ويُزيلوا العصابات عن الأعين ، كان (بشير) أحد هؤلاء . نظر حوله يريد أنْ يدرك حجم الكارثة ، لم يكنِ الرّصاص ليُمهله لمزيدٍ من التّفكير . هجم على الجثث ، سحبَ بعضَها ممّن كانتْ لا تزال فيهم حياة باتّجاه زوايا السّاحة لعلّها تكون أكثر أمانًا ، ركضَ باتّجاه الزّنازين يُريد أنْ يُحضر ماءً ، وجد الزّنازين مُغلقة ، كانتْ قد أغلقتْ بعدَ إخراجهم منها ، دار بسرعةٍ على زنازين العنبر الرّابع كلّها في محاولةٍ لإيجاد ما يُمكن أنْ يُساعد في تخفيف المجزرة الّتي تحدث ،لكنّه لم يجدْ بابًا واحدًا مفتوحًا ، كانت الأبواب كلّها مُوصَدة . في اللّحظة الّتي أراد أنْ يعود فيها إلى السّاحة ، اخترقتْ رصاصةٌ موضع قدمَيه ، تفجّر الدّم من أصابعه . تراجع إلى الوراء ، خطرَ بباله أنْ يختبئ في الممر الّذي يصل بين الزّنازين ويتّقي الموت المنهمر مع الرّصاص ،لكنّه سمع استغاثات الضّحايا في العنبر ، حدّثته نفسه : «أنقذْ روحك» . قال له الصّوت المستغيث : «تتركنا للموت وحدَنا» . انتفض . همّ بالخروج . لكنّ الرّصاص كان كثيفًا . تراجع من جديد ، سمع صوتَ نفسه : «ولا تلقوا بأيديكم الى التّهلكة» طمأنه هذا الصّوت الّذي بدا أنّه صوتَ إلهيّ ، لكنّ اطمئنانه لم يدمْ طويلاً ، إذ اخترق سمعه صوتُ أحد المُستغيثين : «بشير . . . هل أنتَ هنا . . . بشير» . خُيّل إليه أنّه صوتُ (العَدْلي)

المسنّ . نظر من باب العنبر المُطلّ إلى السّاحة ، رآه ، رأى الشّيخ يستغيث ، ورأى القتلة يتساقطون ، ورأى أيادي ترتفع إلى السّماء ، وأخرى تُشير بإصبع السّبّابة إليها . وعيون مُفتّحة ، ودماء تسيل في كلّ بقعة . ركضَ باتّجاه السّاحة ، تلقّاه قنّاصٌ متمركزٌ في الجهة المقابلة لبوّابة العنبر المطلّة على السّاحة ، فأوقفَ اندفاعته ، جاءتْه الرّصاصة في صدْره ، شعر بدوار ، الدّنيا تغيم ، والأرض تدور . وجعٌ خفيفٌ فقط هو ما شعر به مثل وخزة شوكة في القلب ، صوتُ أزيز يطنّ في أُذنَيه لم يدر هل هو أزيز الرّصاص أم أزيزُ نحلةٍ في الحقل الّذي وُلِدَ ونشأ فيه . كان الدّم الدّافئ يسيل على صدره ، وضع يده على صدره حتّى امتلأتْ بالدّم ، ومسح بها لحيته : «أريد أنْ ألقى الله بلحيةٍ مُخضّبة بالدّم» . تهاوى . لكنّه تمالك نفسه . مشى خطوتَين باتّجاه صديقه العجوز ، «لقد هتف باسمي ولا يُمكنني أنْ أتخلّى عنه ، لقد استغاث بي ولا يُمكنني أنْ أتركه وحيدًا» . جاءتْه رصاصةٌ أخرى هذه المرّة في رأسه ، دخلتْ من المقدّمة واستقرّتْ في الدّماغ ، أحسّ بشيءٍ من الضّيق وهي تحتلّ دماغه ، تهاوى من جديد ، حاول أنْ يخطو خطوةً واحدة ولكنّه سقط ، سقطَ على ركبتَيه ، كان لا يزال صدره عاليًا ، نظر باتّجاه الشّرطيّ الّذي يُطلق الرّصاص عليه ، تلعثمتْ شفاهه ، خرجتْ منها حروف كلمة واحدة : «سامحتُك» . هوتْ يداه عن جانبَيه ، انحنى جذعه ، وألقى برأسه المُثقل بالحبّ على صدره ، رأى قلبَه تمامًا ، رأى بساتين الورد الّتي تُسيّجه ، رأى العطر الّذي يفوح منه ، وشاهدَ أسراب الطّيور الّتي تُحلّق في فضائه مبتعدةً رويدًا رويدًا ، كان قد أوشك على أنْ يستسلم ، حينما طرقَ سمعَه صوتٌ مألوف ، آه ، نعم ، أرهفَ سَمْعه بما تبقّى في روحه من حياة ، إنّه صوتُ فاطمة . . . «آه يا

فاطمة : «اشتقتُ إليكِ يا حبيبتي ، لماذا أطلت عليّ الغيبة؟» . لم تكنْ تسمع عتابه ، «آه يا فاطمة . . . طريقي ربّما كان صعبًا لكنّه ربما أشدّ صعوبةً عليكم . . . اريدُكِ أنْ تقفي إلى جانب أمّك ، هي تحتاجك ، هي تحتاج أنْ تعوّض هذا الفقد الأليم» . سمعها هي الأخرى تهمس في أذنيه : «أبي . . . حبيبي . . . لا شيء يعوّض فقدانك . . . أنتَ لنا كلّ شيء . . . هيّا . . . الطّعامُ ما زال على المائدة ينتظر منذ ذلك اليوم الذي غبتَ فيه . . . هل تريد أنْ تزعل أمّي منك؟! هيّا تعالَ معي» .
أراد أنْ ينهض لكي يذهب معها ، أنْ يقوم ليحتضنها ، ليركض باتجاهها ، لكنّه لم يكنْ يملك أيّة قوّة ليفعل أيّ شيء من ذلك ، اقتربتْ فاطمة أكثر منه ، ربّتتْ على كتفيه ، سمعها تقول : «لا بأسَ عليكَ يا أبي . . . اليومَ لا تعب ولا حُزن ، اليوم لا جوع ولا عطش ، اليوم لا ذلّ ولا مَهانة ، اليوم ستّرتاح يا حبيبي» . سقط على جانبه ، وسجّى يديه ، كانتْ روحه تصعد إلى الأعالي ، فتحَ عينيه ، رأى فاطمة حقًا ، ورأى محمّدًا وبراءة ، وأمّهم من خلفهم ، وهم يبتسمون ، كانت الشّمس ترسل أشعّتها من بينهم وهم يتحركون من حوله ، ويقولون : «هيّا . . ألا تُريد أنْ تعودَ معنا . . ؟!» . كانوا يمدّون إليه أيديهم جميعًا . أراد هو أيضًا أنْ يمدّ يديه ، لكنّه لم يستطع ، أرادَ أنْ يقول لفاطمة شيئًا ، لكنّ لسانه كان قد تحوّل إلى حجرٍ داخل فمه ، هبطتْ فاطمة إليه ، مسحتْ على جبينه المُتعرّق ، أحسّ ببرد يديها الحانيتَين ، شعر ببعض الرّاحة ، نظر إلى الأعلى ، كانت روحه تحلّق فوقهم ، عبر شعاع الشّمس ، رآها تصعد نحو الله . كان هناك ملائكة يستقبلونه على أبواب السّماء . حفّوا به ، وأوصلوه إلى مقامه المعلوم . وعلى الأرض كان عرس الدّم لا يزال قائمًا .

(٧٠)
أريد أن أصلّي ركعتَين

في زاوية العنبر الخامس كانتْ هناك دورة مياه قديمة غير مستعملة ، هربَ إليها أحدُ السّجناء ، أولئك الّذين استطاعوا أنْ يفلتوا من الرّصاص المنهمر . وجد فيه السّجين حمايةً من مطر الرّصاص الّذي لم يتوقّف منذ ساعة حتّى الآن ، كانت الرّشّاشات تُصوّب من بين فتحات الشّبك الّذي يُغطّي ظهر العنابر إلى السّجناء المرتاعين . رقصتْ بهذا السّجين حلاوة روحه فدلّته إلى باب الحمّام ، دفع بابه بكتفه فانفتح ، كان لا يزال معصوب العينَين ، أزال العصابة بأنْ ركزها على أحد المسامير الموجود في الباب ، وحاول أنْ يفلت قيود يدَيه بالطّريقة ذاتها فنجح ، تمركز خلف الباب ، كان لا يزال يلتقط أنفاسه من شدّة الهَول ، فتح عينَيه على اتّساعهما ليستوعب الصّدمة الّتي ابتلعتْه . لم يكنْ هذا واردًا في الخيال . فتح عينَيه وأغلقهما بسرعةٍ مرّاتٍ عديدة ليتأكّد أنّ كلّ هذا حقيقيّ . لهثَ طويلاً قبل أنْ يستعيدَ بعضَ رباطة جأشه ، فتَحَ باب الحَمّام الخشبيّ قليلاً ، ومدّ ببطءٍ طرف عينَيه ليتلصّص على ما يحدث ، الجثث تملأ السّاحة ، الموت يفترس كلّ مَنْ فيها . الأرض سالتْ بالدّماء في كلّ بقعة . صرخات الجنود لا تتوقّف . لعلعات الرّصاص لا تهدأ . كان مشهدًا لا يمكن وصفه ، ما تبقى من المساجين يسيرون كالعميان في كلّ اتّجاه ، ثُمّ يسقطون ببساطة ، بعضهم كان يعرج خطوتَين أو ثلاثًا قبل أنْ يسقط متكدّسًا فوق قتيلٍ آخر . لمحَ من بعيدَ أحدهم يزحف على

جانبه ، كان جريحًا لم يمتْ بعد ، اخترقتْ رصاصة رأس سجين آخر كان واقفًا إلى جانب الّذي يزحف فسقط على رأسه ، أحدث سقوط الجثة على رأس الجريح ارتطام الرأس بالأرض ، فقأ حجرٌ عينَه . صاح صيحةً واحدةً وهمد . أسندَ أحدهم جذعه على جدار السّاحة ، انطلقتْ رصاصةٌ (٣٢) ملم من الكلاشينكوف الّذي يحمله العسكريّ في الجهة المقابلة تمامًا ، اخترقتْ رأسه ، وسال الدّماغ على الحائط . آخر دفعتْه الرّصاصة الّتي أصابت صدره إلى أنْ يتراجع إلى الوراء فيلتصق بالحائط ، كانتْ روحه قد فاضتْ ، ظلّ مرتكزًا إلى الحائط وهو ميّت ثواني قليلة قبل أنْ يمسح ظهره الحائط وهو يخرّ على هيئة القرفصة راسمًا خطوطًا قانية متعرّجة من الدّماء على الحائط من خلفه . كانت الجثث قد بدأتْ تتراكم بعضها فوق بعض . غطّتِ الدّماء الجدران والأرضيّات . تناثرت أشلاء القتلى الّذين سقطوا بالقنابل هنا وهناك . كانت الأيدي المقطّعة والأرجل والرّؤوس والأمعاء المندلقة تملأ السّاحات . حانت التفاتةٌ من الحارس المتمركز فوق الزّاوية القريبة من الحمّام ، لمح بابها يتحرّك ، عرفَ أنّ هاربًا من الموت يحتمي خلفه ، صوّب إليه رصاصةً فانفجرت الرّصاصة في قفل الباب ، فارتطم برأس المختبئ فشجّه ، صمد قليلاً . لكنّ القنّاص لم يرحمه ، أمطر الباب بالرّصاص بلا توقّف حتّى وقع الباب على السّجين ، استخدمه السّجين ليحتمي به من الموت الّذي لا يترك له فرصةً للنّجاة ، لكنّ الرّصاص استمرّ بالانهمار ، رمى الباب الخشبيّ خلفه ، وهرب باتّجاه السّاحة يبحث عن فرصةٍ هاربةٍ للنّجاة ، تلقّته رصاصات القنّاص الّذي جعله شغله الشّاغل ، لم تُمهله الرّصاصات أنْ يركض أكثر من أربع خطواتٍ ، سقط فوقَ شهيدٍ آخر ، كان الشّهداء يتراكمون .

كان حسين يرتجف في المطبخ ، الرّصاص لم يسكتْ لحظة . عيون الحرس كانت تراقبه من أجل ألاّ يغادر المطبخ كما أمره (عامر المـلاّتي) . كانتْ أصوات البنادق الآليّة الّتي لا تنقطع تزيد ثقب الفجيعة في قلبه . استمرّ إطلاق الرّصاص من البنادق الأوتوماتيكيّة ما يقرب من (٣) ساعات ، في السّاعة الثّانية إلاّ ثلثًا توقّف الرّصاص . كان كلّ نزلاء هذه المهاجع (١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) قد أُبيدوا بالكامل . أمر السّنوسيّ آنئذٍ بإيقاف إطلاق الرّصاص . ونزل إلى السّاحات ، بدأ بالسّاحة الأولى ، أمرهم بأنْ يمشّطوا كلّ ساحةٍ على حِدة ، كان تمشيط السّاحات يعني أنْ تقتل كلّ مَن بقي في روحه رمق . ما يُسمّونه (رصاصة الرّحمة) ، قال لهم : «أجهِزوا على كلّ مَنْ بقي حيًا» . وأخذ مُسدّسه ، ودار على الجثث في آريا العنبر الأوّل ، راح يُطلق الرّصاصات على الرّؤوس . «هكذا . . . لا أريد أنْ يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة» . نزل الجنود من على الأسطح ، انتشروا في ساحات العنابر الخمسة ، وراحوا يتفقّدون الجُثث جثّة جثّة ، يركلونها بأرجلهم ، ويُطلقون رصاصة الرّحمة على أيّ سجينٍ يتحرّك فيه أيّ شيء ، مرّوا في تمشيطهم على شهيدٍ لم تكنْ روحه قد صعدتْ إلى بارئها تمامًا ، كان في النّزع الأخير ، مدّ يده إلى العسكريّ كأنّما يطلب منه شيئًا ، نظر العسكريّ إلى شفتيه ، كانتا تتحرّكان ، أراد السّجين أنْ يرفع صوته لكي يكون مسموعًا ، لكنّه لم يُفلح ، ظَنّ العسكريّ في هذا الجوّ من الحرارة الخانقة على أبواب تموز أنه يطلبُ ماءً ليروي عطشه الشّديد ، أو يريد أنْ يوصّي لأهله ، عنّ ببال العسكريّ أنْ يسمعه ، ويُعطيه هذه الفرص ، انحنى لكي يسمع ما يقول ، «أريد أنْ أصلّي ركعتَين» . ظَنّ العسكريّ أنّه محموم ، وأنّ ما تبقّى له من خيط الحياة الرّفيع جدا

حمله يهذي بهذه الكلمات ، هكذا فكّر العسكريّ ، تناول المسدّس من جانبه ، وسحب أقسامه ، رأى عينَي السّجين ترجوانه ، سمعه يقول : «لا أريدُ شيئًا إلاّ أنْ أصلّي ، أنهضني لكي أصلّي ، وسأدعو لك ، وبعدها اقتلني . لا أريد من الدّنيا شيئًا أكثر من ركعتين!» . كان العسكريّ قد أتمّ سحبَ أقسام المسدّس ، وضع فوهته على جبين السّجين ، كانت عيناه تتحرّكان ببطء ، وشفتاه مُشقّقتان من العطش ، وأنفاسه تتقطّع ، وضع العسكريّ إصبعه على الزّناد ، وضغط ، أفرغ ستّ رصاصات في رأسه حتّى لم تعد هناك معالم تدلّ عليه ، ثمّ نهض . «الآن ارتحت» . تجوّل العسكريّ في السّاحة ، كانتْ لديه كفاية من الرّصاص ، عَنّ بباله أنْ يُطلِق رصاصةً على كلّ رأس بمن فيهم أولئك الّذين غادروا الحياة من زمن ، عندما انتهى من ذلك ، وقف على كومة من الجثث المتكدّسة ، فتح سحّاب بنطاله العسكريّ ، أخرج عضوه وبال على تلك الجثث . عندما فرغ ، هتف : «الآن ارتحت» . صعد من هناك إلى السّطح ، أسندَ جذعه إلى أحد أعمدة المراقبة ، وأخرج سيجارة ، أشعلها ، وراح يدخّن باستمتاع!

في الثّانية ظهرًا غادر السّنوسيّ ومنصور وبعض القيادات السّجن ، والتقوا بالعقيد في تاجوراء ، هنّؤوه بحرارة كما لو كانوا عائدين من انتصارات كُبرى : «لقد تمّت العمليّة كما يجب» .

كانت الجثث لا تزال مُلقاةً في السّاحات . كان الموت ينبعث من كلّ زاوية . الموت في كلّ مكان . رائحته كانت تملأ الفضاء . كان الشّهداء لا يزالون في السّاحة لم يقتربْ منهم أحد ، ولم يُدفَن منهم أحد ، وظلّوا تحت شمس الصّيف الحارقة .

في الرّابعة نزل (عامر المسلاتي) ومعه عددٌ من حرسه إلى

الساحات ، طافوا بين الجثث ، تسابقوا لنزع الساعات من معاصم الشّهداء ، والخواتم ، والنّظارات ، وتفتيش الجيوب لنهب النّقود ، وجمع أكوامًا منها في مكتبه . ثم أمر بفتح الزّنازين ، فأخرج منها الملابس والبطاطين وأجهزة الراديو والمراوح وكلّ ما فيها من موجودات . ثمّ كوّمها في مكتبه ، ودعا الحرس ، فوزّع عليهم بعض الغنائم ، وباعهم بعضها الآخر وخاصّة السّاعات الثّمينة ، وأجهزة الرّاديو الّتي كانتْ بحالة جيّدة . بعدَ أشهر باعَ الحَرَس ما اشتروه من (عامر المسلاّتي) إلى السّجناء الّذين نَجَوا من المجزرة ، أو الّذين وفدوا إلى السّجن بعدَها!!

في السّادسة طلب (عامر المسلاّتي) من (حسين) ومجموعة أبناء الشّعب إعداد العشاء لـ (٨٠٠) سجين فقط . قال لهم : «لقد تخلّصْنا من أكثر من ١٢٠٠ وجبة ، إنّها فرصةٌ لكم لكي ترتاحوا ، أنا أقدّر تعبكم جدًا» .

في السّابعة قبيل أنْ يهبط الظّلام على أجساد الشّهداء المكشوفة في السّاحات للغربان والبوم والطّيور الجارحة الّتي بدأتْ تنهش من رؤوسهم ، تمكّن ستّة سُجناء من الّذين نَجوا من الرّصاص بقدرة إلهيّة ، وكانوا مُختبئين في الحمّامات من الفرار عبر تسلّق الجِدار الدّاخلي للسّجن ، وقفزوا إلى السّاحة الثّانية الّتي خلفَها سورٌ آخَر تتمركز على زواياه أبراج المراقبة ، وتعلوه الأسلاك الشّائكة المزوّدة بصواعق كهربائيّة . كانوا قد استغلّوا هبوط اللّيل ، وعدم وضوح الرّؤية ، ليزحفوا في السّاحة باتّجاه (كاشيك) جرّافة رابضة في الزّاوية ، ويختبئوا تحتها بانتظار الإفلات بطريقة أو أخرى عبر تسلّق الجدار الثّاني . أحسّ أحد الحرس بحركة مُريبة تحت الكاشيك ، وكان هذا الحارس يقبع في البرج رقم (١٢) ، صوّب بندقيّته باتّجاه الكاشيك ، وأطلقَ رصاصة اختبار ،

ليعرف إنْ كان هناك أحدٌ تحته من خلال الصّوت أو الحركة . انفجرت الرّصاصة عند وجه أحدهم فعفّرته بالتّراب ، وشيّبتْ شعره في لحظات . دخلتْ شظايا من الحجارة في عينَيه ووجهه ، فصبر ، لكنّ الرّصاصة راحتْ تتبع الرّصاصة ، لم يكتفِ القنّاص باختبار الطّلقة الأولى فقط ، بل أتبعها بعشرات الطّلقات ، كان أزيز الرّصاص في كلّ مرّة يفجّر شيئًا ، زجاج الجرّافة ، هيكلها الحديديّ ، أضواءَها المُعتمة . اخترقتْ رصاصةٌ الإطار العملاق للجرّافة ، فاهتزّت من فوقهم ، تتابعت الرّصاصات حتّى هوى جزءٌ من الجرّافة من فوقهم ، وكادت تسحقهم ، لكنّهم كانوا يختارون بين موتَين ، غير أنّ الأمل بالنّجاة منعهم من الخروج . كانوا ينكمشون من تحتها يحتمون من وابل الرّصاص ، حتّى إذا وقعتْ رصاصةٌ بالقرب من أنف أحدهم فَغَبَّر التّراب في أنفه فكاد يختنق ، وكان الخوف قد بلغ فيه منتهاه ، خرج من تحتها ليُسلّم نفسه ، لم يكدْ يستوي واقِفًا على قدمَيه ، حتّى صوّب القنّاص فوهة الكلاشينكوف على ضوء ما تبقّى من النّهار نحو رأسه فأرداه قتيلاً على الفور .

جاءت بقيّة الحراسات بعد أنْ سمعتْ إطلاق الرّصاص ، قال لهم القنّاص ، إنّ هناك عددًا من المساجين النّاجين موجوين تحت الكاشيك ، فانطلق إليهم الحرس بالسّلاح ، فخرجوا من تحت الكاشيك رافعين أيديهم مستسلمين ، قائلين : «احنا اخوتكم مسلمين . . . نحن عزّل . . . ترانا ما عندنا شيء يا ناس . . . لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله . . .» فجلبوهم إلى آريا عنبر رقم (١) ، وأدخلوهم إليها تحت تهديد السّلاح ، فهُرِعَ إليهم ضابطٌ من ضُبّاط الشّرطة العسكريّة يجري إلى السّاحة وهو يصرخ : «إطلاق نار لا . . . إطلاق إنار لا . . . وقفوا . . .

وقفوا . . . ما فيش إطلاق نار» . وكان وقت إطلاق الرّصاص قد انتهى .

ربطوا أعينهم ، شدّوا العصابات عليها بشكل مُحكم . كتّفوا أيديهم من الخلف ، وأحضر الحَرَس (البلوك) طوب الخرسانة . وضربوا الأوّل بالطّوب بين أكتافه ، فسقط ، كان اللّيل يُمعن في الظّلمة . وكان الرّعب سيّد الأشياء . جاؤوا بالثّاني ففعلوا معه الشّيء ذاته فهوى هو الآخر ، ثمّ كرّروا الأمر مع الثلاثة الباقين ، وظلّوا يضربونهم بالطّوب الخرسانيّ في مقاتلهم ؛ على الجزء الخلفي من رؤوسهم حتّى تهشّمت رؤوسهم ، وسال المُخّ ، ولفظوا أنفاسهم . لم يكنْ من صوت ليُسمع - باستثناء ارتطام الحجارة برؤوسهم ولُهاث الجلاّدين - غير تمتمانهم بصبر وهم يُغادرون الفانية : «لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله» .

سحب الحرس الجثث الخمس من زاوية الجدار وألقوها إلى جانب الجثث الأخرى المُتكدّسة في السّاحة ، كان الدّم المرشوق على فتات الإسمنت الّذي هَشّم رؤوسهم يلمع تحت الضّوء الأصفر المنبعث من الأبراج العالية .

كانتْ طرابلس تبكي . حجارتها تنتحب . طيورها تنوح . وسماؤها تنزف ، وهواؤها يندب ، كان كلّ شيء ينوح ، وحدها قلوب الجلاّدين ظلّتْ جامدة كأنّهم ليسوا من طينة البشر!!

(٧١)
نحن لا نَحتمل كُلّ هذا يا أختاه!!

خرج (حسين) في فجر اليوم الثّاني يوزّع الطّعام. أمروه مع أبناء الشعب أنْ يوزّعوا الطّعام فقط على المهاجع (٢، ٧، ٨)، أتاح لهم ذلك أنْ يعبروا السّجن بأكمله. كانت أبواب المهاجع الأخرى مُقفلة. كانت رهبة تُلقي بظلالها القاتمة على المكان. سمع (حسين) صوتَ العدم الثقيل في مهاجع الشّهداء. سمع السّكون المريب، سمع الصّمت المُطبق، وشمّ رائحة الموت المنبعثة من السّاحات فارتعب. كان يحمل أوعية الطّعام مع الآخرين ورِجلاه ترتعشان، هل يُمكن أنْ يكونوا قد قتلوا كلّ هؤلاء؟ ليس من المعقول أنْ يذبحوا أكثر من (١٢٠٠) سجين في أقلّ من ثلاث ساعات. أين ذهبَ سُجناء هذه المهاجع؟! أتكون آلة الذبح قد أتت عليهم جميعًا؟! مَنْ يستطيع أنْ يفعل ذلك؟! أيّ بشريّ يقدر على أنْ يرتكب مجزرةً بهذه الفظاعة؟!

مشى متوجّسًا يتلفّتُ حوله، لم يكنْ معه أحدٌ من السّجناء في الخدمة، وحدهم العساكر هم الّذين داروا معه على بقيّة المهاجع كي يوزّعوا الطّعام، كان هناك رعبٌ ما يسكن الأجواء، نُثاراتٌ من الهلع تتدلّى من السّقوف كأنّها بقايا بشر قضى عليهم الموت من آلاف السّنين، شعر أنّه يعبر مقابر أناسٍ مرّوا بهذه الأرض منذ مئات القرون. كانتْ تباشير الفجر تلوح، شعاع الشّمس كان قد بدأ بالتّسلّل، من الجهة الشّرقيّة رأى الشّمس ترتفع رويدًا رويدًا، وهي

تُرسل خيوطًا باهتة ، بدا أنّها أكثر حُزنًا منه ، هو الّذي لا يقدر حتّى الآن على تخيّل أنّ هؤلاء جميعًا قد رحلوا ، ولم يبقَ منهم أحدٌ . بدا أنّها لا تريد أنْ تطلع ، بدا أنّهـا تريد أنْ تبكي مـثل طرابلس ، كـأنّما قالت الشّمس لها : «لقد فقدتُ قلبي مثلك ، نحن لا نحتمل كلّ هذا يا أختـاه!!» . تُرى ما الّذي جعل ذلك الصّباح باردًا وكـئيبًا إلى هذا الحدّ . من خلف أسـوار عنابر القـتلى سـمع أصواتَ الغـربان على الحقيقة : «غاق .. غاق . . . غااق» . هل جاءت الغربان لتدلّ البشر على الطّريقة الّتي يجب أنْ يدفنوا بها إخوتهم؟! أم جاءتْ لتنوح على الرّاحلين ، وتنضمّ إلى طائفة البـاكين؟! كـانت الغـربان ما تزال تحلّق ، وتنعب في سجن يقع في قلب طرابلس ، من خلفه كـانت الحافلات تُطلق أبواقها في الشّوارع ، النّاس كـانوا يروحون ويجيئون إلى أعمالهم في ذلك الصّباح بشكلٍ اعتـياديّ ، وهم لا يدرون أنّ هناكَ قطعةً من الأرض منزوعةً من قلب طرابلس ولا تنتمي إلى هذا العالَم ، وحدث فيها كلّ هذا!! كلّ هذا!! كيفَ يُمكن أنْ تشرح للنّاس كلّ هذا؟!!!

بقـيت الجـثث في السّـاحـات ثلاثة أيّام ، في اليوم الرّابع فَطِن الزّبانيـة على أنْ يدفنوا هذه الجـثث قـبل أنْ تبـدأ بالتّـفسّخ . كـانت الرّائحـة قـد بدأتْ تفوح في الأرجاء . لـم يحـتمل الوضع أحدٌ . وضع الجلاّدون الكـمّامات على أفواههم ، وجاءتْ جرّافةٌ كـبيرةٌ لكي تحفر القبر الّذي ستُدفَن فيه الجثث . في الملعب الّذي يقع خلف العنبر رقم (٢) ، في ساحته الواسعة ، بدأت الجرّافة عملها ، حفرتْ حفرةً عميقة وعلى طول السّور تقريبًا ، وراح العسـاكـر يحملون الجثث من المهاجع البعيدة ، من مـهجع (٤ ، ٥ ، ٦) ويأتون بها إلى هنا . كـانوا يحملونها في البطّانيّات ، في الأكـياس البلاستيكيّة ، وبعضها على نقّالات

متحركة ، انهمك العساكر في نقل الموتى ، كانوا هم الآخرون قد خلت في أنوفهم رائحة الموت النفّاذة فحولتْهم إلى آلات بليدة ، تحركها ودافع البقاء والخلاص من العمليّة هو وقود حركتها . كانوا يضعون فوق النقالة جثتين أو ثلاثًا من أجل أنْ يُنجزوا المهمّة بشكل سريع ، حتّى إذا ما وصلوا إلى فم الحفرة ، ألقوا الجُثث بشكلٍ عشوائيّ . كانت الجثة تهوي من رأس الحفرة ، يدفعونها بأرجلهم ، فتسقط في عمق يزيد عن خمسة أمتار ، إلى أنْ تستقر في القاع ، فإذا ما جاءتْ جثة أخرى سقطتْ إلى جانبها أو فوقها ، وتكدّست الجُثث في الحفرة بلا ترتيب ، وفاضت الحفرة بالأجساد المُلقاة فيها ، وتكوّمتْ ، وشكّلتْ تلة فوقها ، ولم يكنْ من مجالٍ لمزيدٍ منها ، فأمر مدير السّجن سائق الكاشيك أنْ يمرّ فوق الجثث ويُسوّيها بعجلاتها العملاقة لكي تتّسع الحفرة لعددٍ أكبر ، كانت العجلات تمشي فوق الأجساد المُتفسّخة ، وكان بإمكانك أنْ تسمع طقطقات العظام وهي تنهرس تحت تلك العجلات . . طَق . . طَق . . طقطق ، كان بإمكانك أنْ ترى الرّؤوس وهي تتهشّم ، والسّيقان وهي تتكسّر كما لو كانتْ أعوادَ قصب ، والبطون وهي تنفتق وتدلق خارجًا كلّ ما فيها . . عبر (الكاشيك) الأجساد أكثر من عشرين مرّة لكي تستوي مع الأرض . جاء (عامر السلاّني) ، لم يُعجبه عمل الكاشيك ، فأمره من جديدٍ أنْ يمرّ فوق الأجساد حتّى تنزل دون مستوى الأرض : «نحن نحتاج على الأقل عشر سنتيمترات أقلّ من السّطح» . فامتثل سائق الجرّافة ، وبقي أكثر من نصف ساعة يفعل ذلك ، حتّى أمره المسلاّني بالتّوقّف : «الآن يمكنكم أنْ تصبّوا الخرسانة فوقهم» . جاءت آليّاتٌ أخرى ، خلطت الإسمنت بالماء ، وقامتْ بصبّ الحفرة ، بعد أنْ أنهوا عملهم غادروا

وهم مرتاحو الضّمير . «لقد حظوا بقبرٍ جماعيٍ ممتاز» .

برزت إلى السّطح مشكلة العنبرين (١، ٣) ، سأل (عامر المسلاّني) : «كيف يمكن أنْ نتخلّص من الجثث الّتي لا تزال في ساحات هذين العنبرين؟» . قال أحدهم : «بسيطة . هناك جدارٌ جديد يُقام في العنبر (٣) ، وهناك الجدار الّذي هدّم العقيد جزءاً منه في العنبر (١) . بإمكاننا أنْ نعيد بناءهما بإلقاء الجثث فيهما وصبّ الخرسانة فوقها» . قهقه عامر المسلاّني ، قهقه طويلاً كان كرشه يهتز على إيقاع قهقهاته : «لم أدر أنّك ذكيٌّ من قبل» .

حفروا من أجل الجدار في العنبر رقم (٣) ، أقاموا عليه خشب (الطّوبار) ، بدؤوا بتجميع الجثث في كومة واحدة ، بعضُ الجثث لم يستطيعوا أنْ يصلوا إليها بسبب الرّائحة ، فاستخدموا سيخاً طويلاً من الحديد في نهايتهى (عقفة) ، وكانوا يجرّون بها الجثث بتعليق تلك العقفة الحديديّة في فم الجثّة أو في صدرها ثُمّ سحبها . كان هناك رافعة (فركة) ، تُلقَى في صندوقها الجُثّة فتقوم برفعها عاليًا ، ورميها في الجدار الفارغ ، حينَ انتهوا من إلقاء كلّ الجثث ، صبّوا فوقهم الخرسانة بارتفاع يزيد عن ثمانية أمتار ، كان الشّهداء يشكّلون قاعدة ذلك الجدار ، مَنْ كان يدري أنّ جدار السّجن يقوم على أجساد السّجناء ، وينهضُ على أشلائهم؟!! لو كانتْ هناك عينٌ كاشفة ، أو لو كان هذا الجدار من زجاج بدل أنْ يكون من الإسمنت لكان بإمكانك أنْ ترى الشّهداء خلفه وهم يرقدون بسلام ، والبسمة لا تزال ترتسم على شفاههم ، وعيونهم لا تزال تنظر إلى الأعالي محلّقة إلى سماء ليس فيها بشر . أعادوا الكرة في ساحة العنبر رقم (١) . بغروب شمس اليوم الرّابع كانوا قد تخلّصوا من جثث الشّهداء جميعًا .

في اليوم الخامس كانت الرّائحة قد انتشرتْ . اشتعل المسلاّتي غضبًا : «ماذا يريدون أكثر من ذلك . حظوا بدفن لائق ، ويُلاحقونني بالرّائحة؟!» . ردّ عليه بوشعالة : «المشكلة ليستْ في الرّائحة . نحن نخاف أنْ نُصاب بالوباء جرّاء ذلك» . اتّسعت حدَقتا عينَي المسلاّتي رُعبًا ؛ أمر بأنْ تُرَشّ ساحات القتلى جميعها بالمبيدات الحشريّة ، والمُطهّرات . فعلوا ما طلب . ظلّت الرّائحة تفوح بالرّغم من ذلك . في اليوم السّابع أراد الله أنْ يقول له : «هؤلاء لي وأنا أَوْلى بهم» . هطل مطرٌ كثيف . مَنْ كان يُصدّق أنّ مطرًا يُمكن أنْ يهطل بهذه الكثافة في شهر تموز في الصّيف؟! كان المطر غزيرًا جدًّا . سالت السّاحات بالسّيول ، وانداحت الشّوارع بالمياه ، وتدفّقتْ في كلّ اتّجاه حتّى كادتْ طرابلس تغرق . في مساء ذلك اليوم كان الله قد أعادَ للحياة دورتَها .

لم يعلمْ بالمجزرة أحدٌ . لا أهل ، لا إعلام ، لا تلفاز ، لا إذاعة ، ولا صحف . تكتّم النّظام على ما حدث بالكامل . وجعل الأمور تبدو كما لو كانتْ طبيعيّة تمامًا . لكنّ الأهالي بدؤوا يُطالِبون برؤية أبنائهم ، وبزيارتهم ، وبأخذ مواعيد لتلك الزّيارة ولو كانتْ بعيدة . في أوائل آب من ذلك العام سمحوا لهم بالزّيارة ، قال عامر المسلاّتي لهم : «أحضِروا لهم كلّ ما يريدون ، من طعام ولباسٍ وأدوات . إنّهم مشتاقون جدًّا إليكم» . وتدفّق الأهالي على بوّابةِ السّجن ، يريدون أنْ يحظَوا برؤية أبنائهم والنّظر في عيونهم ، والاطمئنان عليهم ، وإعطائهم ما يقدرون على جمعه من مال وطعام . كانت أعداد الزّوّار بالمئات . بعد أربع ساعاتٍ من الانتظار ، بعث إليهم عامر المسلاّتي مَنْ يقول لهم : «لا يُمكنكم زيارتهم اليوم ، لكن اتركوا الأغراض الّتي أحضرتموها لهم ، وستصلهم في الحال» . لم يكنْ باليد حيلة ، أذعن الأهل للأمر ، تركوا كلّ ما أتوا به وعادُوا .

قبل أنْ تغرب شمسُ ذلك اليوم ، كان المسلاّتي يجمع الأغراض الّتي أتى بها أهالي السّجناء من ملابس ، وأكل ، وشراب ، وصابون ، وحليب ، وعسل ، وسمن ، وعلب التّونة ، وعلب الجبنة ، وأجهزة الرّاديو ، وغيرها ، ويوزّعها كغنائم على حُرّاسه . أمّا الأدوات الغالية كأجهزة الرّاديو فكان يبيعها للحرس مقابل أثمانٍ معقولة ، وإذا لم يرغبوا بشرائها كان يبيعها عبر وسطاء خارج السّجن بأثمانٍ مرتفعة . الملابس الّتي كانتْ تأتي بالمئات وبالآلاف كان يُعطيها لابنه الآخَر الّذي افتتح بها متجرًا في وسط السّوق وراح يبيعها فيه!

بعدَ سنة ، قال المسلاّتي للأهالي : «لم يعدْ بإمكانكم أنْ تبعثوا لأبنائكم شيئًا من الأدوات ، نحن نكفيهم كلَّ شيءٍ ، الطّعام كثير ، والفِراش وثير ، والهواء عليل ، والماء السّاخن والبارد كثير ، والملابس كثيرة ، والمُعاملة كألطف ما يكون ، وكلّ ما يشتهونه يُلبّى لهم في الحال . . . ولكنْ ؛ بإمكانكم أنْ تبعثوا لهم برسائلكم ، وسنوصلها لهم ، وإذا أرادوا أنْ يردّوا عليكم فسنبعث لكم بردودهم!!

كتب الأهالي الرّسائل إلى ذويهم . عيّن (عامر المسلاّتي) اثنين للرّدّ على الرّسائل ، أحدهما يدبّج عبارات الرّدّ ، ويُعيد الشّوق بأحلى منه ، والتّوق بأجمل منه ، والحبّ بأعمق منه ، ويسكب المشاعر بلا حِساب ، والثّاني كان خبير خطوطٍ ؛ يقلّد خطوط السّجناء من الّذين احتُجِزتْ رسائلهم في السّابق تقليدًا شديد الإتقان ، كان عامر المسّلاتي لا يزال يحتفظ برسائل السّجناء المبعوثة من سنوات الثّمانينّات ، فأمر بواحدٍ يقلّب فيها ، ويستخرج منها الرّسائل الّتي يقوم أهلهم ببعثِ رسائل إليهم بعد المذبحة ، ثُمّ تُعطى هذه الرّسائل لخبير الخطوط ، كي يقلّد الخطّ ، والتّوقيع . أمّا نصّ الرّسالة الّتي يجب أنْ يردّ

بها على أهل السّجين فهي مهمّة الشّخص الآخر . وبهذه الطّريقة ظلّ السّجناء يظنّون أنّ أبناءهم بخير ، وأنّهم يعيشون أفضل حياة طوال أربع سنوات ، ظلّ عامر المسلاّتي يردّ على تلك الرّسائل إلى عام ٢٠٠٠م ؛ ومن بعده انقطعت الرّسائل ، لا لأنّ عامر المسلاّتي توقّف عن ذلك ، بل لأنّه أقيل من منصبه!!

(٧٢)
ليس لأحبابي قبرٌ كي يُزار

«ليس لأحبابي قبرٌ كي يُزار . ولا موضعٌ كي أبارك فيه رَقدتهم الأخيرة ؛ أيّ ألم أشدّ من هذا؟!» . بهذا ختمتْ فاطمة رسائلها المئة إلى أبيها . قالتْ لها إدارة السّجن إنّه محتاج إلى صورةٍ عائليّة . كيفَ ستقع عينا أبيها عليها بعد كلّ هذا الغياب؟! بأيّ عينَين سينظر ، وبأيّ قلبٍ تريدُ أنْ تلقاه؟!

«زارَنا مساء هذا اليوم رفيقك الّذي خرج من السّجن ، كان معه ابناه مصعب وسالم ، استقبلهم أخي . وضعتُ أكواب العصير الأربعة لهم ، نظرتُ إلى مكان الكوب الخامس ؛ كان فارغًا ، تمنّيتُ لو أنّني أضعه لك ، كيفَ يُمكن أنْ يجلس أربعتهم ولا تكون بينهم؟ هل أنتَ حاضِرٌ في الغيابِ إلى هذا الحدّ؟! كيفَ تصنع الذّكرى كلّ هذا الشّوق إليك يا أبي!! بعد خمس سنوات من ذلك اليوم زارنا في البيت مصعب ، أعددتُ كوبَين فقط ، لقد قُتِل رفيقك وابنه الآخر في الثّورة» .

«بعد أسبوع من سجنِك ، جاؤونا بالأغراض الّتي وجدوها في مكتبك في العملَ ، كان من ضمنها صورتك ، كانتْ حيّة ، ناطقة ، حاضرة الرّوح ، ظلّتْ هذه الصّورة رفيقي إلى اليوم ، أحادثها وتحادثني ، أبثّها أحزاني ونجواي ، أضمّها إلى قلبي كلّ صباح ، ماذا لو خرجتَ من إطار الصّورة وعُدتَ إلينا؟ هل الأماني مستحيلةٌ إلى هذا الحدّ؟!» .

«تسكنني هواجس الذّكرى البعيدة، هواجس الرّحيل، اليوم الّذي لم تعدْ فيه إلى البيت، أمّي مازالتْ تنتظرك على المائدة إلى اليوم، كأنّ الزّمن توقّف عند ذلك اليوم الحزين، هي لا تريد أنْ تُصدّق أنك لم تعدْ بيننا، هي أكثرنا وجعنا وأقلّنا كلامًا، أنا أبوح لأرتاح، أثرثر لأشفى، هي تصمت؛ الصّمت ثقيل، الصّمت يجعل الألم يكبر، انا أريد أنْ أبرأ منه، هل يُمكن أنْ تقول لي كيف؟».

«دعا الإمام في صلاة التّراويح في رمضان هذه اللّيلة، إنّه رمضان الحادي عشر الّذي يمرّ على غيابك، كان يدعو للوالِدَين، كانتْ صورتك في غبش المسجد تضيء، رأيتُك . . . هل أراكَ حقًا؟! لماذا كلّ هذا الحبّ؟! لماذا كلّ هذا التّعلّق؟! لماذا كلّ النّاس يحظون بآبائهم وأفقدك؟! لماذا يشعرون بالدّفء في أكنافهم وأشعر أنا بالصّقيع؟! لم تجبْني يومَها، كنتَ ترفع يديك إلى السّماء مثلنا تؤمّن على دعاء الإمام. كنتَ مبتسمًا على عادتك، مطمئنًا كأنّ كلّ هذا الغياب لم يكنْ، وكلّ هذا الفراق لم يحدث. لقد خرجتُ في تلك اللّيلة قويّة».

«غدًا هو يوم العيد، هل تسمح بأنْ ترافقني فيه ولو مرّة واحدةً يا أبي؟! مَنْ سيشتري لي ملابس العيد؟! مَنْ سيلعبُ معي؟! مَنْ سيحملني بين ذراعَيه لأرى العالَم؟! ومَنْ سيمسح دمعتي حين أبكي؟!».

في عام ٢٠٠٠م تعالت الأصوات الّتي تُطالب بالكشف عن مصير السّجناء الّذين لم يرهم أهلهم منذ أربع سنوات، كان يُمكن ألاّ يكون لهذه الأصوات أيّ تأثير، لو كانتْ تطالب بالكشف عن مصير واحد أو اثنين أو حتّى عشرة سُجناء لم يعدْ لهم وجودٌ. أمّا أنْ يختفي حوالي (١٢٧٠) سجينًا كأنّهم لم يُولَدوا، ولم يبقَ لهم أيّ أثر يدلّ عليهم،

فهذا يعني أنّ حدثًا جللاً قد وقع . كان العالَم ؛ العالَم كلّه إلى ذلك التّاريخ في ۲۰۰۰م لا يدري بشيء اسمه (مجزرة سجن أبي سليم) . ولا يعرف أنّ هذا العدد الّذي لا يُمكن تخيّله قد أُبيد إبادةً تامّةً في أقلّ من ثلاث ساعت!!

بدأتْ أصوات منظّمات حقوق الإنسان تعلو . النّظام لا يخاف من شعبه ، لا يخاف على شعبه ، بل يخاف من أمريكا ، ويخاف من الدّول الّتي ترفع لافتة حقوق الإنسان ، خاف النّظام آنئذ أنْ تحدث زيارات من منظّمات عالَميّة للسّجن فيُكتَشف الأمر ، فعنّ بباله أنْ يقوم بإخفاء الجثث المدفونة قبل اربع سنوات بطريقة مختلفة .

أحضر المسلاّتي وبوشعالة وخيري خالد (الكاشيك) فكسّر الخرسانة ، وأزالَها ، وفتح المقبرة الجماعيّة مرّة أخرى . كانت الأجساد قد تحوّلتْ إلى هياكل عظميّة ، بعض الهياكل حافظتْ على أشكالها ، زَرَدُ الظّهر ، تجاويف العيون ، الشّعر ، بعض الأظافر ، وعظام الأصابع في الكفّين والقدمَين ، أمر المسلاّتي بتكويم العِظام وتجميعها خارج الحُفرة ، أخذوا العِظام السّليمة والكبيرة مثل عِظام الحوض والجماجم والسّيقان والأذرع ، ووضعوها في أكياس ، أما البقيّة الصّغيرة الّتي لا يزيد طولها عن طول مسمار صغير فتركوها في الحفرة ، وخلطوها مع التّراب خلطات عديدة ، ثُمّ حمّلوا هذه الخلطات من التّراب والعِظام الصّغيرة في شاحنات ، وذهبوا بها إلى المزرعة الّتي تقع خلف السّجن وفَرَدوها فيها ، قال المسلاّتي : «سماد حيواني من النّوع الممتاز والغالي ، ستكبر الأشجار هنا بسرعة» . جزء من هذا التّراب المعجون بالعِظام الصّغيرة ذهبوا به إلى طريق الشّاطئ ورموها على رمال البحر ، ومشى فوقها الكاشيك لكي يُخفي معالمها ، فذابتْ بين رمال الشّاطئ! قال

المــلاّني : «إنّها ستكون ألْين من رمل الشّاطئ نفسه ؛ فلتنعمْ بها أرجل الجميلات الرّقيقات» . اشترى خيري خالد كسّارة ، وأخذ العظام الكبيرة السّليمة ، ووضعها في الكسّارة لكي تخرج مطحونة من الجهة الأخرى ، فلم تخرج العِظام مطحونةً بالحجم الّذي يريدونه . كانوا يريدون من العظام أنْ تتحوّل إلى بودرة ، لكنّها خرجتْ أخشنَ من ذلك ، جمعوا ذلك الفُتات من العِظام ، ثُمّ حفروا لها حفرةً عميقة . ورموا في قعر الحفرة إطارات السّيّارات وأشعلوها ، ثُمّ رَموا ما تبقّى من فُتات العِظام فيها لتحترق ، بقيت النّار مشتعلة في العِظام تأكلها ثلاثة أيّام كاملات!! بعد اليوم الثّالث جمعوا الرّماد المتحصّل من ذلك الحَرْق ، ووضعوه في أكياس سوداء ، وحملوه على قوارب بحريّة ، وعبرت القوارب بها بحر طرابلس إلى مسافة عميقة ، وهناك فتحوا الأكياس وذَرُّوا الرّمادَ في البحر . وعادوا مرتاحين . نعم ؛ قُتِلَ شُهداء مذبحة أبي سليم ، وأُحرِقوا ، وأُغرِقوا ؛ لقد نالوا الشّهادة ثلاث مرّات .

(٧٣)
العقيد

في النّزع الأخير للشمس خرج العقيد مع يونس ومنصور وعزّ الدّين. قال لهم: «روحي هنا، الآلهة وُلِدتْ هنا، أشعر بهذا الرّباط المُقدّس بين الأجساد الخالدة؛ أنا والآلهة وسِرْت». لم يقلْ أحدٌ من الثلاثة شيئًا، أردف: «النّهايات لي وأنا أملكها، أنا ربّ اللّحظة الماضية والقادمة، أنا أنتصر على الموت بالخلود. لن يهزمني أحدٌ». تابع الثلاثة صمتَهم، كانتْ (سِرْت) أيضًا صامتة، كأنّما أصابتْها صدمةٌ عقدتْ لِسانَها.

منذ شهر وهي على هذه الحال، لا تقول كلمةً واحدةً، كلّ مَنْ فيها تركها وغادر، هرب السّكّان من أتون الحرب المُحتدمة، منذ أنْ حاصَرتْها قوّات الثّوّار ودارتْ فيها المعارك بينهم وبين جنود العقيد لم يبقَ فيها أحدٌ. كان الثّوّار يحاولون تضييق الدّائرة على العقيد وجنوده، يحلمون باللّحظة الّتي يُعلنون فيها أنّ الطّاغية الكبير قد وقع في قبضتهم، وأنّ الوَحش الّذي كان يضرب في كلّ مكانٍ، ويقتل كما يشاء قد انهار وانتهى، وأصبح بلا مخالب، جريحًا مكدودًا لا يُسعفه الوقت إلاّ لِلَعْقِ جراحه.

كان العقيد يمشي وأحزان الدّهور كلّها تربضُ على كتفَيه، ما الّذي أحال هذه المدينة الوادعة الجميلة إلى وجهها الكئيب البائس، كانت (سِرْت) قد تحولتْ إلى مدينة أشباح، ساكنة سكون الأموات، لا

يجول أحدٌ في طرقاتها باستثناء بعض الكلاب الّتي كانتْ تتشمّم الجثث فتنهشُ بعضًا من لحمها أو تأنف منها فتتركها وتمضي ، بدا أنّ الكلاب نفسها غير قادرةٍ على تقبّل هذا المشهد السورياليّ . ربّما يتّفق من فترةٍ لأخرى أنْ يعوي كلبٌ أو تموء قطّةٌ أو ينعق غراب أو تنعب بومة هنا أو هناك ، أمّا السُّكّان فلم يعدْ لهم هنا أيّ وجود .

بدا كلّ شيءٍ شاحبًا منخطفًا والغسق ينشر رداءه القرمزيّ على الأفق ، هبّتْ ريحٌ خفيفة فأثارت رمادًا ناعمًا فراح يتطاير في دوائر عشوائيّة ويدخل في عيونهم ، تابعوا مسيرهم ، مشى الثّلاثة خلفَ العقيد ، لم يكنْ أحدٌ يدري إلى أينَ يريد أنْ يمضي . على مبعدةٍ كانتْ تتبعهم سيّارات الحراسة ، مُطفأة الأضواء حتى لا يدلّ الضّوء عليهم ، كانت عيون اللّيل لم تُغلَق بعد ، وقد تبقّى من النّهار بمقدار الذّبالة في المصباح ، على جانبي الطّريق الإسفلتي كانت الحدائق محترقة ، الأشجار احترقتْ وتعرّتْ من أوراقها ، بدت الأرض سوداء بالكامل ، بعضُ الدّخان كان لا يزال ينبعث من بعضِ الآليّات العسكريّة المُحطّمة ومن بعض البنايات الّتي تبدو في البعيد . انتشر الغُبار في كلّ مكان حتّى كاد أنْ يُغطّي على إسفلت الشّارع ، بدا واضحًا أنّ هذه الطّرق لم تسلكْها سيّارةٌ واحدةٌ منذ أكثر من شهرَين أو ثلاثة . «لِمَنْ يدمّرون بلدهم؟ أمِنْ أجل النّاتو اللّعين ، أم الغرب الصّليبيّ الكافر؟ أم تنظيم القاعدة المارق؟» . هتف لرفقائه ، لكنّهم كانوا أصنامًا لم ينبسوا بحرف . أدار وجهه إليهم ، أوقفهم بإشارةٍ من يده : «سأقول لكم» . انتبهوا . «إنّه لم يحدث أن اجتمعتْ أمّ على قائدٍ في التّاريخ كما اجتمعتْ عليّ ، أنا الّذي جاهدتُ في سبيل الله ، ووقفتُ في وجه الغرب الكافر أعرف الآن لماذا يريدون هزيمتي؟» . صمتَ ليرى ردّة

فعلهم ، لكنّ ألسنتهم لم تتحرّكْ في أفواههم ، نظر إلى سماء سِرت ، كانتْ قد بدأتْ تُصبح زرقاء غامقة ، لوّح بيديه متوعّدًا : «لن يهزمني أحدٌ أنا معي الله ، والّذي يكون الله معه لن يُهزَم» . أنزل يديه ، ومشى . مال منصور إلى عزّ الدّين : «القائد بدأ يهذي ، ليس معه غيرُنا» . نظر عزّ الدّين في عينَيه بحِدّة : «ليس هذا وقتُ مثل هذا الكلام» . «أنا أريدُه أنْ يخرجَ من خياله ، إذا لم نُغادِر سِرت في غضون أيّام فسنُدفَن تحت رُكام البنايات الّتي نقطنها . هل تعرف معنى ذلك؟» . نظر في عينَي يونس : «أنتَ أقربُ النّاس إليه ، ربّما تستطيع أنْ تقنعه بالخروج من القاطع رقم (٢) بأسرع وقت» . ردّ يونس : «لا يمكنني فِعل ذلك» . «لماذا؟» . «ما زلتُ أخافه إلى اليوم» .

وقف الأربعة ، فتوقّفتْ من خلفهم سيّارات الحراسة ، والجنود ، نظر العقيد إلى الأفق الممتدّ أمامه ، في الماضي كان يسعى لاستقباله هنا أكبر قادة العالَم ، اليوم يسير متخفّيًا كأنّه لِصّ في الشّوارع ليس معه إلاّ ثلاثةٌ من المحاربين القُدامى ، كادتْ دموعه تنسكب في داخله ، لكنّه طمأنَ نفسه : «يأتي النّبيّ يوم القِيامة ومعه الواحد والاثنان ، ويأتي النّبيّ وليس معه أحد» . على امتداد الطّريق الّتي يسلكونها كانت أعمدة الكهرباء المُتفحّمة تبدو غِيلانًا تحطّ على رؤوسها آلاف الطّيور من البوم الّتي تحدّق في الخراب المزروع في كلّ مكان ، ومن تحت تلك الأعمدة كانت تتراقص الأسلاك المعدنية المعلّقة في الهواء مُصدرةً أنينًا خافِتًا . وفي البعيد كانت البيوت تبدو كأنّها قِطَع من الفحم الأسود مُتناثرة على الجانبَين بشكلٍ عشوائيّ .

«أوقِدْ لي سِراجًا يا منصور» خاطبه العقيد . كان الظّلام قد حلّ . والسّماء تحوّلتْ إلى اللّون الكُحليّ ، وحده الغسق الأحمر في الأفق

العقيد خفف قليلاً من رهبة الظلام الّذي غطى كلّ شيء . نوافذ البيوت مهشّمة ، أبوابها مُحطمة ، والرّصاص قد أكل جزءًا من جدرانها ، بدتْ سرت كأنّها تهرب من نفسها ، تتبرّأ من وجودها في ذاتها ، تحاول أنْ تغادر هذا العالم المتوحّش . ردّ منصور : «لا يُمكننا» . «هذا أمر» هتف العقيد بحدّة . ردّ عليه منصور بالحدّة نفسها : «قلتُ لك هذا غير ممكن» . غلى الدّم في رأس العقيد : «أتخالفُ أمري أيّها الصّعلوك» . «الأمر لا يتعلّق بك وحدك ، نحن نحاول أنْ نحافظ على حياتنا معك» . «وتعصي أوامري ، مَنْ تظنّ نفسك؟» . «أنا منصور أعرفُ نفسي جيّدًا ، لكنْ يبدو أنّ الّذي لا يعرفُ نفسه أبدًا هو أنت» . كادت الصّدمة من عبارة منصور تُطيح بالقائد ، استند على كتف يونس ، وراح يصرخ : «أنا معي الملايين» . ارتجف ، وراح يتابع : «أنا معي الملايين ، وأنتَ مين معك؟!» . ردّ عليه منصور بصراخ مماثل : «استيقظ أيّها الأبله ، استيقظ أيّها المُغيّب ، ليس معك غيرُنا ، نحن لا نتجاوز ثلاثين شخصًا ، بقينا معك لأنّ الظّروف ألجأتنا إلى ذلك ، هربْنا من الموت المُحقّق في العزيزيّة كما هربتَ معنا ، لا تدّعي الشّجاعة في غير وقتها . تخيّل حتّى عبد الله السّنوسيّ الّذي كان يعتبرك إلهًا تركك» . تمالك العقيد نفسه ، ليفهم الجملة الأخيرة ، سأله : «تركني؟! كيف؟!» . «لقد غادرنا أمس إلى قريته قيرة متذرّعًا بحضور عزاء ابنه الّذي قتله ثوّار النّاتو» . «مَنْ سمح له بالذّهاب؟» . «أنتَ» . «أنا؟!!» . «نعم أنتَ» . «أنا لم أفعلْ» . «ألم أقلْ إنّك ما زلتَ في غيبوبتك . لقد فعلتَ ، وضحك عليك وعلينا ، وعلّقني من خصيتيّ إذا رجع» . كان صراخ العقيد مع منصور قد علا . اقترح عزّ الدّين على العقيد أنْ يعودوا : «ها قد رأيتَ سرت ، وقد رأتك ، كلاكما غريبٌ عن

صاحبه ، فلنعدْ» . «لن أعود» . «ستعود ، حياتنا تساوي حياتك إنْ لم تزدْ عليها» صرخ منصور . «اخرسْ أيّها النّكرة» أجابه العقيد . «بل فلتخرسْ أنت ، من العار أنْ يتكلّم أبناء الزّنا واليهوديّات» . «أنتَ ابن الزّانية ، لو كان عمرك أقلّ قليلاً ، لكنتُ أنجبتُك بالسّفاح من أمّك» . «أنتَ ابنُ يهوديّة قذرة» . «مهما أكنْ فلقد صنعتُ مجدًا لن تحلم الأباطرة بصُنعه ، وأقمتُ دولةً عُظمى لم تحلم روما بأنْ تكونها» . «سيتبخّر حلمكَ هذا بطلقةٍ في الرّأس» . «أنا الّذي سأضعها في رأسك أيّها الكلب» . سحبَ أقسامَ مُسدّسه الذّهبيّ ، كاد أنْ يفجّر الرّصاص في رأس منصور لولا تدخّل البقيّة . عادوا إلى القاطع الثّاني ، كان لسان منصور يثرثر : «إنْ لم ترحلوا من سِرت غدًا فسأتركها لكم . موتوا فيها كما تشاؤون ، أنا أريدُ أنْ أنجو» .

صعد العقيد الدّرجات إلى السّطح قفزًا ، حينَ صار على السّطح رأى أضواء الانفِجارات تلمع في السّماء القريبة : «لن أموت ولن أغادر ، سأقاتل حتّى آخر نَفَس ، أيّتها الفئران المختبئة تحت عباءة الصّليب الحاقد سأسحقك سحقًا ، أيّها المقاتلون ببندقيّة الغرب الكافر لن أستسلم لكم» . ثُمّ رفع صدره في الهواء عاليًا ، وهتف ببيت المتنبّي الّذي يحبّه :

الخيل واللّيل والبيداء تعرفني
والسّيفُ والرّمح والقِرطاسُ والقَلَمُ

في اللّيل العميق أوى إلى فِراشه ، كان متعبًا ، الذّكريات أنهكته ، أحلام الإمبراطوريّة العُظمى الّتي تتهاوَى أمامه أثقلته ، إنه مُوجَعٌ إلى الحدّ الذي يمنعه من النّوم أو التّفكير . عاودته خيالات الجُثث الّتي احتفظ بها لثلاثة عقود ، سمع صوتًا داخليًا يُخاطبه : «اريد أنْ أرى

جئتُ أصدقائي ، لقد اشتقتُ إليهم . . . أريد أنْ أتأكد أنهم ما زالوا يقفون إلى جانبي في هذه المحنة ، صحيحٌ أنّني قتلتُهم ، ولكنّني فعلتُ ذلك لأحتفظ بهم ، لو كنتُ قد تركتُ لهم الخيار لانفضّوا عنّي ، الحي لا أحدَ يستطيع أنْ يحكمه أو يُسيطر عليه ، ألم تأتني زوجة الكيخيا ، وأطلعها على ألبوم صوره وهو معي ، لقد كنتُ أريد أنْ أقول لها : إنّه ما زال حيًا ، إنّه ما زال موجودًا في مكانٍ ما ، لا يُمكن أنْ تبتلعه الأرضُ فجأة ، الأرضُ لا تبتلع أحدًا ، إلاّ إذا ألقى الإنسان بأخيه الإنسان فيها ، وأنا لم أفعل ، أنا احتفظتُ به لأنّه أقربُ النّاس إلى قلبي . . . أنا . . . أنا . . . أنا ظلّ الله ، أفعل ما أشاء ولن يسألني أحد ، وسألقاه يوم الحشر بروح طيّبة ، وأنا مرتاح الضّمير» .

عنّ بباله أنْ يقوم ويُشعل السّراج في الغرفة المغلقة السّتائر ، ويقرأ في القرآن ، نهض ، استوى واقفًا ، خطا خطوةً واحدة باتّجاه الخزانة التي يحتفظ فيها بمصحفه الخاص ، لكنّه ما إن خطا تلك الخطوة حتّى سقط .

(٧٤)
قاومتُ الجنونَ بالقراءة

مرّت السّنوات الأربع ١٩٩٦ - ٢٠٠٠ وهم مُتكتّمون علينا ، لا شيءَ يُعرَف ، ولا شيء يُدرَى عنّا . كانت الزّيارات تأتي إلى أهالي الضّحايا ويتلقّى الحرس الأغراض بشكلٍ اعتياديّ كأنّ السّجناء ما زالوا أحياء ، وهم قد ماتوا منذ زمنٍ بعيد .

امتلأ السّجن بعدها من جديد . لكأنّ أحرار ليبيا كلّهم مرّوا من هنا . حلّ سجناء حديثو العهد محلّ الشّهداء الّذين رحلوا ، ظلّت جدران المهاجع تتكلّم عمّا حدث للشّهداء طوال أربع سنواتٍ أو يزيد ، الدّماء كانت لا تزال تلطّخ جدران السّاحات وقد حالَ لونُها إلى اللّون الأسود مع أشعّة الشّمس القويّة . بعضُ باغات الرّصاص الفارغة ما تزال متناثرة هنا وهناك ، يُمكنك أنْ تعثر في كلّ ساحةٍ على رصاصتين أو ثلاثِ فارغاتٍ . حسين استمرّ في توزيع الطّعام مع أبناء الشّعب على السّجناء الجُدُد ، كانتْ لا تزال آثار الطّلقات محفورةً في الإسمنت ، لا شيءَ يمحو تلك الحُفر الصّغيرة ، كان يجد أحيانًا بعضَ العِظام لأناسٍ لا يدري مَنْ هم ، بعض الشّعر العالق في النّتوءات . صار يتخيّل الرّاحلين كلّما مرّ بالسّاحة ، أكثر من افتقده فيمن افتقد هو (بشير) ، كان يتخيّل أنّه يسير إلى جانبه في توزيع الطّعام ، ظلّ حسين لأكثر من سنتين يتحدّث مع خيال (بشير) كلّما عبر السّاحات ليوزّع الطّعام على الزّنازين ، كان يسأل بشير عمّا حدث معهم في ذلك اليوم

المزوم ، وكان بشير يقص عليه كلّ شيء : «هنا قتل عبد الباسط بيوض ، وهنا سقط شهيدًا فرج البرعصي ، وهنا لفظ جمال الزّيع آخر أنفاسه» . سأله عن الشّهداء واحدًا واحدًا . عددهم له (بشير) جميعًا . قال إنهم يزيدون عن (١٢٧٠) شهيدًا . سأله حسين : «كيف استطعت أنْ تعدّهم ، وأنتَ لم تكنْ إلاّ في العنبر الرّابع» . أجابه : «لقد حاولت أنْ أساعدهم ، أنْ أبقي على حيواتهم ما استطعت ، ثلاث ساعات يا أخي طويلة جدًا حتّى يموت فيها الإنسان ، في هذه السّاعات الثّلاث حاولتُ أنْ أحافظ على خيط الحياة المتأرجح من أنْ ينقطع ، فمررتُ بأرواحهم كلّها فعرفتُها ، فعددْتُها» . سأله حسين : «وعزيز هل كان معكم؟» . «لا ، لم أره مع الّذين صعدوا إلى السّماء . ألا يعيشُ بينكم؟» . «لا أدري . ربّما . منذ ذلك اليوم المشهود لم أره» . يتذكّر حسين كيف حدّثه (بشير) عن إسماعيل تربل ومحمّد العروسي وتوفيق بن عمران ومحمّد القائد : «كانوا أبطالاً ، كلّ الّذين ارتقوا في ذلك اليوم كانوا أبطالاً» . سأله حسين : «وأنت كيف استُشهدت؟» . نظر بشير إلى السّماء : «نزل نورٌ من هناك وحملني معه إلى الأعالي» .

دخلتُ المستشفى وكان عندي مشاكل في المسالك ، وعملتُ عمليّة هناك ، كنتُ مُقيّدًا بسلسلة من الحديد قديمة جدًا ، زردات طويلة تشبه تلك الّتي قُيّد فيها عمر المختار ، وهذه السلسلة كانت بالرّجلين ، وكانتْ طويلة حوالي متر ونصف ، ومع ثقلها المُؤلم إلاّ أنّ الجميل فيها أنّك تستطيع تحريك رِجليك بحرّية وهما مقيّدتان . شعروا أنّني مرتاحٌ أكثر مِمّا ينبغي ، بعد أيّام أحضروا سجينًا آخر ، وقال الحرس : «سنضعه في قسم العِظام وهو أخطر من عليّ العكرمي ، فعلي العكرمي سجين قديم ولا نخاف منه» ، فأحضروا سلسلة قصيرة ،

وربطوا ساقيّ بها ، وبقيتُ مربوطًا بها (٤٥) يومًا لا تُفكّ عنّي حتّى في وقت الوضوء أو قضاء الحاجة . وكانت تُجبر رجليّ على الانثناء . وكنتُ أصلّي جالسًا أو مُستلقيًا . بعد (٤٥) يومًا حينَ أردتُ أنْ أثنيها في الصّلاة أصدرتْ عظامي صوتَ فرقعةٍ كأنّها كُسِرت ، وامتلأتْ رُكبتي بالسّوائل ، فأحضروا حُقَنًا لاستخراج الماء من الرّكبة ، وجبّسوا رِجليّ . وأخرجوني من المستشفى ، وأعطوني مُضادًا حيويًا ، ولكنّه لم يكنْ كافِيًا ، وكانوا يحملونني إلى المستشفى إذا اشتدّ عليّ الوجع بالبطّانيّة كأنّني كُتلة من اللحم البشريّ المتكوّم . وبقيتُ سنتَين لا أستطيع الحركة بسبب ما حدث للرّكبة وأنا مُستلقٍ في السرير ، وأقضي الحاجة حتّى وأنا في السرير ، ولازمني الألم الشّديد طوال هاتين السّنتَين . ولمّا خرجتُ من السّجن فيما بعد ظلّ ألم الرّكبة موجودًا ، ولم يذهب إلاّ عندما حَجَجْتُ بعد سنوات من خروجي من السّجن . عندما حَمَلْتُ نفسي على المشي في الحجّ مسافاتٍ طويلة!!

في عام ٢٠٠٠م ، طُرِد (عامر المسلاّتي) من الخِدمة ، كان قد خدم النّظام خدمة الأوفياء المُخلِصين بالقتل ، والذّبح ، والشّبح ، والسّحل ، والتّهديد ، والتّرعيب . . . وهكذا في يوم عاديّ من الأيّام الكثيرة جدًا الّتي تمرّ على السّجن ، قالوا لنا : «عامر المسلاّتي لم يعدْ مديرا للسجن» . لم نُصدّق ، إلاّ إذا صدّقْنا أنّنا أصبحْنا أحرارًا ، وبأنّ جدران السّجن وأسواره قد انهدّتْ!!

عيّنوا آمرًا جديدًا للسّجن ، طاف على العنابر يريد أنْ يرى السّجناء ، بكى ، رقّ لحالهم ، كانوا ينظرون بعيونٍ قد غارتْ في محاجرهم من خلف نوافذ الزّنازين ، وأصابعهم الّتي يمدّونها من تلك الطّاقات تُشبه المسامير الرّفيعة ، هتف لمساعديه : «هؤلاء بشر منتهو

الملاحيّة ، لم يعودوا بشرًا بعد اليوم ، هم على حافة الوقوع في هوّة الموت في أيّة لحظة ، هؤلاء كائنات تُحملق ، ولبسوا بشرًا كالّذين نعرفهم . هؤلاء خارج التّاريخ» . كان مُحِقًا ، تخيّل أنْ تعيش ثلاثين سنة في السّجن بكامل ما فيها من شهور وأيّام وساعات تعاني اضطرابًا في كلّ لحظة ، البرد والحرّ ، الألم والوجع ، الحزن والوحدة . . !! السّجن بالمناسبة ليس الجِدار ؛ الجِدار يُمكن أن نتعامل معه ، السّجن رفيقك ، أنْ تجد رفيقًا تقطع معه صحراء العمر ، حتّى ولو كانَ مخلوقًا آخر . فإذا انعدم الرفيق انقطع حبلُ الحياة . ولِذا كُنّا نبحثُ عن صديق ، فإنْ أعوزَنا صادقنا الحشرات ، نتكلّم مع الحشرات ، نكلمّنا مع الصراصير والعناكب والفِئران والضّفادع . . . وكنّا نكتب على جُدران الزّنزانة ما نشاء لنفرّغ الكبت الّذي في أعماقنا : «يا جاي مصيرك ماشي . . . أنا قبلَكْ ضَمّيت فِراشي» . كُنّا بهذا التّفاؤل الّذي قد يكون خادعًا نتغلّب على الكآبة القاتلة . . . كُنّا نضحك باستمرار ، نخترع النّكات لكي نضحك على مآسينا الّتي تنخر قلوبنا . . . نتبادل الأدوار في دورة الحياة . . . نعترف لبعضنا بانكساراتنا لكي نُصبح أقوى ، نتكسر أمام من نُحبّ لكي يجبر كَسْرنا بكلمة حلوة أو بنظرة حنونة .

الّذين جُنّوا أكثر من أن أعدّهم أو أعدّدهم ، لو تحدّثتُ عن واحد لبكى كلّ شيء فِيّ ، لو وصفتُ ما كان يحدث معهم لانتحبت الأوراق الّتي أخطّ عليها اليوم حياتي . أنا حافظتُ على عقلي بجهاد مرير ؛ حينَ تكون صاحب قضيّة تصمد ، حين تكون قضيّتك عادلة ، وتُشعرك بالشّرف والفخر تصمد ، حينَ تكون قضيّتك هي كلّ ما تؤمن به تُقاوم . أنا قاومتُ الجنون بالقراءة أيضًا ، أستعيدُ ما أقرؤه ، أفردُ

صفحات الكتب الّتي قرأتها في حياتي سابقًا أمام خيالي وأعيد قراءتها لكي أنجو ، لا أريد أنْ أفقد عقلي ألبتّة ، أنا مؤتمَنٌ عليه ، وعليّ أنْ أخرج من هنا منتصرًا مهما كانت الظروف . أنا قاومتُ الجنون بتوقّع الأسوأ ، كلّ مصيبةٍ مررتُ بها قارنتُها بمصيبةٍ أكبر وأعظم وأشدّ فتكًا لكي تهون عليّ ، بذلك حميتُ نفسي من الانهيار . الأبناء كانوا سلاحًا ذا حدّين ، كان يُمكن أنْ يرميك الحنين الذّابح إليهم في وادي الجنون ، أو يحميك تذكُّرهم من ذلك ؛ إمّا أنْ يكونوا نُقطةَ ضعفكَ أو قُوّتك ، أنا لم يكنْ لي أبناء ، دخلتُ السّجن عَزَبًا ، ولم يكنْ لي حبيبة ، وماتت أمّي مبكرًا وأنا في السّجن ، وأبي لم أره ، حين مات كان عمري بضعة أيّام . كان عليّ أنْ أبحثَ عن وسيلةٍ أخرى غير عائلتي من أجل أنْ أقاوم ، أن أستمرّ في المقاومة ، ومن أجل ألاّ أفقدني .

الأصدقاء الحقيقيّون يظهرون في السّجن . قد يكونون هم أيضًا جدارًا آخر يحميك من الجنون ، الأجواء الإيمانيّة مع مجموعتك أو أصدقائك أو حتّى مَنْ يُخالِفونك في الرّأي تخفّف من أنياب الوحش ، وحش الجنون الّذي لا يرحم .

(٧٥)
أيّها السّجن وداعًا

الشّاب الجديد الّذي عيّنوه آمِرا للسجن يبدو لطيفًا ومُتفهّمًا، جمعَ نزلاء عنبرنا في السّاحة وقال لنا: «أنتم ظُلِمتم، وإنْ شاء الله فَرَجُكم قريب». بالفعل ظهرتْ بوادر انفراج واضحة، صار الأكل أطيب وأدسم، صرنا عندما نطلب الذّهاب إلى المستشفى بسبب المرض يُلبّى طلبُنا على الفور. وصار يأتينا الأكل من الخارج، صرنا نأكل الأسماك ثلاث مرّات في الأسبوع، المرطّبات والحلويّات تأتينا كذلك ثلاث مرّات في الأسبوع؛ كان القذّافي خائفًا من أمريكا أنْ تُزيحه عن الكرسيّ، فبدأ يغازلها بادّعاء المحافظة على حقوق الإنسان.

أوّل دفعة إفراج في عام ٢٠٠٠م كانتْ لثمانية أشخاص منهم صديقنا الظّريف (عبد القادر الأصفر) سائق الشّاحنة، سبعةَ وعشرين عامًا قضاها في السّجن بسبب ليلةٍ واحدة! رقصَ يومَ عرف أنّه سيخرج من السّجن طربًا، جسده النّحيل بدا وهو يرقص مثل عود ذرة تتمايل أوارقه في كلّ اتّجاه. كان جسده يرقص وعيناه تبكيان! غير أنّ هؤلاء الثّمانية كانوا كذلك يرتعدون خوفًا، سَرْبَلَهُم اليأس والجزع من رأسهم حتّى أخمص أقدامهم، كانوا يخافون من أنْ يُخدَعوا؛ أنْ يُقال لهم إفراج، ويذهبوا بهم إلى منصّات الإعدام، مع كلّ مبشّرات الانفراج لم يصدّق أحدٌ النّظام، ولم يكنْ أحدٌ يأمن مَكر القذّافي.

كانت منظّمات حقوق الإنسان قد بدأتْ هي بالمطالبة بالإفراج

عنّا ، وكانتْ ليبيا مرشّحة لحقيبة حقوق الإنسان في الأمم المتّحدة . وزير الدّاخليّة يومئذٍ أصرّ على استثناء جماعة حزب التّحرير السّتة المُتبقّين من الإفراج ، فتدخّل سيف عند أبيه لكي يُفرَج عنّا من أجل الحصول على مقعد حقوق الإنسان في الأمم المتّحدة .

في العام ٢٠٠١م أفرجوا عن (٣٥) شخصًا آخرين . أستاذنا (الزّبير) الّذي قضى (٣١) عامًا في السّجن ، وهو أقدم سجين في السّجون اللّيبيّة كان أحدهم . الصّديق الّذي ظلّ نخلةً شامخةً لم تهن أو تلنْ آن له أنْ يستريح ، الفارس الّذي ظلّ مُقاتلاً طوال هذه السّنوات البعيدات السّحيقات آن له أنْ يترجلَ من على صهوة السّجن ، كُنّا نسمّيه عميد سجناء الرّأي ، أقمْنا له احتِفالاً لنودّعه . غنّينا له قصيدة الدّكتور عمرو النّامي :

سيُزهِرُ روضُ الحياة العشيبْ
ونسعدُ بالزّهرِ فوقَ الكثيبْ
ويَنفرجُ السّجنُ بعدَ انْغلاق
وينزاحُ ظِلُّ الضّلالِ المُريبْ

سلّمني (الزّبير) يومَها عمادة السّجناء ، إذ إنّني كنتُ ثاني أقدم سجينٍ بعده ، فألبسني (الكنتيرة) الّتي كان يتزيّا بها ، وكان الزّبير رجلاً طُويل القامة ، فلمّا ألبسنيها كادتْ لطولها تصل إلى رُكبَتَيّ ، وسمّاني يومَها بـ (القَيدوم) . الزّبير الّذي مكث في السّجن (٣١) سنة ، منها ما يقرب من (١٩) سنة في زنزانة انفراديّة لم يرَ فيها الشّمس ، خرج من السّجن وعمره ٧٠ عامًا ، وهو يقفز على الحبل ، لشدّة بأسه ، ومحافظته على صحّته ، ويقينه بالله ، وعدم استسلامه للهموم أو المِحن .

في نهاية آب من عام ٢٠٠٢م بدأتْ إدارة السّجن بتصويرنا ، بأخذ بصماتنا ، وجاؤونا قبل الفاتح من سبتمبر بثلاثة أيام وقالوا لنا : تكتبون طلبًا ، إلى مدير الأمن الدّاخليّ تشرحون فيه وضعكم وتأملون منه الإفراج» . فصرخ الكاجيجي : «لن أكتب حرفًا واحدًا» . فهدّأتُ من أمره ، وقلتُ له : «لا تكتب أنت ، سأكتب أنا ، ليس في العُمر يا صديقي ما يكفي لثلاثين سنةً أخرى» . وقلتُ له : «نكتب كلمات بسيطة للقذّافي ليس فيها خضوع ولا خنوع» . فردّ مُغضبًا : «والله أموت في اليوم مئة مرّة ولا أكتب كلمةً واحدة لهذا الكلب» . فقلتُ له : «يا كاجيجي من فضلك ، من طولك ، ترانا تعبْنا ، ترانا دهِشْنا ، هل تظنّ أنّ لدينا ثلاثين سنةً أخرى من عمرنا لنعيشها في السّجن» . فلم يتزحزح . فاتّفقتُ مع صديق آخر لي ، فكتبْنا باسمه وباسم الزهوني الّذي رفض الكتابة هو أيضًا . فسألنا وهو يقرّع بنا : «كتبتمْ له يا خوّارين؟» . فقلنا له : «لم نكتبْ له ، بل كتبْنا لابنته عائشة ، وهو أهون الشّرّين ، تراني يا أخي مثلك لم أتغيّر ، ولكنّني تعبتُ ، أريدُ حياةً غير هذه الحياة» .

قال القذّافي في خطاب له في ١-٩-٢٠٠٢م : هناك زنادقة أنا حابسهم من ثلاثين سنة الآنَ أصدرتُ أمرًا بالإفراج عنهم ، وكان يقصدنا ، الّذين سجنتُهم قبل سُلطة الشّعب . سلطة الشّعب في عام ١٩٧٧م .

جاءنا أحد ضُبّاط السّجن وقال لنا : «مدير الأمن الدّاخلي يريد أنْ يراكم» فخرجنا في اللّيل ، كان منظرًا فجائعيًا . صُعقت ، لأوّل مرّة أرى اللّيلَ منذ عشرين عامًا . لأوّل مرّة أرى هذا الفضاء الطّلق بهذه الرّحابة ، شيء ما ليس معقولاً وخارج دائرة التّصديق يحدث . . هل نحلم ، هل

نتخيّل .. هل اللّيل بكلّ هذا الجمال .. هل نحن نرى ذلك في الدّنيا أم في الآخرة؟ أنحن أحياء أم موتى؟ أمعقولٌ أنّ ثلاثين سنةً من عمرنا سنرميها خلفنا ونخرج؟! أمعقولٌ أنّنا سنغادر هذه الجُدران الضّيقةَ والزّنازين المرعبة إلى غير رجعة؟! كانت السّماء لوحةً فنّيّة باهرة الجمال، كنتُ أمشي وعيناي مُعلّقتان فيها، يقودوننا في ساحات السّجن إلى الإدارة وأنا أحلّق في البعيد، في السّماء العالية، ليس من السّهل أنْ أصدّق أنّني أرى السّماء بهذه الحرّيّة؟ هل يُعقل أنْ يبتلع العطشان المُحيط دُفعةً واحدة؟! كانت السّماء مزدانةً بالنّجوم، مُرصّعةً بالكواكب، صافية، عالية، حُرّة، مُدهشة، أخّاذة، وكُنّا لا نزال غير مُصدّقين.

في الطّريق قلتُ للكاجيجي: «أرجوك ألاّ تتكلّم في حضرة مدير الأمن الدّاخليّ... نترك مدير الأمن يتحدّث براحته، حتّى إذا انتهى من كلامه مهما كان كلامه، أنا الّذي أردّ عليه، كلّ ما أطلبه منك يا حبيبي هو الصّمت، الصّمت فقط». لم يُعجبْه كلامي كثيرًا. دخلنا، فتوجّه مدير الأمن إلى الكاجيجي بالسّؤال دون سواه، فقال: «أنتَ من أين؟». فردّ عليه: «من هُون». فقال مدير الأمن: «والله ناس هون طيّبون، فكيف أنت منهم؟!». فردّ عليه الكاجيجي: «وأنا أيضًا طيّب». فقلتُ في نفسي: «بداية سيّئة». لكنّ مدير الأمن نفسه رأى أنّ الأمر لم يعدْ يحتمل المناكفة، فتدارك، وقال: «يا شباب، أنتم عملتم ضدّ بلادكم، ونحن عاقبناكم، ثلاثين سنة، عاقبناكم أكثر ممّا يجب، ما تخلّوش اليهود والأمريكان يضحكوا علينا، تطلعوا، ترجعوا إلى أعمالكم، تنحسب لكم ٣٠ سنة في درجتكم الوظيفيّة، تأخذوا رواتبكم، تستأنفوا حياتكم من جديد... ونحن سنجعل لكم احتفالاً في ٤ سبتمبر ٢٠٠٢م». نقلونا بعدها إلى سجن عين زارة

تأهيلنا وتمهيدًا للإفراج عنّا ، كنّا نحن الثلاثة في ساحة السّجن الجديد ، أنا ، والحاجّ صالح ، والكاجيجي في وسطنا ، همس الكاجيجي : «يا خُوي ، ألم أقلْ لك نطلع مُعزّزين مُكرّمين ، كلمة واحدة لا نكتبها لهذا الطّاغية» . ولم يكنْ يعرف بأمر كتابة الاستعطاف ، فقلتُ له : «والله أهنّئك على ثباتك الأسطوريّ ، تلقاك صاحب رؤية ثاقبة ، والله اقتنعتُ بكلامك منذ اليوم الأوّل الّذي التقينا فيه قبل ثلاثين سنة ، أنت ارتاح ، ترى أنتَ كتبْت» . فشهق ، ثمّ صاح : «كيف؟» . فقلتُ : «أنا كتبتُ عنك» . فرأيتُ العجْز والأسى في عينيْه ، والغضبَ والحُزن معًا ، وصرخ : «فعلتَها يا خوي ، ما كان أغنانا عن ذلك» . فقلتُ : «لقد كتبْتَ وانتهى» . فردّ وهو يكزّ على أسنانه : «فعلتَها يا صديقي ، فعلتَها يا رفيق دربي» . فرددتُ عليه : «فعلتُها وأباها يا رفيق ، العُمر مَرّ . مرّ ببطءٍ قاتلٍ هنا ، ولن ينتظرنا ثلاثين سنةً أخرى» . فردّد مغمومًا : «لقد قلتُ لك ستأتينا الدّنيا صاغرةً ، ولكنّك لم تسمع لي» .

خرجَ الكاجيجي من السّجن ، وجدَ امرأةً كانتْ له وطنًا بعدَ أنْ فقد الوطن ، تزوّج ، وسارت الحياة كما شاءتْ له إرادة الله ، فرِح بابنه ، وبناته الأربع اللّواتي صِرنْ أقماره في الدّجُنّة ، عاشَ مع عائلته حياةً جديدةً ، لكنّ الحياة ما بين الزّمنَين يصعبُ تفسيرها ، يصعبُ وصفُها ؛ السّؤال المُعلّق في رقابنا منذ أنْ خرجْنا من السّجن : «ما الحياة؟» . يستمرّ تدفّق العمر ، اندلاقه في قنوات تصبّ في نهاية لا تعود . بعد السّجن ، ذهب الكاجيجي إلى بلده (هون) في سيّارته فعَمِلَ حادثًا ، انقلبتْ به السّيارة ، وأُصيبَ بالشّلل ، ونُقِل إلى مستشفى الأعصاب في طرابلس ، زرتُه هناك ، وتذاكرتُ معه الأيّام الخوالي ، فجاءه الطّبيب

الّذي سيُجري له العمليّة الدّقيقة . قال له الكاجيجي : «اشرح لي العمليّة كيفَ تكون؟» . فشرح له الطّبيب العمليّة ، فقال له الكاجيجي : «عندي سؤال إضافيّ : هل سأمشي بعد العمليّة أم لن أمشيَ؟» . فردّ عليه الطّبيب : «هذا في عِلم الله» . فردّ الكاجيجي : «هاتِ أوقّع لك على القبول بإجراء العمليّة ، الآن اعملها ، لأنّ عقيدتك سليمة ، فلو قلتَ أنّني سأمشي ما كنتُ سأعمل العمليّة ، لأنّ هذا بيد الله» . ويشاء الله أنْ تنجح العمليّة نجاحًا منقطع النّظير ، وبالعلاج الطّبيعيّ يتمكّن الكاجيجي من المشي من جديد ، فيقول : «يبدو أنّنا نستعدّ من جديد لحياة جديدة» .

ليلة الإفراج جاءني مدير الأمن الداخليّ ونحن خارجون ، فقال لي : «القنوات التلفازيّة كلّها ستكون حاضرة ، فأريد منك أنْ تقرأ برقيّة تشكر فيها القائد على العفو» . فأجبتُه : والله لن يكتبها عليّ التّاريخ ، أنا دفعتُ ٣٠ سنة من حياتي ولن أقف هذا الموقف» فتدخّل أستاذ جامعي مكث في السّجن (١٧) سنة ، وكان من المُفرَج عنه معنا ، وقال : «أنا أقرأ هذه البرقيّة» ، وأراد بذلك أنْ يُنجّيني . وكان هذا الأستاذ الجامعيّ إمامنا في الصّلاة في الحبس .

أوّل تلفاز عمل معي مقابلة ، هو التّلفاز الإيطالي ، تقدّم نحوي المُذيع ، فقلتُ له : أهلاً يا (باولو) . فنظر إلى مندهشًا ، واستغرب أنّني أعرفُ اسمه ، فذكرتُ له أنّني تعلّمتُ الإيطاليّة في السّجن ، وكنتُ أحضر نشرتك الإخباريّة وكان اسمُك يظهر في النّشرة كمُقدّم . فسألني بالإيطاليّة : «كم مكثت في السّجن؟» . فقلتُ له : «ثلاثين سنة» . فقال لي لأنّه لم يصدّق : «ثلاث سنوات» . فكرّرتُ له مؤكّدًا : «ثلاثين» . فكاد يُغمَى عليه .

(٧٦)

الجلادون يرحلون أيضاً

ليسَ من شيءٍ يذهبُ هباء . لكلّ عملٍ جزاء . الحياة دورة حائلة ، فرحُها كحُزنِها زائلان . وليلُها كنهارِها ماضيان ، ونحن ندّخر ما عملنا . يشهد الله أنّ ليبيا كانتْ قطعةً من القلب ، يشهد الله أنّنا أحببْناها إلى حدّ الذّوبان ، وإلى حدّ ألاّ نتردّد في افتدائِها بأرواحنا ولو لم تطلب ذلك . لم نقتلْ ، لم نسرقْ ، لم نكذبْ ، لم نعتدِ على أحد ؛ كلّ ما نعلْناه أنّنا قُلنا كلمةَ حقّ ، ولم نكنْ ندري أنّ ثمنها ثلاثون سنةً ، دفعْناها من أعمارنا ، من شبابنا ، ومن حياتنا القصيرة القصيرة ، ولكنّنا رغم ذلك غير نادمين ولا آسِين .

ثلاثون عامًا كانتْ مدرسة . رأيتُ المعنى الحقيقيّ للصّبر وعِشتُه ، عرفتُ أنّه لا عظيم أمام الله ، فاستهنْتُ بكلّ شيء ، وألاّ كبيرَ أمام قُدرته فلمْ ألجأ لسواه . تعلّمْتُ أنّ التّعايش خيرٌ من التنافر ، وأنّ التحابَ خيرٌ من التّباغض ، وأنّ التّقارب خيرٌ من التّباعد ، وأنّنا كلّنا لآدم ، فقبلتُ كلّ واحد دون أنْ أغيّر من مبادِئي ودون أنْ أَهُون في عقيدتي . تعلّمتُ أنّ الجماعة خيرٌ من الفرد ، وأنّ الإنسانَ إذا قسّم نفسَه على المجموع ربح ، تعلّمتُ ألاّ أعيشَ لذاتي ، حتّى لا أكون وحيدًا ، فأنزوي ، فأضمحلّ ، كان عليّ أنْ أتشارَكَ مع الآخرين كلّ شيء ، كانت المحنة تجمعنا فتُذيبُ بيننا الفوارق ، ولو أنّنا تشبّثْنا بتلك الفوارقَ لهلكْنا . تعلّمْتُ أنّ التّاريخ يسع كلّ الآراء وكلّ الأفكار وكلّ

العقول ، ولا يحتفظ منها إلا بما كان صالحًا أو نافعًا للنّاس .

في النّهاية ليس لأحدٍ منّا جميعًا إلاّ عمره المكتوب ، وقَدَرُه المخطوط في اللّوح المحفوظ ، فلِمْ نتنافسْ لكي نحظى بفوزٍ موهوم ، ولم نحزنْ على ما فات ، ولم نتمنَّ أنْ نكون مكان الآخرين ، كانتْ حظوظنا في الدّنيا عادلة وإنْ لم تكنْ متساوية! كان العبدُ فيها يتساوى مع السّيّد ، والصّغير مع الكبير ، والّذي قضى عامًا مع الّذي قضى ثلاثين عامًا ، والّذي خرج حيًا منه أو خرج جُثّة ، كانت الدّنيا غربالاً لكلّ ذلك ، وفي اليوم المشهود الّذي سيُجمَع له النّاس سيأخذ كلّ واحدٍ منّا من الآخرة بمقدار ما صنع في الدّنيا .

في بداية عام ٢٠٠٤م ، كان (خيري خالد) يعيشُ أيّامه الأخيرة في مستشفى طرابلس ، كان ينظر في سقف الغرفة بعينَين زائغتَين ويستعيد شريط حياته كلّها ، أيّام الفتوّة في الشّرطة العسكريّة ، أوسمته الّتي كانت تُثقل كتفَيه ، وتلمع فوق صدره ، صراخه المُخيف ، جسده العِملاق ، ويده الكبيرة الممتلئة الّتي كان يضرب بها على الطّاولة من أجل أنْ يُرعب الّذين يُحقّق معهم خاصّة إذا كانوا نساءً ، أيّام كان يأمر وينهى ، أيّام لم يكنْ يُرفَض له طلب ، كان النّاس من حوله ينحنون كلّما مرّ أمامهم ، ويتوسّلون إليه . . . ما الّذي حدث حتّى تتغيّر الأمور ، اليوم لا أحَد حوله ، ولا حتّى أبناؤه أو أقرباؤه ، وحيدًا مرميًا مثل كتلة مهملة فوق سرير وثير في جناح خاصّ ، وماذا يُفيد السّرير الوثير إذا كان كلّ هذا الألم لا يُشاركه فيه أحد!!

زاره عبد الله السّنوسيّ وهو يُحتَضر ، كان مُمتقع اللّون ، شاحب الوجه أملس ، وعيناه مُغمَضتان ، وجفناه أزرقان متورّمان ، ورأسه حليقة بالكامل ، وقد بدتْ فيها بعضُ الخطوط الحمراء . هزّه السّنوسيّ من

كتفه : «استيقظ . . . أنا هنا» . استيقظ ، تلفّت حوله ، رأى وجه رفيقه يغطّي سقف الغرفة فوقه ، حاول أنْ يبتسم ، لم يستطعْ ، جاءتْه الممرّضة لكي تُنهضه من أجل الدّواء . شرب ، صار قادرًا على أنْ يتكلّم . قال له السّنوسيّ : «أخبروني أنّكَ في أيّامكَ الأخيرة . . . اللّوكيما مرضٌ لعينٌ . . . لكنْ ما فيش مشلكة ، لقد عشتَ الدّنيا بطولها وعرضها» . ثُمّ ضحك . شعر خيري خالد بأنّ فصوص جمجمته تتكسّر ، تُطقطِق ، وضع يده بصعوبة فوقها ، وهتف : «عايز أعيش يا عبد الله . . . عندي فلوس كثير . . . عايز أعيش» . ضحك عبد الله السّنوسيّ بصوتٍ عالٍ هذه المرّة ، وظلّ ينظر في وجهه ثُمّ خرج .

جاءتْه الممرّضة في صبيحة اليوم الثّاني ، كان يبدو أنّ الرّوح لم تعدْ قادرةً على أنْ تسكن الجسد أطول من هذا ، حاولتْ كثيرًا أنْ تُلقّنه الشّهادة ، لكنّه كان يرفض ، ولم يستطعْ هو نُطقها ، حين يئستْ رأتْ شفتَيه تتحرّكان ، ظنّتْ أنّه يريد أنْ ينطقها ، قرّبتْ أذنَيها منه ، سمعتْ صوته الخافت الّذي ينسحب من أعماقه صاعدًا في ذبذباتٍ واهنة : «عايز أعيش . . . عندي فلوس كثير . . . عايز أعيش» . ثُمّ مات .

كان عامر المسلاتّي يجمعنا في السّجن على عادته ليخطب فينا ، قال ذات مرّة في خطبته : «يا إخوتي . . .» وأراد أنْ يُكمل ، لكنّه توقّف ، واستدرك قائلاً : «أنتم لستم بإخوتي ، أنتم تُصلّون للكعبة وأنا أصلّي للفاتيكان» . كان يأخذ كلّ ما يأتي به أهالي السّجناء حتّى الخُبز ، وكان يُطعمه للبقرة الّتي يُربّيها في حوش مزرعته ، وضع الخُبز مرّةً لها ، وجلسَ مقرفِصًا أمامها يحثّها على أنْ تأكله ، لكنّها نطحتْه بقرنَيها على مستوى الجهاز البوليّ فوقع على ظهره ، لعن البقرة

وصاحب البقرة وكلّ شيء. ثمّ قام. في عام ٢٠٠٨م أصيب عامر باحتباس في البول، وبإرهاق مستمرّ، وباضطراب دائم في دقّات القلب، قال له الطّبيب إنّ إدمانك على الكحول أدّى إلى إصابتك بالفشل الكلويّ، زعق: «أنا مثل الحصان» نظر إلى كرشه أمام الطّبيب، وضرب عليه: «أنا مربّيه في روما على النّبيذ ومستعدّ أنْ أكرع عشرين زجاجةً في اليوم». لم تجدِ معه نصائح الطّبيب في التوقّف عن التّدخين أو الخمور، أمهله الله شهورًا، لم ينفع بعدها دواء ولا طبيبٌ، وجاءه الموت راغمًا.

في عام ٢٠١١م استعاد القذّافي صوتَ سعيد راشد حين قال: «يا سيّدي القائد؛ أنا خنجرك وسيفك ومُسدّسك وبُندقيّتك، ولو أمرْتَني بإطلاق الرّصاص على أولادي، بل على نفسي، سأنفّذ، قبل أنْ يرتدّ إليكَ طرفُك». فبعثَ إليه: «كيفَ يتركني خنجري وحيدًا والعالَم كلّه يتألّب ضِدّي». كانت هذه الكلمة كافيةً لكي تُخرِجه من بيته هو وابنه وابن شقيقته، ويتوجّه إلى باب العزيزيّة ليدافع عن قائده، عندما وصل باب القيادة في العزيزيّة أراد أنْ يُفصح عن وجوده ابتهاجًا فأطلق عيارات ناريّة مُعلِنًا وصوله، ومشاركته في المعركة إلى جانب سيّده، كان الرّعب يُسيطر على قلوب جنود النّظام المنزرعين حول باب العزيزيّة، ظنّوا أنّه أحد الثّوّار، أو أنّه أحد المارقين يطلق الرّصاص من أجل أنْ يقتلهم، فبادروه بالقتل، صوّبوا نحوه أوّلاً فخرّ صريعًا، ثمّ صوّبوا نحو ابنه وابن شقيقه فقتلوهم جميعًا.

(٧٧)
العقيد

كانت الدّبّابات تجوس الشّوارع المليئة بالمياه العادمة والحجارة وفوارغ الرّصاص ، كانت سيّارات البكب أب الّتي يتمكز في ظهرها ناصٌ خلفَ رشّاشٍ أوتوماتيكيّ تنتقل من شارع لشارع هي الأخرى . الرّجال الّذين يحملون بنادقهم على ظهورهمْ كانوا يمشون خلف الدّبّابات والعربات العسكريّة ، آخرون كانوا يحملون على أكتافهم قاذفات الآر بي جي ويغذّون الخُطا نحو لا شيء .

نظر القنّاصة الّذين يعتلون أبعد بناية عن القاطع رقم (٢) في سرت من خلال مناظيرهم ، فرأوا حشودًا هائجة تتقدّم باتّجاههم ، أرسلوا تقريرهم مباشرةً إلى الضّابط المُكلّف بنقله إلى منصور من أجل أنْ يشرح له الوضع : «يبدو أنّنا انكشفنا» . دخل منصور على عزّ الدّين وعلي يونس : «علينا أنْ نُخلِي المنطقة خلال عشرين دقيقة» . هُرِعَ الثّلاثة إلى غرفة العقيد ، كان نائمًا . أيقظه منصور ، فهبّ فَزِعًا من نومه ، أخبره يونس بلباقة أنّ الأمر لا يحتمل الانتظار . هتف العقيد : «هل حضر المعتصم؟» . «نعم ، إنّه في الأسفل ، وينتظرنا لكي يقود الرّتل الّذي سيخرج من هنا ، فلديه خرائط المكان بالكامل» .

في الأسفل تحوّل المكان إلى خليّة نحل ، جنود يركضون في كلّ اتّجاه ، صيحات القادة تخترق الأجواء ويدخل بعضُها في بعض ، العسكريّون يحشون بنادقهم ، ويتحزّمون بمئات الرّصاصات الملتفّة على

خصورهم ، السّيّارات القادمة من البنايات كلّها ، كانت تتجمّع في الجهة المخفيّة من القاطع استعدادًا للمغادرة . وفي الأعلى ، كان الأربعة بلباسهم العسكريّ يستعدّون للنّزول من أجل الرّحيل . تلفّت العقيد حوله ، كادَ يبكي ، إنّه يودّع حبيبًا آخَر ، بلاده تُذبح وهو يشعر بالعجز ، لم يعدْ بإمكانه أنْ يكون رجل ليبيا الأوّل ، تساءل فيما إذا كانتْ بلاده الحبيبة قد تخلّتْ عنه ، أو شاركتْ في هذه المهزلة التّاريخيّة ، أو في هذا العبث المجنون ، وهذا العار الّذي لا يُمحى! تراجَع عن أفكاره ، الإنسان يخون أمّا الأوطان فوفيّة على الدّوام . فديتُ شعبي بروحي ، وشعبي يقتلني . تأكّد من أنّ مُسدّسه الذّهبيّ مركوزٌ بشكلٍ جيّد على جانبه ، وأنّ بدلته العسكريّة لائقة ، أشار له يونس إلى السُّلّم من أجل أنْ ينزل ، نزل الدّرجات الثّلاث الأولى ثُمّ توقّف كمن يتذكّر شيئًا .»ماذا نسيتَ يا سيّدي؟» سأله يونس . «الشّمعدان» . «لا داعي أنْ تحمله معك ، ربّما مكانه هنا أكثر أمانًا ، وقد نضطر إلى العودة إلى هنا إذا هدأت الأمور» . اقتنع . نزل درجةً رابعةً ، وتوقّف . «ماذا هذه المرّة ، ماذا نسيت؟» . «القرآن . القرآن يا يونس . إنّه في الخزانة . أريد أنْ يكون رفيقي» . «قرآنك في صدرك سيّدي . ولن يُعجزِكَ أنْ تستظهر منه ما تحفظ . دَعْنا نُعجّلْ بالرّحيل» . من تحتهم كان منصور يحثّ الثلاثة الّذين في أعلى الدّرج على النّزول سريعًا .

في السّادسة صباحًا من يوم ٢٠-١٠-٢٠١١م بدأ الرّتل مسيره ، أكثر من أربعين سيّارةً خرجت من القاطع رقم (٢) ، جلسَ يونس إلى جانب العقيد في سيّارة واحدة . احتلّتْ سيّارة المعتصم المقدّمة بعد سيّارتين ، وتوزّع منصور وعزّ الدّين على بعض السّيّارات في المُؤخّرة ، وانطلق الرّتل .

كانتْ قذائف الآر بي جي ، وقذائف الدّبّابات تُلعلع .لم يصمت الرّصاص لحظة . يبدو أنّ الثّوّار حصلوا على معلومات بوجود العقيد في القاطع رقم (٢) ، فهاجموا الموقع كالمحمومين . كانوا يُمنّون أنفسهم بنهاية تليقُ بطاغية كما كانوا يردّدون : «مَنْ فعل كلّ هذا يجب أنْ ينتهي نهايةً على قَدْر أفعاله . إنّها اثنتان وأربعون سنةً كاملةً من الرّعب» .

طيور كثيرة ، أسرابٌ لا نهاية لها من السنونوّات كانتْ تعبر عقل العقيد من كلّ زاوية ، لم يهدأ لحظة ، إنّه يحمل فوق كتفيه عقل إنسانٍ استثنائيّ . ملايين الطّيور المهاجرة لم تكفّ عن التّحليق أبدًا في فضاء تلك الرّأس المُثقَلة . مال العقيد على صاحبه يونس : «هل الأمر يتعلّق بالله؟» . لم يفهم يونس السّؤال : «ماذا تعني يا سيّدي؟» . «هل يريدُ لاعبُ الشّطرنج أنْ يستبدل ببيدقه بيدقًا آخر؟» . لم يفهم . سكتا . مرّتْ لحظاتٌ ثقيلة . كان الرّتل يتهادَى والشّمسُ تُتمّ صعودها من غيهبها . أصواتُ الانفجارات صارتْ قريبة ، «إنّها الطّائرات الفرنسيّة» زعق صوت منصور في اللاسلكي . «أين تضرب يا منصور؟» . لم يكدْ يونس ينهي عبارته ، حتّى رأى صاروخًا في المنظار المُثبّت فوق السّيّارة في مقدّمة الرّتل ، انفجرت السّيّارة الأولى واحترقتْ على الفور ، خرج منها جنديٌّ واحدٌ كان قد تحوّل إلى كتلة من اللّهيب وراح يجري على غير هدى ، الاثنان الآخران تفحّما داخل العربة . «انتبه يا معتصم . هناك صاروخٌ آخر» قال يونس حسب الشّاشة الّتي يُظهرها منظاره . وصلت الكلمات إلى مسامع المعتصم ، لكنّ الوقت كان متأخّرًا ، انفجر الصّاروخ أمام سيّارته ، كانتْ إصابة شبه مباشرة ، انحفرتْ أمام السّيّارة حفرةٌ كبيرة ، وسرعان ما انقلبت ،

(٧٨)
هل تَقبلِين بي زوجًا؟

في سنة ١٩٧٠م عادتْ أمّي من ليبيا إلى تونس ، كانتْ في مهمّة مُقدّسة ؛ ابن عمّها يريد الزّواج ، ولم يجدْ أفضل من أمّي كي تبحثَ له عن عَروس ، لبّتْ أمّي النّداء ، أدارتْ في ذهنها كلّ الجميلات الرّائعات الطّاهرات اللّواتي يصلحْن لكي يحملْن سِرّ الزّواج وقداسته ، فوقع في قلبها ابنة جارتها القديمة ، إنّها لم تغتبْ في حياتها أحدا ، ولم تنطق بسوءٍ عن أحد ، ولم تتكلّم إلاّ بخير ، فهرعتْ إلى جارتها هذه ، وخطبتْ منها ابنتها لابن عمّي ، وكتب الله لهما الزّواج .

أنجب الزّوجان ابنتهما الأولى في عام ١٩٧٣م ، ذات العام الّذي دخلتُ فيه السّجن ، وكان عمري اثنين وعشرين عامًا ، كبرتْ ابنتهما ، وصارتْ عروسًا ، وجاءها خُطّابٌ كثيرون ، لكنّ الله لم يكتبْ لها أنْ تتزوّج ، عندما دخلتُ السّجن كان عمرها أيّامًا ، وعندما خرجتُ منه كان قد صار عمرها ثلاثين عامًا ، لكأنّها انتظرت هذه الأعوام الثّلاثين الّتي قضيتُها في السّجن من أجل أنْ تكون من نصيبي . خرجتُ من السّجن ، ودلّني القلب عليها . انتظرتْ مثلما انتظرت كلّ هذه السّنوات دون أنْ يدري أحدُنا بالآخَر ، ثُمّ جاءتْني على قَدَر ، وأصلحت قلبي المثقوب ، وغطّتْ ضلعي المكشوف ، ولوّنت اللّوحة القاتمة الّتي تلطّختْ بالسّواد طوال ثلاثة عقود . كان هذا من بركة

هُرِع باتّجاهه جنود السّيارة الثّالثة ، كان جسد المعتصم قد دُفِن تحت
هيكل السّيّارة ، عيناه جاحظتان ، وأنفاسه خامدة . تراجع الجنو
مرعوبين ، أشاروا بأيديهم لتحويل مسار الرّتل . توقّفتْ السّيارة التي
أمام العقيد مباشرة ، نزل منها أحد الجنود . صعد إلى جانب السّائق
قال وهو يلهث : «تراجَع» . هتف يونس : «لا يمكن . الطّائرات تقصف
من الخلف» . «قُدْ إلى اليمين» . «المنطقة خالية وستكون هدفًا سهلاً»
«ليس أمامنا خيار» . التفَتْ سيّارة العقيد باتّجاه اليمين ، وتبعتْها عش
سيّارات أخرى . تقطّعتْ أوصال الرّتل ، تلك الّتي في مؤخرة الرّتل
أصيب عددٌ منها إصابةً مباشرة ، واستولى الثّوّار على جنودها ، ووق
منصور أسيرًا . «عزّ الدّين . . . هل تسمعني؟» هتف يونس . ردّ علي
صوتٌ يرشح بالرّعب : «نعم . أنا هنا» . «نحن حولّنا المسار . هل
تتبعنا» . «أراكم . نعم . سأكون معكم» .

لم يتبقَ غير ما يقرب من عشر سيّارات مع العقيد ، البقيّة تبعثرت
أو احترقت أو وقعتْ في قبضة الثُّوّار . قال العقيد ليونس : «لن
يصيدوني كالفأر وأنا هنا» . «إنّنا نحاول حمايتك بكلّ ما نستطيع
سيّدي» . «لن أموتَ هكذا . أنا رجل الحرب الأوّل ، أنا العبقريّ بلا
استثناء ، هل تشكّ في ذلك يا يونس؟» . «لا يشكّ في ذلك إلا
مجنون . أنتَ دخلتَ التّاريخ ولن تخرج منه» . «هل تعتقد أنّ اسمي
سيظلّ محفورًا في قلوب اللّيبيّين» . «بالطّبع ، وإلى الأبد» . «ألا يوجد
فيهم من يراني مستبداً؟!» . «قليلون ، وسيبصق عليهم النّاس والوطن
والتّاريخ . أنتَ حملتَ طرابلس كما لم يحملْ يوليوس قيصر روما
سيذكرونك إلى آخر وجودٍ لبشريٍّ على وجه الأرض . سيهتفو
باسمك . وحين تغيب ستظلّ حاضِرًا بأقوالك وأفعالك في قلو

الأحرار كلّهم . وسينسبون إليكَ أقوالاً لم تقلْها لشدّة حبّهم لك .
وسيرون في كلّ عظيم ملمحًا من ملامحك وصورةً من قسماتك . في
البحر سيعثرون على النّقود الّتي تُخلّد صورتك كأعظم إمبراطور عرفته
الدّنيا . في أعماق البحار كما في أعماق القلوب ستكون موجودًا» .
طرب العقيد أيّما طرب ، أخذتْه نشوةٌ فهزّته هزًا ، هتف : «لا أبالي
بشيء بعد الآن ، سأموت وأنا مُطمئنّ» . وجّه كلامه إلى السّائق :
«أريد أنْ أواجه هذه الجرذان ، أريد أنْ أقاتل هذه الفئران الخائفة الّتي لم
أسمع صوتَها إلاّ عبر سمّاعات النّاتو . . . هيّا» . لم يكمل عبارته ،
حتّى سقطتْ قذيفة آر بي جي في قلب السّيّارة الّتي يركبها عز
الدّين ، فقُتِلَ كلّ مَنْ فيها . عرف ذلك يونس من خلال شاشة
المراقبة ، وسيّارات الاستطلاع الّتي توافيه بالمعلومات على التّوّ . صارتْ
سيّارة العقيد مكشوفةً تمامًا . لم يعدْ يسير خلفها إلاّ سيّاراتان أو ثلاثٌ .
أيّة إصابة ستكون قاتلة تمامًا . نصحه يونس بالتّرجّل : «يُمكننا أنْ نناور
قليلاً» . لم يدر العقيد أنّ صديقه محقّ أم لا ، لكنّه لم يعدْ يثق بأحد
آخر ، توقّفتْ السّيّارة ، هبطا منها ، صرخ لهم جنودٌ آخرون باتّجاه
قنوات الصّرف العملاقة : «يمكنكم أنْ تختبِئوا هناك حتّى نستطيع
الخروج من هنا» . القذائف لم تتوقّف . الرّصاص لم يسكتْ . هُرِعَ
العقيد إلى المواسير الضّخمة . اكتشف الثّوّار حركتهم ، بدا أنّها النّهاية
الحقيقيّة . رصاصةٌ واحدةٌ شلّت يونس . سقط «انجُ بنفسك يا سيّدي .
يشهد الله أنّني أحببتُك أكثر من أبنائي . . هيّا يا صديقي . . . أمل
ليبيا كلّها وقفٌ عليك ، لا تمتْ ، أنا إنْ متّ فإنّما أنا فرد ، أمّا أنت
فأكبر من ليبيا نفسها ، هيّا إلى الأنبوب ، ريثما يجد لك الشّباب
مخرجًا» .

ركض العقيد باتّجاه الأنابيب ، كان معه رهطٌ آخَر من الحرس ، حاولوا حمايته . وصلوا إلى المجارير . اختبؤوا فيها . سكتت القذائف . صمتت المدافع . وكفّت الطّائرات عن التّحليق . كان يبدو أنّ المعركة قد انتهتْ ، أو أنّ الزّمن قد توقّف . وأنّ البحر الهادئ يستعدّ للهياج . لم يعد يُسمَع أيّ صوت . لكنْ فجأةً سُمعتْ أصواتٌ من بعيد . ارتعدتْ فرائص الجنود . إنّها لحظة الحَسْم . انهارتْ بعض الحجارة ، يبدو أنّها تدحرجتْ تحت أقدام الثّوّار . أطلّ وجهٌ من فم الماسورة بلحية شعثاء ، يلبس لباس الكوماندوس ، وتظهر على وجهه علامات الإعياء ، بدا أنّه عاش في الكهوف عشرات السّنين وخرجَ مرّة واحدة إلى الدّنيا . وقعتْ عينُه على العقيد ، لم يُصدّقْ ، حَدّق فيه جيّدًا : «هل هذا معقول؟ أنتَ معمّر» . ظلّ العقيد صامتًا ، كان يريد أنْ يضع يده على مسدّسه الذّهبيّ ويفرّغ كلّ رصاصاته في رأس هذا الجرذ الأخرق ، لكنّ يده لم تُطاوِعه . تقدّم الرّجل خُطوتَين أخريين داخل الماسورة : «معمّر . . .!!!» . تفحّصه من جديد ، صوّب إليه البندقيّة : «معمّر . . .» وراح يصرخ «معمّاااار . . . معمّاار . . . الله أكبر . . . الله أكبااار» . شحطه من الماسورة ، كان الثّوّار الآخرون قد وصلوا ، لم يستوعبوا أنّهم في مواجهة الطّاغية الكبير ، الصّنم العملاق ، الديكتاتور العظيم بشحمه ولحمه أمامهم . بدأ عددٌ منهم يصرخ : «معمّار . . . يا حقير يا معمّر . . . الله أكبر . . . الله أكبااار» كانتْ بُحّة أصواتهم مزيجًا من الدّهشة والفرحة والصدمة . لم يتمالك آخرُ نفسه ، تذكّر أخاه الّذي اغتُصِب أمامه في السّجن فسحب أقسام مسدّسه ، وأطلق النّار على رأسه ، مرّت الرّصاصة بمحاذاة الرأس ، حفّتْهُ ودخلتْ قليلاً ثُمّ خرجتْ ، سال الدّم على وجه العقيد ، كانت طاقيّته

العسكرية قد سقطتْ هي الأخرى وتعفرت بالتراب ، وديستْ بالأقدام ، تناثرتْ خصلات شعره المُضرّجة بالدّم على جانبي رأسه . صاح ثالث : «لا تقتلوه يا شباب . . لا تقتلوه يا شباب . . نريدهُ حيّاً» . دفعوا به أمامهم ، أدخل أحدهم خازوقا في مؤخّرته ، وهو يصيح : «ابن زنا ، يجب أنْ نربطه إلى السّيّارة ونسحله في الشّارع حتّى يذوب لحمُه عن عظمه» . شحطه اثنان آخران ليُنقذاه من الأيدي الّتي راحت تصفعه ، والحِراب الّتي راحتْ تنخزه ، وألقيا به في مؤخّرة سيّارة بك أب ، وانطلقت السّيّارة . كان العقيد يمسح الدّم عن وجهه ، وينظر إلى أصابعه ويهتف : «دمٌ كدم محمّدٍ يوم الطّائف» ، ثُمّ يتحسّس مكان الرّصاصة الّتي مسّتْ رأسه ، ويُعفّر رأسه بدمه وهو يهتف : «ودمٌ كدم المسيح يوم جبل الزّيتون» ثُمّ ينظر في الأفق البعيد ، ويهمس : «فلا نامتْ أعين الجُبناء» .

والدي الّتي جمعتْ بالخير ابن عمّها بأمّ زوجتي الحاليّة قبل هذه السّنين الطّوال كلّها .

قلتُ لخطيبتي : أنا معرّض للاعتقال في أيّ لحظة من جديد . وأعاني مشاكل في الرّكبة ، ومشاكل في الظّهر ، ومشاكل في المعدة ، ولا أكاد أقوى على المشي ، ولا أتحمّل أيّة لسعة من برد نتيجة السّنوات الطّويلة من الرطوبة والحياة القاسية ، ولا أملك مالاً ولا وظيفة ولا جاهًا ولا منصبًا . لا أملك إلاّ ما يكتبه الله لي ؛ فهل تقبلين بي زوجًا؟» .

قالتْ : «قبلت» . وكانتْ أجمل كلمةً سمعتُها من بعد وفاتي أمّي في عام ١٩٧٥م . بَرّدتْ هذه الكلمة لاعج الفؤاد رغم عمق الأسى وألم التجربة ، كانت هذه الكلمة هي الّتي أعادتْني إلى نفسي بعد فقد طويل .

وكان ما أراد الله ؛ تزوّجتُ هذه الفتاة الّتي وُلدت في العام الّذي دخلتُ فيه إلى السّجن . ذبحتُ خروفين ودعوتُ رُفقاء المحنة وبعض الأقارب من أجل الإشهار ، كان هذا كلّ ما أملك أو أستطيع ، وأعطيتُ العروس (٥٠٠) دينار لتجهّز لعرسها .

عندما خرجنا تعاطف النّاس معنا بشكلٍ كبير . وضعتْ قبيلتي (تمزدة) الّتي أعتزّ بها قانونًا داخليًا بعد خروجي لمدّ يد العون لي : كلّ فردٍ متزوّج يجب أنْ يدفع (١٠٠) دينار على الأقلّ ، بعضهم دفع ألفًا أو ألفين . . . وكلّ ذلك من أجل شراء شقّة ، ومن أجل إتمام الزّواج . كان عمري عندما خرجتُ (٥٢) عامًا ، بلا أبٍ ولا أمّ ولا أبناء ، وحيدًا إلاّ من تاريخي ، بلا قرار لكنّ سمعتي كانت عاليّة ، بلا قلب لكنّ زوجتي أعادتْ لي قلبي ؛ لقد كانتْ بسيطةً مثلي ، قريبةً ليّنة ، أليفة لوفة ، تعرفُ معنى أنْ يعود إليها إنسانٌ خرج من الكهوف المنقطعة عن

العالَم والتّاريخ كلّ هذه السّنوات السّحيقة ، لقد أعادتْ إلى اضطرابي هدوءه ، وإلى اختِلالي توازُنَه .

وقفتْ معي زوجتي وقوفَ الأوفياء ، وتحمّلتْ معي أعباء الحياة ، وساعدتْني على جسر الهُوّة بين الحياتَين ، لم يكنْ ذلك سهْلاً ، لكنّها فعلتْ ذلك بكلّ حُبّ وتفانٍ ، أنا مدينٌ لها اليوم بالكثير ، بالكثير الّذي ينفلتُ من العدّ أو الحصر ؛ أنا مدينٌ لها بهذه العائلة الجميلة الّتي هي عائلتنا ، بهذا البيت الّذي يضمّنا ، وبهذا القلب الدّافئ الحنون الّذي يحتويني . وبهذه الرّوح الطّيّبة النّقيّة الّتي تُظلّني .

لا يُمكنكم أنْ تدركوا كيف لرجلٍ في العَقد السّادس من عمره أنْ يندمج مع المجتمع بعد ثلاثين عامًا من الغياب ، لقد قامت بهذا الدّور الخطير على أكمل وجه ، كانتْ عطائي بعد الحرمان ، ووجودي بعد الغياب ، ولقائي بعد الفقد ، وذاكرتي بعد النّسيان .

تقدّمتُ للعمل مثل أيّ فتًى عشرينيّ يتقدّم لأوّل مرّة للعمل ، فقُبِلتُ للعملِ في شركة نفطيّة كُبرى بـ (٣٥٠) دينارًا . بعد ستّة أشهر جاءتْ رسالةٌ إلى الشّركة من الدّولة ، بتعديلِ الوضع الوظيفيّ لي ، بحيثُ تُحسَب لي (٣٠) سنة خدمة ، فأصبحتْ كبير أخصّائي القُوى العاملة ، وارتفع راتبي . وأُعطيت سيّارة جولف .

اخترتُ كمستشار لرئيس البرلمان بعد ثورة فبراير ، بقيت سنة ، ثُمّ عُدت إلى الشّركة الّتي كنتُ فيها بوظيفة مستشار موارد بشريّة . جاءتْ دعاء ، وبشرى ، ونور ، ومحمّد .

في عام ٢٠٠٤م وُلِدَ ابننا البِكر ، فَرِحْنا ، فرحتُ أنا الرّجل الّذي صار في منتصف العَقد السّادس من العمر أنّني سأصبح أبًا للمرّة الأولى في حياتي ، إنّه شعورٌ لا يُوصَف ، لقد انتظرتُ كلّ هذه

السنوات ، لأرى ابني البكر ، مضغة تتقلّب بين يديّ ، تتحرّك رجلاه ويداه ، ويصرخ ، وأراه بعينيّ وهو يكبر شيئًا فشيئًا . لكنّه قدم إلى الدنيا مُغمَض العينين ، ودون صُراخ ؛ لقد وُلِدَ ميّتًا . دخلتُ على زوجتي في المستشفى فوجدتها دامعة العينين ، تبكي ابننا الميّت . كانت تجربة قاسية ، لكنّني قلت لها : «لا تقولي ما يُغضب الربّ . لله ما أعطى ولله ما أخذ» . فقالت : «اللّهمّ عوّضني بالفقيد خيرًا» .

ذهبتُ إلى المقبرة لدفن ابني ، سألتُ حفّار القبور وكان مصريّ الجنسية عن مكان القبر . قال إنّه لا يستطيع أنْ يُجيبني ، والقبور تكون بحسب توافر المكان أو الترتيب ، سمعتُ أنّه قال : «هذا أمر يختاره الله» . وتبعته مُطرِقَ الرّأس أنظر إلى المُضغة الّتي أحملها بين يديّ كسيرًا ، وأنا أسترجع سنوات العذاب ، وأشعر بالفرحة النّاقصة ، وتمنّيتُ لو أنّه لم يمت ، وصحوتُ من تهيّؤاتي على صوت حفّار القبور يقول لي : «هنا ، هذا مكان دفْنه» . لم أكنْ أنتبه أنّه كان يسوقني أنا وابني الميّت إلى قبر لصيق لقبر والدتي الغالية ، تفاجأت : «هنا؟» . «نعم ، لا يوجد مكانٌ في المقبرة كلّها أنسبُ من هذا . إنّه وليدٌ صغير ، وهذه البقعة الصّغيرة هي الوحيدة الّتي يمكن أنْ يُدفَن فيها» . فرحتُ . لقد استقرّ ابني البكر في النّهاية إلى جوار جدّته ، وسرحتُ ؛ لا بُدّ أنّها ستأخذه معها في نزهة في رياض الجنّة!

رُزِقتُ بعدَ عام بابنتي الكُبرى دعاء في ذات اليوم الّذي مات فيه ابني البكر . ووضعتْ زوجتي بعد عامين ابننا (محمّد) في المستشفى ، كان يعاني من بعض المشاكل الصّحيّة ، أرسلناه إلى المستشفى وجاءنا التّقرير الطّبّي ، حينَ خرجنا انتحيتُ جانبًا ، وبكيتُ . فسألتني زوجتي : «الولد عنده سرطان؟» . فقلتُ : «لا» . فسألتْ : «منغولي؟» .

فقلتُ : «ثقبٌ في القلب» . فبكتْ . الآن ابني هذا أحبّ الأبناء إليّ . ثقب القلب أغلق . أتمنّى أن تتحقّق على يدَيه وعلى يدَي أبناء جيله الأهداف التي ناضلنا من أجلها وعجزنا عن تحقيقها .

ثمّ رُزقت بـ (نور) ، و(بشرى) ، بيني وبين صغيرتي الأخيرة هذه واحدٌ وستّون عامًا!

في عام ٢٠٠٨م داهمني سرطان المريء . قال الطّبيب : «عمليّة استئصال عاجلة» . بقي الأطبّاء حوالي عشر ساعات في العمليّة يستأصلونه ويستأصلون جزءاً من المعدة . أفقتُ فرأيتُ النّور يتسلّل من نافذة المستشفى ، إنّه يومٌ جديد ، إنّها حياةٌ جديدة ، كيف يُمكن أنْ يُقدّر الإنسانُ نعمةً كهذه؟! إنّ الله أرأف بنا منّا . إنّه يهبك ما لا تطلب ، ويُعطيكَ ما لا تسأل ، فكيفَ إنْ فعلتَ؟! أشهَرَ السّرطان كلّ ما يملك من أسلحة في وجهي ، قاومتُه ؛ بالصّبر والدّعاء والرّضى . لقد قاومت الجنون والموت ثلاثين عامًا ، أفلا يكون سهلاً علي أنْ أقاوم السّرطان فيما تبقّى لي من حياتي على وجه هذه الفانية؟!

في عام ٢٠١٢م جاءني زميلي في الخدمة ، وقال لي : حلمتُ ستّة أحلام ، خمسة تحقّقتْ ، والسّادس : أنتَ هذه السّنة ستحُجّ . الحجّ نداء ، والله ناداك . فحججتُ بحمد الله أنا والكاجيجي والتّرهوني ، وفي الطّريق إلى بيت الله كُنّا نحن الثّلاثةَ ندفن إلى غير رجعة ثلاثين سنةً من عمرنا في سجون القذّافي .

في عام ٢٠١٣م رُشّحتُ لجائزة فرنسا لحقوق الإنسان . زارني السّفير الفرنسيّ ، وقال لي : لقد اطّلعتُ على تجربتكم ، وأنتم ضدّ الثّأر وضدّ الانتِقام ، وعندنا في فرنسا ملفّ حقوق السّجناء ، ونريدُكَ أنْ تستلم هذا الملفّ ، وهذه (١٧) ألف يورو من أجل دعم هذا المشروع .

قلتُ له : «أنا مُستعدٌ أنْ أستلم الملفَ ، ولكنّني من ناحية المبدأ ضدَ أيّ تمويل أجنبيّ . عندنا مشاريعنا وعندنا مؤسّساتنا الوطنيّة ، وعندنا شركاتنا النّفطيّة ، ونستطيع أنْ نموّل مشاريعنا بأنفسنا» . زَمّ شفتيه وانتهى اللّقاء .

في إطار مجريات تسلّمي لجائزة حقوق الإنسان دُعيتُ إلى فرنسا ، في المؤتمر الّذي ضمّ هيئات حقوقيّة من كلّ أنحاء العالَم ، ووزراء عرب وأجانب ، ومحامين كبارًا ، قلتُ لهم : «رغم كلّ جرائم القذّافي من اغتيال الآلاف داخل ليبيا وخارجها وإعدامهم ، وقتْل الشّرطيّة البريطانيّة ، وإسقاط طائرة لوكربي ، وإسقاط طائرة UAT الفرنسيّة ، وحقن أطفال بنغازي بالإيدز ، . . . وغيرها من الجرائم الّتي لا يُمكن للعقل أنْ يتخيّلها ، لكنّ خيمته كانت محجًّا لقادة أوروبا ، برلسكوني يبوس يد القذّافي ، توني بلير يُصبح مستشارَ العائلة ، ساركوزي يفوز في الانتخابات بأمواله . . . وأمور أخرى ربّما خفيت على العارف ، كلّ هذا يعني أنكم كنتم من داعمي هذا المجرم . سادتي إذا لم تقبلوا بالمعتدلين من الإسلاميّين في جنوب المتوسّط ، فسوف تظهر لكم جماعات إرهابيّة كثيرة ، لأنّها هي الّتي ستحلّ محلّهم» . ونزلتُ من المنصّة الرّئيسيّة الّتي كنتُ أخاطب فيها هذا الجمع المشهود . عندما عُدتُ إلى ليبيا اتّصلتْ بي مُنسّقة الجائزة ، وقالتْ : «سيّد علي ، الجائزة حُجِبَتْ عنك» . فسألتُها عن الأسباب ، فردّتْ : «قالوا إنّك من الإخوان المسلمين» . قلتُ : «هَبْ أنّني من الإخوان المسلمين ، ألستم تدْعون الدّيمقراطيّة والحوار ، فكيفَ تحجبون الجائزة لفكري وقناعتي ولا تنظرون لنضالي في السّجون كلّ هذه السّنوات ، مع أنّكم تعلمون جيّدًا عبر تاريخي أنّني لستُ من الإخوان المسلمين . سيّدتي ؛ الجائزة لا

تعني لي شيئًا ، ولا تُقدّم أو تُؤخّر ، وليستْ أكثر من قناع تلبسونه على وجوهكم ، أنا دفعتُ ثمن مواقفي ثلاثين عامًا . وها أنذا أُثبت لكم أنّ قِيَم حقوق الإنسان ليستْ قِيَمًا أصيلةً عندكم ، ولا تأتي في المقام الأوّل . وأنكم تتذرّعون بها وتتستّرون خلفها» . فقالتْ : «لم تُجافِ الحقيقةِ بحرفٍ واحدٍ قلتَه . لكنْ أرجوك ألاّ تنشر ما دار بيننا» .

(٧٩)
هُناك بقعةٌ سوداء

في الأيّام الأخيرة الّتي سبقتْ ثورةَ فبراير ، كان يعنّ لي أنْ أمشي في الطّرقات ، أن أتذكّر طفولتي ، شبابي الّذي انخطف منّي في هذه الأمكنة الجميلة ، وانحبس بين الجدران المُظلمة ، من الممتع أنْ تمشي في الشّارع لا لشيء إلا أنْ تمشي ، تتخفّف من عبء الحياة الثّقيل ، تتخفّف من الذّكريات المؤلمة ، تتخفّف من أحزانك الّتي ظلّتْ معتّقة في زجاجة الجُبّ ثلاثين عامًا . المشي هروبٌ من جحور الحزن إلى فضاءات الفرح ، في شارعٍ جانبيّ ضيّق لكنّه يضجّ بالحياة والمارّة دخلتُ إلى مطعم ، وقفتُ أمام البائع ، كنتُ ملِكًا ، أملك حرّيّةَ كل حركةٍ أو كلمة أقولها ، قلتُ له : أريد (٩٠٠) غرام من اللّحم ، و(٢٠٠) غم من الكبد ، قطّعها البائع أمامي باحتراف ، كان موسيقيًا يضرب على أوتار آلته ، وكنتُ أنا أترنّم على إيقاعها . شواها أمامي ، رائحة الشّواء لذيذة ، نثر فوقها البهارات ، وقطّع إلى جانبها شرائح البندورة والخيار ، ونضّد الصّحن فبدا لوحةً فنّيّة ، صحن اللّبن الأبيض أضاف إلى الألوان الأخرى مزيدًا من البهجة ، وشراب البرتقال الّذي راح يلمع في الكأس ، ويترقرق فيها أضاف إلى اللون حركةً بديعة ، رائحة رغيفي الخبز المُدهشة ملأتْ أنفي ، فسكبتْ غمامةً أخرى من الفرح في قلبي ؛ صرختُ : «كُلّ ذلك لي . هل أستطيع أنْ آكله بكامل حرّيّتي؟!» . تذكّرتُ في اللّقمة الأولى الّذين ماتوا تحت التّعذيب

فغصصتُ ، لكنّني بلعتُها باللّبن ، تذكّرتُ في اللّقمة الثّانية الّذين ماتوا من البرد فغصصتُ فأتبعها نُجعةً من شراب البرتقال فبلعتُها ، تذكّرتُ في اللّقمة الثّالثة الّذين ماتوا من الجوع فغصصتُ ، كدتُ أقوم من المطعم ، أنا لا أستحقّ كلّ هذه النِّعَم ، في السّجن لم نكنْ نرى اللّحم لأكثر من سنة ، في السّجن لم نشربْ ماءً نظيفًا طوال عشرين سنةً ، في السّجن لم آكل لقمةً واحدةً من خبزٍ ساخنٍ طوال ثلاثين سنة . قُمتُ من المطعم بالفعل ، نقدتُ البائع الثّمن ، ومضيت . وعلى باب المطعم بكيتُ ؛ خفتُ أنْ تكون نِعَمُ الله قد عُجّلتْ لنا .

دُعيتُ إلى عمّان يوم ١١-٢-٢٠١١ لحضور مؤتمر . واندلعت ثورة ١٧ فبراير وأنا في عمّان . كانتْ أجملَ حُلُم عشتُه في حياتي . لم أكنْ أصدّق أنّ شعبًا أغلقَ عليه القذّافي علبة الكُبريت طوال (٤٢) عامًا قد خرج من قمقمه . كانت الثّورة يومئذ حدثًا جللاً ، وغامضًا ، وغير قابلٍ للتّفسير ، لا يُمكن لشعبٍ مقبورٍ أنْ يثور . تُرى مَنْ حرّك هذا الميّت طوال هذه السّنوات العِجاف ليصحوَ فجأة؟! كانت الثّورة قد اندلعتْ من قبلُ في تونس وفي مصر ، رأيتُ فيها خيرًا يستر من خلفه شرًا مُستطيرًا ، كنتُ لا أزال أعتقد أنّ الثّورة تحتاج إلى استعدادٍ أخلاقيٍّ فكريّ ، وتحتاج أنْ يقودها فلاسفة متنوّرون ، يرسمون لها طريقَها ، أو يحدّدون لها معالمها ، أمّا أنْ تكون هبّةً شعبيّة ، تتحوّل ربّما إلى فوضى في النّهاية فهذا ما كنتُ أخشاه ، لكنّني قلتُ إنْ لم يكنْ في الفوضى إلاّ أنْ تقتلع في طريقها الطّغيان فبها ونِعمَتْ!

تابعتُ الثّورة من خلال الفضائيّات وأنا في الأردنّ ، قالت لي زوجتي : «الوضع خطير في ليبيا فلا تأتِ» . فطرتُ إلى تونس ، كان وضعي الصّحّي قد بدأ بالتّراجع ، الأخبار الّتي ترد من ليبيا والقتال

الدائر بين الثوّار وكتائب القذّافي جعلتْ صِحّتي تتردّى ، فأُدخلتُ المستشفى ، كانتْ غرفة العمليّات باردة ، شديدة الأذى ، وكنتُ من أيّام السّجن يؤذيني البرد ، أيّام نخر البرد عظامي في الشّتاءات الطّويلة في الزّنازين العارية . أجريتْ لي في النّهاية عمليّة جراحيّة على الفتق وعلى المرارة . وبقيتُ شهرَين أعاني في المستشفى دون أهل ، فاتّصلتُ ببعض الأصدقاء ، وقاموا بتهريب عائلتي من ليبيا ، وجاؤوني إلى تونس .

في بداية شهر حزيران ، عُدتُ إلى المستشفى ، مراجعة دوريّة بسبب سرطان المريء الّذي أجريتُ عمليّته الجراحيّة النّاجحة في ٢٠٠٨م . أخذتْ لي صورة تشخيصيّة ، أوّل ما رآها الطّبيب امتقع وجهه وتغيّر ، وشعر بالخطر . فقال : «هناك بقعة سوداء في الرّئة ، ويبدو أنّ المرض عاد . وهناك احتمال ثان أنْ تكون هذه البقعة بسبب موجة البرد . ولكنْ سنعمل صورة (سكانر) بعد شهرَين ، فإنْ ظهرت البقعة ، فسنبدأ بالعلاج الكيماويّ» . وخرجتُ من المستشفى وأنا أحمل مزيدًا من الأمراض . كان شهر رمضان قد حلّ ، فتناولتُ المضادّ الحيوي ، ورحتُ أتضرّع إلى الله تعالى ألاّ يكون المرض قد تمكّن منّي من جديد ، كنتُ لا أزال مقاتِلاً شرِسًا ، ولكنّ أسلحتي بدأتْ هي الأخرى بالهرم . جاء موعد الفحص من جديد في أواخر آب من عام ٢٠١١م . في تلك الأيّام سقطتْ طرابلس ، وهرب القذّافي إلى سِرت . فطلبتُ من الطّبيب أنْ يُمهلني أسبوعَين فقبل الطّبيب ذلك ، كانت الأحداث تسير بسرعة ، كان الذّهول يسيطر على كلّ أحد ، لم يكنْ عاقلٌ في الأرض يتوقّع أنْ يهرب القذافي من طرابلس ، أنْ يغادر باب العزيزيّة ، لمّا رأيتُ طرابلس تسقط بيد الثّوّار فقدتُ عقلي ، وانتابني مشاعر

متناقضة . وفكّرتُ أوّل ما فكّرتُ في الذّهاب على أكثر بقعة عشتُ فيها في طرابلس . البقعة الّتي أكلتْ أكثر من نصف عمري ، السّجن ، سجن (أبو سليم) .

كان السّجن فارغًا . لم يكنْ فيه سجينٌ واحدٌ ، الثّورة حرّرتْ كلّ مَنْ كان فيه . لم أتمالك نفسي على بوّابته ، نظرتُ إلى الجدران العالية قبل أنْ أدخل ، نظرتُ إلى الأسلاك الشّائكة ، وتخيّلتُ الحرس يتمركزون في داخل تلك الأبراج ، وانتحبتُ من البكاء ، لا أدري كيف أصف تلك العلاقة الّتي بيني وبين سجن أبو سليم ، إنّها علاقة الابن بأبيه ؛ السّجن ولَدَني ، إنّها علاقةُ حُبّ الدّيار ربّما تلك الّتي أشار إليها أبو فراس ، إنها علاقة لا يمكن أنْ نُخضعها للعقل أو المنطق ، كيفَ يُمكن أنْ تحبّ مَنْ كان قاسيًا عليك؟ كيفَ يُمكن أنْ تحنّ إلى مَنْ آلمك كلّ هذا الألم ، وسبّب لك كل هذا الوجع؟! أفيكون طول العَهْد يزرع العشق ، وينزع الكُره؟!!

دخلتُ إلى العنابر ، مشيتُ في ساحاتها ، تذكّرتُ الشّهداء الّذين سقطوا في المذبحة ، تذكّرتُ رفقاء الدّرب الّذين أُعدِموا أمامي ، سقطتُ على الأرض من الحنين والبُكاء . تذكّرتُ صوتَ الحرس وهم يصرخون بنا كي نمدّ صحوننا من فتحات الزّنازين ، طرقَ سمعي صوت المزاليج قبل شروق الشّمس وهي تفتح أبواب العنابر . . . اليوم الزّنازين كلّها مشرعة الأبواب ، العنابر كلّها مفتوحة ، الأسوار كلّها خالية ، ومكتب الإدارة مهجور كأنّ داءً وبيلاً قد أصابه ، المكان بأهله ، السّجن بنازليه ، حينَ رحلوا رحل معهم كلّ شيء!

ذهبتُ إلى باب العزيزيّة ، وكر القذّافي العتيد . ركبتُ صهوة دبّابة من دبّابات الثّوّار ، كان الشّعب في قمّة الفرح لسقوط الطّاغية .

الفرح يُخفي أحيانًا خلفه المصائب. عندما تدخل إلى هنا تُصيبك الرّهبة، كأنّما شياطين الأرض تسكن هنا. كأنّ غلائل من السّحر تلفّ المكان. كأنّ وادي الجنّ بأكمله سُحِبَ إلى هنا، وعلى اتّساع المنطقة لم أجدْ فيها مسجدًا واحدًا.

كانتْ ليبيا تعيشُ عهدًا جديدًا. الطّغاة يسقطون؛ المهمّ ألاّ نستبدل بهم طغاةً جُدُدًا. عهود الظّلام تنتهي، المهمّ ألا تعود في ثياب جديدة. كان أعداء الثّورة يزرعون القنوط في قلوب النّاس: «لقد زرعتُم الخرابَ بأيديكم؛ انظروا إلى ما حلّ بليبيا اليوم». لم يكنْ أحدٌ يدري أنّ الّذي زرع الخراب هو الاستبداد، وأنّ ضريبة التّخلّص منه أشدّ من ضريبة الخضوع له أو السّكوت عنه. كان لا بُدّ من الثّورة، كان لا بُدّ من اقتلاع الطّاغية، وكان لا بُدّ في المقابل من الصّبر حتّى تُؤتي الثّورة أُكُلَها. لا بُدّ من الصّبر، لن تتحوّل ليبيا إلى جنّةٍ في سنةٍ أو سنتَين، إنّ مَنْ حوّلها إلى أرضٍ محروقةٍ عبر أربعين عامًا هو المسؤول عن كلّ هذا، وإنّنا مؤتمنون جميعًا على أنْ نعيدها خضراء يانعة، ترفل بالدّمقس وبالحرير، ولا يكون ذلك إلاّ إذا عاد الإنسان فيها إلى الإنسان!

الثّوّار لا يحفظون أدوارهم، إنّهم ليسوا ممثّلين في مسرحيّة مكتوبةٍ ومُعدّة سلفًا، لقد قاموا بالثّورة دون أيّ دافعٍ خارجيّ، كان دافعهم الأكبر هو الثّورة على الخوف الّذي كان يُعشّش في أعماقهم من نظام قمعيّ استبداديّ فظيع، وقد نجحوا في ذلك، هذا بحدّ ذاته يُعدّ انتصارًا.

عُدتُ إلى المستشفى لإجراء الصّورة الطبقيّة من أجل متابعة حالة المرض. رفع الطّبيب الصّورة أمام شاشة العرض، ثمّ التفت إليّ

وعانقني ، وهتف : «الحمد لله البُقعة اختفتْ . لم تكنْ ورمًا خبيثًا» .
وهكذا ؛ بعض الأشياء تختفي فجأة ، تنتهي في ومضة خاطفة ، تحدث في لحظة فارقة ، هكذا هي الثّورة ، الثّورة ليستْ قصيدةً تُحفظ في اللّيل لتلقى على مسامع الجمهور في الصّباح ، الثّورة ومضة ، لحظة انعطاف تاريخيّ ، حالة جنون ، مهما تفنّن الفلاسفة في مَنطَقةِ دوافعها وأهدافها .

بعض النّاس في الشّوارع تنادي بعودة القذّافي . التقيتُ في تلك الأيّام بـ (عزيز) ، كان قد أفرج عنه في عام ٢٠٠٩م ، جلْسنا على كرسيٍّ عتيق في إحدى الحدائق في عام ٢٠١٦م ، كُنّا مؤمنين بأنّهم جاؤوا بالجماعات المُتطرّفة من أجل أنْ نتمنّى رجوع الطّاغية . إنّهم يتذرّعون ببعض السّجناء الّذين ذاقوا الويلات ، ثُمّ رفعتْهم الثّورة إلى مناصب عُليا ، فتحولّوا إلى مُستبدّين ، نعم حدث هذا ، عليّ أنْ أعترف أنّه حدث ، ولكنّه مع قلّة قليلة جِدًا . ربّما لا تزيد عن واحد في المئة ، إنّها نظريّة تحوّل الضّحيّة إلى جلّاد ، إنّ الّذي صنع منهم جلّادين جُدُدًا هو ذاته الّذي جعلهم ضحيّة مُستعبَدة ، وأذاقهم ألوانًا من الويلات لا يدري فظاعتها إلاّ مَنْ عاشَها . أمّا نحن أنا والبقيّة الباقية من السّجناء الّذين قضوا مُددًا كانت الجبال تنوء من ثِقْلها ، فننادي بأنّ الوطن للجميع ، وأنّه يسعنا كلّنا ، وأنْ لا ثأر ولا انتقام ، لقد شبعْنا من الذّبح ، وأن لنا أنْ نفتح قلوبنا لكي ننهض جميعًا بوطننا الّذي نحبّ .

ربّما الرّؤوس الّتي قادت الثّورة أساءتْ لها ، لكنّ الّذي يصنع الثّورات ليس الرّؤوس ، وإنّما الجماهير ، والجماهير قادرةٌ على أنْ تُصحّح المسار في أيّة لحظة ، قد تسكت ، وقد يستمرّ سكوتها طويلاً ولكنّها في

النهاية إذا انداحتْ فإنّها تقتلع كلّ الطّغاة الجُدُد ، وتستأصل كلّ منْ أساء لعقيدتها ، الحريّة والعدالة والمُساواة .

التّاريخ يقول هذا ، كلّ الثّورات الّتي غيّرتْ مصائر الشّعوب ، حدثتْ ببطء ، التّحوّل إلى العهد الّذي يحلم به النّاس ، يحدث ببطء ، وببطءٍ شديد ، الاقتِلاع قد يكون حاسِمًا وفوريًّا ، ولكنّ التّغيير يحتاج إلى أجيال ، وحينَ تسود الرّوح الثّوريّة المجتمع فإنّها ستسير بأبنائها إلى غاياتها ، لكنّ الوصول إلى الغايات يمرّ عبر طريقٍ طويلةٍ وشائكة .

(٨٠)
لا أريدُكم أنْ تشربوا من الكأس الّتي شربتُ منها

ألقت الثّورة بأركان النّظام المتبقّين في سجن الهضبة ، دارت الأرض دورتَها ، وحال الزّمان ، وألقى في القاع مَنْ كان في القمّة ، ورمى خلفَ القُضبان مَنْ أقام تلك القُضبان . لم يكنْ أحدٌ حتّى لو شطح به الخيال ليحلم بأنّ جزّاري مذبحة أبو سليم سيُؤتى بهم صاغرين إلى الجُبّ ، وسيُرمَون في الموضع الّذي رمَونا فيه ، وأنّ الّذين كانوا يجلسون على كراسيّ الحُكم ، قد تكسّرتْ من تحتهم تلك الكراسيّ ، وسِيقوا إلى هذه السّجون وهم معصوبو الأعين!!

زُرت الجلّادين الّذين أذاقونا الويلات ، رأيتُ بوشعالة في السّجن . ناديتُه ، قام من زاوية زنزانته الضّيّقة ، ونهض من على فِراشه المُلقى بإهمال على الأرض ، كانتْ قد طالتْ لحيته ، وشابتْ ، وغزت التّجاعيد وجهه ، وانتفخ ما تحت جفنَيه كأنّهما بالونان صغيران من شدّة الإرهاق . لا أدري لماذا شعرتُ بالأسى . اقتربَ من قُضبان طاقة الزّنزانة ، تفحّصَ فِيّ ، بدا يعيشُ في عالَم آخَر ، سألتُه : «أتتذكّرني؟» . ضيّقَ عينَيه ، حاولَ أنْ يتذكر ، خانته ذاكرته ، كُنّا أكثر من خمسة آلاف سجين ، في سجن (أبو سليم) لا يُشكّلون بالنّسبة له أيّة أهمّيّة ، عوض أنْ يتذكّر واحِدًا من هؤلاء لم تكنْ له في نظره أيّة قيمة ، هتفتُ به : «أنا علي العكرميّ . كنتَ فنّانًا في إطلاق الكِلاب علينا» . هزّ رأسه مُنكِرًا . تركتُه ومضيت إلى زنزانةٍ أخرى ،

وجدتُ فيها (خليفة المقطوف) ، ناديتُه : «خليفة» فنهض متوجّسًا . شجّعتُه على الاقتراب : «أنا صديقٌ قديم» . عندما طبع وجهه الكئيب على القضبان كان بالكاد يقوى على الوقوف : «إنكم لا تلقون رعايةً صحّيّة هنا؟!» . هزّ رأسه بالنّفي . «هل عرفتني؟!» . هزّ رأسه مرّة أخرى . «أتتذكّر ذلك الّذي قيّدته بسلسلة قصيرة في المستشفى شهرين حتّى تفجّرت رُكبته» . حاول أنْ يتذكّر ، هتف وهو يشير بإصبعه : «أنتَ العكرميّ» . «أنا هو» . «والله ما عملت شيء . كنت كويّس معك» . «يا خليفة أنتَ عذّبتني . هل كنتُ أعرفُك أو تعرفني خارج السّجن؟ لماذا فعلت ذلك معي؟ يا خليفة أنا لا أملك لك من الله شيئًا ، ولم أجئ لأحاسبك ، وليست لديّ السّلطة لأحاسب أحدًا . الله حسيبُك» . تركتُه ومضيتُ . شعرتُ بغصّة في القلب ، وخزة تنسلّ ببطء لكنّها تغوص عميقًا ؛ ما السّحرُ الّذي يُمكنه أنْ يُحوّل هذا الوجه الّذي يفيضُ براءةً عندما كان طفلاً إلى وجه جلّاد ساديّ يتلذّذ بتعذيب ضحاياه؟!! كنتُ لا أزال أقفُ أمام الزنازين ، صامتًا ، تضجّ في أعماقي مئات الأسئلة ، تذكّرتُ الضبّاط الّذين كانوا مُكلّفين بالتّحقيق مع (الزّبير) ورفاقه ؛ تذكّرتُ الجلاّدين : (مفتاح رشيد) و(عبيد عبد العاطي) ، (مفتاح رشيد) الّذي قتل الكثيرين ، بدأ بقتل (عطيّة الماجري) أوّل شهيد في السّجن العسكريّ عام ١٩٧٠م ، كان (مفتاح رشيد) أكثر الجلاّدين غرابةً ووحشيّة ، كان يضع الضّحيّة بعدَ قتْله وهو مُسجّى على النّقّالة ويُجبر المساجين المُعذّبين تحت الضّرب وتهديد السّلاح بالدّوْس على جُثّة الضّحيّة ، كان بعضُهم يدوس الشّهيد وبعضُهم يتخطّاه!! تذكّرتُ كيف تسبّب هذا الجلاّد الغرائبيّ بعاهات مستديمة للمرحومَين (عبد القادر خليفة) ، و(سليمان

العبدلي) . كان الجلاّدون في تلك الوقفة يعبرون ذاكرتي واحدًا واحدًا ، كانتْ أيديهم الّتي تلطّختْ بدمائنا مازالتْ تقطرُ دمًا ، ها أنذا أتذكّر الجلاّد (مبروك القويري) الذّي لم يكنْ له من متعة أحلى من تعذيبنا ، والتّلذّذ بصرخاتنا الّتي تشقّ الأجواء ، وها أنذا أتذكّر كذلك فرج أبو سليانة الّذي لم يتعبْ طَوال شهرَين من تعذيبنا تعذيبًا متواصلاً أيّام الحصان الأسود . نفضتُ رأسي ؛ أريدُ أنْ أتخلّص من كلّ هذا الأسى ، أريد أنْ أنسى ، أريد أنْ أعفو ، أريد أنْ أبدأ من جديد .

لم يكنْ يهمّني في الحقيقة من كلّ هؤلاء إلاّ (أبو زيد دوردة) ، أحد الّذين ساعدوني عندما خرجتُ من السّجن في تسوية كثير من الأمور الإداريّة ، قبل أنْ تقلب الثّورة الطّاولة على رؤوس الجميع . دخلتُ على الأستاذ (أبو زيد دوردة) ، كان آخر منصب تقلّده هو مدير مخابرات ، وكان قبلها رئيس وزراء ليبيا ، ووزير خارجيّة ، وكان ممثّل ليبيا في الأمم المتّحدة ، وكان مسؤول السّكّة الحديديّة في ليبيا .

حينَ وصلتُ إلى زنزانته كان نائمًا في الحبس مع آخرين ، طلبتُ من مدير السّجن أنْ يسمح لي بالدّخول عليه . قَبِل إكرامًا لي ولتجربتي الطّويلة في السّجن . هززتُه من كتفيه ، لم يكنْ لأحد أنْ يهزّ أيّ ركنٍ من أركان النّظام فيما مضى ، كان قلب الحجر يرتعد لمرورهم من جانبه ، استيقظ ، عرفني على الفور ، صار يضحك ، وقال : «إيه يا عكرمي ؛ الدّنيا دوّارة» . فقلتُ له : «وتلك الأيّامُ نُداولُها بين النّاس» . كان بجانبه وزير الزّراعة ، وبعض الضّبّاط الكبار . سُرّ بزيارتي أيّما سُرور . قلتُ له : «أبو زيد أنا زُرتك لسببَين ، أوّلاً : تمنّيتُ أنّك لم تعمل مديرًا للمخابرات في آخر مسيرتك الوظيفيّة» . فقال لي : «أنام قرير العين . المهمّ ماذا قدّمتُ وماذا فعلتُ خلال وظيفتي» . فقلتُ له : «يا

أبو زيد ؛ الكأس الّتي شربتُ منها لا أريدُكَ أنْ تشربَ منها . إذا كنتَ بريئًا ، فإنْ شاء الله القضاء يُبرِّئُ ساحتَك . . . أمّا السّبب الثّاني فتكريسًا لقِيَم الوفاء ، في زمنٍ أصبح الوفاء فيه عملة نادرة . أنتَ في يوم من الأيّام ساعدْتَني» . فقال لي : «لا . الله هو الّذي ساعدَك» . فقلتُ له : «نعم ، سخّرَكَ من أجل أنْ تُساعدني» . فاغرورقتْ عيناه بالدموع . فقلتُ له : «سيّد أبو زيد ، هل ينقصك شيءٌ ، أيَ خدمة تريدها أنا رهن إشارتك» . فبدا التّأثّر الشّديد ظاهرًا على وجهه .

اليوم بعد كلّ هذه السّنوات ، بعد كلّ هذه الآلام ، بعد ما أخذتْه السّجون من لحمي وعَظمي ، وما أكلتْه من جسدي ، وما قَضَمَتْه من روحي ، أُعلن أنّني سامحتُ كلّ الجِلاّدين ، وعفوتُ عنهم ، وغفرتُ لهم ، كان على قلبي أنْ يُسامح من أجل أنْ أعيشَ حياةً جديدة ، أنْ أنسى كلّ ما مرّ بي ، أنْ أتعافَى ، أنْ أبدأ الرّحلة كأنّني اليوم ولدت . أيّها الجلاّدون ، كانت الأرض تتّسع لنا جميعًا ، كانت الحياة تتّسع لآرائنا معًا ، ما ضاقتْ بنا إلاّ شياطيننا ، لو أنّنا آمنّا بالحُبّ ، آمنّا بالإنسان المركوز في أعماقنا لما اضطررنا إلى كلّ هذا . ما أقصرَ الحياة!! ما أوجعَ الندم! ما أجمل الحبّ! ما أرقى هذا النّداء الّذي يقبل الآخَر ، ويتعايش مع الآخَر ، وينسى إساءة الآخَر ، من أجل أنْ نتخلّص من الأحقاد الّتي أسكنَها الشّيطان فينا ، ونطهّر قلوبنا من ذلك الخَبَث ، رجاء أنْ نعيشَ كما أرادَ لنا خالقُ هذه الحياة ، والذي يقضي بالحقّ في تلك الآخرة!!

في عام ٢٠١٣م تقدّمتُ إلى المؤتمر الوطنيّ العامّ بمشروع تحويل سجن أبو سليم إلى مُتحف . وافق المؤتمر ، قال إنّه سيُخصّص مكان المذبحة لإقامة مسجد ، ومكتبة ، وحديقة باسم (شهداء مذبحة أبو سليم) ، ونصب تذكاريّ تُنقَش عليه أسماء الشّهداء ، ويكون تاريخ

هذه الجريمة يومَ حِدادٍ وطنيّ تُنكّس فيه الرّايات .

بعضُ المواقف العابرة في حياة الإنسان لا تعيشُ إلاّ لحظات لكنَ أثرها يبقى مع الإنسان إلى أنْ يموت ، ما زلتُ إلى اليوم أخافُ من الأماكن المُغلَقة ، ما زلتُ إلى اليوم إذا دخلتُ دورة المياه أخاف أنْ أغلقها خوفَ ألاّ أخرج منها .

عندما أدخلوني لأخذ صورة الرّنين المغناطيسي ، أصابني الخوف من البقاء في الأنبوب ، بدأتُ أقرأ فيه سورة مريم من أجل أنْ أحتمل الـ (٢٥) دقيقة داخله ، لكنّني لم أستطعْ ، فقلتُ له : أخرجْني . هناك أشياء لا يُمكن التّخلّص منها .

المسافة بيني وبين أصغر أبنائي ٦١ سنةً . فارق السّنّ كبير ، وكان يشكّل لي هاجِسًا . أستيقظ في اللّيل فأراهم ينامون مطمئنّين فينتابني شيءٌ من الخوف ، الخوف العميق ، أخاف أنْ يذوقوا شيئًا من المرارة . أخاف أنْ يُصيبهم شيءٌ ممّا أصابني . أقرأ شيئًا من آيات القرآن وأنا أمسح على رؤوسهم ، وأغطّيهم ، وأعود إلى النّوم ، لأظلّ أفيق في كلّ ليلة أكثر من خمس مرّات .

اليوم أنا أجاهد لكي أحافظ على صِحّتي من أجل أنْ أعيشَ عمرًا أطول ؛ لأنّ أبنائي في حاجةٍ لي . عندنا قابليّة لأمراض القلب ، فأمّي ماتت بالقلب ، وكذلك أبي ، وكذلك أخي ، من أجل هذا حرصتُ ألاّ أدخّن ، وألاّ أجلس في المقاهي الّتي ينتشر فيها التّدخين ، حتّى لا يُؤثّر ذلك على صِحّتي .

اليوم نحن ننظر إلى أبنائنا لكي يحملوا الرّاية ، نحن جيلٌ مضى وغبر ، جيلٌ ما زالتْ آثار النّدوب فيه من الهزائم المتلاحقة جليّة عميقة ، هل بإمكان الجيل القادم أنْ يزرع الورد في غابة الشّوك!

(٨١)
العقيد

ساروا به ، يهتزّ جسده الأسطوري على العَرَبة ، كما لو كان جسدَ فرعون يوم الغرق ، يُطيلون النّظر في وجهه من أجل أنْ يتأكّدوا بأنفسهم أنّه انتهى . أمّا هو فكان عنهم في شُغُل ؛ كان ينظر إلى السّماء والعربة تترجرج في الطّريق المليئة بالحجارة والجُثث ، تذكّر مقولة الحلاّج وهو على الصّليب يُخاطب الله : «اغفرْ لهم ، فإنّك لو كشفتَ لهم ما كشفتَ لي لما فعلوا ما فعلوا ، ولو سترتَ عنّي ما سترتَ عنهم لما ابتُليتُ بما ابتليتُ به ، فلك الحمدُ في الحالَين» . ارتطم رأسه بقعر العربة المتأرجحة المُسرِعة ، ما زال زعيق المراهقين يصكّ آذانه من حوله ، «لم يكنْ ليحلم هؤلاء أنْ يمسّوا شعرةً من رأسي لو كانت السّماء عادلة» .

وصلوا إلى المستشفى ، أنزلوه إلى غرفة لا يدخلها أيّ أحد ، عرفها على الفور ، إنّها الغرفة الّتي كان يدخلها في العام مرّة أو مرّتَين كلّما نبحه الشّوق أو هاجَتْه الذّكرى . وضعوه في كيس أسود ، صرخ : أوّاه ، إنّه ذات الكيس الّذي وضعتُهم فيه» . سحبوه إلى الثّلاّجة ، إنّهم يحاولون أنْ يفتحوها لكنّها تستعصي عليهم ، كان يريد أنْ يقول لهم إنّه يعرف كيف تُفتَح ، لقد كان يفعل ذلك بنفسه فيما مضى ، لكنّ صوته لم يعذ له ، كان صوتُه قد غادره قبل أنْ يصل إلى بوّابة المستشفى . انفتحت الثّلاّجة أخيرًا ، أراد أنْ يعرّفهم بأماكن الجثث وبأسما

أصحابها، لكنّه تذكّر أنّه لا أحد يسمع صوته سواه، أراد أنْ يقول لهم ضعوني إلى جانب عمرو النّامي إنّه أجمل من عرفتُ خلال حياتي كلّها، لكنّ صوته سبح مثل دُخانٍ غير مرئيّ في فضاء المكان ولم يسمعه أحدٌ.

قضى في الثّلاّجة ثلاثة أيّام، زار الجُثث كلّها، لم يكنْ محتاجًا إلى أنْ يعتذر، أو يبرّر، أو أنْ يقول أيّ شيء، كانتْ أرواح السّاكنين هنا هي الّتي تقول وتشرح، كلّ خليّة تكلّمت، كلّ مسامةٍ في جسد كلّ جثّة عبّرتْ عن نفسها بلسانٍ مُبين.

بعد اليوم الثّالث احتاروا في جسده. صلّوا عليه. كان يعرفُ أنّهم سيتنازعون في طريقة دفْنه، سيتجادلون حول الطّريقة المناسبة لعظيم مثله، سمعهم يقولون: «لقد كان يُلقي بجثث معارضيه في البحر فلنُلقه في البحر... لقد كان يحرقهم ويذرّهم رمادًا فلنحْرقْه... لقد دفن كثيرًا منهم في قبورٍ مجهولةٍ في الصّحراء لا يعرفها غيره فلندفنْه هناك... لقد ألقى ببعضهم من الطّائرات وهي في الجوّ، فلنصعدْ به إلى السّماء ونرميه من هناك... لا... لا... دعونا نذهبْ به إلى مصنع الحديد الصّلب، ونصهره في أكبر محرقةٍ». لكنّهم مع طول نقاشهم لم يهتدوا إلى طريقةٍ مناسبة، «إنّهم لا يدرون أنّني أنا البحر والبرّ والسّماء... والهواء والماء والضّياء... أينما ذهبْتم بي فهي كلّها لي».

بلى أيّها المُختلفون فِيّ: «بموتي تموت معي أسرار الآلهة، بموت جسدي يموت معي سرّ الّذي عارضوا مشيئتي، لن تعرفوا متى قتلتُ الإمام الصّدر، وأين احتفظتُ بجثّته... ولا سرّ الولد ذي العام الّذي احتفظتُ به خمسةً وعشرين عامًا، ولا ما حدث للّذين كانوا أصدقاء

ي حياتي وظلّوا كذلك بعد رحيلهم مثل منصور الكيخيا . ولا الذين
حسدوا مجد الآلهة فظنّوا أنّهم قادرون عليّ مثل محمّد الشيباني . . .
نا التّاريخ والتّاريخ لا يُنسى ولا يُنسّى » .

انتهتْ

تروسنجن - ألمانيا

٢٠١٨-٧-٢٠

AYMAN AL OTOOM

طريق جهنم

الأمل ليس وهمًا كما يعتقد اليائس. الأمل حالة: انظر حولك وستجدُ كلَّ شيءٍ يحتفي بالأمل. كلّ شيءٍ يتحوّل إليه. كلّ شيءٍ يُريد أن يكونه. تخيّل أنّ الكونَ والكائنات بلا أمل: كيف يُمكنَ أن تكون هناك حياة، كيف يُمكن أن يُعبَد الله؟! الآخرةُ أمل الدنيا. الفوزُ أمل المعذَّبين. النهاية أمل المُتعَبين. الحقيقة أمل الخائفين. والعدل أمل المظلومين.

9789776541832

عصير الكتب